الإبداع العربي

رواية

الشطار

خيري شلبي


الهيئة المصرية العامة للكتاب



الشطــار ...

إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

الشطار...

خيري شلبي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠

إهـــداء

الى مصمر .. محاكاة لهزلياتها التاريخية الرائعة

خيرى شلبى

جبلت وأبناء جنسي على مطاردة الذئاب والثعالب وأشباهها ، لكنني تعلمت في هذه المدينة وفي صحبة صاحبي أن أقوى الذئاب وأخطر الثعالب هم من بني البشر . الا أنني لا أتنازل ولا أملك التنازل عن جبلتي ، فما أن يجلس صاحبي في مكان حتى أتركه وأجلس بعيدا ثم أعود فأجري نحو الجالسين معه فأتشمم رائحتهم واحدا وراء الآخر ، أنفر من بعضهم وأنجذب الى البعض الآخر ، أجري الى الخلاء المحيط فأحدده بقفزات في كل اتجاه ، أبول هنا قطرات وهناك قطرات وأكمل البول في المنافذ المفتوحة ، لاكون بذلك قد أعلنت عن وجودي في المنطقة لاى حيوان تسول له نفسه اقتحامها ، فمن أي اتجاه يجيء سوف يشم رائحة بولي فيتردد كثيرا قبل اقتحام المكان .

في البداية كنت دائم النباح اذ النباح هو الصوت الوحيد الدال على الانتماء . لكنني بمضي الزمن وجدت ألا داعي للنباح باستمرار فليس من غريب ، فزبائن صاحبي معروفون ، هم ، هم يزيد عليهم أفراد في صحبة الزبائن الأصليين ، كنت أنبح في وجوههم أول الامر ، ولكن سرعان ما تبينت ان هؤلاء مثل أولئك زبائن كرماء قصدوا الى محلة صاحبي كحكوح طلبا لمزاجهم .

لله ما أغرب هذا المزاج . يجلسون جماعات أو فرادى ، أمام كل منهم « ورقته » . أعرف ان الورق هو ذلك الذى تكتبون عليه وتطبعون ما يسمى بالجرائد تغطون بها جثث القتلى في الطرقات . أعرف هذا فعشرات الصفحات قرئت على في تكعيبة صاحبي كحكوح على انغام كركرة الجوزة . كانوا يغرقون في الضجيج وأنا وحدى الذى اتفرج واتثاءب من فرط الملل والقرف ، حتى لقد صرت كلبا عبقريا وبعضهم يلقبني بالفيلسوف كلما رآني غير مندفع نحو المهاجمة أو غير مرحب بالدخول في حملة تمزيق لحم وهلهلة ثياب ، فان هم تطاولوا كشرت لهم عن انيابي وزارت زارة واحدة أشم على اثرها رائحة الخوف تتصاعد من جوفهم . انهم عندى

بكـــل ثرثرتهم وثقافاتهم وقلحسانهم كالورق الذى يتصفحونه أو يحبرونه أو يشربونه فى غرزة صاحبى كحكوح ، اتصفحهم فأشعر بالملل والقرف ·· لهذا ولغيره فأنا مثلهم فى النهاية كلب مثقف ولكن رغم ثقافتى لا أعرف ان كنت مثقفا لاننى كلب من بنى الازرق أم اننى كلب لاننى مثقف من بنى الازرق ؟ ··

أما الورقة عنـــد صـــاحبى كحكوح فهى قطعة من الخشب المستطيلة مدقوق فوقهـا عشر مســـامير بارزة الرأس فى صفين متقابلين فى كل مســـمار يلبس حجر · والحجر ـ وانتم ســـيد العارفين ـ هو حجر الجوزة · فوق الحجر دخان معسل ، وفوقـــه ذلك الذى تشربونه ليل نهار وتخافون من ذكر اسمه ، مثل عشرات الآلاف من الاشياء التى تقومون بفعلها وتستنكرون اسمها وفعلها ··

ليس الميلاد ان يهبط الكائن من بطن أمه الى الارض . انمـــا الميلاد الحق هو ابتداء لحظات الوعى بالمكان فى المكان · وهـــكذا فاننى مولود فى غرزة صاحبى كحكوح ومنطقتها · وهـــكذا فاننى احببت هذه المنطقة برمتها فصرت اعظم مواطن على متنها ، وأظن ان الكلب هو اعظم مثل على المواطنة الحقة · اما طفولتى الحقيقيـــة الأولى فلست اذكر منها سوى ذلك المشهد الكامن دوما فى ذاكرتى ، أتذكره الآن ربما لانه حدث فى مكان كهذا ، وربما لاننى اشم الآن رائحته ، وربما لاننى عدت شريدا كمـــا كنت من زمن طفـــولتى البائسة ، ان بؤس الطفولة لا يقاس بعدد سنوات الشقاء ، بل ان الطفولة كالثوب الابيض ربما افسدته بقعة سوداء واحدة وان كانت صغيرة ··

فوق مرتفع جبلى كهذا كنت ، بكل الســـعادة ، اصارع أمى صراعا حارا ـ كده وكده ـ هى تفتعل انها عدو يهاجمنى ، أنا ارد

الهجوم ، لا يعجبها ردى ، تفعل أمامي ما يجب ان افعله ، وحدها ، ثم تعود فتنقض على حتى لأتصور انها ستفقأ عيني بأصبع قدمها أو تمزق إنفي بأنيابها ، وهي في الواقع تقدم لى طريقة الهجوم والتصدي بالذروة التي احس عندها بالوقوع في الخطر الحقيقي فيصبح الفعل المضاد بعض سلوكي كنت في لحظة نشاط وزاطه لم أعهدها في طفولتى من قبل ، وكنت قد اكتشفت انني استطيع فعل أشياء كثيرة يهتز منها بدن العدو أيا كانت قوته ، كما اكتشفت انني استطيع ـ وهذه حكمة أمي بنوع خاص ـ أن استخدم النباح والزمجرة بدقة محسوبة يضاعف من قوتي · يومها رحت اترك امي متعبة من مزاحي الثقيل ، فأتبختر بعيدا عنها منتصب الذيل مرفوع الاذنين ، أتقافز في الهواء ثم اهبط عليها من عل ، أو اصعد اليها من اسفل ، فاذا بى اسمع صراخا تمزقت منه احشائى ، كانت امى لحظتها مضروبة بنبوت فوق دماغها المحندق الجميل ، وشال من الدم يلفع رقبتها ودماغها · كانت هي قد اشتمت رائحة العدوان وكنت أنا أيضا قد شممتها · أجزم انني رأيت فزعه امى لبرهة وجيزة لكن الضربة فاجأتها قبل ان تتحرك ، فأخذت هي تجرى فوق المرتفع الموحش صارخة عاوية وبسرعة جنونية ، تقع فتتدحرج قليلا ثم تتماسك فتنهض مستأنفه الجرى كالهواء · صرت اجرى خلفها فوق شريط من دمها ممتد كحبات عقد منثور ، لحظة أوشكت على اللحاق بها كانت هي قد صعدت فوق قمة عالية ثم اختفت في الحال من فوق القمة تماما كأنها ذابت فيها · جذبنى شريط الدم المرتبط بأنفي حتى أوصلنى الى نفس القمة فاذا بى ارى في القاع مستنقعا مترامي الاطراف يمتلىء بأعشاب وحلفاء ، وأمي تنحدر اليه متدحرجة ثم تغيب في القاع ·

ستر ربنا انني اوقفت اندفاعى مرة واحـــدة ثم ارتددت الى الخلف بقفزة عالية · كان شريط الدم قمينا يجذبنى الى القاع لولا ان رائحة المستنقع كانت اقوى من كل رائحـــة ، فاستدرت عائدا

أتابع شريط الدم حتى انقطع ، فأخذت اعـــوى واصرخ وانشـال وانحط فـوق الارض الى ان هـــدنى التعب وكرهت أولئك الذين يتميزون عن جنسنا بكونهم يمشون على قدمين اثنتين ، كرهت بياض بشرتهم وسمرتها على السواء بل كرهت رائحتهم ، وقررت من فرط الغضب والخوف ان امزق لحم أول من اشم رائحته منهم • ثم اذا بى اشم الرائحة بالفعـــل فأتأهب للانقضاض واكتشف ان بداخلى قدرة كبيرة على الزمجرة • لكننى لامر ما لست ادريه على التحديد لم انقض بل لم اتحرك ، انما ركبنى الرعب فجأة ثم انكمشت على نفسى أواصل العواء الواهن من دماغ يكاد يختفى فى الجسد ••

خيرا ما فعلت • فذلك الذى يمشى على قدمين كان وياللعجب تفوح منه رائحة الود • نحيف القـــوام كالمسلة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، أستطيع الالمام بوجهه كله فيما أنا مقع فى مكـــانى لا أريم • وجهه ملىء بالاخاديد الباسمة يعانى من جفاف مزمن • اسمر البشرة أصفر الاسنان يرتدى سروالا فوقه جلباب فوقـــه بالطو كالح عرفت فيما بعد أنه كان يرتديه كولونيل المانى فى الحرب العالمية الثانية قبل ان ينتقل الى هذا الجسد عبر عدد من تجـــار الروبابيكيا • لم يكن يحمل نبوتا ولا شىء يضربنى به ، بل كان بيده ارغفة ساخنة تعطر الهواء برائحتها • كان يمشى فى حالة فلما حاذانى نظر فى مبتسما كأنه يحيينى ••

تسللت وراءه لأرد التحية بأحسن منها • اتراقص حواليه اتشمم ثيابه ولحمه ، يهوشنى تارة ويزجرنى • أخيرا امتدت يده فاقتطعت لقمة كبيرة من الرغيف الساخن ورمت بها تجاهى فسقطت اللقمة بين فكى مباشرة • من شدة فرحى بها لم اشأ زلطها فى الحال دفعة واحدة ، ظللت محتفظا بها بين فكى فيما أنا منساق وراء الرجل ، حتى دخل منطقة بها بيوت وناس كثار وضجيج وزلزلة • صرت أرسم الطريق فى عينى قطعة قطعة • دخل حارة ضيقة مليئة بالدكاكين والصناديق وأبناء جلدته ذوى القوام المسنون والوجه الأســـمر

الطحيني .. دخل بابا خيل الى أنه باب بيته فتوقفت برهة كأنما انتظر ان يأذن لى بالدخول ، فلما رايته يواصـــل السير مضيت وراءه من جديد فاذا بنا فى حارة جديدة أضيق من السابقة وفيها هدوء ، وكنت اتراقص من البهجة واطوح ذيلى ، فما أدرى الا وقطعة الخبز قد انسحبت من بين فكى بكل بساطة ، سحبها كلب عتل .

سقط ذيلى فالتصق ببطنى وتسللت جريا وراء ذلك الرجل وخيبة الرجاء تذلنى حتى رأيته يصعد سلما ضيقا عجوزا مبنيا من الاسمنت لكنه متآكل الدرجات . صعدت وراءه مسرعا وأنا اظنــه قد دخل داره ، لكننى عند الدرجة الاخيرة رأيت تلة منبسطة عليها عديد من البيوت والدكاكين والممرات القصيرة الضيقة . توقفت برهة والدموع تفح الصهد فى عينى فابتلعها . فى الباب المواجه دخل الرجل ثم اختفى . أخذت اتشمم الارض ، لوقت طويل ثم اننى استرطبت بقعة هامة انطرحت فوقها ورحت ارقب الطـــريق مستعدا للهب والانقضاض . كان الملل والجوع يفقدانى كل حماس ويقعدان بى ، الا ان الحماس كان يدب فى كلما لمحت ظلا يخـــرج من أى باب ، الى أن فوجئت بذلك الرجل يخرج الى ثانية ويقبـــل نحوى فى ود حاملا وعاء به طعام وضعه أمامى ، فاخذت ارقص حوله مثيرا ضجيجا هائلا فضربنى الرجل ببوز حـــذائه فى فمى ضربة آلمتنى . لكن هــــذه البقعة ـ مع ذلك ـ أصبحت مرقـدى ومربطى .

وبذلك صرت واحدا من بنى الأزرق بل صرت ازرقيا أكثر من بنى الازرق ، وقرأت كل تاريخهم واستمعت الى آدابهم وأساطيرهم ، حتى ذلك الكتاب الفخم المشهور بين المثقفين منهم ويتحدثون عنه دائما دون أن يقرأوه ، قدر لى ان أقرأه ، اسمه (الزرقانه) وهو عبارة عن سجل فنى يحفل بكل صغيرة وكبيرة عن بنى الازرق وان كان على هيئة قصص وحكايات مؤلفة،ان أردتم له شبيها فى دول أخرى فيكون من اشبـــاهه (الف ليله وليله) فى الديـــار المصرية المجـاورة و

(الشهنامة) فى بلاد الفرس و (الالياذة) فى بلاد اليونان حسبما أذكر . فان شئتم تعريفا جيدا جامعا شـاملا لبنى الازرق فـانني احيلكم على مقدمة (الزرقانه) حيث يقول مؤلفها المجهول :

(بســم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فيقول الراوى انه لما كانت القصص والنوادر موضوعة لافادة الناس وتسلية الخواطر لا سيما قصة بنى هلال وما جرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع والاهوال التى يشيب لها الاطفال .. فقد رأينا انه من الاوفق لنـــا ولبنى جلدنا ان نتتبع أمر أولئك الأطفال الذى شيبتهم الأهوال من كثرة الترحال في الخيال .. فاذا بهم قد صار لهم شأن غريب فى احوالهم ، حيث تكونت عندهم حصانة ضد الاهـوال امتدت الى مـا لحقهم من اجيال فصار الشيب يولد مع الاطـفال ، وصار الطفـل يأتى ليكافح الاهوال فلا ينتصر عليها بحال ، ورغم ذلك لاينشغل له بال ولا يصيبه بلبال ، ولربما أطال للأمور الحبال ، فقد علموه فى النوادر والامثال ان احتضان الاهوال من شيم الرجال ..

« ثم انه تكونت من هؤلاء الأطفال قرية كبيرة كبيرة ، لها فى كل شيء تعويذة وشعيرة ، يقال لهم بنو الأزرق الملاعين . شعارهم: ولا الضالين أمين . يجرى بين ظهرانيهم نهر خصيب ، لكنه عجيب غريب ، حيث أصـــبح ـ وهو العملاق ـ رخوا فى يد الحسيب والنسيب . ويقولون ان واحدا من قدامى الفراعين ، حلاله ان يفعل فيه الافانين ، حول ماءه الى موج سجين ، فصار النهر الى عنين .

« ولما كان بنـــو الأزرق قد دربـــوا على الأهوال من قبـــل ان يولدوا ، فانهم الى الأمان والهدوء أخلدوا . فجاءت سيرتهم سيرة ظريفة مشتملة على نوادر وأخبـــار ظريفة تتلذذ بسماعها النفـــوس والاذان والله المستعان .

« وهؤلاء القوم يعشقون النوم وتخلو حياتهم من اللوم . غير اننا نحب ان نوجه ملحوظة غير ملموزة . فبعد ان انتهينا من كتابة هذه

التغريبة الغريبة ، فوجئنا بظاهرة عجيبة ، وهى ان بعض المدن فى المناطق والدول القريبة لها أسماء تتشابه مع اسماء مدن هذه التغريبة .. فقد سمعنا ان الديار المصرية مثلا - وهى دولة على حدودنا الأمامية والخلفية - فيها هى الأخرى مدينة تسمى القاهرة.. فنحن اذن غير مسئولين عن هذه الظاهرة ، فالله يخلق من الشبه أربعين ، وكل مدينة لها قرين .. والدليل على ذلك ان هناك مدنا كثيرة على خريطة العالم تسمى الاسكندرية ، ومع ذلك فلكل مدينة تاريخ وشخصية وهويه .

« فان اكتشف القارىء الجليل انه يعرف مدنا بنفس الاسم الذى يطلق على بعض مدن حكايانا ، أو ظروفا تتشابه مع نفس الظروف فليس ذلك ضمن نوايانا ، وليس هو هدفنا وليس مرمانا. فندعوا الله العلى العظيم ان يكون من الشر ومن خسيس النوايا - قد وقانا » .

ولست أحب الاسترسال فى قراءة (الزرقانه) فهى طويلة وليست فى ذاكرتى كلها . انما أحب القول باننى أحببت بنى الأزرق منذ اتضح لى اننى فى الأصل منهم غير انى من فصيلة الكلاب ، أى أولئك الذين انحصرت مهمتهم فى الهوهوة على الآخرين بأمر الأسياد من شاكلة صاحبى .

الباب الكبير

● ما كان من أمر صاحبى كحكوج :

١

كنت أرافق صاحبى كحكوح ، حيث نغرق فى شوارع المدينة وحواريها الضيقة ، لنعود بعد وقت يقصر أو يطول . الغريب ان صاحبى لم يكن يشعر بوجودى الا وهو عائد . اذ أراه يتلفت حواليه وخلفه كثيرا فأعرف انه فى قمة الخوف وعدم الاحساس بالأمان المطلق هو هوة صغيرة أطمئن بها فؤاده . وكان يبدو منبسط الأسارير ضاحك السن . أفلم يأخذ هو الآخر مزاجه كما ينبغى لقد ظل طول النهار يبيع الحجارة للزبائن ويقبض منهم جنيهات . وفى مقتبل الليل يدخل بيوتا غلبانه الغلب كله ..

أدخل وراءه ، فنمر على أسر بكاملها تطل من غـرف متجاورة ومتقابلة لنتوقف عند احدى الغرف وندخل دون استئذان أو نحنحه. نرى سريرا ملفقـا ، يجلس عليه رجل وحوله مجموعة من رجـال محترمين جدا يلبسون الجلابيب الصـوف والبـلاطى الجوخ رغم منهم يدفع عشر عشرات من جنيهات ويأخذ ثلاث برشامات صغيرات واحدة اسمها رتيالين واثنتان اسمهما ماكس فورت ، ولوح زجاج وقطعة حديد ، بهذه القطعة فوق اللوح يطحن البرشامات حتى تصير مسحوقا ناعما يملأ علبة كبريت ، يفرغ منها على اللوح الزجاجى ويبرم ورقة سميكة يجعلها اسطوانة ، يضع طرفها فى طاقة أنفه والطرف الآخر فوق البرشام المطحون ، يشفط بأنفه جاعلا طرف الورقة الاسطوانة يزحف على الزجاج ليلتقط أى شعره سارحة . يحمر وجهه وينتفخ بالصحة والعافية وتجحظ العينان فى بهجـــة بلهـــاء .

٢

يفعل صاحبى هكذا مرة كل يوم ويدفع ثلاث ورقات بثلاثين جنيها آخذا معه تموين بقية الليل . واذ نعود الى محلنا آراه طول الطريق يبرطم بكلام أعرف منه ان فلانا وعلانا من بائعى البرشام كانوا صبيانا لديه يضربهم على أقفيتهم قبل ان يصبحوا مليونيرات تسكن فى كهوف ، ذلك ان قرص البرشام الذى يباع له ولغيره بعشرة جنيهـات ثمنـه فى الصـيدلية داخل علبته قرش تعريفه أى خمس مليمات ولكن الصيدلية لا تبيعه أبدا بل ينظر لك الصيدلى فى استنكار اذا سألته عن هذا الدواء ببراءة ويقول من بين أسنانه : « حطوه فى جدول المخدرات » ، ومعنى هذه العبارة فى الواقع انهم وضعوا هذا الدواء فى جدول المخدرات التى لايبيعها سوى التجار سرا فى الشوارع الخلفية وفى الحوارى . أما كيف يصل البرشام الى هذه الكهوف وأمثال هؤلاء الناس فذلك أمر ـ كما يقول صاحبى ـ شرحه يطول ..

كل الأمور فى نظر صاحبى شرحها يطول . لذا فهو قد أخذ على عاتقه ان يظل العمر يشرح ويشرح حتى دون ان يطلب منه ذلك ، يشرح أى شيء لأى ناس فى أى مكان فى أى لحظة . لكن لحظات الشرح تكون مجلوة ومبهجة فى مطرحه ، حيث يجيء له الولد بزجاجة البيرة ليكرعها فى ثلاث جرعات فيما هو واقف على درجة عظيمة من التحفز والجدية ، بقامته القصيرة وعوده الرفيع وعمامته المصرية المملوكية الكبيرة والبالطو .

ينثال حديثه الخطابى مصحوبا بتعبيرات من وجهه ويديه فتحس كأنه متحف شخصيات فى شخصية واحدة : على الكسار .. واعظ من قدامى وعاظ المساجد .. محام فى الأرياف .. شيخ طريقه .. ابن بطوطه .. رمسيس يخطب فى امبراطوريته .. دجال طلى الحديث يبيع شربة الدود أو تذكرة داوود .. هو كل ذلك حين ينخرط فى الحديث أمام جمهوره الغفير . جمهوره ليس سوى زبائنة من أهل المزاج الذين يتابعونه بجدية ودقة عجيبتين ، يرسلون الضحكات الصاعقة من منطقة المتداخل وعباراته الفصحى لابسه ثوب العامية أو التطجين العامى لابسه ثوب الفصحى ، حذلقة وضبط مخارج ألفاظ ليست تنطق هكذا .. وعلى كل حال فصاحبى قارىء نهم للصحف كأنها تصدر له وحده .

٣

أول شيء يفعله عند خروجه من البيت ظهرا شراء الصحف والمجلات كافة ، يصعد بها الى ربوته ، يفرش الجوال على الأرض الرطبة واضعا فوقه مخدة مصنوعة من القش ثم يضطجع ويفلى الجرائد والمجلات فى صبر خرافى . عند منتصف النهار يجيء الصنايعية واحدا وراء الآخر أو قد لا يجيء منهم أحد . فان جاء رايته دبلان الجسد والوجه يجر ساقيه ضائقا بحمل رأسه . يبدأ من فوره فى تنظيف الحجارة وتحصيتها وتعسيلها . وان لم يجيء

فلابد انه تعب من الفرح الذى استأنفوا فيه سهرتهم بالأمس حتى الصباح ، أو لابد انه قد أمسكته الشرطة للتحرى ، أو لابد انه سلم نفسه للجيش هربا من جريمة ، أو لابد ضبطوه متلبسا فى قضية سرقة ·· حتى الزبائن هم الآخرون لا يتخيرون عنهم ، من يجىء من الزبائن يجىء ومن لم يجىء « ··· » انهم جميعا أحذية فى قدمى البسها وأخلعها وقتما أشاء ··

يقول هذا ــ وفى ود عجيب ــ للزبائن أنفسهم الذين يجلسون بجواره على الكراسى القش ·· فيهزون رؤوسهم بالموافقة والتأييد كأنه يعنى أناسا آخرين ! ·· ثم انه يستأنف قراءة الصحيفة غير عابىء بوجودهم ثم ينفجر ضاحكا ضحكة سوقية حافلة بالغمز واللمز معلقا على خبرأ وعلى شخصية · تدهش ان يستطيع رجل مثله ان يلتقط مثل هذه الغمزة الزكية المثقفة التى تدل على انه يفهم ويتابع الوضع الانسانى فى أنحاء الكرة الأرضية انت فى لحظة النفور منه تفجأك لمحة تذيبك فيه ــ يصيبك تعليق من تعليقانه فى الصميم يناصرك فى موقفك الذى لم تحكه له ولم تشركه فيه ولم تعرف كيف استشف انك محير فى موقف : عراف قديم منحوت الملامح يسلط فيك عينين كخرزتين زرقاوتين كفصين من فيروز اغبر ، يلخص لك أنماط المشاغل والمشاكل والمقلقات الانسانية التى لابد تكون قد مررت بمثلها فى حياتك ، يعطيك بطاقات علاج ، عبارات بليغة مشبعة بالحكمة تتجسد فيها شخصيات عمر بن الخطاب مع عمر الشريف وعلى بن أبى طالب مع على أمين وأقوال الأئمة والسحرة وحكماء الطب القديم مدخولا عليها أسماء أدوية حديثة ، لاينسى وسط ذلك ان يعزم عليك بتلقيمة من دخان المدغة حين يخرج العلبة ويأخذ منها وريقات مع قطعة من ملح العطرون يضعهما تحت لسانه ويظل يمضغ ويبصق لوقت طويل ·· فلان أخذ وعلان جرب وترتان أدمن ، هكذا يقول لك عن اناس مشهورين جدا فى دوائر المجتمع ولهم أسماء كالطبل ، فلا يدهش المستمعون لأنهم كثيرا ما يفاجأون باحدى الشخصيات المشهورة داخلة محاطة بهالة ذاتية ، بل انهم هم

أنفسهم من المشهورين وانصاف المشهورين والنكرات ، شلة فلان معظمها من الصحفيين والفنانيين ، شلة علان من موظفى التأمينات، شلة ترتان من المحاكم والمحامين ، من أصحاب البازرات ، من ومن ومن ، لكنهم جميعا قد رخصت شهرتهم وتضاءلت نجوميتهم فى غرزة صاحبى اذ استلبها منهم أعلام جدد لايعرف أحد ما نوع عملهم بالضبط ولا حتى أسماءهم الحقيقية لكنهم يدفعون البقشيش خمس جنيهات للولد الذى يسقيهم ، بينما صاحب المطرح نفسه قد لا يزيد حسابه عن جنيهين وربما نصف جنيه · الأولاد يعرفونهم ويتبارون فى خدمتهم وباقى الزبائن فى انتظار دون ان يجرؤ أحدهم على الجأر بالشكوى ـ صاحبى تطلع زرابينه فيعلو صوته المشروخ على الدوام لاعنا آباء الحوارى والسجون التى قذفت بهم اليه يأمرهم بالحد والمصلحة ، ان يعاملوا الزبائن بذمة واحدة والا يكون البقشيش على حساب وقت الآخرين ·· لكن دافع البقشيش سوف يتلقى ابتسامة عريضة واعتذارا عميق الأسف اذا ما ترك له مهمة دفع البقشيش بمعرفته ·

تاريخ صاحبى أو ماضية ليس هو فى حاجة لأن يسرده عليك · انه تاريخ ثابت وماض قائم لا يريم ـ كل ما فعله صاحبى فى أزمنه بعيدة لايزال يفعله ، وكل ما ألم به مسبقا يلم بنا ونحن معه جلوس·

فى الأصل كان تاجر مخدرات ولا تعرف ان كان قد تاب حقا أم ان السوق هى التى لفظته لفظا · وكان صاحب مدرسة للنشل هو ناظرها ومدرسوها ومدربوها · نعم فهو ليس واحدا فى التدريس أو التدريب انما هو عشرات · يدربك على طريقة فلان وعلى طريقة علان من المشاهير فى دنيا النشل وممن قابلوه فى السجن ، ويدرس لك أشهر « الضربات » وأقواها · كيف تمكن الولد فلان من نشل كذا فى الظروف الفلانية وفات بها من الفقر ولم يكتشفه أحد حتى الآن ·

وصحيح ان صاحبى قد تاب وأغلق مدرسة النشل ولكنه نقل

نشاطه الى مرحلة متطورة · يقول لك بنفسه ـ لكى يقرب الصورة بعبارات تستخدمها الجرائد على الدوام :

لقد افتتحت مكتبا استشاريا · وانت تراه جالسا فى ركن بعيد وبجواره لفيف من ذوى ، المعاطف والوجوه القانية والساعات الغاليـــة الثمن والخواتم الذهب يشربون بشراهة ويكرعون البيرة ويبعثرون على الاولاد بضع عشرات من الجنيهات ، فاذا ما انصرفوا عاد هو اليك ولسانه يشيعهم بالتحيات ، فما تكاد رؤوسهم تختفى فى المنحدر حتى تنقلب عبارات الترحيب الى سب فاحش وبرطمة غير مفهومة · يجلس بجوارك ، يعيد عليك « تلخيصا » للقصـــة ربما استغرق أضعاف أضعاف ما استغرقته القصة نفسها من زمن وجهد وانفعال · هكذا هو كأى فرد من بنى الأزرق ، يعيش القصة الواحدة أو الحدث الواحد مرتين وربما عشر مرات فى اليوم ، المرة الأولى هى لحظة حدوث الفعل بالفعل ، الثانية حين يحكيه حتى لو لم يطلب منه أحد بل حتى ولو كان المستمعون قد شاهدوا ما حدث وشاركوا فى حدوثه ، يعيد على الأسماع ما حدث : قلت كذا فقال كذا ففعلت كيت ·· وبعد وقت يقصر أو يطول يخيل اليه انه لم يعش الموقف أو الحدث أو القصة كمـا ينبغى ، فيعيد حكايتهـــا مرة ثالثة ورابعة وعاشرة ·

٤

لصاحبى تاريخ ذو وجهين تستطيع ان تختار أيهما لتسبح فيه الى مالا نهاية · ان اخترت وجه السوابق وجدت ألف سابقة وسابقة دونتها محاضر البوليس ووقف بشأنهـــا أمام النيابات والمحـاكم واستأنف فيها واستؤنفت فيه · أما ما لم تدونه المحاضر فحدث ولا حرج · وان اخترت وجه العز وجدت ما لا يصدق · فقد جاء حين من الدهر كان صاحبى يمتلك هذا الشارع بأكمله وهو أهم شارع فى المنطقة إذ تتمركز فيه تجارات لا حصر لها ، ويتدفق فى

هذا الشارع وحده من الأموال ورؤوس الأموال ما يصلح ان يقيم دولة عظيمة لكن الذين يملكونه أوباش لا يهمهم سوى المكسب فحسب ٠

« اللى جه بلاش يروح بلاش » هكذا يقول المثل الشعبى على لسان صاحبى ، فمثلما جاءت هذه الممتلكات الى حوزة صاحبى انسحبت من بين يديه بنفس المنطق الذى أخذها به ٠

٦

من بلدة أو نجع فى الصعيد الجوانى أقبل الى العاصمه ٠ السبب هو فقيه كتاب النجع ٠ ضربه علقة ساخنة فشاله وهبده فى الأرض ثم انطلق يجرى قاصدا العاصمة التى التجأ اليها عشرات الهاربين فاحتوتهم وقدمت لهم خبزا ومأوى ٠ ظل يرتع فى شوارعها سنوات الصبا ، يفعل أى شىء مقابل الحصول على القرش ، يمسح الأحذية ، يعمل شيالا ، خفيرا ، نفرا فى الفاعل ، يسرح بعربة بطاطا ، يجرى وراء السياح قائلا : « جبت بقشيش » كان متكلما لطيفا ، كأن مخلوقا أدميا صنعه ، يلفت الانظار ، كان أيضا حكيما فى سلوكه أمينا ولكن كصفقة يستتر بها عريه مؤقتا ٠

من كثرة التجوال فى شوارع المدينة استيقظت فى نفسه مشاعر جديدة مغامرة ، تيقن خلالها من أشياء وفقد الثقة فى أشياء ٠ تذكر ان له عما مجاورا فى الجامع الأزرق ٠ سأل حتى توصل اليه فى مسكنه ، كان العم ـ شأن كافة المجاورين المغتربين ـ قد منح غرفة ذات رقم فى حارة ضيقة فوق ربوة عالية اسمها الزقاق تمييزا لها عن الشارع الاصلى الكبير الذى لا تتفرع منه اى أزقة أخرى ٠

دهش العم يومها من رؤية ولد أخيه الجرىء الشقى وتركه يعيش معه فى نفس الغرفة بين زملائه المجاورين فى الغرف المجاورة٠ فى نفس الليلة علم ان هذه الربوة كلها والزقاق كله تابع لشىء

يسمونه وزارة الأوقاف ، وكان الزقاق كله مؤجـــرا غرفة غرفة للطلبة المجاورين بما فيه البيت الممتد فى الشارع الكبير مســاحة كبيرة • فى الليلة التالية استكتب عمه ورقة موجهــة الى المسئول تقول ان ابن أخيه كحكوح قد أصبح هو الآخر مجاورا فى «الأزرق» وينبغى ان تتكرموا عليه بغرفة يسكنها أسوة بزملائه المغتربين • ولما عجز عمه عن توقيع الورقة بخاتم الأزرق أخذها هو بعد ان قلوظ نفسه بعمامة ملفقة وجبه أصلها قفطان ، ثم دخل على المسئول والقى عليه التحية كأنجب الطلاب وأكثرهم لباقة • اسمعه عبارات من التبجيل كبيرة لا يستخدمها سوى الوجهاء وعلية القوم ، فوقعها المسئول فى الحال وختمها ووثقها ورمى بها اليــه فى عظمة تليق بعبارات التبجيل المرسلة اليه •

٧

منذ ذلك التاريخ وضع صاحبى كحكوح بذرته فى هذه المنطقة ليصبح مؤثرا فيها وفى تاريخها بشكل أو بآخــر • احتجز لنفسه غرفة • وان هى الا شهور قليلة حتى كان يملك فى يده مفاتيح كل الغرف• هو بطبيعته ثرثار وكان الصبية يلتفون منحوله طلابحفظه تنثال الريالة على داقهم ليل نهــار • خلافاتهم صغيرة لكن فضها يحتاج لعقل جبار • نقودهم قليلة بل معدومة وبطونهم تحتاج الى معين لا ينضب • غرباء مكبوتون وفى أعماقهم نفوس تهفو الى التحرر والانطلاق ، فمن يدبر لهم كل هذا سوى هذا الولد السفاة العجوز ؟ الطبخة يطبخها لعمه بملاليم ويوزع بقاياها على الآخرين بقروش ، من لايملك قرشا يدفع جلبابا أو وسادة أو بطانية أو يدفع مفتاح غرفته عند الأجازة • ذلك ان القروش تكثر وتكثر فى ذممهم خاصة بعد ان صار يستقضى لهم دخانا يشربونه ، ونشوقا يستفيقون به وعجوزا تغسل لهم الثياب • طيبون هم وســيماهم على وجوهم ، بضع صناديق خشبية مستطيلة كل صندوق مغلق بقفل مسوجـر ومثقوب فوق سطحه ، يوزعهـــا عليهم ثم يوزعهــم على الأماكن

والنواصى الاستراتيجية : « تبرع يا أخى لبناء بيت من بيوت الله بيت تقام فيه الصلاة » . وفى آخر المساء يتربع كحكوح ، وبلجنة فوق العادة مكونة منه وحده يفض شمع الصـــناديق ويفرغها فى جيبه ويكافىء كل واحد على قدر ما جمع ، موهما اياهم بانه يفعل ذلك لحساب احدى الجمعيات الخيرية السرية ، وكل القادمين من القرى تسحرهم كلمة الجمعية السرية ويتطوعون للعمل بها حتى ولو كانت وهما لا يعرفون عنه أى شيء .

لا أحد يسأل كيف آلت كل هذه الغرف لصاحبى كحكوح ولكنه ورثها كلها . هو نفسه لا يعرف كيف تم هذا . لكن ساكنى هذه الغرف انهوا حياتهم الأزهرية وانهوا علاقاتهم بالأزهر وتفرقت بهم السبل ، وكلما فرغت غرفة سارع هو بوضع يده عليها وشغلها بأسماء وهمية لا وجود لها بين المجاورين ، حتى لقد جاء بأمه وأبيه وأخوته وأسكنهم جميعا فى غرف مستقلة ذات مميزات ، ومنح نفسه حرية التعديل والتجديد كما يهوى ، فغرفة تفتح على أخرى وسـطح يزحف على الآخر ليجمع بينهما جـدار ، وهكذا تكونت لصاحبى امبراطورية خاصة . أما كيف استمر هكذا يفعل ما يريد فى غير ملكه فان المسألة ـ يقول صاحبى ـ مسألة أوقاف ، أى انها املاك لا صاحب لهـا : ان كل هذه الأملاك فى حقيقة أمرها مجرد أوراق لا قيمة لها تدخل مكتبا لتخرج منه الى مكتب آخر وقد تدخل ولا تخرج وقد تخرج فلا تدخل ، ان القائمين على شئونها ليسوا وحوشا وليسوا يحملون المشانق ، ان هم الا بشر مثلنا يحتاجون الى المزيد والمزيد فوق رواتبهم الضئيلة .

٨

الحظ أيضا شيء يؤمن به صاحبى ايمانا مطلقا ، ويؤمن فوق ذلك انه حظ أعمى بالفعل يمكن للمفتح ان يقوده حيثما شاء . فلقد حدثت انقلابات متعددة فى تاريخ وقف هذه المبانى . تغير المسئولون

وانتقلت مهمة الاشراف على المبانى من ادارة لأخرى ومن ناس الى آخرين وفى كل انتقالة يكتسب صاحبى تثبيتا جديدا بكونه الشاغل الاصلى للعقار • ايصالات النور والمياه والايجار الرمزى التافه لعبت دورا كبيرا فى خلق واقع قائم وراسخ منذ سنوات لصاحبى •

٩

بنقود الخلوات وايجار غرف الوقف اشترى صاحبى غرفه على الناصية الاخرى للزقاق تطل على نفس الشارع ، ثم افتتحها مقهى يخلب الألباب ويلعلع فيه الراديو والجرامفون وشـاعر الربابة ويؤمها التجار المغتربون ومشـايخ العـرب والدجالون والمهربون والنصابون • كائنا من تكون على درجة من التريث والكتمان لابد أن تتوسم فى صاحبى خدوما ينفعك فى الزنقة • النصابون يميلون عليه فيقترضون منه مبلغـا يجهزون به صفقة نصـب فيهـا لقمة عيش • يعطيهم وعند الحساب يأكل هو لقمة العيش كلها ويعطيهم نصيبا ضئيلا • تاجر المخدرات مزنوق فى تكملة المبلغ ليتسـلم البضاعة يعطيه ، ولكن تبقى البضاعة نفسها فى حوزته الى ان يدبر لها سوقا يبيعها فيه بمعرفته •

١٠

اصطفاه المهربون فاتخذوه حلقة وصل وفصل ـ كدبرياج السيارة ـ بينهم وبين التجار • يرى العينة فحسب ، يبيع منها من اقة الى ما تشاء من الأطنان • هات فلوسك ايهذا التاجر •• خذ ياعم • هات بضاعتك ايهذا المهرب •• البضاعة فى المكان الفلانى • لا التاجر يرى المهرب ولا المهرب يرى التاجر ، وما بينهما مساحة هائلة هى المساحة التى تحتلها شبكة صاحبى المطروحة لاصطياد فروق الأسعار وما أفدحها من فروق •

١١

بات لصاحبي رجال وصبيان يعملون في كل مكان لحسابه ٠ الشرطة ليست نائمة في العسل ٠ تعال ياعم ، ما هذا الذى تفعله ؟ هو أيضـــا حريص مثلهم على الأمن القومى وعلى ان تؤدى الشرطة واجبها ٠٠ المهربون والتجار لا يستأهلون الشفقة ينشرون السموم وواجبه ان يسلمهم للشرطة وسوف يفعل دون ان يكلفوه ، هكذا يلتزم هو ولن يكذب ، بل سوف يقوم بنفسه بتسليمهم للشرطة يدا بيد ٠ اى نعم ، فالأمر لا يخلو من مهرب سفاح يريد التخلص من صفقة مخدرات مضروبة أى مغشوشة ٠ يعرفها صاحبي من منظرها قبـل اختبـارها بالتفعيص والشم والقضم وما الى ذلك من اختبارات لا يمارسها ســوى الغشيم ٠ كل شيء يبين بالنظـــر الا الحشيش يبين على الحجر ، مثل يؤمن به صاحبي أشد الايمان ويطبقه حين يشترى ويحرق له مائة حجر على ذمة العينة والاكتشاف، لكنه عندما يبيع يسب هذا المثل ويعتبره مدخولا ٠ كل بضاعة لها سعر حتى البضاعة التى ينوى صاحبي ان يسلمها للشرطة ٠ الأمر لا يخلو كذلك من تاجر جشع متعب فى دفع الحقوق أو على درجة من التفتيح والوعى تهـــدد صاحبي ومركزه ٠ يستدعيه صاحبي فيعرض عليه لقمة عيش طرية ٠ يدفع التاجر ثمن الصفقة الا قليلا ، وحين يرسل صبيانه لاستلامها يكون صاحبي قد أبلغ الشرطة التى تذهب وتمسك بالمتلبسين ٠ يزداد عدد القضايا المضبوطة بازدياد عدد المرشدين ، ويرتقى الضابط فيرتقى معـه المرشـــد التاجـر أو التاجر المرشد ٠

١٢

هكذا تصبح أمجاد صاحبي مرآة لنذالته ٠ لكن « بيت النتاش ما بيعلاش » ، كما يقول صاحبي عن نفسه ٠ فلقد انسحب عنه المهربون وأضمر له التجار العداوة والبغضـاء « كله على الصرمة

القديمة ، يعلنها صاحبى صيحة مدوية فى وجه الجميع وهو يعنيها بالفعل · فطالما ان مبانى الوقف قائمة تحت سيطرته فلن يجعل خده مداسا لأحد ·

١٣

لطالما سألت أنا وطقست عن مبانى الوقف هذه ، من أوقفها ولماذا ؟ فما علمت سوى ان أصحابها الأصليين كانوا يخشون من أولادهم الأشقياء ان يضيعوا ما بناه الآباء بشق النفس فاوقفوها ، أى تركوا لوزارة الأوقاف مهمة الاشراف عليها وحمايتها من أى بيع أو تبديد لتكون ذخرا للاولاد يستر عريهم ويؤمنهم من تشرد ، فاذا لم يعد لصاحبها الأصلى وريث شرعى آلت ملكيتها الى وزارة الأوقاف تؤجرها وتستثمر ريعها أو تنفقه فى وجوه الخير المتعددة التى يأمر بها الشارع الدينى ·

وهذه المبانى التى خصصتها وزارة الأوقاف قديما لسكنى المجاورين لا أحد من زبائن صاحبى ــ على وجاهة مراكزهم ــ يعرف ان كانت موروثه لها أو هى من منشأتها ، كما لا يعرفون جميعا أكثر من انها « تبع الوقف » ولكن ما أظن انها أوقفت لمثل صاحبى كحكوح ·

١٤

كان يجلس على منصة الماركات يدخن النار جيلة ولا يتلقى من الماركات شيئا يذكر · أين ذهب طوفان الماركات المنهال على المنصة حتى انه كان لا يجد وقتا لمراجعة الماركات على محتويات الصوانى فى يد الجرسون · حتى الراديو لم يعد يشجيه صوته · ليكن · فبالامس جاء له أحد تجار المنطقة الطالعين وساومه على تأجير واحدة من هذه القاعات المطلة على الشارع وبالفعل أجرها وغدا يساومه فى بيعها بخلو رجل كبير ·

قاعة وراء قاعة وراء قاعة امتـلأت جيـوبه بأوراق البنكنوت وصبار من جديد ينفق عن سعة فلما لم يعد عنده غرف تطـل على الشارع لم يعد فى جيوبه نقود تطل على المستقبل . جبال الكحل تفنيها المراود . آن الاوان ليستخرج « كيفه » من عمليات جانبيـة سريعة . لا بأس من السماح لبعض التجـار الكحيانين الصغار من الجلوس فى مقهاه للتشاور أو للمساومة أو المعاينة أو حتى التسليم. يصبح فى جيبه تموين أيام وثمن حريقه .

بقدر اقبال الدنيـا يكون ادبارها . ما الدنيـا سوى باب كأبواب جحا ان فتحت لا يأتى من ورائها فتح وان أغلقت لا تحقق أى احتجاب ، تفتح على الفراغ وتغلق على الفراغ ، لكن ظل الباب هو خير ما فى العملية كلها اذ فيه يستظل أقوام .

الدنيا ادبرت عن صاحبى كحوح لتقبل على أهل الشـــارع برمته لا أحد يدرى كيف . فجأة انفتحت أسواق التجارة وكثر عدد التجار وحتى الاولاد والصياع والمتشردين أصبحوا سماسرة يمسكون النقود الكبيرة ويركبون عربات تسـمى التماسـيح والخنازير والخنافس ويبحثون عن دكاكين يشترونها ليته أبقى على الغرف المباعة اذن لقبض فيها أضعاف أضعاف ما قد قبض . وهو يعرف ان الذين اشتروها تكفلوا بحل أى مشاكل يمكن ان تنشأ بينهم وبين الوقف ، وتمكنوا من تثبيت أنفسهم تماما ، وتكومت الأموال أمام محلاتهم زكائب وبالات وصـناديق لا حصر لها ، وبين يوم وليلة أصبح أبناؤهم ضباط وامناء شرطة ووكلاء نيابة ولم يعد من الممكن مهاجمتهم من قبل أى قوة . ليصرف النظر اذن عنهم فلن يستطيع استلاب شىء جـديد منهم . ماذا يفعـل اذن وهذا الولد الصـايع يوسطه فى البحث عن مطرح ؟ لم يعد سوى المقهى . لو كانت فى حوزة أحد غيره فى موقعها هذا لصارت جنـة تبـاع فيها الجلسة بأموال طائلة ، لكنها فى حوزته هو تكلفة مصاريف العمال ووجع الدماغ .

في المساء كان دماغه قد صار بلقعا وشعر انه بحاجة الى الشم عشرات الأدوار ، حتى يعمر دماغه وترن فيه الأصوات والأفكار. لذا فقد فوجىء الولد الصايع الثرى بان المقهى صارت ملكه فيما لا يزيد عن دقيقتين . كانت هذه ضربة معلم من صاحبى لأن ، الصايع الثرى أعمته المفاجأة فقام فى الحال واحضر المبلغ المطلوب قبل أن يرجع صاحبى فى كلامه وكان مبلغا حسبه صاحبى فوجد انه يوازى ثمن منطقة المشهد الأزرقى كلها من جبل الحواوشى حتى ميدان العتبة الزرقاء فيما قبل عشر سنوات على الاكثر . وفى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى كان صاحبى عائدا من لدن الشماعين ملتهب العينين طائر الرأس فى الهواء ، فحود على المقهى كالعادة ليفتحها ولكنه تفطن فاعتدل مبتسما بمرارة واتجه الى الربوة فصعد اليها ، وجلس على دكة فى الممر وقد شعر انه سيمكث ها هنا وقتا طويلا جدا .

١٥

باع المقهى ولكن بعض الزبائن لازالوا يبحثون عنه . انه لايزال مفيدا . الممر موجود والعدة موجودة والقعدة جاهزة . واحد يجيء بواحد وهذا يجيء بشلة تتبعها شلة فى أثر شلة . صارت الجوزة عشرا والحجارة آلافا والفحم جوالات . جرت النقود من جديد فى يد صاحبى . صار يتباهى : لم يعد للنقود قيمة . ما نشتريه اليوم بواحد نشتريه فى اليوم التالى باثنين وربما بثلاث . « كانت أيام »، كلمة صرنا نقولها كل يوم عن اليوم الفائت مباشرة . الباكوات والأرانب أرقام يتعامل بها الصياع فماذا جرى للدنيا ؟ يأنف المتعاملون من قولة الألف والمليون لأنهم من فرط ثرائهم لا يستخدمون الأعداد المفردة ومن فرط سخريتهم بالأرقام الكبيرة يطلقون على الألف باكو وعلى المليون أرنبا دلالة على انه سريع التوالد والتكاثر. اذا قلنا انهم ينهبون فان نهر النيل نفسه قمين بالنفاد . الشارع الخلفى وحده يحفل بآلاف الصياع الأثرياء ممن ليس لهم محلات

ولا وظائف مفهومة ولا مسالك معلومة ولا شخصية محددة ٠٠ ففيم يتاجرون اذن ومما يكسبون لا أحد يدرى ٠ هذا ولد يبلع فى اليوم الواحد بثلاث جنيهات برشـاما مخـدرا ، ويأكل بثلاث أو أربع، ويحشش بخمس ، ويتنقل فى المواصلات باثنين على الأقل ، بله ان يسكن أو يلبس أو يعول أو يعالج فمن أين يأتى بهذا ؟ هاهو ذا أمامك فاسأله : ما هى مهنتك على التحديد يا أخ يسألك البيك ؟ لا شىء طبعا ، لن يقول لك لانه ربما كان لايعرف ما هى مهنته على وجه التحديد ٠

١٦

قامت الغرزة وصهللت ٠ ولأنها فى موقع حساس وهام فقد صار يؤمها نماذج من الزبائن قلمـا توفرت فى غرزة أخـرى ٠ انها نماذج تتمثل فيهـا شخصية المكان ، فحيث يتواجد الخواجات السياح مع العربجية مع التجار مع المثقفين مع السماسرة مع المتسللين مع اللصوص المقنعين والمجرمين والهاربين من طائلة العـدالة التى لا تطول أحدا ، حيث يتواجد كل هذا الجمع فى مكان واحد وزمان واحد تنشأ غرزة صاحبى كحكوح ٠

كان قد قرر ان يتفرغ لأولئك الصـياع المليونيرات ليصبح مثلهم ، هل هم أجدع منه كلهم نخالة سقطت من مناخله على مـدى الأيام ٠ يعرف أصلهم جميعا دون ان يكلفه ذلك جهازا يعمل أو رجالا تسهر فى الخفاء ، كل ما عليه فحسب ان يحسن الاصغاء لما يدور حوله ٠ ان قصص الناس وهمومهم ــ يقول ــ تتدفق فى نهـر الشارع كل لحظة وبلا كلال ٠ يضحك حتى يشخلل طاقم الأسنان فى حنكه ، تتلوى ملامحه وتكتسب مع الاستغراق فى الضحك لمعة جنونية مخيفة كحيوان شرس ٠

المدهش كيف ان صاحبى وهو يبذل كل هذه الجهود فى الكلام والانفعال والعراك يتابع مع ذلك أخبار الزبائن وهمومهـم ودواخل

حياتهم . أنا الوحيد الذى كنت أراقبهم جميعا فيما أنا منطرح على الأرض ممدود الاماميتين مسندا رأسى عليهما فى ارتياح بالغ أنقل البصر فيما بينهم حيث ينقسم جدار الظلام بضوء خارج من الباب الجانبى أرى على هديه المجاميع على الصفين وصاحبى يتنقل بينها ليعلق أو يستحث على الاسراع أو يتلقف حجرا من حشيش اشتم رائحته الجيدة . ثم انه يتوقف بجوار الحشيشة الجيـدة ليلقى خطبة فى الأخلاق ، تتصور وهو يبدؤها شخصية الشاعر البحترى الموهوب يجوب سوق المدينة يمتدح الباعة بقصائد من در وياقوت فى مقابل أوطاية أو حزمة فجل ، لكنك سرعان ما تباريه فى ضحكة الصاعق حين تكتشف بعد برهة انه قد شرع يهاجم الأخلاق السافلة التى بدأت تسرى فى المجتمع هذه الأيام والتى يبدو ان هؤلاء الذين يشرب حشيشهم الآن ، منهم ، نعم فلقـد ضربوا المثل فى سـوء الأخلاق وانحطاطها ياسيد . يثور أحدهم ثورة مسرحية بغية اشعاله أكثر . لكن يثور على من ؟ فمن ذا الذى سيعطيه الفرصة ليثور أو حتى يشرع فى التعبير عن ثورته حتى ولو كانت مسرحية .

صاحبى يرعد فيه رعدة واحدة : « اسـمع ياسيد ـ ويلوى شفتيه ويجعلهما كفتحة كيس نايلون مربوط بعقدة وشنيطه ـ اسمع يا هذا .. كلنا أصبحنا بلا أخلاق . لا تعارض .. ولد الاسلام غريبا ويعود غريبا .. هكذا قال الرسول .. وها هو عاد غريبا .. فمن الذى جعله غريبا ياسيد ؟ أنا ؟ أم أنت ؟ تكلم ياسيد .. لكن قبل ان تتكلم ياسيد دعنى اتكلم أنا .. انت ياسيد تجلسون الآن وتمتعون أدمغتكم الخربة بتدخين الحشيش الذى تشترونه وزن القرش تعريفه بأربع وعشرة يا سيد .. عشر جنيهات وفوقها أربع .. ثم انت ياسيد تصرفون على حريقه الشىء الفلانى .. أليس هكذا ياسيد ؟.. رد على .. رد .. ها انت ذا لا تريد ان ترد .. نعم .. لأن الحقيقة أخجلتك ياسيد .. حقيقة ماذا ياسيد .. من أين لك هذا ؟ لو كنت رجلا قل .. الداهيه ان تقول انك ابن باشـا سـابق أو مليونير حالى .. غنى حرب حضرتك ياسيد ؟ .. طول عمرك مثلنـا فقير

حرب ·· الا تعرف الحرب ياسيد ؟ ·· حرب الحبش ها ·· شف ياسيد ·· حرب العالم ، حرب فلسطين ، حرب السويس ، حرب الغلاء ، حرب الحرب كلها حرب ياسيد ·· انت ياسيد كنت تجلس عندى منذ نعومة أظفارك ·· الداهيه أيضا ان تكون نسيت·· كنت تشرب الخمسة وتجرى ·· الآن تدفع خمس جنيهات بقشيشا وهى كانت مرتبك فى الشهر منذ سنين قليلة ·· لكن انت تعرف اننى أحبك من زمان وأسعد بلقائك ·· بالمناسبة أين فلان الفلانى؟ ألم تعد تراه الآن ؟ » ·

وهكذا كم انهارت فى انظار الزبائن ــ لا فى نظرى ــ شخصيات منجعصة فى أبهة ، وكم تضاءلت شخصيات نظيفة كل ذنبها ان سقط منها سر فيما هى مندمجة فى الشرب ، لا تدرى ، وكم تصافقت شخصيات تعرف عن نفسها ان فاخر الثياب وأثمنها لا يستر عريها ولا يستطيع ·

١٧

آكاد أتكلم مثل صاحبى كنفس النمط · لكن عذرى اننى أصبحت أحمل ملامحه ، صرت أشبهه تماما فى كل شىء · مثلما لا يقبل ان يسأله أحد عن شىء أو يستفسر منه أحد عن شىء هكذا أنا الآخر فيما يبدو · انما أنا من ذوقى أقول لكم دون ان تسألوا ان شيئا من كل مايدور أمامى لا يدهشنى ، لا انهيار المنهار يدهشنى ولا انكماش المذنب المجروح يمعضنى ، ولا صفاقة المتعافقين تؤذى سمعى ·· ذلك اننى أرى كل ذلك قبل لحظة صيرورته الى ذلك ، نعم أرى الانهيار والانكماش والصفاقة والمداهنة والمالاة وكل ذلك داخل الناس قبل ان ينزاح عنها ستار السلوك ، اننى باختصار أشمها ، أكثر من ذلك أشم رائحة العدوان فى الشخص تجاه الآخر بل وتجاهى أنا بنوع خاص فى بعض الأحيان ، لكننى لا أعمل عقلى بعقولهم ، ولأننى أعرف ما هم فيه من بؤس ودوافع فاننى أتغاضى

عن ضربة فى جنبى موجعة أو فى ظهرى غادرة · ولقد حسبتها مبكرا ، منذ أن تعودت على أن أشم رائحة الخسة فى صاحبى ، منذرا فقته فى مشاوير ينثال منها الشر ليغرق أبرياء ويلسع أصفياء ، وكنت ملزما بالنباح والزأر وعمل اللازم على أكمل وجه كلما رأيته متكعبلا متعثرا فى شر أعماله ، ولم يكن يكافأنى بأكلة سمينة ولم يكن يحنو على سوى الزبائن بالفائض من طعام يشترونه وهم جلوس · فلما ان تغاضيت عن عدوان صاحبى وهو غريب تغاضيت عن كل عدوان ·

١٨

الا ذلك العدوان الذى يكنه صاحبى لزوجته ، لا اغتفره له أبدا · وقد اكتشفته مبكرا جدا فحقدت على صاحبى قدر ما أحببت صاحبتى ·

سمراء هيفاء حلوة التقاطيع تشبع العين لمن يفهمها ويقدرها · بقدر ما فيها من انوثة طاغية فيها من مقومات الرجولة ما يفتقر اليه صاحبى ، بل أكاد أجزم ان شخصيتها كانت هى الرجل الحقيقى فى شخص صاحبى ، فكل تصرف رجالى متزن وكبير أفلت من سلوك صاحبى أحسست بشخصية صاحبتى فيه واضحة جليه ، هذه الكلمات الشهمة الأصيلة التى تنفلت على لسانه دون قصد منه تكون هى الشحنة الجميلة التى ظلت صاحبتى تعبأه بها طوال السهرة منذ ليال مضت فيما هو يستمع اليها فى امتثال طفولى وخجل غريب وفى عينيه ضراعة لو كان رجلا حقيقيا ما احتاج اليها·

صاحبتى كانت ملكة غير متوجة وصاحبى صعلوك ضئيل الجسم يصلح لأن يسرح بقرد فى الحوارى والقرى أو يكفيه شكله يستطيع ان يقف فى أى باحه ليتفرج عليه الخلق ويدفعون نقودا وسوف يدفعونها عن طيب خاطر اذ هم سيضحكون حتى النخاع وبصفاقة ·

فى أخلاق صاحبتى كما فى جسدها نبالة لا يخطئها البصر كأنها

أميرة اسوانية نوبية فرعونية ضلت طريقها فوقعت أسيرة فى قبضة هذا الشرس الشبية برأس فجلة شائخة • لولاها لعاش صعلوكا حقيرا يبيع نفسه بمليم رغم كل مواهبه • ذلك انه ذا معدن رخيص • كانت هى تدخر له من مصروف البيت ما ستر كثيرا من فضائح جنونه المتواصل فى الصرف والبيع والشراء والانفاق على دماغه بسفه خرافى • وكانت تتوسم فيه طيبة القلب والطواعية فلم تتمخض الأيام الا عن نذل جبان • جرذ حقير هكذا قالت له مرارا •

ويومها كان نشوانا بفضل الشم والاستحمام فى النذالة فرفع حاجبيه قائلا لها : « انت حشرة دنيئة » ، وكانت تعرف انه قالها واقفا على الشعرة الفاصلة بين الشجاعة والجبن حتى لقد تكتك طاقم الأسنان فى فمه ، فما كان منها الا أن بصقت فى وجهه بصقة كالقذيفه ، بكل هدوء مزيف مسحها عن وجهه بمنديل أظنه بلاطة قديمة منزوعة من أرض ، الشارع ، ثم قال فى برود : « برضه حشرة دنيئة » ، فشيعت الى وجهه بصقة أخرى أشد من السابقة ، وكانت شرسه كاحدى بنات جنسى الشريدات فى الغابات والاحراش لا يعرفن عشرة الانسان • هذه السيدة الوديعة الرقيقة السمراء الحمراء كطمى النيل وعينين كلون البحر الازرق والحبتان شمندورتان• كيف انقلبت هكذا فجأة الى فهد يهم بالانقضاض •

الخوف يليق بصاحبى • لكنه البخت الاسود وزلاقة اللسان وانفلات العيار • انزلقت الكلمة عن لسانه كأن شخصا آخر نطقها : « فاجره ، عاهره » ، ربما كان يقلد بها يوسف وهبى ونجح فى التقليد ، فما يدرى الا وفردة الشبشب تصك أنفه وتكاد تفقا عينيه • اعمته المفاجأة وافقدته الصواب فظل برهة طويلة تلفه الحيرة • حسمتها صاحبتى بأن أطبقت فى خناقه كالفتوة ثم رفعته عن الارض كأنه السحلية تنتفض مخنوقة بين قبضتها ، الا أنه تمكن من ضفائرها فشدها بغيظ أغاظها وألهب عينيها فأمسكته من أحليله وقرصت فضربها عدة بونيات فى وجهها فضربته بالرأس ضربة أسالت دمه والقت به على الارض فاقد الحيوية يعوى ••

وكنت أواصل النباح لا ادرى لصالح من ولكنني نجحت في تجميع خلق كثيرين خبطوا على الباب وسألوا ما الحكاية . لحظتئـذ كانت صاحبتي قد تمكنت من سحب صاحبي من يديه الصغيرتين وجرجرته على الارض ثم فتحت الباب وألقت بجثته على بسطـة السلم قائلة له على مرأى ومسمع من الجمع : « ما دمت أنا فاجرة عاهرة دعني واذهب الى الاطهار ، عدم المؤخذة يا أسيادنا » ، ثم اغلقت الباب نصف اغلاق مجاملة للواقفين فاندفعت انبح فوق دماغ صاحبي المجندل نباحا عاليا شرسا اشهد أنه كان لصالح صـاحبي هذه المرة لما وقع عليه من اعتداءات صارخة رغم يقيني أنه يستأهل الضرب بأحقر من هذا .

ما دريت الا بقبضة يده تدفعني في اسناني وخاتم في أصبعه يكسر لى سنتي ، وكان أصبعه بين اسناني ولم يطاوعني قلبي في حرمانه منه ، فأخـذت أعوى من ألم وهو لا يني يناولني بالقبضة فوق دماغي بغل شديد فيما أواصل الصراخ والفزع . لحظتهـا انفتح الباب ثانية وخرجت صاحبتي مندفعة نحـوه صـارخة : « ما تضربوش .. دا انضف منك وارجل منك » ، ثم احتضنتني وسحبتني الى الداخل فضاع كل ألم ، فلما اغلقت البـاب اقعيت أمامه وجاءت صاحبتي تستحثني على تناول الطعام .

١٩

استشعرت خطرا يحدق بسيدتي فصرت انبح حتى ضاقت بي ففتحت الباب فاندفعت اجرى وهي تشيعني متحسرة : « تحن اليه يا كلب » فاستدرت عائدا اليها ورحت اتمسح في أقدامهـا ثم اندفعت من جديد اجرى الى غرزة صاحبي .

أخـــذت السلم الى الربوة فى قفزتين سريعتين وكانت المياه مرشوشه على الارض تصنع زلقا حلوا ، وصفرة العصارى مرشوشة على الجدران والوجوه · ثمة ثلاث أو أربع مجموعات من الحشاشين يجلسون فى تقارب وصوت الراديو يلعلع بنبرات أم كلثوم فيطغى على كافة الاصوات ويضفى على المشهد ســحرا · سحب الدخـــان الازرق تسبح فى تهويمات كثيفة كأنهـــا قدر مجهـــول يمضى الى مجهول · وكان صاحبى متربعا فى نهـــاية الممر شاحب الوجـه ممصوص الدم · تبسم أول ما رآنى وسال على شدقيه تفاخرا جوف كأنه يقول : « كان لابد ان ترجع لى » ·

ثمة رجل اعرفه كان يجلس على كرسى بجواره واضعا ساقـا على ساق ويجرع البيرة من زجاجة يضعها تحت الكرسى وبجـــوار صاحبى مثلها · فعرفت ان فى الأمر صيدا ثمينا يستحق ان يطرح عليه صاحبى هذه الشباك ، فان يأتى بزجاجة بيرة على حسابه لرجل ويجلسه بجواره هكذا أمر لا يفعله صاحبى الا اذا كان سيجنى من ورائه مكسبا كبيرا ·

جاء الولد بالدخان فوضع الخشبة وانصرف · قال صـــاحبى : « رص يا أبو شافيه » · نزع الرجل من خاتمة قطعة حشيش تزن قرشا أو أكثر من النوع الفاخر الذى يسمونه « الهبو » تمييزا له عن نوع « الزيت » ونوع « البودرة » ، وصار يقتطع منها ويضـــع فوق الحجارة · رص الهبو يختلف عن رص الزيت يختلف عن رص البودرة · تعميرة حجر الهبو تكون صغيرة جدا كحبة السمسم لانه بطىء الاحتراق والتعميرة تصنع نفسا كثيفا جدا من الدخان الابيض كالجير · أما تعميرة حجر الزيت فقطعة مبططة فى حجم زرار القميص لانه أسرع فى الاحتراق ونفسه يحتاج الى شـــد قوى ليتكثف · أما تعميرة حجر البودرة فقطعـــة فى حجم زرار البالطو لانه ـ أو

لانها ـ تحترق برائحة النار مثل اقمشة البترو كيماويات ونفسها فج مهلهل يتعثر فى الخروج من طاقتى الانف ويثير الكحة ويدوش الدماغ بتهاويل كثيرة لا أساس لها من الصحة .. هكذا تعلمت من البيئة كلها ..

أبو شافيه يرص بسخاء وصاحبى يسرب النظر الى كل تعميرة تستقر فوق الحجر مع ابتسامة صفراء يقول : « نمنم يا أبو شافيه داهبو ميحبش الكثرة » . فيهز أبو شافيه رأسه فى غير مبالاة . يبرطم صاحبى من بين اسنانه : « الله يرحم ايام زمان كنت مش لاقى حجر كبس ودلوقت بتلعب بالهبو لعب » ، ثم يستدرك بلهجة أوضح : « يا اخى طب لما معاك حشيش كثير كده ما تجيب حته ناشفه » . فيشوح له أبو شافيه فى استهجان . ثم انه امسك بالبوصة وشفط نفسا كتمه فى انفه وقال : « تريد ان اتدخل بينك وبين زوجتك .. ليست تنقصنى المشاكل يا كحكوح .. اخلعنى من هذه الوساطة .. أنت تعرف أنه كان بينى و .. » عاجله صاحبى : « أعرف أنه كان بينكما استلطاف قديم ولهذا فقد اخترتك لتصلح فيما بيننا لقد تعبت من النوم هنا وأحس برغبة شديدة فى الاستحمام » . رد أبو شافيه ضاحكا : « الخوف ان تستحم وتستريح قليلا ثم تفسد العلاقة من جديد .. أعرف طبعك .. تأخذ غايتك من الشىء ثم ترميه بخسه كأنك لم تعرفه من قبل .. من لا يعرف خستك يسألنى أنا » .

صاحبى تلقم حجرا . هو لا يستطيع الرد على ابى شافيه فى هذا الامر . من هو الآن ليرد على ابى شافيه بندية ؟ هذا حال الدنيا . كان أبو شافيه شيئا وأصبح الآن شيئا آخر . هو الآن معلم كبير يملك محلا على ناصية الشارع فى أهم ميدان سياحى فى وسط المدينة ، ويملك عشرة مخازن على الأقل من بينها واحد فى قلب غرزة كحكوح من الداخل ورجالا يسرحون فى القرى والبلدان يجمعون لحسابه آنية نحاسية وفضية قديمة يبيعها المعوزون بتراب

الفلوس ، فيقوم هو بتنظيفها وترميمها وتلميعها وعرضهـا فى المحل يشتريها السياح بأموال صعبة • يصرف على دماغه وحده مائة جنيه فى اليوم • علبة كبريت ملأنه لتمها ببودرة الشم ، واخرى فضية ملانه بالافيون الخام لزوم شد الاعصاب ، وثالثة ملانه بالحشيش الهبـو لزوم النفسـين • يدفع للصـبى خمسـة جنيهـات بقشيشا ويستخدمه فى مشاوير لا يقل ثمنها عن ألف جنيـه • يتصبر فى الظهيرة بكيلو كباب وأربع حمامات مشويات • كل مشاكله تنحصر فى ان باعة الحشيش والأفيون أصبحوا يغشون ضمائرهم !

ابتلع صاحبى كل مراراته ومال على أبى شافيه فى ود مسرحى متقن : « ليس آكثر من كلمتين اثنتين : العشرة والعيش والملـح ما يجب ان يكون بيننا أنا وهى » • شوح أبو شافيـه فى غضب مصطنع : « شف لك غيرى يصلح لهذه المهمة » • وانصرف الى توليع الحجر الذى هو فى نظره انفع من وجود صاحبى برمته • لكنه كان فى أعماقه يتمنى ان يظل صـاحبى متشبثا به فى هـذا الموقف بالذات •

باب السلاملك

● كيف قبل ابو شافية مهمة القيام بالوساطة :

١

« أبو شـافية » محب قديم لصاحبتي فيما سمعت ، كان فتاها الأمثل يوم كان صبي غرزة وصبي كل شيء ٠

كان طفلا يوم نسيته أمه في هذا الشارع الحافل منذ أربعين عاما ، ولم يكن متأكدا مما اذا كان قد تاه منها بالفعل أم انهـا نسيته عامدة متعمدة أم انه تركها تنساه ؟ كل ما يذكره انه كان يمشي وراءها في الشارع بعد أن ضربته ضربا مبرحا لأنه عجز عن فعل ما أمرته به : أن يكون مسكينا مؤدبا وهو يطلب قرشا لله ٠ ولم يكن يعرف كيف يمكن للانسان أن يرسم نفسه مسـكينا وقتما يشاء ، فكان يتصدى للرجل الماشي أو للسائح الجالس على المقهى

أو للبائع فى متجره قائلا بكل صراحة ووضوح : « هات قرش » فواحد يعجب بصراحته فيعطيه وعشرة ينظرون اليه فى استغراب، وأمه تنزوى به فى ركن قصى لتنهال عليه ضربا ..

يومها خفق قلبه خفقة سريعة موجعة وهو يتركها تغيب عنه فى الزحام كأنه يجرب الاختفاء ، لم يكن يدرى أن التجربة سوف تنجح فتختفى أمه الى الأبد من حياته مثلما اختفى أبوه ، الذى قيل أنه كان يشتغل فى الفاعل فسقطت عليه السقالة ومات ..

٢

اختفت أمه فظل يبحث عنها سنوات طويلة ، وظل يبحث عن الحجرة التى كانت تنام فيها أمه فى حارة سد فى حى يركبون له الترام ثم الأتوبيس ثم الترام ثم الاقدام . أبدا لم يعرف كيف يصل ، فظل يرتع فى هذا الشارع ، يجمع فى اليوم قروشا كثيرة يختزنها فى جوفه آكلا وشربا . وكان قد سجل فى دفتر السوابق ما دمغ ملفه فى وزارة الداخلية بأنه « خطر على الأمن » ، وذلك من كثرة الامساك به والحكم عليه ثم الهرب ثم الايقاع به ثم الهرب . على كثرة ما لف ودار عاشر أقسام البوليس وجرب نوم الحمامات والخرابات وظل السيارات الراكنة والأرصفة لم يجد أحن من هذه الربوة العجيبة ربوة كحكوح العجيب أيحدثك عن جمال الممر وكيف انه شبكة للايقاع بالهواء المتجدد العليل على الدوام ؟ أم يحدثك عن أكبر مئذنتين فى المدينة أقامهما اثنان من عتاة السلاطين المماليك فى زمن مضى كورق النتيجة أو حركة الساعة ليس غير ؟ الممر كما رسمه أحد رواده برزخ ينحدر من أول دور فى المئذنة هابطا الى الربوة فى اتصال سلس ، من يجلس فى هذا الممر ذات عصرية لابد وأن يعود للربوة مرة أخرى وثالثة ورابعة والى مالا نهاية .

٣

لم يكن مقدرا لأبى شافية ــ أو الشحات فيما سبق ــ أن يصعد الى ربوة كحكوح فليس يعرف طريقها الا من بيده الجنيهات الخضراء وهو لم يعرف بعد ملمسها . لم يكن يعرف الا ظل التخشيبة والتشرد . للتخشيبة فوائد جمه على أى حال ، أقربها انه تعرف فيها على ولد بلديات صاحبى كحكوح ومعروف لديه أبا عن جد ، قاده الى الربوة ليعمل صبيا فى الغرزة . كان ولدا حلو التقاطيع شحنته الليالى السود بأحلام ودودة دافئة ، وملاته الرياح الشريدة حبا فى دفء الأوراق الخضراء . الدرس الأعظم الذى تعلمه فى حياته ان القرش سيد الأخلاق حاكم بأمره وعلى الانسان أن يستحوذ عليه كيفما استطاع فالشطارة أن تكون معك النقود والخيبة أن تحرم منها . شىء من اثنين لا ثالث لهما فى هذه البلاد: القرش أو العدم ..

٤

كان الشحات ودودا . يضحك فى وجوه الزبائن ولا يدخر وسعا فى خدمتهم على الوجه الأمثل . يعرف خلة « الكييف » ويعزف له عليها بمهارة : النار القليلة المتوهجة والحجر المضغوط فى مكانه بتخشينة ثابتة والماء فى الجوزة يضرب فى نغم محسوب. أبخل الناس أكثرهم كرما فى هذه اللحظة خاصة عند دفع البقشيش . كحكوح مبسوط منه ومما يثيره فى الغرزة من جو نشط . كالنحلة لا يهدأ : يمروح على النار . يرش الأرض ، ينظف الجوز ، يسيخها ، يكرس الدخان فى الحجارة ، يخف لاستقبال كواكب الزبائن العتاة ، فليس غيره يصحو لهم ويملأ دماغهم .

روح ياشحات تعال ياشحات هات ياشحات من فضلك ياشحات بات الشحات نجما لامعا فى ربوة كحكوح العجيبة . تكشف عنده قدرات هائلة ، خاصة قدرته على فض المنازعات بالحسنى مهما كبر

حجم المشكلة أو كبر أصحابها ، هو أحسن من يصـــالح اثنين ـ موهبة تعلمها من التخشيبات والأرصفة ، حيث يتعين عليك أن تعيش فى غير أرضك وتعاشر غير أهلك وتنام فى حضن شر مجهول الهوية ..

٥

لا مشكلة أفظع من المشكلة القائمة دوما بين صاحبى كحكوح وزوجته السمراء . دائما أبدا فى مشاحنات وخصام مجهول السبب لهما فى الظاهر على الأقل . هى طبعا مشــكلة تقوم على عشرات الآلاف من الأسباب . كل يوم والثانى يبقى الشحات حتى آخــر الليل اذ هو معزوم على العشاء مع المعلم ، فى الحال يعرف الشحات ان المعلمة متوعكة المزاج وانها لهذا خاصمت المعلم ولوت بوزها شبران تقصد ان تذهب به الى السراية . يبدأ الشحات فى الحال يدبر لدخلة مناسبة على المعلمة . انه يعرف وساخة المعلم وما عليه هو الا أن يقوم بتغطية هذه الوساخة ببعض الزواق على حساب المعلم نفسه : يستدرج المعلم فى الطريق شيئا فشيئا ، فما يدرى المعلم الا وقد اشترى لحما وفاكهة وخبزا طريا .. دخلة تبش لها المعلمة لابد ، ومن ثم تنشط لها . فهيا نريد أن نتعشى يا أم فلان من يدك الكريمة الطيبة ..

تختلط رائحة المعلمة برائحة الطعـام فتمـلأ البيت أنســـا وبهجة . لا بأس أن يتحرك الشحات الى المطبخ ليشعل الفحم ويعد الجوزة لحبسة المساء بعد العشاء . لا بأس فالدار داره وهو صبى المعلم مهما كان . حركة الشحات مثل صوته مسموعة فى هذا الحيز الضيق ، يعرف الشحات هذا جيدا فيجعل لكل حـركة صـوتا يجسدها به ، حتى الغمزة بالعين يصوتها قائلا : هه باقول ايه .. أثناء تغيير الجوزة واعداد النار فى المطبخ يحـكى لهـا قصصا وحكايات من تأليفه الفورى مؤداها كيف انشغل المعلم بأمرها طول

النهار وكيف أنه يشقى ويجعل خده مداسا للذى يسوى والذى لا يسوى كل ذلك فى سبيلها وحق جلال الله ولو أنها تدرى مكانتها عنده لساقت الدلال أكثر وأكثر ..

حينئذ تضحك المعلمة مجلجلة قائلة : « أما صحيح زى اللى بصحيح ميزة الواد الشحات انه بيقول بشكل يخلينى عايزه أصدقه» . مهما يكن من أمر فان الشحات حين ينصرف يبقى المعلم والمعلمة فى لحظة صفو تطول أو تقصر لا حديث لهما الا عن الشحات ، المعلم يحاول اقناعها بصدق قول الشحات والمعلمة تحاول اقناعه بأنها موافقة على اللعبة مادامت تنتهى هكذا .

٦

لكن الشحات اذا كان قد صار نجما فى الغرزة وفى الربوة بل وفى الشارع الحافل اذا مشى لا يكف عن القاء السلام ورد الفل والقشدة والتماسى على الوجوه المحيية .. فانه لا يصح أن يصير نجما فى بيت كحكوح أيضا . هذه كارثة . فلقد أفاق صاحبى ذات يوم فاكتشف ان الشحات ينام بينه وبين زوجته فى الفراش حتى وهو متمدد على الأريكة فى أى خرابة ..

الشحات الشحات الشحات ما الحكاية يا امرأة ؟ أتحبينه على ما يبدو ؟ نعم أحبه لا شك .. تحبينه يا امرأة ؟ .. وما العيب فى هذا ؟ .. أقصد هل تحبينه كما تحبينني ؟ .. نعم بل و .. قوليها بل وأكثر . حاولت المسكينة أن تشرح له أن حبها للشحات يخلو من الدنس العالق بدماغه لكنه لم يعطها الفرصة أبدا .

من صبيحتها خرج الشحات من الغرزة فلم يعد اليها لسنوات طويلة . ولما جاء البوليس فى العصارى ليهاجم الغرزة ويقبض على الشحات الهارب من كذا وكيت لم يجده فضرب كحكوح علقة ساخنة وتركه ومضى ، وحتى هذه اللحظة لم يعرف ان صاحبتى

المعلمة أرسلت للشحات طفلة صغيرة نادت عليه خلسة فذهب الى المعلمة فأوصته بالفرار لأن زوجها جبلته الغدر ..

٧

لم يحزن الشحات فى حياته قدر حزنه على مغادرة المعشوقة السمراء . لم يحزن على فراق امه رغم حبه لها قدر حزنه على فراق « وديعة » زوجة معلمه كحكوح . ظل وقتا طويلا لا يعرف سر هذا الحزن ، ومرت عليه خواطر كثيرة ظن مع كل خاطر منها انه سر حزنه على فراق « وديعه » . قال لنفسه انه لما هرب من امه كان يهرب من الفقر والتشرد ومن ألم القرص ووجع الكلام . ابدا لم يكن حزينا على امه مثلما هو حزين على انه لن يرى وديعة بعد الآن الا صدفه وبين محاذير ..

لم يكن قد عرف فى امه مثل هذا النبع الفياض بالحنان . صحيح ان امه مسكينة وكانت تنتقم فى شخصه الضعيف من نذالة الموت وخسة البشر فى المدينة . لكنه لم يعرف من قبل ابدا مثل هذه المشاعر الطازجة الحلوة التى شعر بها منذ اول يوم زار فيه بيت المعلم . احس لاول وهلة أنه أدمى ، انه امام انثى بكل معنى الكلمة كل وظيفتها فى الحياة ان تريك مالم تكن تراه فى نفسك من قبل ، أول شىء تريكه انك بالفعل رجل واى رجل ، لا تسىء فهم كلامه من فضلك ،فليس يصور لك عاهرة داعرة تخون زوجها فى سياحة بين احضان الرجال ، لا والله ، لا . ان وديعة سيدة لا يمكن وصفها بكلام ولا التعبير عن وقعها فى النفس ، فمجرد ظهورها أمامك للنظرة العابرة يوقظ فيك الاشياء الحلوة الطيبة ويشعرك فجأة انك قادر على مواجهة الدنيا كلها بمفردك طالما هى معك ، فما بالك لو نظرت اليك ، فكأن العينين الكحيلتين لم يسبق لهما النظر الى احد سواك نظرة كأنها الدنيا قد جاءتك مثلما تحكى الحواديت ، أليسوا يصورون لنا الدنيا امرأة تقبل على الموعود لتسقيه النعيم بالهناء

والشفاء ؟ فمن تكون امرأة الحــواديت ســوى هذه ؟ ولئن كانت الحواديت تعود فتصم هذه المرأة بالغدر وادارة الظهر للانسان بعد طول عز فما ذلك الا دليل مضحك على هيافة البشر اذ هم يتصورون ان الدنيا يمكن ان تظل تعطيهم وجهها الصبوح على الدوام حتى ولو كانوا هم ملوثين غارقين فى الوحل والنذالة والسفه ، الدنيا ـ هكذا تقول نظرة وديعة ان طالتك ـ كالمرآة لابد ان تريك القبح الذى على وجهك ..

يقول الشحات لزملائه فى الغرزة حواديت يزعم ان امه كانت تحكيها له فى المساء لا لشىء الا ليدلل على انه كانت امه تحكى له الحواديت ، وكلها حواديت تدور حول اميرة سمراء وقعت فى قبضة صعلوك لا وزن له فانقلبت الاية واصبح الخسيس يتحكم فى الاصيل ويحبس حريته ، ولربما تكون امه قد حكت له اطار هذه الحواديت فعلا ولكن كل اميرة فيها تمثلت مجسدة فى زوجة معلمة وديعة . وكل صعلوك شرير وكل سفاح وكل مسيطر متجبر تمثل مجسدا فى معلمه كحكوح .

٨

ابدا لم يكن الشحات يعرف انه واقع لشوشته فى حب وديعة وأن لوثة توشك أن تلطش دماغه . كان يقضى الساعات الطويلة شاردا مع أغانى ام كلثوم ويذوب حرقة فيها ويضبط لها الراديو على الشعرة . لا حظ عليه الولد صديقه قريب المعلم انه قد تخلص من الهزل ومن أشياء كثيرة كانت فيه ، لا حظ عليه ايضا انه استقام بدرجة لا يصدقها الدماغ . ففجأة بعد ان كان الشحات ولدا مخربشا يزور تخشيبة القسم كل بضع ليال ويقف مكلبشا امام النيابة كل بضعة اشهر ومخفورا بالقفص الحديدى امام القضاة كل سنة او اكثر ، صار رجلا بمعنى الكلمة ملء هدومة يعتمد عليه المعلم فى أخطر المسائل بل ان زبائن الغرزة يحترمونه أكثر مما يحترمون

المعلم ولا يصدقون الا كلمته ولا يأتمنون أحدا غيره على اسرارهم ، الا فظع من هذا ان بعضهم ـ وهم ذوى مراكز كبيرة وجاه اكبر ـ يشركونه فى همومهم ويتحدثون اليه بها أثناء قيامه بسقياهم ، الأغرب من الأفظع أن الولد بالفعل ماء من تحت تبن كما يقولون فى المثل ، لا يفشى سرا ولو قطعت رقبته فان سألته عما كان يدوز بينه وبين الزبائن من حديث وحلفته بالامانه ان يصدق لف ودار وحكى لك اشياء يحلف انها ما حدث ولكنها ابدا لا تكون ما حدث ، فكيف أوتى بكل هذه الكياسة والرجولة والحكمة وهما اخوة فى التشرد من الطفولة ..

كان صديقة لا ينى يردد هذه الملاحظات على مرأى ومسمع من الجميع وفى مشهد مسرحى ضاحك والشحات لا ينفعل ولا يزعل بل يكتفى بأن يحصى عليه أمورا تثبت هيافته .

٩

الواقع ان الشحات نفسه لم يكن يعرف سر هـذه النقلة الخطيرة التى طرأت على شخصيته فكأنه ارتكز على الأرض حقا بعد طول سباحة فى الفراغ . يقول لصديقه وقد لعب الحشيش برأسه ان فى نفس كل واحد خرابة عبارة عن هديم متراكم ، منا من اذا فحت فى داخله وجـدت قليلا من الطوب والتراب فـوق حجرات كاملة ومفروشـة بالتمـام . ومن ذا فحت فيه وجـدت ماء مالحا ، ومن اذا فحت فيه وجدت الهديم بلا نهاية ، ومن اذا فحت فيـه وجـدت بوادر كنز وحينئذ تصبر عليـه حتى تصـل الى الكنز ، والحريف من يفحت بعناية وفن . الشحات أيضا يعرف «الفلسفة» التى يتشدق بها صاحبه مقلدا عواجيز السجن ولكنه لا يحب كثرة الكلام ووجع الدماغ ، ويعرف أيضا أن نفسـه ان لم يكن تحت هديمهـا كنز فعـلى الأقل لن يحوى الهديم ثعـابين أو عقـارب أو صراصير أو عفن الرائحة ، فما الذى يريد أن يقوله صـاحبه من وراء هذه التريقات المتواصلة عليه أمام الناس ؟ .

هنا قال صديقه المخربش رد السجون : « أنت تحبها ، وكل ما تغير فيك تغير بسبب حبك لها ·· أنت ولد نمس ·· قررت بينك وبين نفسك أن تجعلها تحترمك وتثق فيك ·· أتعرف ؟ هى الآن تضع ظفر قدمك فى كفة ورقبة المعلم فى كفة » ·

الاشراقة التى سطعت بداخله لحظتذاك كانت ساحرة ولم تفقد بريقها أبدا ·

١٠

حين هرب الشحات من غدر صاحبى كان قد تعلم من غرزته درسا ما فتىء على مر الأيام يزداد غموضا كلما ازداد تواجدا فى دماغه ، فغرزة صاحبى كما تعلمون يؤمها تشكيلات عجيبة من مثقفين وسوقه وتجار وعلى كل لون · وقد فتح مخه وأذنيه لكل ما يصدر فى الجلسة من أحاديث تتنوع من مجموعة لأخرى وهو صامت حتى ليكاد يبارينى فى الصمت المشغوف يختطف هنا ورقة وها هنا ورقة · من مجموعة تجار الشنطة يخرج محملا بكافة المشاكل التى يصادفونها ويعيشون نيرها فينسى النير ويتذكر ما فى أيديهم من أموال طائلة ·· الى مجموعة من المثقفين يحمل معهم همومهم وبالفهلوة مثلهم يفهم قضاياهم حق الفهم لولا انه لم يؤت قدرتهم على التعبير والكلام والمنطق ·· الى مجموعة من الصياع والمتشردين يقف معهم على آخر ما ابتكر فى أساليب النشل والغش والنصب والاحتيال ·· الخ ·

علما انه كان يتلكأ عند كلام المثقفين فيتعلم منه الكثير ، وأبلغ درس تعلمه وصار يكتشف على مر الأيام جلاءه هو أن أربح تجارة فى البلاد هى المخدرات والسياسة ، فبعد ان كان فى البلاد عسكر وجند وخفراء صار فيها ما لا حصر له من أنواع العسكر

والحكام ، أما السياسة فليس له فيها واما تجار المخدرات فانهم يرتعون فى البلاد ويقيمون العمائر ويغنى النجوم فى أفراح أبنائهم، انهم باشوات هذا العصر دون منازع ، يتمركزون فى حارات وأحياء مغلقة ويدخلون مع العسكر فى حروب ومناورات ومخططات ، يحاربهم العسكر لاباعتبارهم أفراد يسهل القبض عليهم بل باعتبارهم مؤسسات تقوم على عائلات متشابكة متعددة المصادر والمنابع والشخصيات ، لكل شخصية عدة أسماء يشتهر بها للتضليل على سجلات الحكومة ، مهاجمتهم أمر تهرع له الصحف بمصوريها حتى لتنشر الصحف ذات يوم ان الهجوم على احدى هذه الحارات كان عبورا ثانيا ·

١١

يوم الهرب قصد الشحات من فوره الى مقهى مرخص فى الحى المتاخم · صاحب المقهى يتجاوز الحدود قليلا اذ ان ابن أخيه يعمل مخبرا سريا ويبلغه أولا بأول مواعيد الحملات ، فيسمح لذلك بشرب الحشيش فى مقهاه ولكن على « البورى » هربا من مظهر الجوزة ، فالبورى – أو الشيشة فى الأصل – قد يوهم المشاهد أن الشرب دخان معسل فحسب ·

جلس الشحات وطلب شايا ثم انه قام وفعل عدة حركات على النصبة وحوض المياه أفهم بها المعلم انه صنايعى وابن كار ، وبهذا قدم نفسه لصاحب المقهى فتركه يتمادى فى خدمة الزبائن · وفيما هو يخدم زبونا همس فى اذنه سائلا عن احد يبيع الحشيش فأومأ الشحات برأسه هامسا : « أنا أجيب لك عايز أيه ؟ » · منظر الولد يغرى بالثقة ، فشكله أقرب الى نظافة الزبون منه الى غبار الصنايعى · نفحه الزبون ثلاث جنيهات وطلب قطعة من الهبو المعتبر ··

اختفى الشحات فى احدى الحارات · ولو تابعناه لوجدناه قد دخل آخر بيت فى الحارة وصعد سلم الدور الأرضى ثم طرق على باب الشقة الأولى على اليمين ثم تمر برهة تظلم خلالها العين السحرية فى الباب ثم ما يلبث الباب أن ينفتح ·· فيسلم الشحات كأى ضيف ثم يدخل الى حجرة صالون مجاورة للمباب مباشرة وقبل ان يدلف اليها تكون همسته قد دلفت هى الأخرى الى اذن من فتح الباب : « ربع » ، فبعد برهة طويلة جدا يدخل عليه الشخص بما طلب ، من حسن الحظ ـ كما تمنى ـ فتحت لـه « البتعة » بنفسها ·

جلست بجواره قائلة : « خير يا شحات ؟ » قال : « خير ·· عايز ربع » قالت بابتسامتها العريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » قال باسما : « لى » · قالت وقد ظهرت أسنانها اللولى : « يعنى حتاكل فيه عيش » · قال ببسمة مرتعشة : « عليكى نور » · برمت كفها حول رأسها : « انت سبت كنحكوح » · حكى لها الشحات ما حدث بالتفصيل ، حتى أسراره وحبه لوديعه كاد يندب ويحكيه أيضا كجزء من المشكلة · هى الأخرى تابعته بكل انفعال وهدوء ، فلما انتهى من كلامه قامت وغابت فى الداخل برهة عادت على أثرها وغمزته فى كفه بقطعة حشيش كبيرة طيبة الملمس ، حجمها لا يقل عن ربع أوقية ، أى ما يباع بأكثر من عشرين جنيه هذا الصنف بالذات ·· فهل يمكن ان تكون الغازية أو الراقصة أو احدى عوالم الفرح رقيقة وإنسانة بهذا الشكل ؟ الغريب انها ردت اليه الجنيهات الثلاث ، وقالت له : « ربما وجدت لك لقمة عيش بجوارى » ·

١٢

موهبة من الله ان تكون قادرا على فض المنازعات بين البشر · بهـذه الموهبة وحدها كبر الشحات فوق عمره الحقيقى أضعاف أضعاف ، وأصبح يمشى بين رجال من علية القوم كأنه مثلهم بل

المفضل عليهم ، وقد تعود الناس فى الحى كله الا ينظروا الى ملبسه أبدا ، بل يتعلق بصرهم بوجوده لأن وجوده سوف يحل كثيرا جدا من المنازعات صحيح أنه يفضها بطريقة تبدو لك بعدها غاية فى البساطة ويستطيعها كل انسان ، لكنك لا تستطيع ان تقول هذا على سبيل الاستنكار لانك لن تكون فى مثل شجاعته عند النطق بقول يحسم المسألة ٠

من ثم لم يعد بحاجة الى العمل كصبى فى مقهى ، لكنه بحاجة الى مقهى يجلس عليها وتكون مركز مملكته الخاصة ٠ وقد وجدها ، ظلت ملكا لصاحبها لكنه قام بترميمها وتجديدها على حسابه وجلس يستقبل فيها عملاءه وزبائنه ، ومن وراء ظهره طائفة من صبيانه يبيعون بالقطاعى ، ولد يمسك شكارة يستقبل فيها النقود ، ولد آخر يمسك ميزانا صغيرا ، ولد ثالث بيده الحشيش يقضم ويزن ويقبض ليدفع الى الشكارة ، حتى اذا ما امتلأت الشكارة أستدار الولد فى عتبة الدار التى يقفون أمامها ثم صعد الى حجرة قريبة حيث يفرغ الشكارة فى صندوق وينزل مسرعا ٠ كوكبة الصبيان هذه تبيع فى اليوم الواحد بعشرة آلاف جنيه على الأقل ٠

١٣

فوجىء أهل الناحية كلهم ان « البتعة » لم تعد تستقبل احدا من الزبائن أو الزوار فى صالونها العتيق الانيق الثمين ٠ لم تكن تستقبل سوى الشحات ٠ واذ بدأت الافواه تلوك سيرتهما فوجىء الجميع بأنهما قد تزوجا ٠ واذ بدأ الطامعون فيها من قديم يرفعون رءوسهم كان الشحات قد أصبح قادرا على شراء الأمن بأغلى ثمن ، كما أصبح أحد كبار الاعلام فى المنطقة برمتها ٠

١٤

الخنزيرة ــ أى العربة المرسيدس ٢٠٠ ــ تفاجئك وأنت

تدخل الحارة ، واقفة في رحبة على قدمها كأنها فضلت لها ، صفراء في لون الكناريا . تدهش كيف لمثل هذه السيارة ان تتواجد في مثل هذه الحارة السابحة في الوسخ والقذارة . لو ان عرق السكان وحده يسيل بكثافة السكان لاغرقها الى شوشتها ، فما بالك بمياه الغسيل والاستحمام والمجارى ؟ كل ذلك متروك لشأنه في الحارة الطويلة المتعرجة .

١٥

كنت أقول لنفسى كلما دلفت الى هذه الحارة : من ذا الذى يهتم بتنظيفها وكل من فيها من السكان لا يشعر انها له . ساكنو البيوت من موظفى الدرجـــة الثامنة او حتى الثالثة أو الأولى ، أولادهم يتقاسمون المرتب بالقسطاس ويذهبون الى المدارس والكليات شبه حفاة يسخر منهم بقية السكان من الحرفيين والصناع .

يسيطر على الحارة عدد مهول من تجار المخدرات يملكون فى المنطقة دورا ودكاكين ومقاه وعائلات كالفل افرادها . نصف الحرفيين تركوا حرفهم البطيئـــة الكسب وانضموا الى الصـــياع وأصبحوا صبيانا وناضورجية لدى تجار المخدرات . من كان منهم قوى البنية ينتمى الى عائلة كبيرة من الناس أو عائلة كبيرة من السوابـــق افترش لنفسه بقعة واحتلها بكرسى وترابيزة ترتص فوقها أصناف الحشيش والافيون وأكوام الفلوس الفكة . أما ان كنت من أهل البلاد فانك بقدرة قادر تتحول فى هذه المنطقة الى شىء من اثنين : اما سائح وأما قطعة عاديات تمشى على قدمين يتفرج عليها السياح الأصليين وربما وساومهم على بيعها أحد كبار النصابين وما أكثرهم فى الحارة .

تستطيع أن تدلف من سوق الخيط الى سوق الخيم الى سوق النحاس الى سوق الخضار الى ســـوق الحشيش ، حيث تتراص

الترابيزات فى الشارع وتلمع فى الجو أسلحة المطاوى الشهيرة • كل واحد من هؤلاء يقيم لنفسه احتياطات أمن مشـددة ، أليس يحمل أموالا ؟ كل من يشيرها هنا يحمل لفة أو حقيبة أو جوالا فهو على الارجح يحمل بداخلها نقودا أو مخدرات ، حتى هذا الرجل الغلبان صاحب الغرزة المتنقلة مشكوك فى أمره من قبـل الرواد المشترين لمزاجهم • حرفوش هو يلبس الجلباب المشمر من فتحة جانبية ، فى يمينه صينية كبيرة ، وفى يسراه أخرى ، الأولى عليها الوابور مشتعلا وفوقه البراضى بحامل يحميه وحوله عـدد من الكنكات مختلفة الأحجام وعدد كبير من الأكواب النظيفة وابريق كبير مملوء بالماء النظيف كل ذلك معد فى ربطة واحدة •• الصينية الثانية عليها جوزة وبرطمان وكومة حجارة ووجاق نار وطبـق دخان معسل ، يمر فى الشارع دونما هدف بعينه ، يناديه صاحب دكان أو فاكهى أو خضرى سريح أو زبون خرمان اشترى الحشيش لتوه ، فيستوقفه كما تستوقف ماسح الأحذية ليمسح لك الحذاء واقفا فى الطريق العام ، فصاحبنا يضع على الفور عدته على الأرض ويفاجئك بأن معه حجارة مرصوصة أربعة وعشرين قيراطا وما عليك الا أن توقع عليها بامضاء الحشيش من يدك الكريمة فيما يكون هو قد انتهى من صحن النار فى المصفاة واعداد الجوزة ثم •• قل بالصلاة على النبى •

تشرب لك العشرة أو العشرين فيما لا يزيد عن عشر دقائق • فان داهمكم البوليس فان ألف ناضورجى يكونون قـد ارسلوا الاشارات فحدثت موجة من الذعر تختلط فيها الأشياء ببعضهـا وتنقلب ، يجرى ناس وتغلق أبواب ويزوغ المخربشون ويقع فى القبضة الابرياء والضعفاء وأبناء السبيل • كم من أصحاب غـرز متنقلة اتضح انهم من البوليس فماتوا من الضرب ولم يعد أهـل الحارة يسمحون لاحد بممارسة أى عمل فى الحـارة ما لم يـكن معروفا لديهم أو من طرف أحد المعلمين الكبار • أعرف صاحب

غرزة متنقلة من هؤلاء تعب من الغرزة المتنقلة على كثرة ما اكتسبه ، فافتتح لنفسه بنكا فى الحارة أسماه بنك الفكة ، عبارة عن نصف دكان هو فى الأصل جزء من مدخل عطفة صغيرة حوطوا عليه بالبناء ثم ملأه بثلاث بنوك صغيرة من الخشب الحبيبى المغلف بالفورمايكا الانيقة ، ولبس هو جبة وقفطانا وجلس على كرسى خاص فى المدخل ، ولديه ستة من أولاده فى عين العدو أربع صبيه وبنتين ، هما والولد الصغير وراء البنوك الثلاث ، والثلاث أولاد الكبار يتجولون بالدراجات فى أسواق البلد وحاراتها ليل نهار يبيعون الفكة لمن يحتاجها نظير عمولة صغيرة ، فى حين يجلس الاب طول النهار والليل يستقبل الفكة من تجار المخدرات ليجمدها لهم فى أوراق كبيرة نظير عمولة قدرها واحد فى المائة ، حيث يجىء صبى التاجر بالشكارة البلاستيك الكبيرة فيفرطها على البنك معلنا قدر ما فيها ، وتتولى البنت بهدوئها العظيم تصنيفها ثم عدها لتتولى البنت الأخرى صرف المتجمد ويتولى الولد توزيع الفكة وربطها وتغليفها فى وحدات وتدوين الحسابات هنا وها هنا . هذا الرجل ـ على فكرة ـ أحد زملاء صاحبى فى جلسات الشم رغم انه حج سبع مرات ويذبح فى مولد الحسين بن على وحده ثلاث أو أربع عجول يوزعها على أهل الله ، وان أبديت عجبك من تضيعه لخمسين أو ستين جنيها فى جلسة شم واحدة ، رد عليك أمثال صاحبى فى استنكار بانه يملك نهرا من الفلوس فلينزه نفسه ، وربما أضاف بان الله يحب هذا ويحض عليه : ان الله يحب عبده النزيه ، وويل للذين يكنزون الذهب والفضة .. الخ .

١٦

بقدر ما فى هذه الحارة من فقر مدقع وعوز يوجد فيها من الأموال ما يفوق الحصر لو انك عدت الى الجرائد التى قرئت على فى غرزة صاحبى كحكوح عن الايقاع بصفقات مخدرات وبكبار تجار

ووجدت أن أخبار عالم المخدرات نشرة يومية حافلة فسوف تقول في نفسك : أى خيال هذا · فماذا أقول أنا الذى درجت فى الحارة متهدل الاذنين منكس الذيل من كثرة ما رأيت من ظلم وابهة ، أبهة عالية ، بقدر علوها تخفى فى أحشائها فاقة وكدرا ·

على ناصية الحارة دكان أنيق مصروف عليه ثقله ذهبا ، تحار فى ماهيته بالضبط ماذا يبيع أو ماذا يشترى أو ماذا يفعل لا أحد يدلك على الاطلاق ، لكن ألفا وألفان يتطوعون قائلين لك اذا ما سألت وفى استنكار : « انه محل الحاج عثمان كزبره » · فمن هو الحاج عثمان كزبره ؟ هكذا تسأل انت فى سلامة نية · حينئذ ربنا يستر ، قد تنال صفعتين على قفاك او بوكسين فى بطنك او زغدتين فى جنبك ·· فمن انت حتى تسأل عن الحاج عثمان كزبره كأنك لا تعرفه ؟ لابد انك مرشد بوليس أو مباحث ، لا بد انك مبعوث غشيم يستحق الأدب والدرس القاسى ، أو لا بد انك غريب عن الحى لا تعرف لمن الخضوع والخشوع هنا هنا ، فهاك الاجابة ··

ان جذب شكلك احترامهم وهذا ما ندر عندهم عدم المؤاخذة ـ فسوف يصيح بك جالس على المقهى المواجه : « اتكل على الله ياستاذ ربنا يهدينا ويهديك » · فان تنحت قليلا واردت الثأر لكرامتك عن هذه الاهانة صاح بك آخر فى هدوء ينذر بالعاصفة « نهارك أبيض يا أستاذ ·· نهارك أبيض بالصلى على النبى » · ستأخذك الدهشة البالغة لا بد ، اذ لم تكن تتوقع ان هذه الثياب الفاخرة التى سبق ان رأيتها على أجساد نجوم السينما العالمية محشوة بهذه الاجساد الشرسة الممسكة بالمطاوى قرن الغزال ·

غير أن الأرض لابد أن تنشق عن رجل طيب أو سيدة طيبة تغمزك فى جنبك وهى تمشى هامسة لك : « امشى يا ابنى ربنا يكفيك شرهم » · ولا بد أن تمشى فى النهاية وأنت صاغر · سوف تعرف بعد طويل بحث وتردد على هذه الحارة ان الحاج عثمان كزبرة مهرب كبير وان دكانه فى الظاهر دكان مقاولات · صحيح

ان شكل الدكان لا ينبىء عن هوية معينة ولكن هكذا يقولون . ثم هو يملك ثلاث عتبات فى غرب المدينة كل منها عمارة فارهة ولكل ولد من أولاده سيارة بيجو خاصة وعمارة خاصة ورصيد خاص ومشروع استثمارى خاص ..

١٧

تحار فى هذه الحارة أيهم فيها هو الأكبر · فكلهم كبار وكلهم فل · أقام أحدهم فرحا لابنته نظمه له الحاج « سالم زغاليل » وهو من زبائن صاحبى الاصلاء · فى هذا الفرح رقصت وغنى كل نجوم التليفزيون والاذاعة والسينما · حتى ليقول من شاهد الفرح أن صاحبه أكثر رأس فى البلاد ، حيث سد شارع الأزرق من العتبة الى القرافة ، وامتنع تدفق السيارات على الميـــدان الا سيارات المهنئين والمشاركين حيث تمرق مسرعة فى زوبعة من الصياح المرح وقد زينت السيارة بالورود ، وكانت أصوات الكلاكســـات هى الايقاع الأعلى ، فلما أقبل موكب العروس يزحف على مهل تزفـه أكبر راقصة فى البلاد وتتابعه كاميرات السينما والتليفزيون خيل لبعض المثقفين المشاهدين انهم يشهدون فرح قطر الندى على صورة عصرية ، وها هو ذا الموكب يسرى الى مستقر له ولكننا ننعطف يمينـا على مدخل الحـارة الملاصقة للأزرق الشريف حيث انتصب الفرح سرادقا يمتد على مساحة نصف فدان ، على الجانبين مجموعات تبدأ بكبار تجار المخدرات فى المنطقة كل منهم يمتشق سلاحـه الذى يبدأ بالمسدس وينتهى بالمدفع الرشاش ولكل منهم تابع يحمل الذخيرة ، ثم تمتد صفوف المجموعات على الجانبين فترى كافـة نجوم السينما والتليفزيون منهمكين فى غـوغاء المزاج يشربـــون ويكحون ويتمخطون ويدمعون ، فى الوسط بقية المدعوين وصاحب الفرح بجلبابه البلدى وطاقيته وبلغته البيضـاء ممسك بالخيزرانة

وينهال ضربا على المتطفلين لابعادهم وينحشر فى جولات رائحا جائيا يلقى على كل ترابيزة بقطعة حشيش كبيرة يحيى بها المدعوين ٠

الذى لا يعرف يقول عدسا ، والمشاهد الغشيم يقول لدى رؤية كل هذه الابهة ان الحاج كزبرة هو أكبر شخص فى عالم المخدرات ، ولو تماشى مع الأيام لكشفت له أن هذا بكل ضخامته مجرد صبى يموله فلان ٠ أنت حشاش اليس كذلك ؟ اذن فأى نعميرة تدفع فيها دم قلبك مهما علت أنفاسها اذا قلت متفاخرا انه امن فلان فلابد ان يفاجئك أحدهم بأن الأعلى عند فلان ٠ فمن هو فلان هذا الذى لم اسمع به من قبل رغم اننى لفاف وأعرف كل باعة المخدرات فى كل الأحياء ؟ ٠٠ هكذا تقول أنت لنفسك ، فاذا بفلان هذا أشهر من نار على علم واذا به اسطورة جديدة عليك قديمة على الأقدم منك ٠

شارب الحشيش يعرف كل يوم الجديد والجديد عن غفلته ٠ لكن آخر ما سيعلمه ـ رغم انه معلوم وبديهى من الأصل ـ انه مثلما لكل محافظة محافظ ولكل بلد حاكم ، فلكل حى فى المدائن تاجره الأسطورة أو تجاره الأساطير ، الذين يتضح انهم بدورهم أكبر من ناس وأصغر من ناس آخرين ٠٠ ناهيك عن قرى بأكملها وعزب وكفور تعتبر مجرد مخازن لرءوس فى عالم المخدرات لا يفوقها حصر ولا تقاومها ابادة ٠

١٨

ربما لم يكن الشحات أكبر اسطورة فى الحارة لكنه بالتأكيد أشهرهم وأذكاهم ٠ فلعله أول من أقام للبيع طابورا كطابور الجمعية الاستهلاكية أو أشد كثافة ٠ يشجع أحد الناديين الكبرين ويرسل الهدايا للاعبين وينفق على شرفهم بشكل جنونى حتى لقد أصبحت

شهرته توازى شهرة النادى نفسه وأصبح كبار المشجعين يتجاهلون مهنته إذا ما وردت فى الحديث قائلين مع هزة يدهم نحو رءوسهم : « معلهش مالناش دعوة » يصادق نجوم الفن ويجاملهم بالهبو الفاخر ليبيع لهم الجلة الناشفة بثمن فاخر ٠

الشحات لا يقبل المنافسة ولا يقبل اللعب فى السهل الرخيص ٠ فأمسك عن البيع وأعلن توبته عن الاتجار فى الصنف نهائيا ، والدليل على ذلك هذا المحل الذى اشتراه فى أكبر ميدان فى وسط العاصمة الكبرى ٠ لا لم يكن دكانا واحدا وانما هو براح بعرض ثلاث عمارات كبيرة ملتصقات لمالك واحد تطل على نواص أربع ٠ كان صاحب العمارات الأصلى قد أعده فى الزمان الأول لمبيت سيارات السكان باعتبارهم جميعا من أصحاب السيارات أيام كان القرش غاليا تدفع فيه عرقك ومعاناتك ، لكن الزمن جار فجأة على السكان واعتبرهم ــ دون منطق مفهوم ــ من درجات دنيا من البشر لا يستحقون رأفة ولا شفقة ، فى حين رفع شأن الرعاع واللصوص وتجار المخدرات والسموم والآلام فأصبيب علية القوم من السكان بأحقر الملاك ، ولما كان سكان هذه العمارات كلهم من ذوى الشأن فان مالكها توقفت به قدرته على الانتقام عند حرمانهم من الاسانسيرات وامتناعه عن ترميم أى تلف وحرمانهم من أى امتياز ، ولهذا أيضا فان تاجر المخدرات حين وافق على شراء العمارات برمتها كان الثمن الذى طلب منه لا يوازى فى نظره ثمن الدور الأرضى وحده وهو ما يريده منها ٠

الناس فى الشارع تفتح أفواهها دهشة وذهولا عندما تسمع الرقم المدفوع فى حظيرة السيارات ٠ ماذا بها لو سمعت الرقم الذى صرف على الحظيرة لتصبح هكذا مدينة تتلألأ بالاضواء والجدران الرخامية والاسقف والمرايا ٠ المؤكد انهم يقعون من طولهم اذا تخيلوا الرقم الذى سيمتلىء به هذا المحل على هيئة بضائع ، هى على التحديد

سيارات المرسيدس ، ذلك أن الشحات الشهير بأبى شافية استصدر لنفسه توكيلا من مصنع سيارات المرسيدس ليصبح ممثلا لها فى وسط المدينة .

١٩

لأبي شافية ـ الشحات سابقا ـ دكان آخر بحذاء أشهر مسجد فى المدينة يبيع العاديات والآثار . رغم ما فى محل السيارات من أبهة وجلسة مخصوصة صممها لسيادته مهندس أجنبى ، ورغم ما فى محل العاديات من جلسة عتيقة فى الأبهة والزخرفة والراحة الا أنه لا يحب هذه ولا ينجذب الى تلك . انما ظلت جلسته المفضلة ذلك الكرسى القش يضعه على الرصيف وحوله طقطوقة عليها براد الشاى والاكواب وأمامه وبيده مبسم الشيشة . كل الصفقات وأخطر اللقاءات عقدها على الرصيف على الناصية يأمر وينهى وينادى ويبعث ويشخط وينطر ويكح ويبصق أطنانا من البلغم الأزرق المتكتل . لكنه بعد أن كان صبيانه ورجاله فى معية المخدرات يلبسون الجلابيب البلدى ويربون شواربهم ولا يعرفون الرحمة أو الرقة فضلا عن استعدادهم المطلق لتلقى الشلاليت والزغد بسن المطواة والبصق فى الوجه ، أصبح صبيانه ورجاله فى معية السيارات والعاديات والآثار أفندية متعلمين يحملون البكالوريوسات والليسانسات والدكتوراه ، بل فيهم البكوات من ركاب سيارات افخر مما يباع فى محله ، محاسبون ومهندسون واداريون وخبراء وخفراء وعمال نظافة وحراس لسيادته .

لم يعد لديه ـ اذن ـ من يتلقى شتائمه وبصقاته وهو امر جوهري وضرورى لاستمرار المعلمة . كيف هذا ؟ لكن هكذا الدنيا تتغير ، فخير له أن يعترف وأن يتزن قليلا . . البتيعة ، قادرة على امتصاص غضبة وامتاعه رغم بلوغها الخمسين أو أكثر ورغم سياحته المتواصلة بين النساء اللاتى هن ـ كما يقول ـ أكثر من الهم على

القلب أى انه مسكين يحمل قلبه هموم كثيرة لا يباريها فى كثرتها سوى كثرة النساء اللاتى يرتمين على قدميه كل لحظة ··

ربما كان أبا شافية صادقا فى المقطع الأخير من جملته ، فهو جدير حقا بان ترتمي على أقدامه النساء · القوام الرجولى الفارع ، مع الاناقة والرشاقة ، الوجه المستدير كالقمر ، يبك الدم ، الشارب خنفسة جميلة كأنفاس بيضاء متجمعة تحت طاقتى أنه المستقيم الممتد الى حاجبين كثيفين يزخرفهما نفس البياض حتى ليزداد سواد عينيه الواسعتين الشهوائيتين ·

من حيث المظهر والمسلك يدين بأخلاق فرسان النساء كما يدونها قاموس العامة فى بلادنا ويستنكرها الخاصة وان دانوا بها فى الخفاء : شمام حشاش أفيونجى مسنود بالغذاء الدسم والتمرينات الرياضية التى دأب على ممارستها حتى يحتمل جسده قدرة الدفاع عن النفس فى كافة المعارك · مهما يكن من أمر فان سمعة أبى شافية فى هذه المسألة لا تحدها حدود · يقولون أنه رافق على أعلى مستوى · يقولون ان البتعة تعرف كل شىء وتتجاهل كل شىء طالما انه يأوى اليها فى نهاية المساء · يقولون – فى المقابل – ان نقطة الضعف فيها عدم أهليتها للانجاب ، كما قال أطباء العالم الذين عرضت عليهم ·

يحلو لأبى شافية دائما ان يحكى لجلاسه كيف عرضها على الأطباء الأجانب ومتى · الامارة عنده ان فنانا كبيرا أو لعله سياسى قديم فيما يذكر او فيما لم يعد يذكر ظلت الجرائد تستنزل له الرحمات وتستنهض عواطف المسئولين كيماتتاح له فرصة العلاج فى الخارج ، وانه بجلالة قدره وصل الى نفس المستشفى التى نزلت فيها « البتعة » فخاف أن تنصرف جهود الاطباء الى هذه الشخصية الخطيرة القادمة من الدولة الازرقية تحفها زفة قومية كبيرة ، ففوجىء بأن الاطباء لا يعرفون شيئا عن هذه الشخصية ولا يهتزون

لاسمها ، بل لا يعرفون سوى « البتعة » التي تعيش المستشفى في خيرها ٠

يقول وهو يضحك في سخرية ممزوجة بالمرارة : « ما خلصنيش قلت لهم دا برضه راجل بلدياتي وكان في يوم من الأيام له شنه ورنه ٠٠ شوفوا اللي هو عايزه وعلى حسابي أي وحق رسول الله » ٠ حتى هذه الأحاديث لم يعد يجد من يستمع اليها بشغف ٠ الواقع انه لم يعد يجد أحلى من القعدة على المقهى بحذاء المسجد الشهير وكل بضع ساعات يدلف الى حارة الشمامين فيتمون ، أو الى صاحبي كحكوح ليتزود بحجرين ٠

٢٠

تطول الجلسة في غرزة صاحبي كحكوح وتتعدد وتتشابه حتى لا عجز عن التحديد في أي جلسة حدث الشيء الفلاني أو قيل الكلام الفلاني ٠ هي على الأصح جلسة واحدة تتخللها فترات غياب منه أو مني ، لكنني كلما أضأت نور الذاكرة وجدته في نفس هذه الجلسة ويدور بينه وبين صاحبي نفس الكلام ٠ أما الكلام عن صاحبتي فقد كان لا يزال حديثا ٠ ولقد انشغلت عنهما قليلا فلما اتنبهت وجدت صاحبي يقول لأبي شافية في ضراعة : « شوف بقى مفيش حد غيرك حيحل المشكل ده ٠٠ أنا تعبت خليك ذوق بقى ٠ كفاية ٠٠ أنا لسه ممكن انفع برضه ٠٠ ولا الصبيان اما بيكبروا بينسوا ؟ » شوح أبو شافية : « يا عم سيبنا في حالنا » ٠ ثم يبدو أنه أشفق عليه اذ انبسطت ملامحه فجأة وقال له كالمعتذر : « على العموم ربنا يسهل ياكحكوح » فصاح صاحبي : « أمتى ؟ » قال ابو شافية : « في أقرب فرصة ٠٠ سيبها بظروفها ٠٠ حامر عليها وأكلمها وأصالحك عليها ٠٠ اطمئن وسيبني بقى أشرب الحجرين في أمان الله » ٠ فرد صاحبي من

بين أسنانه : « أشرب شا الله تشرب آخر زادك » . فزغده أبو شبافيه زغدة قوية عوى لها صاحبى ثم اتضح انه يمزح .

رغم أن الراحة هبطت على جسـد صاحبى كحكوح وأحاطت بكل أطرافه الا آن بريقا مخيفا لمع فى عينيه الضيقتين ، قال : « تشكر يا عم كتر خيرك » . أنا وحدى الذى فهم سر هذه النظرة فى عينيه . نظرت فى عينى أبى شافية فوجدت ان النية عنده قد صدقت فى القيام بمهمة الصلح بين صاحبى وصاحبتى بل قرأت فى صفحتى عينيه ما سوف يقوله لصاحبتى : كلمتين حلوتين عن العشرة والعيش والملح الذى لا ينبغى أن يهون الا على الاخساء .. فوجدتنى ازأر بشدة مركزا النظر فى عينى أبى شافية مكشرا عن انيابى كأننى انذره وأحذره من أشياء لا أعرف كنهها .

راح كلاهما يشخط فى بعنف ويهوشنى ويقذفنى بالطوب . رغم أن طوبة أبى شافية كانت أقوى وأصابت بالصدفة دماغى الا أن طوبة صاحبى على صغرها وخفة وقعها المتنى ، فانقضضت على صاحبى ـ ربما لأول مرة فى حياتنا ـ وهوشتـــه حتى بال من الرعب على نفسه وكانت أسنانى على وشك أن تقبض على منطقـة البول برمتها ، لكنه عاجلنى بضربة خوف حادة فى بطنى فابتعدت عنه وانطلقت أجرى بلا توقف حتى وجدتنى أمام بيت صاحبتى جالسا استكن من الألم .

باب الحرملك

● هل أتاك حديث البتعة ؟

١

قريتها البعيدة التى نسيت شكلها والطريق اليها ، صغيرة متاخمة لمدينة اقليمية كبيرة تقع على ضفاف النيل الأزرقى · مدينة يعرفها كحكوح وصاع فيها سنوات كما يقول دائما · أهلها ـ يقول ـ كلهم مراكبية وصيادين ومع ذلك ترى فيها شوارع للنحاسين والفرانين والقماشيق ، ومع ذلك فهى مشهورة أيضا بأن كل نسائها يشتغلن فى نفش صوف الاغنام ولذا فطعامهن مشوب دائما بخيوط الصوف ·

تضحك « البتعة هانم » من هذه المزحة الثقيلة وتهز كتفيها

فى لا مبالاة حيث تتذكر قريتها البعيدة . كانت أجمل بنت فى القرية لا يعيبها سوى فقر والديهـا . الكل من كبير لصـغير ومن محترم لهزأة كان ينحنى بل ينذهل لجمالها مسبحا بحمد الخالـق العظيم ، مصليا على النبى بجميع الانغام والمشاعر ، لكنهم يا ألف حسرة لا يحترمون جمالها ، هم يعترفون بـه فحسب ولـكن لا يحترمونه لانه غير محترم ، يلبس ثيابا لا تستر عريا ، يهان فى عمل وضيع . كانت ـ كما تحكى لمن لا يستحق أن يكون محل بث للشجون ـ تندهش وينعقد لسانها من الدهشة حين ترى النظرات الدنيئة الشرسة فى عيون العمد والمشايخ وتجار المواشى والفلاحين والبقالين والطلبة بل وبالاخص الطلبة وكل من قابلتهم من الذكور منذ تكور التفاح على صدرها وأحمر على خدودها ـ بدأت تكتشف انها دون بنات القرية ونسائها مباحة لكافة النظرات . فى الخطوة الواحـدة أو اللحظة الواحـدة تتسلقها النظرات وتعريها وتنتهك كافة استارها . النظرات النهمة الشرسة القاسية تطاردها فى كل مكان . ليتها كانت نظرات أعجاب واشتهاء فحسب اذن لتاهت بها بين الأهل والخلان ، لكنها نظرات اتهام شديدة القسوة . كل عين تنفرد بها تثقب نفسها بسنان حداد ولا تريد أن تتنازل مطلقا عن يقينها واعتقادها بأنها عاهرة .. مجرد عاهرة ..

حتى امها ، هى الأخرى قذفتها بنفس الاتهام عشرات الآلاف من المرات بسبب وبلا سبب . كانت دائما تصرخ فيها : « انتى إيه اللى فيكى يا بت .. انتى مش طبيعية أبدا يا بت .. بتتقصعى كده ليه يا بت .. بت .. أنا حاقتلك وأشرب من دمك يا بت » هى نفسها لم تكن تعرف انها اكتسبت حركات جديدة لم تكن فيها وهى طفلة ، فمن كثرة ما صدت وزاغت من هجوم نذلى مفاجىء ومن فرط ما استرحمت للعفو عنها ومن طول ما راوغت وتهربت من حوارات لا ترغب فيها يجرها اليها ناس ممن تقابلهم أصبحت بالفعل « مش على بعضها » ، عصبية ومتوترة على الدوام .

٢

كان أبوها ـ كما تقول أمها وأهلها ـ قد مات فى حرب الحاج محمد هتلر الذى قيل انه أسلم ووجب على مسلمى مصر أن يحاربوا فى صفه . لا هى ولا أمها ولا أحد من أقاربها ولا حتى عمدة بلدها يعرف لماذا ولا كيف مات أبوها وهل لموته صلة بالحاج محمد بن عبد الله ، لكن أباها كان فى الجهادية مجندا أثناء ما كانت هى طفلة غريرة تصحو فى المساء من ليالى متباعدة شناحبة على صوت يقبلها وأذرع تحتضنها وتقول لها : « بوسه لبابا قبل ما يسافر ». وكانت تسر غاية السرور من ذلك اللباس الأصفر الذى يرتديه وهو مسافر ـ آخر ما تذكره فى طفولتها عن أبيها أن أمها كانت تبكى بين جمع من أهل القرية وهم يقولون لها فى انشغال بال : « هتلر نفسه اختفى من على ظهر الأرض » ، وهكذا أعفت أمها نفسها من وقع الصدمة حين أدركت بينها وبين نفسها ان زوجها ليس أحسن من هتلر حتى تفجع لموته ..

٣

بموت أبيها عادت البضاعة ـ أمها ـ الى أهلها ، أى الى خالها المتيسر ، لتصير هى وأمها خادمتين لأهل الدار . يوكل اليهما تلصيق الجلة وحلب الماشية وغسل الثياب وغسل القمح فى الترعة وحمله الى ماكينة الطحين ، ناهيك عن الخبز والعليق وتوصيل الغداء للأنفار فى الحقل وملء المياه من الترعة بالبلاص كل يوم فى العصارى ..

على قدر ما أهينت فى كل هذه الأعمال والمشاغل التى وصلت الى حد السخرة تألقت وسطع جمالها وخلب الألباب . زهقت وزهق خالها وأمها من تجريب الثياب المحتشمة دون جدوى ، لم يستطع

اى ثوب فى الدنيا كما لم تستطع أى قوة منها أو من غيرها فى أن توقف صدرها عن الاهتزاز النافر المواج أو تخفى حركة عجيزتها التى تنحت لنفسها ظلا حاسما تحت أى ثياب . ولقد تركت وجهها بلا غسيل وأهملت شعرها وتركت القشف يتراكم على كعبيها ، ومن فرط الفجيعة المستقرة فى عيون أهلها تجاهها كرهت أى نظافة وأى ثياب وكرهت أن تكون جميلة فتركت نفسها جربوعة وقذرة ،. لكنها لم تعد تعرف ان كان الخطر كامنا فى عينيها هى أم فى عيون الآخرين ؟ انه شيء نارى كالقذيفة كاندلاع الضوء كاندفاع السهم يدهمها بمجرد ما تقع عيناها على عين أى ذكر حتى لو كان طفلا . جربت أن تكسر عينها فلا تنظر الى أحد ، ولكن كل ذلك لم يعفها من حكم أصدرته ضدها محكمة مجهولة وأبلغت به جميع البشر يفيد بأن هذه البنت عاهرة ولا يمكن أن تكون الا عاهرة .

٤

كانت أمها لاتزال فى عز شبابها وكانت تتعشم فى عريس يجيء به المستقبل ولكنها لم تكن تحسب أن أمامها أكبر وأقوى منافس فى الوجود ، وهكذا كرهتها أمها وكرهت هى أمها ومع ذلك لا جاءها العريس ولا جاء لأمها . ثم ان الجحيم بدأ يرتفع أواره فى الدار بسببهما معا كلبؤتين شرستين ، والخال قد أصـــبح من فرط ذلك فى عار مقيم ، وصار يتمنى زوالهما من الوجود بل صار يعمل على الأقل لزوالهما من وجهه هو .

سعى لتزويج البنت بفارغ الصبر وعلى أى وجه . ذلك أن مجرد وجودهما فى منزله بات ينذر بالكوارث ، حيث تكرر صراغ البنت وصــياحها فى ساعات معينة من ليل أو نهار فلما يدركها أحدهم على دضض يكون واثقا انها ستتهم أحد أولاد خالها أو ضيوفهم بالتهجم عليها أو قرصهافى فخذها او القبض على ثديها ، وكانت هى من كثرة ما صاحت وصرخت واتهمت قد أصبحت مهيأة لهجوم

حقبقى غادر يجهز عليها اعتمادا على كثرة ادعاءاتها ، فكثرة الادعاء تورث البطلان التام كما قال لها فقيه الكتاب ذات مرة · اما هى فقد بذلت مجهودا عنيفا فى الدفاع عن نفسها ، عن ذلك الشىء الذى أن نجح أحدهم فى خرقه واسالة دمه فقدت هى شرفها ومستقبلها ·

مع ذلك ظلت تحس رغم حمايتها لذلك الغشاء الحقير الذى يغلف البكارة انها لم تستطع أن تحمى شرفها من الانهيار اذ أن ثمة اعتقادا بين الجميع بما فيهم أمها بأنها غير شريفة ·

٥

حتى ذلك الذى تزوجها لم يستطع أن يخترق غشاء بكارتها لهزال أصاب أوصاله هى غير مسئولة عنه · لعلها كانت حملا ثقيلا جدا يثقل نفسه · لعله انهزم قبل أن يصبح قيد خطوة من التهامها وحده · لعله تقزز من سمعتها · لعله خاف · لعله كان مريضا عنينا · لكنها ظلت شهورا لا تستطيع رفع عينها الى أحد من أهل الدار أو من الضيوف ··

هو كذلك ـ زوجها ـ لم يستطع · أهلها المبجلون فسروا انكسار عينيه بالحياء لا من العجز ، وفسروا انكسار عينيها من الشعور بالاثم · كان العريس ولدا وكان طيبا جدا وكانت تحبه كل الحب لولا ضعف شخصيته الى حد الانعدام · كان وحيدا لأبوين فقيرين ، أولاد سوق ، يبيعون الخضار أحيانا · لكن مهنتهم الأساسية هى لم البيض ، فكان عليها من الشهر التالى للزواج أن تحمل السلة فى ذراعها مثل أمه وأبيه ومثله تجوب حوارى البلدة صائحة : » يالى حداها بيـ ···! بيض » فتخرج اليها النساء بما حوشته من بيض دجاجهن لتشتريه منهن بالعد الخمس بيضات بتعريفة خمس مليمات تدفعها من صرة معقودة فى كفها ثم ترصه فى السلة ، حتى اذا ما تجمع منه الكثير عبأوه فى أقفاص كبيرة

وسرحوا به فى الأسواق يوردونه لتـاجر كبير ولمتعهــدى مزارع الدواجن ..

مهنة لم تحبها أبدا اذ عرضتها للمضايقات وهزأت كرامتها على نواصى الطرقات والحوارى وأمام الدكاكين . اكتسبت خلالها لغـات جديدة وقدرة على الشتم بقواميس البلطجية والسوقة ، جرت على لسانها ألفاظ لا تعرف الحياء أو الأدب ، صارت تشخر وتفعل من بذىء الحركات ما لا يخطر على البال دفاعا عن نفسها ضد المضايقات التى باتت تتجسد لها فى كل شىء وفى كل خطوة ، وبجرأة منقطعة النظير كأنها صيد ثمين مستباح ..

٦

شىء واحد أحبته فى هذه الحيــاة اذا كان قادرا على تسليتها وجذبها حيث لم يكن اختراع الراديو قد وصل بعد الى دار زوجها « هريدى » ذلك هو الربـاب الذى وجدته ملفوفـا فى ثوب قديم ومعلق على مســمار فى الحائط فى القاعة بجوار السرير الحديد ذى العمدان والعساكر النحاسية ، تعرف ان السرير والدولاب اللذان تجهزت بهما سبق أن تجهزت بهما أمه وتنازلت عنهما له كما تنازلت عن الحلة النحاس والطشت الكبير وبقية الأوانى .. أما هذا الرباب فلا تعرف لمن هو فى الأصل ، ومن أوائل أيام الفرح لم يكن قد امتد بينهما حبل سوى حبل الحديث عن هذا الرباب ..

أبوه كان يسرح به فى شبابه بين القرى والعزب فيضرب عليه سيرة الهلالية وعنترة وحمزة البهلوان . فلما أصبح ذا تجارة تغنيه عن كثير من اللف احتفظ بالرباب لم يفرط فيه أبدا ، فكل شىء فى نظره قد يزول وينقرض الا نغم الرباب، نعم هكذا يعتقد أبوه ويقول مرارا وتكرارا أن التجارة ورأسمالها قد يزول فجأة لسبب من الأسباب فلا ينقذه سوى الرباب ، يستأنف حمله ويتــكل على الله ومطرح مايضرب الوتر يجىء الرزق مدرارا بلا شك ، أنه ــ والقول لأبيه ــ لا يذكر أن انكسر خاطر النغم أبدا ، لم يحدث أن ارتد اليه النغم كاسف البال دون مقابل .

لما كان الابن يرث فى العادة بعض مواهب أبيه فان « هريدى » لم يرث من أبيه ذكورة ولا فحولة ولا صلابة يكافح بها الزمن ، انما ورث عنه شيئا واحدا هو حبه للرباب وحب الضرب عليه فىالليالى المقمرة فى وسط الدار ٠

الشىء الجميل الوحيد فى حياتنا خلال زيجة الأشهر القليلة كان يتم لحظة أن ينغلق باب الدار بالسقاطة وتجىء القمرة عبر السطح والسلم الطينى لتفترش وسط الدار والحصير والمساند الصلبة ، حيث يكون أبوه وأمه قد أويا الى الفراش فى الغرفة المطلة على الحارة ، ويبدأ « هريدى » فى الضرب على أوتار الرباب وأبوه يحيه من داخل القاعة صائحا : « يا حلاوة يا حلاوة٠٠بس آه لو تقوم تنام بقى » ٠ لكن « هريدى » أبدا لا يحب أن ينام ، لا يحب أن يفعل شيئا سوى السير فى دروب أوتار الربا بالتى توصله الى كل الغايات ٠٠

انها وقد حرمت من تمام الدفء فى حضنه تحس كأن الرباب حضن آخر يحتويها ويبعث فيها كل دفء وكل راحة ٠ كان «هريدى» يحدثها عن حلم غريب يحبه ومع ذلك لا يجرؤ على تنفيذه : أن يكون له فرقة وبطانة تسنده وهو يغنى فى الموالد والأفراح والليالى الملاح ، أن يكون صييتا مثل أولئك الذين يستقدمونهم من بلاد أخرى يلبسون القفاطين الشاهى ويمدحون النبى بنغم وصوت أعذبين ، كى يحلم بذلك لولا أن أباه قد سعى بالفعل لدى بعض المسئولين لكى ينزله خفيرا نظاميا يقبض راتبا شهريا وقد لا تقبل الحكومة أن يشتغل خفيرها صيتيا وقد لا تقبله خفيرا أصلا ٠

فى المرات القليلة التى استمعت فيها الى صوته يؤذن او يستغيث للفجر أو لصلاة الجمعة استطاعت ان تعطيه الحق فى هذا الحلم ٠

لكنها أبدا لم تكن تشاركه نفس الحلم ٠ لقد انسلخ كل منهما فىفلك وحده من اول لحظة ٠ لم تشعر انها تشاركه اى حلم ٠ هى

صحيح تحبه ، اى لا تكرهه وانما تشعر تجاهه بحنق شديد يشعل الغضب نارا فى عروقها كلما تذكرته ، فبضعفه وفقدانه الرجولة حجب دم بكارتها عن الظهور فباتت فضيحتها مؤكدة وباتت الالسن تلوك سيرتها متسائلة كيف تأخر ظهور الدم البكر ، ثم تقادم الأمر فأيقن الكافه انه لم يكن فى الامر بكارة أصلا · منذ الشهر الأول وهى لم تستطع الاندماج فى البيت ، لم تذب فى محتوياته ، لم تتوزع اشياؤها على دولاب وادراج واماكن فى الغرفة · انما كان لها دائما صرتها الخاصة التى تحتوى على أشياء تخصها : خلخال فضى تمردت قدماها عليه ، مكحلة ، زجاجة ريحة اهديت لها من ولد تلميذ ، قسيمة الزواج الذى لم تحبه ، فرع من الكهرمان الأصفر تنازلت عنه أمها لها ، خاتم فضى رخيص اشترته من المدينة المجاورة فى أحد موالدها ، قميص نوع شفتشى يكشف عن أسرار الجسد اشترته لها حماتها فلما لبسته ليلة الدخلة شعرت بالفضيحة الهائلة وتحملت الشعور بالعرى ومع ذلك لم يحدث شىء يستكن له البدن فنبذته ولكن لا تعرف لماذا ادخرته بين آشيائها ··

هذه وأشياء أخرى تافهة وغريبة هى كل متاعها · أما الصرة فكانت فى الأصل نصف زنبيل يستخدمه حموها فى سرحاته بالرباب وكانت لا تزال نظيفة متينة فيها خروم مبطنة بالمعدن وحبال متينة · لقد وضعتها بكل هذه الأشياء فى قاع الدولاب ·

٧

لم تكن تحس انها تنوى أمرا ، بل لم يكن يخطر على بالها · لكنها كانت سباقة دائما الى مشاوير الأسواق · يوم السوق تصحوا له قبل الفجر ويدب فيها نشاط وتتفتح كل منافذ خيالها وتضحك فى تودد واضطراب ولهاث ·

ينفتح السوق أمامها عالما واسعا يؤكد لها أن الدنيا واسعة والبشر أكثر بكثير مما تصورت · وكانت دائما تكتشف أن صرتها

الخصوصية جاءت معها صدفة مخفاة فى الأقفاص ، وهى التى تخفيها جيدا كأنما تخشى عليها من أهل الدار ٠ أجمل سوق هو سوق المدينة المجاورة ٠ وجوه لا تعرفها لا تعبأ بها لا تنظر اليها لا تعريها لا تتهمها بالعهر ظلما وعدوانا ، كل فى حاله ان انتبه اليها أحدهم ونظر فى عينيها صدفة انبثق فى عينيه الشعور بالفرح والابتهاج ، وما أكثر ما شعرت فى النظرات من شبق ورغبة ، وما أكثر ماشعرت فيها من حب ومن اشفاق ومن حسد ومن براءة لكنها لا تحس فيها أبدا بالاتهام ، نادرة هى نظرات الاتهـــام التى صادفتها فى عيون المدينة وان حدثت فهى نظرة شـــك أو جرأة عابرة لاذعة لطيفة حلوة ٠

الى أن دهمتها نظرة الاتهام ذات يوم فى المدينة ، فلما استبدت بها الدهشة والصدمة أفاقت على أن تلك النظرة لم تكن من المدينة بل من قريتها هى ٠ كان ولدا تلميذا يصرف عليه اهله فى مدارس المدينة ٠ تعرفه جيدا كما تعرف أباه ٠ هو ابن أحد الأعيان الموسرين وولد تملأه العجرفة والكبر بشكل فاق كل أفراد عائلته المشهورة بالكبر والعجرفة والقسوة ٠ تجار حبوب وماشية وبذور من سنوات بعيدة ٠ ابنهم هذا يقولون انه واصل الى التعليم العالى وسيصبح لا تدرى ماذا ؟ وأهل البلدة يتملقونه كلما رأوه يعطونه لقب البيك والاستاذ والباشمهندس ويدعون له بمزيد من النجاح وهو يتقمط بالبذلة والطربوش ويكاد ينفجر من النفخة والكبر ٠ هـذا الولد بالذات كثيرا ما عاكسها وهى تملأ البـــلاص من الترعة أو تغسل القمح على الموردة ، بل كان يتعقبها ويتلفظ فى أعقابها بألفـاظ جارحة سمجة ويعرض عليها الغرام الفاسق مقابل فلوس وعطـايا يعدها بها ، فكان يشعل النار فى جوفها ، ولولا خوفها من أهله ومن مركزه لضربته بالصرمة وبصقت فى وجهه ٠٠

زوجها الأهبل يوافق دائما على ارسالها الى دار هـــذا الولد لتعطيهم بيضا أو تشترى منهم حبوبا ٠ هى تخشى دائما أن تقول :

لا: اذ هم سيقولون لها : لماذا ؟ فان قالت : لأن ابنهم يعاكسنى ويضايقنى ، سيقولون لهــا : كذابة · انه ولد مؤدب وعلى خلق ومصروف عليه فى المــدارس فهــل ينزل بمســتواه اليــك أنت ياجربوعة ؟ ابن المدارس يعاكســـك أنت أم يعاكس الهــوانم من زميلاته ؟ انت أصبحت مريضة بالمعاكسة » · وهكذا تضطر الى الذهاب وأمرها الى الله ولكنها لن تتركه يتمادى فى قلة حيائه · هو فعلا والحق يقال طيب الأخلاق لايرفع وجهه فى السماء ولا يعلو صوته على من هو أكبر منه ، ويصلى الفرض بفرضه ، ودون أبناء الأغنياء يمشى فى اتزان واستقامة وأدب · وينجح على الدوام والجميع يحلفون بأدبه وأخلاقه · لكنه هكذا فى الظاهر فحسب · أما فى السر فهو ابليس ، مخيف ، لم تصادف جرأته فى أحد ، يفعل أفعالا يخجل من فعلها أكبر قليل أدب فى الدنيا ، مرة لم يكن فى الدار سواه وقال انه سوف يكيل لهـــا القمح أو الذرة الذى تريد ، دخل بها المخزن يرفل فى أدب جم ، فما أن انفرد بها فى المخزن حتى شمر ثوبه وأمسك بيدها ووضعها فوق عضوه ، فشدت نفسها مذعورة وخرجت صائحة ، فلما خرجت أمه من داخل الدار وجدتها تنتفض أمام المخزن باكية فى حين كان ابنها بكل أدب يكيل الذرة كأن شيئا لم يكن ، فسلقتها الأم بنظرة ونبهت عليها بعدم المجىء ثانية ·

غير أنها دائما كانت تضطر الى المجىء · فاذا كان المجىء يعرضها للفضيحة فعدم المجىء يعرضها للفضيحة أكثر · مرة ثانيـــة مشى وراءها ينظر حواليه كلص ، كانت سارحة بالغداء للأنفـــار وظل يلاحقها حتى اذا ما وجد الفضاء خال من كل ظلال حاذاها وتحسس مؤخرتها ، فاهتز جسدها كله وكادت تقع بالغداء فانبرى لسانها يشيع الشتائم الخائفة والبكاء الحارق المر ··

٨

هذا الولد المؤدب الأخلاق المعدوم الحياء فى نفس الوقت ، يسكن

فى المدينة حيث يتعلم • يكترى له أبوه شـــقة فى الدور الأرضى بشبابيك على الشارع ليتسنى له مراقبته من بعيد بمفاجأة • تقيم معه لتخدمه وترعاه أم أمه وهى عجوز مشدودة الحيل • كثيرون من أهل القرية يتفاخرون حين يتقابلون فى سوق المدينة بأنهم يعرفون سكن الأستاذ مختار أو مختار بيه • هل كان اسمه مختار حقا ؟ الواقع انها لا تذكر ، ولكن لماذا مختار بالذات هو الاسم الذى يقفز الى ذهنها كلما تذكرت هذا الولد ؟ حتى ملامحه لم تعد تذكرها بل انها لم تعد تتذكرها فى يوم من الأيام ربما لأنها كانت دائما تخشى النظر فيها ولا تحب رؤيتها • كل ما تذكره منهـا ومن شـخصه أنف مسحوب وعينين فيهما نظرة ميتة لا تعبر عن شىء • حتى أبوه عمرها ما عرفت اسمه الحقيقى على التحديد أكثر من أنه الحاج •

عائلته هى الاخرى كانت أعزب عائلة • لها أسماء عديدة • رجال كثيرون لهم دور وغيطان فى البلدة ومن حبهم فى « المهيصة » ينسبون أنفسهم الى كثير من العائلات •

٩

لا تدرى ان كان ذلك من تدبير أحد أم أنه قدرها الاسود على الدوام • يقام فى المدينة واحد من أكبر الموالد فى البـلاد • يؤمه اشكال وألوان من الناس والطرق الصوفية والملاهى • شهر بأكمله تقريبا تتحول المدينة فيه الى نهر يتدفق بالبشر والتجارة والملاهى ، يصل كل شىء الى ذروته فى أسبوع الليلة الكبيرة •

حين أخبرها زوجها « هريدى » انهما سيذهبان هذا العام الى مولد سيدى « اسماعيل البسيقى » كادت تطير من الفرح ، وكانت تعرف انها لو لم تكن عروســـا جديدة لما اصطحبها معه فى هذا المشوار ••

أعدت العدة من عيش وقرص وجبن قديم يكفيهما لبضعة أيام •

فى قعر القفه وضعت ـ كالعادة ـ صرتهـــا التى تحوى أشـــياءها الخصوصية · عند ركوبهما القطار وسط رهط كبير من أبناء بلدتهم تفاخر زوجها « هريدى » قائلا أن الباشمهندس قد نبه عليه بضرورة أن يزوره اذا نزل المدينة فى المولد لكى يبيت عنده بدلا من المبيت فى صحن الجامع · ارتجف صدرها وقالت لنفسها انها سوف لن تمكن هذا الولد الأفندى منها ، انها لاتزال بكرا ، ومادام زوجها قد عاف بكارتها فهى لا يصح أن تقدمها لأحـــد لا تحبه ، نعم لن تسلمها لمغتصب ، لا ولا لواحد ممن يتهمونها ويعتبرونها عاهرة ·· حتى لو أصبحت عاهرة فهى لا تطيق العهر مع واحد من هؤلاء ··

كيف لم تنتبه الى أن « هريدى » قد أحضر معه الرباب ؟ كيف غاب عن بالها ذلك رغم أنها كانت تحملها معهـــا فى القفة طوال الطريق ·· ما أن نزلا شقة الباشمهندس ـ الذى رحب بهما ترحيبا هائلا دهشت له جدته أيما دهشة ـ حتى فرطوا برام الارز وتعشوا معا ثم نهض « هريدى » ساحبا الرباب وقفزت هى فى أثره لا تلوى على شىء ·

ابتلعهما الزحام الكثيف الدافىء الساذج الجميل · بعد زنقات لا حصر لها وعثرات عرف جسدها خلالها عينات من الأحضان فيهـــا الحياة الحقة لمجرد اللمس فما بالها بالارتماء فيها ، ونادت عليه ونادى عليها عدة مرات · ثم أن حائطا من الكتل البشرية زحف بينهما وظلت دوامات الحركة تطيح بكل منهما فى اتجاه حتى اختفى كل منهما عن الآخر تماما· غير أن نفس الدوامات عادت بعد جهود مضنية فجمعت بينهما فى ميدان الجامع حيث تصـــطف على جميع الجهات سرادقات مزخرفة بالأضواء الملونة على واجهاتها ميكروفونات ولوحات تحمل صورا لنساء جميلات بل حوريات يبتسمن فى سعادة نصف عاريات ، صنوف من صورهن ومثلها لرجال حليقى الذقون مصففى الشعور فى أناقة تطفح البراءة من وجوههم ، أسماؤهم ـ هذه الكتابة لا شك ـ تسطع حولها كوكبة من الأضواء ، الميكروفونات لاتنى تردد

أسماءهم وتعد المتفرجين بالخير والنعيم كله مع الراقصة اللولبية محاسن فؤاد ومطربة كل الأقطار سلمى البرانية والمونولوجست العالمية فسفوسة ونجم الحفلات شاكر الطنطاوى وابن النكتة خفيف الدم والروح عشماوى والثنائي الصعيدى صفوان وبخيتة وأشياء وأشياء ودنيا أخرى لم تكن تعرف انها موجودة فوق هذه الأرض من قبل .

يزحف بها صف الصـــور من سرادق الى سرادق وتستعيدها الميكرفونات الى حيث كانت ، ترى الناس من فرح ومن بهجة يقطعون تذاكر من شخص واقف بالباب ثم يدخلون الى حيث توجد صفوف من الدكك متجاورة ، وفى الصدارة مسرح خشبى كبير . أحست بأن أبوابا حديدية قد انفتحت أمامها على الدنيا . ظلت حائرة فى دوامة الأضواء فى ميدان المسجد حتى رأت جمعا كبيرا يأخذ فى التزايد وتتصاعد منه صيحات الابتهـاج زاعقـة مدوية . زحفت نحوه مستثارة . دفنت نفسـها بين الزحام ، وقبـــل أن تنجح فى اختراقه تناهى الى سمعها صوت الربابة ، حزينا ناطقا بأصوات يقشعر منهـــا البـدن ويقف شـعر الرأس ، فى أعقابه صـوت « هريدى » .. يقطعك يا هريدى هل انت موهوب الى هذا الحد ؟ هل أنت فى صنعتك فاجر كل هذا الفجر ؟ ..

اخترقت بقية الزحام فى عنف شديد بعد أن اعتقلتها دوائر كثيرة عامدة . كادت ترتمى عليـــه صائحة فى مرح : « يقطعك ياهريدى دانت بمب خالص ياوله » . لكن جسورا متطـــوعة من الزحام حالت بينها وبينه فى جد وصرامة حيث وســعت له دائرة صغيرة تألق هو فى وسطها فلم تجد مفرا من الوقوف والانصات مثلهم . حاولت ارسال عينيها الى عينى هريدى ، وخبطت الأرض بقدميها صائحة كما يصيحون فى اعجاب وتأثر : « ياســـلام .. ياسيدى ياسيدى كمان والنبى كمان » ، وهو ينبرى بصوت بربرى

رائق شجى لاذع : الله الله يابدوى • فيردون جميعا وفى نفس واحد ملتئم ساخن : « جاب اليسرا » • لحظتها لم تكن تعرف هـل هى فى مولد البدوى أم الدسـوقى أم القنـاوى أم المرسى ، انما هى تحاول رفع صوتها فوق صوت المجموع لكى يتميزه فيرفع عينيه الى عينيها • وهو منفصل عن الوجود كله ، مسبل العينين ذابت ملامحه فى صوته فى حركة ذراعيه فى يديه فى أصابعه فى صوت الرباب ، والقوس فرس يتقافز راقصا فوق الرباب ••

من أين جئت بكل هذه الموهبة بكل هذه الأدوار ياهريدى ؟ آه كم تحبك ياهريدى • هل كنت ياهريدى فاقد الرجولة أم أن رجولتك عافت جمالها المبتذل ؟ • كانت هذه هى الشوكة هى السكين المنغرسة فى قلبها لحظتذاك • فجأة توقف هريدى والعرق يتدفق منه فيما هو يبتسم فى سعادة لا حد لها • ثم ان الدائرة تكسرت باقتراب ناس وجهاء يصيحون : « لابد له من الراحة •• ولابد من العشاء ليسند قلبه •• اننا بشر •• قم بنا ياشيخ العرب لتأكل لقمة وتستريح وتشبعنا قولا وانشادا » ثم ارتفعت أصوات عالية : « عندى •• بل عندى أنا •• لا عندك ولا عنده •• عند فلان •• لا والله » • وهكذا تبارزت الأصوات والأيمـان المغلظة حتى تقدم الأقوى فحوط كتف هريدى واختطفه اختطافا كريما مهذبا سلم به الجميع فى أريحية وتبعوه وهريدى يبتعد عن ناظريها فى تواضع وقد كبر حجمه كثيرا جدا • لم تفق الا وهى تصيح من فزع ومن لوعة : « استننى ياهريدى » ، ولكنها تعثرت فى أقدام وجمـوع غاشمة •

١١

هل سمعها هريدى وتجاهل صوتها ؟ هل كانت راغبة فى أن يتجاهل وجودها ؟ أن يلقى بها فى بئر العدم ؟ ماهى واثقة منه انها لم تفكر فى الهرب أبدا • انما ظلت تبكى لساعات طويلة فيما هى تذرع الشوارع والساحات والميادين باحثة بين كل مجمـوع عن هريدى ، فلم تسمع للرباب صوتا • قادتها قدماها الى السرادقات

من جديد وراحت تعاود الفرجة عليها الى أن فوجئت بمفاجأة مذهلة ، حيث كانت واقفة أمام برواز بجوار باب السرادق نتأمل في وجـه شاب حلو التقاطيع غزير الشارب ملفوف الشعر من الجنب الأيمن أحمر الخدود كابن ناس أصيل ، يطل من عينيه ومن ملامحه ذكاء وخفة دم · وكانت قد أطالت التأمل في الصورة وما أن رفعت وجهها عنها واستأنفت السير حتى فوجئت بنفس الصورة واقفة بجوارها بلحمها ودمها · فارتعدت وظلت تقارن بين الوجه والصورة لتتأكد في كل لحظة أن الأصل أحلى من الصورة بكثير ··

سألته في انبهار : « انت ·· انت ؟ » · ضـــحك في صفاء قائلا : « نعم · أنا وأشار الى البرواز ـ أنا ـ وأشار الى نفسه » · قالت « تغنى ؟ » · ولحظتها أيقنت أنه قد وقع غريقا في عينيها الى الأبد · قال وهو يذوب رقة : باغـــنى حلو قوى ·· غنا شـــعبى يعجبك » · وكان يرتعش كأنه يخاطب أحد الحكام · قال : « لازم تتفرجي على » قالت « ممعييش فلوس » أضاء وجهه وصاح : « على حسابى ·· تعالى » وبرفق شديد سحبها من يدها بقبضة واهية مرتعشة · عند قاطع التذاكر وقف وقال له : « ادخل الآنسة على حسابى » · أعجبتها كلمة الآنسة ··

عالم جديد جميل ساحر · « النمر » تتوالى والبهجة تعم الجميع والاعجاب يستبد بهم فيصفقون ويصيحون صيحات فرح · كل من غنى أطربها ونبش بين مشاعرها بأعواد رقيقة لذيذة · الراقصات أخذن بلبها · طول عمرها لم تر راقصة · تذكر أنها رأت « الغازية » تجوب القرى فوق حمار هزيل وتحتها خرج ومعها طبـــلجي وزمار وضارب رق ، في العادة تكون عجوزا تلبس فستانا مهلهـــلا من جوانبه ، لتتمايل في رقاعة تكشف عن ســيقان خشـــبية تحتاج لسنفرة ، وبطن ضـــامرة ، وصــــدر أعجف ، ترتمى على أى رجال يجلسون ، ما أن ترى جمعا أمام دكان أو على مصطبة حتى توقف حمارها وتنزل وينبرى الزمار والطبال والرقاق عزفا ، فيفيق الجميع

على نفسه وقد اندمج فجأة فى ايقاع راقص بهيج بصرف النظر عن الحرباء التى تتلوى وسطهم ، لديها حاسة التقاط الرجل عامر الجيب بين الجالسين لتركز عليه وحـــده فى ضرب جسده بصــــدرها أو عجيزتها ، فينبعج هو ويلصق على جبهتها أو على بطنها ورقة مالية صغيرة أما بقية الجالسين فمن مليم وطالع وقد تجمع بدل النقود كيزان الذرة ، حفنة القمح والارز ، والبصل ، ثم تشرع فى الانصراف مستحثة حمارها بخيرزانة صغيرة قائلة بعهر عجوز سمج : « حا » ولهذا يسخرون فى بلدتها من الرجال الخرعين حين يضربون أبناءهم برقة فيقولون : « فلان هذا لا يربى ابنه جيدا! ·· بل يضربه ضرب الغازية لحمارها » الغازية أيضا كانت فى العادة بلا حياء لكنه عدم حياء يقبل عادة من العجائز المتبرجات ، تهتز وتتملق الجلوس مغنية بصوت أعجف قبيح : « ومحفظته قد كده » وتشير بيديها محددة حجم المحفظة ، أو : و « ··· ـ وتذكر عضوا من أعضائه الواجب سترها ـ قد كده ـ وتشير بذراعها محددة حجم هذا! العضو المحترم · أما هذه التى تراها الآن تتشخلع على المنصة العالية فهى شىء جميل كل الجمال ، جسد حلو التقاطيع تنثال عليه صفوف الترتر اللامعة كأنها ترتدى جلد ثعبان بديع ، الرعشة والدفقة والحركة شىء يطير منه اللب ، أنهار من الفرح تتدفق فى صدرها وفى كل كيانها ، لكأنها هى التى تقوم بكل هذه الحركات البديعة وكل هذه الجماهير تتفرج عليها هى وتعجب كل هذا الاعجاب ، تلعب هكذا بالصاجات ، كأن كل هذه الأنغام والايقاعات تنبعث من حركات جسدها وحده ، يالها وهى تنهال راقصة رقصة الختام اذ تصير كالبطة تنفض جناحيها بعد هبوط ذكر البط عنها ، ان لرقصتها هذه لرائحة تنعشها وتؤكد لها انها قبـــل هذه اللحظـــة لم تكن تحيـــا ولم تـــكن تعرف بشرا ولا ناســـا ··

ثم ان الصدور هبطت باختفاء الراقصة وأعلن الميكرفون أن النمرة القادمة يؤديها مطرب الراديو والاسطوانات ونجم الأفراح لدى الأسر الكريمة « عنتر كبابه » ضحكت ضحكة مسرسعة بسبب طرافة

الاسم ، حتى ضحك الجميع لضحكتها ، فأعجبها ذلك فاستطردت معلقة : « كباية ولا كوز » فانفجرت عواصف الضحك من صدور صافية وقلوب رائقة . أحست بنشوة خارقة كالنشوة التى أحست بها لحظة تصورت نفسها مكان الراقصة البديعة . انفرج الستار عن فرقة موسيقية أكثر اتزانا وبها عدد كبير من أفنـــــدية محترمين يمسكون آلات ذات شبه كبير بالربابة . ثم ان الأنغـام تناثرت شاردة ثم تجمعت والتأمت ثم دخلت الطبلة ومن خلفها الرق فى ضرب ساحر خلفه أنغاما تستقيم وتتداخل وتصعد الى ذرى الانفعال وتهبط الى مهاد النشوة البالغة . ثم ان بصرها الملتاث توقف عند شاب يقف فى خجل جميل وأناقة فاذا به الشاب الذى عزمها على الفرجة وأحبته .

رأته عند الباب يبعث البصر فى كل اتجاه باحثا عنها ، لكنها اغرقت نفسها فى الزحام خوف الوقوع فى الفتنة . لكن الزحام نفسه كان الفتنة بعينها ومع ذلك تحبه ، لقد صارت تحب الغزل الجماعى بنوع خاص ، فهو عادة غزل مهذب يجتمع على كلمة ذات أوجه متعددة ، غزل الجماهير وسع من ادراكها لجمالها ، بفضل الغزل الجماعى عرفت عبقرية جمالها وعرفت فى المقابل أن الخشية كلها من الغزل الانفرادى اذ هو ينضح بوساخة النفس وسوء نيتها ..

غير انها فى نهاية المساء أو مع تباشير الصباح واجهتهـا حيرة فادحة اذ أحست بضرورة أن تعود الى مكان تريح فيه جسدها وتتأكد من جديد أن لها أهلا وناسا . وجدت نفسها سائرة الى شقة .. فليكن اسمه مختار بيك طالما أن هذا الاسم هو العالق بذهنها ..

١٢

كان واقفا فى الشباك يتلصص فعرفت انه فى انتظارها وأحست أن هريدى لم يعد . مع ذلك طرقت باب الشقة فانفتح فى الحال قبل انتهاء الطرقة . قالت : « تصبح بالخير .. هريدى وصل ؟ » . قال وعلى شفتيه ابتسامة لزجة : « وصل ـ اتفضلى » . دخلت فأغلق الباب فى هدوء .. تحركت فى الشقة وجلة حيرى . أشار

لها الى الحجرة الداخلية فاتجهت نحوها وهو خلفها · قال : «ادخلى» ، فدخلت فلم تجد سوى الفراغ فارتدت مستديرة فاذا به يسد الباب في وجهها ويدفعها الى الداخل ، ثم ارتمى على صـــدرها كالخرقة كممسحة البلاط تشر ماءا قذرا : « عشان خاطرى أنا فى عرضك اعملى معروف أبوس رجلك » ولافائدة · لهاثه يفيض بريالة وعرق ذى رائحة كريهة ، وهى بكل قوتها تدفعه كل دفعة ودفعة كأنها تقذف بكرة من المطاط ، يرتد عائدا اليها مهيض الجناح بحركات أكثر جرأة ونذالة كأنه يرحب بالمهانة مقابل أن يمسك ثديها بقبضة عنيفة لبرهة أو يتحسس مؤخرتها · شعرت بغاية القرف كأنه حشرة البق تصر على السرحان داخل الجسد · أصرت على ألا تستسلم له · ضربته بالكف على وجهه · هددته بالصراخ وطلب الحكومة · لشدة عجبها لم ينفعل بل نظر اليها قائلا فى قوة زائفة : « طب امشى بره مع ألف داهيه » ، ثم أشار لها الى الباب فتقدمت تفتحه بحذر فاذا به يطوقها من الخلف بقوة شديدة كالجنازير الحديدية كالقبر ، وكان قد استقر تماما فى قناة ظهرها فصارت بكل تقزز تنتفض صائحة وهو يرتفع وينخفض معها كجرادة علقت بها لا تبغى انفصالا ، ثم اذا به يذوب ينثال فوق الأرض تاركا فوقها لزوجتـــه القذرة ·· فاستدارت اليه كلبؤة شرسة فصارت تبصق فى وجهــه وتضربه بقدميها ويديها وهو يدافع عن نفسه كحيوان أليف · هبت الجدة مذعورة تجرى وأخذت تحاول ابعادها عنه بكل قوتهـــا الواهنة . فضربتها هى الأخرى ودفعتها بغيظ حاقد فوقعت فوق ابن بنتها · فما أن اعتدلت وتماسكت حتى بصقت فى وجهه ورفسته بقدمها فى اشمئزاز ، ثم دفعت بها الى الخلاء لاعنة أباها والذين خلفوها ·

١٣

عادت من جديد الى ساحة السرادقات وموطن الاحتفال بالمولد فما وجدت سوى جموع الفلاحين تمشى كالبهائم مبهـــورة مذهولة تصيح فى لغو غير مفهوم ، يختلسون اليهـــا نظرات فيها شتائم واتهامات وقلة حياء · وكانت تحس أنها تكرههم ولا تطيقهم ·

لكنها كانت تبحث بينهم عن هريدى · سألت عنه فى مطرح الأمس : الجدع بتاع الربابة ده ــ اللى كان بيغنى هنا ليلة امبارح ·· تعرفوش راح فين مع مين ؟ ··

على ان كل الذين سألتهم شيوخا كانوا أم شبانا تركوا مهمة الاجابة عن سؤالها وراحوا يتفرسون جمالها وينبهرون ويكشفون عن نواياهم السيئة · قابلها ناس من أهل قريتها تعرف بعضهم ويعرفونها وتعرف بعضهم ولا يعرفونها والجميع عاكسوها كأنها غريبة عنهم وتآمروا على اصطيادها كفريسة شاردة وحدها ··

تفتقت مشاعرها عن حيلة ذكية ماكرة نفذتها فى الحال ، دخلت الجامع واندست بين النساء العجائز واستغرقت فى نوم هنىء رغم الضجيج الهائل · فلما استيقظت التف حولها بعض العجائز الطيبات وسألنها عما بها فقالت لاشىء فقلن لا فقالت ماذا رأيتن ؟ فقلن فتاة مسكينة منطرحة تهذى طوال يومين بليلتين فهبت مذعورة فأمسكنها وقلن اسمعى تعقلى فأين تذهبين ؟ · قالت أنها تذهب لزوجها هريدى · قالوا هو زوجك اذن ؟ ولكن ماذا فعله بك ذلك المدعو بالباشمهندس وما دخل البوليس وحضرة الضابط عنتر كبايه ؟ ··

ضربت صدرها بكفها : « ياخرابى ·· بوليس ·· عنتر ·· دى خطرفة جامده قوى » · قلن نعم هى خطرفة لا شك ولكن فى الأمر ضابط اسمه عنتر كبايه تريدينه أن ينتشلك من قبضة نذل يدعى الباشمهندس البيك ·· قالت فما كنت أقول عن هريدى ؟ قلن كنت تنادين عليه فحسب والظاهر انه لم يكن يسمع · لم تجد مفرا من أن تحكى لهن ما قد حدث على وجه الدقة والتفصيل ، فمصمصن شفاههن فى اشفاق شديد فيه الامومة الحقة · الا أن ما هز قلبها بقرصة جادة هو أن بعض هذه العجائز كن رغم أمومتهن وحبهن الشديد لها يخفين خلف نظراتهن خبثا عميقا يتهمنها بأنها لابد هى السبب فيما حدث ولابد انها تمشى بالاغواء بين البشر ، فعادت وكرهتهن بعد أن كانت قد أحبتهن ·

عندما نهضت واقفة لتسأل عن هريدى أوقفنها ثانية وقلن لها اذا لم تجدينه فعودى الينا لتحرسك عناية الله وعنايتنا • فقالت لهن انها طبعا سوف تجىء •• لكنها كانت قد قررت ألا تعود اليهن مهما كان الأمر •

١٤

عند خروجها من الجامع واشرافها على ساحة السرادقات خيل اليها انها تخرج من جب عميق وأنها كانت قد ماتت سنوات طويلة ، الصور تستيقظ فى دماغها شيئا فشيئا وببطء شديد • كل شىء تراه كأنها تراه على حق هذه المرة اذ تراه فى صفاء •

كان الليل لا يزال وليدا فخطفت الطريق الى بيت الشؤم تسأل عن هريدى هل جاء أم لم يجىء أصلا • كانت الشقة لا تزال مضاءة كلها والشبابيك مفتوحة وأصوات قريتها كلها تخرج منها • بصوتها الناعم الذى يزجرونها بسببه دائما ويقولون انه عورة ، نادت : يا جماعة يااللى هنا • فأطل لها هذه المرة رأس غليظ تعرفه هو رأس الحاج والد الباشمهندس • ما ان وقع بصره على وجهها حتى اكفهر واربدت ملامحه وصاح فى قسوة مريرة : « هو انتى ؟• عايزه ايه يابت •• جايه هنا ليه يابنت الفرطوس •• انتى حطيتى عينيك م الولد ولا أيه ؟ •• لا •• دانا اسجنك واخلى سنة أبوكى سودة وزى القطران » •

بصوتها ذاك وقد بكت بحرقة خرجت الكلمات منه بصعوبة : أنا جايه أسأل على جوزى هريدى » • فرد بجعيره الذى تشتهر به أسرته : « جوزك حيجى هنا ليه يا صايعه يا بنت الكلب •• امشى انجرى •• اياك أشوف وشك هنا تانى •• وانت يا ابن الكلب تعالى هنا ــ ثم جر ابنه ــ تعرف البنت الصايعه دى ؟ أيه اللى خلا جوزها بيجى هنا » ثم انهال عليه ضربا بالأكف والشلاليت حتى أوشك أن يقتله • الطريف انها صوتت ونسيت ما لحقها ، فلما التم قالت باكية : « حوشو ا الراجل حيقتل ابنه ــ المجنون » ••

فنظروا اليها ساخرين وأغلقوا الأبواب · وارتدت هي الى ساحة المولد تدفن فى زحامها دموعها وأحزانها التى بلا نهاية ·

١٥

ظلت تسير فى الساحة رائحة غادية ووجوه الناس والشوارع والليل كل ذلك يزداد شحوبا · أبداً لا يريد هريدى ان يخرج من مأقيها فهو فى دماغها وقلبها وهو الضوء والظل وهو الباب والحائط، لقد خلصها على الأقل من شراسة أعدى أعدائها ـ أمها ، كذلك خلصها من وجه خالها المكفهر على الدوام ، ومن صفاقة أبناء خالها صبيانا وبنات ··

فى السرادق سألت عن « عنتر كبايه » الذى هش لها وفتح ذراعيه فى سعادة كبيرة حانيه · وكأن شيئا فى ذراعيه المفتوحتين أرغمها على الارتماء فى صدره فطوقها وربت على كتفها فكأنها تحس بدبيب الحياة فى أوصالها لأول مرة ، ووجدت نفسها تبكى ، ووجدت فى قربه راحة كبيرة · اذ وجدت فى نهاية الأمر من يقول لها بصدق : « مالك » · أخيرا وجدت من اذا نظرت فى عينيه لا تجد طمعا ، لا تجد تلك النظرة الحيوانية المتنكرة ، فلما شرعت تحكى قال لها : « مش وقته » ، ثم أجلسها فى مكان جميل ·

تفرجت وابتهجت وفرحت كأنها نسيت كل ما كان من أمرها ، احست كأن ماضيها كله قد سقط فى بئر مظلم وكأنها بنت اللحظة · أى رجولة تلك التى أظهرها عنتر كباية فى تلك الليلة ؟ لم يفعل شيئا مما خطر على بالها ، كل ما لم تكن تتوقعه فعله ، فى جدية شديدة سلم على زملائه واصطحبها وانصرف خلسة · جرى بها الى محطة القطار وركب بها سيارة أجرة الى العاصمة فى الطريق حكت له كل شىء عن قصتها مع خالها وأهل قريتها ، لكنها ـ المكاره ـ لم تقل له انها تزوجت ، بل لم تقل له اسمها الحقيقى ، أما عن الزواج فانها بالفعل لم تتزوج وان شئت فاكشف على وقد صدقت

فى ذلك بشكل ما ، ولكن بأى جرأة قالت له ان اسمها : « البتعه ٠٠ البتعه محمود الخليلى » ٠ تضحك فى شعور بالرهبة كلما تذكرت ذلك ، كلما تذكرت نفسها وهى تجاهد لتنسى اسمها الحقيقى ، لتنسى : « بسيمه أحمد ربيع » ، تشعر بالرهبة كلما تذكرت عنتر كبـاية وهو يجرى من مكتب الى مكتب ومن قسم الى قسم يقابل ويبرطل بسخاء من أجل تسنينها وعمل بطاقة شخصية لها على أساس انهم ناس يقضـون عمرهم فى سفر بعيد لاحياء الحفـلات والأفراح وهـم أحوج الناس الى البطاقة الشـخصية ٠ حتى الآن لا تدرى كيف تمكنت من نسيان اسمها الأصلى والتعلق باسمها الجديد كأنها ولدت به ، غير أنها لا تنسى مطلقا لحظة جلوسها امام المأذون للمرة الثانية حيث ناداها باسمها الجديد ودونه فى القسيمة ودون بجواره أنهـا قـد وهبت نفسها لعنتر كباية على سنة الله ورسوله ٠

١٦

شقة جميلة واسعة يسكنها فوق جبل الحواوشى وبحذاء مقابر كثيفة ٠ كانت جثث الموتى تدفن فى البيـوت المجاورة باعتبارها أحواش معدة للدفن ٠ كان ذلك يصيبها بكثير من الانقباض فى أول الأمر ، لكنها بين جثث الموتى تعلمت كيف تدب الحياة فى جسدها كأنشط وأنقى ما تكون ، كيف تتخاطب كل عضلة فى جسدها مع الرائى ٠ أكثر من هذا تعرت على كبار المهربين والأشقياء والعظماء والوجهاء ٠٠

كان عنتر كباية يعرض عليها جرائد ومجلات كثيرة كل يوم ويقول لها : « أترين هذا ؟ » ويشير الى صورة شخص مهيب مغرود على الصفحة ٠ تتأمله لبرهة صائحة : « انه فلان ٠٠ يوه يقطعه ٠٠ الذى فعل كذا » ، وتحكى كيف كانت تقوم بالأعداد لسهرة مخدرات كبيرة كان من بينها هذا الزبون وانه تقيأ وخطرف وشخ على روحه ٠٠ الخ : فيذعر عنتر كباية ويصيح واضعا كفه على فمها : « ش ش

ش .. يخرب بيتك .. انه كذا وكذا وكذا » . ويصدع رأسها بالقاب وأشياء لم تسمع بها من قبل ولا تفهم لها معنى ولكنهـا تلخصها فى ذهنها بأن تلك شخصية كبيرة فى البلاد ، وان هذه شخصية أكبر ، وأن شقتها فى الواقع ليست شقتها بل هى وكر لاجتماع هذه المجموعة الهائلة من شخصيات تراهم فى الصحف وتسمع أسماءهم فى الراديو .

١٧

حارت فى أمر « عنتر كباية » ولكنها كانت تحبه ولا تتوقع منه العيب أبدا . يوم دخلتها عليه اكتشفت لماذا هى جميلة ولماذا يحب الناس الجميلات ، كما اكتشفت أشياء كثيرة جميلة لم تكن تعرف عنها شيئا . فمنذ أن وقفت أمام مرآة التسريحة رأت أمامها سيدة أخرى لا صلة لها ببسيمة بنت الحقول وتلصيق الجلة والتشرد بين دروب المهانة ليل نهار ..

رأت نفسهـا سيدة كالسنيورة التى تراهـا فى المجـلات والتصاوير المعلقة ، أمام عينيها دفع « عنتر كباية » فى الفستان الواحد جنيهات تصلح مهرا لابنة العمـدة ، وقال ضاحكا ان ثمن الفستان الواحد يقبضه من صاحب السيرك طوال أسبوع المولد ، فلما سألته من أين تجىء بالباقى يا عنتر يا حبى ؟ قال ان ربنا يرزق الدود فى بطن الحجر فقالت نعم ، ولم تعد تسأله بعد ذلك عن شىء من هذا أبدا ، لكنها من فرط الشعور نحوه بالشكر والحب وطنت النفس على الا ترفض طلبا له مهما كان الأمر ..

لكنها فوجئت ان الشقة ليست مجرد شقة بل مدينة ، ولم تكن لها وحدها بل لعشرات من الأفندية والبكوات والسيدات اللائى كن يغرن منها ويحببنها فى نفس الآن اذ يتطوعن بتعـديل ثيابها وتلقينها أصول اللبس والا عيبه ومغزاه . لم تقلق من هذا الزحام بل أنست اليه فأدخل على قلبها الونس ، ولم تشعر بثقله لأن

عنتر كباية كان يملك الزمام ويستطيع اخلاء الشقة من كل زوارها في لمح البصر وتهيأتها لزوار جدد أو لها هي وحدها لأيام طويلة . في الواقع لم تكن تفهم من ذلك شيئا ولم تكن في الحق تريد أن تفهم طالما انها ترتع في نعيم مقيم وتستحم بالكولونيا .

١٨

الانسان لا يستطيع ان يغلق عقله بارادته ، ولم يكن قد بقى في ذهنها من ماضيها سوى كلمة قالتها حماتها السابقة أم هريدي : بنت الأصول تعيش مستورة ولا ترى الفقر أبدا لأنها تستتر على زوجها وعيشها فلا تفتش وراء الرزق من أين جاء ولا كيف .. والبتعة ، أو الست بتعه هانم ترى وفودا تلعب القمار في شقتها حتى مطلع الفجر . رجال كبار ذوى مهابة ينحنى لهم حتى أولئك الذين يغلبونهم ويسحبون نقودهم .

المجنون أوراها صورا في الجرائد لرجال يلبسون اللباس العسكرى والجماهير تهتف لهم وتلتف حولهم . أشار لها على صور أخرى تبدو في منتهى الجدية والقوة مع انها تراهم في الشقة بلا جدية وبلا أى قوة على الاطلاق بل تراهم في ضعف شديد يهزءون بعضهم بعضا بشتائم قبيحه مخجلة . قال عنتر كباية لقد أصبح هذا مديرا لمكتب هذا ، وأصبح ذاك مديرا للجهاز الفلانى وما أخطره من جهاز ، وأصبح ذاك مسئولا عن كذا في البلاد ... الخ .

ثم قال أيضا انه يعرفهم منذ سنوات بعيدة حيث كان كل منهم زميلا له في شيء ، في الكتاب أو المدرسة أو الحارة أو النادى أو هواية الفن أو الصعلكة أو حب النساء أو المقامرة . قال لها كذلك انهم سوف ينسحبون عن عالمه شيئا فشيئا وسوف لن يرفعوه الى مصافهم أبدا ، انما سيظل في نظرهم دائما « صبى العوالم » الفاسد الذى لا يحتاجونه الا في مسائل لا يجيدون الاتصال بها ، فالواحد منهم مهما كبر أو عظم فان أشياء فيه تظل كما هى لا يمكن

ان تتغير أبدا وان تغير شكلها فالمصاب بداء الحشيش كالمصاب بداء النساء كالمصاب بداء الأفيون كالمصاب بداء الرشوة كالمصاب بداء السرقة كالمصاب بداء الكذب كالمصاب بداء التملق ·· محسوبك عنتر كباية تربية الدرب الأزرق وحارة الجوانيه وجبل الحواوش كنت أصادق وأزامل أولادا من كل مكان ·· حكم البلاد ياتبعة لا بد له من ملك يرث العرش أبا عن جد · ولكن مادام لم يعد هناك ملك يتسلم ارثه ، ومادام عرش الحكم فى البلاد قد أصبح مباحا لعامة الشعب فان الأمر يجب ان يتاح لمن كان أجدع وأعدل ، عنتر كباية مثلا ، خيره على الجميع وخدماته تغرق الجميع وشهامته مشهورة ولكن هل يجيء له عرش البلاد ؟ لا طبعا ، فللدنيا أحوال غريبة · تزحزح عرش البلاد حركة فيقع فى أيدى بعض من كانوا يشربون ويتصعلكون ويتصيدون النساء معه ·

تضحك البتعه من كلامه وتنحاز الى صفة على اعتبار ان الأمر برمته من قبيل الأساطير ، فهى تصدق أن يجور الزمن على كل الناس الا على الملك ، وأن ينهزم كل الناس الا الملك ، وأن يتسامح كل الناس ويتنازلوا عن حقوقهم تجاه الآخرين الا الملك لا يتسامح فى ملكه أبدا ولا يتنازل عن عرشه الا اذا كان والعياذ بالله قد أصابته جنة · صحيح انها رأت صورا وكلاما منشورا فى الصحف ولكن أليست هذه الصحف يطبعها ناس ؟ ربما لم يعلم الملك بها أو بهم والا فانه لا بد أن يعاقبهم على نشر هذه الأكاذيب عنه ··

لقد ظلت « البتعة » تنتظر زمنا طويلا ان يصل خبرهم الى جلالة الملك وتسمع ان العساكر الهجانة قد جمعتهم ـ كما يحدث فى قريتها ـ وضربتهم بالكرابيج على مؤخراتهم تأديبا لهم · لكنها فوجئت بأن الشعب كله يتحدث عنهم والراديو يذيع أصواتهم تتكلم فى حماس وانفعال غريبين لا تدرى ما المبرر لهما ، والجميع يهتف ·

١٩

ثم انها بدأت تلاحظ ان الشقة فرغت فجأة الا من ناس بلا

شأن . كان عنتر كباية يجلس أمامهم متباكيا يذيع أخبارا غريبة يزعم انها حدثت على يديه فى هذه الشقة وبين هذه الجدران التى لو نطقت لأيدته بلا جدال ، من قبيل انهم ضحكوا عليه وأكلوا الكوسة فوق دماغه . ألم يحتفظ لهم فى هذه الشـقة بأسـلحة ومنشورات ؟ ألم يختبىء فيها ناس منهم أياما بلياليها . ولا يقولون له عن السبب ؟ ألم يستخدموه فى نقل رسـائل شفهية وكتابية لناس غريبى الأطوار لا يعرف كيف كان من الممكن أن تنشأ بينهم وبينه صلات ؟ .. هو حمار وابن كلب من الأساس ، كان يجب أن يدس أنفه فى كل شيء ويعرف حقيقة هذا الذى يشارك فيه ، لكنهم طول عمرهم هكذا يعرفونه « ليستكردونه » وهو من طيبة قلبه يطاوعهم ويفعل ما يطلبون منه دون مناقشة حتى لا يبخلون عليه بصـداقتهم ، كان يخشى ان ينـاقش أو يثـير وجع الدماغ فينصرفوا عنه وهو فى الحق يتشرف بصداقتهم ويستفيد من وراء معرفتهم ..

مرة أخرى تضحك « البتعة » من طيبة قلبه وتشفق عليه ، خاصة حين كان المستمعون اليـه يفزعون من كلامه ويصيحون : « ما تودينا‌ش فى داهيه يا مجنون » . العجيب انهم جميعا راحوا فى داهية بعدها بأيام قليلة .

٢٠

كانت أياما سوداء . جاء رجـال عند مطلع الفجر واقتادوا عنتر كباية بثياب نومه الى حيث لا تعرف . ظلت تنتظره أياما وأسابيع وتسأل عنه فى الأقسام والمستشفيات دون جدوى . كل من قابلتهم فى تلك الرحلة المضنية ظهروا كأنهم يعرفون حقيقة الأمر وكان بامكانهم احضار زوجها من تحت طقاطيق الأرض . تحصل على مواعيد بشأنه لتجد نفسها محاصرة فى شقة أو فى كازينو أو فى أى ورطة سوداء تلجأ فيها الى الصراخ والفضيحة فى طلب الخلاص . كان بعضهم من معارف زوجها الذين انقطعوا عن زيارتها

يلتقون بها صدفة فيهمسون لها بوصايا غريبة : « أتعرفين فلان الفلانى الشهير بكذا : » فتقول نعم كثيرا ما ناولته الحذاء بيدى . فيقولون لها : فى يده الخلاص » . لكن آخرين همسوا لها محذرين : « بل فلان هو الأهم » ..

ولقد تذكرت هذا الأهم ، كانت تظن انه ولد تلميذ يشبط فى ذيل أقاربه الكبار حين يذهبون الى مشوار ، كان بكل نشاط وحيوية يتطوع عند احتدام السهرة بالقيام والذهاب الى المطبخ ومشاركتها فى شغله ، كما يقوم بتوضيب الجلسة ، ان كئوسا فينظفها ويهيىء الثلج فيها وان حجارة فينظفها ويكرسها ويرصها نارا .. أفيكون هذا الجدع قد أصبح فى هذه الأملة التى يحكون عنها ؟ . والله لتذهبن اليه وتضع عينها فى عينيه ، ان نسيها فما مداعبات المطبخ ببعيده ، وتحككه فيها وتماديه فى ذلك تشهد بهما صيحتها المدوية التلقائية التى أسكتته وأضحكت عليه من انتبهوا لنواياه الخبيثة وراء تطوعه بالخدمة ..

منذ تذكرته تذكرت ما كان يسطع فى عينيه من نظرات حاقدة ضاغطة ، نظرات لم تكن تستريح لهـا مطلقا . لهـذا ترددت فى الذهاب اليه . شجعها على مزيد من التردد همسـات الشعب فى أذنيها واذن غيرها ممن فقدن أزواجهن بأن تريح نفسها بدلا من الجرى وراء السراب فقد وقع زوجها فى قبضة الطاغوت والحلم بعودته سراب . لكن انذارا من صاحب البيت وصلها يأمرها بمغادرة الشقة فى أيام قليلة . وكانت قد أصبحت وحيدة تماما حتى جدران الشقة التى أيقنت من أن لها بالفعل آذانا أصبحت شاهدة على اغترابها . لكن أين تذهب وهى على الأقل جدران تسترها ..

٢١

لبست هدومها الأنيقة الثمينة وأغلقت الشقة وركبت عربة أجرة وأعطت للسائق ورقة فيها العنوان . اضمحل الشبق فى عينى

السائق وآب غزله البهيج الى شعور فادح بالخوف كأنما انطفأ فيها البريق الحلو الى الأبد • ظل يمشي بها في تؤده ، ولا يدير رأسه نحوها حتى وصل الى العنوان فنزل وفتح لها الباب قائلا : « اتفضل يا أفندم » • فأعطته الحساب وهي تكتم ضحكة جذلة من رفضه للحساب • ثم انها كافأته بترك بقية الفكة •

كأنما في عينيها ووجهها وكيانها سرا يقول للرجل : قف ، فيقف • ان تكن قد رأت بسبب تشردها كثيرا من الانواء فانها قد رأت بسبب جمالها كثيرا من الأسرار والأخبار • طلبت من البوابة المحاطة بالعسكر والشارات الحمراء مقابلة الاسم المدون في البطاقة ، فاقتيدت في الحال اليه ، ولا بد ان هيبة جمالها قد صادرت فيهم كل الأسئلة • اذا به خفا كما يقولون مهم الى حد كبير جدا • العشرات يحرسونه والمئات يطلبون مقابلاته ، وهو من فرط ذلك في عز وبغددة كأنه ملك الملوك ••

كانت في طريقها اليه قد عرفت ان كل ملك يظهر لها يتضح أنه مجرد بواب لملك آخر ينضم هو أيضا الى جموع الواقعين في عرضه •

ما ان رآها حتى هب في استقبالها كأن الدنيا نفسها قد أقبلت عليه بالسعد وان ظهر خلف نظراته الولهى شعور غامض بالخوف والتوجس • أجلسها أمامه على كرسي وثير في حجرة وثيرة فشعرت بالابهه وبدا في ناظريها رجلا سامقا من علية القوم ليس فوقه حاكم آخر • غير انه صغر في ناظريها بعد برهة حين انتفض واقفا كأي خادم مذعور حين رن له جرس فوق دماغه مباشرة ، ثم اندفع يجري تجاه باب خفي ودخل مهرولا ثم ما لبث ان خرج مهرولا يتعثر ، وصار يبحث عن أوراق يأخذها ملهوفا عاد بها الى الداخل فغاب قليلا ثم خرج يمسح عرقه ، ثم تلعثم في أذنيها والمهانة واضحة عليه محاولا افهامها بأنها ارتكبت خطأ لا يغتفر بحضورها اليه وان عليها بالانصراف حالا ولسوف يلقاها في الخلاء ويعرف ماذا تريد ، وعلى

العموم فان كانت تريده فى أمر عاجل فانه سوف ينتظرها الليلة فى هذا العنوان ، وسحب بطاقة دسها فى يدها خلسة ·

لم يزعجها من ذلك شيء سوى ورود كلمة « الليلة » فى الحديث ، فلقد باتت تكره هذه الكلمة لأنها تكشف لها دائما عن نوايا سيئة ··

٢٢

لكنها ذهبت اليه · فى المساء استقلت عربة الى منطقة سكنه وصعدت عمارة عالية وطرقت باب شقة انفتح لها عن أضواء كابية وآثاث عريق · كان فى استقبالها وحده وبثيابه المنزلية ولا أحد فى الشقة غيرهما والشيطان ثالثهما ·

اقتادها مباشرة الى طرقة مستديرة تشرف على بار أنيق · فاذا بالمأكولات مرصوصة جاهزة للأكل واذا الكئوس مهيأة للشراب · صعد الى كرسى وأشار لها على المواجه فصعدت هى الأخرى بقليل من الارتجاف · تناول كأسا وعلقه فى الهواء قبالتها صائحا : « كأسك » فتناولت هى الأخرى واحدا رفعته مثله فلطمت كأسه فأحست بسعادة فائقة رغم محنتها الفائقة ·

كان القلق واضحا فى محياها فقال لها : « اشربى » · فلما ترددت هبط عن كرسيه وجذب التليفون وادار قرصه ثم صاح فى عشم قليل الأدب : « أيه ياد يا ·· انتوا دايرين تمسكوا الناس عاطل مع باطل ولا أيه · فيه أيه بالضبط ·· هيه ·· هيه ·· هيه ·· طب المسكين عنتر كباية ده ·· ماسكينه ليه ؟ بالزمه مش مكسوفين ؟ ·· يا راجل بلاش عبط امال ·· تقارير أيه وبتاع أيه ؟ تقارير خايبة زى اللى عاملينها واللى مصدقينها اسمع ·· الراجل ده أنا سمعت انه على علاقة بفلان وفلان ·· يا ترى ده صحيح ؟ ·· مانا ما أعرفش بصراحه طب ما تقوللى يمكن أنا مغشوش ·· أيه علاقته بيهم بالضبط ؟ ·· آه ·· آه ·· آه ·· أنا معلوماتى

انه واد ارتيسست على باب الله . نمره فى شارع الغرام فى مولد فى كازينو فى فرح .. آه هو لسانه طويل شويه .. طيب .. اوكى .. اوكى .. سلام » ..

ثم وضع السماعة وصعد اليها وكانت تتـــابعه فى انبهار شديد ، فلما واجهها ركز فى عينيها نظرة تنم عن رجولة مبهرة ثم قال بثقـــة : « كان من المفروض ألا يخـرج عنتر كبابه من المعتقل مدى الحياة .. ولكن .. اكراما لخاطر عينيك العظيمتين .. فسوف أفرج لك عنه .. ولكن ـ ما الأمر بالضبط ؟ ماذا كان بينه وبين فلان ؟ . اشربى من فضلك .. هل فلان هو الذى عرفه بفلان ؟ .. اشربى يابطة .. وهل لاحظت شيئا ؟ من الذى كان يخسر فى القمار لمن ؟ هل كان يخسر عن جدارة أم يخسر عن عمد ؟ .. عنتر كباية منذ متى تعرفينه ؟ هل كان واسطة بين فلان وبين أقاربه فى الصعيد ؟ هل تكلموا أمامك عن أسلحة ؟ هل جاء بسيرة فلان ؟ ـ ذعرت حين نطق فلان هذه المرة دون ألقاب كأنهما صديقان ـ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ .. » ..

وهكذا شعرت بالهلهلة ، ثم بالخناق يضيق حول رقبتها وبأنها يجب أن تنصرف فورا . فلما شرعت تهىء نفسها للانصراف جاءها احساس بأنها هى الأخرى قد دخلت السجن المؤبد . أرادت أن تجرب امكانية الخروج فنهضت واتجهت الى الباب مســـتأذنة لمشاغل وراءها كثيرة . لكنه سد الطريق بنظرة من عينيه أفهمتها ان ذلك مستحيل الا اذا أذن لها فى لحظة صفر معينة ..

« لسه بدرى يا هانم .. الحديث لسه ما انتهاش » ، ثم شرب جرعة أقشعر لها وجهه . رغم احساسهابالفجيعة جلست اجلالا لكلمة يا هانم وحدها . وضعت ساقا على ساق لتليق جلستها بهانم حقيقة . ضحك هو اذ اكتشف فى جلستها هذه شخصيات كثيرات من هوانم السهرة فى شقة عنتر كباية . أشار لها الى البار فاعتذرت بأن الخمر بجميع أنواعه يجلب لها المرض وانها جاملته بكأس دليل

معزته عندها . وكان هو قد أتى على نصف الزجاجة فقام اليها فى الأنتريه وجلس بجوارها فنفذت الى خياشـــيمها رائحة الخسة . بنظرات خوف تأملت وجهه ورقبته ، كل ملامحه ، فتأكد لها انه من أصل غير ملوكى ؟ بل انه من غير أصل ، انه لا يختلف عن ذلك الذى رسخ فى ذهنها باسم « مختار بك » وهو ليس بمختار ، فى عينيه نفس الضعف الذليل ونفس الخســـة ونفس الرغبة فى المساومة والتنازل الى أبعد الحدود مع فارق بسيط هو أن هذا أكثر سيطرة على نفسه من ذلك المدعو مختار ، صبى هو فى ثياب رجل، خسيس فى موقع كرم ، نذل فى اهاب سلطان : الضعفاء والأخساء أعداء من يكتشف حقيقتهم ، وهكذا لانت ملامحها قليلا وأظهرت مدى سعادتها بمعرفة سيادته ..

راح يلقى على سمعها كلاما أغرب من الخيال ، منه أنها هانم محترمة وابنة ناس كما يبدو فكيف قدر لها أن تقع فى قبضة متشرد مثل « عنتر كباية » ؟ ومنه ان « عنتر كباية » قواد تزوجها ليبيع جسدها بأغلى ثمن . ومنه ان « عنتر كباية » كما تقول التقارير الرسمية يعمل جاسوسا لصالح العدو الاسرائيلى ؟ هبت واقفة من فرط الذعر وقالت له بكل انفعال ان عنتر كباية لم يبع جسدها لأى أحـــد . فقال لها انه يبيعه دون أن تدرى هى ، اذ أن عمل « القوادة » قد تقدم هو الآخر وصار اللحم البشرى يباع بالجملة ، أى أن القواد نفسه قد يعمل قوادا دون أن يدرى لأن هناك قوادا أذكى منه وأوسع خبرة وحيلة واتصـــالات يسيطر عليه من خلال موضوع آخر . كذلك اللحم الذى يباع ، الأجسام الحلوة الطرية مثل جسم سعادتك تنطرح بكل براءة على أسرة الفسق موهومة بحب أو بمصلحة أو قضية ، وواقع الأمر أن هناك من قبض الثمن لتدور هذه الدائرة حول هذا المركز ..

لم يستطع عقلها الصغير أيامها ان يستوعب معنى كلامه وان حفظته جيدا . خبطت الأرض بقدمها صائحة بأن عنتر كباية لا يمكن أن يكون جاسوسا لأحد ، هى لا تعرف ما هو العدو الاسرائيلى

ذاك ، ولا تعـــرف ما الذى بيننا وبينه أو بينه وبيننا ، وكذلك لا تعرف ان كانت محل اقامة العدو الاسرائيلى ذاك فى القاهرة أم الشام أم لبنان أم فلسطين من هذه البلاد التى تسمع عنها كثيرا، هى لا تعرف أى شيء عنه ولكنها تسمع الراديو وترى فى ذلك المسمى بالتليفزيون الموجود حديثا عند الجيران ، فلا تفهم من قول المذيعين شيئا ، لكنها قد لخصت لنفسها المسألة بدون وجع دماغ فى أن ثمة شخص اسمه العدو الاسرائيلى يناصبنا العداء لله فى لله ويتربص بأمة محمد ويلقى لها الرعب والفزع فى الشوارع والحارات وقد يجد الانسان قطعة ذهب أو جواهر ملقاة فى الأرض فلا يقربها خشية أن تفصح عن قنبلة تنفجر في وجهه ‥ فان يتضح أخيرا أن عنتر كباية جاسوس لهذا العدو معناه انها كانت متزوجة من هرم الجيزة الأكبر ‥

ضحك ذلك الذى أسمته بمختار الثانى وهو ليس بمختار ، ووقف متقدما نحوها فى مرح طفولى ووصفها بالطيبة الشديدة فيما يضع كفه على ظهرها فأحست بقشعريرة كأن لزوجة علقت بها، ثم عاد فاستغرق فى ضحكة مفتعلة ثم تصنع انه داخ لكى يريح رأسه على كتفها . ظلت واقفة مسمرة فى مكانها لتكتشف نواياه الحقيقية . كانت أنفاسه الساخنة ذات الفحيح النتن تكاد تصنع قرحة فى رقبتها ، ثم اذا بقطعتين من النار تلسعانها فى رقبتها فتشد نفسها مذعورة وشفتاه كبوز خنزير يلاحق جيفه . أبدا لن تكون جيفة لتدع هذا الخنزير يلتهمها . هى واثقة من انه نصاب كبير . لقد حكى لها عن عالم القوادة المتقدم وكيف يكون . وهى مستعدة الآن لتحكى له عن عالم النصابين وكيف يكون ، لتبين له كيف انه نصاب ومنصوب عليه دون أن يدرى ‥

دفعته برفق فتمايل مترنحا فأسندته فركبته عظمة مفاجئة ، حتى انها انفجرت رغما عنها ضاحكة من لغد العظمة الثابت تحت ذقنه أدوارا تحت بعضها ، ومن تكشيرة ملكيـــة لا أساس لها من الصحة تعتلى حاجبيه ، ومن نظرات احتقار تحتقن منه الجفون تكاد

تنفجر . ضاحكة أجلسته على الكنبة المريحة وفكت له زرار المنامة . ثم سحبت حقيبة يدها وتأبطتها كالهوانم ، ثم ربتت على ذقنه في مداعبة مشفوعة بابتسامة تأمن بها شره ، ثم أنها مسته بالخير واتجهت الى الباب متلكأة غير واثقة من أحقيتها في الخروج . فلما وصلت الى الباب ووضعت يدها على المقبض استدارت ناظرة اليه فوجدته متسمرا في مكانه يشيعها بنظرة احتقار بالغة الحقد ، فألقت بالمداعبة الأخيرة : « العظمة لله وحده » ، فتحت الباب وأغلقته في الحال وراءها . ثم وجدت نفسها في الشـــــارع منطلقة بكل حرية تتقافز كغزال يريد أن ينفض عن نفسه ثياب المدينة . وكانت قد قررت أن تختفي عن هذه الوجوه الى الأبد ، ليذهب الجميع الى الجحيم بما فيهم عنتر كباية ، لو لم يكن يستحق الجحيم ما ذهب اليه بقدميه ، لكل انسان عمله ، ومعرفته بهؤلاء الناس الشياطين هي عمله غير الصالح .

٢٣

جمعت عزالها وسلمت مفتاح الشقة لصاحبها الجديد الذى تكفل بدفع قيمة الايجار المتخلف ومبلغا كبيرا لها ومثله لمالكها الأصلي . كان واحدا من المترددين على الشقة في حضور زوجها ، وأغلب الظن أنه واحد من المهمين أو خدمهم أو المنتمين اليهم بأى سبب . هي الأخرى لم تقل له أين ستذهب رغم الحاحه في السؤال واصطناعه البراءة . الواقع انها لا تدرى ان كان امتناعها عن ذكر عنوانها الجديد له خشية منه لاتصاله بالناس اياهم أم لشعورها بالخجل من سوء المستوى الذى آل اليه حالها ؟ » .

مهما يكن من أمر فقد خدمتها الظروف بولد حليوه في عينيه غلب شديد وحب للحياة أشد . كانت تعرف أنه بعض نفاية ماضي عنتر كباية ، حيث كان يتردد عليه باعتباره نجما في عالم الغناء وذا صلات واسعة يمكن أن يأخذ بيده ويعرفه بأحد المسئولين . وكانت تلاحظ ان « عنتر كباية » يعامله بقسوة ولا يطيق رؤيته الا لفترة محدودة . لم تكن توافق « عنتر كباية » على هذا بل على العكس ترى انه ولد منكسر يستحق الشفقة والاحسان ، ثم انه

نظيف المظهر لا يجلب المعرة • الا أن عنتر كباية كان يغلق باب الحديث عنه دائما • ثم ظهر كأن قلبها قد صدق حين اختفى عنتر كباية وراء حجب الغيب فلم يسأل عنها أحد سوى هذا الولد الحليوة هاوى الغناء ، الذى هـو من نفس حارة عنتر ويعرف أهله كلهم ويعرف الكثير عن ماضى عنتر كما يعـــرف كل الذين يعرفهم ويعرفونه •

انفض الكل عنها بالخوف أو بالنذالة لا تدرى ولكن الولد الحليوة « سعد القيم » هو الذى بادر بالاتصـــال بها • كان هو الوحيد الذى اعتمدت عليه فى أشياء كثيرة ومشاوير طويلة ومهام شاقة • كان يخدمها بكل تواضع وحب ولا ينصرف الا حين تأمره وتغلق خلفه الباب والنور لتنام • فما ان علم بموضوع الشقة حتى انطلق يجرى وبعد أيام قليلة جاءها بخبر العثور على حجرة بمنافعها فوق سطح عمارة كبيرة فى كفر العوالم بحى الحواوشى •

برغم استقلال الحجرة وانعزال كل شقة عن الأخرى فانها أحست بالعرى • فحيث تصبح العمائر العجوزه والبيوت الكالحة مجرد جدران متهالكة تفصل بين كتل من اللحم البشرى يصبح لا بد لكل امرأة مثلها من غطاء تستتر به جسدها الفتى وترد به غائلة الفتنة والأعين المتلصصة والألسن المتتبرأة من نفسها • بحثت فى محيط حياتها وفيما حولها من شقاء ، فلم تجد أصلح من « سعد القيم » ، فما ان فاتحها فى الزواج على استحياء حتى وافقت •• ورزقه ورزقها على الله •

٢٤

لم يكن الا نصـــابا عريقا يختفى عمره الحقيقى خلف وجه لا ينبىء عن عمق زمنى • اتضح لها انه متعهد حفلات على قد حاله • يقاولك على فرح لك فيجىء بفرقة قوامها ثلاث كمنجات وعود وناى ورق وطبلة وراقصة كل ذلك كوم وهو ،وحده كوم آخر ، انه مهرج الحفل الذى يتلقى « النقوط » ويردد أسماء أصحابها زاعقا بطلب السلام الى مالا نهاية ، أو زاعقا بموال أحمر ينساب منه الى أغنية

يا حاسدين الناس ينساب منها الى أغنية يا امة القمر ع الباب ، كل أغنية قد تتعاشق فى الأخرى وتكملها كله ماشى طالما انه يثير ضجيجا ويصنع جوا ويجيد ترديد الأسماء فى الميكرفون بالطبل والبروزة ، دائرة معارف هو يعرف أسماء نجوم الاحياء ومعلميها الكبار ..

٢٥

صبى العوالم العجوز ألبسها فاخر الثياب ليضمن ولاءها ، وعلمها الكفت . كانت راغبة فى أن تتعلم الرقص حتى النخاع ، كأن ثمة جبال من الآلام فوق صدرها لن يذيبها سوى أن تظل ترقص الى آخر لحظة فى عمرها .. ترقص للرقص وحده وليس لشيء آخر .

مع ذلك فقد كان صعبا أن تصبح راقصة لولبية ، وكان يائسا يقول لها انها لو نسيت حياء الفلاحة وكسوفها فسوف تكون أعظم راقصة . ثم انه اضطر الى الامساك بالكرباج واظهار العين الحمراء ، بهذا وحده اتقنت تحريك كل عضلة فى جسدها كما أتقنت توظيف كل حركة فى مدلول جنسى واضح يشيب له المحتفلون فيتصايحون ، يصعدون الى خشبة المسرح ليلصقوا ورق البنكنوت الاحمر والاخضر على جبهتها وعلى بطنها .

٢٦

جمع صبى العوالم ثروة هائلة لكنه صرفها على زوجاته السابقات وعلى الشم والتحشيش واكتشاف الفتيات الضالات . كان يعرف « كحكوح » ويتردد عليه دائما اذ يستخدمه فى توصيل بعض الطلبيات فى القرى والمحافظات المجاورة . يضع البضاعة فى علبة الكمان أو علبة الاوكورديون أو فى احشاء الطبلة . وفيما هو متوجه لاحياء الفرح بفرقته يكون التاجر قد حضر كمدعو فى

الفرح ويصعد بنفسه لعمل الواجب بتقديم « النقوط » لأهل الفرح ثم ينزل وقد حشر البضاعة في عبه وجيوبه أو رماها لأحد صبيانه قائلا : « سخنوا الطبلة دى على النار شوية » أو : « شوف نجار يفتح علبة الكرديون المزرجنة دى » ..

بدورها قامت البتعة في توصيل الطلبيات خير قيام . كانت هى التى تحتضن آلة البضاعة وتبقيها فى حوزتها طول الطريق بل وتقوم هى بتسليم الحمولة فى لمح البصر .. أما صبى العوالم فجبان خواف ما عليه الا أن يقبض من جميع الأطراف ويضع فى جيوبه وما عليها حين يداعب خيالها فستان جميل الا أن تنكد عليه عيشته أياما طويلة وتصطحبه عنوة لشراء ما تهوى .

آخر ما زهقت منه عاكسته فعاكسها فتنكر لها ظانا انه بذلك يكسر كيدها مؤقتا . لكنه من سوء حظه وقعت فى يد كحكوح الذى دخل ليصلح بينهما من طرفه فأجاد كحكوح المهمة وقام باصلاح الوضع من أساسه اذ دبر لها شقة صغيرة فى منطقة انظف قليلا . وكانت تجيد ملاعبته ، ترخى له حبل الأمل فيها ثم تشده وترخيه بدربة فائقة حتى استفادت منه قدر الامكان . قدمها لأحد كبار المهربين على مأدبة العشاء فى ليلة بارقة . كان المهرب شرقاويا قوى الشخصية لديه رعب وحساسية من النساء خاصة الحلويات منهن ، وقد تعلم ان النساء فى جانب والشغل فى جانب آخر ، وأى نساء فى حياته لا بد أن يكن من خارج اطار العمل ، مهما كان جمالها عظيما ، اذ هو كما يقول دائما يلعب بالنار والنساء دائما هن مصدر الاشتعال .

ليلتها لم تفكر فى تسليم نفسها له ، ولكنه والليلة لما تكد تنتهى وثق من نقاء سريرتها ومن أنها ليس من طبعها الغدر . فى اليوم التالى بعث بها فى مهمة ادتها بنجاح . كان عليها أن تذهب فى عربة أجرة الى حى المعدية وتقابل رجلا فى العنوان الفلانى الذى

سيعطيها ثلاث أطقم « بستم » ، قالت له ما هو البستم ؟ قال لها انه طاقم يركب فى موتور السيارة ، ثم أمرها أن تحضر بالاطقم الثلاث اليه فى موعد غايته منتصف الليلة التالية فى مقهى بميدان المشهد الازرقى .

٢٧

ما أن انفتح باب شقة المعدية أمامها حتى تسمرت فى مكانها ذاهلة ، فقد امتلأ الباب بشخص تعرفه جيدا ، رأته فى شقة عنتر كبابه أكثر من مرة . كان على ما يبدو شخصا غاية فى الأهمية ولذا فهو لا يعرفها اذ هو لم يجلس فى شقتها طويلا ومن ثم لم يرها الا لماما وللحظات خاطفة عابرة . قال لها : » أهلا وسهلا .. تفضلى » ، ولم يبد عليه أنه عرفها . فدخلت تتعثر فى الخجل والاضطراب جلست حيث أشار لها قرب مدخل الباب ثم اختفى داخل الشقة ، وقالت هى لنفسها ان هذا الشخص ـ على ما تذكر ـ هو مدير مكتب أحد رجال الثورة الازرقية وهـو على الأرجح ذلك المسئول عن الجيش أو المعسكر والله أعلم ، انها لا تحبهم ولا تحب اسماءهم ولا تحب تشغل نفسها بالتمييز بين هذا وذاك لانهم جميعا طينة واحدة : جوف صلب ووجه مشدود العضلات يهدد وينذر بالوعيد وسلام خشن وضحك أفضل منه البكاء ..

عاد من الداخل يبتسم وفى يده كوب شاى يرشف منه ، قال لها : « تفضلى هنا » ،فتبعته حتى الحجرة الداخلية فمرت على الحمام والمطبخ والانتريه وتأكد لها ان الشقة خالية تماما الا منهما وتأكدت كذلك ان الشقة لا تعيش فيها امرأة . الحجـرة الداخلية عبارة عن قعدة شرقية ، الشلت والبفات واللوحـات الزيتية على الحائط . جلس فوق حمار خشبى مسروج وجلست هى على آخر فى مواجهته فصار منظرهما صبيانيا مضحكا الى حد كبير . نهض ثانية وعاد اليها بكوب شاى ثم جلس تأملته وتأملها ،

تأكدت انه هو نفسه الشخص الذى سبق ان زارهما فى شقة عنتر كباية وتأكد هو انها ابدا لا يمكن أن تكون صبية مهرب ، انها ليست أقل من سيدة مجتمعات محترمة جدا تلبس فاخر الثياب وتترك شعرها العظيم كشلالات النهر ، ومع لهجتها الفلاحية وما فيها من براءة يستطيع هو أن يعتبرها ابنة ناس طيبين ذوى أملاك فى القرية ..

بعد آخر رشفة من الشاى قالت انها من طرف فلان الفلانى فقال انه يعرف وأن الأمانة هى هذه الصناديق الكرتونية الثلاث المتراصة بجوار الباب ؟ وهى مغلقة بشمع بلادها ، ثم انه قال لها فور ذلك : « ولكن ما هى مهنتك » . تلعثمت ، قال : « ليس معقولا أن تكونى من أتباع صاحبنا فحسب .. هل أنت متزوجة ». قالت بسرعة : « مطلقة » . قال : « أليست لك مهنة معينة ؟ .. ألا تحملين شهادة ؟ خجلت ان تقول انها راقصة ، فقالت : « أنا .. مغنية » صاح : « مطربة ؟ » . ردت فى خجل شديد : « نعم .. ولكن على قدى » قال : « هل تغنين فى الاذاعة ؟ » . ابتسمت ، قالت : « أقول على قدى » . قال بكل بساطة : « ولماذا لا تغنين فى الاذاعة ؟ » قالت : « أهى سهلة هكذا ؟ » . قال بنفس البساطة « اذا كان صوتك جيدا .. يمكنك الغناء فى الاذاعة » . نكست رأسها لبرهة . قال لها : « تاهت واقيناها .. اسمعينى صوتك .. ان اعجبنى .. سأجعلك مطربة فى الاذاعة » .

رفعت وجهها اليه وتأملته جيدا فلم تجد للهزل مكانا فى وجهه أو عينيه أو صوته . ارتعش بدنها . قال لها : غنى .. هل لك أغنيات خاصة ؟ قالت : « سأغنى أغنية لصباح .. زنوبة » . فتهلل وجهه بالبشر والفرح وصاح : « ما أجملها » ، فصارت تتمتم بشفتيها وتوقع بأصابعها وقدميها ، ثم انطلق صوتها فلاحيا رائقا واضحا كالشمس كجريان المياه فى القنوات ، وانطلق هو معها مرددا فى مرح : « زنوبة .. زنوبة .. حلوه وخفه وحبوبه

·· شـوبس ياحبايب زنوبة ·· زنوبة » ، كان من الواضح ان صوتها قد أعجبه تماما ، ولا تدرى هل لحلاوتها تأثير ام لا ، لكنه ـ صاحبنا ـ هب واقفا واندفع نحوها فاردا ذراعيه وطوقها بسرعة وقبلها فانتفضت بين يديه وانزعجت واصفر لونها من الاضطراب · وركزت فى عينيه نظرة حادة فيها شعور بالقرف والاحتقار ، اعتذر لها قائلا : « اسـف ·· انتى زعلتى ؟ ·· انا مااقصدش » ، ثم اخرج حافظته وفتحها فرفعت يدها نحو حافظته فى شعور بالمهانة صائحة · « من فضلك ·· أنا خدت حسابى خلاص مفيش لزوم » · فنظر اليها فى امتنان وتقدير وحول اصابعه من فتحة النقود الى جيب صغير نزع منه بطاقة وقلما ذهبيا ، وكتب على البطاقة بضع كلمات ثم وضعها فى مظروف صغير بلله بلسانه واصقه ثم كتب عليه اسما ، ثم قدمه لها قائلا : « من غد تذهبين الى مبنى الاذاعة فى شارع الحسيسين ·· تسألين عن هذا الاسم ·· تقدمين له البطاقة ·· ينتهى كل شىء ·· تصبحين بعدها مطربة فى الاذاعة « أشياؤنا تحمل دائما اشعاعنا وبصماتنا ورائحتنا · فى الخطاب كما فى لمس هذا الرجل رائحة طيبة ودودة وغير ثعبـانية · مع ذلك لم تثق فى لعبة البطاقة واعتبرتها مجرد شرك ينصب لها ، لكنها ـ احتراما للرجل فقط ـ وضعت البطاقة فى حقيبة يدها ثم نهضت وسلمت عليه فتقدمها نحو الباب ثم فتحه وصاح مناديا : « عبـد الودود » · فجاء البواب يجرى فقال له : « وصل الهانم بالصناديق لحد ما تركب تاكس » · فشعرت نحوه بتقدير كبير ، وحمل البواب الصناديق الثلاث فاذا بها ثقيلة حقا ، ونزل امامها · وفى الشارع اوقف لها تاكسيا ووضع لها الصناديق بجوارها واوصى السائق ان يساعدها فى انزالها عند آخر المشوار · فوعده السائق بذلك وانطلق الى ميدان المشهد الازرقى ·

٢٨

مهمة فى اثر مهمة ، استاجرت شقة خطيرة فى رحاب مولاها الازرقى شخصيا وتجمع فى كيسها ثمن الشـقة فى خلال شهور قليلة وفاض ، افتتح لها حسابا فى البنك وكانت قد اعتزلت مهنة الافراح تماما بل وتنكرت لها • وكانت ذكية الى حد كبير جدا ، اصـطفت سيدة عجوزا اسمها « ام جابر » كانت رغم كبر سنها فتية قوية جادة مخلصة ككلب امين مثلنا ، اختارتها رفيقة لها فى الحياة لا تفارقها ليل نهار • أغدقت عليهـا من الخير والنعيم ما لم تكن تتوقعه فى حياتها ، فبالمقابل اصبحت «ام جابر » هى وبناتها وازواج بناتهـا واولادهم خدما مخلصين غـاية الاخلاص فى معية « البتعة » ، كانوا جمعيـا يتطوعون بحراستها وحمايتها من اى طفيلى وكانت تغرقهم بالهدايا النافعة مثل القمصان والبنطلونات الفاخرة والاحذية فضلا عن الانفاق الدائم • ولو أن عائلة البتعة التى هى من صلبها كانت تعيش معها لما أعطتها الشعور بالاسرية مثلما أعطتها اسرة « ام جابر » الغراء •

٢٩

كانت تنقل اشيـاءها الصـغيرة من حقيبة يدها القديمة الى حقيبة جديدةغالية الثمن ، ففتشت كل الجيوب بحثا عن شىء فوقع المظروف فى يدها • فخفق قلبها لبرهة وجيزة وبرق فى عينيها ضوء ساطع • هزت المظروف فى يدها باستهانة وقال صوت فى نفسها : « ما أنتى مبسوطه كده وآخر فل •• بس ربنا يديمها نعمه •• سيبك من الناس دول •• لا بيرحموا ولا يخلوا رحمة ربنا تنزل ،

لكنها مع ذلك وضعت المظروف فى حقيبـــة يدها الجـديدة بعناية ، ثم اصاخت السمع الى صيوت آخر فى نفسها : « ولكن •• مطربة فى الاذاعة • ذلك شىء عظيم •• يغنيك عن هذه البهـــدلة

والعب بالنار ٠٠ ما كل مرة تسلم الجره ٠٠ تقولين ــ مثلهم جميعا ــ هى ضربة كبرى أو ضربتان كبيرتان أتوب بعدهما عن الكار وأستقر فى عمل مشروع ، ولكن العادة ان من يذوق حلاوة المكسب السهل السريع لا ينساها مطلقا الا اذا كان معتوها أو نبيـا ٠٠ جــربى يا بتعه فلن تخسرى شيئا ٠٠ خذيها حلوانه فى ســلوانه ٠٠ مم تخافين ؟ ٠

وهكذا أوجدت نفسها بكامل فاخر ثيابها وأعلى أنواع عطورها ركبت عربة من عربات الاجرة التى تمتلكها ويقودها زوج ابنــة أم خالد ، وذهبت الى مبنى الاذاعة فى شارع الحسسين حيث سألت عن الاسم المدون على المظروف ، فلدهشتها اقتادها أفندى محترم الى مكتبه الكبير جدا ٠

هب ذلك المسئول الكبير واقفا وخرج من مكتبه ليلتقى بها فى منتصف الطريق والخطاب فى يده ٠ سلم عليهـا بحرارة ونصف انحناء قائلا : « اهلا يا أفندم ٠٠ اهلا اتفضلى » فجلست على الكرسى الجلدى فجلس أمامها قائلا : « احنا فى الواقع زادنا شرف ٠٠ هــو كان المفروض ان تسمعك لجنة معينة لكن ما دام الرضا موجــود يبقى احنا تحت الامر » ٠ كادت تنسحب من لسانها وتسأله عن طبيعة هذه الشخصية التى تحمل البطاقة اسمها ، هل هو حقا من رجال الثورة أم من اتباعهم أم من خدمهم أم من المنتمين اليهم بأى سبب ؟ فالحق انهم ازدادوا كثرة بل يتضاعف عددهم كل يوم فى كل مكان ، فمن شركة الى حى الى بيت الى شارع تجــد من يريد ارهابك بأنه سيادة الرئيس شخصيا ولكن على صورة اخــرى ٠ لكنها بدلا من ان تقول هذا قالت : « تحب تسمع صوتى ! » ٠ قال الرجل : « هه ؟ » ثم خلع منظاره السميك ودعك فى عينيه وبدأ عليه كأن الاقتراح اعجبه بل اراحه ، قالت « يمكن ما يعجبكش صوتى » ، ثم أضافت بسرعة : « الاحسن أسمعك صوتى » ، اعتدل قائلا : « يا ريت » ، فانطلقت فى الحال مرددة فى صوت مفتوح كأنمــا

تهيأ ليطلع الجبال ويتسلق اعالى النخيل ، لولا بحـــه قابضة على صفائة وخنقة مصدرها الكسوف الفلاحى المتوارث لكان صوتها من الدرجة الأولى ، كانت تغنى : « والنبى يا جمل ودينى ‎٠٠‏ على منى وجبل عرفات » ‎٠‏ فتح الرجل فمه فى بلاهه وصاح : « ما شــاء الله ما شاء الله ‎٠٠‏ لا تمام تمام ‎٠٠‏ داحنا سعداء خالص بصوتك » ‎٠‏

هنا انفتح الباب ودخل أفندى وجيه فى الخمسين من عمـــره طويل السوالف أصلع كأنما اختط فى رأسه طريق طولى لولبى تمتد على جانبيه غابات شعر تيكور فى حلقات بيضاء سمراء متداخلة ، وعلى انفه الطويل منظار سميك ‎٠‏ هب المسئول الكبير واقفا يصيح : « اهلا عبد القوى بك ‎٠٠‏ جيت فى وقتك » ‎٠‏ قامت هى الاخــرى وسلمت عليه بالتبعية ثم جلست وهو يعريها بنظراته الذئبيـــة خفيفة الدم ، من كل ثيابها ‎٠٠‏ قال لها المسئول الكبير فى هتاف : « هذا هو عبد القوى بك السعداوى الكـــاتب والأديب والصحفى والممثل والمخرج والموسيقى ‎٠٠‏ هو مجمـوعة مواهب كمـــا لعلك تسمعين به » ‎٠‏ هزت رأسها موافقة ، تذكر أنها سمعت أســـمه ولكن لا تدرى اين ولا بأى مناسبة ‎٠‏ قال المسئول الكبير لعبد القوى بك : « هذه هى ‎٠٠‏ هى ‎٠٠‏ مطربتنا الجديدة ‎٠٠‏ ان شاء الله سوف نقدمها فى حفلاتنا وفى برامجنا ‎٠٠‏ ليتك تكتب لها أغنية » ‎٠‏ وكان عبد القوى بك قد جلس فى رأسى المثلث وتحولت جبهته الى كتلة من التجاعيد تصعد وتهبط فى حركة شهوانية ناعمة ‎٠‏ رد بصوت غليظ رصين : « طبعا ‎٠٠‏ طبعا ‎٠٠‏ احنا تحت الامر والاذن ‎٠٠‏ بس هى تأمر » ‎٠‏ ابتسمت فى حياء ودارت وجهها بكفها : « متشكرة ‎٠٠‏ احنا مش قد المقام » ‎٠‏ قال عبد القوى بك : « بالمناسبة اسم حضرتك أيه ؟ » ‎٠‏ اسقط فى يدها واضطربت ، اذ بدا لها اسم البتعة بلديا سخيفا وغير مناسب ‎٠‏ قال عبد القوى بك مسرعا : « مش مشكلة على أى حال ‎٠٠‏ اسمك مش مهم ‎٠٠‏ اذا كان ما هوش فنى ‎٠٠‏ مافيهوش رنين قابل للشهرة ‎٠٠‏ نختار لك اسما جديدا » ‎٠‏ نظر لها المسئول الكبير منتظرا رأيها بشغف صاحت هى من الفرح :

« يا ريت ‥ أنا اسمى ـ وضحكت فى خجل عذب البتعة ‥ لكن لو غيرناه يكون احسن » . قال عبد القوى بك : « اسم جميل ومثير ولكن نغيره رغم ذلك ‥ ما رأيك فى اسم ‥ بسيمة ‥ بسيمه الخضرى ؟ » ‥

شهقت من الفرحة ، ثم عادت فشهقت مرة أخرى من الشعور بالصدمة ، شهقتان فى شهقة واحدة كادت تتصدع لهما رأسها ، لكنها تماسكت قائلة : « بسيمة » ، ثم تأملت بكل دقة وتركيز فى عينى عبد القوى بك فلم تجد فيها أى خلفيات عكرة أو خبيثة فقالت : « بسيمه ‥ اسم جميل ‥ ولكن ‥ اشمعنى الاسم ده ‥ بسيمه ؟ » قال عبد القوى بك : « لانه يعبر عن وجهك خير تعبير ، فهو بسيم ، أى فى بسمة دائمة ‥ والخضرى ، لما فى عينيك من خضرة ساطعة » . ابتهجت وارتعش صوتها : « لكن ‥ بسيمه ‥ اسم فلاحى ‥ أليس هناك اسم جديد ؟ » . قال المسئول الكبير : « ما رأيكم فى اسم رشا ؟ ‥ ان رشا معناها انثى الغزال . وأظن طبعا ـ وأشار نحوها بكفه فى غزل واضح ـ هنا صاح عبد القوى بك : « ليكن ‥ رشا الخضرى ‥ اسم جميل ‥ وفريد » قال المسئول الكبير : « أول أغنية لرشا الخضرى ستكون من وضعك ‥ فمتى يتم ذلك ؟ » . قال عبد القوى بك : « أنا جاهز ‥ لقد تشكلت الاغنية بالفعل فى خاطرى ‥ وهى من وحى الآنسة رشا ‥ واستطيع فى المساء تقويمها » ثم انه نهض واقفا واتجه الى مجموعة التليفونات الموضوعة على ترابيزة ملحقة بالمكتب فأمسك احدها وادار القرص ثم صاح : « هاللو منزل الموسيقار سامى النهرى ؟ . أنا عبد القوى السعداوى ‥ معاكى ‥ مساء الخير يا سامى ‥ أنت أيه ظروفك اليومين دول ؟ ‥ عندنا صوت جديد حتقدمة الاذاعة فى حفلتها الجاية دى على طول ‥ واخترناك تعمل لها أول لحن ‥ الكلمات حاكتبها أنا ‥ طيب حافوت عليك بالليل أنا وهى ‥ شكرا » ، ثم وضع السماعة واستدار نحوهما ، فحياه المسئول الكبير بابتسامة وقال : « خير ما عملت ‥ وفرت

علينا جهود ·· ودلوقت بقى ·· حضرتك يا آنسة رشا ·· فى عهدة عبد القوى بك لحد ما تخلصوا اللحن قبل الحفلة كده بيومين تلاته تكونى جاهزة ·· ومكتبى مفتوح لك فى أى وقت » · ثم أحست أنه يريد ان ينهى المقابلة فنهضت فنهض عبد القـــوى بك معها · قالت : « أنا متشكرة ·· اشوف حضرتك بخير » · سلم عليها هازا رأسه : « مع السلامة » · ومضت · صاح عبد القـــوى بك : « من فضلك يا آنسة رشا ·· جاى معاكى » ثم ســـلم على المسئول الكبير وتبعها خارجا ·

٣٠

أثناء خروجهما من مكتب المسئول الكبير اشار لها خلسة على بعض السيدات المحترمات والسادة المحترمين وهم جلوس يشـــع منهم السأم ، وقال لها ان هذا الرجل هو المطرب المشهور فـــلان وهذا هو الملحن الكبير جدا فلان وهذه اللابسة الفرو تعتبر من كبار المطربات فى البلد · قالت له فى اشفاق : « لماذا يجلسون هـــكذا كالغلابة المساكين ·· هل هم فى انتظار القطار ؟ » · ضحـــك عبد القوى فبرطع صوته العريض فى المبنى ، وقال انهم بالفعـــل ينتظرون القطار الذى يوصلهم الى مقابلة هذا المسئول الكبير ، وهذا القطار هو مزاج المسئول الكبير · قالت له : « ولماذا لا يقابلهم ؟ » قال عبد القوى بك : « انه مسكين يكاد عقله يختل ، فكل يوم يجد نفسه مطالبا بايقاف التعامل مع فلان والتقليل من حجم العمـــل لفلانه وهكذا · قالت : « مطالبا من من ؟ » قال ضاحكا : « من اسياده الحكام الذين تعرفينهم لا شك ـ أو لعله مطالب من نفســه فهو أيضا مثل كافة الموظفين المتسلقين الجبناء يدخـــل رغبـــاته الشخصية فى رغبات اسياده وهكذا » ·

أحست بالدوار اذ هى لم تفهم شيئا مما قال ، وخفق قلبهـــا من جديد تلك الخفقة المذعورة ، لكنها هذه المرة كانت خفقة ذات صوت عال قال لها : « دبور زن على خراب عشه ·· كنت مستريحة فى البعد عن الحكام والأسياد فما الذى دفعك الى أحضـــانهم مرة

أخرى ؟ » . لكنها وهى تمشي بجوار عبد القوى بك مثل الملكة غير المتوجه عادت فأحست بالابتهاج العظيم

٣١

باصرار لم تملك له دفعا عزمها على الغداء فى فندق سميراميس. كان السائق فى انتظارها أمام المبنى ، فما ان ركبت بجواره حتى ركب عبد القوى بك فى الكرسى الخلفى صائحا فى غطرسة : « سميراميس يا أسطى » ، فنظر اليه السائق مندهشا . فعاجلته قائلة : « حضرته عبد القوى بك السعداوى .. الصحفى الكاتب الممثل المخرج الموسيقى » . قال السائق تحية للمتبعة فحسب : « أهلا وسهلا سعادة البيه احنا زادنا شرف » . قال عبد القوى بك متوددا : « أهلا يا باشا » . وقالت البتعة : « وده بقى السواق بتاع العربية دى وقريبى ابن خالتى » . حياه عبد القوى بك بسيجارة ، وبأخرى وهو يهبط عند باب سميراميس قائلا : « تعال اتغدى معانا .. ولا اسمع .. أقعد فى الاستراحة وأنا حابعت لك سندويتشات » ثم تركه ومضى مقدما البتعة عليه .

حفلت القاعة بهوانم كثيرات وبكوات كبار ،وسفرجية بطرابيش وطراطير ومهرجان جميل . كذلك حفلت المائدة بعشرات الأطباق والأكواب والأطعمة . جيء بزجاجة الكونياك ثم جيء بعدها بالبيرة زجاجات ترتمى بجوار بعضها عند فراغها ثم جيء بعدها بكئوس من الويسكى كل ذلك انصب فى جوف عبد القوى بك وحده أما هى فلم يسقط فى جوفها سوى لقيمات معدودة لانها كانت فى الواقع نتفرج على منظر عبد القوى بك الآكل والكاتب والمفكر معا فى لحظة واحدة ، فالأفكار تبرق خلف نظارته وفى تجاعيد جبهته فيما هو منتفخ الشدقين يتلمظ أو يكرع أو يتجشأ ، ثم انه خلال ذلك يكتب ، يطوح فردة الحمام فى فمه ليتفرغ لكتابة سطرين أو ثلاث بقلم الفحم على منديل ورقى أو ظهر علبة السجائر ، ثم انه غادر

المائدة وعاد عدة مرات وفي كل مرة تراه متهللا فيجلس ويستأنف من جديد ·

ثم أزيل كل ذلك عن المائدة ونظفت واعتلاها المفرش الأنيق وجيء بالقهوة · وكان الملل قد راح يزحف نحو صدرها حين أقبل شخص طويل القوام رشيقا أسمر الوجه عرفته في الحال من صوره في المجلات · انه الموسيقار « سامي النهري » مقبلا نحوهما من عجب · نهضت لاستقباله وقد زايلها السأم وتجددت عواطفها ، ومشاعرها فانتعشت ـ سلمت عليه بحرارة ـ أما عبد القوى بك فلم يسلم عليه بل لم يهتم به حيث كان منهمكا في شطب وتعديل وشرود · فلما جلس الموسيقار قال له : « أظنك عرفت ان دى هى الآنسة رشا الخضرى » · قال الموسيقار : « زادنا شرف » قالت هى : « متشكرة » · قال عبد القوى بك : « على فكرة سامى بيه معجب بكلمات الأغنية حيطير من الفرح ·· وزمانه عمل الكروكى بتاع اللحن وهو جاى فى السكة قالت هى : « وعرفها منين ؟ » · قال : «بالتليفون ·· كل كوبليه كنت باروح أقرأه له في التليفون» · من فرط الدهشة والعجب لم تنطق البتعة · جاء الجرسون وقال لسامى بك مبتسما أن الزجاجة الخاصة به قاربت على الانتهاء ، فأعطاه سامى بك عشر جنيهات وطلب منه شراء زجاجة جديدة ، ثم انه طلب عشاءا · فقامت المائدة من جديد ، وانبرى عبد القوى بك يقرأ وسامى بك يأكل ويترنم ويتمايل ويكف عن كل ذلك لبرهة وجيزة يشرد خلالها موقعا في الهواء نغما صامتا بيديه ورأسه ·

لم تشعر بمرور الزمن حقا ، حتى السائق أمضه القلق فأوراها نفسه عدة مرات رائحا غاديا فى قلق ، فكادت تنبه عليه أن ينصرف هو ، غير انها استدركت وطلبت منه باسمة أن ينتظر قليلا · هنا لاحظ « سامى النهرى » وتذكر « عبد القوى بك » · فصاح : « ما تسيبه يروح واحنا نوصلك بعربية سامى بك » ، ورد سامى فى ترحيب : « طبعا طبعا ياريت ·· سيبه يروح ان

ما كانش ده يدايقك أو يدايقه » . قالت البتعة : « لا ده ابن خالتي والعربية بتاعتنا وهو معاية ونس » . ثم تساءلت : هو .. ياترى .. حتعوزوا منى حاجة دلوقتى ؟ . قال عبد القوى بك : « تسمعى كروكي اللحن على الأقل » . فقال سامى النهرى : لا ما أظنش يا عبد القوى بك .. قدامى شوية شغل .. يوم ولا يومين وأشوف الآنسة رشا .. ياريت بعد بكره نتغدى ســـوا عندى . صاح عبد القوى : « فى البيت ولا فى المدرسة ؟ » . ابتسم سامى وردد مع دخان السيجارة : «اذا فى المدرسة حنشترى أكل من السوق» . صاح عبد القوى : لا ياعم .. خلينا فى البيت وبعد الغدا ننقل على المدرسة نكمل » . قال سامى : « لا بأس » ثم نظر الى البتعة : « والآنسة رشا ايه رأيها ؟ » . قالت : (لا بأس) ثم كتمت الضحك فى نفسها بشدة حيث انها نطقت الكلمة مثله تماما كأنها مثله فنانة كبيرة وبنت ناس طيبين كبار .

٣٢

قبل قيام الحفل بأيام قليلة جدا كانت « رشا الخضرى » . بفضل عبد القوى بك ـ قد أصبحت وجها مألوفا جدا فى أبواب الأخبار الفنية فى كل الصحف والمجلات المصرية والعربية .

بدأ عبد القوى بك بمقال نارى فى يومياته بجريدة (الحرية . زينه بصورة كبيرة للآنسة « رشا الخضرى » ، وحين قرىء المقال عليها ظنت ان كاتبه يتحدث عن شخصية أخرى غيرها سوف تكون خليفة لأم كلثوم تتربع على عرش الغناء فى الســـنوات القليلة المقبلة . ورغم صورتها وصورة سامى النهرى واسمها وكلمات الأغنية الموضوعة لها فانها ظلت الى آخر لحظة لا تعرف هل تشكر عبد القوى بك أم لا وان شكرته فماذا تقول . ما أدهشها أكثر وأكثر هو ان كافة الأخبار والتعليقات التى قرئت عليها بعد مقال عبد القوى بك كانت حافلة بنفس العبارات والأصاف وتتوقع لها

نفس ما توقعه عبد القوى بك رغم انهم لم يروها ولم ترهم على الاطلاق ..

٣٣

ما أعظمها من ليلة وما أعظمه من لحن . أما الكلام فلم يكن له أي معنى ولم تفهم منه شيئا ، انما اللحن كان حصانا جميلا ركبه صوتها وانطلق بدون فروسية سابقة يتراقص ويملأ الحضور بهجة وهياجا ، وكان مقدرا له ربع ساعة فغنته في ثلاثين دقيقة . شيعها جمهور العاصمة العظيم بعواصف من التصفيق سجلتها على شريط الأذنين .

حتى اذا ما ودعت خشبة المسرح والموسيقيون خلفها مهنئين مادحين رأت سائق التاكسى - زوج ابنة أم جابر - يشير لها على صفوف من الورود وسط دوائر من أقواس النصر ، ومن معها يقرأ لها أسماء مرسليها على بطاقات صغيرة تتوسـط دوائر الورود . عرفت فيها أسماء المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بك وسامى النهرى وأسماء بعض المطربين والمطربات والموسيقيين اللامعين على الرغم من انها لا تعرفهم ولم تتشرف من قبل برؤيتهم أو التحدث اليهم . ثم ان السائق نقل لها بكل انبهار ما وصفها به مذيع الحفل من أوصاف يقشعر لها البدن ، وكيف انه بعد ان انتهى من وصف حتى فستانها وحركاتها استدعى الملحن والموسيقيين وأجرى معهم حوارا عن المطربة الصاعدة رشا الخضرى وعن خامة صوتها ، وكلهم تغزلوا فى صوتها وتوقعوا لها مستقبلا باهرا فى عالم الغناء .

٣٤

ليلتها تلقت أكثر من طلب فى المقابلة على انفراد وكلها من ناس كبار محترمين مثل المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بك وأحد الملحنين الكبار جدا جدا . فلما انفردت بكل منهم فى غرفتها

فى كواليس المسرح وساءلته عما يطلب صح مستنكرا : « لا ليس الآن .. اننى أريد أن أتكلم معك على راحتى .. أطمع فى موعد فى أى وقت تحددين .. المســـألة هامة جدا وتتعلق بمستقبل البلاد » . نشفت من فرط المفاجآت ، وكل الانتعاش الذى امتلأت به فى الحفل الناجح تبخر تماما أمام ناس يصدعون رأسها بكلام غامض لا تفهمه وكلهم يتحدثون فى عصبية وانفعال وبألفاظ قاسية وأحيانا نابية ولولا انها واثقة من انهم موظفى حكومة كبار لظنت انهم يطمعون فى حسنة أو مساعدة مالية ، نعم فقد كانت تحس من لهجتهم فى الحـــديث ورجائهم فى طلب المقابلة كأنها شرطى أو صاحب فضل يخطبون وده ..

بقدر حيرتها كانت ذكية ، لم تطلب من أحدهم ـ على كبر مراكزهم ـ أن يزورها فى منزلها ، بل لقد تحاشت أن تعطى عنوانها لأى منهم ، حتى سامى النهرى نفسه رغم ما أحاطها به من اهتمام صادق وما بثه فيها من يقين فى مستقبل جديد هو الآخر لم تشأ أن تعطيه عنوانها . لقد ورثت عن آبائها فى القرية اظهار الولاء للحكومة وأهلها دون اظهار الجفاء ، فهم دائما فى جانب ورجل الشعب فى جانب ، هم دائما خصوم ، لا يعرفون آباها أو خالها أو جدها الا للأخذ منه أو تســـخيره أو تجنيده أو نفيه أو ضربه أو سجنه . هؤلاء مثل أولئك القدامى هم الكفرة الفجرة الذين يقصدهم سبحانه فى قرآنه الكريم ..

لكنها فى نفس الوقت كانت لا بد أن تستجيب لطلباتهم ، ليس لانهم سوف يتحكمون فى مستقبلها الغنائى بل لضعفهم واشفاقا على منظرهم وانتظارا لما سوف يقولونه أو يفعلونه اذا هم انفردوا بها كما طلبوا . أعطت لكل منهم ميعادا فى استراحة الفندق الذى اصطحبها اليه عبد القـــوى بك . فاذا بهم جميعا يستنكرون المكان وينفرون منه حتى عبد القوى بك نفسه نفر منه بشدة وقال انه ملىء بالواغش ، فلما سألته عما يقصده بالواغش قال انهم الصـــعاليك الحقراء والمخبرون والجواسيس والمومسات

والنصابون وتجار الآثار والعاديات · فتركت لكل منهم أن يختار المكان الذى يراه آمنا وصالحا لمهمة اللقاء · فاختار عبد القوى بك صحارى سيتى فى منتصف ليلة الأحد ، واختار المسئول الكبير أن تتناول العشاء معه فى منزله يوم الجمعة القادمة لكى تراها زوجه وأولاده وهم بها معجبون ، أما الملحن الكبير جدا جدا فقد اختار مقهى الأنفوشى فى ميدان المشهد الأزرقى فصرخت فيه مستنكرة فتعجب وأفهمها ان مقهى الأنفوشى مكان سياحى جميل وفى رحاب مولانا ·· فقاطعته موضحة ان أقاربها كلهم يقيمون فى مولانا وسوف يفسدون عليهما صفو اللقاء ، فاختـــار أن يعزمها على الغداء فى عزبة أحد أصدقائه ·

كان هو الوحيد من بينهم جميعا الذى رحبت باقتراحه دون مناقشة وفى حب لما شعرت به نحو الملحن الكبير من عاطفة جياشة لا تدرى مصدرها على التحقيق ، ان شكله الطيب المحمل بالمعاناة وشحوب الآلام المزمنة ؟ أمن صوته الأجش الناقل رغم ذلك كل الأحاسيس بصدق وحساسية كبيرة ؟ أمن شخصيته الغنية الهادئة التى تحجم عن البدء بالشـــكوى وان صرخت بها مداعباته ونكاته العميقة الضاحكة المبكية ؟ ·

٣٥

ما قاله عبد القوى بك :

اسمحى لى يا آنسة رشا ·· ان حال الصحافة فى البلاد لم يعد يسر عدوا أو حبيبا ، أنا مع سيادة الرئيس والمسئولين ان أهل الثقة يجب أن يسيطروا على كل شىء ، هذا مبدأ أقرهم عليه تماما · ولكن ·· قد أختلف معهم حول أهل الثقة أنفسهم ، وأسألهم : من هم أهل الثقة ؟ هل هم الذين كانوا من قبل الثورة يعرفون رجال الثورة معرفة شخصية مثلا ؟ هل هم من أقاربهم ومعارفهم ؟ هل هم أولئك الذين يقدرون على ركوب الموجة والهتـــاف وطلاء الوجوه ؟ فى رأيى ان أهل الثقة الحقيقيين هم أولئك الذين فهموا

رسالة الثـــورة على حقيقتها ، هم الذين أيدوها بالفعـل والقول والتضحية ، هم الذين يحرصون على بقاء الثورة واستمرارها ثائرة عملاقة لا لمصلحة شخصية عابرة بل لمصلحة البلاد والأجيال المقبلة . هناك من كان يهرف قائلا أن رجـال الثورة يجب أن يعودوا الى ثكناتهم وترك الحكم للمدنيين ويكفيهم فخرا انهم خلصوا البلاد من الطاغوت المســتعمر وأذنابه المحليين . أما أنا فلم يكن هذا رأيي أبدا ولن يكون يا آنسة رشا . صدقيني . فانني من أشد المؤمنين بأن هذه البلاد يجب أن يحكمها مستبد عادل يقهر الدهماء على احترام القانون والنظام ، ان البلاد مستقبلها مرهون باستتباب النظام ، واستتباب النظام مرهون بقوة النظام ، وقوة النظام مرهونة بتأييد الجماهير له ، وتأييد الجماهير مرهون بأقلام شريفة لم تتملق الملك أو الاستعمار ولم يعرف عنها سوى الثورة الدائمة . لست أطلب مغنما شخصيا وحق الله يا آنسة . بل على العكس أنا أؤمن ان المسئولية غنم لا غرم وتكليف لا تشريف ، ولكن ما يشغلني هو أمن البلاد ومستقبل الرأى وحرية الصحافة وأمن الجميع ... لنأخذ جريدة (الحرية) مثلا ، لا يحبون الثورة ، بل ان معظمهم واحد من اثنين ، أما ابن أسرة كبيرة معروفة بأن وجودها ضد مبادىء الثورة ولكنهم يظهرون التعاون مع الثورة للحفاظ على مصالحهم وأمنهم ، وأما ابن ناس فقراء ما صدق أن صعد الى طبقة جديدة فلم يعد مستعدا للنزول عنها درجة ولذا فهو يظهر التعاون مع الثورة حرصا على وظيفته وما هو فيه من أملة ، وكلاهما لا أمان له على الثورة يا آنسة .. صدقيني . انهم فى أعماقهم يتمنون سقوط الثورة وعودة الملكية ونظام الأسر الكبيرة لعلهم يشكلون لأنفسهم أسرا كبيرة ، ان الثورة معناها ضبط المجتمع واخضاعه لنظم محددة فى الكسب والعمـل المشروع ، وغـدا أبشرك أن من تملكوا هذه المؤسسات سوف تتسرب اليهم عدوى الشعور بأنهم يمتلكوا البلاد وسوف تكون هذه المؤسسات نفسها هى مصدرهم الوحيد للثراء ، سوف ينهبونها كل على طريقته ولن يجدوا فى النهــاية المسئول من غير المسئول من فرط التسيب والضياع . ذلك لأن أهل الثقة

الحقيقيين أصبحوا كالعملة الجيدة التى تمكنت العملة الرديئة من طردها من جنات النعيم • أن الأمر لا بد له من تنظيم يا آنسة • لا بد له من غربلة دقيقة • ان الصحافة غدت غابة تتناطح فيها الوحوش والغربان بضراوة •

٣٦

ما قاله المسئول الاذاعى الكبير شداد النشرتاوى :

بصراحة يا آنسة ؟ لقد أكلت الحفل كله لحسابك • هـــكذا أم لا يا أولاد ؟ •• الواقع يا آنســة اننى أجعل من أولادى هؤلاء مقياسا للحكم بنجاح البرامج والاغانى والالوان التمثيلية • ربما كان فهمى فى الفنون قليل باعتبارى أحد رجال القانون ، ولكننى اعتمد على ذوقى وذوق أولادى وذوق الجيران لانهم يمثلون الجمهور العادى الذى نبث له فى نهاية الامر • لا تتصورين مدى سعادة الاولاد بك يوم الحفل ومدى سعادة الجيران من اصدقائهم • هذه زوجتى كبيرة وصغيرة كما ترين فى آن واحد ، كبيرة بحكم سنها ووضعها ومركزها فى البيت ، وصغيرة بحكم مشاركتها للشباب فى أذواقهم التى تبدو أحيانا متطرفه • وهذه ابنتى طالبة فى كلية الاقتصـــاد والعلـوم السياسية ولكنها قاموس فى الاغانى والالحان وأســماء الفنـانين واخبارهم • وهذا ابنى الاوسط وهو طالب فى كلية الطب لكنه من هواة العزف على الجيتار وله ذوق شعبى أصـيل • وهــذا ابنى الصغير ، طالب فى الثانوية العامة ، يفهم فى الفن أيضـــا ولكن لا أحد منهم ينوى الاشتغال بالفن ، هكذا يقولون لى الآن ويعلـم الله ماذا سوف يقولونه غدا حين تنمو جرثومة الفن فى نفوسهم ••

يسمع الانسان فى هذه الايام ما يشبه العجب • تصـــورى يا آنسة ان هذا الرجل الحشاش الذى يصرف جل وقته وأموالـه فى قعدات الحشيش واللهو والمجون يشيع عن نفسه ان ســـوف يكون مسئولا عن التليفزيون ؟ • نعم نعم يا آنسة هو حشـــاش لا أكثر • هو صحيح كان يعمل فى الاذاعة من قبل لسنوات طويلة ولكنه لم يبرز فى عمل فنى أو حتى ادارى ، لكن يبدو أنه على علاقة طيبة ببعضهم لدرجة أنه فى الايام الاخيرة بدأ يتردد اسمه وبدأ هو يظهر كثيرا ويتقابل مع العاملين فى الجهازين ويقوم بعمليات مريبة كأنه قد صار مسئولا بالفعل • كم أنا حزين والله يا آنسة واخشى ما اخشاه ان يتسرب الى صفوف الحقل الاعلامى ناس لا أمان لهـــم على الثورة ، انهم ـ أولئك المشكوك فى أمرهم يرهبوننا بقولهـــم انهم أهل الخبرة وأهل الشأن فى الامر ، وواقع الامر أنهم يريدون تحويل العمل الى كهنوت •••

يقولون عنى اننى وافقت على منع الملحن فلان أو المطربة فلانه ، وسمحت بمرور الممثل فلان والتقليل من عمل الممثلة فلانه ، ورفعت أجر فلان ووضعت فلانه فى مرتبة النجوم ، واننى فعلت كل ذلك بدوافع ذاتية أو لمصلحة شخصية • ولكن تعالوا نسأل : من الذى أثار مثل هذه الاقاويل وهى تبلغنى أولا بأول ؟ أليسوا هم الممثلون والمطربون والملحنون والموسيقيون ؟ • انهم جميعـا عـــوالم فرح والتعامل معهم يقتضى حنكه ، صحيح ان بعضهم لم يجىء من شارع محمـد على مباشرة ، وبعضهم ابن ناس حقيقى ، ولكن أخـــلاق العوالم تسيطر عليهم جميعا وتدمغهم بطابع واحد • عشت مسئولا قدر ما عشت لم تخب نظرتى فيهم أبدا • ويقولون اننى اغلق باب الفرص على بعضهم واحجب الآخرين عن جمهورهم وما الى ذلك من هذه الترهات ، وواقع الامر اننى لا أتخذ قرارا الا بعد دراســـة دقيقة له ولآثاره من جميع الوجوه • اشربى التمر هندى قبل ان يبرد ، اقصد قبل ان يسخن ، سوف يعجبك • هنيئا وشفاء •••

كنت أقول ان الجهاز الذى اعمل على رأسه يحوى الكثير من الجيوب والمخابىء والدمامل ، لكننى متيقظ له غـــاية اليقظة ٠ ان الجهاز لابد ان يتم تطهيره من المنحرفين والمنجلين وأعداء الثورة ٠ تعال يا مبروكه ، على مهلك ، هات فنجانى هنا وضعى فنجان الهانم أمامها ولا داعى للصينيه ، اكملى التمر هندى يا آنسة رشا لكى تشربى القهوة ، على فكرة ، « مبروكة » هذه من أشد المعجبين بك ، ليلة الحفل كادت تطير من الفرح والانبساط ، لا تتأملى فيها هكذا يا بنت ، انها مخلوقة مثلنا ، مع السلامة أنت ، هى سوف تجىء كثيرا وسوف ترينها بعد ذلك كثيرا ، فى الحفلات طبعا ، وهنـــا كما تفضلت الآنسة وأعلنت ٠٠

طبعا انت لست فى حاجة الى تنبيه ولكننى فقط ألفت نظرك الى الحذر من بعض المؤلفين الطالعين هذه الايام ٠ فانا اخشى ان ارفض لك طلبا ، ولهذا عليك أن تكونى حريصة فى اختيار الكلمات المناسبة والملحن المناسب ، أفضل استشارتى قبل الاقدام على أى خطوة ، فأنت قد التحقت بوسط يشبه الغابة المتوحشة ان لم يكن أكثر توحشا ، ولكننى بكل سرور اضع نفسى مشتشارا فنيا لك ٠٠

٣٧

ما قاله الملحن الكبير جدا جدا الشيخ يحيى كامل :

هكذا أنا وهذه حياتى كما ترين يا آنستى : ســهر فى الليل حتى مطلع الفجر بين هؤلاء الاصدقاء الابرياء ، هنا فى هذه العزبة أو فى منزلى بالعاصمة ، فى هذه العزبة يسكن أحد اقاربى الحاج « محمود صفوان » كان زميلى مجاورا فى الازرق وكان أحد افـــراد بطانة الشيخ « شبكشى أمين » المشهور جدا ، الواقع كنت أنا وهو ضمن البطانة ، سلكت أنا سبيل التلحين ، وسلك هو سبيـــل الزراعة ولكن صداقتنا بقيت كما هى تنمو بنمو عمرنا المديد ٠

أحب الليل يا آنسة واعشقه عشقى لعودى وأنغامى وألحانى عشقى لتلاوة القرآن واستجلاء معانيه العظيمة ، ولولاهما معا ـ القرآن والليل ـ لما قدر لى ان اكون ملحنا أو موسيقيا أو أى شيء ، فما أعظم تلاوة القرآن فى الليل حيث تتجاوب مع النفس أصوات الطبيعة ليركب الحوار بينها فى تناسق وتناغم ، ان أصوات الطبيعة بل ان الطبيعة نفسها هى التناغم ، هى سيمفونية الاصوات ومعزوفة الخلود المتجدد ، لا يطغى صوت على صوت وليس بينها صوت رئيس وآخر مرءوس وان كان هناك أصوات تمجد فى صوت ولكن تمجد نفسها كذلك ، فدورها فى التمجيد هو معزوفتها هو مقولتها فى حركة الوجود المتناغمة ، ليس فى الارض ما نسميه بالديموقراطية مثل ديموقراطية الاصوات فى مجتمع الاصوات الطبيعية ..

ليس فى المدينة ليل ، انه ليل صناعى كالمسلى الصناعى كالورد الصناعى ككل صناعى لا أصالة فيه ، ربما خيل اليك حسبما تقرأين فى الصحف اننى ضد المجتمعات الصناعية او اننى عقلية زراعية مضادة للعقلية الصناعية وما الى ذلك من هذا الخرف الذى تمتلىء به صحافتنا ، بل اننى لا أومن بأننا مجتمع زراعى لا يصلح للعصر الصناعى ، فالصناعة تطور يسرى من تلقاء ذات الانسان فى احشاء كل الناس بصرف النظر عن طبيعة البيئة ، غير اننى لا أومن باصطناع الأشياء الطبيعية ، انه منتهى السخف والضحك على الذقون وخداع النفس ، ان نصطنع وردا جافا لا رائحة فيه ولا حياة . نفس الشيء ينطبق فى نظرى على الالحان والموسيقى وكافة الفنون القولية والادائية ، اننا حين نختلق الحانا وانغاما نقلد بها الغرب الوافد علينا نصبح كمن ترك ماء نهره العذب ليشرب من ماء الطلمبات لمجرد ان فى الامر فكرة الطلمبة ، ان الانغام التى تسرى فى احشاء اى عمل فنى لابد ان تكون ترجمانا للاحساس الذى تكون فى بيئة معينة وسط ظروف اجتماعية وكونية معينة .

أراك تستنكرين رؤيتنا الآن على هذا المنظر ، لكأنه شيء شاق بالنسبة لرجال مشهورين مثلنا ، ولكن ماذا فى الامر من غرابة ؟ ألم ترى قبلنا ناسا يحششون ؟ ·· نعم هذا هو الحشيش ·· اره لها يا حاج صفوان فهى بالقطع لم تره فى حياتها ـ خفق قلبها بشدة ـ ·· ها هو ذا يا آنسة رشا ·· اسمه الحشيش مجرد نبات ربما كان للوهم دخل كبير فى عروقه ، لا أعرف كيف أعبر لك بالضبط ولكن ربما كنت اريد ان اقول ان الطبيعة نفسها زرعت الوهم فى ارضها فاكتشفه الانسان واكتشف انه اذ يحرق هذا النبات ويتشرب انفاسه يصير فى حالة توافق تام مع النفس والمجتمع وهى كما تعلمين لحظة ندر ان تحدث للانسان فى حالة طبيعية خاصة اذا كان هذا الانسان فنانا ، الفنان لايمكن ان يتوافق مع نفسه ولا مع المجتمع والا فان توافق مع أيهما أصبح شخصا عاديا لا يرى مايراه الفنان ولا يحس بما يحسه الفنان ومن ثم لا ينتج فنا ·· هذا النبات الغريب يهيء لنا هذه اللحظة الكاذبة وهى ضرورية جدا لأن الفنان لا بد أن يعيش ولو للحظات بنفس الانسان العادى المتوافق مع نفسه ومع مجتمعه ، فهو فى مثل هذه اللحظات يلتقط بهدوء الخيوط التى توصله فى النهاية لبناء عمل فنى ··

هم يقولون اننا منحرفون ، والذين يقولون هذا يقولونه فيما هم جلوس يحششون مثلنا أو يسكرون · وهذا أمر لا يستأهل مشقة الرد عليه · لكن ثمة أشياء أحب أن أقولها لمن يهمه الأمر ، اذا كانت الحشيشة هى كل خطيئتنا فما أهونها من خطيئة ، اننا نستعين بها على العناء وننسى خلالها مرارة العصور وامسياتها الكئيبات . وليس ذلك هو الهدف والا فما كان اهونه ، انما الهدف ان نتمكن من فعل شيء طيب يبقى لنا وللبشرية من بعدنا ، ان نترك فنا جادا تستفيد به الأجيال وتلجأ اليه عند القنوط ليملأها بهجة من جديد واصرارا على الحياة · غيرنا يا آنسة ـ ولا داعى لذكر الأسماء أو التفصيل أو التفسير ـ يستهدف السهر للسهر وللسمر ، وفى سبيل ذلك

ينفق الآلاف على موائد القمار فى الفنادق وعلى بطون الراقصات فى شارع الهرم وصحارى سيتى ، وآخرون ينفقون كل ذلك فى صفقات يعلم الله من الخاسر فيها بل يعلم الله من المباع ومن البائع ليلو من كل واحد نفسه أولا ..

نعم لقد لمت نفسى وأشبعتها لوما على غير تهمة حقيقية واضحة ، فلما شبعت من اللوم وتعبت نبت السؤال فى داخلى : ما هى تهمتى بالضبط ؟ فما وجدت تهمة . مع ذلك لا أزال أتهم نفسى بالغباء والتخلف اذ هى عاجزة عن استكشاف تهمتها الحقيقية . كيف لا أكون متهما بشىء وأنا قد عوقبت بمحو اسمى تماما من سجلات الاذاعة ؟ لا أحد يكلفنى بتلحين ؟ وكل ملحن حتى أولاد أولادى من الضعفاء والعجزة والمساكين فى عالم الغناء لهم أركان ثابتة على الخريطة يملأونها بأى غثاء ، وأما الغناء فمستبعد من القائمة ، حتى الحانى الكبيرة التى سجلتها أكبر مطربة فى البلاد . حين لم يجدوا مفرا من اذاعتها ترين المذيع لا يذكر انها من تلحينى ، هذا بالطبع لا يهمنى لأن الاذان العربية كلها تعرف بصمتى وتقرأ اسمى فى كل نغم ولكن لماذا قلة الذوق والجليطة ، لماذا انكار أبسط حقوقى هكذا بكل صفاقة وفتونة كأننى أعطيت ألحانا لقيطة لا أب لها ؟ أليس يكفيهم انهم ضيقوا على الخناق ومنعوا عنى باب رزق فتحوه لكل من هب ودب ؟ أليس يكفى اننى مستعد لقبول التلحين لأى حمار نكير الصوت يفرضونه على ؟ ..

هم يزعمون ان التوصية بقطع الطريق على نزلت عليهم « من فوق » ، وقد حرت فى معرفة من المقصود بفوق ولماذا هو حاقد على وحدى ، أم تراه يكون على وجه الدقة واليقين ؟. الواقع لقد عجزت، وعادت كل وساطاتى الى كاسفة البال تقول وجوههم لأولادى ان ميدان الفن والشهرة والفلوس بالنسبة لكم ولأبيكم كان مجرد اضغاث أحلام ، وان الأعمال التى تعب أبوكم فى بنائها وتبليغها للناس دون مقابل مادى يذكر قد انسيت تماما وكأنها لم تكن .

وأن الانسان ـ وليس أباكم وحده ـ يمكن ان يجتث من جذوره ومن ماضية ليصبح مجرد فرع لا قيمة له تذروه الرياح · مع العلم بأن هذا الانسان لم يخطىء فى حياته ولم يرتكب اثما · لا يملك العقاب سوى الله عز وجل · وان قدر لبعض البشر ان يملكوا القدرة على العقاب فبأى ذنب يعاقب انسان مثلى ؟ لست سياسيا ولست أنتمى لأى حزب بل اننى كنت ولا أزال من أشد المؤمنين بالثورة المؤيدين لها ، وان كانت مخابرات الثورة قد أبلغت عنى شيئا غير الوطنية الصادقة والحب الكبير للشعب وللثورة وللمستقبل فانها تكون مخابرات مهيأة للنجاح فى مسابقات التأليف القصصى والروائى ، واذا رجع المسئولون الى تقارير المخابرات التى وضعته عن المخابرات لوجدت ان المخابرات الفرعية ركزت خيالها على ناس يحششون ويتفننون فى تحريك اعطاف الناس ، ونسيت ناسا يسكرون ويتاجرون فى مصائر البشر ، انما تعالوا ، الأمر ليس هكذا أبدا ، ان الرياح لا تأتى من هذه النافذة فيما أعتقد ··

الرياح تأتى من فوق الجبل الأعظم من « قمر » ، أعنى أكبر مطربة فى البلاد · سبحان من له القوة والسلطان والدوام · قامت على أساس متين من صنعنا · كل هذا المجد الشامخ صنعته ليالى أنا وزملائى وأصداقائى فى جلسات ضائعة كهذه التى تشرفيننا فيها الآن ، لحظات ضاعت على أولادنا واقتطعت من مستقبلهم ، فلو قضيناها فى جوارهم أو فى عمل يدر لهم دخلا ماديا لكان أفضل بكثير بالنسبة لهم ، لكننا وهم قد رضينا واستعذبنا هذه اللحظات التى نعانى منها نحن وهم ، أجل يا آنسه ، فأولادنا من قبلنا يستعذبون لحظاتنا المشحونة بالعذاب والتوتر والفاقة لأنها لحظات نعمل فيها من أجل الجميع لا من أجلنا فحسب ، بل نعمل شيئا للآخرين ولا نعمل لأنفسنا أى شىء سوى النسب الشريف لهذه الأعمال · أكبر مطربة فى البلاد يا آنسه ، أضع النقط فوق الحروف ، هل أخاف ؟ ولماذا أخاف وحتى متى أظل أخاف ؟ ·· بينى وبينها قضايا فى المحاكم والكل يعرف ·

نعم أستطيع أن أقول لك الأسباب ، لقد لحنت لها كل هذ الألحان على مــدى سنوات عشر هى أنضج ســنوات عمرى وأحلى ما أنتجته من فن ، كل لحن يناطح أخاه وينافسه فى حب الجماهير الكبيرة ، كل لحن أقام حفلا من وراء حفل من وراءه حفل حتى امتلأت خزائن القابضة وفاضت ، لكل لحن من تلك الألحان جذور ممتدة ومتفرعة فى خزانة صاحبة الصوت الأعظم العجيب ، لكل لحن درج حساب يعسب فى رصيدها بلا نهاية فكم أخذت أنا من كل ذلك سوى بضع جنيهات قليلة الشأن لا تذكر لدى كل لحن ، يكفى أن أجر اللحن لم يكن يكفى لكساء الأولاد فى صيف أو شتاء ، ثمن اللحن بكامله يكفى بالكاد لعشوتين وغدوتين وسهرتين نعانى القحط بعدها ، فى حين ان اللحن لكى يصــير لحنا ويستقيم على صوتها وعلى الأوتار حدث ولا حرج عن معاناتى ، ربما انفقت ثلاث شهور أو ربما عاما كاملا ، ليال متواصلة لا أكف خلالها عن مداعبة الأوتار ونكش مدخراتى من الأحاسيس والمشاعر الصاحبة الساخنة ، وأنفق على اعتدال المزاج والانتقالات والأعواد الموسيقية ما اقتطعه من قوت أولادى ..

صاحبة الصوت الأعظم كبرياؤها أشد عظمة ـ العظمة لله وحده ـ كيف أتجرأ وأطالبها باعادة التفاهم حول مسألة الأجر ؟ أراجعها فيما قدرت وتصرفت ؟ كيف ؟ . كان المفروض ان أظل أعمل بنفسية الأقنان والعبيد ، الانضواء فى ترس العمــل حتى فقدان الارادة ، ان أظل ألبى الطلبــات لمزيد من الأفلام الجديدة والحفلات الجديدة تاركا مسألة الأجر تحددها كيفما تشاء وقتما تحب ، ان أفاجأ بلقمة زائدة فوق احدى الموائد فانتفض شاكرا شاعرا بالامتنان لفضلها الكريم ، ان أتلقى من حين الى حين هبة كبرت أو صغرت ، أن أظل مجرد صفر مجرد ظل ، مجرد عامود يندق فى الأرض خلفها ليعلقوا عليه مشعلا يلقى الضوء عليها ، هى ، وهى فحسب .. انتى يا آنســة رشا ـ لا أقبــل التعامل بسياسة : جوع كلبك يتبعك .

كنت أظنني يا آنسة رشا حين اتخذت قرارى بالمواجهة قادرا على ذلك ، وأنا قادر بالفعل وهى لم تضع فى حسابها اننى صخر لم تضع فى حسابها أننى جئت من القرية مجاورا فى الأزرق وعشت قدر ما عشت بين رحاب الشهرة والمجد فلم آغير طبعى أو حياتى ولم تقبل الدنيـا على بمادة يستتبعها تغيير فى مستوى حياتنـا الاجتماعى ونحن لسعداء بذلك اذ لن نخسر شـيئا عند احتـدام الصراع ، نسيت هى اننى سأصمد أمام انقطاع الأجور والمقاطعة . وأما أنا فلم أكن بأقل غفلة منها ، اذ لم أضع فى حسابى ان خصمى وهو فرد يمكن ان يصبح دولة كاملة ، ان أخاصم شخصا فاذا بى مستهدف للخصام والمقاطعة من كافة الأجهزة . هل دالت دولتى كما يقول بعض الصحفيين المأجورين الذين امتلأت بهم صحافتنا الفنية والسياسية ؟ . لولا ان هؤلاء الذين تجلسين الآن بينهم من أصدقائى الخلص لقاطعونى هم الآخرين خـوفا مما قد تجره عليهم معرفتى من مصائب والعياذ بالله . فانظرى يا آنستى كيف يتحول فنان مثلى الى منبوذ يمارس أحاسيس المجرمين المطاردين ؟ . آه .. أى امتهان هذا بحق الله ؟ ..

● ● ●

لم تشعر الآنسه رشا ـ أو البتعة سابقا ـ بمثل ما شعرت به تجاه الملحن الشيخ « يحيى كامل » . طول عمرها تسمع اسمه ، لكن اسمه كان يتميز عن كل الأسماء التى تسمعها فى قريتها وفى المدينة بكونه ذى عمل واضح محدد ، كانت خزانة عقلها تحتفظ بعديد من الأسماء تسمعها ليل نهار وتسمع عنها دون أن تعرف ماذا هى بالضبط وما عمل أصحابها ، أسماء غريبة تطفو على سطح دماغها كيفما اتفق وفى لحظات كثيرة . طالما سمعتها وتسمع عنها ولكنها لم تتوقف لتعرف ماذا هم بالضبط وماذا يعملون ولماذا هم دون غيرهم من الناس . أما الشيخ « يحيى كامل » فهو الاسم الوحيد الذى ان سمعته عرفت فى الحال انه الموسيقار الكبير الذى يلحن

الأغانى للمطربة الكبيرة « قمر » وغيرها من المطربات والمطربين ، تعرف ذلك كما تعرف ان « أم كلثوم » مغنية ومحمد عبد الوهاب مطرب وموسيقار مثل الشيخ زكريا أحمد ٠

وساءلت نفسها : كيف يمكن ان يقع الظلم كله هكذا على رجل كهذا ؟ ٠ ركبها هم وغم شديد واقشعر بدنها وأحست أنها موشكة على الوقوع فى حفرة عميقة مظلمة وان ضلوعها سوف تتهشم لا محاله ٠ ارتفع صوت فى داخلها يسأل : أيكون الشيخ « يحيى كامل » مذنبا فى حق الشعب مثل الملك السابق الذى طردوه من البلد فى لحظة تسقط لها الحبلى ، من يدرى ؟ هل كان يتصور أحد أن الملك مجرم كبير يخطىء فى حق الشعب وهو ملك ابن ملك ؟ هل هو الزمن الذى يجوز على ناس وينحاز الى ناس ؟ أليس الزمن يسيره الله ؟ اذن فالملك يستأهل ما جرى له ؟ ولكن ياربى هى لا تصدق ان الملحن الشيخ « يحيى كامل » يمكن ان يكون مجرما فى حق الشعب حتى يستأهل كل هذا الظلم ٠ ربما أحست بشىء من عدم الاهتمام تجاه « عبد القوى بك » والمسئول الاذاعى الكبير « شداد النشرتاوى » ، كلاهما لم تفهم من كلامه شيئا وكانت كل مهمتها فى اللقاء ان تصبر نفسها على احتمال الجلسة ، أما الملحن الشيخ « يحيى كامل » فقد فهمت كلامه فهما جيدا كما أحست بأنها لا تريد مغادرة جلسته ٠٠

ثم ان السؤال الأكبر قام فى داخلها فجأة فانهارت له كل قواها : لماذا يقولون لها هذا الكلام ؟ أترونهم يتصورونها رئيسة الجمهورية ؟ هى ليست ذكية حتى تعرف مقاصدهم على التحديد وان حفظت كلامهم عن ظهر قلب وسجلته فى ذاكرتها كلمة كلمة ، هى كذلك ليست غبية ، فقد أحست كما لو أنهم يحثونها على تبليغ هذا الحديث لأكبر مسئول فى البلاد ٠ ثم انزلقت منها ضحكة مرة : انها لا تعرف حتى أصغر مسئول فى البلاد ٠ كل ما نجحت فى الكشف عنه طوال الأسابيع الماضية هو معرفة شىء واحد فقط عن الشخص الذى كافأها ببقشيش عظيم حين أعطاها بطاقته ، ذلك

انه شخص مهم جدا جدا ، فما هو اسمه على وجه التحديد ؟ هكذا سألت المهرب الذى أرسلها اليه ذات يوم لاستلام ثلاث صناديق فيها بساتم سيارات ، فمكر بها المهرب غاية المكر وظل برهة طويلة جدا يتصنع التذكر لكنه فى النهاية نصحها بعدم الاقدام على هذه المحاولة مرة أخرى والا تكون قد رمت بنفسها بين فكى المصيدة التى لا عودة منها مطلقا ، ثم أضاف بحنان حقيقى انه يقول لها هذه النصيحة حرصا منه عليها وحبا لها خاصة بعد ان فتح الله عليها باب العز والمجد والشهرة ، وكانت قد أطلقت بعض أتباعها فكلفوا بدورهم بعض معارفهم ليعرفوا اسم الرجل الذى يستأجر الشقة الفلانية فى البيت الفلانى فى الحى الفلانى ، فصرفت على ذلك مبلغا موجعا ولكنها لم تتوقف عن مجاولة جمع المعلومات عنه الا يوم جاءها السائق زوج ابنة أم جابر ليهمس فى أذنها ملتاعا بأن المباحث قبضت على صديقه الذى ذهب يستعلم عن اسم ساكن الشقة اياها ، سألته مذعورة واجفة القلب : كيف حدث ؟ ، فقال ان صديقه كان غبيا ومندفعا اذ تعرف على ابن البواب وسأله بشكل مباشر فاتضح ان ابن البواب أحد ضباط المباحث الذى اقتاده الى حيث لا يعرف أحد .

من يومها ظلت تتوقع الخطر بين لحظة وأخرى ، وكان القلق يفرى قلبها حتى كان يوم الحفل اذ فوجئت بالمسئول الاذاعى الكبير « شداد النشرتاوى » يطرق عليها باب الكالوس ثم يدخل منحنيا ببطاقة ورد وخلفه شاب أنيق فيه وداعة الكلب البوليسى ونعومة ملمسه لكنك تحس الخطر كامنا فى جوفه الضرير . سلمت عليهما معا وأذنت لهما بالجلوس على الدكة الخشبية فجلسا ، وابتسم « شداد النشرتاوى » متمنيا حظا سعيدا ، ثم ابتسم مرة أخرى وقدم لها الشاب قائلا : « سيادة العميد شوكت الجزار » ، فبدا كل منهما فى عينها اثنين وكل شىء فى الغرفة ظهر له قرين حى ، وكادت المرآة الكبيرة التى تقف أمامها تميل عليها فصارت تعدلها وهى فى الواقع تحتاج لعدل نفسها ، وكانت من الذكاء بحيث دارت هذه

الرجفة فى بحث مصطنع فى حقيبة يدها فيما هى تقول : « أهلا أهلا •• تشرفنا •• ان شاء الله يكون لنا شرف حضورك الحفل » • قال الشاب : « طبعا طبعا •• أمال أنا جاى ليه ؟ » • قال « شداد النشرتاوى » ان سيادة العميد جاء يستفهم منها عن بعض الأشياء • قالت « خيرا » • قال الشاب العميد : « هل تعرفين سائق لورى اسمه عثمان المخصى ؟ » قالت : « أبدأ •• عمرى ما سمعت بهذا الاسم •• ولست أعرف من السائقين سوى زوج ابنة أم جابر التى تخدمنى » • هز الشاب رأسه فى تأييد : « ولكن •• أليس من المحتمل أن يكون زوج ابنة أم جابر هذا قد كلفه بالبحث عن شيء ؟ »• قالت بثقة : « لا يمكن •• انه مستقيم ولا يفارقنى وأعرف كل شيء عنه •• ما الأمر بالضبط من فضلك ؟ » • قال العميد : «لقد أمسكنا بولد مجنون يتجسس على عنوان أحد الملوك العرب اللاجئين فى القاهرة » • صاحت هى من الرعدة وشهقت : « أحد الملوك •• اذن فلا تتركوه •• أدبوه فهو يستأهل » • شوح العميد فى لا مبالاة : « لقد هشمنا عظامه وفى النهاية اكتشفنا انه قليل العقل ، ولم نقم وزنا لأى كلمة من كلامه سوى قوله ان حضرتك طلبت منه ذلك » • من فرط الرعب أطلقت ضحكة عالية هادرة كانت السبب فى ان يخبط العميد بيديه على ركبتيه ثم يقف مبتسما : « هاهى ذى الشهرة تجيء وراءك بأضرارها من أول خطوة •• تمنياتنا لك بالنجاح » • ثم وقف « شداد النشرتاوى » وسلم عليها قائلا : « اطمئنى •• كان سيادة العميد يريد أن يتعرف عليك بشكل طبيعى وبكل وضوح •• لأننى شرحت له وعرفته من أنت وبأوراق رسمية دامغة •• فهنيئا لك » • ثم خرجا معا وتركاها فى بلبلة نسيتها فى تصفيق الجماهير وحرارة اللقاء بهم فى ذلك اللحن الجميل الخفيف، المبهج •

حارت ماذا تفعل فى هذا البحر الهائج الذى القى بها فيه ، لكنها فى النهاية قررت ان تترك نفسها للتيار يلعب بها كيفما شاء ولكن عليها ان تظل قريبة من الشطآن ، متيقظة للأمواج العالية •

٣٨

أبدا لم يكن البحر هائجا كما تصورت ، ولم يكن ثمة أمواج عالية . ربما لأنها تعلمت السباحة جيدا وصارت فى هذا البحر بلطية كبيرة ليس من السهل أبدا صيدها . عقـــدة ذنب صغيرة كانت تؤرقها فصممت على محو أسبابها . تلك هى البطاقة التى تسلمتها مظروفا مغلقا وسلمتها مظروفا مغلقا دون ان تكلف نفسها معرفة اسم صاحب البطاقة واسم المرسلة اليه البطاقة ، أما اسم المرسلة اليه البطاقة عرفته فى أول خطوة وأما اسم صاحب البطاقه فقد ظل حتى الآن سرا مغلقا كلما تذكرته شبت النار فى كيانها لبرهة ، حتى المهرب الشرقاوى لم يرسلها اليه ثانية ولم يرد له ذكر فى حياتها بتاتا ، أما كانت تستطيع ، على الأقل ، فض المظروف وعرضه على من يقرأه عليها ؟ أم انها بمكر ريفى تكتمت الأمر وخشيت من فضحه خاصة انها لم تكن قد اقتنعت بطرق ذلك الباب ؟ ربما كان هذا هو السبب ولكنها صممت على معرفة القراءة والكتابة مهما كلفها الأمر ، انها على الأقل يجب أن تعرف كيف تقرأ رصيدها فى البنك وكيف توقع على الشيكات وكيف تقرأ بنود العقود التى بدأت تنهال عليها من السينما والحفلات والمحلات الكبيرة ، يجب أن تقرأ ما تنشره الصحف عنها من أخبار متواصلة . وهكذا جىء لها بمدرس فقيه كادت من فرط حبها له تمنحه جسدها لأكثر من مـــرة لولا تماسكها وتعففه . علمها القراءة والكتابة فى خـــلال شهور قليلة فانفتحت أمامها الدنيا على الحقيقة ، واتسعت أمامها الأبواب والنوافذ وانفكت عشرات الرموز الغامضة .

٣٩

فيلا «رشا الخضرى» فوق جبل الحواوشى أصبحت محطة أتوبيس يصيح عندها المحصل قائلا : « محطة رشا » . فى حديقتها المزهرة

تقف السيارة « الفولكيس واجن » ذات اللون الزهرى مستعدة للذهاب الى المشاوير القريبة غير الهامة ، وفى حظيرة ملحقة بها تقف كالعروسة سيارة « بويك » مستعدة لمشاوير الاسكندرية والحفلات والأفراح واللقاءات المثمرة ٠

علاقتها بالمهرب الشرقاوى لم تنقطع طوال ذلك ، بل تعمقت بقدر ما اتسعت وتنوعت ٠ هذا الرجل لابس الجلباب الصوف صيف شتاء ، واللاسة البيضاء ، النظيفة دوما ، والحذاء اللامع والصديرى الشاهى والخواتم الذهبية ، والهدوء والرزانة والعقل الواسع ، أبدا لا يجب ان تخدعك هذه الجلباب فتتصور انك جالس مع فلاح أو بالكثير عمدة ، انما أنت جالس مع ملك أو قائد كبير أو حاكم عظيم لا يرد له كلام ، مع انه بسيط وليس فى مظهره أمر ولا نهى ولا صلف ولا غطرسه ٠ فوجئت انه يرطن بعدة لغات وان خياله أوسع وأخصب مما تصورت ٠ هو الذى فاجأها ذات يوم بأنه سيقيم لها حفلا فى بيروت ٠ انتفضت من الفرح وعدم التصديق ، وظلت وقتا طويلا تردد : حفل فى بيروت ؟ ، الى ان فوجئت به بعد أيام يقول لها ان تذاكر الحفل قد نفدت عن آخرها لأن الاعلانات كانت على ما يرام ٠ كيف اذن تملكت هذا الجبروت يا حاج « عطاطس » ؟ قال انه لم يفعل شيئا سوى الاتفاق مع شركة اعلانات ومكتب حفلات ، وليس مطلوبا منها سوى ان تكون جاهزة للسفر بعد شهر بأغنية أو اثنتين جديدتين ٠ قالت ان التأليف والتلحين يتكلفان ، وسفر فرقة بحالها أكثر تكلفه ٠ دفع لها برزمتين من الأوراق ، النقدية قائلا ان هذا من خيرها ، تنفقه على التأليف والتلحين والعازفين وبعد الحفل يكون له معها حساب ٠٠

« سامى النهرى » منتصب القامة الفنية على الدوام ٠ الفنان الذى فيه ينتصب واقفا بمجرد لمس النقود ٠ فتح درج مكتبه فأخرج ملفا به قصاصات ورق كثيرة انتقى منها واحدة ثم واحدة

قرأهما عليها فأعجبت بهما فقال انه اختارهما لأن لهما نبشا فى أعماقه من سنوات ·

٤٠

التصفيق موج فى أثر موج عال يرفعها على أجنحة سحرية ويطير بها بين جبال لبنان العظيمة ، لا يريد تصفيق الجمهور فى الحفل ان يتراجع أو يتباعد بل يرافقها فى كل خطوة ، تتداج موجه التصفيق بعيدا فترفع بصرها خافقة القلب متهيأة لاستئناف الغناء فلا تجد للجمهور أثرا ، لا تجد غير جمهور الكازينو المنحوت فوق سطح الجبل والسيارات تسبح حواليه من كل ناحية كأنها قوافل تتخبط فى متاهة دائرية لا تنتهى · الاستاذ «سامى النهرى» وقد أصر على مرافقتها فى الحفل يجلس فى جوارها ممسكا بعود يدندن أنغاما وافدة لا كلام لها · لقد اتفق على مجموعة ألحان لاذاعة بيروت واتفقت هى على أكثر من حفل جديد يلزمها أغان جديدة · « سامى النهرى » ليس يغلب طالما ان عوده معه ، أما الكلام فانه دائما يصطحب معه « سمير بقلاوه » ، وهو شاب فى الخمسين كان موهوبا فى التأليف ذات يوم لكنه لدناءة فى نفسه ابتذلت موهبته وأصبح يعمل فى مرتبة صبى أو مرمطون للملحن «سامى النهرى» ، يشترى له الحشيش ويقوم بتوضيب السهرات ولف السجائر وشد الأعواد ونقل الرسائل الشفهية بين سامى النهرى والمطربات الهاويات اللآتى ينتمين الى مدرسته ، عند الزنقة يكتب « سمير بقلاوه » أى كلام وبالقطع سيكون موزونا ومستساغا وان فرغ تماما من المعنى ··

الحاج « عطاطس » هو الآخر لم يضيع من الوقت ثانية ، كان دائم الظهور فى محيطها والجميع يعرفه باعتباره سمسار حفلات ناجح ويتملقونه سعيا وراء رزق يأتى من ورائه · وبالفعل ـ وبفضله ـ تمكنت الفرقة من احياء سبع حفلات فى عشرة أيام عادت بعدها « رشا » الى القاهرة بسيارة مرسيدس معبأة بالحشيش

والأفيون فى كل أحشائها ابتداء من اطاراتها حتى كراسيها وفراغات الرفارف خلف الفوانيس ٠ لم تكتشفها الجمارك بالطبع انما اكتشفت ان الراكبة هى المطربة الصاعدة « رشا الخضرى » ، وتكفلت عينها بتحذير الجميع حتى قبلوا هداياها المتواضعة وتركوها تمر مشيعة بالتحية والاكبار ، وكانت قد أعدت حجة النجاة بأن السيارة لم تصبح بعد ملكا تاما لها وأنها تسلمتها هكذا دون فرصة لمراجعتها ٠ ورغم أن هـذه الحجة لم تكن صالحة للنجـاة حقـا الا انها كررتها وكررت معها عشرات المئات من الرحلات المشابهة فى مشارق العرب ومغاربها ، وتنوعت المهربات والمجلوبات ولم يكتشف أمـرها ٠٠ أبـدا ٠

٤١

« رشا الخضرى » نمرة ثابتة فى الاذاعة والتليفزيون وأخبار الصحف ، وفى ليالى الأعياد يكافئون الجمهور باظهارها تتكلم وتقول له كل سنة وأنت طيب يا جمهورى العزيز ٠

٤٢

من كان يظن أنها وقد استمدت قوتها وسلطانها من شخصية شبه مجهولة تصبح هى نفسها ذات هيبة وسلطان ؟ ٠ أما عن نفسها فشخصيا لم تكن تتوقع أى شىء مما حدث طول حياتهـا ولا تتوقع ماذا سيحدث لهـــا فى قابل الأيام ٠ انما هى كانت تخشى ان تجىء اللحظة الموعودة ، ان يكتشف الذين بثوها شكواهم انها ليست أهلا لذلك وانها لا تعرف كيف تخذم صرصارا ٠ غير ان هذه اللحظة لم تجىء أبدا ، بل جاءت لحظات أحلى وأروع ، لحظات أصبحت هى فيهـا قادرة على أن ترفع سـماعة التليفون وتطلب أى شخصية تشاء : أنا « رشا الخضرى » ٠٠ فلا تواجه أى حواجز صناعية ٠ وهكذا تقابلت مع شخصيات كبيرة ذات سلطان

كبير وجاملتهم فى أفراحهم بالمجان ، وتقربت الى شخصيات أكبر وجاملتهم بالهدايا وبذلك خدمت ناسا كثيرين وتوسطت لفض مشاكل كثيرة عويصـــة بين زملاء كثيرين من أهل الفن حتى مشكلة الشيخ « يحيى كامل » مع المطربة الكبيرة « قمر » استطاعت ان تساهم فى حلها وديا وان يتنازل الشيخ يحيى عن قضاياه فى المحاكم وان تتنازل « قمر » عن بعض كبريائها فى سبيل أن تعود المياه الى مجاريها وقد عادت ولكن بشكل محدود ٠٠

٤٣

ماللدنيا مقلوبة هــكذا والجو مقبض وينــذر برياح عاصفة ٠ الصحف تجهمت فجأة ووجوه المذيعين والممثلين ووجوه البرامج كلها مرئيــة ومسموعة هى الأخرى تجهمت وتنكرت للهزل مرة واحدة ٠ مقالات حماسية ورسائل موجهة من كبار الأدباء الى الرئيس الأمريكى ، وثمة من يطلب منها أغنية وطنية ، دهشت وقالت ما معنى وطنية ؟ قال لها مقدم برامج باذاعة صوت الأزارقة كلفة المسئولون بانتاج هذه الاغانى : « أغنية وطنية يعنى فيها غزل من أجل الوطن » ، فشردت لحظتها وقالت لنفسها ان الاستاذ سامى النهرى يستطيع فعل كل شىء ، يستطيع الاتيان لها بشاعر يتغزل فى حب الوطن أو يتغزل فى حب الجبل ، فهكذا تريد الاذاعة وما عليها هى سوى الامتثال غير ان مقدم البرامج الذى هو فى نفس الوقت له شركة انتاج سرية تنتج برامج منوعات هى خلطات متقنة من مختارات مما سجل على شرائط الاذاعة حيث يطلبها لعمله فى الاذاعة ثم يسربها الى الخارج لينتقى منهــا ما يريد ثم يردها ، أولا يردها والذى هو فى نفس الوقت أيضا مشرف على جــانب كبير من الحفلات التى تقيمها الاذاعــة حيث يتولى الاتفــاق مع الفنانين ومساومتهم وملاعبتهم الخ ــ قال لها انه سيعفيها من مهمة الاختيار وسيختار لها ، ثم قدم لها أغنيـــــة سقيمة سخيفة عالية الصوت صاخبة ، من قبيل : « بلدنا مقبرة الغزاة ٠٠ والى

يدخله يلاقى الموت حداه » • فغنتها ، ورغم ذلك لا تعرف ما الأمر على وجه التحقيق ؟ •

مثلما تعودت ـ رمت وراء ظهرها بكل المقلقات ، اذ ما الذى يقلقها ولماذا تقلق ؟ ان الله الذى أوصلها الى ما هى فيه الآن من نعيم لن يقصد بها شرا أبدا ، على العكس لقد حماها من أبناء آدم الذين قصدوا بها الشرور ، ها هى ذى ملكة غير متوجة لا زوج ولا ابن ولا أحد يستأهل ان تقلق عليه ، انها لم تتعود ان تقلق على أحد منذ ان سلختها أمها من جلدها وباعها خالها بأرخص الأثمان وهرب من وجودها كله زوجها هريدى •

لقد باتت اليوم تعرف من هو العدو الغاشم ، تعرف انه ليس رجلا واحدا بل هو دولة يقولون انها صغيرة ولكن رشا اكتشفت ان رمانة القبانى صغيرة كالكرة الشراب لكنها تزن القنطار والقناطير المقنطرة ، وهى ـ رشا ـ تفتح أذنيها جيدا فى سهراتها التى لم تخل أبدا من «عبد القوى بك» ، ومنه تعلمت الكثير والكثير والكثير ، انها ان كانت تعلمت من الحياة كلها شيئا طول عمرها فان ما تعلمته من « عبد القوى بك » وحده يفوق كل ما تعلمته • كان اذ يجلس فى غرفة صالونها المطلة على حديقة الفيلا فوق الخواوشى العظيم يحس كأنه أخيرا قد وجد بيته وملاذه •• « أم جابر » وبعض أفراد عائلتها يظهرون فى الصالة ويبرزون أصواتهم من حين الى حين ويقدمون لعبد القوى بك ما يحتاجه من شراب أو مآكل أو سجائر • أول من يجىء وآخر من ينصرف • نضم السهرة فى العادة باقة ولكن غير متناسقة من الزوار : سامى النهرى ، توتو الأبيض أشهر مقدم برامج فى التليفزيون ، علياء المشهدى مقدمة البرامج الطرية العود والصوت ، حامد البحر المحرر الفنى بمجلة النجوم ، سالم عقله مؤلف الأغانى المشهور الذى كان فى الأصل حلاقا وتبنته رشا ، غير أن هؤلاء كانوا ينصرفون قبل ابتداء السهرة الحقيقية التى تضم فى العادة أيضا

عبد القوى بك وسامى بك ومقدم البرامج بصوت الأزارقة وممثل مسرحى واذاعى كبير يمتلك هو الآخر شركة انتاج أذاعى خاص يبيعه لإذاعات الدول المجاورة من بطون بنى الأزرق ، حيث تمتد مائدة القمار تضيع فوقهــا الأموال والأهــداف والنوايا الحسنة ويحبس الجميع كأنما تجمعوا لتعرية بعضهم البعض والسخرية من بعضـــهم البعض بعمق وحتى النخاع ، أحــلى ما فيهـــا خطب «عبد القوى بك» التى لايزال يرددها بمناسبة وبلا مناسبة · واذا كان الجميع يضــيقون بهذه الخطب أحيانا ويسمعونهــا على مغض كانت هى فى أعماقها ترحب بها كل الترحيب لأن « عبد القوى بك » موهوب بالفعل يتحدث كأنه السحر المتدفق بلغة فصيحة كأنها لغة القرآن الكريم يتحدث عن العدو وخطره العالمى وما يسمى بالامبريالية ويتحدث عن الحكومة والشعب الذين هما معا نفس الطينة من نفس العجينة وكيف اننا جميعا نعطى مؤخرتنا للعدو ونتغاضى عنها فيما نحن منشغلون فى تحية المواكب والطواويس ، ثم ينهى حديثه باسما حيث يشاركه الجميع فى نطق العبارة التى يحفظونها جيدا : « سوف تأكل الطواويس الطوايس » ·

فى احدى الليالى ــ ولأول مرة ــ تخلف مقدم البرامج باذاعة صوت الأزارقة وطلب رأيها فى أمر هام · خيرا · قال لها انها حفل شديد الخصـــوصية أقرب الى حفل سمر على مستوى كبير بعض الشىء · قالت انها تحب مثل هذا النوع من الحفلات لأن جمهورها يكون خاصا ومؤدبا فى التعبير عن اعجابه · قال لها أما من حيث الجمهور فهو أكثر من خاص ، ولهذا فانها ستتسلطن على سنجة عشرة ، وان مناسبة الحفل وهدفها أكثر من خاص ولذا فهى لن تتقاضى عن الغناء أجرا ، بل ستكون متبرعة مثل رهط الفنـانين الذين سيتشرفون باحياء الحفل ·· انتفضت كل عروقها واقفة كشعر القطـة المتحفزة ، قالت أين الحفل ومن صحابه ؟ قال انه سيقام فى مدينة الخنافس على الحدود ، وفكرته اقترحتها صحفية ناشئة نيابة عن أحد المراكز الثقافية الفنية المنتشرة فى الشرق الأزرق ،

على ان يقوم هو بتمويلها ـ ثم استدرك منتبها ـ أقصد يصرف على نفقات الحفل النثرية من طعـام وشراب وكراسي وتنقلات وما الى ذلك ، والهدف من الحفل سام ونبيل : الترفيه عن رجال الجيش من حرس الحدود الذين كتب عليهم واجبهم الوطني ان يعيشوا حياة جافـة خالية من كل رفاهية وبما انهم مقبلون على معركة حامية الوطيس فالواجب الوطني والانساني والقومي يحتم علينا ان نشارك في هذه المعركة حتى ولو بمهمة الترفيه عن الجند ..

في الحال قالت رشا انهـا موافقة وبكل سرور ما دام الأمر كذلك . حينئذ اتسعت الابتسامة الشاحبة على شفتي مقدم برامج صوت الأزارقة وارتعش شاربه الجميل في بشر . ثم نهض واقفا وقال انه سوف يتصل بها خلال أيام قليلة ليبلغها عن موعد الحفل ، ويوم الحفل سيتكفل ناس بأمر انتقالها تحت الحراسة ، وردها الى البيت تحت الحراسه أيضا .

٤٤

كانت تستعد للحفل المنتظر باغنيتين قديمتين ، وكان صاحبنا قد تكفل باقناع الفرقة الموسيقية الكبيرة التى سـوف تصـاحبها وتصاحب غيرها طوال الحفل ، لا تدرى كيف اقنعهم بالتبرع وهى تثق ان مسألة التبرع أمر غير وارد فى قاموس حياتهم على الاطلاق ، لكنها لاحظت أن الفرقة تستجيب لطلباتها دون تذمر وتوافق على اجراء البروفة حسب مزاجها هى فى أى وقت تشاء ..

ولم يكن قد بقى على حفل الخنافس الا أيام قليلة حين طرق باب الفيلا من الخارج ونبحت الكلاب بشراسة ، ولم يفلح خفير الفيلا فى اسكاتها ، وكانت هى جالسة على مائدة القمار تطلق قهقهات عالية بلا معنى حين اقتحمتها أصوات الكلاب فأحست بانقباض فى صدرها وتسللت خارجة فأطفأت أنوارا كثيرة فى الصالون وأغلقت باب الصالون بالمفتاح وانطلقت فى الصالة ومنها الى الشرفة المطلة

على باب الفيلا مباشرة فأضاءتهـــا وصـــاحت بخوف : « فيه أيه يا عليوه » ، فصاح عليوه من بعيد مغطيا على أصوات الكلاب قائلا ان سعادة البيك يريد مقابلتها لأمر مهم كما يقول ٠٠٠٠٠٠ فجاءها صوت مصقول مؤدب يصيح : « مساء الخير يا هانم ٠٠ أنا الرائد مجدى الصـــوفانى ٠٠ ممكن نقعد مع ســعادتك خمس دقايق بالعدد ؟ » ٠ قالت وقد أعجبها ان مثل هذا الرائد يستأذنها بأدب هكذا قائلا يا هانم : « بكل سرور ٠ تفضل » ٠ ثم دخلت ، مرت على الصالون ففتحته وأوصت بخفض الصوت تماما لأن ضيوفا أغرابا سيدخلون البيت » ٠ ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأضاءت نور الانتريه واختفت بالداخل قليلا حتى تكفل الخفير بادخال الرائـد مجدى وأجلاسه في الانتريه ثم انصرف ٠ بعد برهة طويلة دخلت اليه رشا تخطر كالبطة كأنها قائمة لتوها من حجرة النوم ٠ وبعد برهة أطول دخلت أم جابر تحمل الصينية الفضية عليها زجاجة الكوكاكولا المثلجة والكوب الكريستال وضعتها أمام الرائد مجدى وانصرفت فقالت له رشا : تفضل ، وصبت له المشروب فى الكوب فصنع مظاهرة لطيفة من الوشيش والطرطشه ٠ شفط رشفة مديدة ووضع الكوب فتلقفت رشا عينيه قائلة كأنما من تحت اللحاف : « أهلا » ٠ قال : « تشرفنا » ٠ قالت : « خير » ٠ قال : « الأمر بسيط ٠٠ سعادة مصطفى بيك يرجوك مقابلته لأمر هام وعاجل ٠ شردت ثم قالت : « مصطفى بيك ٠٠ من هو عدم المؤاخذة ؟ » ٠

« مصطفى بك عصمت يا هانم ألا تعرفينه ؟ » ٠٠ هكذا صاح فيها الرائد بهدوء كأنه لا يصدق انها لا تعرفه ٠ غير انها كانت بالحق لا تعرفه أبدا ، بل ربما كانت هذه أول مرة تسمع فيهـــا اسمه ٠ وقد راحت تنظر الى الرائد فى استفهام منتظرة أن يشفق عليها ويشرح لها من هو مصطفى بك عصمت ولماذا يطلبها على وجه الدقة ، لكنه لم يقتنع أبدا انهـا لا تعرفه ، ولهذا فقد انهى كوب المشروب ونهض واقفا وراح يكتب ورقة صغيرة قدمها اليها قائلا : « الموعد غدا ٠٠ فى الحادية عشرة صباحا بمكتبه ٠٠ نرجو عدم

التأخير » · ثم سلم عليها بشدة وانصرف · وحين انصفق الباب منغلقا انكسرت فى دماغها جدران زجاجية كثيرة واختلطت عشرات الصـــور ببعضها من كافة الأيام والســـنين الفائتة كحلم ســـاحر ومخيف ·

تهاوت جالســـة على الكرسى وأمسكت برأسهـــا ونظرت فى الورقة للمرة المائة محاولة استشفاف ما وراءها دون جدوى ، حيث لم يكتب فيها سوى : « مصطفى بك عصمت · ٤ حدائق اللبوءة « · حتى الحى فكرت فيه وفيمن يسكنونه : حدائق اللبوءة ·· كان فى الماضى ـ كما تسمع اليوم ـ يسكنه الكبراء من الأسود فى عالم المال والاقطاع ، وكان أول من اتبنى فيه رجل يهوى تربية الأسود واطلاقها فى حديقته المهولة ، ومن بين أسوده كانت لديه لبؤة تفعل الاعاجيب فى الحديقه ويتفرج عليها الناس بل يحجون اليها ، وقد جاورها عشرات الآثرياء بحدائق مثلها وأصبحت حيا كبيرا ينطق ساكنوه اسمه بكل تفخيم وتعظيم : حدائق اللبوءة · كل ما تعرفه « رشا » عن الحى غير هذا انه حى قد أحيط مؤخرا بالأســـوار والحراس · كان بامكان « رشـــا « ان تدلف الى غرفة الصالون وتستفهم عن حقيقة الأمر لينبرى عبد القوى بك شارحا لها كل شىء باسهاب · لكنها أحبت أن تظل فلاحة ماكرة ، فلا داعى لاطلاعهم على هذا السر الذى يعد من أسرارها الخاصة ·

٤٥

فوجئت بأنها فى نفس المنطقة التى سبق ان جاءتها ذات يوم من أجل الاستفهام عن مصير عنتر كباية · أهذه اذن هى الحدائق ·

وهكذا زحفت سيارتها المرسيدس الفاخرة بكل ثقة ، وكلما نمهل فى طريقها حارس نظرت اليه نظرة تصرعه فى الحال قتيلا ، فيزيح من أمامها المتاريس حتى وجدت ثمة سيارات راكنة فركنت بجوارها ثم نزلت وصفقت الباب خلفها ثم شرعت تخطر كطـــائر

النورس فوق صفحة البحر . كان في استقبالها أكثر من واحد يلبس الزي الرسمي ويعلق على وجهه نظرة استنكار صارمة ولكن مستعدة للمرونة . زحفت قصاصة الورق بأصابعها تجاههم فتلقفها من يبدو انه كبيرهم ونظر فيها ثم انحنى لها باسما واشار لها ان تتبعه . مضت خلفه . كان يبدو من ملبسه ومن خطوته أنه صاحب رتبة كبيرة ، يؤكدها ان عشرات من الضباط كانوا يعظمونه طوال الطريق ..

خرجت من ممر طويل الى آخر أطول ثم الى ثالث أقل طولا ، ثم حودت فاذا بها امام باب لم يكن يبدو انه باب الا حين فتحه من يتقدمها . دخلت وراءه ، فوجدت أمامها جدرانا منكسرة من القطيفة الخضراء حودت من خللها فاذا بها أمام حجرة مستطيلة مليئة بالاثاث الفاخر وفي نهايتها مكتب يجلس اليه عملاق كبير يرتدي اللباس العسكري وعلى كتفيه نجوم وضبابير تفوق ما في سماء قريتها ، وعلى ثدييه شارات حمراء وزرقاء وخضراء ولا حصر لها ، وفوق الرأس ذلك الكاب المخيف سقط قلبها في قدميها لبرهة كما تعودت ، فطول عمرها لا يهزها في الدنيا شيء من الأعماق كما يهزها اللباس العسكري ويلقي الرعب في قعر بطنها ، شعور توارثته ولا تدري له تفسيرا ..

على انها حين تقدمت بضع خطوات منه كادت تتناثر الى فتات تتطاير في الهواء ورغم أن أجهزة التكييف كانت توحي اليها بوجود رياح عاصفة في الخلاء فان جسدها كان مبتلا بالعرق الساخن كالبخار . نظرة واحدة نظرتها في عينيه تأكدت بعدها أنه هو .. نعم هو بعينه ذلك الرجل الذي أعطاها البطاقة ذات يوم لتكون السبب في شهرتها الفائقة والسبب في العز كله والهناء كله ، ها هو ذا - أخيرا - صاحب البطاقة يظهر في حياتها من جديد وتراه وجها لوجه مرة ثانية . بكل ما تبقى فيها من قوة وقدرة على التماسك سلمت عليه ومنحته الكثير الكثير من الحنان والشعور

بالامتنان فى ضغطة يد ، قال لها فى شعور حقيقى بالرضـاء : « تفضلى » . الآن تأكدت بما لا يدع مجالا للشك انه هو ، نفس العينين نفس الأنف المستطيل المتأفف نفس الشفتين المطبقتين على شعور عميق بالخطر نفس اليد بملمسهـا نفس الصـوت برنته وإيقاعه ، هى ليست تتخيل أو تتوقع . لكن .. لم يتغير فيه سوى اللباس ، فحين رأته فى المرة الأولى كان باللباس الملكى أفنديـا عاديا . لم تسأل نفسها ما علاقته بالحاج عطاطس هل هى قرابة رحم أم قرابة دم أم قرابة طبع أم قرابة مصلحة ، كل ما يشغلها الآن شىء واحد راح دماغها يحدثها به فيما ينشغل عصمت بك فى توقيع بعض الأوراق : ها هو ذا الرجل الذى قدم اليك الجميـل شرع يطلب أجره ، حقه ، كان من الواجب أن تسارع هى برد الجميل ولكنها سارعت ولم تفلح وهذه هى عصمتها عند اللوم ، ها قد آن الأوان لأن يأخذ حقه منها ، ترى أى ثمن سيطلب هذا العملاق ؟ هل تراه سيطلب صراحة أم سيسكت ويتركها تفهم من تلقاء نفسها ؟ أليس من المحتمل أن يكون إنشغاله عنهـا هـذه اللحظات مقصودا به اعطاءها مهلة للتفكير فى الأمـر والتصرف بلباقة ؟ ولكن لا .. عصمت بك ليس هكذا أبدا ، لقد كان كريما معها فى أول لقاء ولا تظن أن الكرم صفة يصطنعهـا الانسـان وقتما يريد ..

أخيرا اغلق أوراقه وأشار لمن كان حوله أن ينصرف ويغلق الباب تماما . فخفق قلبها بشدة .. ثم ان عصمت بك أشعل غليونه فى حماس مكشرا بين حاجبيه يشد النفس فى انفعال ، ثم مال نحوها قائلا : « رشا هانم .. احنا لنا عندك خدمة بسيطة » .. خفق قلبها مرة ثانية واعتدلت فى جلستها وهزت رأسها موافقة : « وماله يا فندم .. احنا تحت الامر والاذن .. ولو انى ما عدتش باسافر اليومين دول كتير .. تقريبا ما عدتش باسافر خالص لكن ما دام حضرتكم تقصدونى فى خدمة أهلا وسهلا »

ثم ارتعدت وصارت كالسمكة تنتفض فى زيت مغــلى .
ادركت انها أخطأت بجهالة وغباء . ذلك أن عصمت بك نظر فيهـا نظرة جاحظة ذاهلة متشككة ، ثم أشعل غليونه مرة أخرى وشــد الانفاس المتلاحقة وقال : « مش فاهم .. أيه دخل السفر هنا .. سفر ايه وبتاع ايه ؟ » . كانت ترتجف ، قالت وقد اســتردت ذكاءها ومكرها الريفى : « متأسفة .. افتكرتها خدمة يعنى حفلة » . ثم أحست ان اعتذارها غير مقنع على الاطلاق فابتسمت فى ارتباك وقالت : « على كل حال .. اللى تأمر بيه يمشى » . قال عصمت بك فى جد كأنه قرر تأجيل الشك فى ارتباكها هكذا : « الاستاذ عبد القوى بيسهر عندك .. طبعا » . قالت بسرعة : « طبعا .. مش هو لوحده .. دى مجموعة أصدقاء .. الاستاذ عبد القــوى والاستاذ سامى وفلان وعلان » . قاطعها بكفه قائلا : « مضبوط .. عايزين نعرف ايه اللى بيقولوه .. اللى بيعملوه احنا طبعا عارفينه . مش مشكله .. بس أيه اللى بيقولوه عن مشكلــة الشرق الأزرق والسيد الرئيس والنظام وأوضاع المجتمع ، دى بصراحة معلومات تهمنا وعايزين نعرفها » .

اعتدلت رشا وتمطت بعض الشيء كأنها استراحت ، قالت : « هى دى المهمة اللى سعادتك عايزنى عشانها ؟ » . نقر بأصبعــه سطح المكتب : « عليكى نور » قالت فى براءة : « بس أنا مش ممكن أقدر أفتكر أى كلمة .. من حيث الكلام أهم بيتكلموا .. زى كل الناس ما بتتكلم .. بس كلامهم بيبقى أعمق شويه .. زى ما تقول أنهم عارفين حاجات كتير الناس ما تعرفهاش » . صــاح عصمت بك وكاد يقف : « زى أيه .. آهو ده اللى أحنا عايزين نعرفه .. أيه بالضبط الحاجات اللى بيعرفوها ؟ .. قولى يا رشا ماتخافيش » . قالت رشا فى براءة : « لا مش قصدى . قصدى انهم .. اسمها أيه الكلمة اللى بتقولوها على الناس اللى عارفين ومتعلمين .. مثقفين

.. أيوه .. مثقفين » . ضحك عصمت بك حتى دمعت عيناه . قال « على كل حال .. الخدمة اللي تقدميها لنا بسيطة .. الرجالة بتوعنا حيزوروا الفيلا بتاعتك لمـدة نص ساعـــة بس .. مش حيفتشوا على أى حاجة .. بس حيركبوا حاجة بسيطة كده فى الصالون . وبعد كام يوم حيروحوا يفكوها ويجيبوها لى هنا .. موافقة ؟ قالت وقد غرقت فى حيرة عميقة : « موافقة » .

ثم امتد بينهما الصمت لبرهة طويلة رد خلالها على التليفون مرة أو مرتين بسرعة . فلم تجد مفرا من الوقوف . واذ وقف هو الآخر ليسلم عليها ركزت فيه عينيها فلم يبد عليه مطلقا انه يعرفها من قبل أو رآها فى حياته . قالت له فى صوت مرتعش : « أظن سعادتك ماشفتنيش قبل كده ؟ » . قال بوجه مشدود وصـوت حاد : « الحقيقة ماتشرفتش » قالت له : « من كام سنة كده .. مدة كبيرة الحقيقة .. كان .. كانت .. كنت » .. « أيه مالك .. مانمتيش امبارح كويس ؟ .. ما أعرفش ليه الناس بتخاف وتتربك أول ما تيجى عندنا .. يفقدوا القدرة على التركيز .. احنا بنخوف الناس ولا أيه ؟ » . اطلقت لضحكتها العنان بعض الشيء وقالت : « ما هى بصراحة حاجة تلخبط .. أصل سعادتك .. فى يوم من الأيام » . أرسل اليها نظرة شك قاتلة هذه المرة شفعها بقوله : « تانى .. على كل حال أنا واثق انى ما تشرفتش برؤية سعادتك قبل كده » . فسلمت عليه بحرارة قائلة : « على العموم فيه واحد يشبه سعادتك قدم لى خدمة كبيرة قوى قوى قوى .. فحتى لو ما كنتش هو . قصدى لو ما كانش هو حضرتك .. برضه حاشكرك لانك شبهه » . فضحك عصمت بك عاليا وهز يدها كأنه يدفعها الى الخارج . فاستدارت ضاحكـــة وحيته بانحناءة قصيرة ثم انصرفت قائلة فى نفسها : « وحق جلال الله هو بعينه مهما ينكر » .

حفلة مشئومة · باتت تكرهها كره العمى وترتعد كلما تذكرتها · كانت أول مرة ترى فيها مدينة الخنافس وهى مدينة على الحدود الشرقية لوادى بنى الأزرق · ليتها ما رأتها ولا غنت فيها · كان الحفل حافلا ، لكنه أبدا لم يكن لائقا ، ليلتها أسكروها رغما عنها فخرجت عن حدود اللياقة لتصير مثلهم جميعا ، وغنت حوالى ثلاثة أرباع الساعة وهى تتقصع وتتلوى وتتوجع والجميع يتوجع معها ، كلهم رجال خشنون وغليظوا الطبع ويفترضون ان كل من عداهم هو العدو اللدود · دامت الحفل ليلتها حتى الصباح وبعدها بساعات قليلة اعترفوا جميعا فى الصحف والراديو والتليفزيون أن العدو قد دمر طائراتنا ودمر قدرتنا على التحليق والطيران ·

كان عبد القوى بك يقول فى مرارة باكية : « الوطن ·· الوطن ·· فرطنا فيه » وكانت ترد قائلة فى نفسها : « ما الوطن ·· ها هى الناس تعيش كما هى ولم يأخذ أحد بيوتهم ولا أملاكهم ولا تعرض لهم فى أرزاقهم » ، وكان يقول : « الاستعمار ·· الاحتلال » ، وكانت ترد قائلة فى نفسها : « طول عمرها وهى تسمع ان البلاد يحكمها الاستعمار الأجنبى ·· وفى منتصف حياتها قامت ثورة ، ومنذ قامت وحتى الآن وهى لم تعرف على وجه التحديد ما هو الفرق بين حكومة الاحتلال الأجنبى وبين حكومة الثورة ؟ ·· ان الجرائد والراديو يقولون أن الثورة خلصت البلاد من الاحتلال الأجنبى ·· ومعنى ذلك انها لم تخلصها بعد من الاحتلال المحلى » ·· ثم شوحت بيدها فى فروغ بال نحو عبد القوى بك فانزعج عبد القوى بك ورمى ورق اللعب من يديه وأشعل سيجارة نفث دخانها فى شعور بالهم ، ووجه حديثه للجالسين قائلا : « الآن الآن فقط ، اقتنعت ان الوطن الحقيقى ليس هو الأرض أو العرض أو المكان أو ما الى ذلك ·· الوطن الحقيقى هو الثقافة فى الوطن ، هو معنى يتعلمه الانسان ويتثقف به ، فبدون الاحساس بهذا المعنى

يصبح الوطن مجرد أرض ينتزعها الاقوى فلا بأس وعرضا ينتهكه المتسلط .فلا حول .. نعم يا خوتى .. ما أضيع الوطن بين يدى الدهماء ، وما أشقى أهله الواعين تحت أقدام المتسلطين ـ ثم وجه الحديث نحوها ـ الويل لكم يا بناء بنى الازرق الملاعين ما دام الوطن فكرة غائمة لا معنى لها فى أذهانكم .. الذنب ليس ذنبكم على أى حال بل ذنب آخرين لعلهم المثقفون لعلهم القادة لعله الاستعمار لعله الزمن لعله كل ذلك مجتمعا .. المهم انه شىء ليس يدعو للاسف فحسب بل يدعو ـ وللمؤاخذة يا ست رشا ـ الى الإرتخاء » . ثم انه بصق فى الهواء بقرف ونهض واقفا يلم سترته المترهلة ويعدل رباط عنقه الانيق ، ثم انصرف صائحا كعادته فى مرح الصبيان وخفة المهرجين : « الى اللقاء غدا » . لكنه لم يطأ عتبة رشا الخضرى من ليلتها ، بسبب بسيط وهو انه لم تعد تظهر على وجه الأرض بعدها .

٤٧

ركبها الهم والغم شهورا طويلة كانت فيها كالغريقة لا شطآن ولا بزوز . لا يمر يوم دون استدعائها الى مكان ما فى حدائق اللبوءة ، ويوم لا يستدعيها أحد يزورها آحاد بحجج مختلفة . وكانت الحفلات قد توقفت تماما وعم البلدة كرب عظيم ، حتى الأفراح التى دعيت لاحيائها من بعض علية القوم كانوا يقيمونها فى مسارح مغلقة ويقتصرون فى البهرجة مراعاة لخاطر الموتى فيما أسموه بالنكسة وما أكثرهم ، نعم كانوا من الكثرة بحيث انها دهشت لأن يموت أو يتوه أو يتشرد كل هذا القدر من شباب بنى الازرق فى ساعات قليلة من عمر الزمان . شغل التهريب أيضا أصبح محاطا بالكدر مع أن أحجامه تزايدت وفرصه اتسعت اتساعا مذهلا . سفرة فى البر أو سفرتين الى أوروبا فى حفلات وهمية لمدة اسبوع على الأكثر تعود منها محملة بالحقائب الحافلة بالثياب

أو الالماظ أو الدولارات أو علبا وصناديق مبهمة تتصاعد منهـــا عطور فاخرة ويتسلمها فى المطار ناس معينون .

الكدر لا يزال يغلف البلاد والجو لا ينبىء عن استقرار . حتى لقد ضاقت بالحصار وفقدت أعصابها فباتت لا تهنأ بالنوم أو الهدوء ، تبكى لاتفه الأسباب وتتنهد مصعدة عينيها الى السماء فى ضراعة . أسود يوم جاءها آنذاك يوم استدعاء زوج ابنه ام جابر الى الاحتياط ، وهو وعشرات الآلاف من الشبان الذين كانوا قـد أنهوا مدة خدمتهم فى الجيش وخرجوا لتوهم ، وظلت أم جابـــر تملأ يومها وليلها بالعديد والبكاء الحارق ، وكان الليل على جبـل الحواوشى يريها مدينة العاصمة راكعة على قدميها كالبهيمة الغطسى . ورغم كل هذه المحنة التى أحست بنفسها فيها لم يعاودها اللوم على نفسها بسبب عدم ارتباطها بزوج يؤنس وحشة حيـاتها بولد أو اثنين ، بل ـ رغم شعورها الفائق بالوحدة والخوف والضيـاع ـ أيقنت من أنها كانت محقة حين لم ترتبط بأى رجل فى هذه المدينة المتكفأة على وجهها ، فليس فيهم من يستطيع الحصول على ثقتها . ليس فيهم من تستأمنه على ظهرها لحظة قصيرة واو فى الفراش ..

رن جرس الباب بعد شهور طويلة من الصدأ ، واذا بالقادم رجل عملاق يلبس الحلة العسكريـــة ذات النيـاشين والضبابير والنجوم الصفراء اللامعة ، والكاب الأحمر . اعتقلت صرختها ونظرت فى الخلاء فلم تجد أحدا سوى سيارة تعرفت عليها بسرعة ، ثم اغلقت الباب وهى تقول لنفسها : « خير يا رب » . وكان الرجل العسكرى قد جلس فى الانتريه وخلع الكاب وما ان رأها مقبلـة حتى زأر فيها : « مساء الخير يا هانم » . فتسمرت فى وقفتهـا ترتعش : « مين ؟ » . قال : « اقعدى أحسن معنديش وقت » . صاحت وهى تجلس مرتعدة : « معقول ؟ المعلم عطـــاطس ؟ » . ابتسم : « براوه عليكى » . نظرت فى لباسه بكل ذهول ودهشة . شوح بيده فى وجهها : « ما تاخديش فى بالك ثم مال عليها وهمس

فى أذنها ان لديها غدا حفل فى صعيد الوادى فى مدينة الأزرق سيشرفها بالحضور سيادة المحافظ ومدير الأمن ورؤساء المدن والقرى والهيئات الكبيرة ، والحفل سيكون كبيرا جدا وسوف لن تحصل على أجر لانه لصالح المجهود الحربى • قالت له : هل لك صلة بالجيش ؟ قال : لا • قالت : فلماذا ترتدى هذه البذلة اذن ؟ • قال ضاحكا انها ليست بذلة جيش انما هى بذلةبونيس • قالت : فما لك وللبوليس ؟ • قال ضاحكا انه كان رتبة كبيرة فى الداخلية قبل ان يسوى معاشه ويستريح ويستقل وانه كثيرا ما يحن الى هذه البذلة التى ظل يحتفظ بها فيرتديها كل حين لدقائق معدودة يستعيد بها ماضيه المجيد ••

رشا لم تعد تهتز من هذه المفاجآت المذهلة ، فهى تعرف مقدما انها تعيش فى مدينة يسمونها أم العجب نسبة الى ما فيهـا من أعاجيب لا تنتهى • لهذا فقد انتقلت الى الحديث عن الحفل مباشرة كأن مفاجأة كهـذه لم تحـدث • أعطـاها مزيدا من التفاصيل عن الحفل • ثم أضاف باسما كعادته انه نظرا لكونها ستغنى فى الحفل مجانا فقد رأى أن يعوضها من ناحية مقابلة • قالت : كيف ؟ • قال أنها عند انتهاء وصلتها تقابل جماعة من العرب بعضهم غزاوى وآخر بيروتى وثالث عمانى ورابع ألمانى ، سيصعدون اليهـا فى كواليس المسرح ويوقعون معها عقودا وهمية على حفلات تقيمها فى عدد من البلدان ثم تقبض منهم المبالغ المتفق عليها معهم ، وعليها ان تورد هذه المبالغ اليه بعد عودتها من الحفل ليعطيها نصيبها من العمولة ، قالت : الست سأغنى ؟ قال : « لا •• هى ثمن أشياء بعتها لهم » • ثم أضاف : « ومن يدرى ؟ ربما أقاموا لك حفلات تغنين فيها بالفعل وحينئذ تحصلين على أجرك •• والآن ــ ثم نهض واقفا ــ استأذنك فى أن أترك عندك أمانة لمدة يوم واحد حيث يمر أحد رجالى لاستلامها •• لا شأن لك بها •• سنضعها فى حجـرة عليوه » •

خفق قلبها · سألت متوجسة : « أمانـــة ؟ » · صاح : « لا تخافى ·· هى ليست مخدرات ·· انها ·· انها بضائع ·· سلع ·· تعال وأمرى عليوه بفتح حجرته » · ثم جذبها من يدها الى الخلاء فى الحديقة فصاحت : عليوه · فجاء عليوه يجرى فقالت له : افتح الحجرة التى نخزن فيها الكراكيب القديمة · فانطلق يجرى خلف الفيلا حيث فتح الحجرة فى البدروم أضاءها فظهرت الكراكيب والكراسى القديمة وظهر الغبار وظهرت الرطوبة · ودخل « عطاطس » وخلفه رجل يحمل على ظهره صندوقا من الخشب الابلكاش الكبير مبرشم من جميع النواحي · ساعده عليوه في وضعه وراح يعدله في ركنة مناسبة فما أن فرغ حتى دخل الشيـــال بصندوق ثان ، ثم ثالث ثم رابع ، وكانت « رشا » تتابع ذلك فى ذهول ، فما ان شرعت تسأل كيف تم نقل هذه الصناديق سمعت مارشى سيارة نصف نقل ثم رأت ظلالها تمرق الى بعيد · حينئذ جاوزت عطاطس وهمست فى اذنه متوجسة : « أيه البضايع دى بالضبط ؟ » ، قال المعلم عطاطس بكل بساطة انها مجموعة من الاسلحة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة آلاف قطعـــة ما بين مسدس وبندقية ورشاش تسوقها سيادته من صعيد الوادى بشـــق النفس وغالى الاثمان · قالت له : أهذه هى الصفقة التى سأقبض ثمنها فى الحفل اذن ؟ · قال نعم · ثم سلم عليها وانصرف مسرعا ·

تركها واقفة على سلم الشرفة شاردة خائفة خوفا يشوبه بعض لذة · وكانت ناقمة فى سرها على ناس مجهولين لا تعرف من هم بالضبط · وكان عليوه قد عاد ودخل حجرته المواجهة للشرفة تماما وأضاءها ففوجئت «رشا» انها أمام متحف شعبى طريف جدا وبهيج، صور لزميلاتها وزملائهـــا من الفنانين منزوعة من المجـــلات الملونة وملتصقة بالحوائط كلهـــا فى تنسيق بديع ، ورف للراديو وآخر لأدوات الحلاقة وبعض البراويز المذهبة لصور أفراد أسرته ·

وكانت ساعة الحائط الذهبية تعزف لعقاربها التى راحت ببطء وصعوبة تتسلق جدران الليـل الموحش الـكئيب ، وفرقة تلاثى أضواء المسرح تتراقص على دق الطبل قائلة : « دكتور الحقنى المغص جوه فى بطنى ٠٠ أغلقت التليفزيون فى عصبية وتمددت ، فرن جرس التليفون فرفعت السماعة فى سأم : آلو ٠ فجاءها صـوت رقيق مؤدب » هاللو رشـا هانم ٠٠ تسـمحى لى بزيارة حضرتك خمس دقايق ؟ ٠٠ أنا « أحمـد سليم » مدير مكتب مصطفى بك عصمت ٠٠ احنا لاتنين رتبة واحدة بس هو صاحب المكتب وأنا مديره هاها ها ٠٠ حاكـون شـاكر قوى لو حضرتك سـمحتى بالمقابلة ٠٠ الليلة ضرورى » ٠ وافقت على الزيارة وانتظرته بقلق شديد ٠٠

نفس الطابع كأنهم جميعا يصبون فى قالب واحد ، كل ما هنالك من اختلاف بينه وبين الآخرين ان اسمه « أحمد سـليم » أهـلا وسهلا ٠ شرب الكوكاكولا ثم تلكأ حتى شرب قهوة ثم تلكأ حتى شرب كأسا من الويسكى ، والكأس يجر أخيه ، وأخوه يجلب المزة ، والمزة تستدر العشاء ٠ وهكذا سهر « أحمد سليم » سهرة خاطفة انتعش فيها وتعرف على نوع الويسكى وكم ثمنه فى داخل المطار وخارجه وكيف يغشـونه وكيف وكيف ٠ كل ذلك ولم يعترف بهدفه من الزيارة المفاجئة ، فلما استحثته على ذلك أخبرها بشىء كثير وغريب من التشـفى ان أمـورا خطـيرة قد وقعت فى الساعات القليلة الماضية ٠ ثم رفع بصره واستقر به على صـورة عبد الناصر داخل البرواز الذهبى الأنيق فارتسم على وجهه شعور كبير بالتقدير يشوبه شعور كبير بالخوف الغامض ٠ أحست رشا بذلك فابتسمت قائلة : « ما الأمر بالضبط ؟ » ٠ قال لهـا ان مصطفى بك عصمت وقع فى الرئاسة واختلت الموازين فجأة بين

كافة الأصدقاء والاولياء فتفرقت السبل وحدث ما لم يكن يتوقعه احد ، اذ يجلس مصطفى بك عصمت الآن فى منزله لا حول ولا طول بعد أن نزعت منه المسئولية ٠ تنهدت رشا واستعاذت بالله من شر النفوس ، وسألت أحمد سليم لماذا يقول لها هذا ؟ ٠ قال : «ظننت انك تمتين اليه بصلة قربى فأردت أن أنبهك لتأخذى جانب الحيطة والحذر ، فانهم لا يعرفون الله فى هذه المسألة ٠ قالت له انها لم تكن تمت اليه بصلة ٠ قال بخبث : ولا تورطت معه فى شىء ؟ ٠

وجدت نفسها مضطرة الى أن تحكى له كل شىء عن المهمة التى ساعدت بها مصطفى عصمت ٠ حيئذ هز رأسه فى أسف مصطنع قال انه من طينة مختلفة عن طينة هؤلاء الذين سيطروا على كل شىء بدون وجه حق ، وانه لهذا ــ جار عليه الزمن فمصيره مدير مكتب لأحد زملائه السابقين الذين كانوا فى الواقع أقل منه نبوغا ، وانه ــ لهذا أيضا ــ يشفق على الناس من ظلمهم البين الصارخ ، ولولا وجود أمثاله فى مركز كمركزه لما نجا أحد على الاطلاق من الأبرياء ، وانه ــ لهذا كذلك ــ أشفق عليها وعلى سمعتها وعلى مستقبلها مما يخبىء لها المستقبل ، ولما كان من المعجبين بصوتها فقد جاء يعرض خدماته ، ثم اختتم حديثه النشوان المتناثر مؤكدا لها انها لا يجب أن تخشى شيئا أو تقلق من شى طالما هو يعيش على ظهر الأرض ٠ ثم سألها : ألم يحدث لك استدعاءات كذا وكذا ؟ قالت نعم ، قال سوف لن تتكرر أبدا ، ولك مطلق الحرية فى أن تعيشين حياتك طولا وعرضا ٠

كانت تظن انها طرطشة النشوة بفعل الويسكى الجيد ، فاذا به يصدق فى وعوده ، واذا بها تعيش أسابيع فى راحة بال تخلو تماما من القلق ٠ لهذا ألقت اليه بحبل الود متصلا ، فكان يزورها بين ليلة وأخرى ويقدم لها الخدمات والتسهيلات فى كل مكان ، وكان مجرد ظهوره معها فى بعض الأماكن يفتح أمامها أبواب الرزق بلا حساب ٠

وجدت نفسها تعيش معه أطول فترة ممكنة ، ووجدت انه وقد عرف الكثير من دخائلها وأسرارها · وشبت العواطف بينهما شيئا فشيئا حتى اذا ما اشتعلت تماما قرر الاثنان استدعاء المأذون بدون وعي · ولم تكن رشا لتدرى انها قد وقعت عقد ابتعادها عن ساحة الفن تماما والى الأبد ·

٤٩

لا تدرى ان كانت الزوابع تقتحمها لتريهـا كيف تعصف بالآخرين أم ان زوجها اللواء « أحمد سليم » هو الذى دأب على نقل ما يحدث اليها أولا بأول ، فعلنا اليوم كذا ، فرضنا الحراسة على فلان وذهبنا ووضعنا يدنا بالفعل على أمواله وثروته ، قبضنا على فلانه ورحلنا فلانه الى دولتها الشقيقة ، التحقيق يدور مع الكاتب فلان والممثل فلان والمـومس فلانة لأنهم كشـفوا عن تنظيم سرى يمثلونه · كل ما تدريه رشا ان الواقع كان قد اختلط بالأساطير ، هى لم تكن تعرف هذه الكلمة لكنها كانت تعـرف ان الحـواديت التى استمعت اليها كلها لم تكن تخريفا من خلق خيال البشر ولم تكن خيالا أبدا ، فها هى ذى نفسها قد طوردت من قريتها بلا ذنب وألقى بها فى قلب المولد فاذا بها تصبح من أثرياء البلاد المعدودين ومن ألمع نجومها المعدودين وتجالس وتؤاخى وتتزوج حكامها وثوارها الأشاوس ، هى ليست بدعا فى ذلك ، هى ليست البطلة الوحيدة فى حواديت هذا الواقع ، فثمة ممثلة سينمائية صاعدة تزوجهـا أحد كبار قادة الثورة ، وثمة مطربة كبيرة لها علاقات بغيره يعرفها الناس من أقصى البلاد الى أقصاها وثمة ممثلة مسرحيـة ضربت الرقم القياسى فى الصعود الى القمة ، هذا ما يردده النـــاس فى الشوارع ولابد ان ما خفى يكون أعظم بكل تأكيد ··

فرغ سوق المطربين والمغنيين تماما وخلا للمهرجين والمتزحلقين على الجليد فى سخف · مطربة شامية رحلت وبيعت شقتها ، مطرب

شامى يهرب المخدرات ويتمكن من الهرب . رشا اكتفت بثروتها وحمدت الله على ما رزق ، والغناء .. على خفيف كما طلب زوجها « أحمد سليم » قالت : « يعنى حفله ولا حفلتين فى الشهر » . قال : « نعم لا بأس » . فلما جاءت الحفلات السرية كانت رشا تقتاد الى الحفل مخفورة بالحرس وتعود منه مخفورة بالحرس ، أحبت هذه المسألة فى بادىء الأمر ولكنها سرعان ما تأففت وتململت وأعلنت ضجرها ، خاصة ان الجمهور ـ كما بدا لها فى ذلك الوقت ـ كان قد مل هذا النوع من الغناء وباتت هى فى حاجة الى مسايرة ذوقه بأغان جديدة وألحان جديدة كما يفعل البعض من المتربعين . ولكن زوجها . أحمد سليم كان يريدها كما هى امرأة فحسب امرأة سرير على وجه التحديد لا أزيد ولا أقل ، ان هاتين العينين السميرتين ـ فيما شرع يقول لها ـ لا يجب أن يكون لهما مسامرا آخر سواه ، وهذا الجسد حرام أن تتطاول عليه النظرات . وكان مصليا محترفا تقريبا ، كأن حرفته الأصلية هى الصلاة والعمل شىء ثانوى ، وفى البداية كانت تحب فيه ذلك وتقدره حق قدره لكنها فوجئت بأنها كلما تعمقت المناقشة بينهما حول أمر من الأمور الجوهرية أو حول أزمة من الأزمات أجهز هو على كل شىء وشرع يقيم الصلاة ، وهكذا كم ضاعت أمور وحقائق ومصارحات وأشياء لاتجيد التعبير عنها ..

مع ذلك كان حيوانا جنسيا لا يشق له غبار . كان شيئا مروعا لم تسمع بمثله من قبل أبدا ، كانما دوره الوحيد فى الوجود هو المضاجعة ليل نهار دون توقف الا للحظات ضرورية ، حتى أجهدها تماما فى أشهر قليلة فأصابها اعياء وصداع متواصلين ذهبت بسببهما الى أكثر من طبيب مشهور أجمعوا على ان الاجهاد ليس من هذه الناحية بل من ضغوط نفسية قوية ، عرفتها هى فيما بعد ، حين كان يظل طول الليل يكشف لها عن أسرار يقشعر منها البدن ، ليس فى الدنيا شىء لا علم له به والعياذ بالله ، وكان

جسمها يغوص فى نفسه وتغيض الدماء فى وجهها كلما أمعن فى الحكى عن أسرار البلاد والناس وما يفعلونه فى الخفاء حيث كانت قد باتت تتوقع أن يخوض فى ماضيها هى الذى من المؤكد انه يعرفه.

كان بالغ القسوة ، يقطف الوردة وقبل أن يعلقها فى عرونه يفعصها بكفه فيحولها الى هشيم ، ذابل . هكذا كانت تتصور نفسها

فى أعماق الليالى ، حيث تكون قد فقدت كل رغبة فى الجنس بل وكرهت وجودها وصارت مجرد خرقة كالشاة لا يفيد سلخها بعد ذبحها ، حتى الآن لم تجد تفسيرا لهذه العادة الحيوانية ، أن يقبل عليها ليتناولها بعد أن تكون قد أصبحت جثة هامدة ، كيف كان يجد شيئا من المتعة ؟ ..

لا تنسى ليلة القميص الاسود ، ذلك الذى غواه فاشتراه لها من حر ماله وألبسها اياه ، ولما نظرت نفسها فى المرآة وجدت نفسها غزالا أسود البطن والكتفين أما الوجه والذراعين فعاج مبهر. وكانت قد أرغمته ـ لكى تلبسه بنفس ـ على الموافقة بأن تشرب كأسا من الويسكى . وكانت واضعة ساقا على ساق أمام مرآة التسريحة فى يدها الكأس الخامس عشر وعلى السرير يتمدد زوجها بساقيه الرفيعتين كأرجل الماعز وكرشه وثدييه البارزين ، وكان يضغط ساقيه فى بعضهما بعصبية فى انتظار أن تفرغ هى من شرودها أما هى فكانت فى دوامة شديد العنف صنعتها كلمة قالها عفوا : « رأيت اليوم اسمك فى كشوف الحراسات .. وبحثت فوجدت عشرات من التقارير فى غير صالحك » . ظنته يمزح فضحكت ، لكنه بكل وجه جاد وصارم كرر الخبر ، فبرقت فى خيالها فكرة شريرة توعز اليها بأنه يسعى لغرض ، لكنه انفرط نائما فوق السرير كالواقع فى خطر حقيقى . سألته بجد وخوف : « وما العمل ؟ » . فسألها بجد وخوف هو الآخر : « ما العمل بالنسبة لى أنا .. كل خوفى الآن اننى قد صرت فى مواجهة الريح .. يبدو ان الأمر ليس حراسة فقط بل يبدو أن ثمة

تحقيقات واتهامات و ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وربما إعتقالات » ٠ ثم انه ـ وبكل بساطة ـ جلس فأكل كالعادة حتى تكورت بطنه وتجشأ كطائرة نفـاثة ٠ الادهى من كل ذلك انه ينتظر أن تقوم اليـــه وتواقعه ٠

بعدها لم يهدأ خاطرها ولا استقر ٠ لقد فوجئت به في خوف حقيقي حتى لقد هزل جسمه وبرزت عضلات وجهه واختفى كرشه وانصدت نفسه عن كل شيء فجأة ٠ أشفقت عليه وأحست انهـــا تتحمل مســئوليته حيث انه كان دائم الترديد عفــوا : « لست أعرف ما الذى أخــذوه عليك في تقـاريرهم ٠٠ انهم جميعا وهم زملاء يرفضون اطلاعي على أي شيء٠٠الغدر في عيونهم ومن الواضح أن وراءك قصصا وقصصا » فكانت تعجز عن الرد ، فيستدرك قائلا : « هناك من يهمس في أذني بأنك كنت على صلات واســعة جــــدا وعلاقات عميقة ، وان اشارة منك توظف شخصا أو تفصله وانك كنت تقومين بتعين هذه السلطات وتقبضين أجرها غاليا والا ماتكونت هذه الثروة من الغناء وحده ، وانك متهمة بإساءة استخدام العلاقات والمتاجرة بأسماء مسئولين كبار ٠٠ الخ » ٠ يقول ذلك وهو يكاد يبكي والدموع في عينيه ٠ من فرط الشعور بالاشفاق والمأســاة قالت له : « اسمع يا أحمد ٠٠ اذا كنت خايف من ارتباطى بيك طلقنى ٠٠ ولى رب اسمه الكريم ٠٠ الحمد لله اننا لا عيل ولا تيل٠٠ من حسن حظك ماباخلفش » ٠ عند ذلك إنتفض واقفا كأنها قد طعنته في شرفه ، صاح بكل شهامة : « أطلقك ؟ ٠٠ ازاى ٠٠ والله لو حطولى الدنيا في كفه وانتى فى كفه ، ما أطلقك أبدا ٠٠ ده حب مش لعب عيال ٠٠ وأنا مستعد لأي تضحية في سبيلك ٠٠ انتى فاكرانى من اياهم ولا ايه ٠٠ لا يا هانم دانا راجل قوى ٠٠ دانا فلاح صعيدى أفدى صــديقى بروحى ٠٠ فما بالك بالحبيب ؟ » فوقعت في متاهة ٠ وسألت وما العمل ؟٠ قال ان قرار الحراسة قد صدر بالفعل وانه بحكم مركزه بين زملائه استطاع ـ فقط ـ أن يحملهم على تأجيل التنفيذ لساعات قليلة لعل وعسى ٠

سقطت مغشيا عليها • انقطعت الصلة تماما بينها وبين الحياة لمدة توشك أن تكون دهرا ، لكنهـا حين أفاقت من تلك الغيبـوبة وجدت نفسها ممددة فوق السرير ووجدت فوق بلاطها أثار لهاث جنس حقير فاشمأزت ولـكن الـكارثة عادت فدهمتها من جديد • فتأوهت بحرارة ، فزحف هو من المطبخ قادما يحمل كوبا من الشاى الاسود يغب منه بشراهة ، وضعه على الكوميدينو وانحط جالسـا يقول : « سلامتك يا حبيبتى » • نظرت اليه مهمومة تردد : « وبعدين يا أحمد ؟ » • قال بعد تفكير قليـل : « مالـكيش قرايب يعزو عليكى ؟ » • قالت : (لم ؟) • قال « الحل الوحيد الى حاقدر أقدمه انك تكتبى كل ممتلكاتك باسم واحـد قريبك ، بتـاريخ قديم ، تيجى الحراسة تحـرس ماتلاقيش » • تنهـدت قائلة : « ماليش حد فى الدنيا غير ربنا وانت » • قال : « ونعم بالله » •• تكتبى باسمى ؟ أنا موافق » • نظرت فيه قائلة : « تفتكر ؟ » • قال : « اذا كنتى بتثقى فى » • قالت : « ربنا يعلم » • قال : « اسألينى أنا عن الحراسة وشئون الحراسة والى بيحصـل من تحت راس الحراسة •• مافيش حاجة تتحط تحت الحراسة وتنفع بعد كده ، لازم يخيب أملها •• و •• » • فقاطعته قائلة بكل صدق وبراءة : « على كل حال اللى عندك أحسن من اللى عندهم •• أنا حاكتب لك كل شىء عندى وحاعتبر انى عينتك حارس عليها •• عزنها حراسة عائلية مننا فينا •• زيتنا فى دقيقنا » • تجـاهل معنى هذه السخرية العميقة وقال : « خلاص •• مفيش وقت •• اكتبى لى عقد بيع وشراء بتاريخ قديم •• أهو مجرد ورقة تبقى فى أيدينا يمكن نقدر ننقذ بيها الثروة •• وخلى بالك ان الحراسة مادام اتوضعت يبقى الأمل فى رفع الحراسة ضعيف •• مش جايز تتأمم ؟ •• يلا يلا نروح للمحامى يكتب لنا العقد » •

وكانت لا تزال تتلكأ فى النزول معه الى المحامى ، حتى اضطر الى فقد أعصابه فأخرج لها القرار من جيبه ودفع به فى وجههـا قائلا : « جايز تكونى مش مصدقة •• أدى صـورة القـرار » •

فقرأتها بلهفة وكادت تقع مغشيا عليها للمرة الثانية ولكنه أسندها وراح يقرأ القرآن فى سرعة ولهوجة .

مر بها على ادارة الحراسات وطلب مقابلة ناس فلما قابلوه راحو يبدون أسفهم على صدور القرار ويوصون الهانم بالصبر . فقال لهم فى نبرة انتصار عالية ان الهانم اتضح انها لا تملك شيئا اذ كانت قد باعت ما تملك منذ وقت طويل . ثم انه أخذها وانطلق الى المحامى ، الذى أعد لهما عقدا محكما لا يخر الماء من بين بنوده . فلما وقعت على العقد وانتهى كل شيء استدرك المحامى فتقدم لهما بنصيحة ضرورية حتى تنجو هذه الثروة حقا من براثن الحراسة . قالا معا : « ما هى ؟ » . قال المحامى : « الطلاق » . صرخ كلاهما : « الطلاق ؟ » . رد المحامى فى هدوء فولاذى : « وما المزعج فى هذا ؟ .. انه طلاق صورى .. فسخ أوراق لا أزيد ولا أقل .. وبما ان أحمد بك رجل مؤمن يخاف على سمعته عند الله فليصبر على الطلاق الجنسى بعض الوقت . أى انه طلاق مؤقت حتى تنجلى الأمور فتعود المياه الى مجاريها » . غرقت هى فى ذهولها أما هو فصار يقف ويقعد ويصيح : « كيف .. لا .. لا أطيق ابعد عن رشا ولو لساعة واحدة .. طلاق ؟ .. لا ياعم .. هات عقد البيع . فلتأخذ الحراسة كل شيء وتبقى زوجتى أرى حضنها كل ليلة .. لا لا أنا لا أوافق على هذا المقترح القاسى » . وهكذا راح المحامى يتحايل عليه ويرجوه أن يتعقل وأن يضحى وأن يتحمل فى سبيل نجاح المشروع فانهم ليسوا يلعبون انما هم يقومون بتهريب ثروة لبعض الوقت من وراء ظهر الحكومة . وأخذ المحامى يستميل رشا فى صفه ويقنعها ويحسدها على حب زوجها لها الى أن انضمت اليه فأخذت ترجو زوجها أن يوافق على فكرة الطلاق وهو مؤقت . فى النهاية وافق على مضض . وجيء بالمأذون فطلقها طلقة بائنة وخرج محملا بالنقود والهدايا ..

ليلتها عادت الى البيت فوجدت نفسها ـ برغمها ـ ترتدى

القميص الاسود ثم فوجئت بطرق على الأبواب ، فنهض زوجها أحمد سليم وخرج الى الشرفة فتسللت خلفه من وراء ستار فرأت مجموعة من الضباط والعساكر يقفون الى بعيد وأحدهم يقف فى مواجهة زوجها الذى راح يقول فى لهجة رسمية حاسمة : « يا حضرة الضابط أنا قلت لسعادتك رشا الخضرى مش هنا .. طلقتها .. وأدى وثيقة الطلاق » . ثم اختفى قليلا وعاد حاملا وثيقة الطلاق فقرأها الضابط ثم قال : « بس الفيلا دى أصلا بتاعتها .. ملكها » . فصاح زوجها باسما فى سخرية : « لا ده كان زمان .. الفيلا دلوقت ملكى أنا .. تحب سيادتك تشوف وثيقة البيع مفيش مانع بس يعنى حضرتك لازم تقدر الظروف عشان ما ندخلش بيوت ناس ونقعد نفتش ونبهدل فى أهلها بذنب ناس تانيين .. رشا الخضرى مطلقة .. واذا كنتوا عايزينها فى حاجة أنا أجيبها لكم .. حاتصل بيها وأخليها تيجى تقابلكم .. فى حدود يوم ولا يومين بالكثير » . فرضى الضابط بهذا الكلام وحياه شاكرا ثم انصرف .

فلما انفردت بزوجها قال لها ان هؤلاء ليسوا تبع الحراسة انما هم زوار الليل ومعنى قدومهم للسؤال عنها انها مطلوبة للتحقيق فى أمور جد خطيرة قد تستغرق أياما . ثم أضاف بأنه أنكر وجودها الآن لكى تذهب هى اليهم معززة مكرمة بدلا من ذهابها فى عربتهم كالمتهمة العادية ، ثم ليعطى نفسه فرصة التوصية عليها بين المحققين حتى لا يرهقونها بالأسئلة .

السيارة المرسيدس هى الأخرى لم تعد ملكا لها ، فلقد وقعت على عشرات الأوراق ولا تعرف هذه الورقة من تلك . وفى الصباح كان عليوه ـ الذى أصبح يتلقى أوامره من سيده الجديد ـ قد فتح غرفة المرسيدس ونظفها ولمعها . وهبطت رشا مرتدية البالطو والفراء وغطاء للراس من القطيفة الثمينة وترتدى كذلك معظم حليها ، وفوق عينيها نظارة سوداء . حودت الى الغرفة كالعادة ودلفت الى المرسيدس فأدارتها وأشعلت سيجارة أمريكانية وراحت

تنفث الدخان فى سأم وقد امتلأ الفراغ أمامها بضباب كثير غامض وامتلأت نفسها بهموم ثقيلة غامضة ، وسخنت السيارة بما فيه الكفاية ، ولكنها كانت تحس برعشة فى ساقيها وتتمهل فى الطلوع بالسيارة كأنها ستنفذ من جاذبية الأرض الى الخلاء المجهول الشرس ٠

زحفت السيارة خارجة من غرفتها ثم حودت فوق الزلط الى الباب المواجه ٠ لكن السيارة أوقفت زحفها فجأة اذ انشقت الأرض عن أفندى متين البنيان نصف أنيق ونصف مهذب يشير بأصبعه آمرا السيارة بالتوقف ٠ ثم مال نحو الشباك : « رشا هانم ٠٠ ضيوف بره منتظرين سعادتك » ٠ نظرت فيه بأنفه واشمئزاز : « مين سيادتك ؟ » ٠ تجاهل ذلك ببرود : « أنا ٠٠ آنا الخدام بتاعهم ٠٠ قالو لى انده لسعادتك » ٠ أدركت على الفور ، ثم فكرت نفخت من الغيظ ، ثم نزلت وهبدت الباب وراءها ، ثم تقدمته خارجة فرأت سيارة كبيرة تقف الى بعيد وبداخلها رجال ٠ نزل أحدهم واستقبلها باسما : « أهلا رشا هانم ٠٠ اتفضلى » ٠ ثم فتح باب السيارة المجاور له ٠ قالت : « الى أين ؟ » ٠ قال باسما : « كلمتين صغيرتين وترجعى » ٠ دارت بها الأرض ، تذكرت عنتر كبايه وعبد القوى بك وغيرهما ، تذكرت المعلم عطاطس ذا الوجهين، تذكرت مدراء مكاتب كبار القادة والمسئولين تذكرت عصمت بك وأحمد سليم وتذكرت طفولتها البعيدة وحين صفقت الباب بعد ركوبها سيارة الشرطة أيقنت انها هى الأخرى ٠٠ لن تعود ٠٠

٥٠

أشهورا كانت أم دهورا ؟ والله انها لا تدرى . غير أنها لن تنساها مطلقا ٠ منذ دخلت بها سيارة الشرطة ذلك المكان البعيد جدا فى حدائق اللبؤة ثم عادت بها فى المساء وسط كتل الظلام فى سيارة مغلقة الى مكان ما عالى النوافذ ، مجرد حجرة بها سرير رخيص ٠

فوق هذا السرير وفى هذه الحجرة عاشت أســود أيام حياتها على الاطـلاق ، تظـل طول الليل تبكى وتصرخ وتدق الباب والجدران والأرض بقدميها وتمزق فى نفسها بأظافرها ، ولما انفتح البـاب قليلا اندفعت الى الخارج صارخة صائحة مطالبة بمعرفة تهمتها على وجه التحقيق ولماذا هى هنا • كل بضعة أيـام يحضر لها أحدهم ويلقى عليها بسخفة فى هيئة أسئلة لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها لاتعرف عنها أى شىء ، عن أناس تسمع أسماءهم لأول مرة ، عن أماكن لم تسمع بها طول حياتها ، عن وقائع وأشياء لم ترد فى كتاب حياتها ، العجيب انهم لم يسألوها مطلقا عن مسائل تخص التهريب أو الاتجار فى المخدرات وكانت تظن ان هذه هى التهم الرئيســـية ولكنها اكتشفت ان التهم أشكال وأنواع منها ما يمكن ان يكون كلاما غير مفهوم ولا معقول بالمرة •

فى سبيل ان يعرفوا منها أشياء لاتعرف ما هى أوصلوها الى حافة الجنون خدشوا مكنون سرها فاندفعت تنتقم بشراسة ووحشية تضرب أى أحد فى مواجهتها بأى شىء تطاله يدها ، حتى عرضتهم لفضائح واسعة ، فنقلوها الى المستشفى • وحين هدأت أعصابها قليلا طلبت ان تكلم أحد أفراد أسرتهـا • جـاءوها بالتليفون سرا فطلبت نمرة بيتها فى الحواوشى فظلت السماعة ترن فى دوى متصل، حتى يئست فتنازلت عن هذا الطلب مرة أخرى • ثم بعثت فى طلب زوجها ــ تقصد طليقها أحمد سليم فجاءتها من مكان عمله ــ ومع مخصوص على حسابها ــ أغرب مفاجأة يمكن ان تتوقعها ، حيث اتضح لها ان زوجها المحترم كان قد سرح من عمله قبـــل ان يتزوجهـا بشهور طويلة !!

لم يعد لها ملاذ سوى البكاء الغزير الساخن • فلمـا ذبلت العينين وانطفأ الجمال فبهما اكتشفت ملاذا أعظم هو الصلاة •• فظلت تشغل وقتها ليل نهار مصليـة متهجدة رافعـة كفيهـا الى السماء ضارعة •

فاجأها الراديو ذات مغربيـة مشئومة بخبر موت الزعيم وبعدها انشرخ الجـو وانشقت الأرض وتزلزلت الجدران • وبـكى وادى الأزرق بكاء لا يذرفه الا نهر كنهر النيـــل على زعيم كعبد الناصر أو سعد زغلول • وادى الأزرق مثل وادى النيل مثل وادى حلفا مثل وادى الأردن ولذلك بكى بنو الأزرق كأنهم كل هؤلاء • وظل البكاء والعويل يملأ سماء المنطقة أياما وينقله الراديو مشبعا بالكآبة والمأساة السوداء • الى ان جاء يوم استلانت فيه الجدران كوجوه السجانين •

٥١

شكرت الله ان سائق الاجرة لم يتعرف عليها ، ثم استرقت نظرة الى مرآة السيارة فوجدت أمامها وجها لا تكاد تعرفه ولا يمت لها بأى سبب • ولم يكن قد بقى فى حقيبتها حلى أو نقود بل لم يكن قد بقى لها حقيبة من الأصل ، وهى فى الواقع ليست متأكدة مما اذا كانت قد تركت حقيبتها فى السيارة المرسيدس ساعة نزلت لتقابل أولئك الذين أسروها أم انهـــا سلمتها فى الأمانات وادعوا انهم لم يتسلموا شيئا ؟ • الظلم حرام وهى ليست متأكدة •

عنـــد فيلا رشا بالحواوشى توقفت السيارة الأجرة ونزلت رشا قائلة للسائق : « لحظة واحدة » • فقال السائق : « عايزه رشـــا الخضرى ؟ •• أظنها باعت الفيلا من زمان » • فاستدارت اليه كانها لا تعرف ، وبقلب مشقوق من الألم صاحت : « صحيح • وهى فين عنوانها ما تعرفش ؟ » • قال السائق : « الحقيقة ما أعرفش •• انتى قلتى لى فيلا رشا •• لو قلتى انك عايزه رشـــا نفسها كنت قلت لك •• لكن والله ما أعرف عنها أى حاجة •• ربنـــا يعلم » • كادت تبتسم وتكشف عن هذه اللعبة السخيفة ، لكنهـــا قالت : « طب خمسة بس وحارجع تانى يمكن تودينى مشوار » • وسربت يدها من خصـــاص باب الفيلا ففتحته وصـــارت الكلاب تنبح فى

استقبالها بسرور حقيقى • ما كادت تصعد سلم الشرفة حتى انفتح الباب وخرج لها شاب رقيع وظهر خلفه فى الصـــالة أم متهتكه وثلاث بنات عرائس وطفلين وخادمة • شعرت بتقزز • قال الشاب: عايزه مين حضرتك ؟ • قالت : مش ده •• منزل •• مدام رشا •• قصدى الأستاذ أحمد سليم ؟ • قام الشاب : لا يا أفندم •• لا ده ولا ده •• أى خدمة ثانية ؟ • أحست ان شررا يتطاير من عينها • قالت : غريبة • زحفت نحوها الأم كأنها تريد معالجة الموقف بشكل أحسن قائلة : حضرتك مين ياســت هانم ؟ • قالت : آنــا مدام رشا الخضرى • قالت السيدة كأنها لا تعرفها على الاطلاق : أهلا وسهلا بيكي ياختى عايزه مين حضرتك ؟ » • قالت رشا وهى تسند قلبها وتبحث عن ريقها : « امال فين الأستاذ أحمد سليم •• ده بيتى •• وهو ز •• » • قاطعتها السيدة : « انتى بقى صاحبة البيت اللى اشتراه منك ؟ •• على العموم أنا الست بتاعته أم الأولاد » ــ وأشارت الى الأولاد حولها ، ثم أضافت هامسة فى اذنها : « هو بصراحة ماهش هنا •• مسافر بلاد بره بقى له كام شهر » • قالت رشا محاولة ايقاف دموعها : « بيعمل ايه فى بلاد بره ؟ » • قالت السيدة : « الله أعلم يا اختى •• يوم ما سافر قال لنا مشوار صغير وراجع بعد اسبوع •• فات ييجى عشرميت اسبوع وماجاش •• والآخــر ســـمعنا انه مش ناوى يرجع خالص •• أصله يا اختى زى ما تقولى واقع مع النظام والرياسة » • قالت رشــا باكيــة : « وما بيتصلش بيكم » • قالت السيدة : « أبدا •• احنــا كمان سبناه على راحته •• الحمد لله ربنا غانينا عنه •• ماتتفضلى ياختى نعمل لك فنجال قهوة ؟ » • قالت رشا من خلال عضه : متشكرة خالص • ثم نزلت تجر ساقيها ••

رجت السائق أن يوصلها الى ميــدان الجامع الأزرقى حيث توجد شقتها القديمة فى رعاية أم جابر ، الشى الوحيد الذى أخفته عن زوجها هو هذه الشـــقة ولم تكن تفتحها الا لتخزين شىء هام أو للافراج عن شىء هام ، خيرا فعلت حين استجابت لنصيحة المعلم

عطاطس وأم جابر وغيرهما بعدم تفكيرها فى بيع الشقة فالأيام غير مضمونة ، هاهى الحكمة تتحقق بالفعل ، وها هى ذى تطرق باب نافذة غرفة أم جابر المطلة على الحارة وكانت تظن انها لن تجـدها وانها لابد ان تكون قد فنيت فى الطوفان أو جرفتهـا رياح التغيير التى هبت على كل شىء فغيرت حتى معالم النفوس وجعلت الناس تفقد حياءها تتأجج وتتصافق وتستعد للخناق دونما سبب معلوم ٠٠ ولكن ، وكالعادة جاءها صوت أم جابر متحشرجا منسلتا من فوق الحصير عبر عشرات الكراكيب : « مين » ٠ قالت رشا « أنا رشا صاحت أم جابر : « رشا ؟ » ٠ قالت رشا : « ايوه ــ البتعه » ٠ قالت أم جابر من قلب كليم : « قلب أمك ٠٠ جيتى يا اختى ؟ » ثم فتحت النافذة وتطلعت فى وجهها ، ثم اختفت وفتحت الباب وخرجت تحتضنها وتبكى ٠ قالت رشا وهى تربت عليها فى حنان كبير : « هاتى مفتاح الشقة » ــ دخلت أم جابر وعادت فأغلقت باب غرفتها وتقدمتها صائحة : « تعالى يا اختى » ثم وصلت الى الشقة ففتحتها وصارت تنظفها ٠ لكن رشا ما ان دخلت ووجدت كل شىء على ما هو عليه دون خدش دفعت بنفسها الى غرفة النوم وارتمت على سريرها القديم وشرعت تبكى بحرقة لكنها كانت تحس براحة عظيمة تتمشى فى أوصالها ، فها هى ذى فى النهاية تجد لنفسها ملاذا يثبت ان الله لايزال معها ٠

٥٢

شىء عجيب ٠ كأنما عادت الى قوقعتها الأصيلة ، كأنها كانت شريدة طوال السنوات الماضية وعادت أخيرا الى شاطىء الأمان ٠ هذا السرير الذى لايصح أن يقارن بسرير فيلا الحواوشى ، وهذه السجاجيد دبرت ثمنها بشق النفس وحتى هذه الجدران نفسها كل ذلك بدالها رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضلعى لنفسها : « شكرا لك يا رب ٠٠ لقد أعطيتنى الدرس وقد وعيته ٠٠

أنا في هذه اللحظة يارب قد فهمت لماذا فعلت بى هكذا في هذه المحنة الثقيلة .. نعم عرفت السبب وأنت محق تماما فيما فعلت بى ٠٠ فهذا طريق ما كان يجب ان أدخله من الأساس ٠٠ لكنه الشـيطان ٠٠ زين لها كل شيء وقادها مخمورة فى طريق خلاب أفاقت منه وقد خسرت كل شيء ٠٠ هذه البنت التعيسة يارب هى أنا ٠٠ وانت يارب قد أكرمتها وحفظت لها ملاذا تبيت فيه يستر عرضـها من الوحوش السامة ٠٠ رشا الخضرى ٠٠ هم ٠٠ نجمة صاعدة ٠٠ متألقه ٠٠ صور ٠٠ حفلات ٠٠ رقص ٠٠ حكمتك يارب ان رشا الخضرى لم يعد منها الآن أى شيء ، كل صورها فى الجرائد والمجلات استهلكتها جبال الفول والطعمية والترمس التى لا تنفد وأكلتها المعيز فى خرائب العاصمة ومزابلها التى لا تحصى ، وكل أغنياتها بشمع شرائط فى مكتبة الاذاعة سقطت فى حفائر النسيان منذ أفل نجمها ٠٠ حتى باروكات الشعر والفساتين والأحذية ضاعت وانتفع بها غيرها ٠٠ هذا الاسم يا رشا – أقصد يابتعه – يجب ان يسقط هو الآخـر والى الأبد ، هى واثقـة ان أحدا فى اذاعة بنى الأزرق لن يذيع اسمها أو صوتها أبدا طالما هى لم تتقابل ولم تلح ولم ترسل الهدايا والمجاملات ٠٠ رشا الخضرى اسم لمع وانطفأ وسوف تخمد ذبالته ، وشخصية التبستها لسنوات وقد خلعتها ٠٠ من فات قديمه تاه ٠٠ الآن هى البتعه ٠٠ من فضلك وحياة النبى عندك يا أم جابر ساعدينى على نسيان هذه الانسانه ٠٠ هى لم تكن أنا ٠٠ أنا الآن لست هى ٠٠ هل أنا الآن أشبهها ؟ انظرى هاك وجهى هل هذا الوجه الطبيعى البائس الهادىء هو وجهها الذى كان مجرد لوحة تلعب فوقها الفرش والألوان والمساحيق ليل نهار ؟ ٠٠ لا أظن يا أم جابر ان شبها بيننا سوى العينين ، ولكن عينى سوف تعودان شيئا فشـيئا الى صفائهما القديم ٠٠ فى عرضك ٠٠ اذا سألك أحد عن رشا الخضرى التى كنت تخدمينها من قبل فقولى لهم اننى احدى قريباتها من بعيد وقد ورثت هذه الشـقة أما هى فمنذ اختفت يعلم الله وحـده أين مكانها » ٠

وكانت كلما جرت الدماء فى وجهها واستعادت ملامحها ذلك الهدوء القديم نظرت فى وجه أم جابر باسمة وتساءلت كيف استطاعت ان تقنع الناس ان البتعة ليست هى رشا الخضرى • لكن أم جابر ابتسمت عن فم خرب لطيف وقالت فيما يشبه الفحيح انها لم تقنع أحدا ولم تتكلم مع أحد فى هذا الشأن أبدا لأن أحدا لم يسألها ولم يبد على أحد انه يعرف شيئا عن أى شىء !!

بل ان البتعه دهشت غاية الدهشة من ان أحدا فى الحارة أو الحى أو فى المنطقة لم يلاحظ الشبه بينها وبين رشا الخضرى المطربة المشهورة التى كانت نجمة قبل شهور ، الكل قد عاد من جديد ينظر فى عينيها ولا يشغلهم سوى شخصية عينيها • كثيرا ما تمشت فى سوق الخضار لابسة فستان المنزل ممسكة حقيبة الخضار بيمناها ، غلبانة تعيسة منكسرة الى ان ترفع عينيها فكأنما رفعت خنجرين ماضيين • الوحيد الذى لحظ الشبه بينها وبين المطربة رشا الخضرى هو صاحبى الملعون كحكوح ولم يكن يعرف من قبل ان « رشا الخضرى » هى « البتعه » حبيبته القديمة ، فهو لم يلتق بالمعلم عطا طس من يومها الا لماما ذلك ان رشا قد أغنته عن الاحتياج لمثل مستوى كحكوح • وكان صاحبى كحكوح ـ ويا للعجب ـ من أشد المعجبين بصوت « رشا الخضرى » وكان يروج له فى غرزته ويقرأ أخبارها وصورها ، ويقول معلقا كلما تمعن فى احدى صورها المنشورة بالألوان على نتيجة حائط أو هدية مجلة : « باقولكو بنت بلد مصفيه •• وحياة النبى جمالها ده ما تلاقيه الا فى البيوت الأصيلة •• ثم يواصل بصوت أخنف كأنه يوحى اليك بالخنف انه يقول أشياء لا يصح التصريح بها ـ آ •• يوه •• دى مطربة مسنوده يا آبا •• بيقولوا خالها فلان الفلانى عضو مجلس قيادة الثورة كان رئيس وزرا وكان وكان •• أمال •• بس بينى وبينك صوتها مش بطال •• هو مش حلو قوى يعنى بس مش وحش •• نص بلدى على نص أفرنجى » • وهكذا لم يكن ليخطر على بال صاحبى كحكوح أبدا ان تكون « رشا الخضرى » هى نفسها بلحمها ودمها

« البتعه » فلما رأها ذات يوم تسير فى حى « القلليه » وقف مسمرا فى مكانه جاحظ العينين لاتكاد ترى له فما آو شفتين أو خدين، مجرد عينين صغيرتين تحت عمامة مملوكية كبيرة يشع منهما ضوء أزرق ساخر ذاهل معا · كانت فى الواقع تريد ان تتجاهله ولكن طلقة ضوء من عينيه العجيبتين فى عينها أجبرتها على الابتسام فى قليل من الحياء ، فتجرأ فى الحال واقتحمها هامســا من بين نواجذه : « ايه الصدف السعيدة دى يامره ·· كنتى فين من زمان يابت؟»· احمر وجهها وجاهدت طويلا لكى تتخلص من رقة النجمة اللامعة ، وكان عليها أن تعقل ذلك بسرعة ، فزغدته تحت ثديه بقوة حنونة وقالت : « اتاخر بس كده » ، ودفعته الى جوار الحائط بعيدا عن الجمهرة ثم قالت : « ازيك ياكحكوح ·· ايه أخبارك واحشنى» · قال بغبطه « انتى اللى فين ؟ » قالت متجوزه ·· ومحصلش نصيب كل واحد راح لحاله « ثم ابتسمت حين رأت معالم التصديق على وجه كحكوح · ثم انه قال : « ولسه فى الكار ولا ·· ثم بلهجة ذات معنى — هبرتى لك قرشين منه واتكلتى على الله ·· ياترى كان سعودى ولا كويتى ولا بحرينى ·· أنا شامم ريحة البترول يامره ·· هو مش باين عليكى صحيح لكن ريحته باينه » · قالت متجاهلة كل ذلك « انهو كار تقصد ؟ » · قال كحكوح : « العشرة البلدى على واحده ونص » · قالت : « لا ·· أنا نسيت الشغله دى خالص ·· ولسه على باب‌الله »· قال كحكوح بجرأة من يخاطب البتعة : «ماتعمليلك دولاب كده على الضيق زباين نضاف ·· تقطعى لك فى اليوم عشر أوقيات يكرمك الله من وراثها بمائة جنيه على الاقل » ·

رغم ان الفكرة ضربت فى رأســها كالفانوس المشتعل الا انها ابتسمت فى استنكار قائلة : « هه ·· ع العموم ربنا يسهل ·· عن اذنك » · ثم سلمت فى سرعة ومضت ·

اختلت بنفسها وقلبت الفكرة فى رأسها ، هى تريد نقودا على وجه السرعة لتعيش منها هى وأم جابر · حاولت الاتصــال بالمعلم

عطاطس فى بعض النمر السرية التى كانت تكلمه فيها ، فرد عليها أحدهم فى احدى النمر وطلب منها المجىء لمقابلته ، فذهبت اليـــه فاذا بها فى شقة محترمة فى ضاحيـــة عريقة وأمام شـــاب ظل يتفرس فيها طويلا وأخيرا قال لها : « فيه ناس كتير بتسأل عن المعلم دهفى التليفون دهمع انه مش معروف لنا خالص ‥ ايه الحكاية مين هوه الاسم ده ؟ انتى أول واحد يقبل ويتفضل بالمجىء ، فارجوكى ان كنتى تعرفى حاجة عنه قوليها » ٠

وكانت نظرات البتعه قد تجولت فى انحاء الشقة فرات صورة بالحجم الكبير فى برواز للمعلم عطاطس بذات نفسه ولكن فى لباس أنيق ، البذلة ورباط العنق على سنجة عشرة ٠ فقالت للشـــاب : « تقول انك تريد ان تعرف شيئا عن المعلم عطاطس ‥ واسمح لى اسألك لكى أجيبك فيما بعد ‥ هل تعيش فى هذه الشقة منذ مدة طويلة ؟ » ٠ قال : « لا ‥ منذ ان جئت لالتحق بالجامعة ‥ ومن قبل كانت بمثابة استراحة لخالى ‥ سالم بك الكردى » ٠ أشارت الى الصورة الكبيرة « اهو ذلك الذى فى هذه الصورة ؟ » ٠ قال : « نعم ‥ هو بعينه » ٠ تأملته طويلا ثم قالت بســـخرية عميقه : « ياجماله ‥ ايه الابهه دى كلها » ٠ قال الشاب : « هو الآن يقيم فى باريس بصفة نهائية وان كانت هذه الشقة وغيرها لاتزال باسمه» ٠ قالت « ماذا يفعل فى باريس ‥ يتاجر فى الأسلحة ؟ » ٠ ضحك الشاب فضحكت هى الأخـرى ، اذ ان الجرائد كانت لاتزال تنقل أخبار أحد قادة الجيش الذى هـــرب الى باريس من عشرات التهم وأقام هناك يتاجر فى الأسلحة ٠ قال الشاب مستدركا : « لا ‥ خالى صاحب شركة ملاحة بحرية ‥ عنده أسطول كبير فيه حوالى خمسين ستين سفينه كبيرة شغالين فى أعالى البحار ‥ وكان عايز السفن بتاعته تحت العلم الأزرقى وتكون عاصمتها مقره الرئيس ، لكن الذين بيدهم الأمر وضعوا أمامه عشرات العراقيل حتى يبز بأكبر قدر ممكن من العمولات ‥ على انهم لا يعرفون خالى ‥ عمولات من خالى ؟ ‥ ان حياته كلها قامت على العمولات وتكونت ثرواته

من العمولات فكيف به هو نفسه يدفع عمولات ؟ هو الآخـــر كان ابن هرمة ، بدا هو :الاتفاق بأن طلب العمولات لنفســـه من دولة الأزرق مقابل وضعه للعلم على سفنه » ٠

رغم المأساة وتمزق نياط القلب ضحكت البتعة مع الشاب حتى قالا معا : اللهم أجعله خيرا ٠٠ واستطرد الشاب : « فما كان من خالى الا ان وضع سفنه تحت العلم اللبنانى وجعل باريس مقره الرئيسى ، وله مكاتب فى أثينا والمانيا وجميع أنحاء العالم من أقصاه الى أقصاه » ٠ دموع الضحك استدرت دموع البكاء فصارت تبكى بعنف وتنتفض وتوشك ان تقع فريسة اغماء لا نهائى ٠ قال الشاب فى ذكاء برىء : « لقد فهمت ٠٠ لابد انك كنت على علاقة به ذات يوم ؟ » ٠ قالت وهى تنهض مستعدة للانصراف : « لا ٠٠ لا أظن اننى رأيته من قبل ابداء » ٠ نهض الشاب هو الآخر منزعجـــا : « ولكنك لم تخبرينى عن حقيقة المعلم عطاطس » قالت بصعوبة من بين دموعها : « انه رجل لاتعرفه ٠٠ يبدو انه كان ضيفا على هذه الشقة ذات يوم فأساء استغلالها ٠٠ أرجوك لا تســألنى عن شىء أكثر من هذا » ثم تقدمت نحو الباب ففتحته وألقت بنفســـها فى الشارع ثم فى عربة أجره وكان رأسها يدور بعنف ٠

نزلت فى ميدان المشهد الأزرقى واخترقته فالتقت بصاحبى كحكوح ذاهبا يشم ٠ ازيك وأهلا ورايح فين تعــالى بس ٠ مشت بجواره دون حرج فاذا به يرتد بها قائلا : « بنت حلال ٠٠ فيــه واحد صاحبى عايز مخزن ٠٠ ايه رأيك ٠٠ أهو قاعد عندى فوق ٠٠ الليلة بخمسة جنيـــه للاقة ، حيخزن قولى عشرين آقة يعنى بميت جنيه فى الليلة وعداد بيعد ٠٠ الكمية اللى ياخدها تنخصم ويجى غيرها وغيرها وطول ما ربنا ساترها اهى فل » ٠ راقت لها الفكرة ٠ غمزته قائلة : « طب أنا مروحة ٠٠ هاته وتعالى ورايا » ٠

بعد ساعة جاءها كحكوح ومعه رجل رفيع كالسفاية ممصوص الدم رغم احمرار وجهه ٠ من أول نظرة قدم لها عقدا شفويا غير

منطوق مفاده انه رجل لا باع له فى أمور النساء وانه دينه وديدنه العمل والأمانة وانه ملك لمن يصون الأمانة ناسف لمن يخونها فزغده كحكوح بعشـــم وقال له : « افق يا هذا : ان من يعاشر البتعة لا يسلوها أبدا ·· اسألنى عنها هى تربية يدى » ، ثم أضاف وهو يشعل سيجارة : « أصل دى كمان ماهش شغلتها دى هواية عندهم ·· شغلتها الأصلية مغنية أفراح·· بزمتى ودينى شبه رشا الخضرى وتضربها بالصرمة صوتا وشكلا ·· غير شى الدنيا هى اللى حظوظ ·· لـكن معلهش ·· المهم الأصــل والأمانة ·· ست بتعة الحقيقـة ما تتكلمش انت بخصوصها ·· أنا المسئول » · فضـــحك الرجل السفاية ناظرا الى كحكوح نظرة ذات معنى كأنه يقول : « وانت من يضمنك يا جربوع ؟ لكنه ادار وجهه ناحية البتعة مشــوحا بذراعه قائلا : « على بركة الله ·· البضــاعة حتوصلك ·· » ، ثم نهض وهمس فى أذنها مكملا ان البضاعة ستكون عندها غدا فى الثانية عشرة ظهرا مع امرأة عجوز تحمل ســلة على رأسها وتمشى تبيع الفجل منادية : « فين أكالك ياورور » وعلى البتعة حين تسمعها ان تفتح باب البلكونة وتناديها قائلة : « ورينا كده اللى معاكى ياحاجة » فتصعد الى الشقة وتدخلها لتترك البضاعة وتخرج فى دقائق معدودة ثم ان الرجل السفاية قال لها : « عايزه فلوس ياست بتعه ؟ » ثم أخرج رزمة كبيرة من عشرات الجنيهات وعد لها عشرا سلمها لها مطبقة قائلا : « ليلتك فل » ، فأخذتهــا ووضعتها بجوارها فى اهمال قائلة : « طب المخزن وخلصـــنا منه ·· افرض انى عايزه اشتغل قطاعى » · توقف ممتعضا : « لا بقى ·· يادى ·· يادى ·· انصحك ما دام حتشتغلى مخزن بلاش تقطعى » · هزت كتفيها قائلة فى ثقة وقد برقت الفكرة فى رأسها : « اللى بيشيل قربة مخرومة بتخر على دماغه ·· وأنا حاشيل القربة ·· أنا حره ·· يمكن عندى اللى حيخزن واللى حيبيع ·· مالكش دعوه انت » · توقف الرجل السفايه حائرا لبرهة كانه تورط · مرة أخرى زغده كحكوح فى جنبه : « اتكل على الله واسمع كلامها ميهمكش ·· دى ست انما

دماغها كبير قوى قد مليون راجل ٠٠ صدقنى » ٠ هز الرجل السفاية رأسه موافقا : « خلاص قطعى ٠٠ قطعيلك وقه ٠٠ وسعرها حسب السوق وأقل شوية عشان خاطر عيونك ٠٠ بس انتى تخلى بالك من نفسك » ٠ قالت : « اطمئن » ٠ فسلم عليها وانصرف ٠

٥٣

٠٠ يوم اقتحمها الشحات لشراء ربع القرش لأحد الزبائن كانت قد مضت عليها مدة من الاستقلال تبيع لحسابها الخاص ويمولها مهرب كبير ٠ ولانها سيدة وجميلة وناعمة فزبائنها من الصفوة ولذا اختصها بأجود أنواع الهبو الذى لا يفهم قيمته الا كل حشاش صاحب مزاج ، يدفع فى زنة قرش تعريفة مخروم أربعين جنيها أو أكثر مع انه قد يحصل على نفس الكمية بجنيهين وربما بجنيه ونصف ٠

يومها دهشت حين رأت الشحات وابتسم وجهها ٠ على غير العادة دخلت وراءه مباشرة وجلست بجواره قائلة : «خير ياشحات» ٠ قال لها : « عايز ربع قرش » ٠ وشرع الثلاث جنيهات فى مواجهتها ٠ قالت بابتسامتها العريضة : « « لك ولا حتشربه ؟ » ٠ قال باسما : « لى » ٠ قالت : « يعنى حتاكل فيه عيش » قال ببسمة مرتعشة : « تقريبا » ٠ قالت : « انت سبت كحكوح ؟ » فحكى لها الشحات ما حدث بكل دقة وصدق ٠ نهضت وغابت داخل الشقة ثم عادت واعطته قطعة سائبة ـ أى غير ملفوفة فى ورق سلوفان ـ تزن أكثر من نصف قرش بالراحة ، وقالت فى حنان عظيم : « خذ ياشحات» ٠ فانبسطت ملامحه من الفرح وناولها الجنيهات الثلاثة مبرومة ففردتها وانتزعت منها جنيها أعطته له قائلة : « ده عشانك ٠٠ وكل ما تعوز حاجة تعال » ٠ فشكرها ببسمة حيية وطلب ورقة سلوفان فلم يجد فنزع من علبة سجائره ورقتها واقتسم القطعة ولف أحد القسمين لفة جيدة واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه ، وعندما صار فى بئر

السلم لف القطعة الأخرى وقرر ان يبيعها أيضـــا بثلاث جنيهات لزبون أخر ·

منذ ذلك التاريخ صار الزبائن يعفون أنفسهم من مهمة المغامرة بمقابلة تاجر المخدرات وجها لوجه اذ يتكفل الشـــحات بتسليم الصنف لهم فيما هم جلوس على المقهى · جرى القرش فى يده وكان وفيا للبتعه لا يعتمد على أحد غيرها كمصدر ، وكانت هى نسر غايه السرور وهى ترى الطابور يمتد حتى قرب شقتها ، فلمـــا صـــار الشحات هو كل شىء فى حياتها اراحت نفسها وانتهزت الفرصة وتزوجته على سنة الله ورسوله واتسع البيع وعظم التوريد وقامت لهما فى الحارة مملكة أى مملكة ·

الباب العتيق

● عندما خطر لأبى شافية أن يسترد الوديعة

يرجع مرجوعنا لأبى شافية ـ الشحات سابقا ـ وكيف قبل مهمة القيام بالوساطة بين صاحبى كحكوح وزوجته· وكان أبو شافية قد أنبأ صاحبى كحكوح أن لديه مشورا ناحية بيتهم وسوف ينتهز الفرصة ويمر على الست ليعالج الأمر · فانطلقت أنا أجرى بلا توقف حتى وصلت الى صاحبتى ·

لم أجدها بالمنزل · فنزلت أشم أثر خطواتهـا على الطريق، فكلما امتلآت خياشيمى برائحتها أمعن فى المسـير حتى وجدتها بلحمها سائرة فى شارع المصاغة مرتدية الملسى والحبرة والحذاء ولا يظهر من وجهها سوى عينين متلصصتين · قفزت أمامها وصرت

أشب واحمحم واطوح ذيلي وهي تكاد من فرحها تحتضنني على البعد وتصيح قائلة : « طب تعال ورايا ‥ تعال » ٠

تبعتها كظلهـــا حتى فوجئت بها تحود على دكان « شفيق » الصـــائغ وخصم من ثمنـــه ما خصم على ذمة ما يسمونه بالتمغات على أصبعها وانها ـ لهذا فقط ـ تريد بيعه ٠ وزنه « شفيق » الصائغ وخصم من ثمنه ما خصم على ذمة ما يســـمونه بالتمغات حتى يئست صاحبتي فأخذت منه ما تبقى وانصرفت ‥ فعرفت أنها بتبيع ما يصلح للبيع لتحمى بثمنه مالا يجوز بيعه ، فاغتظت وحنقت من كثرة الاشفاق على صاحبتي ٠ غير ان التوتـر العصبي ركبني فجأة فوقفت جحافل الشعر على جلدى كالاسلاك المدببة وصرت أنبح في عصبية نباحا متواصلا وصاحبتي تقول : « مالك ‥ ياترى فيه ايه » ٠ وحقيقة الأمر انني كنت أشم رائحة كل من أبي شافيه وصاحبي في نفس المكان ‥

حين تأكدت ان صاحبتي دخلت البيت بالفعل اندفعت أجرى بأقصى سرعة حتى وصلت البيت منساقا وراء الرائحة وقد صدق أنفي ، اذ لمحت صاحبي كحكوح يحوم حول البيت ويحاول الاختباء مني ٠ فرابطت أمام الدار واقفـا على مؤخـــرتي منتصب الاذنين متوفزا ٠ ان هي الا برهة وجيزة حتى أقبلت صاحبتي تحمل بيدها بعض اللفائف ٠ فقمت بمناورة درت فيها حول صاحبتي دورتين وحول منطقة البيت ثلاث مرات وحول المنطقة كلها أربع مرات ثم استدرت عائدا فلحقت بصاحبتي على السلم ٠ فتحت الباب بمفتاح مربوط في ضفيرة شعرها ثم أشـــارت لى فدخلت فلحقت هي بي وأغلقت الباب ٠ ما كادت تتخفف من أحمالهـــا حتى طرق الباب فاندفعت أنا أجرى تجاهه وهي في اثرى قائلة : « مين ؟ » ، ثم لم تنتظر ردا ففتحت الباب فاذا بأبي شافيه نفسه يكاد يسد فراغ الباب قائلا : « مسا الخير عليهم » ٠

شهقت صاحبتى وضربت صدرها بيدها صائحة : « الحاج ؟ » ، ثم ارتبكت قليلا ثم قالت : « اتفضل ياحاج » ، ووسعت له ، فتقدم داخلا على استحياء وهو يقول : « أيوه الله حق الله » ، ثم تنحنح شأن الرجال المحترمين يحذرون النساء من ظهور صوت رجل غريب فيحتشمن ، اما هى فكأنها الرجل الذى خف لاستقباله .

١

لحقت به ففتحت باب غرفة الجلوس حيث الكنبتان البلدى بفرشهما النظيف المغطى بكسوة الكريتون المزهزهة الألوان : « خطوة عزيزة يا حاج شحات .. والله زمان .. ايه الحكاية ياترى » . وكانت الفرحة تطل من عيونها وأعطافها وارادفها ، ليقينها أن الشحات لم يأت الا لمصلحة هامة وانه غير طامع فيها اذ ما الذى يصيب رجلا ثريا كهذا بالخبل فيجعله وهو يقتنى أجمل زوجة فى المنطقة يفكر فى مطاردة واحدة مثلها لا هى هنا ولا هناك .. حينئذ فقط أدركت ان الزمام قد أفلت وانتهى الأمر .. فأقعيت أمام ابى شافيه مهدل الاذنين ضائق النفس فيما اختفت صاحبتى داخل المطبخ .

صاح أبو شافيه : « ما تعمليش حاجة .. أنا والله شارب كل حاجة تتصوريها .. فضى نفسك وتعالى بس دول كلمتين صغيرتين أحسن ما ورايش وقت » . فصاحت بدورها من داخل المطبخ : « جرى ايه يا حاج و ده يليق برضه .. دانت بقى لك سنين ما دخلتش بيتنا » .

تقلصت ملامح أبى شافيه فجأة وراح ينظر حواليه متلصصا كأنه ينوى القيام بسرقة ، بل انه مط رقبته كثيرا لينظر فى الصالة. فلما اطمأن أخرج علبة النشوق الفضية خلسة وفتحها وسكب منها مسحوقا أبيض فى راحة يده ثم شدها بطاقة أنفه ، ثم كرر ذلك

فى الطاقة الثانية ، ثم أعاد الكرة مرة ثانية ثم دس العلبة فى جيب الصديرى وراح يدعك فى أنفه بلذة لا مثيل لها ٠

دخلت صاحبتى جاملة صينية ذات أبهة عليها كوب ذو أبهة عرف أبو شافيه منهما ومن الصينية ان صاحبتى سافرت الى بورسعيد أكثر من مرة ، فابتسم حين تذكر ان مثيلات هذه الأوانى فى منزله ترد من لندن وباريس على متون الطائرات محشوة بالحشيش الخام ٠ جلست صاحبتى فى مواجهته على الكنبة الأخرى قائلة : « والله سلامات ياحاج ٠٠ عاش من شافك » ٠ اعتدل أبو شافيه فى جلسته وتأهب للحديث فأخذت أنا أنبح بشدة ، فنظر الى فى قرف فظللت أواصل النباح فقامت صاحبتى لتهشنى، ورأيت عيون أبى شافيه وهى تتصعلك فى نهم مروع على عجيزة صاحبتى التى لم تكن بالكبيرة ولا بالصغيرة بل كانت كخيط وهمى يحدد بروزا رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضلعى الفستان المحتشم ٠

مالت صاحبتى لتحتضننى كى اكف عن المهاترة ، فاندلقت نظرة أبى شافية الى مقطع الفخذين بالساقين بسمانتى القدمين ، الكعبان ريالات من الفضة ٠ احمد وجه أبى شافيه وبدا انه قد وقع من طوله ولا يستطيع ضبط أعصابه ٠ كانت رائحة الصابون الطيب تنبعث من صاحبتى ٠ وفيما أنا أحاول الزوغان منها داخلا الى القاعة استدارت هى بميلها متشبثة بى فاندلق صدرها فوق دماغى واذا بيدين تندبان فى صدر صاحبتى مباشرة ولكن بحجة انه يخلصنى منها لنتفاهم معا باعتبارنا ذكورا نفهم بعضنا ٠ نهشت يده بأظافرى وتركته يتأفف وجلست فى ركن وصاحبتى تؤنب فى وهو يتوعدنى ضاحكا ٠

ثم انه تخلص من الحذاء فى الأرض وربع ساقيه كفقيه سيقرأ ربع قرآن ، لكنه بكل بساطة أخرج ربع الحشيش من جيبه وفركه فى كفه ثم أخرج سيجارة من العلبة فارتبكت يده فسقطت العلبه

فقامت صاحبتي وتناولتها وأخرجت السيجارة وتولت بنفسها فركها بين راحتيها حتى تساقط نصف ما فيها من دخان ثم قدمتها الى أبى شافيه · ملأ فراغ السيجارة بالحشيش مع قليل من حبات الدخان كالقليل من الصودا على كأس الويسكى ·· ثم أشعل السيجارة فتسلقت رائحة الحشيش كافة النوافذ صارخة صادحة بما فى هذه التعميرة من بهجة وانس نادرين ·

رشقته صاحبتي بنظرة من عينين كأنهما فجوتين ينحتون الكحل منهما فلا تنفد قالت : « أظن وجبت القهوة السادة » · فعوج رأسه فى اغتباط طفولى وقال : « ياعينى » · فهبت واقفة كالفهد ومضت تتبختر كأنها ليست مجرد جسد كأجسادنا ملفوف فى ثياب أنيفة ، انما كل شىء فى جسدها له شخصيته البارزة القوية ، فكأن جسدها مجموعة شخصيات جمالية تحرك بعضها فى اتساق كأن الطبيعة تتدلل وتتفنن فى برجلة عقول الرجال · اختفاؤها فى المطبخ لم يقطع نظرة أبى شافيه التى كانت قد دقت بمسامير فى نفس الاتجاه · أخرج من جيب الصديرى ورقة سلوفان فتحها وقضم منها سنة أفيون كبيرة وصار يتلمظ · وكانت عينه تقول بكل وضوح ان قوة فى الأرض لاينبغى أن تحرمه من « وديعة » ، نعم انها وديعة فى هذا المكان وتحت سيطرة هذا الجبان حتى يجىء هو ويستردها ، ولسوف يستردها ، فليس أحق بها سواه ، سواه هو وحده ، هى تحبه من قديم ، ما أحلى تلك الذكرى ، ما أحلى القديم اذ يضىء لنا مسلكا جديدا ، هى له وليذهب كل شىء الى الجحيم ، اذا كان الله قد وهبه النعيم على يدى « البتعة » فانه سيهبه الجنة على يدى « وديعة » ·· البتعة ·· انسانة طيبة أى نعم وارجل من الرجال هذا صحيح وجميلة بلا شك ، لكنها ــ عدم المواخذة ــ كانت مجرد وسيط هيأه الله له لكى يصبح فى هذه الأملة ويجىء فى النهاية لينقذ « وديعة » من وساخة كحكوح ، وله الحق كل الحق فى هذا فهو يفهم الاثنين ويشهد أمام الله ورسوله ويقلب المصحف على عينيه انها ملاك يعاشر حيوانا زنديقا سافلا ،

يكسب ثوابا لاشك من يتيح لهذه الحورية فرصة الخلاص من هذا القحف فهذا الجمال لا ينبغي ان يهان أبدا ، ان الحكومة كما قرءوا عليه في الصحف قد جندت البوليس الدولى كله ليساعدها فى البحث عن لوحة مسروقة من قصر لايدرى من ، وهي لوحة غالية الثمن فيما يقولون لأنها بريشة لايعرف من ، فاذا كان هناك من يدفع مثل هذه الآلاف المؤلفه فى لوحة رسمتها يد بشر مثلنا ، واذا كانت كل هذه الدول تهرع للمشاركة فى البحث وضبط اللص ، فما بالك بهذه التحفة الرائعة التى رسمتها ريشة الله سبحانه وتعالى ؟ المؤكد انها آية من آيات الله فى الخلق مجسدة فكيف يجوز امتهانها ؟ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وهذا منكر ولسوف يقوم بتغييره بيديه ، سوف ينفق عن سعة الى آخر قرش يملكه حتى يخلص وديعة من كحكوح الى الأبد ٠

حين دخلت صاحبتى بالقهوة فوق الصينية ومالت لتضعها أمامه كانت ابتسامة عريضة بلهاء قد حلت بشفتيه ٠ تساءلت صاحبتى عما يضحكه فقال انه تذكر حدوته الشاطر حسن وست الحسن والجمال ، ثم ضحك بصوت عال فشاركته فى جذل وصوت ضحكها كرنين المعادن والأوانى الأصيلة فى بيوت السلاطين، يطير منها لب أبى شافيه ، تؤكد له دقات قلبه انها هى الأميرة وهى القصر وهى المملكة بكامل هيأتها ٠

جلست صاحبتى على الكنبة المواجهة من جديد ورفعت ساقا لتضعها على الأخرى فتحركت معها كل الأشياء فى عينى أبى شافيه٠ قالت صاحبتى : « لعله خير يا حاج » ٠ قال أبو شافيه وهو يلوك الأفيونه ويرشف القهوة ويتردد : « الحقيقة كنت عايز أقول ٠٠ كحكوح ٠٠ » ٠ ردت صاحبتى مشوحة : « قطع ولا كان » ٠ وقرأت فى عينيها ان هذه العبارة مجرد عبارة تعبر بها ــ كذبا ــ عن صمودها وعدم رغبتها فى الاستماع الى سيرة الأبعد ٠ وقرأت فى

عينى أبى شافيه انه قرر فجأة ان يغير من دوره وينفى الغرض الاصلى من الزيارة ، قرر أن يصدق عبارة « قطع ولا كان » .

لكنها عادت فسألت : « هو قالك حاجة ؟ » . ضحك ابو شافيه وهو يتذكر دوره القديم أيام كان صبيا فى الغرزة . نضحت عينه بما يعتمل فى نفسه من ان كل هذه السنين لم تغير شيئا من وديعة ولم تضف الى صفحة وجهها أى ظلال ولم تصب جسدها بأى ترهل ، وانفتحت البلاد وسقطت الجسور بينها وبين رأس المال الأجنبى ، واصطلح بنو الأزرق مع أعدى أعدائهم وكل هذه الأحداث بكل هذه السنين لم تغير من وجه وديعة أو من طبع زوجها كحكوح ، كل ما فى الأمر ان كحكوح تقلبت به الأوضاع وانحدرت من سىء الى أسوأ بسبب طقفان مخه .

فتح أبو شافيه فمه ليتكلم ولكنه أبقاه مفتوحا فى ذهول .

نكس أبو شافيه رأسه فى الأرض وراح يرشف بقية القهوة ويلوك الأفيون ثم قال فجأة « تصورى انك ما اتغيرش فيكى أى حاجة ؟ » . قالت وهى لاتخفى سرورها بهذه الملاحظة : « ما خلاص .. راحت علينا يا حاج » . قال أبو شافيه بصدق : « لسه بدرى قوى » . قالت صاحبتى : « بدرى من عمرك .. ادينى قاعدة اهه مفيش اتعس منى » . وكانت هذه الجملة الأخيرة قد حملت شحنة من الحزن لاقبل لبشر باحتمالها ، حتى ان دموعا ساخنة فرت من عينى صاحبتى وتناثر رذاذها كليمونة تنعصر بقوة . ثم حاولت ان تغطى ضعفها فمسحت عينيها بمنديل صغير ثم فردت على وجهها ابتسامة عريضة ساحرة وقالت : « ما قلتليش .. كحكوح قال لك ايه ؟ » .

ـ « سيبك منه بلا كحكوح بلا بتاع » ..

ـ « يعنى انت مش جاى من طرفه ؟ » ..

ــ « لا ٠٠ أنا بصراحة جاى أعرض عليكى عرض ياريت تقبليه » ٠

ــ « خير ياحاج » ٠٠

ــ « تعال نتزوج » ٠٠

ــ « ايه ؟ » ٠٠

ــ « نتزوج » ٠٠

ــ « ولكننى متزوجة كما تعلم » ٠٠

ــ « نطلقك منه » ٠٠

ــ « كيف ؟ » ٠٠

ــ « بأى شكل ٠٠ بكل وسيلة ٠٠ أنا أعرف ازاى أرغمه على الطلاق » ٠٠

ــ « مفيش داعى ياحاج ٠٠ بلاش » ٠٠

ــ « كحكوح أنا عارف داؤه ٠٠ الفلوس ٠٠ الفلوس داؤه ودواه» ٠٠

راقبت صاحبتى جيدا فى هذه اللحظة ٠ رأيت الشمس تطلع فى عينيها لبرهة وجيزة ثم يسدل عليها ستار الجفون ٠ ثم كأن الصقيع قد حل فجأة باختفاء الشمس ، اذ أسندت صاحبتى رأسها على كفها وغابت فى شرود طويل ٠ لم أكن فى حاجة لأن أقرأ على صفحة وجهها ما يدور فى خاطرها ، انما أستطيع السباحة فى خواطرها ٠٠ اراها تسرح الآن بخيالها الشفيف ، السفينة التى تركبها ترسو بها أخيرا الى شاطىء النعيم والأمان ، الفراغ اللانهائى انفسح فى دماغها فجأة ، تتسع مساحاته كمحيطات كانت متراكمة داخل نفسها من سنوات الفراغ والجدب والجفاف ، الفراغ بحر لجى هائل ، على البعد أمواج تتلاطم فى عنف وتنذر بالخطر ، لكن واديا من الأشجار الخضراء المحملة بالزهور والثمار والعطر يقبل نحو السفينة ، زهور آخرى من الأضواء تكشف عن قصر زاخر وحدائق تحفل بالأبقار والجواميس والماعز والأغنام ، رجال ومحاريث ، وعربة من معرض قصر النيل تقف فى الانتظار ٠٠

الشحات لايزال رغم ما يلقيه في جسده من سموم يتمتع بكامل الشباب والقوة ، يأكل في الطقة الواحدة ديكا روميا وبجواره طبق بيض وكبد وفواتح للشهية ، يحلى بصينية بسبوسة ينهض بها وحده ٠٠ تسأل نفسها خوف توقع السراب : أمعقول أن يكون قد أحبها مثلما أحبته ؟ أمعقول ان يكون قد ظل طوال هذه السنين يفكر فيها حتى لم يعد قادرا على الانتظار فجاء يطلب يدها من يدها وهو يعلم ان رقبتها في يد شخص موتور لا يرجى من ورائه أى خير ٠

رحت ازأر بعنف هادىء أو بهدوء عنيف لأوقف أبا شافية عند حده ، اذ رأيته يتحفز للتقدم نحو صاحبتي التي بدا أنها غابت عن الوعي تماما ٠ الملعون نهض بالفعل غير عابىء بزئيرى وتقدم في ثبات فجلس على الكنبة بجوارها ووضع يده على ظهرها في رفق قائلا وقد ارتعش صوته : « وحدى الله ٠٠ مالك » ٠ لم تتحرك صاحبتي من مكانها ٠ هو أيضا كان يريد ان يربت على كتفها عدة مرات لكن يده توقفت ثم استرخت بجواره ثم انه غرق في صمت عميق تهدلت له ملامحه ، واعتلاها شعور بالخجل والخيبة شديدين ٠ بعد برهة رفع وجهه تجاه صاحبتي وقال بلهجة فيها التقديس كله كأنما يخاطب آلهة الأحلام : « ست وديعة ٠٠ ست وديعة » ٠

لو كان جبلا لاهتز من هذه النبرة وهذه الضراعة ٠ فما بالكم بصاحبتي وهي ارق من الرقة ٠ قالت له من خلال شرود وتهدج : « نعمين ياحاج ؟ » ٠ أخرج طرف لسانه ومرره على شفتيه الجافتين ثم حاول ابتلاع ريقه فلم يجد سوى عصا صلبه تقف في حلقه : « انا طلبت منك طلب محدد ٠٠ أرجوكي ياست وديعة ٠٠ ردى عليه بجواب محدد » ٠ تنهدت صاحبتي فارتفعت أنا معها عن الأرض وهبطت ثانية على أحر من الجمر ٠ صار أبو شافيه ينقر بفص الخاتم على ظهر الترابيزة صائحا كالمنذر : « ست وديعة أنا باعرض عليك الزواج ٠٠ موافقة ولا مش موافقة ؟ » ، ثم تعلقت عيناه

بشفتيها وهو يلهث ويفتح فمه كأنه يريد ان يتكلم نيابة عنها . كنت أعرف بسيدتى منها ومنه . سيدتى ليست تصدق مطلقا ان طاقة القدر يمكن ان تنفتح بهذه السهولة الخارقة اليست تصدق انها فى اليوم الذى لجأت فيه الى الجواهرجى لتبيع خاتمها العزيز لتأكل منه جاءها البشير بأنها تنتقل من وجع الدماغ الأزلى والضنك المستحكم والعذاب والشجار الذى لا ينتهى الى زوجة للشحات تصبح ملكة متوجة على عرش هذه الأموال كلها ؟ ..

قالت أخيرا : « موافقة طبعا بس .. » هكذا أطلقتها . من لى بكلمات تصور الهدوء العظيم الذى أغرق أبا سافية وذلك الشرود المنذهل الذى حط على صاحبتى ؟ لكن صفحة الهدوء تشابهت مع صفحة الذهول فى ان ثمة شموس أضاءت خلفهما فكأن كلاهما يرى نفس الحلم المتلألىء بالبكارة يتحقق فى لمحة .

فى هذه اللحظة ارتعدت فرائصى وانتفضت ، اذ رأيت وجه صاحبى كحكوح يطل من شباك فى الحجرة مطل بدوره على المنور . أجزم أنها لم تكن أول طلة ، اذ ان بدنى قد اقشعر عدة مرات لبرهة سريعة . لكنه ما ان رآنى فى مواجهته حتى اختفى وجهه فى الحال قبل ان أنبه الى وجوده . أعرف كيف صعد من المنور الى شباك الشقة فى الدور الثانى فهو لص قديم محترف . لكننى أعرف أيضا ان رؤيته لكل شىء لا يختلف عن عدم رؤيته لأى شىء فكل شىء فى نظره سواء ، ما ليس سواء حقا هو ما لا يتفق ورغبته الشخصية وما لا يكسب من ورائه لقمة العشاء الهنى .

هكذا صاحبى وأنا أعرفه ، أكبر جبان . ان كنت مثلى قد أعجبتك كلمة رعديد رغم عدم تبين معناها على الوجه الدقيق فان صاحبى يمثل لك معناها على الوجه الأدق ، والا فمن غيرى يستطيع الفهم فى هذه المسألة ؟ أليست الرعدة هى الشىء الذى تتعامل به نحن بنو الكلاب الاصلاء مع بنى البشر وبنى الخليقة كلها ؟ ان أول شىء نشمة فى المخلوق هو رائحة الرعدة حتى ولو كانت

خلف مظهر جليدى أو برونزى أو نحاسى أو ذهبى أو حجرى كله يستوى عندنا فنحن فى الواقع قد لانرى من الأصل هذا الهيكل .

رائحته الكريهة لاتزال تنطبع فى أنفى . أفقت على مشهد مروع . لا أدرى ، كيف حدث هذا فى لمح البصر ، ولا كيف انتقل أبو شافيه من مكانه أو انتقلت هى من مكانها ، ولا كيف زحف بهما الوجد والاشتياق المعتق فتلاقيا عند الباب على هذا النحو ، حيث التحم الجسدان وصارا جسدا واحدا يلف فى دوامة كما فى الأفلام تماما ، كطفلين غريرين كريشـــة فى مهب ريح كطائرة من ورق احتفت بها الريح المواتية فى قمة سامقة وصار خيطها بلا زمام . أخذتنى الدوامة بدورى فرحت ألف معهـــا أحاول التمييز بين الجسدين وقد تعطر أنفى برائحة هى مزيج من الانوثة والذكورة فيالها من نشوة يهتز منها الحجر فكيف لا اهتز ؟ .

أخذت أعوى واحمحم تمجيدا لهذه اللحظة العبقرية ودعوة لاستمرار هذا السموق الى ما لا نهاية . لكن آه من رائحة القلق ، كل الروائح محتملة الا هى تسم البدن والعياذ بالله . عينى على مصدرها بين درفتى الشباك المطل على المنور . وجه صاحبى يهوى فى الفراغ كاختفاء وجه الاراجوز . ثم هوت الطائرة الورقية فى لمح البصر لا أدرى كيف . ما ان ودع طرفى وجه الأراجوز وارتد متحفزا حتى رأيت الجسدان قد صارا حطاما على الأرض واختلطت الاشلاء ببعضها . قالت صاحبتى كانهـا تدرأ خطرا داهما خوف الوقوع فيه وهى الراغبة : « لازلت فى عصمة زوج وشرفه أمانة .. هو صحيح انسان بلا شرف ولا يؤتمن .. ولكن شرفى انا يوجعنى ان فرطت فى أمانة استود عينها ذات يوم » . وقال أبو شافيه انه لهذا الأمر وحده سوف يخترق اليها كافة الحواجز والحجب مهما كانت صلابتها . ثم جمع نفسه وبقاياه وتهيأ للانصراف والعرق الساخن ينثال فى أنحاء جسده . رمقته هى بنظرة يا الهى خففـ على البشر وقع سحرها ، تودعه وتستبقيه فى نفس الآن ، حزينة

حتى النخاع فرحة حتى النخاع . قال انه عائد اليهـــا لا محـــالة عن قريب ، لكنه لن يعود الا وقد هيأ لها خلاصـــا تاما من براثن كحكوح .

في تلك اللحظة كنت أعوى ذلك العواء الحزين الزاعق الذى ان سمعتموه قلتم انتى شاهدت عزرائيل وتشاء متم بكل ما في أعماقكم من فزع . ازداد هياجي وغيظى من الجميع . حينئذ طرق الباب عدة طرقات متوالية فانزوى ابو شافية وردت صاحبتى : من ؟ فجاءها صوت آبر خشن : « افتحى ياأمرأة » . رايت الدماء تتساقط من صفحة وجهها ككرات حمراء مضيئة انطفأت كنجوم تتهاوى في الافق ذبالات . لم تملك صاحبتى الا أن تفتح الباب . فاذا بالحكومة تسد فراغ الباب وتنحدر على السلم . خبطت على صدرها وطار في الهواء وجهها كزنبقة صفراء ذابلة ، ثم انها شهقت. لكن الضابط ببذلته السوداء وأزرارها اللامعة اندفع داخلا وبصحبته اثنان من أمثاله وخلفهم رهط من المخبرين . قال الضابط : « أين وديعة البصال ؟ » . قالت صاحبتى مشيرة الى نفسها في حياء : « أنا » . قال الضابط : « أين الشحات خميس الشـــهير بابى شافيه ؟ » . جاء من ركن قصى صوت عجوز واهن تبينوا فيه كلمة: « أنا يا أفندم » . قال الضابط للمخبرين : « امسكوهما » . وكان الباب قد أغلق وقال الضابط : « أين الصفقة ؟ » . قالت صاحبتى وأبو شافيه في نفس واحد : صـــفقة ماذا ؟ . قال الضـــابط وفى عينيه نظرة خبث ماكرة لن تقبل النزول عن مكرها الحشيش ياهانم. انتى وأبو شافيه مهربين صفقة حشيش فين هي؟» صاح كل منهما وهو ينظر في عين الآخر بتشكك وحيرة : « صفقة ؟ حشيش ؟ » . فأمر الضابط بالتفتيش وتقدم نحو حجرة النوم فدخلها . رفع دائر السرير الحريرى ونظر تحت السرير منحنيا الى أقصى درجة ثم رفع رأسه وصاح : « تعال يابو شافيه طلع الشنطة دى » . فانحنى أبو شافيه وسحب من تحت السرير حقيبة كبيرة ثقيلة أشـــبه بصندوق مستطيل . وهنا انبسطت أســـارير صاحبتى وقالت

ساخرة : « هيء ·· انها حقيبة الخردة نضع فيها أشياء لا نحتاجها ·· حتى افتحوها ·· لن تجدوا سوى كراكيب وأحذية قديمة وخلافه ·· أنا واثقة ·· هاهي » · ثم تقدمت بكل ثقة وفتحتها ثم شهقت ، فقد كان فى الحقيبة جوال من البلاستيك السميك المغطى بجلباب قديم أمسكت به صائحة : « الفستان الذى اتهمنا بنت الجيران بسرقته » ، ثم فتحت الجوال فوجدت اسطوانات الحشيش ، صاح الضابط : « مبروك » ·· حينئذ اندفع أبو شافيه يصرخ من أعماقه مؤكدا انه « مالوش دعوه » وانه تاب من سنوات طويلة فى حين تبكى صاحبتى منهارة مولولة مؤكدة ان الكلب زوجها هو الذى دبر هذه الوكسه لكنهما حين امتثلا لوضع اليد فى الكلبشات لم يكن قد بقى فى جسديهما أى روح ·

٢

أما روح أبى شافيه فانها لازمته ثلاث سنين فى الزنازين قبل ان ترحمه من العذاب وتغادره الى غير رجعة · واما روح صاحبتى فانها لاتزال ترافقها فى سجنها وتسقيها مر العذاب · هل يتصور أحد ان أبا شافيه كان من الممكن ان يدفن فى مدافن الصدقة لولا صاحبى كحكوح ؟ ·· نعم لقد بدا يومها رجلا غاية فى الشهامة حين استقبل جثمان أبى شافيه وزفه الى مثواه الأخير زفة لائقة بعد أن جهز قبرا بجوار قبور الوجهاء شهد الجميع بفخامته كما شهدوا بهول الجناز ، وتوجه له بعضهم بالدعاء · ذلك ان صاحبى كحكوح كان ـ بسبب ما قد حدث ـ قد استرد سطوته وسلطانه وأصبح أغنى من ملك وأقوى من ذى جاه وأشطر من ذى مركز وأحقر من جرذ وأوسخ من حشرة ·

٣

السذج وحدهم هم الذين يندهشون من هذا · وأكثرهم سذاجة من يتشدقون بكيف ويطالبون بمعرفة الحقيقة دون ان

يخوضوا بأنفسهم غمار البحث عنها فى واقعهم ، وكأنما الحقيقة مجرد سلعة غير متوفرة فى الدكاكين · الحقيقة ان عالم المخدرات لايعرف المنطق والانسانية ولا أى قانون متعارف عليه · ومهما استغرب المستغربون وتشدق المتشدقون فان ما حدث يحدث كل لحظة ويستوعبه الواقع دون ان تهتز فيه شعرة واحدة ·

٤

ما ان زج بصاحبتى وأبى شافيه فى السجن حتى كان هو القائم بأمره فى مملكة « البتعة » يستلب منها الأموال على ذمة المحامين والقضاة والضباط والكتبه ، وهى من فرط عجزها عن الرفض تعطى بوهم الأمل فى نجاة أبى شافيه وان كانت واثقة من غدر كحكوح ووساخته رغم انه أوهمها بما يقرب من الاقناع انه هو شخصيا برىء من تهمة تدبير الواقعة وان أبا شافيه كان بالفعل يقوم بالتهريب لحسابه الخاص من وراء ظهرها مستغلا طيبة زوجته وديعة · صاحبى كحكوح كالسوس ينخر فى عظام النفس مهما كانت صلبة فيخترقها ويتلفها ـ ولو ان أحدا مازح البتعة مجرد مزاح مذكر آياها بأنها ذات يوم ستكون تحت سيطرة كحكوح فانها على الأقل ستقطع علاقتها بهذا الأحد · كحكوح ؟ ·· لم يبق الا كحكوح ·· سلامات ياكحكوح ·· فما بالها الآن وقد أصبحت تحت سيطرته بالفعل خاصة بعد موت زوجها فى السجن ولم يعد لها أحد يعاونها فى حماية هذه الثروة الهائلة وانقاذها من التبعثر ، حتى أمام جابر ماتت ، كذلك مات زوج ابنتها وزملاؤه فى حرب الانتصار المجيد··

٥

ولكن أى ثروة ؟ · لقد صودر معظمها ولم يبق منها سوى ما تمكنت ـ بفضل كحكوح والحق يقال ـ من تهريبه ومنازعة الحكومة على بعضه · يكفى معرض السيارات ومعرض العاديات ·

ضربت المسكينة أخماسا فى أسداس وجمعت فى دماغها ناسا على ناس وطرحت ناسا من ناس ، وضربت ظروفا فى ظروف فكانت

النتيجة النهائية ان لا مفر من قبول الزواج ـ مرغمة وأنفها فى الرغام ـ من كحكوح ٠

كان يبالغ فى تدليلها والتقرب اليها ولثم قدميها بشكل أذهلها ٠ وكان جنونه الجنسى الاخرق يذكرها بايام الصبا اللذيذة التى ـ رغم جمالها الفتان ـ لم تتمتع بها كما ينبغى ٠ كان اهتمامه بها وانصرافه التام الى مزاجه واليها قد عوضها عن اهمال أبو شافيه لها فى سنوات العز الأخيرة ـ لكنها مع ذلك لم تكن تحتمل مرارته ، ولم تكن تستطيع نسيان دوره القذر فى كل ما حدث ، لكن ما جعلها تحتمله انه كشف لها عن ممتلكات لا حصر لها كان يمتلكها زوجها دون ان تعرف عنها أى شىء مخازن فى حوارى بعيدة وبضائع كبيرة لدى ناس فى الأقاليم وقروض وسلفيات لدى فلان وعلان كان المرحوم يحدثه عنها كثيرا لحظة قيامهما بالشم معا ٠

باب الفتوح

● حضرة صاحب السيادة : الكلب الأجنبى

١

آه من ذلتى يوم اختفاء صاحبتى . لقد تشردت وراءها أسابيع طويلة حتى اختفت رائحتها تماما . ثم اننى تسكعت فى الشوارع بحثا عمن يلمنى فلم أجد أحدا . بل اننى أفقت على حقيقة غريبة شرسة لم أكن متنبها اليها من قبل أبدا ، تلك هى انتشار أنواع وفصائل أخرى من الكلاب النظيفة المهيبة ذات الأسماء الرنانة ، تمشى خلف أصحابها فى تعاظم كأنها ملوك هذه الأرض ، تتبختر فى السلاسل المعدنية الثمينة يجرها أشكال وألوان من بنى البشر والكلاب تبدو أكثر نظافة وأكثر جمالا بل وأكثر تحضرا منهم ، لست متعصبا لبنى جنسى ، أبدا وحق الله ولكن هذه الفصائل من بنى

جنسى ، تحكمها على الأقل قيم سلوكيــة عظيمة ندر ان تجدها بين البشر .. أهناك دليل على هذا أكثر من ان هؤلاء الذين اراهم قد طلعوا فى اقتناء الكلاب الأجنبية أصبحوا يعملون خدما لدى هذه الكلاب ؟ أجزم ان الواحد منهم أحوج الى قطعة لحم يتبلغ بها أولاده بينما هو يتفاخر عند الجزار بشراء هذا اللحم للكلب ، والواحــد منهم يستخسر الجنيه فى نفسه وأولاده ومع ذلك يدفع عشر أمثاله لمن يسمونه بالمدرب ومثلها لمن ينظفه ومثلها لمن يطببه فى حين انه ربما تكاسل عن الذهاب الى الطبيب ليعالج نفسه أو أسرته .

حضرة صاحب السيادة الكلب الأجنبى قد صار يتربع الآن فى عظمة على كافة العروش ، وتلمح تأففه وتقززه من وساخة المكان الذى كتب عليه ان يعيش فيه بعد ردهات القصــــور والحدائق الغنــاء .

لكنه الجبن الأصيل . لايقتنى شرس الكلاب سوى اصــائل الجبناء . أجزم ان بنى جنسى من الوولف والسلوق وغيره يحسون بمدى الانحدار الذى وصلت اليه مراكزهم فهم مثــــل بنى البشر يتحدد سعرهم واقدارهم فى الحياة بقدر ادراكهم لحقيقة أنفسهم ، وأول ما يدركونه عن حقيقتهم انهم خلقوا للقيام بأدوار هائلة لا لمجرد الزينة واكمال مظهر الابهة ، خلقوا لاصطياد الوحوش والفرائس الضالة واقتفاء أثر المجرمين والقبض عليهم ، لحراسة القصور من أمثال هؤلاء الأسياد الجدد يجلس على عرشها قيصر هو الآخر وملك فوق الملك ، أرقى اللحوم وأرقى المياه وأرقى شفاء ، وفوق ذلك لغة يتعاملون بها ، انهم ـ ولا أقول انها ـ لايضيعون وقتهم فى حشو اللغات ورطانة اللهجات وجليطة العجماوات بل انهم لا يتعاملون الا بالشفرة ، ربما كانوا هم أساتذة الشفرة نقلها عنهم بنو البشر ، من ليس فى مستوى ذكائهم يفرضون عليه ـ فهم الاقوى ـ لغتهم فيتعلمونها ويستأجرون من يعلمهم اياها وهم ليسوا فقط صاغرين بل ومتفاخرين بأنهم أجادوا التحدث معنا والتفاهم معنــا بلغتنــا

الخاصة ، أبدا لم يخلق هذا الصنف الراقى من بنى جنسى لكى يتشرد هكذا فى الشوارع ، دعك من نزول مستوى الحياة ، دعك من شقاء الكلاب طول النهار وما يبذلونه من جهـــود ومنـــاورات وتكتيكات كلما انتقل بهم أصحابهم الى مكان جديد أو بقعة جديدة وما أكثر ما يتنقلون بداع وبدون داع ، بل ربما أمضى الكلب منهم يومه كله فى هزار سمج سخيف مع أولاد خشنين وجيران وأقارب يجأرون بالضحك فى بلاهة يشمئز منها ابن جنسى ٠

دعك من كل هذا وانظر الى حسرة الكلب وهو يرى قيمته وقد اهدرت وكفاءاته وقدراته العليا عطلت وأعضاءه من سوء التغذيـة والجو والبيئة قد هزلت وتضعضعت ونفسيته الصافية من طـول الكدر والسأم قد دمرت وجنسيته من فرط الهزء والاختلاط بالأوباش قد انحطت ٠٠ فكلب عظيم النسل مهيب يضاجع كلبة جرباء سنكوحة وأخرى ثمينة تضاجع عجوزا مريضا ٠٠ انهم على وشك ان يصيروا مثلنا جيفا تحرس جيفا ٠

٢

العشرة بالنسبة لنا خيوط غير مرئية ، حتى نحن لا نراها رغم أننا تفردنا فى نظركم دون كافة المخلوقات برؤية عزرائيل ٠ يقسو علينا الصحاب مر القسوة لكننا سرعان ما ننسى ونهب لدى أىمكروه يصيبهم ٠ أبدا ما كان لمسألة الأكل والشرب والايواء دخلا فى حفظنا للعشرة أو فى طلبنا لها ، فقطعة عظم ترضينا وقد نكون حراسا على أطنان لحم ولعق زلطة يبل ريقنا ، وكافة الأرض مباحة لايوائنا ٠ وربما لهذه الأخيرة فقد نضرب المثل بأنفسنا فى المواطنة ، اذ ليس فى الدنيا مواطن فى عمق مواطنة الكلب ، ذلك أن غزو مربطه أمر دونه ــ كما تقولون فى اشعاركم القديمة ــ خرط القتاد ٠

عفوا ، أسمعكم تستخدمون جنسنا عند الشتم وتصفون بنـا

حقراءكم ‥ كذبتم والله ، وما يشهد بكذبكم سواكم ، وان شئتم دليلا على ذلك فهاكم بقية حكايتي ‥

٣

فيما كنت أتسكع ضائعا فى حوارى المنطقة التى استوطنتها فوجئت بأحد البكوات يمشى منفوخ الصدر وان كان بلا صدر ، مرتفع الهامة وان كان بلا هامة رشيق القوام وان كان بلا قوام ـ أقصد أن سعادة البيك الذى رأيته يسير هكذا يحاول اظهار نفسه على هذه الصورة وليس فيه سوى ثياب فاخرة : جلباب من الصوف المفتخر وعباءة من الجوخ وحذاء مستورد وعمامة بشال من الحرير الخالص وعطر نفاذ ٠ لكن كل ذلك لم يخفى رائحته الحقيقية، فعرفت دون حاجة الى اثباتات أخرى أنه صاحبى (كحكوح) وقد لبس بعد الضنى حريرا فى حرير ٠

لم أندهش مطلقا ، فصاحبى يستطيع أن يفعل ما يشاء فى هذه البلاد دون أن يكون لديه من مقومات الفعل سوى ثمن المسئولية ، فبالنقود يجد دائما من يدافع أو من ينافق أو من يتغافل أو من ليس موهوبا سوى فى القبض ٠ ظللت ألهث وراءه حتى حاذيته ونظرت فى وجهه ورحت أطوح ذيلى بنشوة وأتراقص ، وهو ينظر لى باسما فى تشف أو حقد لست أدرى ، لكنه تركنى أسير ، حتى رأيته يدخل شقة « البتعة » ، فتجرأت ودخلت وراءه فاذا بحضرة صاحب السعادة الكلب الأجنبى يفزع نابحا فى وجهى حتى ضعفت قواى وتلاشت من الرعب مع أنه كان مربوطا فى جنزير من الفضة ‥

أخذ صاحبى و « البتعة » يضحكان من رعب ويشجعانه على فينهشنى ويمزق أنفى ووجهى بأظافره ، وكنت أكتفى بالعواء الواهن والصوات المتوجع ٠ اننا معشر الكلاب مثلكم لا نخاف من شىء فى

الدنيا قدر خوفنا من بنى جنسنا الأقوى منـا جسدا أو شـكلا أو استنارة . وهكذا لم ينقذنى من خوفى سوى « البتعة » حيث أوصته بى خيرا وراحت تقذف له بالشيكولاته فى فمه . مع ذلك ظللت أرتعش وأنا أتابعه يرتع فى فراغ الشـقة رائحا غاديا فى هرولة متبخترة واثقة متعالية ، كذلك أتابع (كحكوح) والبتعة وهما يتابعانه فى بلاهة منبهرة .

كنت قد أحسست براحة عظيمة اذ توصلت أخيرا الى صاحبى القديم (كحكوح) ، فالواحد منا لايحس بوجوده الحقيقى الا فى الزمن الذى يكون فيه مسئولا عن شيء ، نعم لابد أن يكون هناك ما أحرسه أو أدافع عنه أو أهوهو لحسابه أو أعطيه الونس ..

على أن صاحبى كحكوح وهو نذل كما تعلمون وزوجته البتعة وهى رقيقة كما تعلمون أيضا ، لم يسمحا لى بالانتظار . صاحت البتعة في أن أنصرف، فسقت اللكاعة طويلا، فصرخ كحكوح فيما يفتح لى الباب : « بره » ، فانكمشت على نفسى وتمسحت فى قدميه لكنه صاح مناديا حضرة صاحب السيادة فجاء يجرى كالفهد ، وكنت أظنه مثلنا يقوم بالتهويش حيث لن يهون عليه لحمى يمزقه ، فاذا بظنى هـذا وهم واذا بابن جنسى ينـزع من عنقى هبرة كبـيرة خلفت فيه عاهة مستديمة ..

نزلت أعوى ولم يعطنى الألم فرصة للعدو فمكثت تحت السلم طويلا لا نصير لى ولا عائل . فلما التأم جرحى تبينت أن ألفة قامت بينى وبين المكان فظللت لا أبرحه . وكنت قد تأكدت من أننى لكى يسمح لى باللجوء الى هذا المكان فان على أن أصـير بدورى حارسا وخادما لصاحب السيادة الكلب الأجنبى . فمع أن سيادته لم يكن محتاجا لأى حراسة بل انه كان أفخم بكثير من حراسه وأوقع للرعب فى القلوب منهم ، الا أن وفدا من الخدم كان يصر دائما على مرافقته ولو بحجة الفرجة.ولأنهم ورثوا مشاعر الخدم وسلوكهم فان وجهاءهم

كانوا أسرع من فقرائهم فى اظهار التملق للكلب وابداء الرغبة فى الخدمة ٠٠ حتى أنا كنت أهرول خلفه وأتقافز متحمسا بالغ الحماس كأننى أشارك فى زفة عريس أو فى بيع تحفة نادرة ٠

٤

يعود كحكوح فى كل ليلة يتطوح ، حتى أن فوانيس السيارة المرسيدس التمساحة تصنع مقشة من الضوء فى يد طفل لا تكاد ترميها يمينا حتى تردها يسارا ٠٠

اذ يطفىء الأنوار ويوقف المحرك ويهبط ضاربا الباب خلف ظهره فى عنف لا مبال يقف ملقيا نظرة لا مبالية أيضا على السيارة فيجد أنها غير منضبطة فى ركنتها ، ويرى أن مؤخرتها لو حاذت الحائط قليلا لأصبح الشارع سالكا يسمح بمرور عربة مثلها ، لكن ذلك يقتضيه مجهودا ٠ انه بالكاد يستطيع أن يقـود السيارة فى شوارع العاصمة ، وبهلوانية عظيمة منه أن يدخل بها مجرد الدخول الى هذه الحارة فكيف يركن على الشعرة وما الى ذلك ٠

يعرف أن عشرات من الســائقين والراجلين والمحمــــلين سوف يتوقفون عند سيارته حائرين لا يعرفون كيف يمرون ٠ ويعرف كذلك أن شيئا لن يحدث على الأطلاق حتى لو انسد الشارع تماما ، حتى مجرد اللعنات ، حتى البرطمة ، حتى مجرد الشعور بالاشمئزاز ، حتى مجرد الاحساس بأن هذا خطأ ، أى شىء من ذلك لن يحدث مطلقا بل على العكس ربما تطوع واحد أو اثنين أو ثلاثة فعدلوا سيارته فى وقفتها كيفما اتفق ، وان عجزوا عن معالجتها فســوف يعالجون وضعهم هم ٠ يعرف كذلك أن كل التناقضات تتدفق فى شوارع هذه البلاد فى نفس اللحظة وتتعايش وتتكيف بل وتتآلف بشكل مذهل حتى لتصير عائلة متماسكة بمونة من أسمنت عجيب هو مزيج أعجب من الأخلاقيات واللاأخلاقيات ، من الكرم والخسة ، من البشاعة

والسلاسة من الدمامة والجمال من المرارة والعذوبة من الصبر وعدم الاحتمال ٠٠ يعرف هذا الفيلسوف أو الجاهل الفيلسوف ان الشعب الازرقى قد أصبح هكذا لأنه فاق الحد فى قدرته على تجاوز المشكلة وليس على حلها ٠٠

فى الظهيرة وهو قائم يحشش فى بلكون الحجرة المطلة على الشارع يسمع ويرى من خصائص الشرفة كيف يختنق الشارع كله والمنطقة كلها بسبب الحارة التى تصب فى الشارع ويصب فيها والتى اختنقت بالسيارة التمساحة ، ومع ذلك يقول للولد الذى يسقيه : « أسرع بعشر حجارة أخرى حتى أنزل وأفتح لهم الشارع »٠ ومهما أسرع الولد فان اصطباحة المعلم كحكوح لن تنتهى قبل الثالثة ظهرا ٠ ينزل بعدها لعمل مشوار أو مشوارين لدى أحد المهربين أو التجار أو أحد أقسام البوليس ، ثم يعود ليطبق فى صدر الديك الرومى أو ذكر البط أو الجدى الصغيرى المشوى ٠

فى الجيران رءوس كبيرة وعالية المقام لو سلمنا بالمنطق المفهوم للعقلاء ، وكلاء وزارات ، صحفيون ، مهندسون ، أطباء ، مشخصون وكتاب ، رجال من ذوى الرسمال المعتق فى الكتمان ، تجار فول وطعمية وأعلاف يملكون العمارات فى ضواح بعيدة ، سماسرة وعربجية ٠ تشكيلة عجيبة من السكان تحفل بها الحارة ولكن رأس كحكوح هى الأعلى وكلمته هى الأنفذ ورغبته هى القائمة ٠ فالأمر فى هذه البلاد ليس لمن فى يده الأمر ، انما الأمر لمن فى يده النقود الكبيرة ، خذها حقيقة مسلما بها من كلب حكيم مثلى ٠

لا تنزعجوا يا أهل الدراما فلست براو للأحداث فحسب ، ورويدكم يا نقاد فأنما أنا معنى بالحديث عن بنى الازرق قدر ما أنا معنى بعرض سيرتهم ٠ ولذا أقول بأن تأريخهم عهود وفترات وحقب منفصلة لا يربطها سوى الشقاء ، ومصدر البلاء كله ما استقر فى أرض الوجدان من بذور البذل والبر ، الأمر دائما معسكران حكام ومحكومون ، ولأن المعسكر الأول يعيش دوره حتى النخاع فان

المعسكر الثانى هو الآخر يعيش دوره حتى النخاع ، ولا معابر بين الاثنين سوى ما يلخصه المثل العتيق الشائع الدائم دوام الأبد في هذه الربوع : « اللى تعرف ديته اقتله » ، وحكمة المثل أن لا شىء فى الدنيا بلا ثمن ومادمت تملك ثمن الشىء فادفعه دون تسويف تنج بنفسك وحياتك : ولهذا فبنو الازرق يمجدون الرسمال بصرف النظر عن مصدره ويرفعون قدر أهله بصرف النظر عن أصولهم وجوهرهم . فى مجتمع كهذا يصبح كحكوح حاكما بأمره . جميعهم يرى كل شىء لكنه يلغى من ذهنه كيفية استجلاب المال ولا يتذكر الا صيرورة حال ذوى الأموال .

آه لو ترون كيف تسير « البتعة » بضع خطوات فى الحارة لتصل الى باب السيارة أو باب البيت . تنفتح كل الشبابيك وتبصبص العيون للفرو المنطرح على كتفيها ووهج الذهب المنتشر على صدرها وأذنيها وذراعيها ورائحة العطور النفاذة التى يقولون أن الزجاجة منها بألف دولار ، وتتناقل الشفاه من نافذة لبلكونة ومن بلكونة لمنور ومن منور لسطوح هامسة بأن « البتعة » ــ المضروبة ــ لاتزال صبية وصاحبة أرفع خصر ، وانها رغم ثرائها تجيئها كل هذه الملبوسات الفاخرة ذات الأذواق الملوكية هدايا من الأمراء والشيوخ ورجال المال الذين تعرفهم وتورد لهم الحب والليل الساهر البهيج . قد يظهر بعض الحقد على بعض الوجوه المتعالية أو بعض الاشمئناط في الشفاه الممرورة ، ولكن الحظ منهم من اذا توقفت عنده الحاجة « بتعة » فهزت له رأسها بعواف أو تمسى بالخير ، يالها من فرحة تلك التى يرد بها ، مهما كان أفنديا محترما أو مثقفا فانه قد يعقب على رد التحية بمزيد من المجاملات والدعوات .

عجبت لها هى الأخرى تقترف الاثم وتفعل الثواب معا وبنفس القوة . تتاجر فى الحرام وتنشر الممنوع ، وتحج كل عام ، وتنفق عن سعة فى سبيل الله ، صدقات ومرتبات سرية لرجال محترمين ، حفلات قرآن وزار ومداحين وموالدية ، هذه ليلة لأهل الله ، وتلك

فى رحاب السيدة وثالثة تقربا للحسين ورابعة على شرف لا أدرى وخامسة تأييدا لمرشح المنطقة ، ومهما تنفق فى هذه الحفلات من أموال باهظة فان ما يدخل اليها يصل الى عشرات الأمثال اذ أن رجالها يقومون بمزاولة نشاطهم الحقيقى وراء هذه المظاهر البريئة، وأخطر الصفقات وأحلاها ما جاء فى حفل تحرسه عشرات المظاهر والنفوس الفرحة ٠٠ ويد البتعة التى شبعت من تقبيل الشفاه اللاهثة المحمومة شبعت كذلك من تقبيل الشفاة الممتنة الشاكرة ٠

٥

لم يكن أحد ليتصور أن البتعة يمكن أن يصيبها العجز أو الشيخوخة أبدا ، فعشرات الأطباء تحت أمرها فى كل لحظة مع خبيرات التجميل ٠ لكن العيون لاحظت أن صحة البتعة في النازل ٠ الا أن موظفا في هيئة التأمينات يسكن في الحارة ويدمن قراءة الجرائد عرف أن أموال الحاجة بتعة قد وضعت تحت الحراسة،بأمر من المدعى العام الاشتراكى ٠٠ فكانت فرصة لأن يعرف الجميع مقدار ثروتها ، وكانوا رغم فداحة المبلغ يفتحون أفواههم صائحين فى بلاهة : « بس ؟ » ، ثم يتبعونها منبهرين : « يا٠٠٠٠ه دا مبلغ كبير قوى » ٠ فلما تابعت الجرائد أخبار الموضوعين تحت الحراسة من تجار المخدرات تيقن الجميع أن البتعة لن تقوم لها قائمة ٠

ما أذهل الجميع أن قاضى نيابة الاشتباه ، أو محكمة القيم لا أذكر ، قد أفرج عن أموال البتعة ٠ هكذا نشرت الجرائد والناس عادة يحتفظون بالجرائد ليس لحدث تاريخى هام بل لمناسبة كهذه ٠ وهكذا قرأ أهل الحارة الخبر ودققوا فى الحروف عدة مرات واقتنعوا أن حيثيات القاضى قانونية تماما لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ! وعلى الرغم من ذلك ظهرت البتعة فى نظرى مهمومة وليست على ما يرام !!

٦

سعيت أتمسح بين قدميها كأننى أقول لها : « مالك فيه ايه مزعلك ؟ » · لكنها لم تكن تحس بوجودى ، انما كانت تربت على ظهر الكلب الأجنبى قائلة : « لم يعد سواك مخلصا أمينا لى » · وكان الكلب الملعون بقوامه الأهيف يشب واضعا ذراعيه على كتفيها كأنه يهم بتقبيلها فاذا هى تحوط عنقه بذراعيها ماسـحة رأسها ورقبتها فى عنقه ورأسه وبنشوة بالغة تزحف كفاها على جذعه الناعم القطيفى · وكانت تبكى ملء المآقى ، وصاحب السـعادة الكلب « ميشو » يشعر بالسأم والملل من البكاء ويتركها ويذهب الى بعيد ثم يجلس مريحا خده على أماميتيه ·

قامت هى الى المطبخ وقمت أنا الى ميشو · تمسحت به ثم داعبته ببوزى فى كتفيه على استحياء وحذر · فنظر الى فصحت به فى غبطة : « هنيا لك ياعم » ، فأزاحنى ببوزه المستطيل بدفعة رمت بى الى بعيد ، فاعتبرتها مداعبة ودية وعدت اليه هامسا فى مسكنة : « ما الذى حل بسيدتى ؟ » · هو مثل كل من يوضـع فى صف المستنيرين من الجنس الأرقى لا يحب كثرة الكلام ، فزومة واحدة أو زومتين ، وبنظرة ذكية ، غمزة لبقة أفهمنى أن النذل كحكوح قد خانها فى طفلة صغيرة على سريرها هى وأنها من طيبة قلبها سامحته فاذا به أول أمس يعزم أحد كبار رجال الأعمال على الغداء تتقدمه من رجل الأعمال هدية بسيطة تساوى مئات الآلاف من الدلارات ، فأقامت المعلمة عزومة هائلة لكنها فى النهـاية فوجئت بأن الثرى الكبير ينتظرها على سرير نومها · فكيف أيهـا الكحكوح الحقير ؟ أتشتغل قوادا على زوجتك صاحبة الفضل العظيم ؟ ·· هكذا راحت المعلمة تنشال وتنحط وتدمر كل ما تطوله يدها · وكانت تقصد تدمير رأس كحكوح لكنه زاغ منها بمهارة ··

هذه هى الحكاية اذن ؟ أى نعم ولها الحق فى ثورتها كما تعلم · هكذا رد صاحب السعادة الكلب ميشو بهزة من رأسـه ، وكشأن الكلاب المستنيرة من الجنس الأرقى همس في أذنى معلقـا بقوله :

« صحيح ان سيدتك لا مانع لديها من النوم تحت هذا الثرى الكبير ولكن ما أثار جنونها هو أن يكون ذلك عن طريق كحكوح بنفسه » . قلت له : « وهكذا طرد كحكوح من الجنة » . قال : « وطرد معه الثرى الكبير شر طردة » .

ثم استأنف صاحب السعادة وقد أنس الى فقال انها فى اليوم التالى ثابت الى رشدها وأدركت مدى فداحة غلطتها ، وظلت تسأل نفسها فى ضيق واشمئزاز : كيف عاملت هذا الثرى الكبير بهذه المعاملة القاسية رغم أنه جاملها بهدية تساوى عمر مدينة بكاملها من مدن بنى الأزرق ؟ ان هديته لجديرة بالاحترام حتى ولو كان وراءها غرض ! ما الغرض يعنى ؟ مضاجعة ليلة أو بضع ليال ؟ لقد سبق لها أن ضاجعت أصيع مخلوقات الله بلا ثمن بل كانت تدفع الثمن .. رجل كهذا لم يكن ينبغى أن تخسره بهذا الحمق ، وقد كان هناك حلولا كثيرة للانفلات من مأزق المضاجعة غير الذى فعلت خاصة وأنها خير من يخلص من مأزق كهذا دون أن تترك أثرا من الغضب على الطرف الآخر ..

ثم ان قلب سيدتك ـ يقول صاحب السعادة ـ خفق بشدة وكاد يسقط فى ساقيها وهى تستعيد صـــورة الثرى الكبير لحظة دخولها عليه . دهشت لحظتها حين دخلت حجرة النوم لتحضر أشياء من درج التسريحة ففوجئت به فى مرآة التسريحة يجلس على كرسى بجوار السرير متخففا من بعض ثيابه ، فتجاهلته وصارت تعبث فى درج التسريحة ولكن عيناها عليه من طرف خفى فاذا به يفتح فمه من فرط الدهشة والذهول والشبق بل والتحفز ، حتى خيل اليها أنه سيندفع نحوها وينقض عليها لثما وتقبيلا بل وتمزيقا ، ولولا رعشة واضحة تملكته لخافت منه وفرت هاربة . على أن ذلك نفسه كان مثيرا للدهشة على أى حال ، فأطالت من البحث فى الأدراج عامدة الى التمعن فى عينيه فوجدت أن شررا أحمرا كان يتطاير منهما وآب الى سحابة من الدموع جافة وقاسية قسوة تمتد صلابتها فى

وجنتين بارزتين وفك مستطيل مطبق على أسرار كثيفة غامضة ، وما بين الفك والوجنتين ظلال لا تدرى ان كانت لشـــعور بالقهر أم بالفروسية أم بالصبر الحكيم ٠٠ وجه من عشرات الوجوه المألوفة لديها من مئات الآلاف الذين قابلتهم فى مشوار حياتها ، يلبس فاخر الثياب وأغلاها تقول من بعيد انها من أكبر محلات لندن وباريس ، أكبر دليل على عراقته فى الثراء تهدل مظهره وخشونة الجسد المستور بالثياب ، نفس مظهر الباشوات القدامى حيث كانت مثل هـــذه الملاحظات لا تلغى أنه باشا ابن باشا ليكن فى الأصل من بيئة ضالة شقية ولكن أصلك وقتك كما يقول المثل الحكيم الشائع ٠٠

واذ هى تستدير لحظتها لتخرج من حجرة النوم يائسة من العثور على ما كانت تبحث عنه ناداها برجفة نابعـة من فؤاد مكلوم : « بتعة هانم ٠٠ من فضلك يابتعة هانم » ٠ استشعرت فى صوته نبرة كريهة تشعر بها البغى العريقة اذ ينثال في هذه اللهجة رجاء رخيص ٠ فصاحت مشمأنطة متعالية : (لحظة واحدة من فضلك) ، ثم خطت ، فلاحقها صوته فى شبق متعجل : « بس ماتغيبيش على النبى » ، فاستدارت اليه عاقدة ما بين حاجبيها في قرف لا يتناسب مطلقا مع حجم العزومة أو حجم الهدية صرخت فيه كأنها تلعن أباه : « ايه ده ٠٠ فيه ايه » ٠ قال الثرى الكبير بجرأة وصفاقة : « ده كلام برضه مش عارفه فيه ايه ؟ » ٠ بنظرة احتقار شديدة راحت تشيله وتحطه فى الأرض عدة مرات ٠ نهض اليها واقترب منها وكان قوى البدن كثور راسخ الخطو كجمل ٠ أراد أن يسترضيها بطريقته فوضع يده على خصرها قائلا : أنا مش قصدى أزعلك » ، فدفعته بعنف وبصقت فى وجهه ، ثم اندفعت خارجة فى هياج الثيران الاسبانية تنطح وتدمر وتزمجر ، حتى ان المسكين كحكوح لم يؤت الفرصة لفتح فمه وكان من الذعر والغباء قد تلاشى تماما ٠ فلما خرج كلاهما مطرودا ظلت سيدتك تنتفض وتضع نفسها تحت الدش ساعات طويلة وتفتح التليفزيون الملون ثم تغلقه وتدير الفيديـو كاسيت بعشرات من الافلام العالمية الشهيرة وبغيرها ٠٠

فلما تنفس الصبح زفرت عن صدرها كل المشـاعر السالفة وهيأت صدرها لقليل من التروى ، وفكرت بهـدوء : هذا الكلب كحكوح كان من الممكن أن تقوى على تحجيمه بفضل رجل كهذا ٠٠ لقد كان راغبا فيها الى حد الجنون ٠٠ انه صيد ثمن واعد بخير وفير والغبية لم تحتفظ به على الأقل لاستخدامه كسند يعاونها على الخلاص من كحكوح ٠ ولكن ـ وبرقت فى عينيها نظرة استبشار عريضة ـ انه رغم سوء ما فعلت كان عند خروجه مطرودا لايزال يحتفظ بابتسامته اللبقة بل انه حياها قائلا : « اتمسى بالخير يا بتعة هانم » ، أى أنه يحتفظ لها بخط الرجعة ، فرجل كهذا يضحى بهدية كهذه لا يقطع حبل الود بسهولة وهى على أى حال موقنة أن لقاء الأمس لن يكون آخر لقاء ٠ ثم قررت أن تنزل الشارع لترفه عن نفسها قليلا ، وأن تستدعى الكلب كحكوح وتطيب خاطره وتدحلبه حتى تعرف منه الكثير من المعلومات عن هذا الثرى الكبير الذى فاجأها به وكيف تأتى له أن يتسلل داخلا الى حجرة النوم ، هل دخلها بناء على اتفاق تم بينه وبين الكلب كحكوح ؟ أم أن الرجل داخ من الافراط فى الشراب فأذن له بالدخول ليستريح بصفاء نية ؟ ٠٠

ثم انها شرعت تسوى الفراش وتغير طاقمه كعادتها كل يوم ورفعت الوسادة فتطايرت بطاقة صغيرة سرعان ما انقضت عليها وقد انبثق بداخلها فرح عظيم مصحوب دائما فى خيالها بصـورة ذلك الرجل الذى علمها القراءة والكتابة ٠٠ وكانت نظرتها قد استقرت منذ برهة على البطاقة « عبد الجبار » ٠ شعرت بسخونة الغيظ من نفسها تسرى من أسفل قدميها الى رأسها ٠ لن تسمى البتعة بعد ذلك ان لم تعده اليها راكعا على قدميه ٠ ثم ان سيدتك قلبت البطاقة وجهها الآخر فوجدت كلمة موجهة اليها ترجوها الاتصال به فى عنوان عنوان كذا ٠ ثم ان سيدتك من فرط البهجة صارت تداعبنى كما رأيت وأنا لم أكن أهتم بمداعبتها ليقينى أنها تداعب فى شخصى شخصا آخر أو آملا آخر ٠

ثم رمقني صاحب السعادة بنظرة ذات معنى وكأنه يكيد لى بما سوف يراه فى صحبة سيدتى بعد قليل · لكن هذه النظرة هدمت الحواجز الطبقية بيني وبينـــه فمنحت نفس حرية التعـــامل معه كأصدقاء . فاندفعت أتشقلب أمامه بحركات هوجاء لطيفة تثير رغبته فى الضحك والشعور بالتفوق علي ، وانتهز فرصة انبساطه فأنطحه برأسى فى عنقه أو أصعد فوق مؤخرته أهارشه وأتمسح فيه · فلما استكن وأحسست انه قد تلقف حبل الود منى ، رجوته ـ كأخ أكبر ـ أن يصطحبني معه فى هذا المشوار فهو الوحيد الذى ان سكت عنى أعطاني شرعية المشوار · الحق لم يكسفنى الأخ ميشو بل رسم لى كيف أذهب ، سوف ينفتح باب السيارة ليدخل سعادته فأتسلل أنا دون شوشرة وأدفن نفسى فى الفراغ بين الكراسى الخلفية والأمامية وحين تكتشف سيدتى وجودى عند الوصول سوف تسلم به وأمرها الى الله ·

باب الريح

★ عبد الجبار يأخذ غرضه من البتعة :

١

ظللت منطرحا على فرش السيارة لا أنبس ببنت شفه ، انما أبصبص بعينى ، فلما وجدت أن البصبصة بالعينين يستتبعها تطويح ذيل قد يفضحنى أغمضت العينين تماما وكان صاحب السعادة الكلب « ميشو » منجعصا على الكرسى الخلفى وحـــده كنجم عالمى مهيب لا يأبه بانبهار الأقوام ولا بتحاياهم · يتحرك من أول الكرسى الى آخره ليسجل فى كل اتجاه جلسة · وعندما نزلت سيدتى صاحت فى كثير من الابتهاج : « ينيلك ·· انت جيت ·· والنبى أصيل » ، فقدمت لها ما يليق بها من قواعد البروتوكول الكلابى وجعلت أمسح المكان فى رحابها ··

اذا بنا فى ضاحية جديدة نوعا · « فيلا » من خمس طوابق غاية فى المهابة والأناقة ، تحوطها حديقة مزهرة وتقع فى نهاية شارع متاخم للخلاء تحفه أشجار شابة صبية . على باب الفيلا لافتة نحاسية لامعة مكتوب عليها « فيلا عبد الجبار » ضغطت سيدتى فوق زر على باب « الفيلا » فأضيىء النور فى عديد من الشرفات وارتفعت أصوات قبيلة كاملة من الكلاب اهتز منها صاحب السعادة قليلا لكنه استوعب اللحظة ثم صار يطلق زئيرا يفح بانذارات حاسمة ، واذا بصوت ينبثق من ضلع باب الفيلا تبينا فيه صوت الثرى الكبير قائلا : « مين هناك » فقلنا جميعا فى نفس واحد : « احنا الحاجة بمعه » . ثم بحثنا عن مصدر الصوت فوجدنا جهازا لاسلكيا يشبه جهـــاز الراديو الترانزستور مثبتا فى صدغ الباب الخارجى . هكذا عرفنى به صاحب السعادة ميشو وأضاف قائلا بابتسامة من يعرف أننى سأنبهر لابد : « أن الثرى الكبير يكلمنا الآن من فوق سريره عبر جهاز كهذا ··

ان هى الا دقائق حتى انفتح باب الفيلا واقتادنا أفندى أنيق جدا ولكن العين لا تخطىء انه بواب حقير · صعدنا بضع درجات ودخلنا الى اليمين الى صالون يمتد كملعب ويحتشد بالأرائك والكراسى المطعمة بالأصداف ، ترابيزات وطقاطيق عليها غير ما على الحوائط تماثيل وأوان وقطع فنية نادرة لكنها رغم فخامة البيئة تبدو كأنها قطع من الحديد الخردة فى مخزن تاجر غشيم ·

بعد أن قامت سيدتى بجولة بين كل هذه الأشياء وتفحصتها بعين واعية ، اختارت ركنا فى الصالون قريبا من الداخل ويتميز بأن محتوياته وكراسيه تأخذ الطابع الفارسى بألوان زاهية · ثم جلست · انبعثت رائحة العطور فى أنحاء المكان ولكنها عطور كما لو كان يشوبها شىء من العفن · فمال صاحب السعادة ميشو وهمس فى أذنى قائلا : « الرائحة الطيبة هى رائحة الأشياء المجلوبة الى هنا

وأما العفن فرائحة السكان » . هززت رأسى قائلا فى اعجاب : « يالك من حكيم » .

دخل سفرجي يلبس لباسا أفخر من لباس الفنادق . وضع أمام سيدتي صينية فضية عليها زجاج وكوب ودلو صغير من الفضة يمتلىء بمكعبات الثلج . همس صاحب السعادة في أذنى بأن هذه الزجاجة اسمها شمبانيا وأنها من أغلى الأصناف وأجودها لكنها أبدا ليست مشروب أهل هذه الدار . قلت كيف ياصاحب السعادة ؟ . قال : « أصالة الشيء شيء وأصالة استخدامه شيء آخر .. والشيء الثمين يفضح الدخلاء من سوء استخدامهم له » . قلت : « ما الذى تريد قوله بالضبط يا صاحب السعادة ؟ قال ضائقا من غبائى : « نحن باختصار أمام جسد من أصل دونى يتلفف بثيـاب وأدوات عالية المقام » . قلت وأنا أهز رأسى فى تشويحة تعلمها الأزارقة « وايه يعنى .. المهم انه راجل جـــدع .. لو ما كانش جــدع ويستاهل النعمة دى ما كانتش جاءت له » . ثم استدركت قائلا : «احذر أن تكون من اياهم ».قال : «من هم ؟».قلت : احذر أن تكون شيوعيا فكلامك والحق يقال كلام الشيوعيين » . سلقتنى منه نظرة احتقار شديد ، ثم برطم : « متخلف أنت كأهلك وأصحابك .. أن الجسد الدونى اذا ما أدخل نفسه فى ثياب عالية المقام تتحول الثياب الى كفن .. أن الابهة شيء لا يشترى أيها الغنى وان كان لديكم من يشترى أدواتها مظاهرها جاهزة فانه يشتريها بثمن خرافى يفقد فيه شرفه وانسانيته مقابل استمرار تدفق المال بين يديه لينفقه على استمرار هذه الابهة الكاذبة .. والدليل على ذلك .. الدليل على أن هذه الأبهة ان هى الا كفن فخيم يلف جسدا متعفنا ، هذه الرائحة الكريهة التى تطغى على روائح الأشياء الثمينة والعطور الراقية .. انه جســـد مات من زمن طويل وتعفن ولكن ماكينة الكسب التى أنشأها ابان حياته لاتزال دائرة كما هى لا تكف عن صب النقود فى الخزائن» . قلت : « ما الأبهة الحقيقية اذن ياصاحب السعادة». قال انها تلك التى تنشأ مع الانسان ، فكل مخلوق فى هذه الدنيا مهما

غريزية لو أنه انتبه لها وفهمها لأصبح له في الأبهة أسلوبا فريدا يحتذى ، لكنكم ـ يقول سعادته ـ في بلادكم تستوردون كل شيء حتى مظاهر الابهة وفي ظنكم انها تعطيكم الابهة بالفعل في حين انها تحيلكم الى مسخ واذا لم يكن فيكم من يعرف انكم الآن فرجة العالم المتقدم وغير المتقدم تكونون اذن مسخا على الحقيقة والخلقة الالهية ..

ثم أضاف قائلا بالحرف : « العالم المتقدم ـ يابني الأزرق ـ قد أقام لكم حفلا تنكريا ، ربما أنه يعرف شخصياتكم الحقيقية واحدا واحدا فانه يلذ له بالغ اللذة تجاهل شخصياتكم الحقيقية ومعاملتكم بشخصياتكم التنكرية ، بل انهم يمعنون في انكـــار شخصياتكم الأصلية والاعتراف بشخصيات الثياب التي ألبسوكم . لأن الثياب التي ساعدوكم على التنكر فيها هي التي تحقق لهم مصالحهم الجوهرية بين ظهرانيكم » قلت له : « ولكن أصحاب الدار يبدو من العر انهم ناس طيبين « فشخ صاحب السعادة حنكه عن آخره وأطلق ضحكا كالعواء أو عواء كالضحك ، ودفعني بذيله علامة على الاستهانة بي والاستهجان لأفكاري ، ثم قال : « اسمع ياهذا .. انت وقومك ها هنا تؤمنون بخرافات لا يصدقها عقل .. فكل من يلبس لباسا فاخرا بعض الشيء أويصرف عن سعة أو يستخدم أشياء ثمينة تصفونه على الفور بأنه ابن ناس طيبين ، كيف بحق الله تقترن طيبة القلب والنبالة والطهارة بمثل هذا المظهر ؟ ألم يدر في خلدكم وأنتم تحكمون هذا الحكم أن اللصوص والمجرمين والقتلة . والسفاحين كلهم يلبسون فاخر الثياب وغالي الرياش وثمين الأشياء ؟ » . قلت له مدليا أذني من الكسوف : « مضيفنا كبير المقام لابد » عوج شفتيه في اشمئناط: « لص ابن لص .. غير أنه لص عصري ، آخر طبعـــة من طبعات اللصـــوص التي تتدفق عنهـــا عبقرية المـكان من ناحيـــة وعبقرية الشركـات الرأسماليـــة الـكبيرة من ناحيـــة أخـــرى ... انها شركات لا تعمل لحساب نفسها فحسب بل لحساب دولها بالدرجة

فرعا فى كل مدينة من مدائنكم ، فلابد لها من وسيط حريف صايع » ، ثم تثاءب وأضاف : « لعن الله بلدا تنتشر فيها التوكيلات ..

زحفت ظلال شممنا فى اثرها رائحة الثرى الكبير ، الذى دخل يرتدى الروب دى شامبر الأنيق فوق المنامة وخف من الجلد الطبيعى الثمين . عملاق ، وجهه المستطيل المسحوب فى صرامة ينتفض بالحيوية والدماء . وبالنشوة العظيمة ، كفارس اجتاز كل المتاريس وعبر الأنهار والبحار وها هو ذا أخيرا يشرف على شاطئ الفوز العظيم . انتفضت سيدتى قائمة وقد تحول وجهها الى بسمة عريضة نابضة ممتنة خجلة . لم يكن فى عينيه شبقا هذه المرة ، ولا تعجلا ، ولا أى أثر لشئ حدث من قبل . برصانة كبيرة مد لها يده الكبيرة ذات الأصابع المستطيلة ، فأطبقت بيديها عليها فى حنان ، فهز رأسه بابتسامة غفران . فاهتز جسدها من الانفعال وارتمت على صدره باكية ..

كانت يده الكبيرة لاتزال مستسلمة ليديها اذ راحت ترفعها وتقبلها عدة مرات والثرى الكبير يستغفر ولكن فى استمتاع دونى . توقفت نظرتها لبرهة سريعة خاطفة على خاتم فى اصبعه استغربت جدا لوجوده بين هذه الأصابع التى تفر ملايين الجنيهات كل يوم ، هو خاتم رخيص مما يباع فى أسواق القرى والموالد .. ثم انها انفجرت ضاحكة كطفلة غريرة ، فارتعش وغاضت الدماء من وجهه قليلا وقال : «علام تضحكين ؟» قالت سيدتى انها تضحك اذ اكتشفت دليلا على طيبة قلبه لأنه وهو القادر على لبس الألماظ واللؤلؤ يتواضع فيلبس خاتما كهذا يجدر أن يلبسه واحد قرداتى . زام الثرى الكبير ثم عقب قائلا ان الخاتم دليل فعلى على طيبة قلبه اذ هو يمثل بالنسبة له ذكرى طيبة لا يجب أن ينساها ، ثم قال : « المهم لعلك بخير » قالت سيدتى انها آسفة لما حدث . قال الثرى الكبير : « بنت حلال وحق الله » . أحست فى نبرته غمزة مخيفة ، قالت : « لعله خيرا » .

قال : « كلبك غير الأمين كان هنا بالأمس » • انتفض صاحب السعادة فغمزته قائلا ان الرجل تحفظ بقوله غير الأمين أى أنه يقصد كلبا بشريا • وقالت سيدتى للثرى : « أى كلب تقصد ؟ » • قال الثرى : « كحكوح » شهقت ، ثم اعتدلت جالسة تنتفض فى تحفز كبير ثم رددت : « الكلب •• كان عندك » ثم صاحت : « أحب أن أعرف علاقتك بكحكوح •• أو علاقة كحكوح بك » ••

٢

لم تعد محتاجة لاقتناع بأن الثرى الكبير غير طامع فيها ، بل لقد كشف لها عن رقة ودماثة لم تعهدها من قبل فيمن عرفتهم • كان يكاد يرفع ذيلها عن الأرض ، ويقدمها على نفسه فى كل شىء ويفرغ لها الشراب فى الكأس ، وبنفسه يهيىء لها الطعام . وينتظرها فى الموعد على أحر من الجمر كمراهق كبير ، ومع ذلك لم يقل لها ماعلاقته بكحكوح بل لم يقل لها لماذا كان يزوره يوم قال انه زاره • كيف نسيت هى أن تسأله ؟ كيف اندمجت مع الثرى فى حديث عن الفن وأمريكا ولعبة النساء والمخابرات الأمريكية ونظام البنـــوك ونظم القبض والصرف والبيع والشراء والتقـــدم ؟ عديد من المواعيـــد واللقاءات فى كل منها قررت أن تتفرغ لمعرفة علاقته بكحكوح ولكنها لا تتذكر شيئا من ذلك الا قرب قدوم موعدها معه ••

أبدا لم تكن تعيش قبل أن تلتقى بالثرى الكبير ، كل ماضيها كان مجرد « بروفة » أو تدريب على حياة هى النعيم كما وصفه الله فى قرآنه العظيم ، الولدان المخلدون . والأرائك والزرابى المبثوثة والقطوف الدانية وأنهار العسل والخمر كل ذلك رأته البتعة فى قصور الثرى واستراحاته المتعددة التى تجىء دائما وبشكل أو بآخر على ضفة النهر فاذا كان نهر بنى الأزرق يمتد فى أحشاء أراضيهم فانما لكى تقام على ضفافه مثل هذه القصور والاستراحات المبنية بالرخام والمعدن الثمين • كل ما يمكن أن يحلم به الانسان من جنان

باسقة رأته فى صحبته الا شيئا واحدا لدهشتها العظيمة لم يحدث ولم يهم كلاهما بالآخر فى أى لحظة ، اذا كانت هى قد شغلتها الجنة وأضواءها عن نداء الجسد فما الذى شغله هو ؟ هل ليثبت لها أنه ليس يسعى لغرض رخيص ؟ هى لن تصدقه مطلقا اذ هى كأنثى تدرك من أعماقها رغبته الدفينة فيها ، تضبط نظراته المختلسة وتتجاهلها لعدم احراجه ولكن ياله من قوى ، أكان يريد أن يوصلها الى هذه الدرجة من الاشتياق حتى تقوم هى بالطلب والمحايلة ؟ لا تنكر أنها توشك أن تفعله بين لحظة وأخرى ولا يمنعها سوى اطمئنان كمن فى أعماقها بأن اللقاء الجسدى سوف يحدث ٠٠ سوف يحدث ٠ وكانت هذه الموجات من اللغط تضرب جدار ذهنها مبارية أمواج رأس البر حيث تقف الاستراحة مطلة على ذلك البرزخ الذى هو بينهما : مأء البحر وماء النهر ٠٠ فلا يبغيان ، بل يحترم كل منهما الآخر ويمضى فى حدود نفسه كأنهما متوحدان منفصلان فى آن معا ٠٠

وكان الثرى الكبير مشغولا عنها لحظتئذ بشاب دميم الوجه متماسك الهندام مرن الهامة ، معه جهاز تسجيل وأوراق وأقلام ، يقضيان ساعات طويلة فى الغرفة المطلة على الماء وهى مجاورة للشرفة التى تجلس فيها الآن ، مستجيبة لتنبيهاته بعدم اظهار نفسها للشاب أو لأى أحد من زوار مصيفه ، سألت نفسها كثيرا عما يشغلهما هذه الساعات ، ولما خرج الشاب وعاد هو اليها سألته نفس السؤال فقال الثرى الكبير انه يكتب مذكراته لينشرها فى الصحف وفى كتاب ٠٠ أسوة بزعماء البلاد الذين دأبوا على كتابة مذكراتهم هذه الأيام ؟ ٠٠ هكذ سألته البتعة مبتسمة فى براءة ، فصحح لها قائلا فى جدية وبساطة انه أكبر من كل هؤلاء ٠٠ هتفت واقفة وقد شعرت أنها فى مهب ريح قوية عاتية ، صاحت فى فرحة ساذجة : « أنت اذن عبد الجبار ؟ » ٠ قال بغضب حقيقى دفين : « أى نعم أنا هو ٠٠ ألا تقرأين الصحف أو تشاهدين التليفزيون ؟ » قالت انها تشاهد وتقرأ ولكنها دخلت اليه ــ على ما يبدو ــ من الباب.

الأقل ، فهى لم تكن تتوقع أن يتنازل عبد الجبار ويزورها فى منزلها المتواضع ، ذلك أبعد عن ذهنها صورة عبد الجبار وان كان الشبه واضحا بشكل حاسم ٠٠

ثم انها استرخت فى كرسيها مستسلمة لخدر لذيذ سرى فى أعصابها كالنشوة البالغة ، هى لم تعد تستبعد أى شىء يحدث فى حياتها ، كل ما حدث فى حياتها كان من قبيل الأساطير ٠

مددت ساقيها المرمريين وتركت الريح تنصب فوقهما خيمة صغيرة من ذيل فستانها الأنيق الرقيق ، وقالت : « هل كنت تعرف أحدا من رجال الثورة الازرقية من قبل الثورة ؟ » ٠ شـــوح قائلا : « لا والله ٠٠ لكنهم فى النهاية بشر مثلنا ، كلهم أبناء يحلمـــون بالمستقبل وبالبيت الملك والرصيد الذى يبيض كل يوم . ان الثورة لابد أن يتلم سلاحها اذا ما مر على هذه العضلة بالذات من عضلات الضمير ، فلا يحز فيها خاصة اذا كان الثوار أبنـــاء ناس على قد حالهم ، هم صحيح عظماء وقاموا بثورة ولهم الشكر ولكن أحلامهم الطبقية والاجتماعية كانت أقوى من ثورتهم على الأرجح . هذه مسائل قد لا تفهمين فيها ولكنى سوف أدونها فى مذكراتى . انها شهادتى للتاريخ ، ومع كل ، فأنا من ذوقى لن أقول هذا هكذا بل ربما أشفق على بعض الأحياء فيهم كما أتعفف عن تجريح الأموات . المهم ٠٠ » . ثم تعلقت نظرته فى شرود داخل الخيمة الصغيرة التى كانت الريح تزغرد داخلها وتصنع صوتا موسيقيا جميلا . ضاع منه خبط الحديث داخل الخيمة ، بل ضاع هو نفسه ، فهبطت هى بالكرسى فانفرشت الخيمة على صدرها وظهر وجهه مبهورا مذهولا كطفل يرى العرى لأول مرة فى حياته ، ثم انها قربت وجهها منه فى نداء لاهب . فانقض على شفتيها وصار يأكل فيهما وقد احتواها بين ذراعيه فى قوة حيوانية كادت تحطم عظامها الرقيقة . حتى اذا ما وصل اشتعالهما أواره نزع نفسه باسما فى لذة ، تاركا اياها كالسمكة تنتفض على صفيحة ساخنة ، قامت اليه فى ضراعة ، تجاهلها بنشوة ، وذهب يفرغ

لنفسه كأسا ويشعل سيجـارة ، فلاحـقته ولثمته فى كل مكان فألهاها عنه بكأس قدمه لها ثم قطعة لحم مشوية ، ثم تركها وذهب الى الشرفة وجلس يشرب ويتابعها فى لذة فيما هى تحاول تبريد نفسها وكتمان غضبها بنكات قديمة غير مضحكة .

٣

أخيرا جاءتها الفرصة دون أن تسعى اليها ، اذ قال لها وهما يجلسان فى استراحة قصر التيه : « ما أخبار كحكوح ؟ .. أخشى عليك من جنونه .. آفة الشم أتت على مخه تماما وهو يستطيع أن يفعل أى شىء فى لحظة جنونية .. أنت طبعا تعرفينه أكثر ولكننى أعرفه أعمق .. زوجك أبو شافية رحمه الله كان مظلوما » ..

صرخت سيدتى : « حتى هذا الأمر تعرفه » . قال : « طبعا . ولو قدر لى رؤيتك أيامها لقلت لك الحقيقة بكل حذافيرها ولأمكن راجعة القضاء فى الحكم عليه » هبت سيدتى واقفة تصيح فى ألم : ولماذا لم تتصل بى .. تقول انك تعرفنى من زمن طويل .. ولديك معلومات عنى وعن زوجى .. فلمـــاذا لم تبحث عنى ؟ » . قال عبد الجبار : « مع الأسف الشديد لم أكن فى البلاد أيامها .. كنت مسافرا سفرة طويلة وكانت الأنباء تتأخر فى الوصول الى ، فلما عدت الى أرض الوطن عرفت كل شىء » قالت سيدتى : « وما الذى عرفته عن أبى شافية .. قل أرجوك » . قال عبد الجبار باسما : « عرفنى كحكوح بأبى شافية .. فتحملت سخف كحكوح وجنونه من أجل خاطر أبى شافية .. كان فى الواقع يعاوننى فى شهامة ورجولة .. وقف معى فى معركة مع أصحاب الحوش الأطرش حين أردت شراءه منهم كحظيرة أخزن فيهـــا سيارات النقـــل الخاصة بشركاتى ، نعم ذلك الحوش الذى أقمنا عليه فيما بعد احدى شركات المياه الغازية ، كانوا طامعين فى وكدت أستخدم العنف معهم لولا تدخل أبى شافية فى الأمر لقد أثر عليهم وأثر فى فاصطفيته ونفعته

من ورائي كثيرا والحمد لله ، وكنت أتابع أخباره أما كحكوح فأنا أعرف كيف أسوسه وأنتفع منه دون أن يدرى وبرخص التراب » ٠٠

ثم قدم لها قطعة حلوى وطوح بأخرى فى فمه واستأنف يلوك الكلام : « زوجك يرحمه الله ٠٠ كان كحكوح قد رجاه أن يصالح عليه زوجته وكان فى الأصل يريد التخلص منهما معا ليتفرغ لك ويرث أموالك وأموال المرحوم ٠٠ وكان قد أعد عدته ٠٠ وهـــذا الحشيش المضبوط تحت سرير زوجته صفقة سرقها من ولد غلبان وادعى له أن الشرطة هاجمته فتركها ونفد بجلده ٠٠ فلما استجاب زوجك للمشوار حدثت الطامة الكبرى » ٠

توقفت أسنان سيدتى عن المضـــغ وبلعت اللقمـــة بدلا من بصقها ٠ وأخذت تمسح دموعها المنهمرة مرددة : «الكلب ٠٠ الكلب» وصاحب السعادة الكلب ميشو يهدد بأزمة دبلوماسية كبيرة وأنا فى السر أرجوه ضبط النفس وفى العلن أتضامن معه فى نباح رقيق نوعا ٠ قال عبد الجبار : « بتعة هانم ٠٠ أنت الآن فى الأمان ولن تتوصل يد كحكوح اليك بعد الآن » ٠ صاحت واقفة تدمدم من الغضب : « الطلاق ٠٠ الطلاق » ٠ « قال عبد الجبار : « أنا كفيل بذلك » ٠ قالت : « أينوى بى شرا ؟ » قال : « نعم ٠٠ مؤكد » ٠ قالت : « هل كانت لهديتك وزيارتك لى صلة بهذا الأمر » قال : « ربما » قالت : « كيف طلبت منه أن يوصلك الى ؟ » ٠ قال : « لم أطلب منه ذلك » ٠ شربت سيدتى جرعة ماء ٠ قال عبد الجبار باسما : « كحكوح يعزمنى على الغداء منذ عشر سنوات على الأقل ٠٠ فلما وجدت الفرصة مناسبة لبيت له طلبه ٠٠ هذا كل ما في الأمر ٠٠ وأما الهدية فأنا شخصيا حين أدخل بيت احد للغداء فلابد من هدية لائقة » ٠

رددت من جديد : « الطلاق ٠٠ الطلاق » ٠ ابتسم عبد الجبار وضغط على ذر ، فدخل أفندى يرتدى أفخر الأزياء ولكن العين لاتخطىء انه بلطجى كبير ٠ شده عبد الجبار من أذنه وهمس طويلا ، فاختفى

الأفندى . ودعيت سيدتى للانتقال الى حجرة الصالون . حيث جيء بالفاكهة المثلجة والشمبانيا وأديرت الموسيقى الخفيفـــة . ودخل عبد الجبار قائلا : « ولكننا نسينا شيئا هاما يابتعة هانم .. هذا الكلب كحكوح سوف يلاحقك بالشكاوى وســـوف يزور امضاءك ويوقعك في مشاكل لا حصر لها مع الضرائب والحراسة ، على الأقل سيخلق لك جيشا من الموظفين الحكوميين يعيشون على حسابك ظلما وعدوانا » . هى قد جربت ذلك ، ولاتزال تصرف على بيوت بأكملها من رجال كانت وظيفتهم فى الأصل مراقبتها وتدبير الهجوم عليها . قالت : « وما العمل ؟ .. لو كان لى ولد أو ذرية لكتبت لهم كل شيء باسمهم .. لكن .. » ، ثم اندفعت دموعها كشلال ساخن ودافق ، حتى ان عبد الجبار أخرج منديله من كم الجاكت ومسح به رذاذ دموعها المتناثر على وجهه هو ، وهم بأن يمسح لها دموعها ولكنه تردد وأعاد المنديل الى كمه صائحا : « فيه حل واحد » . نظرت اليه بلهفة . أجاب : « تبيعى كل أملاكك .. وتشترى بالفلوس كلها شهادات استثمار لا ضرائب ولا حجوزات مهما كانت ألوفات .. وعلى فكرة .. أقدر أخدمك فى البيع .. أجيب لك أعلى سعر .. انتى محتاجة لوجع الدماغ ؟ محل وشركة وجرايم ودوشة .. أى واحد تحطيه مشرف على محلاتك حياكلك ألف فى الميه.. ثم انك مش محتاجة للتوسع.. مكسب الشهادات وفوائدها لوحدها حتعيشك حياة الملوك مدى الحياة ورأس مالك زى ما هو بل يمكن يزيد .. وبعد الحكاية ماتقدم سنوية وتتنسى ، أقدر أدخلك شريكة بالأسهم فى أى شركة من شركاتى » .

أشرق وجهها بالبشر . صاحت : « والله فكرة .. طب ياريت .. عندك مشترى ؟ » . ابتسم : « نخلق المشترى .. بشرط أن يكون على هوانا .. على كل حال .. سوف أكون أنا هذا المشترى .. ولكن لابنة شقيقتى وهى طالبة فى كلية الآداب .. وأنا سعيد بابنة شقيقتى ولهذا فأرجوك أن تكونى قاسية على فى طلب المبلغ الذى تشائين » . أشعلت ســـيدتى سيجارة وضعتها فى المبسم

الذهبى ثم ذكرت له آخر رقم مالى صعد اليه ثمن كل محل من محلاتها . فرفع الثرى الكبير كل رقم ثلاثين فى المائة من سعره المقترح . ثم انه ضغط على ذر فدخل اليه خادم فأمره باستدعاء محاميه ومحاسبه . وقامت هى وطلبت بالتليفون محاميها ومحاميها ومحاسبها .

ثم ساد هدوء شامل لبرهة كأنما لتفصل بين زمنين ، قطعها عبد الجبار قائلا : « والله سلامات » . قالت باسمه : « الله يسلمك » . فقال ان جيش الموظفين الحكوميين ينتظر ان تهديه الظروف بواحد مدان للحكومة حتى ولو على باطل ، لتدخل عليه جحافل فى منتهى الطيبة والمسالمة غير أنها تريد أن تعيش بقية عمرها على حسابه ، بل ربما اعتمدت عليه فى تحقيق طموحاتها المادية وأحلامها القديمة ، ثم أضاف : « لقد عانيت منهم كثيرا ولكننى عرفت منذ البداية كيف أتصرف معهم وعلى أى نحو أعاملهم، انهم بحكم البؤس الذى يعيشونه والراحة التى يعيشها غيرهم يتصورون ـ دون استعداد للتنازل عن تصورهم ـ ان الآخرين ينهبون بل يغرفون من آبار الحرام .. ثم انهم يوازنون الأمر بينهم وبين أنفسهم .. هم طول عمرهم لا يحبون الحكومة ، لا يحبونها اذ هى فى نظرهم مصدر سخرة لا تعمل أبدا لصالحهم .. لطالما نهبت الحكومة من الخراج والضرائب لافندينا ولمحمد على وللعائلة المالكة ولكل الحكومات التى كانت تعتبر نفسها طبقة أعلى من الشعب والباقى مجرد خدم لهم .. الحكومة كانت دائما هى قبضة الملك المالك تنهب لحسابه وتفتك باسمه بكل الناس .. فى القديم كانت الحكومات تتكون من أهل الملك أنفسهم : أبناؤهم أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم ، فلا يملك جهاز الموظفين الا أن يكون ترسا فى أيديهم .. أما الآن فان الحكومة فى وادى الآزرق تتكون من أعوان الحاكم والهبيشة وخدمه الخصوصيين ، فحاكم وادى الأزرق ورث الحكم ولم يرث عراقة التقاليد ولا الثقافة ، ولذا فان أعوانه يديرون الجهاز لحسابهم الخاص فى مقابل تأمينه من أى طامع

فى السلطة أو من أية ريح تهب ، ووأد كل طفل تتنبأ العرافة بأنه يهدد عرش الفرعون ٠٠ الحكومات فى وادى الأزرق ، يا بتعة هانم انما جاءت لتخدم مصالح السادة ورفاهيتهم ٠٠ وقد ورث الموظف الأزرقى حقيقة عبرت عنها حكمته الشهيرة : أخرة خدمة الغز علقه ، الغز يعنى الاتراك ٠٠ يعنى السادة أصحاب الشغل والوظائف التى تسمى بالحكومية ٠٠ ورث حقيقة أنه مجرد خادم ، وأنه من ثم لن يكون محل ثقة من رؤسائه أبدا ، لتأكده من أن رؤساءه أصلا ليسوا أهل ثقة أو ضمير ٠٠ لعل المثير للسخرية يابتعة هانم ان أبناء الشعب الذين ورثوا الحكومة بعد ثورتهم ورثوها كما هى بنفس المنطق ونفس المفهوم ونفس السلوك ٠٠ فتحولوا الى جهاز من الموظفين الغـــلابة يقف على أكتـــافهم هـــرم من الغيـلان والانتهازيين !! » ٠

ثم فشخ حنكه عن أسنان سوقية الشـــكل والتكوين كأنها أسنان حيوان ، وكان صنبور الكلام الفارغ قد توقف فى فمه ٠ فابتسم من جديد قائلا : « سوف أكتب هذا أيضا فى مذكراتى » ٠

٤

انعقدت الجلسة فى الصـــالون الكبير بالدور الأرضى بقصـــر التية وتمت كتابة العقود وحصل كل من المحاسبين والمحامين على عمولته نقودا حية وانصرفوا جميعا وهم فى غاية النشوة ٠ وتسلمت سيدتى شيكا بمبلغ امتدت أصفاره وأرقامه حوالى بوصة كاملة ، ثم قررت وهى تضعه فى حقيبة يدها انها من غد ستحوله الى شهادات استثمار تضعها فى خزينتها الخاصة بالبنك الأزرقى ٠ أما عبد الجبار فقد أصدر أوامره بتشكيل وفد خاص لا ستلام الممتلكات ٠ ثم انه ــ اكراما لخاطرها ــ قرر أن ينهى علاقتها بكحكوح فى أقرب فرصة ٠

٥

كانت الساعة قد لحقت بمنتصف الليل فى استراحة القناطر الأزرقية حين يجىء بكحكوح فى عربة جيب سريعة مصحوبا ــ أى

مخفورا ـ بثلاث مو سائقي اللورى ومقاولى الفواعلية العاملين باحدى شركات عبد الجبار • وكانوا قد تلقوا معلومات من قصر التيه أن « الرجل » على سهر فى انتظارهم بالاستراحة • فما أن وصلوا حتى اقتادوا كحكوح الى حجرة الصالون ، حيث جلس وشرب الشاى ثم القهوة ثم التمر هندى ثم بدأ يرفع صوته بالاحتجاج فى زئير مكتوم يردد ألفاظا غامضة • فلما فوجىء بعبد الجبار يدخل عليه ابتسم وحول ضجره الى حركات فكاهية ضاحكة ، صار كالقرد تماما يتمسح فى عبد الجبار ويتراقص ويسلم ويسأل عن الصحة والأحوال كأنما عبد الجبار ابنه التلميذ العائد من المدينة • أجلسه عبد لجبار بضغطة رقيقة ضاحكة قائلا : « بطل غلبة ياد » ، ثم جلس قبالته ومال نحوه فى ود كبير ، وبصوت يحمل شحنات دافئة جدا من الحب والأخوية والتواضع قال له : « قلبى معاك يا منيل على عينك •• ناوى تعمل ايه فى المصيبة اللى حلت عليك دى ؟ » • انتفض كحكوح وقد اصفر وجهه كورقة شجر ذابلة ، ردد فى لعثمة : « خير ياسعادة البيه •• اللهم اجعله خير » • قال عبد الجبار كابن بلد مصفى ينشر ظله على أخيه فى شجاعة وايثار : « أنا فى الحقيقة خفت عليك •• انت مهما كان بتنفع • وأنا زى ما انت عارف أخاف على رجالتى •• حتى اللى بطلوا يتعاونوا معاية بيفضلوا فى نظرى رجالتى برضه لانى يمكن فى يوم من الأيام أحتاج لهم •• وباحتاج لهم ••• وعشان كده حبيت أجيبك من تحت الأرض عشان أنبهك قبل ماتقع الفأس فى الرأس » •

استوعب كحكوح هذه العبارات جيدا وبرقت عينه من خلال السحب عدة مرات كالشرر المتطاير ، وشد نفسا عميقا من السيجارة ابتلعه قائلا : « فيه ايه يا سعادة البيه » • قال عبد الجبار : « البتعة مقبوض عليها من امبارح » • صاح كحكوح واقفا كأنه يبحث عن نفسه : « ايه » • واصل عبد الجبار : « مباحث أمن الدولة قبضت عليها •• أصلها كانت متزوجة واحد من الضباط

الكبار من حاشية رجال الثورة ٠٠ وكانت مشتركة معاه فى تهريب أسلحة وتجسس وتآمر على الحكم وبلاوى زرقه » ، انحط كحكوح جالسا وقد انهارت كل قواه ، انطفأ البريق فى عينيه تمـاما ، وبكى . وصارت قدمه الصغيرة تهتز بعنف وجسده كله كلعبـة خشبية بزنبلك ، حتى دموعه كانت تبدو متدفقة من خزان فى دماغه ٠ قال عبد الجبار فى حنان : ماتخافش ياكحكوح ٠ أنا برضه حانقذك من الورطة ٠٠ أنا عمرى ما أفرط فيك حتى لو أنت ندل زى عوايدك ٠٠ امبارح كانوا بيدوروا عليك » ٠ صاح كحكوح : «فعلا ٠٠ فيه جماعة زى المخبرين كده سألوا على فى كل الحتت» ٠ برق الذكاء فى عينى عبد الجبار ، قال : « طبعا ٠٠ أنا عارف ٠٠ لو مسكوك اللهم انهم مش حيسيبوك مدى الحياة ٠٠ دا اذا ما كانش فيها اعدام ٠٠ أصلهم بيعتبروك شريك البتعة وانك واضع يدك على كل الأموال اللى هربتها ٠٠ وبيتهموك بما هو أبشع ٠٠ بانك بتمول حركة متطرفة من الجماعات الاسلامية اللى طلعت لنا اليومين دول » ٠ انفجر كحكوح ضاحكا خلال الدموع المنهمرة ، ثم صاح باكيا : « أمول ٠٠ حركة اسلامية ؟ » ٠ قال عبد الجبار : « أنا متأكد انك مش ممكن تمول نملة ٠٠ الكلب بتاعك أهه يشهد عليك طول النهار صايع وما صدق شافنا ماسبناش ٠٠ ثم انك لا تفهم لا فى الاسلام ولا فى دين ٠٠ انت تفهم فى تطليع الدين معلهش ٠٠ لكن هما معتقدين كده وادى الله وآدى حكمته ٠٠ شوف مين حيسمع كلامك أو يصـــدقك قال كحكوح فى مراوغة مفضوحة : « مسكينة والله ٠٠ دانا من يوم مازعلت منها بطلت أوريها وشى بس كنت مطمئن ان العمل بتاعها ماشى ٠٠ هى ما شاء الله كانت كل ساعة فى محل بتفتش وبتجرد وتراجع وتمسى على الرجالة ٠٠ دلوقت مين حيعمل لها ده ؟ » ٠ انفجر عبد الجبار ضاحكا فى مرح وتشف خبيثين ، قال ، « أموالها ايه وأملاكها ايه ياعم كحكوح كل سنة وانت طيب » ٠ هب كحكوح واقفا مرة أخرى: « ايه ؟ » ٠ واصل عبد الجبار : « النهاردة استلمتها الحراسة خلاص ٠٠ ما عادش حد يقدر يتصرف فى أى مليم ولا هى نفسها » ٠

من بين سحب كثيفة جدا برقت عين كحكوح برقة سريعة خاطفه ، ثم ردد كالغريق : «بلغني ٠٠ تصدق انى بلغتنى حاجة زى كده؟»٠ قال عبد الجبار : « بلغك ايه ؟ » ٠ قال كحكوح : « ناس جم قالوا لى فيه لجنة راحت دكان الآثار وطلبت الدفاتر ومفاتيح الحزنه والدواليب ودنيا مقلوبة ٠٠ رحت معرض السيارات وبصيت من بعيد لقيت برضه حاجة مش طبيعية ٠٠ دا حتى الرجالة بتوعك جابونى من هناك وأنا عمال ألف حوالين المعرضين » ٠ قال عبد الجبار وهو يكتم ضحكة : « لم يعد لدينا الآن سوى ان نفكر فى انقاذك ٠٠ انت لن تستطيع الهرب مدى الحياة ٠٠ خصوصا فى قضايا أمن الدولة ٠٠ كله الا هذه » ٠ صاح كحكوح وهو يهم بشق الهدوم : « طب وأعمل ايه ٠٠ دبرنى » ٠ قال عبد الجبار : « : « بسيطة ياحمار ٠٠ تطلق بتعة ٠٠ بس تطلقها بتـــاريخ قديم ٠٠ قديم شويتين » ٠ قال كحكوح : « أطلقها غيابى ؟ ٠٠ طب ومين الذى حيطاوعنى على التاريخ القديم ؟ » ٠ قال عبد الجبار : « مالكش دعوة ٠٠ ممكن أخدمك الخدمة دى على شرط تطلع راجل معاية مرة واحدة ٠ مظبوط ؟ قال كحكوح : « أنا خدامك ياسعادة البيه » ٠ قال عبد الجبار : « لن أطلب منك شيئا الآن ٠٠ فلست نذلا مثلك أبيع خدماتى وأقبض فى الحال ٠٠ لا ٠٠٠ ولكن ٠٠ سأدخر عندك جميلا يحق لى أن أطلبه فى أى وقت أشاء » ٠ قال كحكوح فى صدق حقيقى : « رقبتى لك ياسعادة البيه » ٠ صاح عبد الجبار : « اطلبوا المأذون الخصوصى بتاعى » ٠ علق كحكوح فى سعادة : « ياسيدى ٠٠ أهو كده » واستأذن عبد الجبار فى خمس دقائق ٠ وجلس كحكوح يفرك يديه ليهدىء من الفوران الذى بداخله ، ثم أفرغ مسحوق البرشام وشم دورين بسرعة مذهلة ، ثم حشر فى فمه تلقيمة مدغة وصار يبصق فى منديله الجربان ٠٠

ثم انه طلب قهوة فجيء بها ، وطلب سجائر فانفتحت له العلبة الصدفية على الترابيزة ، ثم فوجيء بشاشات متعددة فى كافة أركان الغرفة وزواياها البارزة لتليفزيونات ملونة تعرض

ألوانا شتى من المناظر ، فصار ينحاز الى هنا تارة وها هنا تارة أخرى حتى نسى نفسه تماما فى تيار من الصور العارية يمضى في سياق وحوار حتى طار لبه من الفوران ووقف على حيله عدة مرات بدأ خـــلالها كحيوان شرس محبوس فى قفص ، ثم ان الشاشة انطفأت فجأة وتركته محيرا لبرهة ، فلما عاد بصره يألف المكان حوله وجد المأذون يجلس بجواره قائلا : « أهلا بك وسهلا » · انتفض كحكوح مذعورا : « أهلا » وسلم عليه بيده فى تملق يخفى عدوانا غريبا · عزم عليه بسيجارة من العلبة الصدفية وأشعلها له وبدا ان المأذون غير مدخن ، فصاح فيه كحكوح بغيظ مكتوم : « لما مابتشربش بتاخدها ليه ؟ » ثم زام ، وضحك المأذون وقال انه لا يرفض الخير والا كان جاحدا ، فزام كحكوح مرة أخرى وقـال بصوت ممرور محزون : « تبقى حتوافق ! تبقى عمرك ما ترفض أى حاجة ! بشرة خير يامولانا ! ياريت لنا عندك حاجة أكبر » · ودخل عبد الجبار على عجل ، وقال كحكوح لنفسه ان الدقائق التى غاب فيها عبد الجبار كسب خلالها عشرات الآلاف من الجنيهات لمجرد حضوره فى بيع صفقة أو كتابة عقد ··

قال عبد الجبار لمولانا ان كحكوح ـ وهو أحد كبار رجاله ـ يريد أن يتخلص من زوجته اللعينة التى كانت شورتها هبابا فى هباب · صاح مولانا قائلا خذوهن بالمعروف وطلقوهن بالمعروف · قال عبد الجبار : « اعمل انت المعروف وطلع ورقك » · فأخرج المأذون أوراقه وصار يكتب الصيغة المعلومة ، وعند التوقيع مال عليه عبد الجبار وهمس بالتاريخ المطلوب ، فتردد المأذون قليلا ثم مد ذقنه وسحبها عدة مرات فى همسات طريفة مفضوحة الحوار ، أخيرا هز يده مع رأســـه محددا بأصابعه الخمس أقصى مدى من الشهور يستطيع اللعب فيه ومعالجة وضعه ، فوافق عبد الجبار بهزة من رأسه فكتب المأذون ووقع كحكوح وجيء بسائق اللورى ومقاولى الفواعلية فوقعوا شهودا على الطلاق · ثم أشير للمأذون على مظروف أصفر منتفخ قليلا على الترابيزة بين الأشياء فأخذه المأذون

ودسه فى حقيبته بارتعاشة نشوانة ، ثم هب واقفا وألقى السلام ثم انصرف .

وحين هم سائق اللورى بالانصراف استبقاه عبد الجبار ، ثم وجه الحديث الى كحكوح قائلا : « انت بقى .. يلزمك راحة شهرين تلاتة كده تقضيهم بعيد قوى .. عايزك تختفى اليومين دول عن البلد .. حط القسيمة فى جيبك واتكل على الله .. اسمع .. الاسطى حسنين يقدر يسفرك بلدهم فى الفيوم ويستضيفك فى بيته شهر شهرين تلاتة زى ما أنت عايز .. وخد المبلغ ده معاك أصرف منه لحد ما ترجع لمطرحك .. أى مزاج أى شيء الأسطى حسنين يبقى ياخد هولك معاه فى أى وقت » . ثم ربت على كتفه فى حنان كبير واستأذنه فى الانصراف . ونظر كحكوح الى الأسطى حسنين وقال له : « بينا يا أسطى ناخد التموين ونتكل على الله .. أنا فعلا عايز أستريح لى يومين .. أنا أعصابى تعبانة قوى يا أسطى وخايف أموت عندك » . قال الأسطى حســـنين : « فى بيتك ياكحكوح .. يلا بينا » . وسحبه من ذراعه فى رفق ومضى .

٦

.. ذهلت البتعه وهى تسمع نص ما حدث ، أى حواديت وأى أساطير يحدث فيها مثل ما يحدث الآن . وقال عبد الجبار وهو يخلع سترته ويعلقها على حامل معدنى انه لم يعمل حساب الخطوة القادمة وهى ان كحكوح قد يكتشف وجودها عنده فيما بعد فماذا يكون موقفه هو ؟ ثم قال وهو يتخلص من البنطلون ان هذه مشكلة سوف يجد لها مخرجا لابد . ودس ســـاقه فى البيجــامة ثم عاد فخلعهـــا ورماها وارتدى الجلباب الحريرى الأبيض .

ثم أمرها عبد الجبار أن تقوم وتعد الطعام فنهضت كالغزال متجهة نحو المطبخ . مضى وراءها فى طفيلية تكشف عن صايع

قديم · أحست خلفها بنظرات تطلق اشعاعا كريها · فلقد أصبحت من طول المراسي والتجربة تـرى بظهـرها ، فاذا كان المعجبون بجسمها يعتبرون ان ظهرها وجها آخر لها أكثر ابهارا وجنونا من وجهها الأول ، فانها توقن من أن لوجهها الآخر عيون تبصر بها كل شيء ، وترى النظرة الشرهة وهي تتسلق قناة ظهرها البارزة صاعدة من مؤخرتها بعد طول تلكؤ ثم هابطة من جديد الى الساقين · ذلك الاشـعاع الكريه الذى احسته فيما هي متجهة الى المطبخ ذكرهـا بصور قديمة كريهة بل ذكرها بصور مطموسة من قريتها يفج منها الخوف والعفن والغموض ··

انحرفت الى المطبخ فانحرف وراءها · قالت لنفسها : ليس بمعقول ان يطاردها هكذا كالطلبة الغرباء يلاحقون المرأة الغسالة فى المطبخ ، فى حين انها كانت شبه عارية أمامه منذ برهة · لكنها تجاهلته ، وصارت ترفع ذراعها لتحضر حلة أو لتفتح بابا فيمتطى جسدها ، ثم انه دخل دورة المياه وسمعت هي بعد قليل نشيت مياه الدش فوق جسده وسمعت وحوحته الطفلية السمجة ، وأحست لأول مرة ان هذه النبرة الصوتية المعبرة عن النشوة الخائفة أو الخوف النشوان تعرفها جيدا حيث استمعت اليها من قبل ولم تحبها · ثم انها شرعت تعد الصحون وتسخن أطعمة كانت فى الثلاجة جاهزة ، فاذا بها تحس بصهد خلف ظهرها مصحوب بظل كثيف ثم اذا بجسم صلب يخترق عجيزتها فى سوقية ذعرت لها من أعمق أعماقها ، وكان رد الفعل المباشر أن تستدير اليه فتصفعه بالكف على وجهه أو تبصق عليه ، لكنها تذرعت بالهدوء وحاولت الابتعاد معبرة عن ضيقها ببسمة معووجة ممرورة ، وكانت تنوى التغاضى عن مثل هذه الحركات البذيئة مثلما تغاضت من قبل ، حيث تبين لها على طول التنقل بين المجتمعات ان البذاءة والسوقية بين كبار القوم لا مثيل لهما فى الدنيا ، لكن صفحة من الماضى البعيد دفعت بها الريح أمام عينيها فكأنها جدار ثقيل نزل بينها وبين عبد الجبار ، جدار ثقيل أسود فصل فى الخال بين عهدين

حاسمين ، فقبل هذه اللحظة كانت قد اشتهته أما الآن فهي واثقه تمام الثقة انها لن تشتهيه بأى درجة ، لقد أحست بصوت القرار في أعماقها داويا لا رجعة فيه ، لهذا أمعنت في تجاهل عبد الجبار ، وبكل رزانة وثبات كأنها امرأة غريبة عن الدار أخذت تعيد ترتيب الأطباق والشوك وعلى وجهها كثير من الحرج والصلابة ، ما ان استقرت في وقفتها حتى شعرت بصهد الظل الكثيف يزحف نحوها. فبعثت اليه من فوق كتفها نظرة استنكار تحمل كثيرا من التقزز . فكأن وجهه الغليظ المكلبظ جلد طبلة مرتخية متكسرة يرتسم عليها ما يشبه الابتسام الأبله ، ثم انها تذكرت هذه البسمة البلهاء الكريهة لكنها لم تتذكر بالضبط أين وممن ، لكنها تدرك انها تكرهها كره العمى . بثبات راحت تخرط الاوطة في دوائر رقيقة، فاذا به يلتصق بها دفعة واحدة ويطوقها بذراعيه لاهث الأنفاس يطلق فحيحا عميقا أجوف متدنيا . صارت تحرك نفسها بين ذراعيه بعنف وهو كالطود الراسخ حتى أنهكت وتركت نفسها بين ذراعيه كخرقة بالية ، فلما انتفض على ظهرها كالذبيح وتخلخلت قيوده حولها ردت اليها الروح ، غير ان لزوجة قبيحة بللت عجيزتها فشعرت بقرف حاد ، وكانت أنفاسه الكريهة لا تزال في أنفها فتيقنت في الحال انها تعرف هذه الأنفاس جيدا ولكنها لا تعرف أنفاس من على وجه التحديد انما تعرف انها تكرهها وتتمنى الموت لو قدر لها النوم لصاحب هذه الأنفاس .

استدارت اليه وقد تجمعت البصقة في فيها ، لكنها تذكرت انها في بيته وانه عبد الجبار صاحب وادى الأزرق وزعيم المنشئين. فابتلعت بصقتها كارهة ، فانتابها غيثان ودوار ، سيطرت على نفسها حيث قررت في نفسها أن تقاوم الغيبوبة أو الانهيار بأقصى ما تستطيع ، لكنها لم تستطع السيطرة على الغيثان ، فاتجهت الى حوض المياه وأمالت رأسها عليه وتهيأت لافراغ ما في جوفها كله ، لم تكن تقصد أن ترسل عجيزتها الى بعيد وقد صارت شيئا منفصلا عنها متصلا بها عبر جسر من غدير ، ما لم تتصوره مطلقا

حدث ، فوجئت بالجسم الصلب يخترق عجيزتها من جديد كعود من الحديد وفوجئت بحيوان ذى مخالب يتسلق ظهرها ليقبض على ثدييها ويفعصهما فى عنف شرس ، فانتفضت واقفة فى غضب شرس كفرسة جامحة ألقت به الى الوراء يضحك فى صبيانية بلهاء تم نظرت فيه غاضبة حاقدة ، ثم انبته بنظرة أخرى ، ثم استدارت من جديد الى الحوض ومالت نصف ميل وقلصت معدتها و ٠٠ تقيأت ثم أفاقت لكنهـا تصنعت التعب وتركت المطبخ متجهـة الى حجرة النوم وارتدت فوق كتفيها سترة روب ، ثم جلست على كرسى مريح ، فجاء خلفها كطفل مذنب وضيع ، وجلس قبالتها ، قال بصوته المتحشرج : « مالك ٠٠ ما كنتى كويسة من دقايق ٠٠ حصل ايه ؟ » سلقته بنظرة ، لكنه فلفص منها وقال : « أجيب لك دكتور ؟ » ٠ قالت بسرعة وحسم : « لا ٠٠ مفيش داعى ٠٠ أنا كويسة مفيش أى حاجة بس أعصابى مش مظبوطة » ٠ قام اليها فاستقبلته بنظرة اشمئناط ورفض واستياء ٠ جلس بجوارها فوق حافة الكرسى حاشرا الحافة بين ضلعى مؤخرته ، وطرح ذراعه حول رقبتها فنظرت اليه فى رجاء كأنها تقول : « اعمل معروف سيبنى دلوقتى » ٠ فوضع رأسه على عنقها كطفل مدلل وقال : « عايزانى أسيبك اقلعى الروب » ٠ فنهضت وخلعت سترة الروب ورمتها بعيدا ثم جلست على كرسى آخر فى ركن بعيد ٠٠

اعتدل فى الكرسى واستدار به فواجهها قائلا فى شىء يشبه التهديد انها اليوم غير طبيعية ، ثم أضاف بأنه الليلة على ما يرام ولم يشهد لمزاجه انتعاشا طول حياته مثلما يشعر الليلة ، نعم فلقد عاش السنين الفائتة كلها يعمل ليل نهاركالماكينة الالكترونية التى ضبطوها على حركة معينة فهى لاتنى تدور فيها بدقة محسوبة حتى الجنس لم يشعر له بلذة أبدا لانه لم يكن ملتفتا اليه فى شبابه وحين تزوج اختاروا له ابنة ثرى لم يشعر نحوها بالحب أبدا وان كان يشهد بطيبة قلبها وحسن أخلاقها وتربيتها ، وجودها فى حياته كأى شىء يقتنيه ، حتى وهى تسـهر معه فى بعض

السهرات أو ترافقه في بعض المناسبات ، تسير تحت أبطه كشيء معلق في ذراعه لا تغار ولا تسأله عن خصوصياته ولا تفعل أى شيء من هذا القبيل ، بل هي في الفراش على جمالها الخارق ترتمى اليه كشيء يمتلكه ويمارسه وقتما شاء ٠٠ وقد أتيح له أن يرتاد مجتمعات الجنس وأندية العراة فى شتى أنحاء العالم ، وانفتحت أمامه شقق وبيوت لا حصر لها تحوى نساء كالفاكهة الناضجة ، لكنها في النهاية لا تثيره ولا تمتعه لاحساسه القوى بأنها لم تنفتح له بل انفتحت لامواله ، ان أمواله تسبب له عقدة جنسية عويصة، فكل النساء اللاتى أقبلن على فراشه طائعات كن بدافع من اثنين : أما ردا على هدية قيمة واما انتظارا لهدية قيمة ٠٠ وكان يمارس معهن الجنس أى نعم ولكن كنوع من الألعاب الرياضية المجنونة لا يحس بعدها انه قد استراح أو هدأت بأعماق صدره الجمرات المتقده ، بدليل انه لم يكن يحس بالهياج الحقيقى الا حين يرى امرأة أخرى بعد انتهائه من المضاجعة مباشرة ، فما أن يقترب الى المرأة الأخرى موضع الاشتهاء حتى تنكشف له أعماقها عن تاجرة جشعة ٠٠

ثم ضحك عبد الجبار بصوته الأجش ضحكة لا معنى لها ٠ طردتها البتعة من أذنيها ونهضت قائلة انها تشعر بالرغبة فى العودة الى البيت لتنام شهرا بأكمله حيث كانت قد دهمتها جحافل من الصور القديمة الجديدة كلها ذات طابع مخيف حتى وان كان بعضها يأخذ سمة الضحك والمرح ، أشياء تكرهها وأشياء لا تعرف ان كانت تحبها حقا أم لا ، أمها وهل لا تزال على قيد الحياة ؟ خالها وأبناء خالها ومن عاش منهم ومن مات وماذا يا ترى حالهم ؟ عنتر كباية وهريدى وذلك الذى كانت تدعوه بمختار ، ورجال الثـورة وحدائق اللبؤة وجبل المقطم كل ذلك تداخل فى بعضـه وتناحر وتعـارك وهد قواها فبـدت مهزولة على غير ما يرام ٠ اكتأب عبد الجبار فجأة وتحول وجهه المكلبظ الى عجينة مفعوصة بقبضة يد ، وحين تأملت هى فى ثقبى عينيه أحست بحقد دفين

يخرج متهما وان اتخذت نظرته شكل العتاب . بلع ريقه وقام وأشعل سيجارة ، وقال لها انه لا داعي لاى قلق ، وانها تستطيع النوم فى هذا القصر كيفما شاءت لاى وقت تشاء ، ثم ذكرها بأنها من المفروض ان نيابة أمن الدولة قبضت عليها فكيف يكون موقفه لو ركب كحكوح جنونه وذهب يبحث عنها فى بيتها ليتأكد ..

انهارت جالسة فى اعياء وقهر شديدين . نهض عبد الجبار واتجه اليها فى جدية شديدة وفى شهامة ابن بلد ، ربت على ظهرها فيما قصد أن يكون حنانا ، واعتذر عما يكون قد بدر منه وأساء اليها ، ثم قبل رأسها ورجاها النهوض معه الى الشرفة فنهضت مستسلمة ليديه . الشرفة تطل على حديقة بعيدة الغـور حافلة بأشجار الموز الخضراء بأوراقها العريضة الجميلة المنسابة من أسفل الى أعلى مثل أكف ضارعة ، تذوب فى الساق وتستقل عنه فى نفس الآن . أشجار الورود منتشرة والزهر يتسلق افريز الشرفة وعناقيد العنب تتدلى بداخل الشرفة فوق كرسى من خشب المامبو .
فوق هذا الكرسى المستطيل العريض الجميل جلست البتعة ممددة ساقيها طلبا للاسترخاء والهـدوء . وعند نهاية قدميها جلس عبد الجبار مكررا أسفه على ما حدث لها . ثم ضغط على ذر بجواره فجيء بغذاء جديد جاهز شهى ، أجبرت البتعة على أكله مع أقداح البيرة المغبشة وظلت أقداح البيرة تزحف اليها فى صحتها حتى انتعشت واستعادت حيويتها وصارت مستعدة لتقبل عبد الجبار على علاته ، بل ان نظرتها تغيرت فجأة من الحقد الى الاشفاق ورغبت فى أن تعرف الكثير عنه منه هو نفسه ، فاعتدلت فى جلستها وجرته من جديد الى حديث الجنس فاذا به يفاجئها قائلا :

— « سوف أعترف لك بسر » .

أعطته كل انتباهها :

— « قل .. »

فاندفع قائلا : « هل تتصورين اننى لم أشعر بالجنس

الحقيقي الا وصورتك في دماغي ؟ » • قالت باسمة : « كيف ؟ • قال : « لا أدرى •• ولكنني طول عمرى ما حلمت بذروة الجنس الا معك » • قالت في دهشة : « تقول طول عمرك •• أنت تعرفني اذن طول عمرك ؟ » • ثم ضحكت فضحك هو الآخر قائلا : « أقصد من يوم ما عرفتك » • قالت منساقة وراء المتتاليات الحوارية التي حفظتها من أفلام التليفزيون : « ومتى عرفتني ؟ » • قال ملوحا بكفه : « منذ •• منذ •• ثم ابتسم في حيرة ـ منذ رأيتك تغنين في فرح أحد أقاربي » • شحب وجهها : « انت اذن تقصد رشا الخضرى ؟ » • قال ملوحا بكفه : « يو •• و •• ه •• ومن لا يقصد رشـــا الخضرى ؟ » ـ ثم بلهجة ذات معنى : « على فكرة كانت تشبهك » • حمدت الله وان كانت لم تصدق انه يجهل كونهما ـ رشا وهي ـ شخصية واحدة •

على أن عبد الجبار في ذكاء شديد حاول أن يعطى لهذه اللعثمة معنى فقـــال بلا معنى انه حين يرى رشـــا الخضرى في التليفزيون كان يهتاج ، فقط لانها كانت تذكره بجسد معين لفتاة معينة كامنة في أعماقه ، وهو لا يعرف بالضبط ان كانت هذه الفتاة المعينة سبق ان رآها في مراهقته أو طفولته أم انها من خلق خياله ، ولكن هل ينجح الخيال في أن يخلق صورة حية مجسدة الى هذا الحد ؟ ولماذا تكون على هذا النسق ـ أقصد نسق رشا الخضرى فلما رأيتك أول مرة ـ هكذا أضاف باسما ـ أحببتك لانك انقح « من رشا الخضرى جسدا وشكلا وروحا • تأملته بعينين فاحصتين باحثتين عن شيء يسمونه الحقيقة ، فلم تجـد له عينين حيث أن عجينة وجهه كانت في حالة انفعال تقلصت معها وزحفت الأذنين فوق الخدين والتصق الخدان بالجبهة •• فضحكت بمرح رغما عنها ضحكا رنانا صافيا ، ثم ركنت رأسها ونظرت في حوائط الشرفة وكانت نفس العجينة المفعصة تطل له من فوق حلل فاخرة وكانت هي تعجب كيف استطاع كل من عاملوه أن يتعاملوا مع هذه العجينة الخمراتة على الدوام •• لكنها انفجرت تضحك وتضحك

وهو يتابعها مفصحا عن عينيه شيئا فشيئا وكلما ظهرت عينـاه اكتست عجينة وجهه بتعبير ما ، ثم قال لها فى تفاخر خجول بعض الشيء فيما يشير باصبعه الى الصور : « فعلت كل هذا لأتحدى أبى ·· وأسعد لحظاتى هى التى أراقب فيها أبى حين يتفرج على مثل هذه الصور ، أحيانا كان من الفرجة يصيح ورائى كالطفل مطالبا بأن آخذه معى الى حفل افتتاح كوبرى أو مصنع أو مخبز أو فندق أو ماتش كورة ·· وكنت أربت على ذقنه فى حنان وأتركه وأنصرف ·· كان أبى تاجر حبوب ، وكان غنيا وكان بخيلا الى حد لا يطاق ، يكفى اننا تعلمنا أنا واخوتى دون أن نتكلف من ثروته مليما واحدا ، كلنا ذهبنا للشغل فى الوسايا وفى البلاد واقترضنا من جدتى لأمى ومن اخوالى ·· وكان يتلذذ كلما رآنا فى عوز ويتشفى قائلا : سوف تعودون لى ·· وان عدنا اليه سمم أجسامنا بقارص الكلام ·· أنت ياولد مكنة أكل ؟ يكفيك رغيف واحد ·· وانت يابنت مالك كالبقرة ·· وانت يا امرأة ـ يقصد أمى ـ خففى عن العيال بدلا من الحشر حتى لا يمرضون ويكلفوننا أموالا ليست معنا ·· لسنا نحب ياولية ان نصرف من بتاع الناس ·· وهكذا ظللنا أنا واخوتى نرتعب من بتاع الناس فتركناه للناس وبحثنا لأنفسنا عن بتاع نقتات منه وكله من رضا الوالدين أقصد رضا الوالدة فقد ماتت رحمها الله وهى تدعو لى ولاخوتى ·· أبى الآن بكل هيله وهيلمانه وأمواله ينام فى البلدة على شاطىء الرياح الزرقانى مجرد واحد من الأعيان لا نحتاج اليه ولا يحتاج الينا ·· بعض المتحفظين من قول كهذا يقوله انسان عن أبيه ، لكننى سأكتبه سأكتبه في مذكراتى وسوف أخلق منه درسا لشباب البلاد حيث يتعين على كل منهم أن يتحدى والده ويخلق من نفسه شيئا كبيرا عالى المقام ·· انها الأموال ·· النجاح ·· كم حققت فى حياتك من أملاك يافتى ؟ أكثر مما حقق أبوك ؟ أذن فأنت قد نجحت بعون الله وحسن اجتهادك · هل حققت أقل مما حققه أبـوك ؟ اذن فأنت قد فشلت وضاعت حياتك هدرا ولا بد انك بليت بسخط الوالدين

أو بالضلال عن الهدى والحق . أما ان حققت أقل من ذلك فأنت غير جدير بالحياة .. هكذا الدنيا .. لسنا لا سمح الله نقول انها غابة مليئة بالذئاب كما يقول الشيوعيون ، ولن نقول لك تذئب حتى لا تأكلك الذئاب .. حاشا لله .. انما نقول ان الحياة شطارة .. وهناك ناس تتبعثر الأموال حولها منادية عمن يستفيد بها وهم مع ذلك لا يرونها .. انهم اذن لغافلون .. وهناك شبان طلعوا علينا هذه الأيام بتهمة التكفير يبعثرونها فى كل اتجاه ويعتبروننا نحن الأثرياء فى ضلال عظيم ..

ثم اغتاظ فجأة وصاح بغضب : « ليتنى أدرت جهاز التسجيل لأستطيع أن أقول هذا مرة أخرى .. هكذا يجب أن أدون فى مذكراتى ولكننى دائما أنسى اصطحاب جهاز تسجيل فى مثل هذه اللحظات النادرة التى أرانى فيها مجبا للحديث عن نفسى وعن حياتى .. لقد داخ الولد المحرر معى فى الحقيقة .. طلبته فى أوقات متعددة وحالات نفسية مختلفة ولكننى عندما يحين الحديث ونفتح ـ الجهاز وهو يسدد لى نظراته البلهاء من خلف المنظار تجف ينابيع الحديث فى نفسى ، وأرانى أقول كلاما فارغا ، أسرح فى أشياء فرعية ويبدو على اننى لست أعرف بالضبط ماذا أريد قوله . فحيث أريد أن أسجل قصة حياتى وكفاحى أرانى قد انحرفت فجأة الى الحديث عن مواقف مثيرة حدثت بينى وبين بعض الزعماء أو الملوك أو المسئولين الكبار الذين لم يعد لهم وجود فى الدائرة الضوئية ، فاذا بذكرهم يغرينى بالاسترسال فى الحديث عنهم وكيف ساومونى على كذا وكيت وكيف عرضوا على الرشاوى وكيف وقفت وكيف دافعت وكيف تخلصت . ألاننى فى أعماقى مولع بأن يقترن اسمى بأسماء زعماء وملوك وأباطرة ؟ أم لأننى أريد بالفعل أن أفضى بأسرار يستفيد بها التاريخ وتنتفع بها الأجيال ؟ .. ولكن لا .. تعالوا هنا .. ألسنا الآن نريد أن نخدم التاريخ والأجيال ؟ حسن ، فلننسى قصة حياتنا الشخصية ونكتب فصولا

من مذكراتنا عن مواقف هامة عشتها مع رجال لهم أهميتهم في تاريخ البلاد ؟ .. ولسوف أسجل تاريخي من بينهم ، نعم فأنا الذى استطاع أن يتجاوز معهم جميعا ويتجاوز كل قواهم الغاشمة وأحقادهم ويحتفظ الى ذلك بصداقتهم . سيقولون اننى أجرح الموتى وأفضح رائحتهم العفنة مع اننا كنا أصدقاء صداقة يضرب بها المثل .. وأقول لهم ان الحى أبقى من الميت ، واننى رجل أحترم حق الأحياء وأحترم حق التاريخ فى أن يعرف ، انا هنا مجرد من الأهواء الشخصية » .

ثم صب لنفسه كأسا من الويسكى ولها قدحا من البيرة المعلبة ، وقدم لها أصبع بطارخ التهمته كله وراء جرعة بيرة ، فانتقى واحدا آخر مثل خيارة لطيفة الحجم وقام بنفسه وهم بادخاله فى فمها لكنها أشاحت بكفها وهزت رأسها رافضة فتوقف ناظرا اليها كأنه يقول : عشان خاطرى .. فلم تعره التفاتا . فهم بادخاله ثانية فى فمها ، فمدت أصابعها السرحة الطويلة الأظافر وأمسكت اصبع البطارخ وجاملته بأن قضمت منه قضمة صغيرة أخذت تلوكها فى ملل . فجلس وقد أحس بقليل من الصدمة . ودفع الى جوفه بكأس الويسكى دفعة واحدة ، ثم قال وقد بدا أنه يتذرع بالصبر : « أقسى شىء يمكن أن يقع فى حياتى هو أن يحبط مزاجى هذه الليلة .. هذا شىء لا أستطيع احتماله أو معاناة آلامه .. لربما انفجرت الى شظايا ان حدث لا قدر الله ما يعكنن على ويخمد جذوة اشتعال مزاجى ! .. أنا الآن لست عبد الجبار .. أنا ذلك الرجل الذى وجد أخيرا جزيرة وارفة الظلال فآب اليها بعد طول تشرد بين الأمواج والرياح ! .. لقد عشت كل هذه السنين الفائتة أنتظر هذه اللحظة ، نعم هذه اللحظة ، حيث يتم اللقاء بينى وبين من ظلت مدى الحياة مصدر أحلامى الجنسية !! أنت هى !! أقصد انك أنت هى التى عاشت فى مخيلتى وأفسدت على كل العلاقات مع الجنس الآخر !! لقد فشلت كل علاقاتى معهن شرعية

كانت أو غير شرعية-وكان فشلها لحسابك أنت ! لقد كنت أطالبهن جميعا بأن يكن أنت وهذا مستحيل ! وقد غاب المستحيل عن دائرة حياتي فترة من الزمن غرقت فيها في تجميع كل هـــذه الأموال وتحقيق كل هذا الوجود العريض !! لكنه سرعان ما هب على أفق حياتي من جديد ، فحيث كنت أظنه مستحيلا اذا بي أجده يتحقق في صورة رشا الخضرى ،فلما ضاعت رشا الخضرى تحت سنابك المرتزقة من أعوان الثورة الازرقية واندفنت تحت ركام الأحداث في كهف مجهول رأيتك فاذا المستحيل يتكرر ، ولكن كأنما ليقول لي ان هذه هي آخر فرصة لي معه ، ان المستحيل ان حـدث فهـــو لا يمكن أن يتكرر ، هذه من مسلمات الدهر ، أما ان تكرر فلكي يبلغ هدفا أعظم أو رسالة عظمى ، وأنا قد تلقيت هذه الرســالة التي قالت لي : أغتنم هذه الفرصة لأنها لو ضاعت منك تظل بقيــة العمر تعاني حرارة الندم وحسرته ، هذا ان بقي لك عمر بعدها) ٠

ثم صب لنفسه كأســا ، وأكمل لهــا كوب البيرة ، فهزت رأسها شاكرة في رصانة وقد أحست انها أكبر مما كانت تتصور وأفخم ، ثم شعرت ان هذا الاحساس أن يقودها الى شيء ذى بال فنبذته ٠ ابتلعت نصف كوب البيرة ، وأشعلت سيجارة واعتدلت جالسة كأنها تعطيه الاشارة باستئناف الحديث ، ففي الواقع كانت قد بدأت ــ منبهرة ــ تستلطف حديثه وحركاته وتلتقي معه عبر حديثه على عقد مشتركة وأشياء كثيرة مسموعة في حياتها الخاصة ، نعم فهو يشبهها في كثير من الأشياء وهي تشـــبهه في كثير من الأشياء ٠ شدت النفس واستحثته قائلة : « هيه » ٠٠

وضع ساقا على ســاق وجرع الكأس وصب غيره وألقم نفسه أصبع بطارخ ، وكانت الحيوية تتدفق من عينيه على وجهه ، ويتحرك بنشاط ، ثم قال كأنه يبدأ حديثا جديدا : « لست أعرف ما سر هذه النشوة التي هبطت على الليلة ٠٠ أشعر الآن انني شاب في العشرين ٠٠ بل دون العشرين ٠٠ أنا الآن ٠٠ بالضبط بالضبط٠٠

طالب في « الثانوية التوجيهية » وفي حديقة منزلنا في البلد أو في حجرة الحزين ، تنتابني الآن نفس مشاعر تلك الفترة ، أشم رائحة بيتنا القديم في البلد ، أشم رائحة الحبوب المخزونة ، أشم رائحة محل الأدب ، رائحة السمن المقدوح ، أحس بخفقان قلبي على حق ولأول مرة منذ ذلك الزمان البعيد ، خفقان نشوان اذ أن في انتظاره الأنثى ، الأنثى التي هي ٠ أسراب النمل الآن تتمشى في عروقي ، حتى انظرى ، ها هو الكأس يرتعش في يدى ، لا أدرى ان كنت غاضبا الآن أم نشوانا٠٠ أما كوني نشوان فهذا مالا جدال فيه ، واما كوني غاضب فهذا وارد ، لأنني أحس بالانفعال كالنواة داخل تمرة النشوة ٠٠ ولكن لماذا أراني أنفعل ؟ ما السبب ؟ هل لأنني في أعماقي كما لو كنت أريد الانتقام من شيء ؟ ربما كان في أعماقي ثارات كثيرة مبيتة ولكنني لم أجرب لحظة الانتقام أبدا ، ولكن مم أنتقم ؟ لقد أساء الى زعماء كثيرون وأضربى قواد كثيرون ومع ذلك لم أفكر في الانتقام منهم بل انني حين جاءت سيرتهم في مذكراتي تحدثت عنهم بكل حب ولطف وأمانة ٠٠ وجدتها ٠٠ وجدتها ٠٠ سر الانفعال الكامن في شرنقة النشوة هو خوفي من فشل هذه اللحظة التي أعيشها الان ٠٠ انه وحده عذاب أليم ولولا هذا الويسكي الأمريكي العظيم لهدني ثقله ٠٠ ان كان في الأمر ثمة انتقام فيكون في شهوتي الجامحة ورغبتها في الانتقام من الحرمان الكبير !! » ٠٠

ثم انه انتقل اليها بكأسه وجلس فوق حجرها واضعا رأسه فوق صدرها والكأس في حضن الثديين ، وكان ينتفض وتنبعث منه حرارة كثيفة مخيفة ، لكنها احست بضعفه الشديد في هذه اللحظة ، دفعها الاشفاق الى ابداء الرقة فهو مهما كان رجل كبير الحجم قدم لها خدمة ويكفي انه نجاها من حقارة كحكوح وما كان ينتظر لها بجواره من مصير ،ثم تذكرت فجأة بخفقان قلب انها بدون رجل كهذا في الحياة سوف تأكلها الذئاب ، وحسمت الامر في نفسها بأن رضيت ان يلعقها كلب من ان يأكلها ذئب ، ولكن ايهما الذئب

وايهما الكلب : عبد الجبار أم كحكوح ؟ .. هنا لم تستطع الحسم برأى لكنها قالت ان تجربتها مع كحكوح تثبت انه اخس من رأت على ظهر الارض .

وانتبهت فاذا بعبد الجبار قد أباح لنفسه اشياء كثيرة وافعالا كثيرة دون ان تدرى . اذا بها مضطجعة فى مطرحها وعبد الجبار كله داخلا فى جوفها واذا بالكأس يندلق بين ثدييها فيفيقها قليلا ببرودته واذا بعبد الجبار يلاحق الشراب المنسرب بين الثديين فيشربه ويمتصه بنشوة بالغة . ولم تكن قد خلعت قميصها ولا هو ، ولكنها فوجئت بنفسها بين يديه كريشة فى مهب الريح يطوح بها فى كل اتجاه ويضربها فى سقف النشوة ضربات موجعة ، ثور هائج يفح الشرر من عينيه ومن الجنون والعبث مقاومته لكن جنونه كان أخرقا ، كان يلعب بها كالبهلوان وكانت ترى نفسها معلقة فى الهواء أو منكفأة على وجهها وكانت توشك ان تلفظ انفاسها عدة مرات ، وكانت تبعث الشخير واللهاث والاهات العميقة المسترحمة دون جدوى ، ثم اذا بها تصرخ من اعماق جوفها المعبأ بالنار .

لمع الذعر فى عينيه . انحنى فوقها وصار يقلبها فاذا بها كالخرقة بين يديه لكنها جاحظة العينين تنثال فقاقيع الريالة على شدقيها ويخلو وجهها من كل حياة . أمسك رسغها وجس نبضها فلم يجد سوى خشبة أنيقة الصنع تركها فانهارت على الأرض . وضع يده على قلبها ، لا نبض ، لا حركة ، لا حياة . مصيبة . وضغط على شفتيه السفلى فى غيظ . عاد يقلبها ، لا جدوى ، مددها وعدلها وأسبل عينيها وغطاها ثم اندفع يهرول الى الداخل . دخل تحت الدش مباشرة وظل يسلم رأسه لخيوط الماء ويفح ويفتح عينيه ويهز رأسه ثم يتفكر ثم يعود للدش من جديد . دعك نفسه بالماء البارد والساخن حتى يفيق . أخيرا خرج عن الماء وجفف نفسه وخرج بالبشكير ملفوفا حول جسده وهو يتوقع أن يراها جالسة معتدلة فى رقدتها ، لكنه رآها من بعيد وقد تخشبت تماما ، ومع

ذلك اقترب منها وصار يهز رأسها ويدغدغ جسدها ولكن لا حياة لمن ينادى ٠٠ وأدرك انها ماتت ، فانهار جالسا بجوارها خابطا رأسه بقبضته ثم خابطا الأرض بقدمه فى حقد جنونى ، ثم اسند رأسه بين يدية لبرهة طويلة افلتت خلالها من عينة بعض دموع ميتة باردة ٠ ثم انه نهض فى حيوية مفاجئة ودخل حجرة النوم وأخذ يرتدى ثيابه ٠ واذ هو يفك ربطة « الكرافت » ويعيد ربطها بشكل أنسب لمع الخاتم الرخيص فى أصبعه لمعة خادعة جعلته يوقف يده ويعيد النظر فى الخاتم ويتعجب فى نفسه من أن يكون للمعدن الرخيص لمعته البراقة حتى وان كانت خادعة ، ثم ان عجينة وجهه تقلصت ، فترك رباط العنق وهرول الى الشرفة من جديد ، وخلع الخاتم من أصبعه وألبسه أصبع البتعة ثم نظر فيه فوجده غير ملائم على الاطلاق ، لكنه تركه فى يدها وعاد الى حجرة النوم ووقف أمام المرآة يكمل رباط العنق ٠

باب الخرق

★ كيف عاد الجسد الغريب الى أصل غربته :

١

فى تلك الليلة المشئومة كان صاحب السعادة الكلب ميشو لا يزال ينتظر صاحبته فى عربتها الخاصة ــ أقصد فوق العربة ، فمنذ أن جاء أحد الخدم وفتح له الباب ليتهوى ظننت انه سيندفع الى الخلاء كما نفعل نحن ، اذ ما يصدق الواحد منا أن ينفتح أمامه باب حتى يندفع بأقصى سرعته ربما الى غير رجعة . ربما لشعورنا المتوارث بالخوف من السجن . ربما لأن كلاب بنى الأزرق يولدون وفى أعماقهم باب السجن الموصد على الحياة ولهذا فنحن مدربون على التسلق ونط الحواجز وقفز الترع والمصارف كما نحن متعودون على تلقى الضرب باستمرار ودونما سبب . ٠٠ أما صاحب السعادة

ميشو فانه حين انفتح له باب السيارة دلف خارجا فى رصانة وهدوء كقيصر الروم ، ثم أخذ يحوم حول العربة ناصبا أذنيه شاهرا كل حواسه ، وكان عكر المزاج لحظتها حقا ، يتحرك فى عصبية وينبح بصوت مهذب ثم آبت ثورته الى صمت دبلوماسى مريب ، وكان قد صعد الى مقدمة العربة واستراح فوقها كأنه يفكر بعمق شديد فى أمور خطيرة • أما أنا فان خصلة الصياعة والشمشمة بحثا عن الرزق وقتلا للفراغ قد دفعتنى الى اقتفاء أثر سيدتى وقد نجحت فى التوصل اليها بحيل يعجز عنها صاحب السعادة ، حيث شممت رائحتها فى الشرفة المطلة على الحديقة فتسلقت جدرانا وأشجارا ثم أقعيت على حافة الشرفة مباشرة فرأيت كل ما حدث وبشكل تفصيلى وقد اقشعر بدنى وأماتنى الذعر فى جلدى ، ولم يكن قد بقى فى من علامات الحياة سوى الشعور بالحزن العميق الممض ، وتأكد لى أننا معشر الكلاب الضالة من بنى الازرق نرى كل هذا الخرق لأننا كلاب ضالة لا قيمة لها ولا سعر حتى وان كنا مثقفين موهوبين ، الضلال فى الحوارى كالضلال فى القصور يفقد الانسان فيه كيانه ويتبدد من كثرة ما يرى ـ أقصد الانسان الكلب أو الكلب الانسان • ليست هذه تسمية من اختراعى ، ولكن الواحد منا يكون انسانا حين يعلن احتجاجه وبكل قواه على كل ما يمكن أن يهدر انسانيته ، ويكون كلبا حين يصبح جزءا من الخرق لا يتجزأ ولكم سألت نفسى هل انسلخ الانسان فى عن الكلب أم ضاع ولم يبق سوى الكلب ؟ لكننى لم أصل الى جواب حاسم ، ولولا وقوعى بين شقى هذا الصراع لما رويت لكم هذه القصة من الأساس • ومنشأ الصراع أننى دون معظم كلاب بنى الازرق لازلت أشعر بالقدرة على عدم الاعجاب ، وعلى التصريح به فى أى وقت فى أى ظرف أمام أى أحد ، وذلك يسبب لى ضربات ببوز الحذاء وأحيانا فى بطنى وفى كل موضع مؤلم فى ولكننى منذ أن رأيت أمى تهبط الى المستنقع النتن مشجوجة الرأس دون ذنب جنته وأنا أدخر فى

أعماقى رفضا غامضا لكنه قوى مرذول ، وكلما تذكرت ذلك المشهد البعيد تتيقظ فى نفس عيون تريد أن ترى الكثير واذان تريد أن تسمع المزيد ..

كانت هذه الخواطر تأكل فى رأسى كألسنة اللهب فيما أنا مقع على حافة الشرفة ، حين تناهى الى سمعى صوت صاحب السعادة ينبح بقوة وانفعال مخيفين فنزلت أجرى نحوه لأحكى له ما حدث ، ولكننى فى منتصف الطريق بين الأشجار الكثيفة وأحواض الزهور فوجئت برصاصة تنطلق من مكان مجهول وتصيب صاحب السعادة فى رأسه مباشرة ، فعوى مرتفعا فى الهواء علو شجرة ثم هوى فوق الأرض ينتفض . فتسمرت فى مكانى أرتعد حتى رأيت ولدا خشنا أغلب الظن انه بستانى يتقدم ويجر صاحب السعادة من سلسلته المثبتة ، فأخذت أرقبه من بعيد فرأيته يغيب صاحب السعادة فى حفرة عميقة ويهيل عليه التراب .. فعرفت ان نفس المصير ينتظرنى وأخذت أبحث عن وسيلة للخلاص دون أن يدرى بى أحد . لكننى ما كدت أندفع بحثا عن منفذ حتى تعثرت فوقعت فانطلقت منى صيحة شدت انتباه البستانى اللحاد فنظر الى باستهانة وصاح : « امشى » ، فتسمرت ثانية من الدهشة وقد أحسست بأننى لا قيمة لى حتى يصبح لقتلى قيمة ، ولعل البستانى لم يتلق أمرا باغتيال أمثالى من الكلاب المنسحقة حتى ولو كانت تعرف زبدة الأسرار ، ذلك ان السر ان لفظه شخص مهم صار شيئا هاما وخطيرا أما ان لفظة ضال منسحق مثلى فهو تخريف عامة وهو أنيميا وضيق أفق . لحظتئذ دهمنى شعور قوى بأننى يجب أن ألحق بصاحب السعادة فأشاركه نفس المصير ، وبأننى يجب أن أعرض نفسى للقتل عامدا ، يجب أن أنبح وأثير فى الكون ضجيجا يفضح هذا الخرق العظيم ويشهد العالم عليه . وقلت لنفسى : اننى اذن سأفضح المجتمع الازرقى وأكشف عن نقاط ضعفه للعدو الذى يتربص به ليدرس كل صغيرة وكبيرة فيه .

وشعرت بكثير من العار يشتد أواره فى صدرى ، ثم قلت اننى حين أصرخ لن يكون هدفى هو الفضح بقدر ما هو طلب للنجاة من كائن أقوى ، فحيث كان المفروض أن نقوم نحن بصنع النجاة بأنفسنا أصبحنا لفرط كلبيتنا نطلبها . فلما شرعت انبح لم أجد صوتى ، لم أجد الا صوصوة عاوية من الجوع والألم تطلب الطعام قبل أن تتمكن من طلب النجاة . ظللت مسمرا فى موضع عثرتى حتى رأيت البستانى اللحاد مقبلا نحوى فأخذت أرتعش وأغوص فى الأرض دون حاجة الى حفرة ، فاذا بالبستانى اللحاد يمر بجوارى غير عابىء بى فيدوس عفوا فى بطنى فأصرخ مدافعا بأنيابى فيركلنى فى بوزى ركلة سريعة ثم يواصل السير بعيدا عنى .. فعرفت ان من حقى التجوال كيف أشاء . قطعت الحديقة جريا وهرولة واكتشفت ان لها عديدا من الأبواب السرية والسحرية واننا دخلنا من غير الذى دخل منه كحكوح ولهذا فان كحكوح حين كان هنا منذ ساعات قليلة لم ير سيارة البتعة ولا كلبها لأنهما كانا فى الجانب الخلفى ، واستنتجت ان هذه الأبواب وهذه الزوايا أعدت لتسريب وفود من وراء ظهور وفود ، فقد يفضى بك هذا الباب الى طريق بينه وبين الطريق الذى يفضى اليه الباب الآخر عشرات الأميال .

وكنت قد وجدت نفسى خارج باب يفضى الى طريق لم أتبينه جيدا ، فأخذت أحاول التعرف عليه فاذا بى أرى سيارة البتعة تخرج من أحد أضلاع الحديقة لتنطلق فى طريق عمودى يفصله عن الطريق الذى أشرقت عليه حقول عريضة ، كانت رائحة سيدتى تنبعث من العربة رغم سرعتها الشديدة ، فاندفعت أجرى خلفها مخترقا الحقول . أدركت استحالة اللحاق بها فاستدرت عائدا الى حيث يوجد جثمان سيدتى . ورأيت سيارة قادمة على الطريق الثالث المواجه للضلع الثالث أغلب الظن انها سيارة اسعاف كان الباب مغلقا لكننى تسللت من تحت الأسلاك الشائكة ودخلت فما

ان وصلت الى الساحة الخضراء حتى رأيت سيارة الاسعاف تزحف داخلة ساحة الفيلا ، عرفتها طبعا من شكلها ومن شاراتها الحمراء والكتابة التى عليها ، يقودها سائق عجوز ممرور مكدود يرتدى كاب الاسعاف الأحمر وحلتها الصفراء ، وبجواره الاسطى حسنين ٠

نزل الأسطى حسنين وراح السائق العجوز يعدل وضع العربة لتكون مؤخرتها فى مواجهة باب البهو ٠ واندفعت أجرى الى أن وصلت حافة الشرفة ونظرت فيها فوجدت أن جثمان سيدتى قد ارتدى ثوبا شديد التواضع تفوح منه رائحة غريبة نفاذة لا أعرف ان كانت رائحة القدم أم رائحة العثة أم رائحة الخزين ، على طراز نصفه فلاحى ونصفه بندرى ، فيه صدر مشغول بالترتر ، أما رأسها فقد التف بطرحة قديمة من الحبر الاسود ، فتغيرت معالم سيدتى تماما وخيل الى انها الآن تستعد لتصوير لقطة جديدة فى فيلم نهايته الموت لحياة حافلة بالغرائب والمدهشات ٠ ثم اننى تأملت منظرها محاولا تحديد شخصيتها فى هذا الفيلم فوجدتها شخصية « غازية » من غوازى الموالد والافراح تحشمت على سفر فأدركتها المنية ٠ انفتح الباب ودخل الأسطى حسنين ٠ وكان ضوء اللمبة الصغيرة المنبعث من ركن مجهول يصنع أشباحا ترسم أسرابا من النساء المتشحات بالسواد يلطمن الخدود ويصوتن فى حرقة ٠ اخترق الأسطى حسنين ظلالها وتقدم نحو سيدتى فطرح عليها ملاءة بيضاء لففتها ثم حمل جثمانها على ساعديه واستدار خارجا ٠٠

بقفزة واحدة صرت فى أرض الحديقة بين أشجار الموز الملساء ٠ هرولت نحو العربة فرأيت الهدوء الشديد يعم كل شىء وليس من أحد فى هذا السكون حتى السائق القابع خلف عجلة القيادة ينتظر فى الظلام لم يكن موجودا ٠ كان باب العربة الخلفى مفتوحا ٠ قفزت الى داخل العربة لأرى دكتين من الخشب المنجد متقابلتين ارتكنت تحت أحداهما ودفنت نفسى فى الصمت والظلام وبعد برهة زحف جثمان سيدتى يرتطم بأشياء فى العربة حتى تمكن

الأسطى حسنين من اراحته على احدى الدكتين ، ثم هبط الى الأرض وصعد مرة أخرى بحقيبة كبيرة لكنها قديمة وبالية ، حقيبة من الجلد الطبيعى ذى الرائحة لكن جوانب الغطاء منفرجة والاقفال خربة ولذا فهى محزمة بدوبار غليظ محكم ، أما اليد فقطعة من الجلد ملفوف عليها عشرات الخرق المربوطة فى الحقيبة باحكام ٠ وضع الحقيبة على الدكة الأخرى ثم هبط الى الأرض وأغلق باب العربة وذهب الى كابينة القيادة فجلس بجوار السائق ، وسمعت خرخشة ورق رصين وصوت السائق يقول : «ما هذا ؟» ، وصوت الأسطى حسنين يردد فى عطف أخوى : « هدية من البك ٠٠ جزاء ما تحملت المشقة معنا فى هذا المشوار » ٠ قال السائق فى غبطة : « أهذه التخانة كلها جنيهات ؟ » ، قال الأسطى حسنين : « انها عشرات يا بقف ٠٠ سوف تعيش أياما طويلة فى بحبوبة » ٠ قال السائق: « الله يكرمه ٠٠ ولكن لماذا كل هذا التعب ؟ » ٠ قال الاسطى حسنين : « يا رجل يا طيب ٠٠ سعادة البيك حين يعطى لا يقل عن هذا ولا يصغر قال السائق فى امتنان : « ابن عز ٠٠ ابن أصول ٠٠ يشعر بحال الفقير ٠٠ اللهم أكرمه وزده من فضلك»٠٠

ثم ان السائق أدار « مارش » العربة وعدلها ثم أضاء النور واندفع خارجا ٠ وحين اعتدلت السيارة على الطريق الطوالى وأخذت سرعتها الرابعة أشعل السائق سيجارة روثمان وقال : « لكن ايه الحكاية بالضبط يا أسطى حسنين ٠٠ مالها الست ٠٠ حنوديها مستشفى ايه ؟٠٠ عشان لابد أفوت أخد زميلى من حتة قريبة» ٠ قال الأسطى حسنين وهو يشعل لنفسه سيجارة هوالآخر : «شوف بقى ٠٠ لا مستشفى ولا يحزنون ٠٠ الحكاية باين عليها مش مستهلة ٠٠ حاكم الست دى والعياذ بالله عندها المرض الى اسمه : الصرع ، زى الى كان فى تمثيلية القرين فاكره ؟ ٠٠ بعيد عنك تجيلها الحالة تفقد الوعى قول ساعة قول ساعتين (ثم هامسا فى لهجة ودودة) بينى بينك أصلها من قرايب البيك بس من بعيد

قوى قوى .. تقريبا أهلها كانوا بيعرفوه وهو لسه فقير .. فلما ربنا كرمه فضل يعطف عليهم .. الناس لمؤاخذة معندهاش مخ .. ان كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله .. ده راجل ماهش فاض لوجع الدماغ كل ساعة والثانية .. هو قادر يطلب لها أجدع دكتور فى البلد ، ولا يوديها أحسنها مستشفى .. لكن هو بينى وبينك عمل بالعند المرة دى حلف ما هو عامل لها حاجة .. أصلها بقى محترفة الحكاية دى .. بتستغل ضعفه وكرمه .. كل يوم والتانى تيجى تعمل التمثيلية دى قدامه عشان يديها ثمن الدوا والعلاج الذى منه .. داغير اللى هى بتأخذه كل شهر .. هه .. ربنا يستر على عبيده » . وقال السائق العجوز : « بنى آدم عينه فارغه ما يملاهاش الا التراب .. أنا كنت ناوى أقوم أسعفها بأى حاجة لكن مادام هى غاوية تمثيل سيبها بقى .. داهية تاخدها » . ثم اندفعت السيارة تنهب الطريق نهبا .

٢

توقفت العربة بعد وقت طويل من السير . ونزل الأسطى حسنين واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وفتح باب العربة فازددت انكماشا فى ظلمتى . فانحنى هو ودخل فأخذ الحقيبة ومضى فتسللت وراءه وهبطت فى أثره دون وعى منى . لم يرنى . لأننى تسحبت الى بعيد كأننى من أبناء هذه المنطقة . رأيت الأسطى حسنين يختار للحقيبة وضعا مناسبا فى حوض مستطيل تبينت فيه حوض ساقية قابعة تحت شجرة توت عجوز كبيرة ، ثم انه عاد الى السيارة فغاب فيها قليلا ثم خرج حاملا على ساعديه جثمان سيدتى ، ثم نادى بصوت ودود مرتعش صائحا : « يا جماعة يالى هنا .. يا أم الخير » ، فزحفت الى حيث كان يقف مناديا فتبينت فى الظلام بناء من أربع جدران بالطوب النيىء مسقوفة بجذوع الأشجار . دخلتها فلم أجد بها أحدا على الاطلاق عرفت ان هذا

البناء هو ما يقيمه الفلاحون فى الحقول ويطلقون عليه اسم « الطيارة » لكى تستريح فيها مواشيهم ودوابهم الشغالة . وعرفت أيضا ان الأسطى حسنين يعرف انها خالية من السكان فى هذه اللحظة وانه يموه على سائق العربة التى وقفت الى بعيد جدا بحيث حين ينحرف الأسطى حسنين الى الساقية لا يراه من يكون فى العربة . ثم ان الأسطى حسنين بعد أن نادى مرتين تراجع خطوة ووضع الجثمان فى حوض بئر الساقية مسندا رأسه على الحقيبة ثم وقف صائحا : « اتمسوا بالخير بقى .. لا والله ما أقدر أستنى ولا دقيقة .. تصبحوا على خير » ، ثم اندفع مهرولا حتى وصل الى العربة فركبها بجوار السائق . واندفعت العربة تغوص فى الظلام وعجلاتها تطلق صريخا ملتاعا ..

اندفعت الى جثمان سيدتى . صرت أنبح بكل قوتى . فلما لم يجاوبنى أحد رابطت فوق مدار الساقية بجوار رأس سيدتى مباشرة وأخذت انتظر الصباح .

٣

يبدو اننى غفوت قليلا أو كثيرا لا أدرى ، لكننى حين فتحت عينى كانت الشمس تتوسط عين السماء وتصب قيظها فوق جثمان سيدتى الذى غطى بأشياء جديدة وبعشرات البشر رجالا ونساء وأطفالا وخفراء وشرطة . وكانت الحقيبة قد نزعت من تحت رأسى سيدتى وانفتحت وراح رجال الشرطة يفرزون ما فيها فلم يجدوا سوى أشياء غريبة : خلخال فضى قديم ، مكحلة ، زجاجة عطر رخيص من نوع قديم جدا ، عقد من الكهرمان الأصفر ، قميص نوم مشغول بالترتر ، قسيمة زواج . تناولها رجل الشرطة بلهفة وانتصار كبيرين ووقف يقرأها ثم صاح معلنا ان صاحبة الجثمان هى : « بسيمة أحمد ربيع » ـ زوجة « هريدى خليل هريدى » .

٤

هنا فقط اهتزت الأرض وارتفع اوارها بالصراخ والنحيب. الجميع تقريبا فيما عدا الشرطة يبكى بحرقة . نظرت فرأيت ثلاثة أجيال تبكى . صيحات تتعالى حول الجثمان : « أخيرا رجعت لبلدها .. شوف الدنيا .. بعد هذا العمر الطويل تعودين يا حبيبتى .. قلنا أصابك العز وابتسمت لك الدنيا .. فين هريدى زوجك وفين أيامه .. فين أمك يا حبيبتى » . هكذا كانت النساء تقلن . لكن أصواتهن سرعان ما انداحت فى الأفق البعيد أمام أصوات رجال صاروا يصيحون فى غضب : « ملعونة .. فاجرة .. زانية .. هاربة .. وهذه هى النهاية المحتومة » . ثم صاح أحدهم فى غضب : « صاحب اللحم يلمه » . فصاح رجل الشرطة فيه : « صاحب اللحم يتقدم ليأخذه منا » . وكان من الواضح ان النيابة هى الأخرى موجودة ، اذ تلقت عربة الاسعاف أمرا بحمل الجثمان الى الطبيب الشرعى فى المستشفى ..

وحين حملتها عربة الاسعاف بدونى صرت أعوى من كبد مسحوقة والناس ينظرون نحوى مشفقين قائلين : « دا باين عليه كلبها .. يا حرام » . وهنا ، أحسست برجل الشرطة ينظر لى فى تمعن ثم ينسانى ثم يعود فينظر الى مدققا ثم يمضى الى العربة ، لكنه قبل ان يركب استدار من بعيد وأرسل الى نظرة كأنه يوشك بعدها أن يطلب بطاقتى الشخصية .

٥

أهل البلدان الأزرقية لا ينبحون على أبناء بلدانهم المجاورة حيث هم أخوة فى النهر ، لا ينبح ولا يثير الضجيج والفزع سوى الكلاب الصائعة التى تتوهم انها قد وجدت لنفسها مستقرا هنا أو هناك ، فلا تجد لديها وثيقة واحدة تحميه بها سوى النباح القوى الأجش الأجوف لدى رؤيتهم لأى ظل وافد ، حينئذ تلتم كل الكلاب

الصائعة دفعة واحدة لا بمشاعر الكتلة بل بمشاعر الجبن الفردى يندفع مدافعا عن شيء استلبه · قصر الكلام اننى وقعت فى قبضة الكلاب الصـــائعة ، فلم ترحمنى وشرحت جلدى ونهشت أنفى وشفتى · لم ينقذنى من براثنهم سوى « مأمون » وكان يمشى ورائى منذ شرعت أمشى فى أرض لا أعرفها ولا يحمل أنفى أى ذكريات فيها ولولاه ما دخلت البلدة ، اذ أنه ـ وكان يسير بين كوكبة من صحابه عائدين من الفرجة على جثة الفقيدة ـ رأيته دونهم جميعا يبادلنى النظرات المتأملة الرصينة المستثارة ، فلما تسللت شخصيته الحبيبة الى أنفى انتميت اليه فى الحال وأديت رقصة الولاء حوله وحده فأرسل ابتساماته المشبعة بالامتنان والحب ثم أشار لى ان أتبعه فتبعته ومضيت أستمع الى حديثه مع الصحاب الى أن فوجئت بنفسى بين دائرة الفزع التى خرجت منها متنخنا بالجراح ، أكاد التصق بذيل جلباب « مأمون » كلما لمحت كلبا صائعا شرسا ·· فما ان آب المسير الى بيت صغير متواضع حتى راح مأمون يطيب جراحى بمادة حمراء ، وقدم لى الطعام من طبق كان يأكل منه معى لقمته بلقمتى ·

شاب فى العشرين من عمره لا يزيد · فقد ولد كما سمعته يقول لصحابه فى العام الواحد والستين بعد التسعمائة بعد الألف ، وكانت سنه حوالى ست سنوات حين كان دوى القنابل اليهودية تشرخ سماء قريتهم وتشرد عصافيرهم ومواشيهم ومشاعرهم · أيامها ـ يقــول ـ مات أخــوه الطفل فى مدرســـة القرية المجــاورة بحر البقر وكانت الطائرات اليهودية الصهيونية قد تبولت على المدرسة قنابلها · يذكر انه ظل سنوات طويلة يرتعب كلما أقبل الليل حيث كانت جثة أخيه الممزقة تطلع له فى كل ركن من دماغه حتى لقد كانت أمه تولول قائلة : « واحد مات من القنبلة والثانى حيموت من الخرعة » ، « وقد عالجونى قدر ما استطاعوا حتى كففت عن الصراخ بلا سبب وكففت عن الرعشة ولكن هل تراهم عالجونى

من التذكار ؟ ان صورة أخي سوف تظل تطلع لى فى الليل ولسوف استطيع التحاور معها بكل اللغات والمشاعر » ..

وكنت ليلتذاك أقعد أمامه على مصطبة الدار الخارجية والقمر يواجهنا فوق شواشى النخيل البعيد القريب ، حين قطعت عليه الحديث عجوز حيزبون يرتعد الانسان من منظرها لمجرد شعوره بأن هذا الجسد الموغل فى القدم لا يزال يحيا بكل حيوية ويعيش وجوده كاملا ، امرأة لا يقل سنها عن الستين ان لم يكن أكثر دخلت ـ أقصد خرجت علينا من الدار الى المصطبة ـ حاملة صينية الشاى عليها براد وكوب نظيفين جدا ، ثم تمهلت ناظرة الى بود عظيم ، استدارت برهة حيث وضعت الصينية أمام « مأمون » على المصطبة ثم عادت ناظرة الى من جديد تتخايل على ملامحها العجوزة المتكرمشة أعمق أخاديد المودة ، فأحسست كأنها تريد ان تنفرد بى الى ما لا نهاية ، فانتشيت وشرعت اؤدى رقصة الولاء لها ولكننى تذكرت اننى يجب ان احترم جلسة مأمون ومالها من جلال فى نظرى فكففت واكتفيت بالتثاؤب المادل من فرط اشتياقى للمعرفة ، فما ان أعطتنا العجوز ظهرها ومضت تركض فى الداخل حتى أشار اليها مأمون قائلا : « انها أم بسيمه » . هززت رأسى فى ملل ثم رنت الكلمة فى أعماقى فدوت ، فانتفضت واقفا منتصب الأذنين مرفوع الذيل كأننى أقول له : « ماذا قلت ؟ » . فاذا بابتسامة من الثقة تتسع على وجهه ويكرر : « أم بسيمه أحمد ربيع .. صاحبة الجثة التى آبت اليوم الى مسقط رأسها » .. لم أتمالك نفسى فاندفعت مهرولا داخل الدار أنبح بصوت عال يقودنى أنفى الى مطرح العجوز ، وكانت قد تكورت جالسة فى قاعة جوانية تحتلها مصطبة هائلة بحجم القاعة كلها فيها فرن خبيز وحمام غسيل ، قفزت فوق المصطبة أهوهو نحوها أكاد أرتمى فى صدرها ، الحق انها رغم قدم جسدها تفوح منه رائحة جذابة للغاية ، رائحة تبقيك بجوارها وقتا طويلا تتغذى خلاله أعصابك بالهدوء العظيم . ولما تحاشت ان ألمسها وصارت تهشنى بعيدا بغلظة مكشوفة أيقنت انها تريد الابقاء

على وضوئها لتصلى به فروض العشاء من ديون سابقة ، فارتددت عائدا الى مأمون وقد أحسست ان الدار أصبحت دارى ، اننى انتقلت فقط من دارنا التى فى القاهرة الى دارنا التى فى هذه القرية البعيدة ..

استقبلنى « مأمون » فى مرح ثم أشار لى بالجلوس فجلست بجواره هذه المرة وقد انتابنى ـ لأول مرة أيضا ـ احساس الكلب الأجنبى الذى لا يطالب بالاحتفاظ بمسافة بين سيده وبينه ، الكلب الأجنبى يعامل كسيد هو الآخر وربما أفخم وأفخر ، وها انذا أحس ان مأمون قد منحنى هذا الحق ببساطة . مددت بوزى نحوه فيما هو يداعبنى وفى عينى نظرة متلهفة تقول له : « ولكن ما علاقتك يا مأمون بأم بسيمه ؟ » وكان على وشك ان يجيبنى لولا ان ظهر الاهتمام فى عينيه فجأة ، فنظرت فى مسيرة عينيه فرأيت كهلا مقبلا نحونا محنى الظهر تحت جوال منتفخ . يمشى فى تؤده ولقدميه وقع صلب يهز الأرض . اقترب منا فاذا بوجهه رغم عينيه الصقرتين يقول انه قد تجاوز السبعين من العمر ، وتقول أطرافه وصلابة ملامحة انه يدخر فى نفسه عمرا جديدا يعيشه من أول وجديد . ألقى السلام علينا ثم دخل وتباعدت هزة الأرض تحت خطوه الثقيل ، وحينئذ قال « مأمون » مشيرا الى الداخل « انه جدى .. ووالد هريدى » ، ارتعدت فرائصى وانتفضت واقفا منتصب الأذنين كأننى أقول : « ماذا قلت ؟ » ، فاستطرد قائلا وفى عينيه نظرات جنونية جيبة : « نعم هذا هو والد هريدى زوج بسيمه .. وهو نفسه حموها وزوج أمها وهو أيضا جدى أو والد والدتى .. ذلك ان بسيمه هى خالتى شقيقة أمى التى أنجبتها أمها من والد هريدى زوج ابنتها بسيمه !! » .

فشخت حنكى عن أخره وصرت ألعق شفتى دهشة أو ابتهاجا لا أدرى ، ومأمون يضحك ويقول : « هو الآن يشتغل أشغالا كثيرة .. كان فى الأصل صيادا .. وحين أقول الأصل فانما أقصد

حدود عمرى فقط أما ما قبله فسيتضح ان لجدى أصولا أخرى أبعد من ذلك بكثير ٠٠ فكلما كبرت ظهر لى أن هذه المهنة العريقة ليست مهنته انما مهنته الأصلية هى كذا ٠٠ ولو عددت له كلمة الأصلية فى مهنة لفاقت كل تصور ٠٠ هو الآن شغلته الصيد ٠٠ فى الظاهر صيد السمك بأحد القوارب التى يؤجرها ليوم أو يومين أو ثلاثة ، ليرسو بها على شاطىء « بور سعيد » ويفرش بأسماك طازجة ويعود بالقارب محملا بالبضائع التى يبعيها فى العزب والقرى لناس يعطونه فيها عرقه ويأكلون من ورائها عيشا ٠٠ هو أيضا يبيت كل يوم وقد تعشى أربعة وعشرين قيراطا ٠٠ ومع ذلك ٠٠ لا يرضى ولا تعجبه الأوضاع ٠٠ تنهال الفلوس بين يديه ويشترى مروحة بالكهرباء وثلاجة وغسالة وجهاز تسجيل ويلبس من شغل المكن الأجنبى ومع ذلك يشتم ويسب ويتهم زماننا بأنه خسيس قليل الخير بياع لكل القيم ٠٠ تسليتى الوحيدة هو فى هذه البلدة الهامدة الأمنة أمن الكلاب » ٠ قاطعته قائلا : « لا تعب يامأمون »، لكنه تجاهل هوهوتى قائلا انه يتسلى بجده اذ يشاغبه بالحديث فى الليل حتى يثير ثائرته ، لكنه ـ مأمون ـ يتجنب اثارته أكثر من اللازم اذا كان فى حالة سكر ، اذ هو يستحضر من «بور سعيد» أنواعا لا حصر لها من الويسكى والكونياك يبيع بعضها ويجرع الآخر وحده ، فلما يسكر وحده يظل يبكى بكاء حادا صامتا لساعات طويلة كأنه يؤدى صلاة عجيبة ، وربما لهذا يتجنب السكر وحده ولكنه دبور كبير اذا انساق وراء نفسه أوقع بعشرات النساء من أى مكان يخطر على البال وهو مستعد لمضاجعتهن جميعا فى ليلة واحدة فى خيط واحد كأنه يريد انجاب بلد بأكملها من رجال غيرنا وغير كل هؤلاء ، رجال كما يقول تجرى فى دمائهم أنهار الغيظ لا تقف أمامها سدود الا فى حدود ، الطريف الطريف أن جده الذى يقول هذا القول يعرف ان دماءه التى يدلقها فى النساء تضيع هدرا ، فالنساء الضائعات الضالات لا يلدن ٠

ثم ان مأمون جرع كوبة الشاى على رشفات مسموعة الصوت

فى لذة ، ونظر فى وجهى فأحس بأننى مشتاق لمعرفة الكثير عنه هو نفسه أولا ٠٠ فابتسم فى خجل كمن يقدم نفسه لأحد النجوم اللوامع ، وقال انه تخرج فى معهد الخدمة الاجتماعية ، ولكنه عين فى مدرسة فى المدينة مشرفا اجتماعيا وأمينا لمكتبتها ٠ ذلك أن مأمون يحب الكتب ويعشق الكلمة لكنه ضاق بالحياة فى قريته مع حبه الشديد لأهل قريته ، لقد اكتشف البراءة فى قصص الكابتين وفى حياة كل من جدته وجده ، اذ هما يتحدثان عن كل شىء حتى أعدى الأعداء ببراءة تامة ، ولكن كيف اكتشف براءتهما ؟ لقد اكتشفها ـ ويسدد أصبعه نحو فمه ـ بالقراءة ، فحين قرأ عرف ان جدته وجده وكل هؤلاء الناس لايعرفون شيئا بل انهم يسلمون رقابهم للجزار دون أدنى خوف ، ان هناك ناس لا تعرف الخوف ليس لأنهم شجعان بل لأنهم من فرط جهلهم لا يعرفون ٠

ثم اعتدل فى جلسته قائلا كأنه يحدث صديقا أثيرا :

ـ « للعلم فان جدتى هذه لا تعرف الآن ان جثة ابنتها بسيمة قد عادت الى بلدتها بعد غيبة ما يزيد عن ثلاثين عاما ٠ لن يقول لها أحد ممن رأوها انهم رأوها ، لسبب بسيط هو انها قد أصبحت طرشاء لا تسمع شيئا على الاطلاق ولا تتذكر شيئا على الاطلاق ، ولست أعرف كيف نسيت كل شىء الا آيات القرآن الكريم ٠ يحلو لى ان أجلس لأراقبها حين ترفع صوتها عفوا بالقراءة عند الصلاة ، فأجدها لا تخطىء فى حرف واحد وتنطق الألفاظ سلسه ٠٠ أما جدى فعلى شطارته فى أعمال الكسب والتهريب يحلو له ان ينسى كثيرا من الأشياء خاصة ما يتصل منها بالغائبين ، ان مسألة الغائبين فى نظره كلمة واحدة : مقدر ومكتوب ، كل من احتجزه ستار الغيب ، وكل غائب له الله ٠ هكذا يقول لك فان لم تفهم أشاح عنك الى حديث آخر أكثر وضوحا ٠٠ دع الغائبين وشأنهم وأبدا

معه أى حديث تشاء تجد سميرا لا نظير له ينضح حكمه وفلسفة ، أحيانا يخيل الى انه هو الذى ألف سيرة عنترة والزير سالم وذات الهمة والف ليله وليله ·· ولقد فهمت جدى فهما عظيما فعرفت انه يسمع ما يحبه ويغلق أذنيه تماما عما دون ذلك ، لكنه يفعل ذلك بشكل عجيب وبهلوانى ·· منذ بضع ليال كنا نجلس أمام التليفزيون صدفه ، مجاملة لضيوف شرفونا بالزيارة من بلدة أخرى يدمنون مشاهدة تمثيلية الثامنة والربع ·· فلما جاء موعدها خيل لهم اننا لا نملك جهازا ، فأشرنا اليه قالوا لا بد انه مجرد تحفه ، أوريناهم الفاتورة فقالوا لا بد انه خرب ، قلنا لا ، فقالوا كيف يكون لديكم جهاز ولا تفتحونه على التمثيلية ؟ قلت لهم اننى أكون أحمقا لو كان عندى رجل كجدى ثم أتركه وأتفرج على التليفزيون ·· فلووا بوزهم عجبا وولوا وجوههم شطر الشاشة الصغيرة منجذبين الى هدير الاعلانات التى لا شك انهم سمعوها عشرات الآلاف من المرات فى نطاق زمنى قليل ، الأرجح عندى انهم لا يستمعون ، فهم كجدى تقريبا لا يستمعون الى ما لا يريدون حتى وان كان جذابا ، تراهم ان زاد الشىء عن حده انقلب الى ضده وأغلقوا عنه الأذن ، فطالما انهم لا يملكون ايقـاف الاعلان فانهم يوقفونه من عندهم ·· لله ما أفكه جدى لحظتذاك : طلع علينا المشهـــد مثيرا مخيفا ، وجوه حمراء فى لون العدو ترتدى الكاب العسكرى ، ووجوه أخرى بيضاء فى لون الحملة الصليبية تضربها ، وصخرة تهبط فوق رءوس فتدمرها ليظهر وجه خواجه طرى الملامح والعود قائلا بلهجة أطرى مثيرة للشبق :« شوية شوية ·· شويبس أهى جايه » ·· حينئذ صاح جدى وقد وقف فى ابتهاج منبسط الملامح كأنه صغر خمسين عاما ، وارتفع صوته الشارخ : « مدد ·· مدد يأكل من غابو الكيلا يغيب القمر » · فضحكنا جميعا وقد ارتجفنا من المفاجأة : « ماذا يا جدى ·· هل جاءتك الحالة ؟ » · فأعـاد الصيحة مركزة رصينة كأنها صوت الزمن الأبدى لا مجال لدحضه :

« هذا هو صوت المدد ·· هذا هو صوت الأمل أخيرا نطق » ·
تبادلنا النظر فى توجس من ان يكون قد خرف بمعنى الكلمة ·

« لحظتذاك أدركنا ان جدى فقد البقية الباقية من عقله ، لولا اننا كنا ننظر فى وجهه فنجد علامات الجد الشديد طافحة عليه · فيما يقول : شـوية شـوية القـدس اهى جـايه ! ثم اذا بالتمثيلية تنتهى وتجىء الاعلان وراءها مباشرة ليضمن انه حاصر المشاهدين دلالة على جلل الحدث الذى يعلن عنه · فرفعنا صوت التليفزيون عن أخره ليسمعه جدى ، لكنه أبدا لم يستمع الى كلمة شويبس هذه واصر على تعديلها بكلمة القدس فياللعجب العجاب منك يا جدى » ·

ثم ان مأمون صب لنفسه كوب شاى جديدة بعد أن دلق بقايا الأولى فى ركية النار ، وواصل الحديث لنفسه قائلا :

— « فهل ترانى بعد ذلك أقول لجدى ان بسيمة زوجة ابنه هريدى وابنة زوجته هو قد عادت اليوم جثة متهتكة لا تحمل من متاع الدنيا سوى محتويات صرتها القديمة التى ذهبت بها ؟ هل أقول له ان خالتى المسكينة قد عادت كما ذهبت مع تبديل واحد فقط هو ان نصف الخرج التى كانت تصر فيها أشياءها قد صارت الى حقيبة جلدية قديمة ؟ لكم أنا الآن مشوق لمعرفة ماذا سيطرأ على جدى حين يعرف ان نصف الخرج لم يعد معها · لقد ظل جدى الى زمن قريب يتحدث عن حسرته بضياع الخرج الذى أخذته هى معها لأنه كما يقول قد رافقه فى رحلات طويلة عاشره خلالها بالمعروف الجميل فلم يـذب أبدا ، يحشر فيـه الرباب والعيش والحبوب والفرش والغطاء ويركب فوقه ، حتى الآن لم يفرط فى الرباب ولو كان الود وده لاحتفظ ببقايا الخرج الأصيل الى جواره · جدى لم يكف عن الحديث عن نصف الخرج الضائع الا بعد أن طرأ علينا شغل البحر والبضائع المهربة ·

رفعت رأسى وأطلقت ثلاث هوهوات رقيقة خشنة معا كأننى أقول له : « بالراحة شوية ·· صبرك بالله قبل أن أموت فى يديك

من فرط الألم والدهشة أو أتحول الى أبله من فرط الذهول » ٠ فاحتوى فكى بيده وصار يربت بالأخرى على رأسى ويقول ضاحكا : « حلمك انت على ٠٠ مانا لازم أتكلم ٠٠ حاموت لو ما اتكلمتش ٠٠ مش لاقى حد أكلمه ٠٠ واحده طرشه والتانى حاطط مخه فى مخزن والقفل مصدى ٠٠ ان شاء الله سنة ولا اتنين واخلص من مشكلة الجامعة اللى أنا منتسب اليها وأتفرغ لكتابة القصص والروايات ٠٠ بعد ما أتخرج من كلية الآداب حاقعد أكتب روايات للصبح ٠٠ وساعتها أبقى لقيت اللى أتكلم معاه » ٠ مددت رقبتى وفتحت فكى عن آخرهما كأننى أعلن يأسى من فكرة الكتابة هذه ومن جدواها ٠ فأطلق سراح رقبتى من تحت أبطه وشرع يواصل الحديث كأنه يتمرن على كتابة رواية سوف يكتبها فى القريب العاجل ٠

باب القنطرة

★ الشعب الأزرقى وكيف يخرج من جذوره :

١

قال مامون :

ـ « العجيب ان غياب بسيمة لم يشغل البلدة يوم تخلفت عن المجيء من المولد فى ذلك الزمن البعيد . وهكذا يقولون لى . ولما رأيت ان البلدة كلها تحمل فى ضميرها حكاية بسيمة وهريدى لعدة أجيال وجدت من العار الا أنشغل بها أنا الآخـــر ، فما ان شرع الوعى يطاوعنى فى فهم الاسرار وجئت أسأل كلا من جدى وجدتى فوجئت بانهما يتعمدان أخفاء كل شيء عنى ، حتى لقد كدت أصاب بالجنون ، كان ضميرى يحمل عدة حكايات مختلفة التفاصيل بطلاها

هما خالتى بسيمة وزوجها هريدى واختفائهما فى ظروف غامضة - وكنت كلما سالت أحدهما عن تفصيلة غامضة تثير دهشتى وعدم تصديقى أجاب اجابة أكثر غموضا لا أفهم فيها ان كان ذلك قد حدث حقا أم هو من نسج خيال العامة ..

« غير اننى صممت على معرفة حقيقة التفاصيل أو يذهب عقلهم من جنونى وان شاءوا فليقتلونى . العجيب يا جدع انهم .. قتلونى ، تركونى اهذى بلا مجيب حتى فقدت السيطرة على عقلى بالفعل ، وابتعدت عنهم جميعا وعشت فى مدينة المركز وحدى أتنسم الهدوء بين كتب مكتبة البلدية التى استحضرها معى على عهدتى، وواقع الأمر اننى كنت قد بدأت أعانى الوحدة والفراغ والشعور بالعار والجرح العميق ، حيث ملت أمى من انتظار أبى فدب فيها الجفاف وظلت تكتم الحسرة فى قعر بطنها حتى توكلت على الله وأسلمت روحها فى بداية النصف الثانى من يناير فى العام السابع والسبعين ، كان معها الحق كل الحق فى أن تموت ليلتها ، ذلك ان أبى الذى لبس فى الجهادية بعد زواجه من أمى بشهور قليلة مكث فى الجيش حتى العام السابع والستين ، ولما عاد الينا كان يحمل فى جوفه نصيبا عظيما من الانكسار والذلة ، لكن من حسن حظنا وحظه ان عودته كانت مؤقتة فلم يقدر له أو لنا رؤية كلا منا الآخر وهو على هذه الحالة من الشعور بالذنب والعار كأن حبيبته قد خانته مع عدوه . واذا به يواصل الخدمة فى الجيش ، واذا بنا نقيم الأفراح فى ليلة رمضانية مفترجة والبلدة تتحزم وترقص على دوى القنابل والغارات ، نعم ترقص طربا كأنها أخيرا قد زفت الى حلمها القديم ليس بتحقيق النصر وحده بل بخوض المعركة ذاتها ..

« الا أن الطبول آبت الى اصداء تتردد فى الأفق البعيد بايقاع رتيب لا يتوقف برهة واحدة ، والرقص آب الى لعب على الحبال بدربة ومهارة أو الى ركض متوجع ، واصداء الطبول الجوفاء تحجب صوت

الأنين ، وكثرة اللامعين فوق الحبال على الهواء تحجب جحافل المدهوسين • ثم ان سماء البلاد امتلأت بموجات صوتية تنبعث من أجهزة بعدد الحصى فى الصحراء ، ولم يعد ثمة صوت منفرد على الاطلاق • ثم ان صوت الانين انهزم شر هزيمة فارتد الى الداخل ، كل واحد يئن على كيفه ولكن فى داخله ••

« كنت صبيا صغيرا وكانت وجيعتى كبيرة • فلما رأيت أمى فى ذبول مستمر بسبب انقطاع الاخبار عن أبى قررت أن أستجيب لرأى أهل البلدة وأكون رجلا أى ـ أذهب للسؤال عنه فى مايسمونه بادارة السجلات وبالفعل ركبت البيجو من أمام منزلنا هذا ـ شوف التقدم ـ الى العاصمة الكبرى• وفي هذه الادارة استصغروا شأنى رغم انى أخبرتهم من أول البوابة اننى ابن العريف محمد عكاشة النجار . فلم يقل لى البواب الجندى حتى كلمة أهلا وسهلا ، بل هشنى بيده الى الداخل ، وفى حجرة أخرى طرقت بابها فهب رجل يرتدى الفانلة الكاكى والبنطلون يسرح شعره القصير قلت له : أنا مأمون محمد عكاشة النجار • فقال هازءا بهزة منرأسه : اهلا ياخوية قلت له : ابن العريف محمد عكاشة النجار • فقال بغلظة وهو يزعنى بيده هناك هناك أجرى على الأوضة التانية •• يلا يا ولد • فانهمرت الدموع من عينى بغزارة وأحسست اننى لن أصير رجلا بعدها • قلت له : طب هدى أعصابك يا سعادة الكابتن • فنظر فى كأنه يردينى قتيلا برصاص عينيه • فغاب جسدى كله عن الارض وسمعت حشرجة تتعثر على لسانى وشفتى قائلة : متأسف• ثم استدرت والدموع تقسم صور الاشياء كلها الى قسمين • اخترت حجرة دخلتها ، فاذا بها عشرات الجالسين على المكاتب باللباس المدنى يكتبون ويثرثرون ويتكلمون فى التليفونات ••

« وقفت بجوار أول مكتب على اليمين لانه كبير نوعا ، وشرعت أستدر صوتى لأتكلم • فنظر فى الرجل الجالس قائلا : « مالك يا شاطر ؟ « فقلت له : « بادور على أبويا » ومسحت دموعى فتزايد

هطولها فصرت أمسح منطقة فمي على الدوام والرجل يبعد عينيه عن وجهي ، فاذا برجل آخر على مبعدة منه يصيح في قائلا برفق : « فيه ايه يا شاطر ؟ » • فدنوت منه أكاد أتعثر قائلا : « أبويا لسه ماجاش من الحرب والناس كلها رجعت » • فكسر عينه هو الآخر ناظرا في دفتر أمامه راح يقلبه قائلا من وراء عينيه : « شـــوف ياسيادة الرائد » • فصاح رجل يجلس في ركن بعيد دون أن ينظر الى : « اسمك ايه ياشاطر ؟ » • فدنوت منه أقاوم انهمار الدموع حتى أستطيع الكلام ، ثم قلت : « اسمي مأمون •• وأبويا العريف محمد عكاشة النجار كل الناس اللي كانوا معاه جم واللي ماجاش اتعرف خبره الا هو دون عن أهل البلد بحالها » ، فصاح في بخشونة كأنه يحتج على البكاء : « في انهو وحده • فين البيانات بتاعته ؟ » • فأخرجت ورقة دائبة جئت بها معي كنا ننقل نصها على ظهر خطابات نرسلها لأبي • أخذها ونظر فيها ثم ردها الى مشيرا الى شخص آخر يجلس في نهاية الحجرة • فدنوت منه وقد جفت الدموع على خدى فأحسست بجلدى يكاد يتشقق من فرط الألم • ولكن عيني كان قد عاد اليهما الصفاء • فلما وقفت أمامه أعطيته القصاصة فنظر فيها نظرة عابرة ثم سحب دفترا فتحه على صفحة معينة ثم أرسل أصبعه زاحفا عليها ثم توقف فجأة ونظر في وجهي قائلا كأنه يوجه الى اتهاما خطيرا جدا : « كيف تقول ياولد ان خبرا لم يصل اليكم هه » • فارتعدت الأرض تحت قدمي وقلت وأنا على وشك البكاء ثانية : « وكتاب الله ما نعرف عنه أيها حاجة » •

« فسلط عينيه في عيني بقوة وقســـوة كأنها الطعنات • فعاودني البكاء من جديد ولكن بصـــوت عال فيما أقول بعبارات متقطعة : « و •• كتاب الله ما نعرف •• وأمي كمان عيانه عيا الموت عشان كده واذا ماكنتوش مصـــدقين تعالوا شوفوها » • فانتفض الرجل واقفا ضاربا المكتب بقبضته في قوة رهيبة صائحا : « كداب •• امشي انجر من هنا يانصاب » • فلم أصدق ان عفوا صدر عني ، فما كدت أستدير نحو الباب في ذلة حتى أرعدني

صوته : استنى هنا ٠٠ تعال ٠ فدنوت منه أحاول الضغط على شفتى السفلى والأرض تحت قدمى متضارسة ٠ تساندت على المكتب ووجهى يرتد مرتعدا عن اليمين مرة وعن اليسار أخرى توقعا لصفعة مفاجئة تنالنى لكن الرجل بلطف مفتعل قال : تعرف تقرأ ؟ قلت : ٠٠ نعم ٠ فلوى الدفتر العريض المستطيل نحو وجهى وجذبنى من كتفى بأصبعين من كماشة حادة ، وصار يخبط بأصبعه فوق سطر معين ويقول : ايه ده ؟ اقرأ ٠٠ فيه خبر وصل لكم ولا لأ ؟ ما تنطق ٠ غير اننى لم أنطق ، حيث كنت بالكاد قد بدأت أعرف قراءة الكلام المدون أمام اسم أبى ٠ ولقد قرأته ، لكننى نظرت فى عينى الرجل ، وعدت ونظرت فى المكتوب ، وعدت من جديد أمسح الحجرة بنظرة غائمة لا أدرى ماذا أقول ٠ وكان الرجل يصيح بلا توقف :

تانى مرة ماتبقاش تدعى ٠٠ مش أى واحد تطلع فى دماغه كلمتين ولا دمعتين ييجى يعملهم قدامنا هنا ؟ احنا جسمنا طاب خلاص ٠٠ داحنا جبال ٠٠ لو بنشيل فى نفسنا كنا موتنا من زمان ٠٠ كل واحد ييجى يسأل عن قريبه ولا نسيبه ولا أبوه عايز يحملنا مسئولية موته ٠٠ دا قدر ٠٠ استشهاد واحنا بنأدى عملنا على خير وجه ٠٠ وكفايانا حزن بقى من كتر الكتابة فى الدفاتر دى لوحدها ٠٠ على كل حال ٠٠ اتكل على الله روح انت وحتلاقى الجوابات مركونة فى البوستة أو فى أى حته ٠٠ املا الاستمارات اللى فيها وابعتها لنا واحنا حنعمل اللازم ٠٠ مع السلامة ٠٠

« اندفعت الى الطرقة العريضة فقفزتها ومنها الى السلالم قفزا حتى ارتاب بعضهم فى أمرى ٠ ما صدقت أن صافحنى هواء الشارع ٠ وكنت لا أزال أجرى حين همت سيارة بضربى لولا ان فرملت بقوة أسقطت قلبى من جديد فى ركبتى ٠ تركت السائق يلعن أبى الشهيد بأقذر اللعنـــات ويصف أمى المسكينة بأشنع الأوصاف ، وأخذت أواصل الجرى أريد أن أضمحل تماما من هذه المدينة لا أعرف ان كنت نشوانا أو تعيسا ، فها أنذا أجرب لأول

مرة معنى أن يكون أبوك أنت بالذات شهيدا ، أن يموت فى معركة حربية دفاعا عن الوطن · لم يكن ذلك شيئا جديدا علينا · والحق لقد كان لذيذا أن يقول المرء بثقة : لقد حارب أبى فى النكسة ومات فى حرب رمضان وصوت النصر المدوى يقول الله أكبر · لكن ليس لذيذا بالمرة أن يصير حالى الى ما قد صار عليه ·

« المثير للدهشة اننى لم أجدنى محتـــاجا لابلاغ أمى نبأ استشهاد أبى · لقد عرفت الخبر بمجرد النظر فى وجهى ، فانفجرت باكيا وهى تقول لى : خلف لك طولة العمر ، ولم أكن أبكى على استشهاد أبى بقدر ما كنت أبكى على ما لحقنى فى المدينة من اهانات · وقالت أمى انها كانت واثقة من موته منذ أن رأته ذات حلم فيما هى تركب بجواره على الدبابة التى يقودها حيث تمرق الدبابة عبر المياه من شاطىء القناة الى شاطئها الآخر كأنها تقطع أرضا صلبة ، ولكنه على الشــــاطىء الآخر حفر لها خندقا جميلا معرشا بالنباتات وأوصاها بانتظاره ريثما يطمئن على أصـــدقائه ويعود، وكانت الدبابات تبدو كأنها عربة ملاكى بدون فوهات مدافع وكان يبدو ان الأرض الواقعة على الشاطىء الآخر جزءا من حديقة غناء تحضننا فلهذا تركته يذهب لرؤية أصدقائه ، وكان ثمة احساس فى داخلها يقول لها انه سوف يعود لها ومعه أكلة سمك طازجة وبضعة أصدقاء يعزمهم عليها · وقالت أمى كذلك انها الآن تأكدت انه لن يعود ولكنها لا تملك سوى الانتظار · وكانت قمينة بأن تظل الدهر تنتظر أكلة السمك الطازجة تنبىء رائحتها عن مقدم العزيز الغالى ، لولا ان المجنون ، أعنى المرحوم الولد حسان أخى الأصغر طالب الاعدادية ورفيقى الوحيد فى الحياة ·· آه ماذا أقول ·· لا أعرف من ذا الذى دفعه الى موطن الخطر وهو الذى يمشى بجوار الحائط كما علمناه وأوصيناه ، الولد المسكين ليس من أهل الهتافات والمظاهرات ولا شأن له بشىء ، وكان يمشى فى حاله قادما من المدرسة فى مدينة المركز ، وكان يعرف ان ثمة هتافات وهياج كبير يجوب شوارع المدينة يجأر بكلام منمق خطير ، لكنه

لم يكن يعرف ان ثمة جنودا قد نزلت الى الشـــوارع فى المدينة وضواحيها وقسمتها الى معســكرات شديدة الاستحكامات ، ولم يكن من ثم يدرى ان أى خطوة يخطوها عفوا فى طريقه الصحيح تعد انتهاكا لمعسكر الجند ، فمشى المسكين بكل راحته كما يمشى كل يوم فاذا بقنبلة مثيرة للدموع تعمى عينيه وثمة رشاش فى أثرها يصوب نحو أذنه ففقد التوازن والاتجاه وأخذ من حلاوة الروح يجرى خبط عشواء فاذا به يقع من آخــر ضلع فى الكوبرى فيسقط فى قاع النهر ..

« لا تسل عن يوم مجىء جثته . بالله من ذا الذى يستطيع احتمال هذا ؟ ان أمه لجبل قد تصدع من عنف الزلازل الموجعة . لقد نزعوه من حضنها فى عنف وقسوة وحملوها الى سرير الدار ، وانهــا الرقــدة التى لم تقم بعــدها . ماتت فى عز شــبابها النضر .

« أما أنا فقد ترسمت فى مواجهة المأساة خطى جدى . لقد أعجبتنى حكمته وقدرته على النســيان . عرفت ان سر تماسـكه واحتماله للخوارق هو انه قرر ان يتحدى الحياة ويخرج لها لسانه قائلا : افعلى ما تريدين فأنا واثق من دنائتك وخستك ولن يزعجنى أى مسلك تسلكين تجاهى مهما عظم . وهكذا قابلت الحياة وجها لوجه معلنا لها اننى غير طموح فى مصاحبتها أو كسب ودها ، ان هى الا بغى تعطى نفسها بسهولة لكل لص ونشال وقاطع طريق وليس شرفا بالمرة ان يكون موسرا . ليس من قبيل الغرور قولى بأنى قد نجحت فى هذا ، ولكن يكفى اننى قد صرت أعيش فى هذه الحياة وحدى وأصبح مسئولا عن جدى هذا وجدتى تلك . ولقد تسلحت جدتى ضــــد طوفان الأخبار المزعجة ناقلة العــار فأصابت نفسها بالطرش ، وتسلح جدى فى مواجهة الحياة بأزميل حدة السخرية وحدة الآخر النسيان . أما أنا فقد تسلحت باحتقارى لكل هذه المنتجات والأجهزة والملبوسات التى يشتريها أهلنا بفادح

الأثمان ، وقديما قال أجدادى البلغاء : استغن عن الشيء تكن نده ، واطلب الشيء تكن عبده ٠٠ ولسوف أكون ندا لأى شيء ٠

« ولئن كنت هكذا حقا فاننى لابد أن أظهر ذلك فى قصصى سوف أكتبها وروايات سوف أؤلفها ، اننى أسافر كل يوم الى عاصمة المحافظة حيث أحضر محاضرات الجامعة وأشترى بنصف مرتبى كتبا ٠ تسحرنى قصص يوسف ادريس وتسكرنى روايات عبد الرحمن الشرقاوى وأحب الصعلكة فى حوارى القاهرة القديمة مع نجيب محفوظ أتأمل فتواته وحرافيشه فتذهب نفس حسرات على قوم يتجسد فيهم كل هذا الواقع المرير ويظل باقيا كل هذه الدهور ٠ أما احسان عبد القدوس فاننى أشكر له صنيعا جميلا قدمه لى اذ كشف لى منذ وقت عن طبقة كاملة لم أكن أعلم شيئا عنها فضلا عن ان تكون قائمة بين ظهرانينا ٠ وأما فتحى غانم فاننى صديق لبطله السرمدى يوسف منصور ٠٠ اننا دائما نتأثر بما يحدث فى الديار المصرية ، باعتبارها من أشد الدول المجاورة تقدما وديموقراطية وحضارة ، ومثلما نتأثر بثوراتهم نتأثر بكتابهم وفنانيهم وكل تراثهم قديمه وحديثه ، لكننا نظل محتفظين بشخصيتنا الأزرقية وان كان بعض مؤرخينا يزعمون ان معظم سكان الديار الأزرقية وافد من الديار المصرية أثناء سنوات القحط التى مرت بها على امتداد تاريخها الطويل ٠ ويبالغ بعض المتيمين بالثقافة المصرية فيقولون ان الثقافة الأزرقية أصلها مصرى ، لكن ثمة أصوات أخرى أكثر ارتفاعا وثقة تذهب الى ان العكس هو الصحيح وان الثقافة الأزرقية هى الأصل فى كل حضارات المنطقة ٠ وان سألتنى عن رأيى الشخصى فاننى أقول ما أقوله دائما : ان ثقافات المنطقة كلها متأثرة ببعضها البعض ومن الصعوبة ان تفصل بين الأصل وبين الفرع وبناء عليه فيكون أهل المنطقة كلهم كذلك سواء بمعنى انهم يمكن ان يكونوا شخصية واحدة ٠

« ورغم اننى لست عضوا بأية جماعة أو تنظيم الا اننى تلاقيت

مع الجميع على شيء واحد هو الوطن ، لكننا اختلفنا كالعادة فى معناه ، ليكن مفهومه غائما فى أذهانهم لسبب أو لآخر لكنه فى وجدانى هو أبى الذى لم يعد من الحرب ، هو زوج جدتى الأول ، بل هو أيضا خالتى بسيمه وأخى من أبى ـ هريدى ، الوطن هو دم كل هؤلاء وذكرياتهم وبناياتهم واشعاعهم ونمائهم فكيف يتسنى لى بيع كل ذلك بمغنم شخصى مهما كان ثمينا ؟ » ٠٠

٢

قال مأمون :

ـ « هذا ما كان من أمرى ٠ أما ما كان من أمر خالتى بسيمة فان اختفاءها كما قلت لم يكن له صدى يذكر فى البلدة ٠ انما انشغل الجميع بهريدى ٠ فما ان انتهت أيام المولد وعاد كل الذين ذهبوا ما عدا هريدى وزوجته نشطت الألسن وقيل ان عصابة من قطاع الطرق اغتالوه ليحصلوا على بسيمه ٠ ولم يحد لسان واحد عن هذه القرية أبدا ، بل تطوع بعضهم فأنشأ قصصا وحكايات تزعم انه قابل بسيمه فى البلدة الفلانية تمشى مع أحد البكوات ، ومرة مع أحد الفتوات ، وثالثة مع ولد تلميذ ابن ذوات ، ورابعة مع ولد صايع خريج سجون ٠٠

« لكن هريدى ما لبث ان عاد بعد سنين طويلة ٠ وكان متخفيا يسأل بلهفة غريبة عن زوجته بسيمه ٠ فقالوا له : أتسألنا ؟ نحن من يومها فى انتظاركما معا ٠ فصفق كفا على كف وقال فى حزن شديد باك انه كان يتعشم ان يأخذها لترافقه فى رحلة حياة معذبة قدر له ان يعيشها ، وكان حريا بألا يعيشها لولا انـه دخل فى طريق لم يعد يملك الرجوع عنها ربما لأنه يجد لذة ومتعة كبيرة فى ذلك ، وربما لأنه لم يعد قادرا على جمع بصماته عن الطريق ٠ وهذا الطريق يكلفه ما لا يطيق ، لكنه فى نفس الوقت يعطيه فيغدق

حين يعطى ، فهـو فى معظم الأحيان تطـارده مباحث أمن الدولة فيختفى بعيدا عن الأنظار ، فيجد دائمـا أبدا من يأوى غربتـه ويسترها بفيض من عطاء ٠٠ قالوا له : كيف يا هريدى ؟ وما الطريق وما أمره ؟

فقال هريدى :

ـ « الحكاية يا نسيادى بدأت من لحظة ما اختطفنى جمع من الرجال وأحاطونى برعايتهم وحبهم وتشجيعهم ٠ أنا الذى لم يكن يدور بخلدى أن اعجاب الجمهور سهل الى هذا الحد، فوجئت بطوفان من الحب يحتوينى ، حتى اننى فى نهاية الليلة بدأت أتذكر بسيمه ولكننى لم أنزعج ، قدرت انها على أسوأ الأحوال سترتد عائدة الى البلدة حين تيأس من ملاقاتى ٠ أقول الحق يا رجال ، لم أكن فى أعماقى أحس برباط قوى بينى وبين بسيمه ، بدليل اننى لم أرها جيدا أبدا ولم يقم بينى وبينها لقاء أتذكره ، ولهذا استنام قلبى فى لذة التوهج ٠ فجأة صرت صيبتا محترما كأولئك الذين جاءوا بلدتنا ذات يوم وسهرت بهم حتى الصباح وأغدقت عليهم ٠٠ هكذا صرت يا رجال بدون أى مجهود ، والنقود تنهال على من كل اتجاه ٠ ثم اننى سئلت عن بلدتى فأجبت ، وعن مدى ارتباطى بها فنفيت أى ارتبـاط ـ عامدا أو غير عامد لا أدرى ـ لكننى انسـقت وراء التجربة وهى ساحرة ٠٠

« استوطنت شقة فى العاصمة الكبرى اهدانيها واحد من عشاقى الأغنياء من علية القوم السابقين وتجارهم الحاليين ، تركها لى ، فصرت ملكا غير متوج ، الشقة لا تخلو أبدا من زوار عشاق على جميع المستويات ، منهم من يعنى بتنظيف ثيابى ومفروشاتى ، ومن يعنى باحضار مكيفاتى من دخان وخلافه ، كل ذلك دون ان أدفع شيئا ، كل مهمتى أن أغنى لهم فحسب ، فكنت كل يوم ألبى دعوة جديدة فى شقة جديدة من جماعة جديدة سمعت عنى ومنى

فعشقتنى وتقيم سهرة على شرفى أغنى وألعلع وتنهال على البقشيشات من كل ناحية ، فى السر وفى العلن على السواء . الانسان ضعيف يا رجال خصوصا فى شيئين : المرأة والنعيم . وبعون الله نجوت من أسر المرأة لكننى لم أنج من اغراء النعيم . فنسيت كل ما كان من أمرى فى سنى العمر الفائتة دون ذرة حزن واحدة . أعذرونى يا رجال ، قدروا موقفى ولا تحتقرونى ، فلو كنتم مكانى ورأيتم حلاوة كيف يتحقق الحلم هكذا فى لمح البصر لعذرتمونى .

« غير اننى وقد هدأت كان لا بد وان أعرف لماذا يحبنى كل هؤلاء المعجبين فوجدت ان الحماس يزداد بهم نحوى كلما تصادف ان غنيت موالا فيه معنى تحكم الخسيس فى الأصيل ، ففهمت ان الثورة الأزرقية تضاءل معناها فى نفوس الشعب الآزرقى الى مجرد احساس بأن الجاه والسلطان تم استلابهما من أولاد الاصول الباشوات والبكوات وانها قد أعطت السلطان لمن لا يتحملون مسئوليته من الدهماء .. فصرت فى كل حفل أضيف من عندى كلمات على الموال أو المديح أعرف انها ستعجب الناس .. وفهمت ان أشد ما يستولى على اعجابهم هو اننى اقول غناء يتكلم عن أشياء وبأشياء يحسونها ويريدون الكشف عن سرها . وبين يوم وليلة يا رجال وجدت بجوارى من يؤلف كلاما على أن أقوم بتلحينه وأدائه . وجدتها كلمات جميلة ورائعة ، فيه الدفء الذى نحسه نحن أبناء البلاد ، فيه المرارة والخبث والتحريض على الانتقام . لو لم تكن هذه الكلمات قد وفدت على فربما كنت فكرت فى الانسحاب من هذا الطريق . لكن هذه الكلمات ظلت تنهال على فلا أملك الخلاص منها وأجدنى ساهرا على تلحينها أنا الذى لم يكن يفكر فى ان يصبح ملحنا ، وتستبد بى النشوة من كونى استطعت تلحين كل هذه الأغنيات بهذه الحلاوة التى تغرى الجميع بترديدها ورائى وتسجيلها وترويجها فى كل مكان ..

« القصد لقد أصبحت اسما ثابتا فى كشوف من يسمونهم باليساريين ، يقبض على من حين الى حين لأى سبب وبأى تهمه ، لا وضع فى الزنازين عاريا · لكن الدفء يجىء دائما من خارج الأسوار ، فثمة دائما من يجمع لى النقود والدخان واللحوم ويوصلها الى خلف الأسوار بشكل أو بأخر · حتى الأغانى كانت تبلغنى كلماتهـا من الزنزانـة المجاورة ، فتبلغها الزنازين الى الشوارع والنوافذ المجاورة ، فتصل الى أبعد ما يتصور الخيال · لا تدهشوا يا رجال فان أغنياتى التى هى من تلحينى وأدائى ومن تأليـف صعلوك مثلى ، تطبعها شركات باريس على اسطوانات مغلقه بصورتى كأكبر نجوم السينما فى العالم · أما أنا فقد حققت دخلا معقولا وفكرت فى بسيمة وأشفقت عليها ولحنت من أجلها بعض الأغنيات ولكن ضميرى ظل ينقح على فجئت أطلبها صاغرا لاعتذر لها طول حياتى عما بدر منى تجاهها ، وأقول لها ان هريدى القديم لم يعد منه شىء حتى اسمه لم يعد هريدى بل اشتهرت بسيف الموالدى ، ولكن صحابى وعشاقى تعمدوا الخطأ وأشاعوه فأصبح اسمه « سيف الماوردى » ··

واستطرد مأمون قائلا :

ـ « ثمة شىء أحببته فى أهل بلدتنا هذه ولذا فاننى أحب المكوث فيها مهما كرهتها عند الغضب · ذلك انهم كانوا يستمعون الى حديث هريدى الذى كان يعتبر لحظتها تصريحـــا بتقديمه الى المشنقة ، ولو تسرب خبر وجوده فى البلدة لنشـط العســكر واقتادوه فى الحال مكبلا بالحديد · كان لحظتها كما صرح لهم هاربا من أمر بالقبض عليه فى تهمة قلب نظام الحكم وتهييج الجماهير · وكان أى صعلوك من الجالسين يستطيع الاسراع بابلاغ الأمر الى الجهات المعنية ولكن شيئا من ذلك لم يحدث · بل انهم كما كانوا يقولون كانوا يرفعون رءوسهم وينظرون اليه باعجاب وتقدير اذ هو يتجرأ على الحكومة الكبرى ويصارحها بأخطائها ويدعو الى اصلاح

جال الرعية ودفع ظلم الأقلية عن الأغلبية • بل ان ضابط نقطة الشرطة نفسه تنكر فى زى مدنى وشخصية أخرى لا ليقبض عليه بل ليمتع نفسه بالاستماع اليه فى حفل من الحفلات السرية العديدة التى دعى اليها • ولقد ترك هريدى بذرته فى أطفال قريتنا فصاروا من يومها يؤلفون أغنيات على نسق أغنياته التى خرجت من السر الى العلن يسخرون فيها وبها من أشياء مثيرة فى بلدتنا •

« أمضى هريدى فى داير الناحية ثلاث أسابيع تنقل خلالها بين عشرات الطوائف والجماعات والأسر والبلاد والقرى والعزب ، ثم لم يعد بعد ذلك ، وصرنا نقرأ أخبار القبض عليه فى الصحف ، ونتناقل أخباره من المسافرين والعائدين • ويبدو أن أيام سجنه كانت وستظل دائما أكثر من أيام حريته حتى انه لم يعد يملك المجيء الينا ثانية • ولم نكن نعرف هل التقى ببسيمة أم لا • لكننا اليوم علمنا ان أحدهما لم ير الآخر مرة ثانية •

٣

نهض مأمون فى نصف جلسة • فلما انتبهت اليه سمعت صوتا عاليا يهدر فى داخل الدار تبينت انه صوت صادر من جهاز تسجيل ، وكان الصوت مجرد خرخشة عالية • اكتأب مامون : « الراجل المجنون حيمارس هوايته •• حيسمع أغانى •• اللهم ان صوت التسجيل حيطفشنا من هنا » ثم قفز المصطبة مندفعا نحو الداخل فاندفعت وراءه • دخلنا قاعة فيها سرير بعمدان نحاسية وناموسية حريرية مشغولة برسوم ، ودائر عليه أطفال بأجنحه محلقة فى الهواء ، وفيها دولاب كبير بأربع درف ذى طراز قديم ومتين ، وترابيزه مستديرة ، وبضعة كراسى خيزران ••

قال مامون :

كلما دخلت هذه الحجرة خيل الى ان أمى لا تزال راقدة على هذا السرير تنتظر عودة أبى ومن سخرية الدهر ان يرحل كلاهمه

ولا يبقى على السرير سوى جدى يستبيح لنفسه كل شيء فى هذه الحجرة دون احترام لقداسة ذكرياتهـــا ، أتراه فقـد الاحساس بالذكريات فينتهك قداستها باستخدام أشياء أصحابها أم تراه غارقا فى الذكريات حتى أذنيه لا يريد الخروج منها ؟ يعلم الله ··

وكان صوت التسجيل أعلى من ان يسمح لمأمون أو غيره باستمرار الحديث · ازاح مأمون طرف الناموسية فاذا بجده قد تمدد على السرير واضعا مسندين خلف ظهره مستغرق فى النشوة وقد تمكنت يده من ضبط الصوت تماما · وكان الجهاز موضوعا بجواره على المخدة ، جهاز كبير فخم مما يسمونه ستريو ، وكومة من الشرائط حوله · أزاح مأمون طرفى الملاءة الى بعيد وجلس على حافة السرير فقفزت الى جواره · ثم مد أصابعه فخفض الصوت جدا حتى صار بالكاد يبلغ الآذن · فانتبه الجد وفزع فاتحا عينيه ، ثم هشنى ، فنبحت فيه بغلظة فأشاح عنى · ونظر فيه مأمون قائلا مع ابتسامة حنون : « بالزمه أيه اللى بتسمعه ده ؟ » ثم تجرأ وأخرج الشريط من الجهاز ناظرا فيه صائحا بقهقهة عالية : (ظننتك تستمع الى الشيخ عبد الباسط أو أم كلثوم أو عبد الوهاب وغيرهما من مطربى الدولة المصرية الشقيقة ·· كنت أظنـك على الأقـل ستستمع الى شرائط ابنك هريدى » ··

ثم حول وجهه عن جده ناظرا الى ناس تخيل وجودهم ويقول : « تصوروا ان هذا الرجل العجوز يدير شريطا لمطربة اسمها رشا الخضرى ·· رشا الخضرى ؟ أى ابتذال هذا بحق الله ·· رشـا الخضرى هذه كانت ذات يوم مطربة درجة ثالثة وصعدت بهـا الكوسة الى الدرجات العليا وكل الناس يعرفون ، لكن من يصعد بالكوسة يهبط بالكوسة كأن شيئا لم يكن ، أين هى الآن رشـا الخضرى ؟ ·· ثم انها مطربة شبابية فى صوتها غنج أرادت أن تدارى به بحة فلاحية فاذا بها تجسد شيئا يدير رأس المراهقين ·· فهل انت مراهق يا جدى ؟ ·· من أين جئت بهذا الشريط ؟ » ··

قال جده بعد برهة كأنه يحدث نفسه انه اشترى مجموعة شرائط من ولد متشرد يبدو انه سرقهم ، ودفع له فى هذه المجموعة كلها ثلاث جنيهات وهى تساوى خمسين أو ستين ٠ وقال أيضا انه سيجربها كلها فما يعجبه منها يحتفظ به لنفسه وما لا يعجبه سيبيعه بمكسب ٠ وقال كذلك ان هذه المدعوة برشا الخضرى ليست رديئة فهو شخصيا يحس ان صوتها أحد أقاربه ، وهذه ميزة يحسها مع كثير من المطربين والمقرئين ٠٠

رد مأمون :

« عمرى ما رأيتك تستمع الى شرائط ابنك هريدى٠٠ أليس صوته أحد أقاربك ؟ » فلم يرد الجد كأنه لم يسمع ، وصار يعدن بالشرائط فى ابتهاج كما يفحص صفقة رابحة ، كل شريط عليه صورة مطرب أو مطربة أو مقرئ من المشهورين ، وقائمة بالأغانى التى يضمها الشريط ٠ تناول مأمون أحد الشرائط عفوا وكان على علبته صورة المطرب محمد فوزى ٠ فتح علبة الشريـط وأخرج الشريط قائلا : « حلو ٠٠ أنا شخصيا من عشاق محمد فوزى وأرى ان الأغنية العربية كلها لم تتجاوزه » ، ثم ثبت الشريط فى الجهاز وأداره فاذا بصوت رصين ينطلق قائلا : « الله الله ٠٠ الله يفتح عليك يا سيف يا مواردى » ٠٠

سيف الماوردى ؟ هكذا صـاح مأمون ثم هلل كالأطفـال : « الحق يا جدى ٠ ابنك هريدى له شريط أهه » ، واستخسر أن يتكلم مضيعا فرصة الاستماع لأن أغنية لسيف الماوردى انبعثت بايقاع مبتهج رصين راقص الاعطاف ، كلام حلو ونغم أحلى ، نفس كاريكاتير سيد درويش ، تريقة على ناس حكام ، وناس دلاديل للحكام ، تذكير بالوعود المكذوبة ، تجرئ للمستمع على قذف النخيل العالى بالحصى ، أغنية تؤدى الى أغنية ، الكلام مألوف ، تقريبا هى نفس الأغانى التى كنا نرددها فى بلدتنا من سنيين ، مع اختلاف

كبير هو ان محتواها القديم التحم بمحتوى جـديد بشسه تماما ويستفيد منه ويعكس عليه وهجا جديدا ، هكذا يجب ان تتطور أغنيات الشعب ، هكذا يجب أن يغنى الأولاد فى الشوارع · كنا فى طفولتنا نغنى : يا قمرنا يا هادى ·· ويا طلع الشجرة ، وأغنيات سيف الماوردى تكاد تكون هى نفس هذه الأغانى ولكنها تحتوى على أشياء تشغل بالنا جميعا ، وتذكرنا بأشياء نسيناها ، وتبث فينا الحماس للمطالبة بكذا وكيت ·· عجيب أمرك يا سيف يا ماوردى وانت يا من تكتب له هذه الكلمات النارية يا من تسمى مراد الحلو وانت حلو بالفعل ، أقسمت انك تستطيع وحدك ان تكون جهة حساب عليا ·· يه ·· يه ·· يه ·· ما هذا ·· تغنى عن طغيان عبد الجبار ؟ تسلقه بكلمات كالخناجر ؟ ، ورشا الخضرى أيضا تسلقها وتتساءل من هى وكيف كانت وأين اختفت من عالم الغناء والتهريب ؟ مجلس الشعب وأهل منزله ؟ كل شىء لم يسلم من لسانك يا مراد يا حلو ، والأحلى منك ومن كل شىء ان يكون هذا اللسان السليط الحارق لسان مغن يسلق بالغناء ويجعل من هو موضع السخرية يغنى هو الآخر على خيبته وخيبة الجميع ··

نفد الشريط · نزعه مأمون واختار غـيره فاذا بـه لفريد الأطرش ، لولا ان أغنية الربيع كانت مكتوبة على الغلاف لما أدار الشريط · لكن الشريط ما ان دار حتى اتضح انه أيضا لسيف الماوردى · ما هذا ؟ استفز مأمون فجرب كل الشرائط فوجد ان معظمها لسيف الماوردى ولكنها متنكرة فى صور مطربين آخرين مشهورين ··

اعتدل مأمون وأمسك برأسه ثم نظر لجده قائلا : « قلت انك اشتريت هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ؟ »· فلم يرد الجد وان بدا على وجهه تعبير الموافقة على ما قال · فقال مأمون : « اذن فان الولد يكون قد سرق هذه الشرائط من مكتبة واحـد يسـارى كبير ممن يحتفظون بشرائـط سيف الماوردى

ويروجونها بينهم » . ثم هز يده بجوار رأسه فى دهشة قائلا : « ولكن يا له من حب ، ان مؤسسات بكاملها قد لا تستطيع تنظيم هذا التهريب الثقافى الفنى بهذه الطريقة الجهنمية ، ان الحب وحده هو القادر على هذا ، حب هذه الأغنيات ، فان كانت الدنيا قد أصبح فيها من يحارب حتى الأغنيات وشقشقة العصافير فليعلم ان قوة فى الأرض لن تستطيع اسكات صوت العصافير ، ان الفنون تنمو جيدا فى درجات الحرارة العالية ، ولسوف تعبر العصافير عن مأساة حرمانها من الشقشقة بالشقشقة ، شقشقة كل العصافير أصبحت تعكس وأوأة طفل وليد وصوصوة طائر حبيس وصهيل فرس مكبل » ..

ثم صار ينقل البصر بين جده وبينى قائلا : « العجيب انه لا يحب الاستماع الى صوت ابنه .. هذا الصوت الجميل المؤثر .. يا أخى ان لم يكن يعجبك كصوت مطرب فلتحبه كصوت كلمة كنت ولا تزال تحب ان تقولها .. ألست تحب ان تعود الى طفولتك لتغنى هكذا ؟ .. الغناء ليس رشا الخضرى وأمثالهـا يا جدى العزيز ، الغناء ليس هذرا نتسلى به فى أوقات الفراغ ، الغناء طقس تتحقق به أشياء وتتطهر به نفوس ومجتمعات » ..

وصمت مامون وبدا على وجهه احساس بانه لم يكن ثمة داع لهذه المحاضرة الغنائية . ثم ادار وجهه نحوى كالمعتذر عن جده قائلا :

ـ « انه خبيث ، ليئم ، يوهمنا انه لا يستمع درءا لأى مهاجم بسبب التحريم .. ها هو ذا كأنه لا يعرف ذلك المدعو هريدى أو سيف الماوردى ، كأن صلة لم ولن تقوم بينهما ، ها هو ذا يفترض ان كل كائن غريب عن عالمه ربما كان دسيسه أو مخبرا أو قادما بنبأ عظيم الخطر ، هو من ثم فى حالة تحصين دائمة ضد كل ذلك .. لكن لو دققت فى الأمر ، لوجدت ان جدى الجالس أمامى هذا يحفظ كل أغانى سيف الماوردى عن ظهر قلب ، يحفظها بنغمها ولحنها ،

أما متى استمع اليها وكيف فهذا ما لا يستطيع أحد اثباته حتى نحن ٠٠ أحيانا أدير شريطا لسيف مما يصل الينا خلسة مع طلبة الجامعة القادمين من العاصمة الكبرى ، وأسرح أنا مع النغم وأنتبه اليه فجأة فأجده يردد نفس النغم بنفس الكلمات لا بشفتيه فحسب بل بكل جسده وكامل نفسه ٠٠ يكاد هذا الجد العجيب يكون هو مشكلتى الرئيسية واسطورة حياتى ٠٠ يقول لك انه اشترى هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ! ٠٠ ولست أذهب بعيدا ولا أكون مخرفا اذا قلت لك ان جدى هذا ربما كان هو الذى قام بتعبأةهذه الشرائط فى مكان ما من مصدر ما وجاء بها متنكرة على هذه الصورة ! ٠٠ لم لا ؟! ٠٠ ان الشىء البعيد حين يصبح قريبا بنفس درجة ابتعاده يكون ذلك من علامات الساعه لست أقصد القيامة ، انما أقصد الساعة المعنية التى ظلت البشرية تنتظرها طوال القرون ٠٠ فلقد تداخل كل شىء فى كل شىء وأصبح الانسان محتاجا لاسلوب جديد فى المقاومة ، لم يعد الانسان مضطرا الى الاستعداد لمواجهة المسئولين أو الحكومات الظالمة أو الدول العظمى أو حتى مجلس الأمن على ضياع فى حقوق أو فى أعمار أو فى محاولات بتر من الوجود ٠٠ انما أصبح الانســـان مضطرا الى الاستعداد القوى للتفريق بين الأشياء الصحيحـة وبين الأشـياء الكاذبة ٠٠ لم تعد الأصوات وحدها تكفى للتعبير عن نفسها ٠ عليك ان أردت أن تفهم شيئا أو شخصا أو وضعا أن تدرس خريطة هائلة شديدة التعقيد فى علاقاتها المركبة المتناقضة فى تآلف !! » ٠٠

تململت فى جلستى ، أطلقت هوهوة أنبأت بها مأمون ان جده قد أخلد للنوم الهانىء اللذيذ ٠ فابتسم مأمون فى سخرية اسيفه ثم جمع شرائط سيف الماوردى على بعضها وحملها تاركا بقية الشرائط قائلا : « لك ان تبيع هذه يا جدى ان أردت ٠٠ نشكرك على كل حال ٠٠ لقد أديت واجبك الذى لم يكلفك به أحد ، وبفضلك صرت أمتلك ثروة هائلة من الأغنيات المحاربة المعارضة المناضلة

أستطيع ان أعيش على حسابها حفلات لا تنتهى بين طلبة الجامعة والمثقفين والتجار المرورين والسياسيين المتقاعدين برغم أنوفهم والثوريين المحبطين والأدباء المكبوتين ، هى الأخرى قوى متناقضة لكنها ـ على هذه الأغنيات ـ يمكن ان تتآلف ويصبح شكلها جميلا خلابا » • ثم أرخى طرفى الناموسية وأسدلها على جده ومضى ، فمضيت على أثره لا أحيد •

٤

دخل مأمون فى سرداب يلتصق بظهر منزلهم ، فاذا بنا بعد مسيرة طويلة بين بيوت من اللبن واطئة وبعضها جميل ، قد أشرفنا على ترعة هائلة ذات جسر وقنطرة من الأسمنت والحديد ، على ضفتها المقابلة مجموعة متناثرة من « الفيلات الأنيقة والبيوت المتميزة كأن ثمة مباراة فى التشكيل والتجميل خامت بين أصحابها • ولاحظت فى ضوء القمر ان هذه الترعة الكبيرة التى كان من المقدر لها ان تقوم بأرواء عشرات الملايين من الأفدنة التابعة لدائر الناحية ، قد زحفت عليها الطريق من الناحتين وسقطت بها عشرات الأطنان من بقايا تراب البناء وطوبه المتفتت • وأما الجسر فقد تآكل من كل ناحية وتهدمت أفاريزه ولم يعد يسمح بمرور الأبقار والجمال المحملة ، مع ذلك أدهشنى مأمون بقوله لما رأنى أتأمل وضعه فى حسرة ان السيارات رغم وضعه هذا تمر فوقه بواسطة قضيبين من الحديد المبطط باقيين من أساس الجسر القديم ، ينجح سائقوا عربات الأجرة المنتشرة فى القرية فى ان تستقر كل عجلة على قضيب وبدقة اذ أن عجلة لو انحرفت قليلا تهبط فى الفراغ • أما القنطرة فبعد ان كانت بناء أنيقا متينا ذى باب حديدى بقفل ومفتاح وخفير يفتحه ويغلقه كلما احتاجت القنوات الفرعية للماء ، أصبحت مجرد باب غائص فى الأرض ، ويبدو ان الحاجة اليها لم تعد ماسة بعد ان انتهى عصر الفيضان وأقبلت عصور التحاريق ،

وبعد ان تغير لون وجه النهر فصارت مياهه بيضاء فى لون السمك الميت ..

هرولت قليلا نحو جدار القنطرة الصغير المتآكل ، ورفعت اليتى اليمنى وتبولت على الجـدار ، وعدت الى مأمون الذى جلس ضاحكا فوق حديد القنطرة . أحس بمدى الحزن فى عينى ، فرفع كتفيه ومد بـوزه فى أسف كأنـه يقول : « آدى .. الله وآدى حمكته » .. ثم قال :

ـ « لم يعد هناك من يشعر بمثل هذه الأشياء .. الكل ها هنا يريد ان يأخذ من الملكية العامة قدر ما يستطيع .. لا أحد يريد ان يعطى شيئا لأى شىء . الكل ينشـــغل بالبناء لنفســه فحسب ، وكل من ينسلخ من هذا السرداب الطينى ويبتنى لنفسه بيتا ها هنا يغلق عليه أبوابه فلا يزور ولا يزار ، لأنه قد صار يخشى حسد الفقراء والنم والقر خاصة من أهله المعدمين .. فى هذه البيوت الأسمنتية الجديدة يسكن مجموعة من نماذج خارقة تنهزم أمامها قدرة أكبر روائى فى العالم .. بعضهم مدرســون سافروا بطريق الاعارة وآخرون أثروا من الدروس الخصوصية .. بعضهم من معاونى الجمعية الزراعية الذين اختلسوا عرق الفلاحين فى الستينات .. بعضهم من تجار الشنطة والبنائين .. وكل من يسكن فى هذه القرية الأسمنتية الجديدة يتنافر مع الآخر ويتعالى عليه ويتباهى بما عنده من أجهزة وأشياء .. آخر مباراة للتباهى الحاق الأولاد بالمدارس الأجنبية الخالصة رغم ما تكلفهم من مصاريف باهظة وشحططة لا مبرر لها ، أى ان المدارس الأجنبية التى تتسلم الطفل الأخضر فتدرب لسانه على أن تكون لغته الأصلية هى الفرنسية أو الانجليزية حسب جنسية المدرسة ، أصبح بين طلابها من يدعى معاطى وأبو سريع وبسطويسى .. أحلى مشهد نراه لو قدر لك حضور مناسبة عائلية اضطرت فيها الأسر الى التلاقى فى مكان ..

ترى عجبا . تراهم يجلسون مسمرين لأنه فى الواقع لم يعد بينهم وبين بعضهم أى شىء مشترك أو أى موضوع يتحدثون فيه معا . ولذا تراهم قد نسوا المناسبة التى جاءوا من أجلها ، ونسوا حتى شخصياتهم وأنفسهم وذابوا فى لحظة انتظار لشىء واحد ، أى ابن من أبنائهم سيكون الأنجح فى الرطانة بطلاقة ، والأم تقول بكل استمتاع خفى : لم أعد أقدر على التفاهم مع الواد ، يكلمنى بالفرنسية على طول الخط ، ولم يعد يتذكر أى لفظ عربى فهل يا ربى اتفرغ لتعليمه العربية من جديد ؟ اف . لو كان ذلك ينفع معه لفعلت . أف ./. وأف هذه هى نفخة المتعة التى تتمنى كل أم أن تقولها عن ابنها .. لقد حضرت بعض هذه المناسبات فكان النكد يحط على كالجبل ، وكنت أبكى من الاحساس بالاغتراب . ويعلق البعض على بكائى بأنى أستطيع السفر عاما أو عامين أغير جوا ، ويعلق آخر بأننى يجب ان أتزوج لأنجب لى طفلا .. وتنساب بكرة التعليقات : العيال اليوم تكلف ، دفعت للولد مائة جنيه ثمن توصيل بالعربة فقط ، ابن أخى قدمنا له فى الليسية فامتحنوا أباه وأمه امتحانا عسيرا واضطررنا الى دفع رشوة لينجح الأبوان فى الامتحان !! .. وهكذا ترانى أعيش فى مجتمع من القردة يربى جيلا أجنبيا لينفصل عنه بعد ذلك تماما » ..

ثم عجز مأمون عن ايقاف دموعه التى أخذت تنهمر بشدة ـ وشرعت انطق قائلا له فى أسى : ما لدموعك قريبة هكذا يا مأمون ؟ لكنه قال دون ان يجفف دمعه :

ـ « لم أعد قادرا على دفع البكاء باستمرار . أحس اننى لم يعد لى صديق فى هذه الديار .. الذين لازمتهم ولازمونى طوال سنين الطفولة والصبا قاطعونى رغما عنهم .. بعضهم سافر واستوطن بجنسية مستعارة .. بعضهم اشتغل سمسار عقارات وتأجير وبيع شقق وأراض .. بعضهم ميكانيكى أو سمكرى سيارات .. بعضهم سائق عربة أجرة من المحطة الى القرية تجمع

فى اليوم الواحد مائة جنيه على الأقل .. بعضهم اشتغل مهربا للبضائع من بور سعيد ..

أطلقت بضع هوهوات رقيقة ترسم على وجهى تقاسيم الاحتجاج اللطيف كأننى أقول له : اخرج بنا من هذا الجو الكئيب . فاحتوى فكى بيده الحنونة قائلا : هيا بنا .

د

فمضينا نحو الجسر فعبرناه فى بهلوانية فصرنا فى القرية الأسمنتية الجديدة التى ابتناها أبناؤها . انعطف بنا مأمون فاذا بنا أمام محل بقالة ذى رصيف عال بسلم أسمنتى صغير ، صعدناه فى قفزتين ثم دخلنا الدكان : مروحة كبيرة فى السقف ثلاجة كبيرة جدا وأخرى صغيرة . رفوف تزدان بمئات الأنواع والألوان من المعلبات الأجنبية والصابون والحلويات وأشياء للأطفال لم يسمع بها أطفالهم بعد ، والتى وقفت بتبيع كل هذه الأشياء عجوز عجفاء لا تعرف أى حرف من أى لغة . طويلة كعمود النور صلبة ، بحنيه كحنية عامود النور أيضا لسبب عملى وليس بدافع الشيخوخة . ما أن رأتنا حتى افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة هتماء لطيفة ، ثم رفعت جزءا من البنك الخشبى وفتحت من تحته بابا صغيرا ، دخلنا منه الى جوف الدكان نفسه حيث جلسنا على دكة خشبية مستطيلة عليها بعض البضائع . ثم ان العجوز بنصف خطوة فتحت الثلاجة وأتت منها بزجاجة شويبس ــ باعتبارها آخر ما أعلن عنه حسب رغبة السكان هنا ــ فتحتها وقدمتها الى مأمون ، أخذها قائلا : « شكرا يا مرات خال » . ولما لم يكن ثمة من زبائن فى هذه اللحظة فانها وسعت لنفسها مكانا بجوارى على الدكة ثم جلست وصرت فاصلا بينها وبين مأمون .

نظر لى مأمون قائلا فى مداعبة : « هذه عجوز أخرى كالتى تركناها فى الدار لكن هذه أقوى وأعتى ، هى الجذع العتيق الحى

وباقى الأفرع لم يعد ينفع فى اروائها ماء » . داعبتها ببوزى فى صدرها وكتفها فدفعتنى عنها بخجل أنثوى أصيل ثم عادت فربتت على . وقال مأمون : « انها زوجة أخ جدتى ، يعنى هى زوجة خال خالتى بسيمة » . انتفض حتى الشعر فوق جلدى من الغضب والتحفز ، حيث تذكرت ما كنت سمعته عن هذه السيدة وكيف لعبت دورا فى تشريد طفولة بسيمة فقد سمعت انها لم تكتف بالاساءة اليها لتطفيشها هى وأمها من مملكتها بل عمدت الى تسفية جمالها وتلطيخه فى أنظار أهل القرية حتى تبتعد أنظار العرسان عنها وتتجه الى بناتها هى ، ومن يدرى فلعل مسيرة بسيمة فى الحياة كانت تغيرت لو لم يكن فى حياتها سيدة كهذه ، ثم عدت فقلت فى نفسى . هل يمكن ان يحاكم الانسان على ذنوب اقترفها من أربعين عاما أو أكثر مثلا ؟ وقلت على الفور ان هذا لا يجوز . لكننى أحس أنى سأظل غاضبا منها الى الأبد ..

ودخلت امرأة ريفية تحمل على صدرها طفلا نظيفا جدا أغلب اليقين انها خادمته . قالت : « مسا الخير يا خاله جل الخالق . مسا الخير ياس مأمون » فردا معا قائلين : « أهلا ياست الحسن » . أخذت أهوهو فى اتجاهها مرة وفى اتجاههما مرات وهما ينبهان على قائلين : « انها ليست غريبة .. انها حماة توفيق أفندى البحراوى المدرس الاعدادى » . وقالت العجوز دون مناسبة : « لولاها عليه .. يتركانها مسكينة كالخادمة ولا يعودان الا فى الليل من الدروس الخصوصية . ويتأمران عليها رغم ذلك » . وست الحسن تقول : « كله عند الله يا خاله جا الخالق وأنا أعاود النباح أكثر احتجاجا كأننى أقول : لا شأن لى بهذا ، المشكلة عندى ان ست الحسن اسم مفهوم لدى ، ولكن ما معنى اسم جا الخالق ؟ مأمون بذكائه قرأ أفكارى . فمال على هامسا : أتدرى ما معنى هذا الاسم ؟ انه اسم جميل جدا وصحة نطقة : جل الخالق . فدار رأسى من العبث وقلت لنفسى ان أولاد النفط يحملون الآن أسماء

أجنبية لا يعرفون معناها وها هي ست الحسن وجل الخالق امرأتان من عصور مضت لا تعرفان معنى أسميهما فالأمر اذن لقديم ٠٠

خرجت « ست الحسن » حاملة الصابون والزهرة ، وعادت جل الخالق الى الجلوس بجوارى قائلة لمأمون فى ود عميق : « مارحتش الفرح على طول ليه ؟ » أطرق مأمون ثم شرب جرعة شويبس ثم قال : « ما أنا جيت أهه كفايه » ٠ ضربت العجوز صدرها متنكرة : « يا عيب الشوم ٠٠ لا ٠٠ لازم تروح الفرح » ٠ ابتسم مأمون : « يمكن يطردونى » ٠ شهقت : « معقول ؟ » ٠ هز كتفيه : « العريس نفسه لم يدعنى وهو قطعة منى » ٠ ملست العجوز على كتفيه : « لهذا انت فى غير حاجة الى دعوة ٠٠ أنت الذى يدعو الآخرين بدلا منه » ٠ قال مأمون : « لا يا زوجة خال ٠٠ انت لا تفهمين جميل ٠٠ هو صحيح ابن ابنك ولكنك لا تفهمينه » ٠ قالت العجوز جل الخالق فى صدق : « جميل طيب وأبيض القلب كما عهدته ٠٠ لكنهم الملاعين الذين سيطروا عليه فقلبوا مخه ٠٠ لا تغزنك شدته فهو يتظاهر بها لكى يرضى أصحابه أولئك » ٠ قال مأمون بأسف : « الأمر ليس هكذا يا زوجة خال ٠٠ الأمر ان جميل جاد فيما يفعل ويقول ٠٠ انه يعتبرنى أفنديا كافرا ٠٠ وكل شىء استخدمه وافعله يراه هو كفرا وزندقة ٠٠ وهو يحرم على كل شىء ابتداء من البذلة حتى الراديو والأقلام والكتب والمدنية كلها » ٠٠

زحف الهم الشديد على وجه الجدة جل الخالق وصارت تبلع ريقها الجاف ثم تنهدت قائلة :

ـ « معك حق يا ولدى ٠٠ لقد سمم عيشنا وأصبح مصدر نكد لا ينتهى ٠٠ أبوه أصبح مهددا بالموت من جرائه ٠٠ انه يقاطعنا ٠٠ لا يأكل الذبيحة الا اذا كان هو نفسه أو أحد صحابه قد ذبحها ٠٠ أما غيرهم فغير مسلم فى نظرهم ٠٠ لحم الجزار يا بنى لا يطيق وجوده فى الدار ٠٠ أبوه طول الليل يخرف فى حجرته ويقول ليتنى أنجبت فتاة بدلا منه ٠٠ أبوه الذى حج بيت الله أكثر

من مرة ، وفعل كثيرا من الخير لوجه الله ، يطلع الولد المفعوص عليه فيقاطع حياته ولا يأكل معه فى طبق واحد ٠٠ لقد علمناه يا بنى وكنا نريد الصرف عليه فى المدارس العليا ولكنه تخرج فى دبلوم الصنايع قسم الكهربا ٠٠ يقولون ان الكهربا تضىء ، فلما علمناه اياها أراد أن يضعنا فى الظلام٠٠ أول شىء فعله ياولدى ان قسم البيت الى قسمين بضلع وباب ، هذا للحريم وهذا للرجال . ولا أحد من أهل هذا الباب يرى أهل هذا الباب الا من كان صاحب حق شرعى ٠٠ سمم عيشتنا يا ولدى وتسلط علينا وكلنا ضعاف أمامه فهو الكبير والوحيد ٠٠ لكنه طيب يا ولدى ٠٠ جميل ابن ابنى طيب القلب فلا تضمر له فى نفسك شيئا ٠٠ أنتم أهل ودمكم واحـد ٠٠ وغدا تحتاجه أو يحتاجك فيكون جسر الود قائمـا بينكما » ٠٠

استوقفها مأمون باشارة من أصبعه ، قال مع ابتسامه :

ـ « والله وحق كتاب الله يا زوجة خال ما اضمر لجميل شيئا فى صدرى غير الحب والمعزة ٠٠ اننى منذ شهور قليلة مضت كنت لا أزال أتصور انها أزمة طـارئة وانه سيفيق منهـا ويثوب الى رشده ٠٠ ورغم انك ، عدم المؤاخذة ، قد لا تفهمين ما أقول الكننى سأعيد عليك ما قلت له بالضبط ٠٠ لقد قلت له : اننا جميعا مؤمنون بالله والرسول عليه الصلاة والسلام ونؤدى كافة الفروض ـ والمسلم منا أثناء أوقات التعبد كلما كان شفافا كانت عبادته أعمق اذ هى توصـلـه الى حالة من الوجد يقربـه أكثر وأكثر من الله سبحانه ٠٠ ولذا فان الانسان الكامل ، المسلم الكامل ، هو الذى يؤدى عمله الحياتى بنجاح ، ويؤدى واجبه نحو الله بنجاح ، فتعال نتفق على ان جهود الشباب المثقف والمؤسسات الدينية تنصرف الى تثقيف المسلم الأمى ثقافة اسلامية تهدف الى تهذيبه وتمكين الصدق من نفسه حتى يصير بعد ذلك على قدر من الشفافية يفهم معها معنى فعل الخير فيكون نجاحه فى عمله رد فعل لنجاحه فى

أداء الفروض تجاه الله سبحانه ‥ هذا ما يمكن ان اتفق عليه معك يا جميل ‥ أما ان يتحول كل واحد منا الى مجاهد مستقل عنيف فمعنى ذلك ان كل واحد منا يريد ان يكون نبيا وحده ‥ وهل الجهاد ان نصادر الحياة والمخترعات والتقدم العلمي والتقني ؟ ‥ هذا عمل يؤدي لو فعلناه الى تخريب الحياة والعيش من جديد في الصحراء القاحلة ‥ فهل هذا يرضى الله سبحانه وتعالى ؟ أبدا أبدا يا جميل ان الله خلقنا لنعمر الكون ، وهو سبحانه يريدنا أن نسعى في مناكبها ونأكل من رزقها أي نحصل على رصيد من الخبرة والمعرفة وانكشاف الأسرار ‥ وكلما اكتشفنا سرا جديدا عن الكون والحياة والانسان اقتربنا من الله أكثر يا جميل ، أي اننا سنفهمه أكثر ، ستتجلى لنا قدراته الفائقة في كل نجاح تحققه سواء كان ذلك النجاح وصولا الى القمر أو الى طفل الأنابيب ‥ ان الله سبحانه يا جميل لن يتأثر من أفعالنا هذه لأنه سبحانه فوق ان يتأثر ، فكيف ينزعج شيوخ المساجد ويخطبون الناس بأن هذا كفر والحاد ؟ ‥ اننا يا جميل طول عمرنا مصابين بمن يحرم علينا شيئا من أدوات الحضارة ووسائلها ، وكان التاريخ بحركته الدافقة يهزمهم ويقوم الواقع بفرض الأداة أو تمكين الوسيلة ‥ اليوم خرجنا نحن يا أبناء البارحة يا من مات أباؤنا وأخوتنا الكبار في أربع حروب متواصلة ، فاذا بنا قد أصابتنا قوة سحرية تفرض علينا ان نقاطع أباءنا وأخوتنا ومعلمينا وتراثنا وفوق ذلك كله ما اكتشفه الانسان على مدى التاريخ ‥ كان الواجب علينا يا جميل ان نفكر في مستقبل بلادنا والى أين هي ذاهبة ، في أمر مستقبلنا وعند من سنكون خدما ‥ كان الواجب ان نصحو لنعرف من نحن من العصر الحاضر ومن الأمم التي تسعى للسيطرة علينا وابادة جنسنا المتخلف ، فمن بالله تراه المسئول عن بعثرتنا هكذا ؟ ‥ اننا يا جميل لم نعد مرتبطين ببعضنا أو ببلدنا ، كل واحد الآن يرتبط بداره فحسب ويقول : يلا نفسي ، وهو لا يعلم ان الريح اذا اشتدت فلن تبقى ولن تذر ‥ فلمصلحة

من يا جميل نرفع سلاح التكفير والتحريم ؟ ثم من أدراك أنت بالذات أو غيرك بالذات ان رأيك هو الصحيح الصائب ؟ هل معك توكيل رسمى من الله سبحانه ؟ من أنت حتى تحكم بتكفير هذا أو تحريم ذاك وانت غير ملم بالسرائر ولا بما يدور خلف الجدران وتحت الصدور ؟ ·· هناك ظواهر عامة يتفق الجميع على سوئها وخروجها عن الحدود فلتعمل على محاربتها ، أما القطيعة فهى غاية العجب ، هل تقاطع مجتمعا برمته ؟ تقاطع الكون كله مثلا وانت جزىء منه لن يتحرك الا بحركته هذه فى نفس هذا الاطار الذى ترفضه جملة وتفصيلا ؟ اننا لو سلمنا بقولكم هذا ياجميل لكان الخلاص من الحياة أكثر اسلاما وأطهر ايمانا ، فهو الحل الوحيد الذى يبقى روحك وجسدك طاهرين » ··

وجرع مأمون آخر رشفة ثم نحى الزجاجة بعيدا فى مأمن . وعلق فيما تتابعه العجوز جل الخالق بابتسامة بلهاء هتماء لطيفة مبهورة :

ـ « هذه الزجاجة صنعها كافر ·· ولكن الله سبحانه ليس يكره هذه الزجاجة وليس يكره صنعتها ولا انتشارها بين عباده المسلمين ، لأنها اختراع انســـانى والاختراع الهام ·· والالهام من الله » ··

قالت العجوز جل الخالق :

ـ « كلامك حلو يا مأمون ·· آه لو كان جميل مثلك » ··

ابتسم مأمون كأنه يتوقع منها هذا التعليق . ثم تهيأ لقول شىء عظيم الخطر ويدرك فى نفس الوقت مدى ما سيكون عليه من سخف · فبدأ وهو ابن العشرينات عجوزا فى الستينات ، جاف الوجه ضامر الخدين مجعد الشدقين · لففت أنا حوله ثم تسلقت ظهره ومددت بوزى بجوار رقبته كأننى أقول له : مالك يامأمون ؟ · فضغط على شفتيه فى تفكير عميق أسيف ممض ، وسمعت رنين الخواطر فى رأسه يقول : لقد كنت أبيت النية على حضور فرح

جميل ولهـذا أطلت أجازتي حتى اليـوم ، فاذا بي أراني مضطرا للمجيء لا لكي أثبت له انني علوت على الخلافات الشخصية فحسب، بل وبالأحرى لكي أبلغه نبأ قدوم جثمان عمة أبيه ، جثة من صلبه ولحمه ، لقد صاح واحد من السابلة عند رؤية الجثة قائلا : صاحب اللحم يلمه ٠٠ كيف أنقل الى احساس جميل كيف مزقتني هذه الكلمة في كبدي ؟ ٠٠ ان الخبر لا بد أن يكون قد وصله بشكل أو بآخر فجميع أطفال العب كله كانوا يتفرجون ، والواضح حتى الآن ان جميل مشغول بفرحه ، فكيف أقنعه اننا مبدئيا علينا أن نبادر بلم لحمنا ، ثم ان الأمر يقتضينا ـ انسانيا ـ ان ندعو الى التحقيق في مقتلها وفيما وراء عودتها هكذا ، وان نتابع القضية في جهاتها المختصة حتى نصل الى الحقيقة ، انه على جميع المستويات يكون أمرا مفيدا وشريفا معا ، أليس من المحتمل ـ وهو وارد ـ أن يكون وراءها ثروة ما نستفيد بهـا كلنـا ؟ أو سرا ما ينفعنـا في حياتنا ؟ أيا كان الأمر فانني واثق من أن التحقيق في مقتل بسيمة سوف يكشف عن أسرار هائلة ربما غيرت مجرى حياتنا ٠ وواثق أيضا من أن سعينا وراء هذه القضية يكون عملا شريفا جدا ومشرفا جدا ٠٠ بالله كيف أقنعه أن الانشغال بالبحث في قضية بسيمة والتحقيق وراء مقتلها وعودتها هكذا لهو أجدى بكثير جدا مما يفعلون أو يدعوننا الى فعله والا فلا نحن من صلبكم ولا أنتم من عصبنا ؟ هم يجعلون العمل استثناء والتعبد قاعدة ٠ هم يدعون الى تفريغ الذهن على الدوام من كل مشغلة دينوية والتفرغ لتصور الذات الالهية وعذاب يوم القيامة ٠٠ أريد أن أقول له ياجميل ان آيات الله سـبحانه مجسـدة في الواقع الذي تحياه معنا ونحياه معك وما عليك الا أن تستوعب كلام الله سبحانه ثم تلقى نظرة على الواقع لتستوعبه هو الآخر على مهل وبنفس هادئة ، لنكتشف كيف ان الآية القرآنية الفلانية قد تجسدت ها هنا حقيقة ، ان كتاب الله العظيم أنزله سبحانه علينا لا ليكون مجرد تميمة نعلقها في رقابنا وتحت رؤسـنا انما اراده سـبحانه أن يصبح لوحا محفوظا في

سريرة كل آدمي منذ البداية حتي اذا ما شرع يمـــارس الحياة ويتصادم بنقائضها ومفاجآتها ينطق لســـانه بالآية فيفهم مغزاها الالهي ومغزاها ان نتعظ أي نغير من سلوكنا الى السلوك الأقوم ·· من شريعـــة الله أن نبحث فى قضـــية كقضية بســـيمة على الأقل لنستوعب الآية الكبيرة التى ينطق بها لسان الحق فى أفئدتنا يوم نعثر على الحقيقة فيها ·· قضية بسيمة قد تكون معقدة والبحث فيها شاق وعسير ومحفوف بشتى أنواع المخاطر ، وقد تضيع أعمارنا دون أن نصل الى جوهر الحقيقة كاملة ، لكن يبقى لنا شرف البحث فيها واعطائها حقها الشرعى من الاهتمام ، فمن المؤكد اننا بمجرد اهتمامنا بالقضية واتخاذ موقف ايجابى منها سوف نجد متعة فى البحث ، ان البحث فى قضية بسيمة هو فى حد ذاته عمل ثقافي كبير فضلا عن كونه شرف وحمية وصون للحم الانسانى · هو طريق من مضى فيه لا يكون خاسرا أبدا ، ان انشغالنـــا بقضية مقتل بسيمة وتاريخ حياتها ليس ترفا ثقافيا بل هى مسألة تخصنا، ولكن بالله كيف أنقل لجميل كل هذه الخواطر والأحاسيس وهو رافض للحوار معى أصـــلا ما لم ألتزم بتشريعهم فى ســـلوكانى جميعا ·

ثم تنهد مأمون من كبد مسحوقة بالألم والعجز والأسف · وقالت العجوز جل الخالق وهى تنهى آخر طلب لزبون : « رحت فين ياولدى ؟ » فلم يرد مأمون فجلست بجواره وربتت على ظهره : « طب قوم روح الفرح ·· روح كده اسند قلبه قدام نسايبه ·· دانتوا لحم والضفر ما يطلعش من اللحم أبدا مهما كان » · قال مأمون بأسى واضح : « صح ·· القضية فى أساسها هى قضية اللحم ، لحمنا نحن ، اننا نتألم حين نخلع ضرسا لنا مضطرين - أو حين نخلع ظفرا ، فما بالك ونحن نخلع جسدا بحاله من جسدنا، نخلعه تماما ونتركه للكلاب تنهش فيه أمامنـــا دون أن تصيبنا وخزة ألم ··· نعم هى قضية اللحم يا زوجة خال » ·

قالت العجوز جل الخالق تخفى ســـخرية قديمة بينهما :

« شاعر ربابة زى جدك ·· صحيح العرق يمد لسابع جد ·· جدك ماجاش الفرح ليه ياواد وجاب الربابة معاه وعمل الشوية بتوعه ؟ ·· مكسوف ولا مستعر ؟ ولا مستكبر ؟ · ده أول فرح يتقام فى دارنا بعد سنين طويلة » ··

قال مأمون بصدق : « معك حق يازوجة خال ·· ما يحدث اليوم يحتاج شاعر ربابة حريف يحكى عما حدث وحدث ·· يعزف على أوتار الألم كيفما شاء حتى يتمزق الناس من فرط الألم ·· لا بد من شاعر برباب يعزف بالقوس على الرقاب » ··

وضحكت العجوز جل الخالق حتى صار فمها كفتحة الطلمبة مفتوحا على الفراغ يصدر حشرجة متواصلة ، ثم قالت : « كلكم متعبون ان انت أو هو ·· لسنا نفهم شيئا مما تقولون جميعكم يا أبناء هذه الأيام ويبدوا اننا خلفنا أعداء لنا » · وهنا نهض مأمون واقفا ، فهبطت وراءه · قالت العجوز : « أذاهب الى الفرح » قال مأمون : « لا ·· ذاهب الى الجناز » · ضربت صدرها بيدها فى خوف وذهول « جناز ·· تف من بقك ·· يا ساتر يارب » · قال مأمون وقد غاضـــت الدماء فى وجهه تماما : « يازوجة خال ·· أتذكرين ·· بسيمة ؟ ·· خالتى بسيمة ؟ بنت أخت زوجك » · صاحت كالمأخوذة : « يوه ·· قطعت ولا كانت ·· مالها ؟ » · قال مأمون : « اليوم عادت ·· ولكن جثة مقتولة ومعها ·· » · صاحت بلهفة : « معها ماذا · ثروة ؟ » قال ببسمة أسفة : « وجدوا معها محتوياتها القديمة أتذكرين يازوجة خال ؟ تلك الأشياء التى كنتم تتحدثون عنها ونحن صغار وتقولون كان معها خرج به كذا وكذا ·· العجيب يازوجة خال انها بعد الغياب هذه السنوات كلها عادت لبلدتها بهذه الأشياء فقط ، كأنها كانت ثروتها الوحيدة التى احتفظت بها فى بنك أمين » ··

شردت العجوز جل الخالق شرودا عظيما ، وصارت تبسمل وتحوقل وتردد ، أورادا وتعاويذا غامضة ، ثم قالت : « أين هى

اذن ؟ » . قال مأمون : « حملوا جثتها الى المشرحة ثم الثلاجة » . قالت العجوز بخجل سطحى : « كيف هذا ؟ » قال مأمون بخجل عميق : « تصورى يازوجة خال .. لم يتقدم أحد من المتفرجين وكانوا أمما ليقول انه صاحب اللحم .. حتى أنا يازوجة خال .. حين أوشكت الفرصة ان تواتينى فى الاقتراب من الشرطة للتحدث باسم الفقيدة مندوبا عن أهلها كنت قد صغرت فى نظر نفسى فجأة ووهنت قواى المعنوية تماما .. حيث كانت نظرات الواقفين جميعا تسلقنى بلمعات السخرية والاشفاق والاستهزاء وما الى ذلك .. وكنت أدرك ان بين هذه الأمم المتفرجة على الجثة لا بد واحد من أهلنا له صلة قربى بخالتى بسيمة .. وحط على شعور بازدراء كان دفاعى الوحيد أمامه أن أتنكر لصاحبة الجثة وأدعى بأننى لا أعرفها .. فانسحبت ـ تصورى ـ وعدت مع العائدين » ..

وكانت العجوز جل الخالق تهم بمقاطعته من حين لآخر تود أن تقول شيئا هاما . فلما سكت هجمت عليه وأسرت فى أذنه بفجيج رهيب : « أوعى تجيب السيرة دى قدام جميل ولا حد من زملائه .. اعمــل معروف يا ابنى .. خالتك الله يرحمها بقى .. مفيش داعى نصحى الجروح القديمة يا ابنى .. اعمل معروف .. احنا ماصدقنا الناس بطلت تجيب السيرة دى وطلعت أجيال جديدة زيكم معندهاش فكرة عن الحواديت القديمة دى .. عشان خاطرى يا ابنى ســيب الطابق مســــتور .. اعمل كأنك ما شــوفتش وما تعرفش .. كأن بسيمة دى لا هى خالتك ولا تعرفها .. انت كنت شفتها ولا عرفت شكلها ولا هى كانت تعرفك ؟ .. اسمع كلام جدتك العجوزة .. ســيب اللى يعرف يعرف وانت مالكش دعوة .. ناس قليلين اللى عرفوا .. شوية عجايز ما يحبوش كتر الكلام حيسكتوا وتعدى الحكاية .. انما أنت لو فتحت الســيرة قدام حد حتفضحوا نفسكم من أول وجديد .. الناس حترجع تجيب سيرتكم تانى وتحط راســـكم فى الوحل وتعيشوا طول عمركم

مذلولين ومناخيركم فى الأرض .. عشان خاطرى يا ابنى فضك من السيرة دى واطلع جرى على الفرح » . ثم قرصته قرصة صاح متوجعا من ألمها ..

ثم انه تأملهـا لبرهة غير وجيزة لكنه قال بعينيه أشياء كثيرة ثم اعتقل ما فى صـدره وقال : « طيب .. اتمسى بالخير يامرات خال » . فردت صائحة : « على الفرح على طول ياولد » . فهز رأسه موافقا : « ماشى يامرات خال » . ثم رفع البنك وخرج ، وخرجت فى آثره متجهين نحو الفرح .

باب الخـدم

★ العطب لا يصيب البذور الفاسدة

١

قال « مأمون » :

ـ « كان الحاج محمد عوضين النشرتاوى خال بسيمة يحمل هم أبنائه البنات فى ظل وجود بسيمة ، وهم كرامته ، كشخص تخين فقط وذى شارب ، فى ظل وجود أم بسيمة · ففى ظل وجود بسيمة لن يتزوج من أبنائه أحد ، اذ أن سمعة بسيمة تشوش عليهم · وفى ظل وجود أم بسيمة وهى امرأة شرقانة سوف تظل الألسن تلوك سيرته فى الفاضية والمليانة ··

« كان ذلك قبل الأربعينات بوقت قليل · والحاج محمد عوضين فى الأصل برادعى · شغلته صنع البرادع للحمير ، وهى صنعة ورثها

عن أجداده ولذا فعائلته كلها تحمل لقب البرادعي وان لم تمارس المهنة ، ولذا فهو أيضا صنايعي نظيف · يزور داره علية القوم ممن لديهم الحمير الركوبة ، القادرين على تكليف بردعة منجدة بالقطيفة مثل كرسى الصالون تماما · وهو خبير بأنواع الأقمشة والأحشية وأسعارها ولذا فيزور داره كذلك ناس من غير الموسرين ليصنع لهم برادع متوسطة القيمة لكنها جميلة رغم ذلك · وكان صاحب مزاج ، يهوى صحن حبات جوزة الطيب فى الهاون مخلوطة بالسكر ، ليسفها متلمظا قبل شاى العصارى حيث يفرش الحصير أمام الدار ويكمل تنجيد بردعة ، مرتديا ـ امعانا فى المعلمة ـ كامل ثياب الخروج ، يبك الدم من وجهه المربع المكتنز المبتهج دوما ··

« الرجال الذين يزورونه من أجل برادعهم يأخذون معهم بعض أمزجتهم الخاصة لتحيته كي يجود عملهم ، فقطعة أفيون تخرج من جيب واحد يتم امتصاصها بالشاى فى القعدة ، وقطعة حشيش من جيب آخر يتم تدخينها على الجوزة · وبنات الرجل الثلاث يدخلن ويخرجن بالشاى ، ذلك أن الصبيان يساعدون أباهم فى نفس الجلسة · وكل الرجال شيوخا وشبانا كانوا ما أن يرون احدى بناته حتى يخرجون عن وقارهم مهما كان اتزان شخصياتهم ، فكلهم بنات ملونات مائسات القد كأنهن القشدة أو كوز العسل · وكان الحاج محمد عوضين النشرتاوى يجد لذة كبرى ومتعة فائقة حين يرى أن بنتا من بناته قد أوقعت هيبة رجل كبير أو أدارت رأس شاب · لكن الرجال جميعهم شيوخا وشبانا كانوا لا يتمالكون أنفسهم لدى رؤيتهم لخالتى بسيمة وهى تمرق داخلة أو خارجة ، مما يقبض قلب الحاج عوضين · وقد ظل شهورا طويلة ينتظر أن يطرق بابه خاطب لواحدة من بناته أو حتى لبسيمة ولكن دون جدوى ··

« فاصطاد جدى خليل ، وكان فى ذلك الوقت البعيد قد ترك شغلة الرباب بعد انتشار ما يسمى بماكينة الغناء ذات الاسطوانة

والنفير عند العمد والأعيان ، واشتغل غرابليا أى صانعا للغرابيل ٠ وواقع الأمر أنه كان يحمل اسم الصنعة فقط أما هو فقد كان منتميا اليها بسبب واحد هو تسقط أخبار الحمير الميتة فى كل مكان حتى يذهب اليها بسرعة ويسلخها ويدبغها ويوردها لأهل المهنة الذين يقصونها فى خيوط رفيعة يصنعون منها الغرابيل الكبيرة ٠٠

كلاهما ـ جدى خليل وجدى عوضين ـ يعيش على شرف الحمير ـ أى أن القرابة بينهما أصيلة وواضحة ، فماذا لو دعمنا هذه القرابة بعمل كبير يحفظها على الدوام ؟ ٠٠ هكذا قال جدى عوضين لجدى خليل قبل ما يزيد عن أربعين عاما وكانا لحظتها يشربان معا سيجارة من البانجو فى مدخل دار جدى عوضين القديمة والقمر طالع ٠ فرد جدى خليل قائلا : « كيف ؟ » ٠ قال جدى عوضين : لديك عريس ولدى عروسة ٠٠ انت رجل غلبان وليس معك مهر تدفعه لأى عائلة ٠٠ ولأننا أصحاب فقد رأيت أن أهديك عروسا لابنك لا يحلم بمثلها ٠٠ انها بسيمة ابنة أختى ٠٠ ونكون أنا وأنت قد عملنا خيرا فى بنت يتيمة ٠٠ مامعك ادفعه واتكل على الله » ٠ وكان جدى خليل يعرف أن دواعى النسب بينهما ليست مجرد قرابتهما فى الحمير وانما هى سبب آخر تماما ، فالفلاحون فى القرية لا يتزوجون من أبناء الغرباء وان استطوطنوا القرية لأجيال ، اذ مهما كان الواحد من الغرباء موسرا بصنعته فهو ليس من البلدة وليس معروف العائلة ثم هو معرض لمغادرة القرية ذات يوم ، فطالما أنه ليس فلاحا يملك أرضا فى القرية فانه لا يبقيه فيها صنعة ولا زوجة ، لا يبقى الانسان مرتبطا بالأرض سوى الأرض نفسها التى يرتبط بها ويملكها وتتملكه كذلك لا يزوجون بناتهم لاجرى مثل جدى خليل يعتبرونه ـ حتى ولو امتلك قصورا ـ شحاذا بربابة ٠ لكن جدى خليل لم يناقش هذا مع جدى عوضين ، بل لم يضيع وقتا ، بالفعل اتكل على الله وبعد أيام قليلة جاء المأذون وعقد جلسة ، ثم انتقلت خالتى بسيمة الى دار جدى خليل زوجة لهريدى

الذى لم يكن وقتها سوى صبيا يصغرها بعامين وليس لديه خشونة الرجال • وقد ظهر لجدى بعد ذلك أن أحدا من العروسين لم يكن راغبا في الآخر بل لم يكن راغبا فى البلدة كلها • اختفى الاثنان فى مولد ، حيث انفصل كل منهما عن الآخر فى الزحام ، فذهب كل فى طريق ••

« لم يحزن أحد فى الواقع لاختفاء بسيمة ، انما الحزن كله كان على هريدى • وقد ظل جدى خليل يقاطع جدى عوضين ويعتبر أن الزيجة كانت نذير شؤم عليه أفقدته ولده الوحيد • ولم يكن مقدرا للعلاقة بينهما أن تعود ثانية لولا أن المصائب تجمع دائما بين أبناء وبنى الأزرق ، ذلك أن زوجة جدى أم هريدى قد كتمت الحزن على هريدى فى قلبها فلم يمض عام حتى ماتت ، فجاء جدى عوضين يعزيه ويحنو عليه شهورا طويلة حتى أحس جدى خليل أنه لم يعد يستغنى عن جدى عوضين • وفى ليلة كانا يدخنان حجرين من الحشيش فى دار جدى خليل ، فاذا بجدى عوضين يقول لجدى خليل : « تزوج ياخليل •• الزواج دواؤك •• أنت رجل مطرف وصحتك كالفرس ». جدى خليل ليس يضيع كثير وقت فى مثل هذه الأمور • ضربهـا حسبة فى دماغه فتيقن من وجاهة الاقتراح • فلما ألمح جدى عوضين الى نوع العروسة اللائقة صار الاقتراح أكثر وجاهة بل صار مطلبا عاجلا •• وهكذا تزوج جدى خليل من جدتى معزوزة والدة خالتى بسيمة وحماة ابنه هريدى فى مطلع العام الواحـــد والأربعين بعد التسعمائة والألف • وكان جدى خليل قويا كالفرس ، فأنجب منها ابنته التى أسماها « وطنية » ويفسر ذلك قائلا ان البلاد يوم ولادتها كانت على مشارف الانفجار من الغليان وكانت الأحزاب والفرق قد انتشرت فى كل مكان ومن لم يتحزب يضيع دمه بين الأحزاب ، وبين قمصان زرق وخضر وحمر وما الى ذلك من لعب العيال الذى تشكل فى ذلك الزمن فى فرق ضاعت البلاد بين نوازعها الشخصية الخاصة • وكان الكل يمضى الى عصبيات عمياء تأكل فى بعضها البعض والعدو

المحتل يأكل فيهم جميعا بعد أن يكونوا قد طابوا وأصبح لحمهم مستساغا ..

« ويقول جدى خليل انه يوم ميلاد ابنته « وطنية » كان لحظتها لبعض المتحزبين الذين يدعون الى التخريب والتحريق : « ياعالم خلوا عندكم رحمة بالبلد شوية » . فقال أحدهم فى غلظة : « يعنى عندك وطنية قوى ياخى ؟ » . لحظتذاك طب عليه خبر ولادة الطفلة فصاح قائلا كأن حبل الحديث لا يزال متصلا بينه وبين الآخر : « نعم عندى وطنية .. خلاص ياولاد .. سموها وطنية .. أهى كلمة حلوه برضه .. الناس يقولولى روح يا أبو وطنية تعالى يا أبو وطنية » ..

« وطنية » هذه هى أمى ، التى خرطها خراط البنات فى سنوات قليلة ليجعل منها ـ كما يقول الجميع ـ صورة طبق الأصل من أختها بسيمة ، حتى ان جدتى معزوزة كانت تنظر اليها طوال الليل وتبكى بلا سبب ، وفى النهاية قالت أن ربنا أعاد اليها بسيمة فى وطنية ، فكفت عن التفكير فيها ، وكفت كذلك عن الانجاب فلم تنفع معها بعد ذلك أى وصفة من الوصفات .

٢

وقال « مامون » :

ـ « يرجع مرجوعنا الى جدى عوضين ، حيث أوشكت بناته على البوار وهو مع ذلك لا يكف عن الانجاب والمقبرة لا تكف عن ابتلاع رؤوس متوالية . كان قد بقى لديه ولدان وثلاث بنات أكبر من عرايس . وكان أكثر أولاده معزة هو طاهر ـ والد صديقى جميل الذى نذهب الآن الى فرحه دون دعوة وربما كنا غير مرغوب فينا ـ ومعزته كانت بسبب انه آخر العنقود حيث ولد فى العام الثامن والثلاثين ، وكانت بقايا قنابل الحرب العالمية الاولى قد استنفرت قنابل الحرب العالمية الثانية والجو ملىء برائحة البارود ودخان الرعب والذعر ونكهة اللحم البشرى المحترق وقلة الخير ..

« العادة في قرانا أن أعز الأولاد هو الذى يحظى بقسط من العلم ، يصرفون عليه فى المدارس ، وهكذا تشجع جدى عوضين والحق ابنه طاهر بالمدارس الأولية ثم الابتدائية ، ثم فاجأهم طه حسين بمجانية التعليم فانتشر اسمه فى شهادات الميلاد فى قرى بنى الأزرق وامتلأت المدارس الابتدائية بالحفاة وأنصاف العراة والمقملين والمبرغتين ليحرزوا تفوقا غريبا في الدراسة يتقدم بهم الى الثانوية ثم الجامعات ٠ لكن عمى طاهر والد صديقى جميل كان تخين المخ الى حد كبير فلم يفلح فى الحصول على الابتدائية الا بشق الأنفس ، فألحقه أبوه بمعهد المعلمين العام فى احدى عواصم الديار المصرية المجاورة لنا تدعى « دحدور » ، فمكث به عامين اثنين حصل فيهما على شرف كبير جدا هو عضويته في أول بعثة تعليمية تخرج من القرية لتتعلم خارج البلاد ، الى جانب شرف الحصول على معلومات أكثر ومعاشرته لكثير من الأساتذة والمتعلمين ورؤيته للحياة والمدنية ٠ كلف أباه باهظ النفقات وعاد الى القرية طافشا من المدينة التى اتضح له أنها يلزمها نهر فلوس ، ومن الدراسة التى اتضح له أنها يلزمهـــا دماغ غير دماغه هو ٠٠

« لحظتذاك لم يستطع جدى عوضين كتمان الشعور بالحسرة ٠ وكان لأول مرة فى حياته قد بدأ يتيه على أهل القرية زهوا وتفاخرا ٠ ثم ان القرية كانت لأول مرة أيضا قد تنازلت عن معتقداتها القديمة تجاه الغرباء والحرفيين بل وتجاه كل شىء ، وبات أهلها ينظرون الى المتعلمين نظرة خاصة والى أهلهم نظرة احترام وتقدير ، وكان يسعده كما يسعد أهله منظر طاهر وهو يمشى بين صحابه المتعلمين مرتديا جلبابه الزفير المقلم ذى الياقة والأساور ويتناقش بعربية فصحى اذ أن المدارس تعلمهم اللغات الأجنبية وعلى رأسها العربية الفصحى ، بفضلها يصير الأولاد فصحاء وأذكياء واســـعى الحيلة فى التفـاهم والتخاطب ، ولكن يبدو أن اللغة العربية الفصحى تصيب من يتعلمها بداء الخطابة واستبدالها بأى فعل ٠ لكن بفضل تلمذة طاهر اتسعت

دائرة علاقات الأسرة اتساعا جميلا حتى خيل لجدى عوضين أن الدنيا أوسع صدرا وأحلى مما كان يتصور ، وبدأ شبان كثيرون يحومون حول دارهم ويتقربون اليهم و « يتكلمون » على البنات ويقرأون الفواتح · وهكذا أصبحت أسرتهم من علية القوم ، وكف أبوه عن شغل البرادع وافتتح دكان بقالة نظيف الى حـــد يمتلىء بعشرات المئات من الأصناف ··

« ما يحدث فى الدولة المصرية يتكرر عندنا فى الحال ، · اذ قامت عندنا الثورة الأزرقيـــة التى تمثلت فى أن يحـكم الناس أنفسهم دون ملك ، وبعد دوامـة طويلـة فى القـرى من الترشيح والانتخابـــات ظهــر أن الولـــد فـلان بن فـلان قـد أصـبح يجلس فى مكتب يسمونه الاتحاد الاشتراكى ويساق اليه ـ حين يشاء ـ كبار القوم مخفورين بالعسكر وتهتز لخطوة الأبدان والأبواب ، وأثر ذلك قد يأمر من معه باقتحام الدكان وتوزيع ما فيه من بضائع بمعرفته ·· وقس على هذا كثيرا مما حدث كتعبير عن الثورة الأزرقية الغراء المباركة ، ولكن يبقى لها الفضل فى أنها غيرت الكثير جدا من مفاهيم بنى الأزرق وعدلت الكثير من علاقاتهم ومعتقداتهم ··

« ذلك الزمان كان البداية الحقيقية الذهبية « لطاهر » والد صديقى « جميل » ·

« وكانت المقلقات قد تزايدت فى نفس جدى عوضين لأن ابنه وكان اتصال طاهر بالمدينة قد ادخـل فى حياة الاسرة اختراعـا جديدا من اختراعات الغرب اسمه جهاز الراديو ، يبث فيهم ــ من تلقائه ــ الأغنيات والاحتفالات بالثورة الأزرقية، والتمثيليات والخطب والنشرات وأم كلثوم ·· هذا الجهاز الساحر كان بدوره مقلقا لجدى عوضين اذ هو لا يكف عن دلق الأخبار المتوعدة المهددة المنددة المتجددة باستمرار ، حتى خيل لجدى عوضين ان قد وقعنا فى حرب مع الدنيا كلها حتى مع العرب ، حيث لا يكف الراديو عن شــتمهم وتهزىء ملوكهم ، وانه قد يدفع ابنه ثمنا لهذه المهاترات الثورية · ولو حدث

ذلك فان الدكان يغلق أبوابه لأن طاهر لا يصلح للوقوف فيه بائعا .

« وهكذا كان جدى عوضين قد صلى الفجر فى احدى الليالى متخلصا من هذه الأفكار بصعوبة ، وذهب كالعادة ليفتح الدكان ويبخره ، ولأن الدكان لصق البيت والباب مجاور للباب فانه في العادة يدخل البيت ليحضر المفاتيح ، فاذا به يدخل ويتمدد على السرير موصيا بألا يصحيه أحد . وحين طالت نومته اضطروا الى ايقاظه لتناول الغداء فوجدوه ميتا . أه من تلك الأيام . كانت جثة جدى عوضين وهى راقدة فى النعش ـ كما يقولون ـ تدفع النعش بحامليه نحو قرية « الحصة » المجاورة ليزور عمه فى العهد الشيخ رفعت الفرغانى صاحب الطريقة الفرغانية . عبثا حاولوا عدل الجثة نحو مقابر البلدة . فذهبوا بها راغمين الى مقر الشيخ الفرغاني ، الذى قرأ الفاتحة على رأسها وتمتم ببعض التعاويذ ، ثم قال لهم احملوها ، فحملوها فامتثلت لأيديهم ولكنها توقفت عند مقابر الفرغانية وصارت تترجرج وتهدد بالوقوع حتى جاءهم أمر من الشيخ الفرغانى بدفنها فى مقابرهم ، فدفنوها فى مقابر الفرغانية وعادوا يلهجون بذكر الحادث سنين طويلة بغية اثبات طيبة جدى عوضين وكراماته . لكنهم وهم يقولون ذلك كانوا هم أنفسهم فى بعض الأحيان يسخرون قائلين ان الجثة كانت ذكية اذ نجت بنفسها من مقابر الصدقة ـ حيث ان الأسرة لم يكن لها مقابر وهذا دليل عدم أصالتها ـ الى مقابر الأولياء الصالحين ، أى أنها جثة قد اغتربت هى الأخرى مثلما اغترب صاحبها ذات يوم ..

« .. ما أرجلها جدتى «معزوزة» هى أيضا مدربة على الاغتراب مستعدة لمواجهة الحياة وحدها فى أية لحظة . قامت بالدكان وحدها تبيع وتشترى وتذهب الى مدينة المركز لاستلام التموين وتبصم ، وتجيئها عربات الجاز والدخان والكازوزة ، ولم تكن تجد غضاضة فى أن تقف احدى بناتها لتبيع فى الدكان وفى نفس الوقت تعرض

نفسها لمن يريد تأمل جمالها على مهل لعله يتزوجها · الا أن « طاهر » الذى كان مفقودا منه الأمل نشط وصارت له كلمة فى البلد · كانوا فى البداية يراقبونه فى سـخرية وهو يتزعم ما أسموه بمنظمات الشباب ، ويمشى فى البلد بجدية يتكلم بطلاقة ويردد الشعارات التى يسمعها فى الاتحاد الاشتراكى من المتكلمين باسم الثورة · فلما فوجئوا بأن طاهر وزملاءه قابلوا الزعيم الخالد ورأوا بأعينهم صورة طاهر يسلم عليه وضعوه فى مصاف علية القـوم ، حتى ان أولاد الأعيان السابقين ومشايخ البلد والأغنياء الذين كانوا منذ زمن قليل يتأففون من طاهر وأمثاله من أبناء الأجرية أصبحوا يسلمون عليه فى احترام مشوب بالخوف ، بل انهم تلقوا توصيات من آبائهم وهم سياسيون قدامى وفديين وسعديين ودستوريين وما الى ذلك ــ بأن يتجنبوا طاهر ورفاقه الا بالحسنى والامتثال التام خوفا من أن يكتب فى أحدهم تقريرا يذهب به الى ما وراء الأفق غير المرئى ··

« طاهر » الذى كان ولدا لا تأخذ منه سوى الكلام الفارغ المنمق والقنزحة ، أصبح نجما لامعا فى المنطقة المجاورة كلها · وقد استخدم قدرته على الكلام الفارغ ومحفوظاته من أشعار مجنون ليلى والمتنبى ونثريات المنفلوطى فصار خطيبا مفوها . وأصبح « طاهر » بذلك اذا انفرد بجماعة من الشبان خلب ألبابهم وانتزع الهتاف من حناجرهم . حتى الكهول من أهل القرى الذين عاشوا أجيالا طويلة لا يربطهم بالحكام والنواب والسياسيين سوى خطب فى اثر خطب من وراء خطب ، تكونت لديهم عادة التصفيق حتى وان لم يفهموا من الخطبة شيئا أى شىء ··

من خطبة هنا الى خطبة هناك أصبح مشيعا بالتصفيق والهتاف أينما ذهب بأعوامه الثمانى عشر أو أزيد قليلا وقتذاك كان يبـدو مبشرا بمستقبل باهر فى الأنظمة السياسية بل كان مؤهلا لأن يصبح رئيسـا لأى شىء بدون انتخابات لولا أنه كان بلا محتوى سياسى وبلا مضمون وبلا تجربة انسانية وبلا رصيد ثقافى أصيل أو حتى

مستعار · كان فقـــط مليئا بالعقد والأحقاد تجـــاه كل الموسرين والناجحين والأذكياء ، ثم انه كان هجاصا لا يتورع عن وضع رقبته في حبل المشنقة في سبيل تعبير أحمق يصفق له المتفرجون في حمق أيضـــا ··

« في كل يوم يسافر الى المحافظة ليعقد اجتماعات ويحضر محاضرات ويلتقي بمسئولين في الحزب واللجنة المركزية · الشعب الأزرقي شعب غريب ، انك مع ذلك ربما كنت معذورا أيها الشعب الأزرقي ، اذ أنت تعلم أن السلطة هي كل شيء في تاريخ هذه البلاد وان من حصل عليها حصل على كل شيء ، وقديما كان ملوك أرضك لا يتركونها الا مقتولين ، من يريد أن يصبح ملكا عليه أن يصحو مبكرا قبل الملك الأصلي حتى ولو كان أحد خدمه الموكلين بخدمته ، هكذا دون محاكمة أو وجع دماغ ، وأنت تبارك كل ذلك ليس لأنك بطبعك شرس مغرم بالظلم وحب الظالمين بل لاعتقادك الراسخ أن من حصل على السلطة حصل على كل شيء وصار هو الأقوى بكل المقاييس وانك صرت بالمقابل أعزل من كافة الأسلحة ، لأنه لا سلاح يجدي مع التسلط القوى الا تسلط أقوى وأعتى ··

« المعروف أن خير سلاح في مثل هذه الحالة المستعصية هو سلاح المعرفة ، سلاح البحث والكشف عن اليقين في الواقع اليومي ، أن تبحث في خطف طفل كل يوم ، أن تبحث في تكاتف الثروات لدى البعض دون مبرر منطقي معروف ، أن تبحث في أخبار المختلسين ، أن تبحث في مظاهر الأبهة الزاحفة دوما على تجـار المخدرات · على أن الشعب الأزرقي لم يقدر لهم سلوك طرق مثل هذه الأبحاث منذ قيام الثورة الأزرقية ، فدائما أبدا هناك قضية أساسية مطروحة على موائد البحث السريع الحاسم من أجلها ننسى الغداء والعشاء والفطور واللباس والايواء · ولهذا فان المناخ صالح دائما لأن يصبح أمثال عمي طاهر ذاك من الزعماء والحكام ··

« لازلت أذكر حكاياهم عنه في طفولتي · كيف كان يصحو من النوم متأخرا والجماهير في انتظاره في المندره ·· وكيف تقرب اليه

الأعيان فتزوجوا من اخوته البنات فى خلال عام واحد ، حيث شهدت القرية ثلاث أفراح على مستوى العاصمة وليس المركز فحسب ، اذ شرف بالحضور رجال من نواب اللجان المركزية والتنفيذية وأمناء المراكز ورؤساء مجالس المدن والقرى ٠

« في غمضة عين أصبح عمى «طاهر» ذاك أمينا للاتحاد الاشتراكى عن البلدة ٠ وكان بين أعيان البلدة كثيرا من المستنيرين وأبنائهم المتعلمين فى رصانة وحسن ذوق ، يعملون فى تجارة المحاصيل أو الأخشاب أو الأقمشة أو الأقطان أو يقرضون بالربا أو يشاركون فى اقتناء الأبقار والماشية مع الفلاحين يستفيدون من لبنها ونسلها على الدوام ، وكانوا جميعا فى أعماقهم يحتقرون عمى طاهر ذاك ٠ لكنهم مع ذلك ـ وياللعجب ـ ساعدوه مساعدة جبارة فى تصعيده من أمانة الشباب الى أمانة الاتحاد على مستوى القرية ثم على مستوى المركز ٠ الأمر كما عرفت أنا باجتهادى الخاص لم يكن فى حاجة الى العجب ، اذ أن هؤلاء الأعيان الأثرياء الذين ساعدوه بكل هذه الأموال والهتاف والمعاضدة ، لم يكونوا يفعلون ذلك عبثا ، بل هم فى الواقع كانوا يصنعون لأنفسهم مطية يركبونها داخل عقر دار الحكومة الثورية الجديدة فها هو ذا أمين المركز من صنعهم ، بأموالهم وأصواتهم ووجودهم جلس على هذا المكتب ، لا لكى يمارس وضعه كأمين ينوب عن أهل الدائرة فى مراقبة وصنع قرارات لصالحهم بل ليكون مجرد خادم لمصالح هؤلاء الذين صنعوه ٠ وبالفعل حين اهتمت بالبحث فى تاريخ عم طاهر السياسى وجدته مجرد خدمات استفاد بها الأعيان وحدهم ، اذ بفضله رفعوا أسعارا وأخفوا سلعا ووضعوا أيديهم على قطع أرض وأمكنة وبضائع وتموين وامتيازات ماكانوا يحلمون بها ٠٠ حتى أنهم فكروا جديا فى ترشيحه لمجلس الأمة وامامه ليصرف من جنيه الى آلاف ، لكن ، تأتى الرياح دائمـا ٠٠ بما لا يشتهى السفن ٠٠

« فحيث كان قد أعد نفسه للترشيح بالفعل تصادف أن كان عبد الجبار فى زيارة للبلدة • عبد الجبار هذا هو أحد أبناء بلدتنا هذه وأحد أساطيرها فى نفس الوقت • أبوه وأعمامه لازالوا يعيشون فى مساكن ملاصقة لبلدتنا أشبه بالمستعمرة يقيمون حول أنفسهم حالة من التقديس الكاذب ••

« لا أحد من جيلنا أو الأجيال السابقة علينا يذكر شيئا عنه • لكن أجيالا كبيرة تحكى عن ذكرياتها معه فى المدرسة • هو الآن شيخ المهندسين وشيخ المقاولين وذو مناصب لا حصر لها • كان قد جاء الى البلدة فى مناسبة كبيرة ليضع حجر الأساس فى مبنى مركز ثقافى تبرع هو بانشائه فى البلدة على نفقته الخاصة • قبلها بيومين جاء الى عم طاهر واحد من الأعيان بليل وأسر فى أذنه أن عبد الجبار قد أرسل رجاله فوضعوا أيديهم على قطعة أرض تصل الى عشرة أفدنه من أرض الحكومة فى زمام البلدة وأنهم قد شرعوا فى البناء عليها ، فهل ياترى كل هذه الأرض للمركز الثقافى ؟ ••

« لو ترك الأمر لعم طاهر لما توصل بذكائه الى أى شىء • لكن الواحد العين سرعان ما صار اثنين ثم ثلاثة ثم عشرا يجلسون مع عم طاهر تحت جنح المساء يتكلمون فى حرقة وغيظ منبهين الى أن ابن شقيقة عبد الجبار قد تخرج في كلية الزراعة وأن خاله عبد الجبار قرر أن يقدم له هدية النجاح مزرعة كبيرة حافلة ، وأن عبد الجبار قد وضع يده على قطعة الأرض بالمجان بحجة اقامة مركز ثقافى لا يحتاج لأكثر من فدان مثلا • ولم يكن عم طاهر قد تعود أن يراجع أحدا من الذين يرسلون له الهدايا سرا فى لفائف مربوطة ومظاريف مغلقة • فلما أصبح الصباح ذهب ليتحرى فعرف أن الأمر صحيح مائة فى المائة ، وفى اللحظة التى هم فيها بأن يأمر شباب المنظمة بالتوجه الى قطعة الأرض المذكورة وايقاف البنـــائين فوجىء بأن الشـــباب يمتدحون له الفكرة بحماس كبير قائلين أن هذه المزرعة تعد مشروعا آخر فوق مشروع المركز الثقافى وأنها ستصبح مصدر اشعاع فى

المنطقة تورد الطيور والدواجن والزهور والعسل وكل شيء ، انها ستصنع رواجا في الناحية وتقوم بتشغيل الموظفين والعمال • كاد يجاريهم ويقتنع هو الآخر لولا أنه تذكر أولياء نعمتـــه هو وكيف يكون موقفه أمامهم •• انه يعرف أن فريق الحكومة لابد أن يغلب ، لكنه يعرف أيضا أن فريق الأغنياء في بلادنا يكون الأغلب ولو على المدى الطويل ، انهم يستطيعون تغذية أي قوة ضد من لا يعجبهم ، ثم وطن النفس على فعل ما يستطيع فعله حماية لعلاقته بالأغنياء ••

« كان يوما مشهودا • جاء عبد الجبار تحفه مواكب الحراس والمرافقين والمسئولين على مستوى المحافظـة • وأجريت مراســيم الاستقبال في أمانة الاتحاد بالبلدة وسط جمع غفير • وأوشــك عبد الجبار أن يتقدم ليقص الشريط ويضع الحجر الذى نقشوا عليه اسمه وتاريخه وأفضاله ، لولا أن تمكن عم طاهر من هزيمة تردده وطلب الكلمة للاستفسار عن شيء فلما أعطيت له اذا به يحولها الى خطبة عصماء حافلة بالعبارات الرنانة الكبيرة ضد الظلم والتسلط والاستيلاء على أراضي الحكومة ، ثم ختمها بأن المركز الثقافي لا يتطلب أكثر من فدان أو فدانين على الأكثر فهل ياترى تدفع الحكومة ثمن مقر لمزرعة أحد المواطنين ؟ ان أرض الحكومة هي في الواقع ملك للاتحاد الاشتراكي وهو لا يفرط فيها الا لأغراض قومية وطنية •• الخ الخ ••

« وارتفع دوى التصفيق بشكل أرضاه وأثلج صدره تماما ،لكنه لمح في عين عبد الجبار نظرة حقد مسموم لبرهة عابرة فلم يعبأ بها • وتقدم عبد الجبار فشرح للجماهير كيف أنه أسف لاضطراره سحب فعل خير أراد أن يفعله • فقد كان ينوى اقامة مزرعة على نفقته الخاصة تكون مصدر رواج للمنطقة وخير لأهل البلدة •• وقال ان سيادة الأمين مادام قد اعترض فانه سينزل عند رغبته ويســحب المشروع • وهنا ارتفع نفس التصفيق ونفس الهياج مطالبا ببقاء المشروع هاتفا له •• فحينئذ تقدم عبد الجبار وخطب فيهم من جديد

قائلا انه نزولا على رغبتهم وهم أهله الأعزاء قرر الاستمرار فى دعم المشروع • ثم انهم وسعوا له فتقدم وقص الشريط ووضع الحجر فيما أخذ عم طاهر يفتعل خطبة أخرى يعلن فيها سعادته بالامتثال لرأى الجماعة تمشيا مع الروح الاشتراكية الديمقراطية !! ••

« الطريف أن المزرعة أقيمت أما المركز الثقافى فلم يرد له ذكر بعد ذلك • لكن الأولاد كانوا يتندرون كلما مروا بمزرعة عبد الجبار فيشيرون اليها قائلين : المركز الثقـــافى • وواقع الأمر أن المركز الثقافى لفرط حب البلدة له ولاسمه أطلقوا اسمه على منطقة المزرعة وظلوا يتمسكون به حتى الآن رغم أن المركز لم يقم بتاتا ••

« وفيما كانت جدران المركز ترتفع بسرعة كان عم « طاهر » قد سافر الى المحافظة ليعرف الأخبار حول اسمه المرشح للبرلمان فاذا به يفاجأ بمصيبة ، انه مطلوب لمقابلة مسئول كبير خطير فى المحافظة• فذهب لمقابلته يتعثر في شكوكه ، فاذا بالمسئول الكبير يلقاه على غير العادة بوجه متجهم وعلى غير العادة أيضا يأمره بالجلوس ، ثم يأخذ في استجوابه بعد مقدمة طويلة رهيبة عن الشخصية السياسية وسمعتها وما الى ذلك ، أبدا لم يكن عم طاهر يتوقع أن تجيئه هذه الضربة القاصمة من هذه النافذة التى كانت حتى وقتذاك مجهولة له تماما ، أو كانت بمعنى أصح غائبة عن وعيه • ذلك أن المســـئول الكبير راح يستجوبه برهبة حول علاقته بابنة عمته بسيمة ؟ •• ابنة عمته بسيمة ؟ كيف •• من بحق الشيطان أيقظها من رقدتها فى جب النسيان العميق ؟ •• من يا ترى يكون قد رفع في وجهه هذا المطعن ؟ •• انه لا يكاد يذكر شكلها ، انه لم يرها أصلا ، لقد هربت قبل أن يعى الدنيا ، ثم أنه ليس مسئولا عنها ، انها بالنسبة له مجرد قصة حكاها الناس من حوله فاستوثق من صحتها من أبيه بعد ضنى شديد ، ثم نساها ، وليس له أى علاقة بها ••

« عم « طاهر » أفرغ كل هذه الخواطر على مكتب المسئول الذى يعود أكثر بردوا فيقول له ماهى علاقتك بشغلها ، انها تعمل راقصة

فى شارع العوالم فى احدى العواصم الأزرقية الكبيرة ، وفى الأفراح ، ولكنها فى نفس الوقت تعمل بالتهريب ، تهريب المخدرات وبعض الممنوعات الأخرى ، الحق ياطاهر أن وراءها أقاويل كثيرة ووقائع ثابتة وقد جاءتنا أوامر بالتحقيق مع كل أفراد عائلتها ، ولدى فى الواقع أمر ب .. ب .. وهنـــا عرف عم طـاهر أنه قد تم عزله سياسيا ، وخشى أن يتطاير الشرر الى بعيد ، أن تفرض عليه الحراسة مدفوعة بأحد من سببين : ابنة عمته البغى المهربة وعمـــله كأمين للاتحاد الاشتراكى فى دائرة صـــغيرة فكون ثروة كبيرة فى أعوام قليلة . لكن المسئول رفع له قلبه الى موضعه حين طمأنه أن الأمر لا يتجاوز حدود العزل فحسب .. نطقها المسئول الكبير دون أن يسأل هو بشكل مباشر اذ أنه بخبرته فى الثراء من خلال المنصب أدرك هموم عم طاهر ومشاغله المباشرة ..

« وهكذا انزوى عم طاهر الى ركن بعيد من الحياة واستهدف الكسب والثراء المتزايد . فركز جهوده مستخدما علاقاته القديمة فى التسهيل مقابل المنفعة المجزية ، فكان بذلك أول المنتقلين الى البناء فى هذه القرية الاسمنتية الجديدة ببناء على الطراز الأجنبى محاطا بحديقة عجفاء . وكان قد تزوج ابنة أحد الأعيان السابقين ، فعلمته كيفية الحياة المدنية الرقيقة وأنجبت له فى العام الثامن والخمسين بنتا ، ثم بنتا ثم ابنا هو صديقى جميل ، ثم بنتا ثالثة كأنها صفة ورثها عن أبيه ..

« كأنما الظروف كانت تلعب لحساب عم طاهر من وجـه اذ قلبت له ظهر المجن من وجه آخر .. اذ ما كاد ينسى حلاوة الأضواء والتصفيق والهتاف والســـير بين الناس كمشروع زعيم من زعماء المستقبل ، اذا بأخيه عم صادق يموت فى حرب السادس والخمسين وقـــد حزن الجميع عـــلى عم « صـادق » الطيب الوديـع الا عم « طاهر » فقد شخط فى الجميع محذرا من الحزن على موت الشهيد ، وكان يصفق مع فايده كامل فى نشوة بالغة مغنيا : عاد السلام يانيل ياشعب حر أصيل . وحقيقة الأمر انه كان سعيدا اذ خلصه الله من مشارك له فى الميراث ..

« لك أن تعجب حين تعرف أن بنات عم طاهر الثلاث وأخوهم جميل لم يكونوا يعرفون عن أمر عمهم « صادق » الا النذر اليسير ، كان مجرد اسم يتردد فى بعض المناسبات » ··

« اتسعت تجارة عم طاهر فلم تلتفت اليه قوانين المصادرة أو التأمين ذلك أنها اتسعت فى الزمن الملائم حين زحف عقد السبعينات مقتديا بالتقدم المصرى الهائل مهللا لحرية رأس المال والامتلاك ، يزف الملاك والسماسرة بموكب بهيج كأنهم الأبطال الفاتحون · وبعد أن كنا نعانى ضائقة مالية بسبب النكسة وندبر أمورنا كيفما اتفق ، اذا بالأموال تخرج فجأة من تحت البلاط وترفع قامتها تريد أن تشم الهواء هى الأخرى بعد طول تكدس تحت العفن ··

« هكذا كانوا يقولون تعليقا على أموال عم طاهر التى اكتشفت فجأة وتمثلت فى أراض زراعية يشتريها ، وجرارات وعربات أجرة ومحاريث ومكن مياه · لكنهم ـ اسألنى عنهم ـ لا يعنون مايقولون أبدا ، انهم حين يقولون لعم طاهر : « طلع اللى تحت البلاطة » ، فانما يقولونها بلهجة ذات معنى كأن عبارة « تحت البلاطة » هذه مجرد رمز للمصدر الذى جاءت منه الثروة أيا كان وضعه ، انهم لا يريدون أن يقولوا له أنت لص أو سفاح أو مكتنز ، بل يخلقون بديلا لهذا المعنى فيقولون له أنت شاطر أنت جدع انت ناجح ·· غير أن عقدا شفويا مجهولا تم توقيعه بينه ـ كأى ناجح من هذا النوع ـ وبينهم ، يقضى بأن يكون كل منا مقتنعا بزيف ما يقال ، يكون هو مقتنعا بأنه ابن ····· قواد وأنهم منافقون جيدون لا خطر منهم ··

« لديه كما تعلمون ثلاث بنات يقلن للقمر : قم لنجلس مطرحك والعجب أنهم كن يعبرن بقرب الشبه بينهن وبين خالتى بسيمه ، ولكن سبب الغيرة كان هو نفسه سبب الفتنة · ثلاث أقمار فوق ثلاث أبدان منحوتة من القشدة تكاد الأعضاء البارزة تندلق أو تنثال على بعضها ثم تعود فتنفصل وتستقل استقلالا فريدا ، حتى صغراهن ابنة الثانية عشرة من عمرها كانت تلهب فوق الشباب رجالا فى

الخمسين٠ وبقدر ما كان يضرب بجمالهن المثل في البلدة كانت أحزان صديقي جميل ونحن في المدرسة الابتدائية اذ ينطوي هو على نفسه انطواء شديدا ، وكنت أضبطه متلبسا بالنظر اليهن تارة في حقد وفي انبهار تارة أخرى ، فلما يراني قد رأيته يكتسي وجهه بالدم ويزفر في هم مقيم ، فأقول له : مالك ٠٠ فلا يرد ٠٠ لكنني كنت أعرف سر أزمته ، انه يحبهن بشدة ويغار عليهن بشدة ، وينفر من الصداقات مهما كانت نوايا الأصدقاء تجاهه طيبة ، ظنا منه أنهم جميعا يصاحبونه من أجل البصبصة لاخوته البنات ، وكان يريد أن يجنبهن فرصة أن يلوك سيرتهن أحد ، مع أنه كان من بين من يودون مصاحبته أولاد أنقياء شرفاء قد لا يعرفون اخوته ، وكان يصدهم عنه في خجل وحياء وأدب ٠٠

« أراحه أبوه من هذه الأزمة ٠ وكان الأب ـ عم طاهر ـ قد توصل الى اقتناع تام بفسولة المتعلمين والجامعيين بل وفكرة التعليم من أساسها ، فماذا سيفعل الولد بالتعليم ؟ انه لن يوافق على توظيفه في الحكومة بسبعة عشر جنيها في الشهر ، هل يعلمه ليصبح شحاذا مرتشيا يعيش في الحضيض ؟ لا ، ان أعماله هو تحتاج اليه ، ومعظم أعماله آلات كهربائية ، وهو قد مال الى المتاجرة في الآلات الكهربائية الزراعية منها خاصة ، فليكن ابنه جميل مديرا لكل شركاته ، اذن فليدخل مدرسة الصنايع قسم كهرباء ليدرس الكهرباء دراسة تنفعه في ادارة شغله ٠٠ وبهذا لم يختلط جميل بأوساط طلابية عريضة أي أنه لم ير المجتمع الأزرقي على حقيقته ٠ ثم ان عم طاهر قد تصيد تاجرا سعوديا كبيرا في الخمسين من عمره لديه أموال طائلة ، ما أن رأى البنات حتى تربع في جلسته وصار يغدق من العطايا والهدايا ما يفوق التصور ، وعم طاهر يبلع بقوة الأرض الشراقي ٠٠ فلما سافر السعودي أرسل كل هذه الجرارات هدية باسم احدى البنات ـ التي قدمت الطعام لهم ـ ثم تفاقم الشوق وتفاقم الانفاق فحضر العجوز يطلب يد الفتاة بأي ثمن ٠٠ فطلب عم طاهر شركة باسمها وعمارة في المدينة وأرصدة في البنوك ووصايا

ففعل العجوز كل ذلك دون مقاومة ثم أخذ الفتاة وحولها الى أميرة فاجرة عاهرة فى الخفاء وربما العلن · وبفضل « سوسن » تعرفت أختها « ايفا » ـ شف الأسماء العجيبة ـ على أمير كويتى فتزوجته رغم عدم بلوغها السن القانونية ··

« بذلك أصبح عم طاهر يمتلك هذه القطعة كلها من أرض البناء التى كون بشأنها شركة بناء قامت بالتقسيم والبناء وادخال المرافق ، ولاتزال تمارس البيع والبناء فى أرض كانت للأسف من أجود الأحواض الزراعية وأخصبها فى البلدة كلها · وتحول عم طاهر الى امبراطور يخدمه عشرات الخدم ويتزلف اليه عشرات المئات من الموظفين الغلابة طالبى الشقق أو الحاجات · مع ذلك لم يلغ دكان البقالة ، بل تركه ليكون على الأقل مجرد مستودع لاحتياجات أسرته من المواد الغذائية ، فأحاله كما رأيت الى « سوبر ماركت » يدوس فيه الدهماء ويخرجون كما دخلوا فى غباء يستبشع أسعار الأشياء قبل أن يكتشف غرابتها ··

« غير أن العطب كان قد أصاب صديقى جميل فجأة وفور تخرجه من مدرسة الصنايع · هذا ليس تعبيرى ، انما هو تعبير أبيه نفسه الذى صار يقوله فى حسرة ، انه ابنه الوحيد ، وأرث كل هذه الثروات ، يقاطعه ويعتبره كافرا ، ويزهد فى كل شىء ، ولا يستخدم من مقتنيات أبيه أى شىء ، شاب يفعل هذا لابد أن يكون أصابه العطب ··

« وكان عم « طاهر » يسعى الى الانفراد بى فى ذلك الوقت على غير العادة وهو الذى كان اذا اضطر الى العطف على بهدية صغيرة يبعثها مع جميل أو مع جدتى معزوزة الى دارنا ، وكان يتحاشى الانفراد بى ظنا منه أننى قد أطلب مساعدة ـ ألست يتيما وابن شهيد · فلما سعى هو الى الانفراد بى ما طلته وأعطيته ميعادا ثم ذهبت متأخرا · وحين دخلت عليه جلست دون استئذان ثم وضعت ساقا على ساق كأننى رجل ينادده · فراح يسألنى عن أحوالى

ومستقبلى وأوضاعى المادية وما الى ذلك ، فأفهمته بلهجة مقتضبة ان كل الأمور بالنسبة لى على خير ما يرام ، وليس من أى عائق يعوقنى فى الحياة سوى اضطهاد « بعض الجهات » لى ولكننى لا أعبأ بها ، وضغطت على عبارة « بعض الجهات » هذه كما كنت أسمعها دائما من بعض السياسيين الكبار ، لكى تصورنى فى نظره رجلا ذا رأى وعلى قدر من المسئولية ..

« كنت أعرف أنه كان يتمنى في أعماقه لو ان ابنه جميل كان أعلى مستوى فى التفكير من مستواى ، وأنضج علميا ، بل كان يتمنى فوق ما يتمنى الا أكون أنا وأمثالى من حثالة القوم والمجتمع أصدقاء لابنه جميل . كان دائما يقرب ابنه « جميل » من أبناء ذوات القرن العشرين ، الملاك المسافرين دوما الى أوروبا للتفاوض على توكيلات ينهبون من خلالها دماء الشعب الازرقى . كما كان يثير قرفة من أشكالنا ومصاحبتنا اذ نحن من أمثالى عيال فاقدين ليس وراءنا شى ءنخاف عليه أما هو فوراءه ممتلكات ومملكة بحالها تنتظره ..

« يحكى لنا جميل ما كان يدور بينه وبين أبيه من مناقشات حادة حول مطالب يفرضها عليه ولا تجد استجابة فى نفس جميل ، فحتى التوصيل بالسيارة الى المدرسة رفضه جميل فى أول الأمر درءا لسخرية الأولاد من أبيه البقال البرادعى الذى أصبح يصل الى المدرسة بسيارة .. ثم بعد ذلك جاءه الاقتناع الكامل بتكفير كل هذه الوسائل ومن ثم تحريم استخدامها ..

« أبوه لا يزال يتصور أن « جميل » فيه بعض الأمل ، وان الأمر كله يرجع الى ان « الولد » قد تربى تربية دينية ـ شوف الغجر ـ محافظة ، انه من نسل طيب ، أليس جده هو الحاج عوضين النشرتاوى البرادعى الذى اقتاد مشيعى جثته الى حيث أراد أن يدفن بجوار أعمامه الأولياء ؟ .. وكان الأب يتساءل من توتر أمام مبالغة

جميل فى اظهار التدين : آكان جرما ان ظللت أحدثك عن جـــدك البرادعى باعتباره أحد الأولياء ؟ اتراك تأثرت بكلامى عن جـدك باعتباره وليا صالحا فازمعت توصـيل الحبل بينك وبينه من جديد لتصبح بدورك عما وحولك المريدون يأخذون العهـد على يديك ؟ أم تراك تأثرت بذلك الشيخ الذى كان سجينا باعتباره من الاخوان المسلمين وأفرج عنه ليخطب فى المساجد محرضا الجميع على كل شىء يمت الى الثورة المدنية بصلة ثم جمع حوله رهطا من الشبان الصغار وأنت منهم ؟ هل يأمرك الدين بأن تعصى والديك وتمتثل لأمر رجل آخر كأنه الله ؟ ٠٠

« لكن جميل لم يكن يعبأ بهذه الثورة أبدا ٠ يقول كان يقابلها بكل برود وتأكد للأب ان ابنـه ليس فحسب عضـوا فى احدى الجماعات الدينية بل هو ربما يكون قطبا صغيرا ٠٠

« يعتقد اعتقادا راسخا اننى أصل البلاء في العطب الذى أصاب ابنه الذى لم يكن « له فى السياسة » أو فى مثل هذه المسائل ، واننى قد جرأته على ذلك وفتحت عينيه على كتب وروايات وطرق مسدودة لا تؤكل عيشا أو تبنى مستقبلا ٠ كان دائما يقول ذلك لجميل الذى ينقله الى ليستثيرنى فأبتعد عنه ، ويقول ان أباه لم يعد يقتنع أن السياسة ــ ولو كانت صحيحـــة ــ هى الطريق الصحيح الى أعلى المناصب فى بلد لا تعرف القراءة والكتابة ، انما الطريق الوحيد الى السلطة هو التجارة ورأس المال ، ان رأس المال يصنع لنفسه الحكومة التى تعجبه ، ان طاقم الحكومات فى السنوات المقبلة سيكون من قلب التجـــار وأصحـــاب الشركـــات وخبراء الاستشارات والمهربين ٠٠

« المدهش أن « جميل » انشق على فجأة ونبذنى خوفا منى اذ أصبح يعتقد أننى الشيطان مجسدا فى بشر ، ثم نبذ الجميع بما فيهم أهله ٠

« يوم ذهبت الى عم طاهر حسب طلبه أراد أن يدخل في الموضوع ليعرف منى تقريرا غير مباشر عن أسرار جميل الخفية • فبدأنا بالحديث عن السياسة وأراد أن يوهمنى بأنه متفق معى فى الأفكار الثورية « المتطرفة فقال دون مناسبة أنه شرع يكتب مذكراته ليظهر مدى الظلم الذى وقع عليه فى عهد الزعيم الخالد • فشخرت فى سرى شخرة ارتفع صوتها رغما عنى غير اننى حولتها الى تسليك أنف ، وبصقت فى منديلى بثقة وثبات • ثم اننى تجاهلت حديثه ذاك تماما ، وقلت له اننى لست أعرف أى شىء عن جميل منذ تحاشى لقائى عن عمد ، منذ أن انذرنى بالقطيعة فى رسالة ان لم أغير من كافة أفكارى وأعود الى « حظيرة الله طائعا مختارا عبدا ذليلا رافضا لكل شىء انجبته المدنية طوال تاريخها وأشياء أخرى غريبة • وقلت له أيضا اننى لست عضوا بأى جماعة أو تنظيم أو حتى نقابة أو اتحاد • فاعتدل ساخرا قائلا : فماذا أنت اذن ؟ فقلت ساخرا أيضا اننى أنا أنا ولا شىء غير ذلك ••

« الليلة لا بد أن تكون أسوأ ليلة فى تاريخ حياة عم طاهر • اذ أن ابنه الوحيد جميل قد توج انعتاقه منه بالزواج ، من عروس لم يذهب أبوه لخطبتها بل لم يقبل أهلها ذلك ، عروس أنا لم أرها ولم تكن من جيلنا ولكنهم يقولون انها تشاركه نفس الاحساس ونفس المعتقدات ونفس الجماعة • ها هى ذى جدتى « معزوزة » تقول انه نائم فى البيت مريض ، وانه كان طوال الليل يهذى فليهذى كيف يشاء ويمرض كيف يشاء فان جميلا لن يعود اليه بعد الآن » ••

٣

توقف مأمون عن الحديث • وكنا قد ودعنا مساكن القرية الأسمنتية ومضينا نحو غابة جميلة بحق مهيبة بحق ، شكلها ممتد فى رحابة ، والقصر ينتصب فى وسطها بسقف جملون على الطريقة

الأجنبية ، وثمة خفراء حوله يتجولون . ورغم ان الزمن الذى نعيشه هو نهاية القرن العشرين الميلادى الا أن منظر القصر كان ينقلنى الى أقدم العصور أمام قصر كاردينال أوروبى ..

كل الخفراء الذين قابلناهم فى الطريق قالوا لنا فى ود : « أهلا سى مأمون اتفضل » ، وقال لهم مأمون فى أخويه : « عشت عشت » . ثم انه توقف بنا عند الباب الرئيسى . لا يوجد ما ينبىء عن وجود فرح . صفق مأمون بيديه وقال : « ياللى هنا » .. احق بنا خفير يمشى فى سرعة قائلا : « سا الخير يا سى مأمون .. دا الفرح من الباب الثانى .. اللى بيسموه باب الخدم .. الأستاذ جميل حلف مالوش دعوه بالابهة بتاع الجناح ده خالص .. ومانع أى طبل أو زمر أو كلام من ده .. أمه يا عينى وأخواته كلهم كاتمين الفرحة فى أنفسهم وكاتمين الحيرة برضه .. أصله ما عبرش أبوه خالص وقال اذا كان عاوز يحضر أهلا وسهلا مش عايز هو حر .. أبوه كمان حلف ما هو رايح ، وأهو نايم فوق ومعاه الدكتور .. كل شويه أم الاستاذ جميل تتسحب من جنب الراجل وتنزل تبص على الفرح وتقدم للناس الشربات فى السر » .

فسأله مأمون : « جميل موجود ؟ » ..

قال الخفير : الأستاذ فى صلاة العشاء .. أصلهم بيقعدوا يصلوا العشا ساعتين ثلاثة » .

قال مأمون : « عجايب .. حتى يوم فرحه .. داعريس الليلة » ..

قال الخفير : « ما هو حيطلع من صلاة العشا هو وزملاؤه ييجوا على هنا يكتبوا الكتاب ويقوم واخدها وداخل على شقته اللى بناها فوق الجراج دى .. الفقايرى خالص دى » .

نظر مامون الى الشقة وقال : « لا فقايرى ولا حاجـــة » .
وكانت الشقة مبنية وحدها فوق الجراج الملاصق للقصر كأنها برج أو معبد صغير جميل أنيق . وقال الخفير : « الاستاذ جميل بعت لك دعوه ؟ » . قال مأمون وقد نشف ريقه : « لا والله بس أنا يعنى مش عايز دعوه » . قال الخفير بحرج كبير : « ما أظنش ياسى مأومن .. أنا بس عامل عليك انت .. أنا سمعته بودنى بيقول : اللى أنا دعيته بلسانى هو اللى يحضر » قال مأمون : « على كل حال أنا فاهم جميل وبأخده على قد عقله » ثم بدت عليه الحيرة . نظر فى ساعته ، ثم فى الخفير قائلا : « على كل حال أروح أصـلى العشـا هناك معاهم لحد ما ييجوا » . قال الخفير : « وماله » . قال مأمون : « أمال مين اللى جوه ؟ » . قال الخفير : « شوية نسوان من العيلتين » . قال مأمون : « والعروسة ؟ » . قال الخفير : « مستخبية » . قال مأمون : « على خيرة الله » ..

ثم مضى بى على شاطىء قناة صغيرة خلف القصر ، فاذا بأنوار مبهرة تنكشف على البعد فوق مئذنة أنيقة كمسلة فرعونية . واذا بنا بعد مسيرة قصيرة أمام مسجد جديد لامع باهـــظ التكاليف حقا . كان محتويا من الداخل على بضع عشرات من المصلين يتركعون وشخص يبدو أنه الامام يتركع وحده فى الأمام . ثم اذا برجـل يقف ويقيم الصلاة بالصيغة المعتادة الغنائية ، عـــلى أثره وقف الجميع واصطفوا فى عدة صفوف ثم نوى الامام وكبر فرفعوا أيديهم بجوار أذانهم وكبروا وراءه ثم شرعوا فى الصلاة ..

دخل مامون يجرى فتوضأ بسرعة وجاء يجرى أيضا لاحقـــا بالصفوف وهى تشرع فى السجود صائحا : ان الله مع الصابرين ، فتأنى الامام فى سجدته فتأنوا بالتالى حتى تمكن مأمون من أن ينوى الصلاة ويسجد معهم . أما أنا فلم اجرؤ على الدخول لسبب تلقـائى بل أقعيت على باب المسجد أتأمل أجمـل وأروع مشهد يمكن أن تراه فى حياتك ، مشهد الصلاة الجماعية وما تضفيه على الأفئدة من خشوع حقيقى ..

على اننى فوجئت بشبأن ملتحين يدخلون فى أثر بعضهم دون أن يبدو عليهم اللهوجة ، بل انهم يتركون الصلاة والمصلين ويتركعون فرادى فى أماكن بعيدة مزورة عن الصفوف ، ثم انهم يسلمون على بعضهم بعضــا كلما تلاقوا فى الطريق · كان يبدو أن ثمة رابطة خفية تجمع بينهم وتربط عرى المودة فيهم ، فظلت عينى تلاحقهم وأنا أحاول التكهن بشخصية جميل بينهم فلم أستطع لانهم كانوا جميعا على نســق واحد بنفس اللحية ونفس الملامح التى تحس ان صاحبها قهرها بنفسه لتكون خاشعة هكذا ، ونفس الخطوط ونفس التمتمة ·· حتى اذا ما انتهى الامام من الصلاة وسلم ذات اليمين وذات الشمال شرع أهل الصفوف الخلفية يختمون الصلاة فرادى ، ثم انهم صاروا ينصرفون واحدا وراء الآخر ، وكان الامام آخــر المنصرفين · وخرج مأمون هو الآخر بعد الصلاة ولبس حذاءه واعتلى صدغ الباب الرخامى المؤهل للجلوس ، وراح يتابع معى من بقوا فى المسجد ·· فاذا بهم ينهون تركعهم الفردى ويقبلون نحو بعضهم فيتصافحون فى التحام ودود هادىء · واذا بشاب تبارك الخلاق فيما خلق ، يتهادى بخطوه الرزين ووجهه الأبيض المشوب بحمرة يصنع من لحيته الطويلة السوداء هيبة ورهبة كأنه وجه الحسين بن على كما تتخيله ريشة الرسام فى الرسم الايرانى الشائع · تطرت فى ملامحه وملامح مأمون واستحضرت ملامح كل من الجدة معزوزة والجدة الثانية فاكتشفت رتوشا واضحة جدا فى ملامحهم جميعا وكلها تذكرنى بدم بسيمه وملامحها فعرفت ان هذا هو جميل وان هؤلاء هم رفاقه ، لكننى لم أعرف لماذا هم قاطعوا صلاة الجماعة وأدوا الصلاة وحدهم كأنهم قوم آخرون ذوو دين مختلف وعقيدة مختلفة · على أن مأمون قال لى انهم يفعلون ذلك باعتبار انهم هم الجماعة الأصلية ومن عداهم خارجون مارقون · فبين صفوف المصلين من هو متعلم أو موظف فى الجمعية أو تاجر أو شيخ من حملة العــالمية ، وفيهم تومرجيه وسائقوا جرارات وكلهم مستنيرون الى حد التعامل مــع أدوات المدينة الغريبة التى أنتجهــا الكفار ، وكلهم تبعــا لذلك

يراعون حق الله فى العبادة بالشكل الذى يرضى الله ومن الصعب الحكم بأنهم قوم كافرون ٠٠ ألا ما أغرب ما يدور فى عقول الشباب، انه الفراغ والجهل وسوء التربية ، ليس منهم بالطبع ، بل من آبائهم الذين بعثرت الثورة الأزرقية ما بقى فى نفوسهم من كيانات انسانية زعزعها الاستعمار على مدى التاريخ ٠

ثم ان مأمون ٠٠ قطع حديثه وقد شـعر بما يشبه الغثيان وأشار الى بالانصراف ثم دلق نفسه على الأرض بملل ، ومضى بى خلف المسجد الجامع لنرى فى ضوء القمر القرية الأسمنتية رؤية شاملة فاذا هى مدينة آخذة بدورها فى التضخم ٠ أشار اليهـا « مأمون » قائلا : « غدا تصبح هذه المدينة متحفا يضم ناسـا لا هم بالرجال ولا هم بالنساء ، لا هم بالازارقة ولا بالأجانب ، بل نفوس بزرميط ومجتمع متنافر لا ينتج شيئا لهذه الأرض ٠٠ غدا يصبح الوادى الأخضر أرضا مسفلته يشتريها من يكون قادرا على طرد سكانها منها الى حيث لا مكان » ٠٠

وكنت أظن اننا سنودع القرية ، لكننى وجدت « مأمون » قد لف بنا حواليها عدة مرات ، ثم اتخذ طريقه الى القصر من جديد وقد صمم على أن يؤدى واجبه نحو صديقه مهما كانت الاسباب ، فاذا كان الطرف الآخر يرفضه فانه هو شخصيا لا يصح ان يقصر فى واجبه نحوه ، انه سيظل يؤمن بالدم ، بان الدم لا يصير ماء ، وما فى عروقه من دم هو نفس الدم الذى يجرى فى عروق جميل مهما كان الأمر ٠٠

صرنا امام القصر من الناحية الخلفية ، فسمعنا لغطا حـادا يتصاعد من الداخل ، فعرفنا ان المجموعة قد انهت صلاة العشاء على طريقتها الخاصة ثم عادت لتكتب الكتاب ويتم الدخلة عـلى طريقتها الخاصة أيضا ٠ صفق « مأمون » بيديه قائلا : « ياللى

هنا » . فلم يجب أحد . فصاح مأمون بأعلى صوته : « يا أستاذ جميل » . فخرجت سيدة بضة ريفية الطابع لكنها افرنجية المظهر تماما ،ترتدى أفخر ثياب كصوفيا لورين فى كل شىء . عرفت من شكلها ان هذه العروس الهيفاء المتينة البنيان الرقيقة هى أم جميل ، فقلت لنفسى ان منظرها بالفعل يورث الفتنة وان العين لا بد أن تهرب منها خوفا من الاستجابة لنوازع الشيطان .

نزلت الينا عبر درج رخامى ، وصوت كعب حذائها المعدنى يدق الرخام بايقاع هوانمى رصين . سلمت هى على « مأمون » قائلة : « شرفت يا أستاذ مأمون » ثم همست فى اذنه انها سمعت صوته فخرجت اليه مسرعة قبل ان تضع على كتفيها غطاء وعلى وجهها ستارا وها هى تسلم عليه دون أن تلف يدها بجلباب وهذه جريمة كبرى لو علم بها جميل . فطمأنها « مأمون » باسما انه لن يقول لجميل . ثم انها رجته ان يصعد اليه ويحاول اقناعه بتركهم يفرحون ولو قليلا ، فياربى هل هى محزنة ؟ ابنها الوحيد يتزوج وهى فى ليلة دخلته لا تجد نفسها قادرة على الفرح ؟ . ثم غمزت « مأمون » فى ذراعه وانحرفت الى الحديقة لتدخل الجناح الآخر من القصر تلقى نظرة على زوجها المريض المأزوم ..

صعد « مأمون » درج السلم حتى صار امام الباب . طرقه عدة طرقات متوالية حتى خرج اليه « جميل » من داخل الدهليز . عاجله مأمون : السلام عليكم . ومد يده ليسلم مبديا استعداده ليعانق . غير أن « جميل » لم يمد يده بل تحاشى السلام عليه وقال فى اقتضاب : « عليكم السلام » ـ ثم انتظر كأنه يقول : أى خدمة ؟ فغاضت الدماء وجه « مأمون » وقال له فى دهشة : « ما توسع آما أدخل » . فقال جميل : « هه » ، ثم وسع قليلا كأنما رغما عنه ..

دخل « **مأمون** »على حذر واستحياء قاصدا الحجرة الداخلية فاذا بجميل يسبقه اليها ويدخل هو فى أثره · فلما دخل وجـــد المجموعة التى كانت تصلى وحدها فى المسجد ، فقال : « الســلام عليكم » · فردوا السلام بدون زيادة ·· فتقدم منهم ومد يـده ليسلم ، لكن أحدا منهم لم يقم ولم يمد يده ، بل كانوا جميعـا يهزون رءوسهم فى بلاهة قائلين : « أهلا وسهلا ·· أهلا وسهلا ·· معلهش ·· معلهش » ··

وكنت أوشك أن اعترض على هذا السلوك وأنبح فى مأمون طالبا أن يتركهم وينصرف الى شـأنه دونمـا حرج أو ندم ، لكنه ابتسم مذكرا اياى بأنه على وعد مع خبر لن يخلفه ·· أما التهنئة بالفرح فقد قدمها ولكنها لم تقبل منه ·· أما الخبر فانه لا بد ان يقوله ، ان ملك التنازل عن حقه فلن يملك التنازل عن واجبه . لا بد ان ينقذ كرامته ولو بشىء من القسوة ، ليظهر لهؤلاء جميعا انه جاء لخبر هـام بصرف النظـر عن التهنئة ·· فقال لجميل : « تسمح يا جميل عايزك فى كلمتين مهمين » فنهض جميل عـلى مضض · ثم عاد فجلس قائلا : « استنى شويه » · وانتبه مأمون الى أن المأذون قد بدأ يكتب الكتاب ، فجلس مأمون على طرف كرسى بجوار الباب ، معطيا للجميع نصف ظهره ونصف اهتمامه ، وبدا ساعتها مسكينا وحيدا معذبا ··

فلما انتهى المأذون من قولة مبروك انشق السكون المطبـــق فجأة عن زغرودة رنانة بدت فى هــذا الموات كأنها دوى القنابل · وهنا انتفض الجميع واقفين باستثناء المأذون ، كأنما أصابهم مس من الشيطان وركبت العفاريت شابا كان متواريا بجوار المأذون يأمر وينهى فصار يشتم ويلعن ويوبخ ويستنكر ان يحدث هذا الكفر فى بيت جميل بالذات ، وكان « جميل » يعتذر ويتوسل اليه ان يقبل اعتـذاره ، لكنه من فرط الغضـب كان ينتفض ، وكانوا جميعـا ينتفضون لانتفاضه ، فعرفت ان هذا الشاب لا بد أن يكون هـو أميرهم أو كبيرهم أو سلطانهم ·

في الحال خرج جميل الى الطرقة ، فوجد مجموعة من النساء يقفن كأشباح من الفوضى المذعورة · صرخ فيهم كأنه يلفظ انفاسه : « مين اللى عمل العملة السوده دى ؟ مين ؟ ·· مين ؟ » · فقالت أمه بكل عشم وثقة : « أنا يا جميل ·· أنا اللى زغرطت » · صرخ فيها بقوة : « تبقى كافرة ·· أنا قلت مش عايز كلام من ده ·· قلت ولا لا ؟ » · قالت أمه : « طب حتى زغروطة واحدة مفيهاش حاجة يا جميل ·· مش لازم نفرح بيك يا حبيبى ؟ » · صرخ والدماء تقفز من وجهه : « مش عايز ·· مش عايز » · قالت الأم لتدارى كسفتها : « طب ما تزعقش كده ·· حاسب علينا شويه » · فصرخ بعنف وشراسة : « اطلعى بره » · فشوحت فى وجهه واستدارت خارجة وقد بدا عليها انها لن تدخل عليه ثانية الى الأبد ··

ودخل « جميل » ثانية وهو يخفى توتره بابتسامة اعتذار للموجودين الذين تقبلوا ذلك شاكرين سعداء جلس بينهم برهه ثم نهض ثانية وقال لمأمون : « أيوه يا مأمون عايز تقول ايه تعالى » ، ثم تقدمه خارجا · فظل مأمون يمشى وراءه حتى الباب الخارجى ، وعنده وقف جميل ففضل مأمون ان يقول خبره من خارج البيت فتقدم خارجا وهو يقول فى صدق حقيقى ودون أى شبهة خبث : « أنا آسف يا جميل لازم أقول لك الخبر مهما كانت الظروف غير ملائمة ·· لاننا لازم نتصرف وأنت بالذات لازم تكون معايه فى التصرف ده » · قال جميل فى استنكار وتوجس : « خير فيه أية ؟ ·· » · فاقترب مأمون من أذن جميل وهمس له بالخبر · فاذا بوجه جميل يصير كالاوطايه الطايبه ، واذا هو يصرخ فيه بلهجة حاسمة لا تقبل المراجعة : « اطلع بره ·· مش عايز أشوفك » · وكان مع ذلك يوشك ان يبكى من فرط التأثر · لهذا نظر مأمون اليه باشفاق وصار يبتعد عنه فى اشمئزاز ··

فلما صار خارج السور بصق من قرف على ما تخيل انه زهور حقيقية فاذا بها نبات من فساء الكلاب · وحين استدار ناظرا الى الخلف من جديد رأى جميلا يتهاوى فى وقفته فيسند رأسه على حافة افريز الشرفة ويندمج فى بكاء مكتوم ·· فأحس مأمون بشيء من الفرح الغريب ، ثم توقف فى مكانه يمارس الشعور بالفرح على هزيمة جميل التى اخذت شكل انتصار الكبرياء ، ولم يستأنف السير الا بعد أن رأى جميل يجفف دمعه ويختفى داخل القصر من جديد ·

٤

امتد الصمت أمامنا على الطريق الزراعى · وكان منظر « مأمون » وهو يمشى أمامى يذكرنى بمشية خالته بسيمة ، حتى تكوينه الجسدى قريب الشبه جدا من تكوين جسمها مع فارق حاسم بين الذكورة والأنوثة · وكان ثمة بناء كبير يقترب ، بدأ سوره الاسمنتى العالى بجوارنا وظل يمتد عشرات الكيلومترات · وكنت أظن أننا سنمشيه كله لكن مأمون انحرف الى طريق جانبى ·· فبعد خطوات صرنا فى مواجهتها ـ المزروعة ·

أهذه اذن هى مزرعة عبد الجبار ؟ · قال مأمون ان الأرض المحيطة بها كلها ومساحتها ثلاثمائة فدان قد أصبحت ملكا للمزرعة ، تنتج لخدمة المزرعة · منظر المزرعة يوحى كأنك أمام مشروع قومى شاهق مثل مصانع المحلة مثلا أو كفر الدوار فى المدن الصناعية بالديار المصرية الشقيقة · توقعت لذلك أن يكون ها هنا مساكن لعشرات الآلاف من العمال · لكن « مأمون » سخر من خيالى قائلا ان أحدا من القرية أو القرى المجاورة لم يشتغل فى هذه المزرعة ولم يستفد منها ، فكل رجالها وعمالها خبراء أجانب يقبضون بالعملة الصعبة وتنقلهم السيارات وتردهم فى ساعات ، وكذلك منتجاتها تخرج هى الأخرى فى السيارات الكبيرة الى حيث لا يعرف أحد ، وعلى فكرة ـ هكذا يقول مأمون ـ فان اقتصار كل من يعمل فى

المزرعة على الأجانب الخبراء جعل أهل القرية والقرى المجاورة يشيعون أن المزرعة تزرع أصنافا من السميات المجهولة او القنابل أو ما الى ذلك ، وزعم انني ضحكت من خيال العامة حين يريد الانتقام على طريقته من كل شيء يجهل تفاصيله ، الا انني أدرت قولهم في عقلي فوجدته يشير الى احتمالات شديدة الخطورة لو درسناها ..

ثم أضاف مأمون قائلا ان مثل هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات هي في الواقع نوع من الأمراض الطفيلية تعيش على حساب البيئة لا تغذيها بشيء ولا تفيدها بشيء بل هي تستفدها .. نعم نعم ان أهله من بني الأزرق فيهم خصلة لا أدري ان كانت فضيلة أم رذيلة لكنها أصيلة فيهم ، تلك هي اعطاء الثقة بلا حدود للأبناء وللأهل والأقارب المتعلمين .. يقيني أن ذلك يعد تعبيرا عن حبهم الكامن وتقديرهم الأصيل للعلم وأهله باعتبارهم رجال الحكمة والمعرفة .. ولهذا قيل : لا تعلموا أولاد السفلة العلم . وقول كهذا من رسول عظيم كسيدنا محمد لم ينطق أبدا عن هوى ، لهو جدير بالنظر والاعتبار ، بل انه بمثابة تشريع يقوم على رؤية مستقبلية شديدة العمق والنفاذ ، لكأن رسول الله محمد صلواته عليه قد رأى منذ ما يصل الى ألف وخمسمائة عام ان ابتذال العلم لابد يؤدي الى كارثة تنذر باقتراب الجحيم ، مع ملاحظة ان العلم الذي يقصده رسولنا العظيم هو معرفة أسرار وكنه الأشياء ومنطقها ، ذلك ان السفلة أن عرفوا هذه الأسرار الجليلة انحطوا بها الى دركهم واستخدموها لمصلحتهم الخصوصية الشخصية ضد الآخرين وهم عزل من سلاح المعرفة .

باب الحديد

★ القضبان والنقرزان ونشاة الطغيان

قال « مامون » :

ــ « لست أدرى أمن سوء الحظ أم من حسنهِ ان أولد في نفس القرية التى ولد فيها من قبل عبد الجبار · لكننى واثق ان اهتمامى بظاهرة عبد الجبار كان سيدهمنى حتى لو كنت من دولته المجاورة ·· فما بالك وأنا أسير كل يوم بل كل لحظة بين آثار طفولته وحكايا صباه التى تناقضت بشكل لم يسبق له مثيل أبدا ، ذلك ان ازدواج الشخصية أصيل فى شخصيته من قديم ·

« الخال والد كما تقول أمثالنا · ووالد عبد الجبار الحقيقى هو خاله · أما أبوه الأصلى فرجل لايزال موجودا حتى الآن فى

نفس بيتهم القديم لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل مظهرى رغم ان عشرات القواديس تصب أموالا فى خزائنه . الشيء الذى تغير فيه وينمو معه باستمرار هو الغطرسة والنتانة . يضن عليك بالقاء السلام ان كنت من صفوف الدهماء ، وكل البلدة فى نظره تقريبا دهماء بما فيهم نقطة البوليس والمحكمة والمدرسة ، ويبخل عليك برد السلام ان كان مدخلك لا ينبيء عن منفعة له . لا يضيع وقته فى شتم أو توبيخ أو عراك ، انما الأمر ينتهى عنده بنظرة ، أو شخطه، أو زومة صغيرة ، وربما بصقه .. ولهذا فله خدم خصوصـــيون يحتملونه ، هم جميعا من أولاد بناته المتطوعين بدافع من أمهاتهم فى كشف سر من أسرار ممتلكاته يبقى فى حسبانها عند تقسيم الميراث ذات يوم .. لهذا أيضا فرغم صلفه وقبح تصرفاته وبنو ألفـاظه الجارحة القارصة فان الاولاد يتبارون فى تلبية أوامره والاستئثار بحبه ورضاه ، أولاد الخالات يبدو بينهم الأمر طبيعيا ودودا . لكنه يخفى تيارات تحيته من الأحقاد لا سبيل الى محوها بعد ذلك مطلقـا .

***

.. « كان فقيرا ذات يوم لا تزال تحفظه ذاكرة بعض المعمرين في البلدة . وكان يعمل تمليا في بيت مفتش الرى الانجليزى . التملى درجة أدنى من النفر ومن الأجرى فى قرانا القديمـــة . فاذا كان النفر يعمل عندك بأجر معلوم لزمن محدود ، واذا كان النفـــر أو الاجرى يتطلب وجوده ان تبعث انت فى اسـتدعائه للشغل فى عمل يتطلب أياما تحت اشرافك ان كان نفرا ، أو لقضاء حاجة وقتيه سريعة ان كان أجيرا ، والاتفاق مع كليهما بشكل ما ، فان التملى شخص يتطوع بالخدمة المجانية الشاملة دون ان تكلفه انت بذلك ، ولا يطلب منك أجرا محددا على عمل بعينه ، انما بالبركة ، وانت تجده أمامك فى كل لحظة من البيت الى المكتب الى توصيل الأولاد ، الى توصيل الخطابات الى غسيل الركوبة الى ما شئت من أعمال ،

وانت تراه جوهريا بالنسبة لك فتتعلق به ، وتراه محتاجا للطعام فتطعمه ، وللكسوه فتكسوه ، وللحب فتعطيه له خالصا كخلوص نيته وأكثر ٠

« لكن مفتش الرى الانجليزى لا يفهم فى مثل هذه العلاقات الأزرقية الأصيلة انما هو يراه مجرد خادم من أمة ذليلة تحتلها بلاده ، وانه من المفروض عليه أن يفعل ٠ ويقول أصدقاؤه العجائز ان المفتش الانجليزى اكتشف ان الرجل كان يفعل ذلك لا لكرم فيه بل لخسة أصيلة فى طبعه ، اذ كان يكشف عن أطماع صغيرة دنيئة فقرر المفتش ان يقسو عليه في المعاملة والا يعطيه سوى ما يسد الرمق ، فان أظهر تمردا اغراه بالقليل ثم عاد فقتر عليه ، ولم يكن والد عبد الجبار ليتمرد رغم الهوان ، ذلك انه كان يتكسب من وراء مفتش الرى بطريقته الخاصة ٠٠ فيكفى ان يلمح لبعض المخالفين لقوانين الرى من المزارعين وأصحاب الأراضى بأن المفتش قد علم بالمخالفة وزعل منها آخر زعل ٠ حينئذ تدخل الخشية الى قلوب المخالفين ، فتتحرك فيهم دوافع الشفقة أو نوازع الخوف فيمنحونه بقشيشا ٠

« شيئا فشيئا تطاولت رءوس هذه المعاملة فى نفس الرجل الخسيس وأخذت تبحث لنفسها عن وسيلة ما ، تحولها من بقشيش خاضع لمزاج الشخص الى اتاوة رسمية واجبة السداد ؟ فكان بقدمه الحافى وجلبابه المترهل لا يتورع عن طرق باب أحد الاعيان الكبار فى الليل فيصحيه من النوم هامسا فى أذنه ان سعادة المفتش قد علم الآن بأن أولاده قد ارتكبوا مخالفة كبيرة أو انهم بسبيل ارتكابها ، فى الحال يتذكر الرجل صاحب الأرض ان أولاده بالفعل يقومون الليلة بالرى فيقول « طب وبعدين ؟ » ٠ فيقول والد عبد الجبار : « على العموم أنا هديته بكلمتين وفهمته انكم ناس ولاد أصول بس هو مصمم يطسكم المخالفة بأى شكل يظهر ان جماعة فلان الفلانى هيه اللى زقاه عليكم عشان تعطلكم والعيال يقعدوا لهم

يـومين فى الحبس ٠٠ هو ناوى يقطع الميـه بعد عشر دقايق ٠٠ بس أنا قلت له مفيش داعى أنا حاروح أجيب لك قرشين واجى » ٠

« وهكذا يجد صاحب الأرض نفسه مرحبا كل الترحيب بالهدية الصغيرة أو حتى الكبيرة بدلا من التعطيـل ومناطحة الحـكومة ٠ وهكذا أيضا لم يسلم واحد فى العب كله من عملية ابتزاز رهيبة قام بها والد عبد الجبار حتى أطلقوا عليه فيما بينهم اسم النقرزان ، وكانوا يقرنونه بالظروف الغبراء وبالفلس وســوء الطـالع فيقول الواحد منهم اذا دهمته مصيبة : « بس وطب على النقرزان نص الليل » ، أو يقول عن مبلغ صرفه فى شىء طـــارىء غير متوقع : « جانى النقرزان خدهم قلت عليه العوض » ، ذلك ان النقرزان ـ أى والد عبد الجبار ـ كان يريد ان يضفى على شخصيته سمة مميزة، فلم يكن يطرق بقبضة يده على الباب أو الشباك كما يفعل الدهماء ، بل كان يقف بعيدا ويمد عصـــاه التى هى فى الأصل عود لبلاب غليظ ، ثم ينقر بها نقرا خفيفا متقطعا أول الأمر ثم متواصلا ، ولابد لمن يكون فى الداخل ان يفرج عن نفسه فى الحال قبل ان يشرع النقرزان فى التواصل والا فقد يصيبه الجنون ٠

« الهدايا المبعوثة لمفتش الرى الانجليزى يكاد يشــكل من نوعياتها سوق قرية متكامل ، فغير النقود الصريحة كان النقرزان يتسول للمفتش مقــادير من القمح والأرز والذرة والسمن واللبن والزبد والخرفان المذبوحة وأقفاص الفاكهة من حدائقهم ٠ ولذا فان « النقرزان » ملم بأيام أسواق كافة القرى المجاورة ٠ فى يوم كل سوق فى كل قرية بعيدة لابد ان يزوغ من بيت المفتش ويرحـل لساعات قليلة ٠ وربما التقاه أحد من أهل بلدته ، فانه يسلم عليه ولا يسأل عن مجيئه اذ لابد انه جاء لغرض ما يخص حضرة المفتش٠ لكنه فى الواقع يكون يباشر أولادا راحوا يبيعون له ما جاء به وهو واقف الى بعيد ٠

« أما الأولاد الذين يقومون بالبيع له فانهم طائفة من كافة القرى اتخذوا من ذلك مهنة يستخدمون فيها مواهبهم الخاصة في البيع والاقناع بوسائل وأشكال وطرائق متعددة ، ابتداء من بيع فيل وجاموسة الى بيع ساعة مسروقة تجد عيالا أولاد حرام يصنعون للشيء قيمة ويأتونك بثمنه ربما في لحظات نظير عمولة يسمونها العرق . والثقة فيهم من الجمهور البائع والمشترى تصل الى حد الموافقة على انتظارهم فى البيت أو فى المقهى بالنقود ، وقد تصل بالكاد الى حد الوقوف بجواره من بعيد لبعيد . وكان « النقرزان » فى الأصل واحدا من هؤلاء الأولاد قبل ان يرمى بجثته على بيت مفتش الرى الانجليزى .

« ويقولون ان اولادا من أولئك السماسرة قد أثروا من وراء عمولات النقرزان فما بالك بما جمعه النقرزان ؟ » .

.. « فى ذلك الزمن كان النقرزان قد تزوج من « مبروكة الشيالة » ، كانت ست بيت بحق ولكنها حملت لقب العريانه لأن أباها كان شهيرا بالعريان وكانت جميلة الى حد ما ، ولكن أجمل ما فيها بالتأكيد كونها رضيت بالزواج من النقرزان واحتمال الحياة معه . ولم يكن قد دفعه الى الزواج منها سوى كثرة الأموال التى سالت بين يديه بلا انقطاع فانخدع بها وتصور ان الزواج هو مجرد القدرة على دفع مهر ومؤخر صداق وتكليف جهاز. أيام العزوبية كان يقضيها بأى شيء . اما وفى رقبته زوجة فانه مطالب بالصرف ، وانه لقادر على الصرف ولكن أخشى ما يخشاه ان تظهر النعمة عليه ، ان النعمة ان ظهرت عليه فلابد ان يصل خبرها الى حضرة المفتش ويقول له من أين لك هذا ؟ أو يصل الى الذين يدفعون الهدايا باسم المفتش فيشكون فى أمره ويعمدون الى فضحه. وهكذا تعلم النقرزان كيف يرى الحاجة الى الصرف ماسة ومع ذلك لا يصرف ، ربما كانت زوجته أو ابنه فى حالة احتضار وهو من فرط تعوده على تمثيل دور المفلس المعدم قد اندمج فى الدور اندماجا

باطنيا متينا ، وقد يلهمه الله فى آخـــر لحظة فينهض زاعما انه سيقصد باب الله فى محنته هذه ، فيقوم ويختفى وقتا يقصر أو يطول يعود بعده زاعما ان رحمـة الله الواســـعة قد أدركتــه بسلفة من صـــديق ٠

« مع ذلك فان مفتش الرى الانجليزى قد علم بما يفعله النقرزان فى الخفـاء على حسابه ٠ فجاء به ذات ليـلة ووبخه وضيق عليه الخنـــاق وهو يمعن فى الانكار ٠ ودعاه النقرزان الى منزله ليرى بنفسه فلبى المفتش الدعوة فى استفزاز ولكنه اشمأز من وساخة الدار وفقرها فخرج متأففا وأمره بألا يريه وجهــه فى القرية مرة أخرى والا سلمه للشرطة ٠ وهذا هو السر فى ان عائلة عبد الجبار قد استوطنت هذه المنطقة البعيدة عن مساكن القــرية القديمة ، اذ أن النقرزان كان قد نزل عند انذار المفتش وجمع حوائجه وزوجته واختار هذه البقعة البعيدة وفرض نفســه خفيرا عليها ، ففرح به صاحب الأرض فتركه يقيم لنفسه عشه ينام فيها ، فاذا به بعد سنوات قليلة يضطر الى ان يبيعه قطعة الأرض كلها ، اذ مرض فجأة مرضا خبيثا صرف فيه كل مدخراته ، وحين فكر فى بيع هذه القطعة من الأرض لينفق ثمنها على عملية جراحية فى الخارج ، ــ على الأرجح فى مصر ــ فوجىء بان الكثيرين يهربون من شرائهـا لكى تقل قيمتها المادية خاصة وان المبلغ المطلوب فيها كبير ، وفى اللحظة التى يئس فيها صاحبها من بيعها طب عليه النقرزان وفى جيبه مبلغ حدده بنفسه لنفسه ثمنا للأرض كلها ، رضى به صاحبها على مضض ، ودفعه أجرا للعملية الجراحية ومات بعدها بقليل ــ وكانت هذه القطعة من الأرض هى النواة الأولى لثروة النقرزان ٠

« لكن « النقرزان » رغم تنامى ثروته وتحـرره من المفتش الانجليزى لم يستطع الخلاص من مرض البخل الذى أصابه ، فكانت الخلافات بينه وبين أولاده تصل دائما الى عنان السماء ، وتتدخل الوسائط لفضها فى الوقت المناسب ٠ وكانت ولا تزال أربح تجارة

بالنسبة له هى تجارة المحاصيل الزراعية والتقاوى والبذور وكل ما يمكن تخزينه فى زمن المواسم لزمن القحط أو الاحتيــاج ، أو تخزينه لصنع القحط واستغلاله ٠

« من هذا الأب النقرزان انحدر عبد الجبار الكبير ٠ ولم يكن مقدرا له أو لأحد من اخوته أن يدخل المدارس أو حتى يصير أفنديا أصلا ٠ بل ان الأب كان يتعشم ان يستريح على حسابهم وان يجىء اليوم الذى يرى فيه ابنه ماشــيا جواره بالمكيال حيث يفرش فى السوق ويشترى الحبوب نفسه ولوحده ٠ وكان الطفل عبد الجبار قد امتثل لهذا الأمر بالفعل وتمرس طفلا بطلوع الأسواق ومساومة النساء اللائى يبعن كيلات القمح ليتسوقن بثمنها اشياء أخرى ، بل ومساومة رجال كبار على شراء أردب وأردبين ، مقلدا فى ذلك شقيقه الأكبر منه الذى صار مؤهلا لذلك دون غيره من المهن ٠

« الأخ الأكبر وحده هو الذى فاته قطار التعليم فكان يختلف الى كتاب القرية أحيانا حتى تعلم فك الخط وقراءة الجرنان فصار بذلك وريثا لمهنته التجارة عن جدارة ٠

« على أن مبــروكة العريانه كانت قد اكتفت بانجــاب ابنه الأكبر ، لم يتسع صــــدرها ولا صبرها فتركت له الدار ولحقت بأبيها الذى ترقى بنفسه بائعا سريحا فى البنــــدر ، فزوجها من عربجى حنطور صــــديقه ، ووجــد كل منهما فى الآخر ونيســـا وأصبحت مبروكة الشيالة بفضله تلبس المخرق وتجيد الردح وفرد الملاءة كأحسن ما يكون ٠ واما النقرزان فانه بعــد ان استراح منها غير مظهره وأصبح يلبس النظيف ويأكــــل الثمين ، وطــلع الحجاز ، وطلعت له زبيبة الصلاة فى جبهته بسرعة ، ودفع قدرا من المال رمموا به مسجد القرية وجددوه ليحتل منه ايوانا مستقلا يصلى فيه أوقاته كلها حاضرة ، وحين يصلى ينزوى مشنشنطا كأنه وحده الجدير بالوقوف أمام الله ٠ ثم انه قرر أن يصاهر من المدينة

نفسها ، فخطب الآنسة دولت ابنة محمد أفندى خلاف الذى كان موظفا بالدائرة السنية ومات ، وأخت صلاح الدين أفندى الذى يركب عربة ملاكى فى مشاويره باعتباره ـ كما يقول عن نفسه دائما ـ من رجال الأعمال ٠

« حقيقة الأمر ان صلاح الدين أفندى خلاف ، خال عبد الجبار ، لم يكن من رجال الأعمال ولا حتى من الرجال أصلا ٠ انما كان يمارس نوعا عجيبا غريبا من السمسرة أو من التهريب أو الخسة قل ما شئت فى وصفه ٠ كان مثل صهره تماما فى النوعية والنمطية وبلا أدنى اختلاف سوى المظهر من ناحية والطبقة التى هو موضوع فيها من ناحية أخرى ٠

« صلاح الدين أفندى خلاف يعمل و الآخر تمليا ولكن على مستوى أرقى وفى معية الجيش الانجليزى المحتل لأرض الازارقة فى ذلك الزمن ، واحدا ضمن عشرات المئات من التملية أمثاله فى نفس المعية على درجات ومستويات متباينة ٠٠ فهو اذا كان ضمن فريق مهمته ـ التى لم يكلفه بها أحد ـ السعى فى الأسواق والحارات والأماكن والطرقات يقضون طلبات لأعضاء هيئة الجيش تخص حياتهم الشخصية ومنازلهم ابتداء من توصيل الطفلة الى المدرسة وانتهاء بتوصيل المومس الأزرقية الى الشقة التى يديرها أيضا لحضرة الضابط أو سيادة اللواء أو سعادة المندوب ٠٠ فثمة أيضا من تكون مهمتهم ـ التى لم يكلفهم بها أحد كذلك ـ التفاوض باسم شخصيات كبيرة جدا فى الجيش المحتل ، مع زعماء الأحزاب والسياسيين اللامعين وبعض المسئولين الكبار ورجال العائلات الكبيرة المؤثرة فى الرأى العام أو عدد الأصوات ٠٠ يتفاوضون معهم على حلول معنية لقضايا معينة أو لمشاكل ملحة أو لمسائل مطروحة ٠ ولأنهم وجوه مألوفة فى المحيطين معا ، ولأنهم وضعوا أنفسهم من الأول فى خدمة هؤلاء بعينهم واشتهروا بذلك فى الأوساط الاجتماعية ، فان ذلك يعطيهم جواز المرور الى المجتمعات

العليا والمجتمعات المغلقة وبين الدوائر ‥ كما يعطيهم الجرأة العظيمة فى أن يجلس الواحد منهم معك فى مكتبك الرسمى وأنت دولة الزعيم مثلا فينادك واضعا ساقا على ساقا مثلك ومدخنا أمامك سجائر ربما أفخر من سجائرك وأغلى ، ذلك انه قد امتلأ بالثقة فى انك سوف ترتهب من شخصيات عديدة تعرف انه يعمل فى خدمتهم وانه تبعا لذلك حماية . بل ان الجرأة الحقيقية ليست فى هذا ، انما هى ان يميل مثل هذا الصعلوك كأنه صديقك الأكبر منك ، ثم يهمس فى اذنك قائلا بكل بساطة انه يستطيع أن يحل لك الأمر الفلانى أو القضية الفلانية أو المأزق الجماهيرى الفلانى مع المندوب السامى مثلا مثلا ـ اذا انت تنازلت عن كذا وكيت ‥ ثم انه هو وشطارته معك بعد ذلك ، لأنك بالتأكيد ستعتدل فى جلستك فورا وتتهيأ للتفكير الجدى فى اقتراحه الجرىء البسيط ، وحينئذ تكون قد وقعت فى قبضته ، ان كان ولدا مرقعا فان حجم تنازلاتك سوف يتزايد حسب لباقته وقدرته على اختيار الزوايا المناسبة للتحدث فى الموضوع وهكذا ـ ثم بعد أن يتأكد من موافقتك يأخذ فى التدبير للانفراد بالمسئول الكبير الذى هو يملك الحل والربط أو هو الطرف الجوهرى ، وباعتباره أحد خدمه المخلصين الأمناء فانه يحكى له على هيأة نكتة : كيف التقى بفلان باشا فى مكان ما وكيف جاءت سيرة الموضوع الفلانى فحدث له كذا وكيف ابدى الاستعداد لكذا وكيت ـ الطرف الجوهرى قد يضحك للنكتة وقد لا يضحك ولكنه سوف يتوقف بالتأكيد عند حجم المكاسب التى قد تؤول اليه اذا ما تحولت هذه النكتة الى واقع .

« وهكذا فان المرسال يبدأ رحلة ما تسميه اليوم فى عصرنا برحلة المكوك لكنها فى الخفاء ، بين محتلين وبين ناس فقدوا الوشيجة السحرية التى تربطهم بأهلهم وبأرضهم ففقدوا تبعا لذلك شرفهم وصاروا يبيعون فى السر مالا يملكون ليستمروا أوقاتا

أطول يتملكون · وكم طابت للمراسيل أكلات هنيئة دفعت الأجيال تكاليفها الباهظة جوعا وحرمانا وتشريدا ·

***

·· « صلاح الدين أفندى خلاف كان يتطلع الى مثل هـذه المستويات الشاهقة من التملية الكبار ، الذين اخترعوا للمهنة أسماء جديدة براقة تصلح وحدها سببا للتضحية بكل المقدسات · ولذلك لم يكن يعطى عقله أجازة فى السلب والنهب ، كان شحاذا يرتدى القبعة والفراك المخلوع عن أجساد أسياده الانجليز ، يمسك العصا الابنوس مثل الباشوات ، تنطوى ملامح وجهه الرقيقة اللطيفة على دماء باردة جافة ، يستدرج الضابط الانجليزى الكبير الى سوق المدينة أو شوارعها أو حواريها الجانبية ، يمشى الى جواره مستعرضا نفسه حتى يتأكد الجميع من انه صديق لسيادة الضابط ، ثم يستدرجه أيضا ليزور به بعض الأصدقاء والأعيان ، يعرف بهم فى طريقة ملفوفة لا يفهم الضابط مغزاها انما يفهمها أهل البلد ·· ثم أنه بعد ذلك يصبح من حقه أن يمر على السوق فيتسوق ما يشاء لحضرة الضابط ، أو على الأعيان وكبار التجار ليقترض مبلغا بسيطا فكة لحضرة الضابط ريثما يذهب الى الدار ويعود ·· ثم انه أيضا كان يضع يده على نقطة الضعف فى ضابطه ليتاجر بها كيفما يشاء ، فان كانت الانحراف فدواؤه الرشوة يجمعها له ولا يعطيه منها سوى نسبة ضئيلة ، وان كانت النساء فانه يعيث على حسه فسادا بين بنات الناس وحريمهم والضعفاء اللائى لا حول لاهلهن ولا طول ، ولا يورد له مع ذلك الا احدى السناكيح بعد ان يكون قد باعها لعشرات الجنود السكارى والطلاب أبناء المدارس الأجنبية ·

« صلاح الدين أفندى خلاف ضحك على أحد الضباط وأخذ منه سيارته الملاكى الفيات ذات الرفارف وكابينة تشبه مبنى النقطة الثابتة ، مقابل امرأة ريفية كانت تعمل فى خدمة أبيه فتنازل له

عنها نهائيا · صلاح هذا كان فاجرا منعدم الخلق الى أبعد الحدود كما تروى عنه الحواديت والأساطير فى قرانا · كان يعرف تفاصيل مخازن التموين الخاصة بالجيش الانجليزى فى معظم المعسكرات ، ويعرف محتوياتها وما قد وصل اليها وما قد خرج منها · وكان الى ذلك يعرف شبكة من اللصوص الأشقياء ذوى المظهر النظيف ·· فيبلغهم بأمر المخازن أولا بأول ·· ويضع لكل منهم خطة دقيقة لكيفية الهجوم على المخزن وتهريب ما فيه من سلع · وباعتباره صاحب كل شىء فانه يأخذ حقه على الناشف مقدما ، ففرق اللصوص تثق فى خططه وفى نتائجها من حيث كل شىء · وكل أهله وأصدقائه المقربين حين يضبطونه متلبسا بفعل كهذا يلومونه برفق فيرد قائلا انه يفعل ذلك فيهم لأنهم محتلين كفرة سرقونا وليس حراما أن نسرقهم فهى بضاعتنا ردت الينا !! ·

« ولو ان الأمر هكذا فحسب فلربما انخدع فيه بعض أصدقائه وصدقوا ان سرقاته هذه نوعا من المقاومة ضد المحتل الأجنبى · لكن صلاح لم يكن بالذى يضيع فرصة للكسب فى الوجه الآخر لفعلته ، اذ هو يذهب فى اليوم التالى للسرقة ، ويختلى بالمسئولين، ويتباحث معهم فى أمر المسروقات ، ويرسم لهم ـ متطوعا كاقتراح ـ خططا للقبض على مجموعات من الأولاد ليكون اللصوص الفاعلون من بنيهم · ويتم بالفعل القبض على المجموعة التعيسة التى تأكل علقة تشرف بها على الموت يعترف على أثرها اللصوص · وكان أصدقاؤه المقربون اذا ضبطوه متلبسا بفعلة كهذه يقول لهم قبل ان يلوموه انه لم يشأ ان يخالف ضميره ، فهو يعرف ان هؤلاء الأولاد لصوص ، واللصوص يجب أن يأخذوا جزاءهم !! ·

« وكان اذا نجا من اللصوص أحد والتقاه صدفة بادر هو بلوم اللص على ضعفه واعترافه ، ثم ان اللص لن يكون قد تطرق الشك الى نفسه فى صلاح لأنه ليس من الذكاء الشيطانى بحيث يربط بين الخطة المحكمة والتبليغ عنها من مجهول محكم · لذلك فمن

المرجح ان صلاح أفندى خلف سيقنع اللص ان ذلك المجهول لا بد أن يكون الولد فلان أو الولد علان من أصدقائه المنشقين · المرجح كذلك ان اللص لن يجد غضاضة فى التعامل مع صلاح مرة أخرى وثانية وثالثة والى مالا نهاية ·

« كان لصلاح بيت في عزبة الحولى ، عزبة هى كلها عبارة عن البيت وحوله دمامل وخراريج على هيأة دور وأكواخ ، من أعمال المدينة ، يصلون اليها بالركائب وهو بيت تنازلت عنه الدائرة لموظفها الوفى فأقام فيه صلاح وجعل منه تقليدا ساذجا منسوخا لبيوت الباشوات ، وكل محتوياته مخلوعة من بيوت سابقة وعليها بصمات ناس كثار وأمراض ناس كثار وعرق ناس كثار وذكريات ناس كثار ·· حتى ان صلاح أفندى خلاف كان يتشكل تشكيلات نفسية عجيبة كلما تنقل من حجرة الى حجرة بل من ركن الى ركن فى بيته ذاك ، فقد يفرض عليه هذا الكرسى ان يجلس جلسة باشا أو زعيم وقد يفرض عليه هذا الصالون ان يجلس فى دبلوماسية متخيلا نفسه مع ناس من علية القوم ، وقد تفرض عليه المرآة شكلا معينا والسرير نوما معينا والشرفة أن تطل على الجماهير خطيبا أو يقف مناديا على الخدم ·

« ورغم انه فى الأصل خادم ابن خادم فانه كان يستعير فى حديثه دائما صوت الارستقراطية ولهجتها وخنفتها ولثغتها ، التكلم من الحلق والأنف والرقة المبالغ فيها والغطرسة · غير أنه لم يكن ينجح تماما فى أى من هذه المشاهد ، لأن شكله كان رغم الفراك والقبعة شكل الخدم وسلوكه رغم التحفظات الشديدة سلوك الخدم ·

***

·· « وعلى الرغم من أن النقرزان والد عبد الجبار قد صار من كبار الملاك فى الناحية وتكومت فى خزينته أموال تشترى

ضباعا ، الا انه كان يشعر دائما بالضعف كلما وطئت أقدامه بيت صلاح أفندى خلاف أو كلما تحدث مع أحد من أهله بله أن يتحدث مع صلاح نفسه • ذلك ان النقرزان لا يستطيع ان ينسى أصله أو ينسى انه تطلع الى أهل هذا البيت ودفع أموالا كثيرة وساق وسائط كثيرة لكي ينتمي اليه ، ولا ينسى كذلك انه أخذ أربعا وعشرين ضلعا تمثلت فى الست دولت ، التى نظفته ونجرته وقومت من سلوكه وجعلته رجلا محترما ذا مهابة ، وعلمته الأدب حقا • وكان أبناؤه كلهم يميلون الى أمهم ويحبون رؤية خالهم ويحبون تقليد لباسه وكلامه ولهجته وعنطزته الفارغة •

« وذات عام ذهبت الست دولت هى وأبنائها وزوجها لقضاء العيد فى بيتهم لدى اخيها صلاح أفندى • فلما انتهى العيد وتهيأوا للعودة كان عبد الجبار وهو ابن العاشرة تقريبا قد تعلق بخاله وتعلق به خاله ، ولم تجد الاسرة مفرا من العودة بدونه • فرحت الام ان يبقى الولد مع خاله لكي يكون ذريعة ترسل بسببه لاخيها كثيرا من الاشياء التى يحتاجها فى وحدته بعد ان تخلى عن خادمته وأهداها للضابط الانجليزى مقابل الاستيلاء على سيارته والتنقل بها دون ملكية رسمية •

« ألحقه خاله بالمدرسة الابتدائية فى البندر ، المدينة الواقعة على ضفة فرع للنهر الازرقى • طول النهار هو فى المدينة ، يخرج من المدرسة ليذهب الى خاله على المقهى حيث يرافقه اينما ذهب • يكتشف الولد ان خاله يرتاد مجتمعات غريبة ، من بيوت الأسر حيث يخترقها بعشم زائد عن الحد ، الى مقار احزاب يتسقط اخبارا أو يذيع اخبارا ، الى منزل الحاكم العسكرى الانجليزى للمدينة حيث يؤدى خدمات بيتيه من قبيل سقى الحديقة بالخرطوم أو تشذيبها ، أو الاسراع هو بالقهوة للبيك ، أو الاسراع الى الصيدلية لشراء دواء الهانم الصغيرة ••

« يجد عبد الجبار نفسه بين مجتمعات عدة يحس خلالها بدونية

أصله . وفى كل مكان يقدمه خاله للناس قائلا فى تفاخر : « ابن أختى .. فى الابتدائية » فيتطوع الناس بمجاملة خاله فيمتحنون عبد الجبار فى الانجليزية ويخاطبونه بها فى تحد لتمرين لسانه ..

« فى يوم كان عبد الجبار قادما من المدرسة ، وكان يتسكع فى شوارع المدينة منجذبا الى المحلات بأنواعها غير المألوفة لديه .. أدهشه وألذه ان يجد ان كافة الاشياء لها محلات فى المدينة . يحلو له ان يقف ويتأمل ويرى أهل بلدته والبلاد المجاورة وهم يدخلون هذه المحلات ويشترون منها أشياء ومنقولات وأثاث وعطارة . كان يحلو له ان يقف هو الآخر ويشترى ، ليس هذه الأشياء الثقيلة ، بل يشترى أى شىء ، المهم ان يشترى . ذلك أن رفاقه فى المدرسة وفى الشوارع طول النهار يمارسون الشراء ، وكم وقف طويلا أمام عربة « الكانتين » يتفرج على أطباق المهلبية التى تنهال بين يدى الأولاد جميلة الشكل يسيل لها لعابه ، كم تاق الى شراء قلم رصاص أو كراس من المكتبة التى تحوى أشياء يشتريها الأولاد . ولم يكن يجد فى جيبه قرشا يدفعها رغم بذلته الكاملة ببنطلونها القصير وطربوشه القصير الغامق وحذائه الاستك . وكان موقنا من ان أباه الذى يستهجن فكرة التعليم فى المدارس لن يقتنع أبدا بأن يرسل له مصروفا لليد فى المدينة ، بله ان يؤجر له مسكنا . لكنه كان يعرف أن أمه ترسل لخاله سرا بعض الأموال التى تدخرها من بيع الدجاج والبيض تربية يدها فضلا عن الطعام الناشف . وكان يفكر وهو عائد فى آخر المساء مع خاله كل يوم أن يسأله عن بعض قروش سلف ، فكان خاله يرد عليه من حلقه وهو يقود العربة : « عايزها تعمل بيها ايه ؟ انت حتتعلم الفساد ؟ » ، فقال : « لا .. عايز اشترى أدوات هندسية وشويه حاجات » . فقال خاله صلاح : « بس كده ؟ الصبح نتصرف » ..

« وفى الصباح ركبا السيارة معا ، وقبل ان ينزله عند المدرسة كما تعود ذهب مباشرة الى بيت الحاكم العسكرى للمدينة الذى كان قد التحق بخدمته . فدخل السراية بالسيارة ثم نزل فنزل الصبى عبد الجبار . ومشى فمشى وراءه فى انزواء خجل نحو باب المسكن ، وكانوا بالكاد قد تهيأوا للفطور وشمس الصباح فى لون التمر هندى تنسكب من نافذة مقابلة للباب حيث اطلت الزوجة الانجليزية الحمراء التى انعكست عليه انعكاسات الشمس فطار لب الولد . قالت : « هالوبنجور كامن » . فدخل خاله وقال : « تعال يا عبده » ، فدخل « عبده » يتعثر والزوجة تحييه قائلة : « أبدو .. أو .. أبدو .. ازيك يا أبدو » ، وهو ملخوم لا يعرف كيف يرد قال خاله مستخدما الاشارة بأصبعيه : « ابن اختى » ، ففهمت الزوجة وأحمر وجهها أكثر وابتسمت قائلة : « آ .. ها » ، وأشارت اليهما ان يدخلا . فتقدم الخال يتبعه الصبى والزوجة تقول : « أين كنت بالأمس ؟ . كان الرجل يسأل عنك كان لديه بعض الاصدقاء واحتاجوا لزجاجات الجعه فى آخر الليل » .

« فقال صلاح وهو يجلس مباشرة على مائدة الطعام انه ـ والله ـ أحس بحاجة الرجل اليه بالفعل فى لحظة معينة من الليل ، وكان يوشك ان يجىء من تلقاء نفسه ليرى ماذا عساه يكون طلبه له ، غير أنه خشى ان يطرق عليه الباب فى آخر الليل .. ثم شرع يأكل مع الاطفال دون ان يدعوه أحد فبدا ذلك شيئا طبيعيا ، وقال : « تعالى كل يا عبده .. اقعد افطر » ، وعلى استحياء قليل تقدم « عبده » ثم عاد فنظر فى وجه خاله فلم يجد أى أثر للخجل أو لأى شعور آخر ، فنسى هو الآخر ملامح وجهه وشرع ينهل من أشياء كان يراها فى دكاكين المدينة واكتشف فجأة أنها موجودة فى البيوت أيضا ، والأولاد يفضون عنها الأغلفة الأنيقة الثمينة ويأكلونها فيفعل مثلهم ولكنه يستخسر الغلاف الثمين فيبقيه فى يديه برهة ثم يتخلى مضطرا ويذوق الشىء فاذا به طعم جميل من الجبن والزبد

واللبن ، وآخر اذا به حلوى تشتعل منها فروة الرأس لذة ، وثالث ورابع ، وعسل نحل وعيش يصلح غموسا لعيشهم فى البلد ، كل هذا وحليب بعده شاى ثم قهوة ثم فطائر ثم فوجىء « عبده » أنه مطلوب منه القيام ومغادرة هذه الجنة .. يومها كاد يبكى من الغيظ ، ولولا طوله وبذلته وابتدائيته لضرب الارض بقدمه صائحا : « أنا حافضل هنا » لكنه سلم أمره لله وشرع يمشى ، فاذا بخاله صلاح يتذكر فجأة فينظر الى الهانم الصغيرة قائلا لها ان عبده محتاج لأدوات هندسية وبعض الأقلام والمساطر . فدهشت الهانم الصغيرة وبدأ عليها الحزن من اجله ، وقالت انها ستهديه اشياءها وتشترى بدلا منها ، ثم نهضت فى الحال وتقافزت نحو غرفتها ، وكان عبده يهم بأن يعترض أو يتشكر أو يفعل أى شىء لكنه نظر فى وجه خاله فتذكر أنه يجب ان ينسى هو الآخر ملامح وجهه ، ينساها حتى وهو يراه فى المرآة أمامه ، وكان فى اعماقه مرحبا غاية الترحيب بهذا الخاطر بالذات ، اذ ان شكل وجهه كان فى الواقع - ومن ناحية أخرى - لا يسره أبدا ..

« ومتدت يده بقليل جدا من التردد ، ثم بحماس مفاجىء أخذت الادوات الهندسية فاذا هى كثيرة وجميلة ومتينة ، فاستبد به الفرح . وكان الرجل الكبير قد خرج من الباب الجانبى فلحق به [illegible]ى فى حين تخلف عبده ، اذ لمح فى عين الزوجة الحمراء نظرة تقول له : « استنى يا عبده » . وفعلا اثمر تلكؤه اذ ان السيدة غابت قليلا ثم خرجت مطبقة اليد على شىء غمزته به فى يده ، فاذا به ورقة نقود . فارتعشت أوصاله وهم بالجرى ، فنزعت هى قطعة بسبوسة كبيرة لفتها فى ورقة واعطتها له ، فأخذها واندفع يهرول حيث وقف الرجل الكبير يملى على خاله بعض الأوامر ، وخاله متهدل الجسم فى وقفته يهز رأسه بين الفينة والفينة قائلا : حاضر .. حاضر وانتهى الرجل من أوامره ثم مضى نحو السيارة التى ينتظره بها السائق فى مدخل باب السور ، لكنه

عاد فالتفت ناظرا الى عبده ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز باسم ثم مضى ، وحاول عبده أن يفهم معنى لعوجة شفاه الرجل الكبير ، ولكن لو تذكر صورته كأفندى صغير يرتدى بذلة وطربوشا وحذاء ويمسك كتبا وكراريسا وبيده الأخرى قطعة بسبوسة يحرص عليها حرصا يضاعف من لخمته ـ لو أنه تذكر صورته هذه لحظتذاك لما احتاج الى معاناة فى التفسير ، لكنه كان ساعتها قد فقد الاحساس بالمرآة · وحين ركب بجوار خاله فى العربة الكحيانة نظر اليه مبتسما وقال : « مبسوط يا عم ؟ » فهز رأسه من فرط الامتنان ·

« ثم انه قد عشق زيارة هذه السراية سواء مع خاله أو لوحده · صار يتطوع بالتكفل بالبكوات الصغار ، يلف بهم فى الشوارع وعند الكورنيش وفى المنتزهات ، يفرجهم على القرد وعلى صلاة الجمعة وعلى المراكب والصيادين ، يملأ بطونهم من سخام الشوارع الذى يباع فوق العربات على هيأة حلوى ومرطبات ومشروبات ، يشترى لهم كل ما فى نفسه ، كان يقنعهم بأن المصروف لو بقى فى يده هو لكان أفضل ، والا فهو غير مسئول عما يحدث لهم من العيال الازارقة الاشقياء ، سوف يضللونهم ويغررون بهم ويسلبونهم ، أنه يعرف العيال ابناء هذه المدن المحدوفة فى البرارى ، اشقياء ولصوص ومتشردين ، نفس العبارات التى قد سمع خاله يقولها لاحد الشبان الاجانب ، وقد تذكرها واعاد ترديدها للصبية ، اذ أنه رأى الشاب الاجنبى يوافق خاله ويعطيه قيادة سياحته · وأيا كان الأمر فقد كان الأولاد مسرورين وغير معطين لمسألة المصروف بألا ، فان يكون معه أو معهم أمر لم يطرأ على بالهم ·· انما هم مندمجون فى الفرجة على ما يثير خيالهم ··

« ثم ان عبده لم يكتف بأن يكون سميرا ونديما للأولاد متقربا الى عقولهم بما يدرسه فى المدرسة الابتدائية من لغة وعلوم ورياضة تجعل منه خادما مستنيرا يسهل تكليفه بمهام كثيرة ومتنوعة ،

ويعيش بذلك على حسابهم ، يلبس من ملابسهم المخلوعة ويأكل من فضلاتهم ، بل انه انتمى الى البيت تماما وصار لا يراه خاله الا لماما . وكان على صغره قد أصبح ولدا « أروبا » ، كأنه عجوز ، فالسنوات القليلة التى قضاها فى المدينة علمته الصياعة واللف والتطفل على كل شيء يسأل فيه وعنه وعن اسعاره لا لشيء الا ليقيس بالسعر بعد الشيء عنه أو قربه منه . الست هانم تريد اصلاح سور الحديقة يا أبدو . يكون تحت قدميها . ثم ينطلق الى مكان بعيد جدا ليأتى لها بواحد من المتخصصين فعلا فى أسوار الجناين والاسلاك الشائكة ، واذ هو يقول للصنايعى منذ البداية ان الست هانم هى التى تريد ، فان الصنايعى بكل صراحة يقول له : « الحديد بكذا .. والسلك بكذا .. وعرقى فى التركيب أو البناء كذا » يحسبها « عبده » فى نفسه ويذهب ليسأل فى دكاكين الاسلاك الشائكة والحديد عن أسعار الأمتار والوحدات ، فيجد أن الصنايعى قد بالغ فى رفع السعر وفى تقدير عرقه . مع ذلك يأخذ الصنايعى من يده ويذهب به الى الست هانم ليتفق معها وجها لوجه .. من هنا لهنا يتكلفوا كذا .. خلاص ؟ .. هاتى الفلوس يا ست هانم. الست هانم تعطى التكاليف لعبده وتتركه يشرف على العملية . يقبضها فى جيبه ثم ينطلق مع الصنايعى الى الخلاء لشراء الحديد والاسلاك . وعندما يبتعدان تماما عن البيت يفتعل « عبده » خلافا بينه وبين الصنايعى ، كأن يدخل على الاتفاق تعديلا لم يكن وارادا ، يزعم ان المطلوب عشرين حديدة لا عشر ، ويصر على ذلك ويتشبث برأيه ، حينئذ يزهق الصنايعى ويرى ان العقاب الصالح له ان يتركه ويمشى رافضا الشغلانه من أساسها . وهذا عين ما يريده « عبده » . شقى هو ابن شقى ، يتصنع أنه لاص ، وأنه غاضب من انسحاب الصنايعى ، وان هذا أقسى عقاب يوقعه عليه ، كل ذلك ليثير حمية الصنايعى كى يمعن فى الانسحاب نهائيا . ثم اذ يرى الصنايعى قد اختفى بالفعل يتخذ طريقه الى محل الحديد والاسلاك . فيشترى بنفسه الحديد والاسلاك التى

حددها الصنايعى ، ثم يستأجر عربة بخمس قروش تنقلها الى البيت · وحين تطل الست هانم من الشرفة وترى الاشياء قد وصلت بدون الصنايعى يعاجلها قائلا ان الرجل طلع ابن ········ ، رجع فى كلامه فى السكة وطلب كذا وكذا وتملعن قائلا كذا ، وفاعلا كذا ، وأنه تركه وانصرف بعد شراء الأشياء · فتلوى الست هانم شفتيها أسفا من هذه الورطة · فبكل رجولية يدخل هو قائلا : « ملعون أبوه ·· أنا اللى حاعملها بنفسى ثم يدخل فيخلع هدومه ويبقى بالفانلة والسروال ، ويتحول الى عامل يفحت بالمنقرة ويدق الحديد ، وكلما رأى أحدا من أنفار الحى أو رجاله أو عياله يقول : « بايدك والنبى معانا » · ينبت فى الحال بين المارة المدعوين للعمل من هو أكثر خبرة بدق الحديد أو تشبيك الأسلاك · وبعد وقت قصير يكون قد أسلم العمل شيئا فشيئا لناس تفهم فيه ، وينخلع هو ، ويروح يهنكر حولهم ويشجع ويلاحظ ، وبالمرة يدرس وجوههم ، فوجه هذا الجدع يتم عن أنه شهم وقد خدم لوجه الجدعنه فمقداره الشكر بجدعنه ، وهذا وجه ، ينم عن انتظار لكنه ذكى خجول فمقداره الايهام بالصداقة ـ نخدمك فى الافراح يا فلان ، وينطق اسمه مجردا ـ وهذا وجه ينم عن الحاجة والا فالسراية عرضة للتلبيخ الغوغائى المزعج ، فخمس قروش تجعله يرقص طربا · ثم ان الست هانم بعد ساعات تجد ان السور قد تجدد بالفعل كأحسن ما يكون فيزداد ، اعجابها بعبده ، فيقول لها أنه لولا الرجال لما فعل شيئا ، انهم كل شيء وقد نفحتهم جميعا اجرهم ومشوا مبسوطين ، كم دفعت يا آبدو ؟ ·· خلاص يا ست هانم كم دفعت يا آبدو ؟ ·· خلى علينا يا ست هانم ·· كم دفعت يا آبدو ؟ ·· كذا ·· وأى رقم ينطقه تعطيه له باسمة ·

***

« اكتشف « عبده » وهو طالب فى الثانوية أنه لا يحب ، ليس له محبوبة تشغل باله وخياله ويتحدث عنها لرفاقه · ولم يكن يعرف

أنه قد ألغى هذه الناحية من حسابه منذ البكور ، فاعتبر ان الشبان زملاءه أغبياء موهومين • وكان قد عجز عن اكتشاف بنات تحبه طالما أنه وهو طالب الثانوية المحترم لا يتورع عن الجرى وراء الست هانم كالجرو الصغير ، ويفتح لها الباب وينظف لها زجاج السيارة، ويمسح حذاء الولد ، ويذهب ليشترى الأشياء نيابة عنها وعنهم ، ذلك ان عادة الشراء بنفسه قد تأصلت فيه وأصبحت تمنحه متعة عظيمة ، ان يشترى حتى بحساب الآخرين للآخرين • وليس مصدر المتعة ارضاؤه لنزعة الشراء كتنفيس عن عقدة قديمة فحسب بل من كونها تدر عليه دخلا كبيرا حتى أصبح وهو طالب فى الثانوية يستطيع الاستغناء عن مصروف ابيه بل يصبح هو نفسه ذا مال ولو الى حد قليل لكنه لذيذ فائق اللذة • ليل نهار لا يكف ولا يضيع فرصة • زملاؤه من فريق الكرة يريدون ملابس معينة ، ينط هو ، يشتريها بمعرفته ويسمسر من كل ناحية وبشكل سحرى •• أصبح شريكا فى الكانتين • تجىء الاجازة فيذهب ليستريح فى قريتهم كطالب • تراه القرية فتزداد انبهارا به • انه بهدومه النظيفة يستنكف الجلوس فى القرية معتمدا على نفقات أبيه الرأسمالى بل هو ما شاء الله متعلم يتكسب بعلمه وذكائه وها هو ذا ـ ياحلاوة ـ قد اشتغل فى الاجازة فراح يعمل كاتبا للأنفار فى الوسية بماهية كالموظفين ••

« وكان أبوه يرى هذا فيزداد زهوا ويشجعه قائلا : « الشاطر اللى يكسب بجدعنته •• لا عيب سوى قلتهم فى الجيب ـ يقصد الفلوس ـ كده أنا مبسوط منك قوى يا عبده •• على الاقل الواحد يقدر يستلف منك •• مش دلوقت يعنى دا لو ربنا والعياذ بالله حوجنا » • الواقع ان أحدا منهما لم يحتج الى الآخر احتياجا ماديا • لكن الأب النقرزان هو الذى عادت عليه شطارة ابنه بكثير من الراحة والزهو • فمنذ سنوات والست هانم لا تستغنى أبدا عن آبدو ، هو يدها اليمنى وهو عينها على أبناء جنسه عند التعامل معهم ،

ولذا فقد استغنت له عن حجرة فى حديقة البيت بجوار الجناينى ، ثم استأجرت له شقة من غرفتين وصالة بشرفتين على الشارع آخر أبهة ، تدفع هى ايجارها شهريا بضع برايز فى الشهر ، وفرشتها له بمخلفات من عندها • عبده لا يبيت فيها الا لماما ، اذ هو طول النهار اما فى المدرسة أو لدى الست هانم وكثيرا ما يمسى به الوقت فى خدمة الرجل الكبير فعند خروجه يمر على الجناينى ليمكث معه ساهرا حتى الصباح يشربان الشاى ويتحدثان ويلعبان الورق ويحششان ويبت معه فماذا يفعل بشقة كهذه ، فليؤجرها ، ولكن هل يؤجرها بملاليم أو بضعة برايز ، مبلغ ما اتفهه ، يستطيع ان يأخذه من ورائها فى جمعة واحدة أو ربما ليلة أو ليلتين ، وذلك لا يكلفه الاتصال بسمسار أو وسيط ، ولماذا سمسار ؟ ان السمسار قد يكون غبيا أو فى وجهه بعض دم فيخفض سعر الشقة ويبتذلها أو يسوىء سمعتها ، أنه هو نفسه أحسن سمسار ، الأمر يحتاج فقط الى مشية على كورنيش النهر ساعة أو بعض ساعة ، حتما سيقابله ضابط أو مهندس أو تاجر أو طالب ابن ذوات بيده صيد يبحث له عن مكان ، ابتسامة فسلام فكلام فتلميح فعندى لكن صاحبها يؤجرها فى الليلة بكذا لمدة ساعة أو ساعتين مع ضمان الحراسة والتأمين ، ربما لا يمر أكثر من ربع ساعة تكون بعدها العربة الحنطور قد اقبلت تقرع الاسفلت بايقاع بهيج ، لينزل ثلاثتهم على مبعدة قليلة من البيت ثم يتقدم هو ليفتح الشقة ويرتب فرشها ثم يقف بالباب فى انتظار الضيفين ، اللذان يتقدمان الى الداخل وقد امتدت يد الضيف بالمبلغ المتفق عليه ، يتلقفه عبده ثم يغلق الباب عليهما بالمفتاح ويمضى ليغيب ساعتين أو ثلاث يقضيها لدى الست هانم فيضمن أكلا وشايا وأدوات مذاكرة بالمجان ، ثم يعمد الى التأخير فى العودة • فلعل البغى تخاف من العودة آخر الليل وحدها فتقبل المبيت معه هو حتى الصباح بدون أجر فى مقابل ان يلعق ما تبقى فيها بقية المساء ، رغم ثقته بأن ذلك حين يحدث صدفة فدائما ينتهى بغم ونكد ، اذ دائما تنقلب المرأة عليه فجأة من الميل الى الصد ومن الترحيب الى الرفض

وبغلظه ، دائما يتوقع ان تستتاء المرأة حين يبدأ يجامعها فاذا هى تستتاء فعلا دون ان يدرى لذلك سببا ، لكنه دائما يحاول ولا يزال يعتقد ان هناك من سترضى له بسلاسة اذا ما صار قادرا على دفع النقود بسخاء ..

***

« لقد كان لتلك الشقة المدنسة صيتا عظيما فى قريتنا وكانوا يحجون اليها فى كل مناسبة . ذلك ان النقرزان كان يمشى فى القرية مزهوا متفاخرا يتوكأ على العصا يدخل دكان البقالة ليشترى ورقة دخان ويقف ليفرطها ويلف لنفسه سيجارة ، يجلس على رصيف دكان القماش ليلعب الطاولة مع القمامشى أخ شيخ البلد. فان تطرق الى سمعه من هنا أو هناك حديث عن ناس سيذهبون الى المدينة لسبب من الاسباب فانه يرفع رأسه فى عظمة متواضعة ليقول بهدوء الفلاسفة : خير ؟ . فيقولون : خير . فيقول كأنه يصدر فرمانا بالحرية : « اذا عاوزين أى حاجة من البندر ابقوا فوتوا على الواد فى البيت .. اعتبروه بيتكم يعنى بدال ما تكلفوا نفسكم لوكانده » ، ثم يستأنف ما كان فيه وينسى تماما انه قال هذا .. لانه كان اذا تصادف وسافر هو الى ابنه فى المدينة يوم خميس ووجد أحدا من أبناء القرية عنده فانه يقيم الدنيا ولا يقعدها . ويقولون أنه ذات يوم طرد خالتى بسيمه من شقة ابنه فى المدينة . يالها من سنين . لقد ظلت السنين الفائتة قائمة على الدوام اجيالا طويلة من خلال هذه الحدوتة فقط التى يحكونها عن طرد خالتى بسيمه من شقة عبده ، أو جبار كما تعود الناس على مناداته تيمنا بأساتذته الذين قال انهم ينادونه هكذا . حتى لقد ألف الناس فى تلك الواقعة أغنية عاشت سنين طويلة :

« دارك فين يا بسيمه   دارى دار عبد الجبار »
« رايحه فين يا بسيمه   رايحه أزور عبد الجبار »
« رايحه تزورى ولا تحطى   رقبة أهلك للجزار »

« هذه الأغنية ظللت أسمعها وقتا طويلا فى الأفراح وفى الغيطان ولم أكن أعرف ان المقصود ببسيمه هذه خالتى بسيمه • لا أحد يتصور مدى سعادتى وتعاستى فى نفس الوقت يوم علمت هذه المعلومة ، اقشعر منها بدنى ووقف شـــعر رأسى ، ثم ان الآلام حطمتنى بعد ذلك •• ذلك ان معرفتى لم تكن كاملة وهذا أشـد أنواع المعرفة خطورة ، انها نوع من المعلـــومات التى لا يرحب الانسان أبدا بأن يعرفها بل أن يكون سعيدا بمعرفتها يكفى اننى عرفتها صدفة ، اذ كنت مع جدى فى فرح أحد أصدقائه من بلدة مجاورة ، وكان ليلتها فى أعلى مزاج ، ورحب بنا أهل الفـــرح وأكرمونا ، وتوهجت المغنية وغنت : « رايحه فين يا بسيمه » ، فاذا بالجمهور كله يشرع فى التراقص معها والمشاركة فى الغناء واذا بجدى الذى كان فى أقصى درجات الفرح قد انهار باكيـــا بحرقة ، واذا بناس كبار يلتفون حوله : « مالك يا خليل ؟ » • شاركتهم الدهشة ، فان يغنى أحد أغنية رايحة فين يا بسيمه أمر مألوف جدا وعادى ، وأنا نفسى قـــد أردده بينى وبين نفسى فى اعجاب ، فهل بكى جدى خليل من كثرة المشاركة فى الانفعال مع الفرح ؟ •• هكذا تصور البعض لكن جـــدى خليل كان متوترا عصبيا يرعد بصوت مكتوم قائلا : « أبدا •• هما عارفين ان أنا هنا وقاصـــدين يهزأونى » •• هما مين اللى يهـــزؤك ؟ •• عيلـــة النقرزان » •• يهزؤك ليه عيلة النقرزان ؟ » •• « أهو ما أعرفش •• لكن هما اللى موصيين البنت المغنية تغنى الأغنية دى بالذات عشان يكبسونى بيها !! » ، ثم يعتصر نفسه باكيا حتى خفت عليه واحتضنته وغادرنا الفرح منكسرين • وفى طريق العودة كان لا يزال منفعلا متوترا وضعيفا ، فاستطعت ان أجمع خيوط معنى يقول ان عائلة عبد الجبار كثيرا ما يداعبون جدى خليل بهذه الأغنية التى يعرفون معا مناسبة تأليفها ••

« العجيب اننى بعدها لم أنجح مطلقا فى استدرار شىء جديد

عن تلك الواقعة بل انه نسى انها حدثت وراجعنى ، ثم انه تسلح بالطرش المفاجىء • كل ما تمكنت من جمعه من معلومات حـول مناسبة هذه الأغنية ان النقرزان بعد عودته من احدى سفراته لابنه جلس يلعب الطاولة على الرصيف ويلف السجائر فى الدكـان كالعادة ويحكى متفاخرا كيف انه أنقذ الولد منها ـ أى من خالتى بسيمه ـ حيث انها كانت كما هو واضح ـ يقول ـ تعرفه من مدة وتسرح به وتضحك عليه : تصوروا هذه البنت الشيطانة وجرأتها وفجرها حيث انتقته ولدا يستأهل مثل ابنى ولـولا ستر الله وحضورى فى المحظة المناسبة لسيطرت على الولد وأحكمت شباكها حوله • فيقول من يسمعه من الجالسين : « ولكن هل ضبطتهما معا متلبسين يا حاج نقرزان ؟ » • فيقول مشـوحا فى غطرسة : « ان الله حليم ستار » • فيدققون ، ويقررونه ولو بالعافية ، كأنهم جميعا يريدون مجامعة خالتى بسيمة من خلال الواقعـة الواقعية التى حدثت بالفعل وتحققت ••

« ثم انهم بعد تلك الواقعة ينسجون بأخيلتهم حواديت وأساطير حول خالتى بسيمه فى شبابها وصباها ، تؤكد كلها ان فلان الفلانى جامعها ، والولد علان أكلها ، والولد ترتان رافقها من وراء زوجها هريدى ، وقائع يحكونها تشبه الحقائق التى كأنهم رأوها بأعينهم • لكنهم دائمـا كانوا يسـتدركون قائلين : « والله أعلم •• يمكن محصلش •• الظلم حرام برضه » • ذلك ان كلا منهم كان يتمنى أن يهتبلها لنفسه فى عز شبابه ولذا فهو يتخيل نفسه فى صور الآخر الذى يختاره ليحكى عنه على أساس ان ذلك الآخر ربما كان أكفأ منه مظهرا أو خلقا أو مركزا • وكانوا يخلصون ضميرهم بعد الخوض فى لحمها بقولهم الله أعلم ، اذ هم فى أعماقهم يدركون انهم يحكون مجرد خيال أو اشاعات متنامية •• فما بالك وهـذا رجل كبير المقام والسن يحكى فى الدكاكين كيف طرد هذه البنت الملعونة من شقة ابنه فى لحظة خطيرة ؟ • لكن النقرزان لم يزد عن

قوله ان الله حليم ستار ، وظن انه بذلك قد أرضى الله واستغفر من الذنب ·· فتكفل خيال الجماعة بما يتكفل به عادة حين ينشغل بمسألة ، تكفل باحياء الواقعة وتكميلها على النحو الواقعى المنطقى ·

« كان من الممكن أن أنسى خالتى بسيمة أنا الآخر وأتجاهلها كما فعل غيرى من أهلها · لكن كل من نساها دفع فى المقابل ثمنا باهظا جدا ·· فهذا عمى طاهر اقتنع ببغائها واعتبرها عارا عليه أن ينساه ، لكنه نسى مع نسيانه ان سبيل النجاح الوحيد لنسيان العـار هو انك تتصرف من منطلق التسليم بالعـار ، أى أن عمى طاهر تيقن من أن احدا فى الدنيا لن يصدق شرفه ومن ثم صار الشرف فى نظره عملة زائفة تصرف كأن العار لاصق به لا محالة ، وكان ان أصبح لا شىء هناك يعز عليه أو يثير انفعاله أو نخوته أو خوفه سوى شىء واحد هو نقصـان الرصيد أو ازدياده ، صار حيوانا ماديا يجمع النقود بكافة الوسائل ، يجمع ما لن يستفيد به سوى الاغراب وابناء السبيل ·

« أما جدى خليل فقد انكسرت صلابته فقوى على لحمها لحاما صلبا من طاقة الصبر عنده · لكنه لحام يسيح عند اشتداد الحرارة فيخلخل الكسر وتصبح نفسه أجزاء متناثرة من الصعب جمعهـا ثانية ، لكنه يجمعها ، اذ يغيب عن الوعى ساعات بارادته حسبما يحتاج اللحام من برودة يتصلب معها من جديد · وأما جدتى فانها فقدت صلتها بكل شىء تقريبا الا بالله سبحانه وقرآنه ، كأنها رأت أن تعتذر له مدى الحياة عن خطيئة تسبب فيها جمالهـا البائد ، لقد خلقها سبحانه جميلة الجميلات ، ثم خلقت سبحانك ــ هكذا تردد جدتى دائما فى صلواتها ــ ابنتى جميلـة جمالا مشتعلا بالنار صنع فيها وفيهم وفى الجميع ما صنع : سبحانك جلت قدرتك أنت جميل ولا تحب غير الجميل ، فان كانت بسيمة قد حادت بجمالك نعمتك عن جادة الصواب فسامحها يارب دنيا وآخرة ، فهى فى النهاية بعض جمالك وبعض ما تبدعه فينا من

صنع وصنيع . سبحانك أعطيتها الجمال ولكنها يارب مسكينة لم تقو على رد الوحوش والغيلان .. أكل ذنبها يارب انها كانت آية من آياتك فى الجمال ؟ .. مسكينة لقد قاومت على قدر ما قاومت ، ولابد انها بذلت أقصى ما فيها من قوة ، فان كانت قد انهزمت ووقعت فى الاوحال فاغفر لها انها ظلت تقاوم ، واغفر لها أنها وحيدة ويتيمة وغلبانة .. وأنت وحدك تعلم ان كانت لا تزال على قيد الحياة آم صعدت روحها اليك ..

« وهكذا وهكذا خذ من صلوات جدتى ما تشاء دون ملل ، شغلتها تسبيحها ، نذرها بقية عمرها أن تظل تصلى وتستغفر عن ذنبها يوم فرطت فى دم ابنتها وألجأتها الى الهرب ، ان تظل بقية عمرها تصم الأذن عن كل مكروه حتى يرضى عنها الله ويسامحها ويسامح ابنتها التى لم تعد تعرف عنها خبرا أى خبر منذ سنوات وسنوات ..

« هذه المعاناة وهذا العناء كنت أستطيع أن أدفعه من عمرى لو أنه سيوصلنى بالفعل الى خالتى بسيمه أو يعرفنى شيئا حقيقيا عنها وعن مصيرها بحقائق دامغة . الزمن وحده كان يستطيع أن ينسينى مسألة خالتى بسيمة الى الابد ، لولا سببين قويين لم أعد أستطيع مقاومتهما ، هـذه الأغنية .. وملامحى ، فالأغنية لا تزال تعيش كأنها تتحدانى وحدى . كذلك كلما ذهبت الى مكان فيـه أقارب لى يطلع دائما من يقول لى : على فكرة أنت شبه خالتك بسيمه تماما ..

« اندهش قليلا ثم امتعض ، فكل أقاربى الكبار يؤكدون لى ان فى وجهى كثيرا جدا من دمائها وبعض رائحتها وخيلائها . حتى أمى أنا ، هى الأخرى كانت قد احبتنى كما تقول ــ لهذا السبب نفسه مع انها هى نفسها لم تر أختها خالتى بسيمه ، انما جدتى قالت لها وهى تهشكنى اننى صورة طبق الأصل من خالته بسيمه .

ولقد نشأت عندى عقدة قديمة خاصة بعد ان عرفت بشكل او باخر الوجه السيىء من سمعة خالتى بسيمه وأتوقع ان كل من يرانى حتى من الغرباء سوف يقولون لى : انت شبه خالتك بسيمه ٠٠

لكن الطريف اننى ذات يوم ليس بالبعيـد جلست أشرب شايا فى بوفيه الكلية فى العاصمة ، فصاحبتنى فتاة لطيفة وجلست معى ، ثم راحت تتأمل فى ملامحى بامعان حتى خشيت ان تنطلق بالجملة المعهودة ، فاذا بها تنطق قائلة : « على فكرة انت فيك شبه كبير جدا من الفنانة رشا الخضرى ٠٠ انت تقرب لها ؟ » ٠ صعقتنى المفارقة فقلت ضاحكا : « لا والله ٠٠ ولا تربطنى بها اى صلة ٠٠ حتى أغانيها لا أحبها ٠٠ وحتى صورها فى المجلات المصورة الملونة لا احبها لما فيها من خلاعة وافتتان ٠٠ ولا اظن اننى ساحبها فى يوم من الايام « ٠ ثم اننى ظللت اضحك شهور طويلة على حس هذه النكتة ، متخيلا اننى فى المستقبل قد التقى بمن يقول لى : انت شبه مارلين مونرو أو جاكلين كيندى ٠٠ أليست هذه مصيبة ؟ من سوء بختى لا يشبهوننى الا بالنساء ٠٠

« أتراني قريب الشـبه بالنساء فعلا أم انهـا لعنة خالتى بسيمة ؟ ٠ أغلب اليقين عندى اننى رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى ٠ والتصاق شكلى بشكل خالتى بسـيمة ليس معنـاه اننى نسائى الملامح والسلوك حتى يكون الشبه متطابقا الى هذا الحد ، بل ان معناه الحقيقى اننى دون الآخرين قد انطبع على وجهى وعلى صدرى صليب خالتى بسيمة ، لقـــد كتب على الى الأبد أن أظل أبحث فيها وفى قضية تشردها ثم عودتها مقتولة على هذا النحو ٠



واستطرد مأمون :

« ترى هل يتذكر عبد الجبار اليوم هذه الأغنية ؟ انه لابد أن يكون قد سمعها من قبل ، فقد ألفت هذه الأغنية ابان فترة طلبـه

للعلم فى الثانوى أو فى الجامعة تقريبا ٠ كان ذلك فى أواخر الأربعينات ، وهو على الأرجح كان طالبا بكلية الهندسة ، التى دخلها بواسطة من الست هانم وكان يسافر ثلاث أو أربع أيام فى الأسبوع الى الاسكندرية ، ويعود الى شقته فى البندر ليبقى بعض أيام تحت امرة الست هانم وطلباتها التى لا تنفد ٠٠

« اننى فى الواقع قد عجزت عن التحقق من تاريخ ميلاد الأغينة، هل ألفت بعد هرب خالتى بسيمة مباشرة ؟ أم بعده بكثير ؟ أم فى أثناء بقائها فى القرية ؟ ٠ لكن المرجح عندى انها ألفت وتداولها الناس بمناسبة هرب خالتى بسيمة واختفائها عن الأنظار ٠ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان كثيرا من العقلاء والكبار الذين جذبوا احترام ، الناس ، كانوا اذا جاءت هذه السيرة صدفة بادروا بتصحيح تاريخ جوهرى ينفى عن عبد الجبار أى صلة له بالأغنية ، ويؤيدون ذلك قائلين ان عبد الجبار طول شبابه وصباه لم يعرف مسألة الحب والغرام هذه مع أى انسانة ، وانه كان شديد الأدب لا يرفع عينيه فى واحدة ، ويصلى الفرض بفرضه ، وأما الحادثة المزعومة التى رواها أبوه النقرزان فهى كذبة من قبيل التفاخر والفشخرة الكدابة ، أو هى زلة لسان ، والدليل على ذلك ان النقرزان نفسه قد سئل بعد ذلك فى تلك الواقعة فنفاها تماما وأنب الذى سأله تأنيبا كاد يصل الى حد الضرب وقال : كيف يمكن أن يكون ابنى دنيئا الى هذا الحد ؟ ٠٠

« ومن ناحية ثالثة فان أدب عبد الجبار وحسن سلوكه مسألة يعترف بها الجميع من معاصريه وزملائه ، بل انهم يضربون به المثل فى الأدب والحياء اللذان يؤديان بالضرورة الى هذا النجاح وهذا التفوق ٠ ولا يذكر أحد منهم أبدا انه سمع عن عبد الجبار كلمة سوء أو عرف عنه سلوكا يغضب الله ٠٠ الكذب خيبة يا جماعة ٠٠

« معنى ذلك أن شبهة وجود علاقة غرامية بين عبد الجبار وخالتى بسيمة فى زمن الصبا ، شبهة ضعيفة جدا ، أنا شخصيا

لا أصــدقها ولا أتصــورها ، لسبب بسيط هو أن عبــد الجبار منذ تخرجه فى كليــة الهندسة وحتى سنوات قريبة كان يعيش حيــاة مكشوفة للجميع وخاصة نحن أبناء قريته ، اذ أنه حين يريد أن يفعل شيئا بالغ السرية فانه يلجأ الى استراحته السرية فى قريتنا وهى على بعد عشر كيلومترات منها ولا شىء حولها سوى حدائق وأسوار من داخلها حدائق وأسوار ٠٠

« والمرجح طبقــا للواقع والمنطق أن تكون خالتى بسيمة مجرد حدث عارض مر به فى الطريق دون أن يترك فيه أو فيها أثرا ولكن خيال الجميع هو الذى حولها الى ملحمة ينفس بها عن أشياء خاصة بهم ٠ على أية حال فلست معنيا بالبحث فى أمر هذه العلاقة الآن ، لثقتى من أن خالتى بسيمة وعبد الجبار قد ذهب كل منهما فى طريق يصعب فيه التلاقى ٠٠ فها هو ذا عبد الجبار يفتتح الطرق والكبارى والمنشآت ويعاشر ملوكا وأباطرة ٠٠ وها هى ذى خالتى بسيمة قد عادت كما ذهبت وجثتها ترقد الآن فى الثلاجة ٠ أما مشوار خالتى بسيمة الذى قطعته طول حياتها فاننى غير ملم به ولا أعرف عنه أى شىء على الاطلاق ٠ أما مشوار عبد الجبار فهو نار على علم ، وقصة حياته وكفــاحه انجيــل يحفظه الأولاد ٠ أنت لا تدرى مقدار الفرح فى البلدة يوم تخرجه ، حتى أبوه فى تلك الليلة بسط يديه لأول مرة فى حياته ودفع نفقات من أجل الاحتفال بحصول ابنه على البكالريوس ـ كلمة تدرب على نطقها كثيرا حتى أصبح له مذاق خاص فى نطقها ـ ولكن يقولون انه جلس ليلتها بجوار ابنه بين المحتفلين يعيد على رأسه صداعا : دفعت كذا لفلان تصور ؟ ٠٠ وصرفت كذا فى كذا فتخيل ؟ ٠٠ حتى هب فيــــه عبد الجبار كأنه يوبخ رجلا لا يعرفه : « يا أخى صدعتنا ٠٠ اللى صرفته خده ع الصرمة ومتفلقناش » ٠ فيعتذر الأب بكل كلاحة قائلا : « لا ما أقصدش ٠ أنا بس باوريك معزتك عندى » ٠٠

« لكن عبده ـ وقد لقب بالباشمهندس من قبل تخرجه بسنوات

لم يعد محتاجا لأحد من ذويه ــ ثم انه لن ينتظر الشغل يجيء لحد عنده ، سوف يذهب هو الى الشغل أينما كان · الغريب انه مع ذلك لم يسع الى الشغل أبدا ، لأن الشغل كان دائما يجيء لحد عنده بالفعل · ذلك انه قبل تخرجه بسنة كان ذاهبا الى تفتيش الوسية فرأى الناظر يساوم أحد البنائين على ترميم الاسطبل · فدخل بينهما ، وطرد البناء برفق شديد ثم اختلى بالناظر فأقنعه ان الاسطبل كله فى حاجة الى اعادة بناء على الطريقة الحديثة ، وراح يكلمه بالأمتار والمقاييس والمصطلحات الأجنبية البراقة التى يموت الأزارقة فى جلدهم عند سماعها ، حتى ارتعب الناظر ووافق راضيا · فاحتسب له التكاليف الشاملة ، ثم قبضها كاملة ، فهو مهندس شاب لا رأسمال لديه وهو سيخدم فقط · وظل الناظر ينتظر أن يجيء عمال ليهدموا الجدران كلها ليبدأ مكانها بناء جديد · ولكن ذلك لم يحدث ، كل ما هناك ان اثنين من عمال البناء حضرا بصحبة عربة أو اثنين من الطوب ، وفهم الناظر فى الحال ان الباشمهندس ضحك عليه واستغفله حيث قبض ثمن عملية بدون عملية · لكنه بعد صباحين أو ثلاث فوجيء بأن الاسطبل قد تغيرت كل معالمه بالفعل واتخذ شكلا جديدا ومدخلا جديدا وفراغات جديدة ، حيث قد أضيفت أبواب واختصرت شبابيك وبنيت أضلاع اتصلت بأضلاع ثم طلى كل ذلك بالأسمنت والجير · فسافرت سمعته بذلك الى كل التفاتيش فى كل البلدان ··

« وفور تخرجه كانت صفقة من الجيش الانجليزى فى انتظاره، عمليات فى جميع الوحدات ، والجيش فى حاجة دائما الى أبنية من جميع الأنواع والأحجام والأسعار وغرف المراقبة الى جانب انشاء طرق وتعبيد أخرى ورصف غيرها وهكذا من مقاولات لا تنفد · وكان للست هانم وزوجها دخلا كبيرا فى تعبيد الطرق أمام عبد الجبار فلم يشاركه أحد فى جميع احتياجات الجيش ومقاولاته· وحيث كان المفروض انه مهندس فحسب وانه سيحتاج لمقاولين

يفهمون فى جزئيات التنفيذ واقتصادياته وأسعار مواده اذا به يدخل مهندسا مقاولا معا فى نفس الشخصية فى نفس الصفقة ٠ وليس معنى ذلك ان العمليات التى قام بها لم تحتج الى مقاولين غيره من أهل المهن المتخصصة ، بل ان كل خصيصة قام بتنفيذها مقاول ما له أنفاره النوعيين الخصوصيين ، لكنهم جميعا مقاولون من الباطن ، من باطنه هو ، يكلفهم باعتباره صاحب العمل الأصلى ، أى بشخصية الجيش الانجليزى ، أى ان جميع الأجور وأسعار المواد تدفع ناقصة نسبة مخيفة وبطرق مبتكرة فى التهديد والتلويح بالقوة ٠٠

« شاطرا كان مخيفا ، لكأنه الشيطان تجسد فى حركات مادية لكنها لفرط ذكائها ودربتها وسرعتها تبدو مجرد اشارات لاسلكية يبعثها ويستقبلها لتتحول بعد برهة الى ناس تهد أو تبنى أو تحفر أو تسفلت ، انه بارع فى خلق عمل يكدح فيه الجميع كدحا ويحصل هو وحده على أجره ٠ ومشهورا كان الى حد النجومية فى جميع وحدات ومعسكرات الجيش الانجليزى على امتداد طول البلاد وعرضها ، وربما كان اتصاله برجال الثورة الازرقية قد جاء من هنا اذ انه حسبما يشاع خدمهم فى أمر ما ٠٠

لم يكن غبيا ليتجاهل ما حوله من حركات اجتماعية تناهض المحتل ٠ لذلك فانه أراد أن يضرب المثل فى الوطنية ٠ فجاء ذات يوم من بعثة عمل خارج البلاد فى مدينة السويس ، كان رغم دمامة وجهه جميل الهندام لامع الشخصية ، هناك نمط فى بلادنا يلمع من بين ذوى الوجوه الدميمة أو العاهات ، فكثيرا ما ترى وجها دميما جدا توطن النفس على ألا يكون لك به صلة ، فاذا به حين يحدثك تكتشف لباقة وجمالا مغريا بتقليده وتقليد حتى نواقصه فى النطق أو عاداته المصاحبة للكلام وان كانت بذيئة ٠ هكذا كان عبد الجبار حين دعى كل شبان البلدة فى دوار بيتهم ٠ يومها نظر فى الشباب الحضور وأحس بسعادة فائقة اذ وجد بينهم شبانا من الوفديين والاخوان المسلمين ومن هم بلا انتماء ، فى الحال جمع ذهنه ،

واستحضر خطبة يثق انها تعجب شبان الوفد كما تعجب شبان الاخوان ، أما الآخرون فان أى شىء سوف يعجبهم • وبالفعل صفق له هؤلاء وأولئك بكل حماس ، ذلك انه ردد كل شعارات الوفد والاخوان وأضاف اليها شعارات جديدة براقة يرفعها نفر من الوفد الجديد ومصر الفتاة والماركسيين • فتعالى الهتاف يشق الفضاء الساكن • واذا هدأ الهتاف شرع هو فى طرح اقتراحه : بتكوين جمعية من الفدائيين تعمل لحماية الوطن واقلاق راحة الغزاة ، ولم يجىء بسيرة الانجليز أبدا رغم انه كرر كلمات الغزاة والمحتل الأجنبى والاستعمار وما الى ذلك من ألفاظ كانت مستحدثة فى قاموس الحياة والكلام اليومى ••

« واذا كان المفروض ان مثل هذه الجمعيات يدفع أعضاؤها اشتراكات فان جمعيته لن يكون مطلوبا من أعضائها ثمة اشتراكات، لأنه – سى عبده – سيتكفل بوضع رأسمال للجمعية من جيبه الخاص • فيتعالى التصفيق والهتاف مرة أخرى لبلدهم • ثم انه بدأ فى الحال فافتتح باب الانضمام وتطوع ولد من أقاربه بتحضير كشف امتلأ عن آخره بأسماء الأعضاء • وهنا وقعوا جميعا على أوراق ولوائح وقال لهم عبده ان هذه هى الجمعية التأسيسية وانهم بعد ذلك يجب أن يضعوا شروطا وقيودا للانضمام تمنع عن الجمعية أعدادا من الانتهازيين والتافهين فأحس الأعضاء بزهو كبير جدا! ونفخوا صدورهم من الفرح ••

« اشتهرت الجمعية فى نطاق المديرية كلها وأصبح الانضمام اليها بين شباب القرى نوعا من الشهادة بحسن المستوى فى فهم النضال والعمل السياسى المثقف ، الذى ينبذ شغل العصابات والتخريب ويميل الى فلسفة الشغل البناء ، ان فلسفة الجمعية وشعارها المسجل : « اعمل فى وقت فراغك •• حتى لو لصالح عدوك » ، والمذكرات التفسيرية لهذا الشعار يحفظها نجباء الأعضاء من الشبان القياديين ويطنبون فى مدح عقيدتهم التى هى فى الأصل

تقديس للعمل الذى يحبه الله خاصة وان المستعمر سوف يجلو ذات يوم عن البلاد فتئول ملكية هذه الأبنية الينا · وعلى هذا فقد انضم الى الجمعية شبان من الأعيان والخياطين والنجارين والبرادعية والتجار ··

« ثم ان الأمر سار بعد ذلك على نحو طريف ، حيث قسمت الجمعية الى فرق بحسب نوعية الصناعة والمهنة ، أطلق على كل فرقة اسم له معنى سياسى ، فهذه فرقة دك الاستعمار أى الفلاحين، وهذه فرقة تنفيض البلاد من غبار المستعمر ـ أى البرادعية والمنجدين ، وهذه فرقة مسح اللوح من قدم الدخيل ـ أى النجارين· وهكذا وهكذا ثم عين عبد الجبار لكل فرقة قائدا أعطاه سلطاته العليا بحيث لاراد لكلامه أو ابطاء فى تنفيذ أوامره ·· فنحن لا نلعب ، انما نحن نعمل عملا خطيرا يتعلق بالمصير · شهورا وراء شهور من التنظيمات والانتخابات زاط فيها الأولاد واحلو منظرهم وقد اندمجوا فجأة فى جدية رجولية رصينة غير مازحة ، ويدعون لأنفسهم ويتناقشون بعبارات فصيحة براقة ويخلبون لب الأباء ويمارسون الاحساس الجميل بالانشغال ولمعان النجوم فى الآفاق ··

بعد أن تهيأ كل ذلك أذيع ان عبد الجبار سوف يجىء ليجتمع بهم لتوزيع خطط العمل الفدائى عليهم · وكانوا وخاصة قوادهم وهم ينشرون خبر مجيئه لهذا الغرض يحسون بارتجافة القلب خفقة سريعة عميقة كلما شعروا باقتراب اللحظة الفعلية التى تتحقق فيها كلمة فدائى هذه ببريقها المتوهج فى خيالهم ، يحسون وكأنها لحظة الموت واقفة فى انتظارهم حيث هم يسعون اليها بظلفهم ، لكنهم سرعان ما ينسون هذه اللحظة حتى لا تهتز شخصياتهم أمام الآخرين بعد كل هذه الدعاية والخطب ·· يا الهى كم حمل هذا الأثير من خطب تنوء بحملها الجبال ··

« المهم ان عبد الجبار جاء بعد أن رسم لنفسه المقدمة المناسبة التى ابتدعوا لها تسميات أجنبية جديدة كأن يسمونها «البرستيج»·

ومعناها أن يأخذ النجم وضعه اللائق به من تكريم الجماعة واستقبالهم ٠ وعبد الجبار نجم سابق من صغره ، ابتداء من كونه يتعلم فى الخارج ، مرورا بكونه يستغنى عن ثراء أبيه ، ويضع لنفسه ثراء وهذه ميزة وكل الأباء يشجعون عليها ، وانتهاء بحادثة خالتى بسيمة التى أشاعها النقرزان ، وفى ذلك الوقت ساهمت فى شهرته كأنه من أبطال الحواديت الغرامية ، نعم فلقد كانت هذه الأغنية قد ساهمت بقدر كبير فى تهيأة الشباب كلهم للاقتداء به وتقليده على الرغم من أن مغزاها الأصلى هو وصم عبد الجبار بسوء السلوك ، الا أن الأغنية ـ رايحة فين يا بسيمة ـ غطت هذا الجانب فظهر عبد الجبار فى خيال أولاد قريته كأنه نجم أسطورى من نجوم المواويل ٠ أليس غريبا وطريفا ان الأغنية التى ألفت للتنديد بسلوك فتاة خاطئة مارقة ، بهدف تبشيع فعلتها وفعلته فى أنظار كافة البنات والصبيان ، أليس من الغريب انها تضفى على عبد الجبار نوعا من النبل رغم نذالة موقفه ، وتخلق منه مثلا يلوذ به الشباب ؟ ٠٠

« أيا ما كان الأمر فان عبد الجبار خطب فى الأولاد يومها خطبة رسمت وجهة نظر الجمعية وطريقة تنفيذ عملياتها ٠ ان فلسفة العمل فى الجمعية هى ـ بعد تقديس فكرة العمل أولا : « اعرف عدوك » ، وبناء على هذه الفلسفة فان طريق العمل يكون : التسلل الى قلب العدو والعمل من داخله ٠ ولهذا فقد قرر وضع خطة بأن تقوم كافة فرق الجمعية بالانتشار بين أضلاع العدو وفى أحشاء حياته ، لكى يتجسسوا عليه ويجمعون أخبارا ومعلومات معينة يبلغونها لرئيس الفرقة الذى يبلغها بدوره لرئيس الجمعية أولا بأول ، كمى يتولى ـ بناء عليها ـ وضع خطط لابادة جنود العدو واثارة جنونهم ٠٠

« حينذاك أحس القواد بفرح عظيم انبسطت له أساريرهم وضاعت الخفقة القلبية المفزعة حيث اتضح لهم أن العمل الفدائى

ليس بالعنف الذى كانوا يتصورونه ، فأكدوا له أنهم وفرقهم تحت امرته فى كل لحظة · فوزع على كل قائد مبلغا من النقود السميكة المخزخشة فى بهجة وقال لهم ان هـذا هو تموين الفرق وعلى كل قائد أن يطعم به فريقه طوال أيام العمـل ، وانه قد حسب جيـدا حجم النفقات التى يمكن أن تصرفها كل فرقة فى الأكل والشرب والدخان والفسح ، وازاد عليه ما يفيض بعد النفقات ، ومع ذلك فان احتاجوا لشىء آخر فليتصلوا بأحد رجاله فى أى مكان ··

« وهكذا بدأ العمل ، اذ جاءت عربة جرار فأقلتهم جميعا ثم وزعتهم على أماكن متعددة متباعدة جـدا · ثم ان كل فرقة منهم فوجئت بأنها جاءت لتعمل عملا بحق وحقيقى فى معسكرات الجيش الانجليزى ومنشآته ، وبغاية القسوة ، حيث يتأمر عليهم جنود وضباط وناس لا هم بالجنود ولا بالضباط ولكنهم يشوطون فيهم بالشلاليت وبنفس البذاءة يشتمون أمهاتهم · وفى البداية قالوا لأنفسهم انهم لو كانوا يعملون هذا العمل فى غير هذا المكان بالأجر لما رضوا بالصبر على هذا الظلم ، فشحنهم القواد بأن العمل الوطنى ليس لعبة وأن عليهم أن يصبروا فى سبيل جمع معلومات وأخبـار تفيد قضية الوطن · فاسـتأنفوا الصبر · وعاد الطـلاب منهم الى مدارسهم ثم رجعوا ثانية فى فترة الاجازة اذ هم على الأقل يأكلون ويشربون ويشاهدون أشياء جديدة تنسيهم بعض الشىء قســوة العمل ··

لكن الصبر طال وطال · وفوجئوا جميعا ولكن على حد بأن قسوة العمل وعرقه تهد حيلهم وتحيلهم الى خرق بالية ترتمى على الفراش فاقدة الوعى لا هى جمعت معلومات ولا هى مؤهلة لجمع شىء ، ثم ان المعلـومات التى بهـرهم فى الأول انهم يعرفونهـــا ويدخرونها لابلاغها مصاغة الصياغة المناسبة اكتشفوا بطول البقاء انها ليست تدخل فى نطاق المعلومات أصلا انما هى تفاصيل واقع يومى كبير وعات · وحتى الأذكيـاء منهم الذين جمعـوا بالفعـل

ما يسمى بالمعلومات أنساهم الارهاق جميع المعلومات والمعارف التى حصلها طـول حيـاته • الا أن الزمن كان قد طال بهم على حبلين ينفتلان على المدى البعيد فى حبل واحد ، فالشعور بالخطأ والتمرد يأخذ وقتا حتى يقتنع الفرد باعلانه اذ هو موهوم لا يزال بقضية الوطن ، ومعنى تمرده على العمل ها هنا انه يبيع قضية الـوطن ويفرط فيها • ولابد أن يمر وقت طويل حتى ينتقل نفس الشعور من فرد الى فرد ومن فرقة الى فرقة ، اذ انهم كشراذم متبـاعدة يظلون موهومين ببطولة الآخرين ، ثم ان الشعور بأنهم لا يجدون الأكل فى الخلاء المدنى كانت تغذية فى نفوسهم أخبار وافدة تقول بأن البلاد لم يعد فيها عمل ، لم يعد فيها خير ، لم يعد فيهـا انسانية ، وكان ثمة قوة اعلامية مجهـولة تريد أن ترسـخ فى اعتقادهم ان البقاء فى هذه المنافى هو أعظم اختيار بالنسبة لهم •

« لكن الثورة المصرية المبـاركة حين قامت أشاعت فى الشرق الأزرق نورا وحرية •• وأراحت اخواننـا من اعـلان التمرد على عبد الجبار والتنكر لقضية الوطن • اذ ما لبثت الثورة الازرقية ان قامت فى اثرها • وبفضلها عرف اخواننا هؤلاء ان عبد الجبار لم يكن فى الواقع زعيما وطنيا كما أوهمهم ، انما هـو مجرد مقـاول للانفار ، عرفوا ذلك من الثورة الثقافية التى أشـاعتها الثـورة المصرية فى المنطقة ، فجرائد كثيرة تفضح العمـلاء وكتب زهيـدة الثمن تنقل المعلومات والمعارف الواسعة واذاعات توصلهم بالعالم عبر مؤشر كعود الكبريت • ثم ان الزمن أخذ يجرى كالاكسبريس لا يتوقف أمام صغار المحطات ، وفى كل يوم أنباء جديدة متجددة وأحداث مهولة واقعـة ، وجبـابرة تنهزم فى لمح البصر ، وعائلات كبيرة متسلطة تنخلع أظافرها ، وقد نسى الناس لبعضهم البعض كثيرا من الأحقاد والثارات ، ومن بينها ثأرهم لدى عبد الجبار الذى باعهم للعدو خدما أذلاء وقبض هو ثمن المقاولة ••

على ان البعض كان يستبد به الحقد فيفكر فى الانتقام من

عبد الجبار ، فيظل عمرا طويلا في حالة جنونية دنيكشوتية · ورغم ذلك كان ثمة من يرى هذه الحالة منتشرة ويظل هو الآخر يسير اليها بالتهديد المتواصل والصوت المرتفع · ذلك ان ثمة أملا فى الواقع كان يداعب خيالهم ، اذ يتوهم الواحد منهم ان صوته وتهديده قد يبلغ اذن عبد الجبار فيطلبه ويعينه فى عمل مريح كما فعل مع معظم قواده ··

« ما يدير الرأس حقا أننى التقيت بواحد من قواده السابقين يعمل فى وظيفة كبيرة جدا فى احدى شركات س عبده ، وجاذبته الحديث بلطف متوقعا أنه يعرف عبد الجبار حق المعرفة ويلتقى به كثيرا ، فاذا به ـ وهو فى عمر أبى ـ يقول لى بنبرة صادقة أن عبد الجبار لا يعرفه ، اذ أنه لم يره منذ ذلك التاريخ الذى مات واندفن، وأنه عين فى احدى شركاته بواسطة من أحد رجال الثورة الازرقية ، وانه فى المرات العديدة التى التقى به فيها رفض عبد الجبار أن يتذكره أو يتذكر أنه كان يوما واحدا من قواده » ·

٣

ابتعد مأمون كثيرا حيث راح يسرع فى خطوه وأنا ألهث خلفه كأننى أبحث عن خيط الحديث الذى انقطع · وكان ايقاع نبض مأمون قد ارتفع فجأة فيما هو يغز السير عدوا · فنظرت حوالى فعرفت أننا قد سرنا مسافات شاسعة كفيلة بافساد موتور عربة فيات ٢٨ ، حتى لقد غادرنا القرية وعديدا من القرى وصرنا فى البندر حيث يوجد مركز الشرطة · أخذت أهوهو ، وناس تقذفنى بالحجارة دونما سبب فاعود ، والشمس كالبيضة فقست على أديم السماء فتناثر صفارها وأطل منه رأس الكتكوت مشتعلا · رغم أننى مشيت منزويا مهزوما فان طائفة من الكلاب الطائعة هرولت نحوى باقصى سرعة ناشرة عدوى الحماس بين الآخرين ، فاذا هم يحيطوننى وينهالون على تمزيقا وتلطيشا ، وصوت عوائى لا يبلغ اذن مأمون ، الذى ابتعد عنى كثيرا بل دخل فى مبنى متميز الشكل ··

من فضل الله يوجد دائما من يظهر فى لحظات النهش النابحة ليقول : « امشى ·· بس ياكلب منك له » ثم يفض الاشتباك بطوبة أو ببوز حذائه أو بشومة غليظة · فما أن حدث هذا حتى اندفعت أجرى مهيض الساق أرفعها من الألم · ولقد استغربت من فرط الألم أن يوجد كل هذا السرب من الكلاب الضالة فى هذه البقعة وحدها رغم أننا لسنا فى منطقة سوق مثلا تكثر فيه العظـــام والنفايات · لكننى بعد أقل من برهة عرفت السبب الذى جمعهم هاهنا · ثم ضحكت ، اذ وضح لى أن نقبهم على شونه ، ولسوف يظلون هكذا بجهلهم يحرسون وهما بولائم قادمة عما قليل ، والوهم مبنى على هذه الرائحة التى تسللت الى خياشيمى وهى ذات نكهة ليست فقط فاتحة للشهية بل للشراسة والسعار ، تلك هى رائحة الجيفة ، التى توجد هاهنا مبطنة برائحة ما أعرف أنه عقار اسمه الفورمالين ··

هى عادتى وليس لى خيار فيها : أن أنجذب بدورى نحو هذه الرائحة انجذابا أين منه انجذاب المتصوفة ، يسيل لعابى ويحدونى الشوق الى الخيال البديع فى أكلة دسمة تاريخية · لم يكن ثمة بيوت كثيرة فالمدينة الحقيقية لاتزال تظهر صغيرة من بعيد · عند بيت معين يقف فى الخلاء بعيدا توقفت وقد أسكرتنى نكهة الرائحة تماما · فقفزت داخلا ، فاذا ببوز حذاء حديدى يشوطنى فى فمى ، فاندفعت أصرخ من الألم واندفعت أجرى فزعا بدون وعى · حتى اذا ما صرت بعيدا بعض الشىء هويت أعوى وأتأوه وأبكى ، واذا بكلب عجوز لطيف الشكل يهرول نحـوى · فقدرت أن منظرى فى محنتى سوف يرد عدوانه عنى · لكن الكلب العجوز كان لطيفا بحق ، اذ راح يتشمم جرحى ويلعق بعض مايسيل من دم · وكان حريا بأن يواصل اللعق بلذة فائقة ، أما وقد اكتشف أنهـا دماء كلب مثله فقد اشمأز ومسح لسانه فى الأرض وفى فروتى ، ثم رفع أماميتيه وربت على ظهرى فى رفق قائلا بحنان أبوى : « أصلك مفش ·· غبى ·· جاى مندفع كده منتـــاش عارف انت داخل

فين ٠٠ دى المشرحة يا حمار ٠٠ اللى بيخزنوا فيها جثث أسيادنا الآدميين ٠٠ ع العموم تعيش وتاخد غيرها ٠٠ قوم » ٠ فأخذت أحاول النهوض والنار تلسعنى فمكث العجوز يتأملنى برهة طويلة مشفقا على ثم أومأ لى بالانتظار حتى أستريح ٠٠

وفيما أنا ألهث وأتأوه رأيتنى فجأة أنتفض حيث شممت رائحة الأسطى حسنين وروائح أخرى أعرفها جيـــدا ٠ اعتدلت جالســا أترنح ، يقف شعرى ، اذا بى أرى الجد خليل بذات نفسه ـ جـد مأمون ـ يلف حول مبنى المشرحة ، ويتلكأ ، وبيده جهاز تسجيل ، وصوت أحمد عدوية يلعلع قائلا : سلامتها أم حسن ٠٠ وخلفهـا مباشرة جملة من غناء سيف الماوردى ، فما يكاد سيف يستطرد مغنيــا حتى تركب عليه رشــا الخضرى ، كأن يدا تلعب بمؤشر المحطات ٠ لكن الجد خليل كان يتلفت حواليه كالمطارد ، ويحاول الاختباء عن عيون تراقبه فى الخفاء ، ثم اذا به يختفى فجأة كأن الأرض انشقت وابتلعته ٠ بعدها بلحظات طويلة ظهر مأمون خارجا من المشرحة وهو يجفف دموعــه ويبدو أنه مهــان حتى النخاع ٠ فأخذت أعوى فى طلبه ، فانتبه الى ، فجاء يعزينى فى بلواى ٠ وجلس يتفحص فكى ويجفف الدم بمنديله ، وأنا ألوى بوزى صائحا ليس من الألم ولكن لأنبهه الى أن الأسطى حسنين الذى أحضر جثة خالته بسيمة قد مر من هنا الآن وها هو ذا يمشى بصحبة بعض المخبرين وضـــباط الشرطة ٠ لكن مأمون كان مستغرقا تماما فى تطبيب جرحى ٠٠

ثم أنه أشار لى فتبعته الى مبنى المشرحة من جديد حيث يقف مأمون مع تمورجى عجوز فينفحه سيجارة سوبر لم يجد فى العلبة غيرها لنفسه فرماها وزعم أنه معه علبة أخرى ٠ وكنت أحس كأنه يرشو هذا الرجل الطيب لكى يترفق بجثمان خالته فلا يعرضها للامتهان ٠ وهو لم يقل هذا طبعا ، لكن التمورجى فهم من تلقاء نفسه ما يسعى اليه مأمون بواسطة السيجارة فصــار يطمئنه على جثــة المرحومة ويزعم أنها فى الحفظ والصون كأنها أخته ٠ وهنا

بكى مأمون لا أدرى لم ؟ فقال التمورجي وهو يتجاهل بكاء مأمون أن عليه ان كان يريد استلام الجثة حقا ودفنها على مسئوليته فى مقابر العائلة فعليه أن يسرع فى اتخاذ الاجراءات والحصول على التصاريح اللازمة والا فبعد ساعات قليلة سيؤمر بدفنها فى مقابر الصدقة فبكى مأمون من جديد ولكن فى تشنجات متقطعة جارفة ، وينزرد وجهه الجميل ويزداد حمرة ، وتمتلىء عيناه الجميلتان - الجميلتان حقا - بدموع تسبح فى خوف وضعف واسترحام واستيغاث · وهنا شوح التمورجي قائلا : « يوه بقى ·· ماتخليك راجل امال ·· امال حتعمل الحاجات دى كلها ازاى ؟ ·· مش تفوق كده وتروق ؟ » · ثم استدار وانصرف ··

وقف مأمون حائرا عاجزا ، وقال من بين شهقاته المكتومة انه ذهب الى مركز الشرطة فلم يجد به أحدا فماذا عليه أن يفعل الآن ؟ ··

ثم انه اتجه الى مبنى يقع فى نفس الاتجاه الذى تقع فيه المشرحة ولكن الى بعيد قرب مدخل المدينة فاذا به مركز الشرطة · دخلنا نركض على حذر فى طرقة مظلمة كابية مليئة بالحجرات المكتوب عليها أسماء رتب شاغليها · توقفنا فى حجرة النوبتجى القصير ذى الشوارب المتراقصة دوما · وكان يتهيأ لغفوة حين دخلنا ، فأشار الى مأمون فى احترام أن يأتى · فذهبنا اليه ، فقال له : « يابنى لا تتعب نفسك اليوم · فالجميع هاهنا مشغول اليوم باعداد المراسيم لاستقبال عبد الجبار بيك ·· اليوم لن تجد أحدا يعاونك على تحقيق أو استصدار تصاريح النيابة والطبيب الشرعى وما تعرفه من ذلك ·· اتكل على الله ياولدى » ··

وكان لابد لمأمون أن يتكل على الله وينصرف تاركا لدموعه العنان · لكنه ارتد خطوة وسأل الشاويش النوبتجي عن سبب هذه الزيارة المفاجئة التى يقوم بها عبد الجبار فى المنطقة ؟ · فنظر اليه الشاويش النوبتجى فى استنكار كأنه يتهمه بالجهل ، وفعلا نطقها

ولكن بلطف قائلا : « انت حضرتك منتاش عايش فى البلد ؟ ·· عبد الجبار كل يوم والثانى هنا بيفتح مشاريع استثمارية تخـــدم المنطقة تخدم خطط التنمية ·· وتقول ما المناسبة ؟ ·· انه لا يمر أسبوع الا ويزور المنطقة لسبب من الأسباب » · ثم أهمل مأمون كأنه سحب تقديره السابق له · ومرة أخرى وقف مأمون عاجزا لا يملك حتى السيطرة على دموعه ··

٤

قال مأمــون :

ـ « قلت لك أن فتاة من زميلاتى فى الكلية فاجأتنى ذات يوم قائلة أن فى شبها كبيرا من المطربة رشا الخضرى · أقول لك الحق ، يومها كدت أوافق الفتاة لعل ذلك النسب يكون سببا فى علاقة حلوة أقيمها مع الفتاة فأنا من فرط الجفاف الذى أعيشه وانعدام الأصدقاء فى كل مكان أصبحت أشتاق لمثل هذه العلاقات ، وياحبذا لو كانت فتاة سمراء خمرية مثل هذه · لكن أقسم بأننى اغتظت من تشبيهى بواحدة كرشا الخضرى · يومها تأملت فى وجه الفتاة برهة اقتنعت خلالها بأن النعيم كله يمكن أن يتواجد لى بجوارها · وخطر لى أن أكذب ، الا أنفى ، والا أؤكد ، لكننى استنكفت ·· رشا الخضرى ؟ ·· تلك المهربة التى صنعوا منها مطربة لأنها مجرد خادمة سرير لأحد رجال الثورة الازرقية ؟ ··

« لكن الفتاة لم تقتنع برفضى · فعادت مرة أخرى وسألتنى · وكنت أحس أنها دبرت لاصـــطيادى فى البوفيه وحـــدى ، وكان احساسى بذلك يسعدنى ويشعل نار الشبق فى نفسى · فوطنت النفس على الاحتفاظ بها · ورأيتنى رغما عنى ورغم احتقارى لشخصية رشا الخضرى وللانتماء اليها بأى سبب ، أحاول الغاء المسحة الفلاحية الخشنة عن مظهرى ليكون انتسابى لرشا الخضرى قابلا للتصديق ثم اننى طلبت للفتاة قهوة رغم عدم تأكدى من اكتمال ثمن القهوتين

فى جيبى ، ودعوت الفتاة للجلوس قائلا : « أظن حضرتك وجهت الى هذا السؤال من قبل » . ثم ابتسمت هى الأخرى ودققت النظر فى عينى بعينين ساحرتين متشككتين فى كل ما سأقوله مقدما ، ثم قالت : « مفيش داعى للانكار .. تنكر ليه ؟ .. أنا عارفه الحساسية الى عندك .. لكن مهما كان الانسان مايتنكرش لقرايبه » . انجعصت بقهوتى كالرجال المهمين قائلا : « معناه ايه الكلام ده ؟ » فتلعثمت هى قليلا ، ثم انطلقت فى الحديث بكل سهولة وجرأة قائلة ان موقف رشا الخضرى من بعض رجال الثورة الازرقية وموقف رجال الثورة الازرقية من بعضهم البعض فى الآونة الأخيرة ثم ما يشاع عنها من اشتغالها بالتهريب لصالحها ولصالح بعض المهربين الكبار من تجار المخدرات أو المتاجرين بمناصبهم ، كل ذلك يشكل حساسية خطيرة أى نعم ولكننا ــ هى وأنا ــ جيل آخر ليس علينا أن نحمل وزر ومسئولية جيل أكبر خاصة اذا كانت شخصية انحرافية ..

« ارتعشت ، حتى لقد خيل الى أننى قريب لرشا الخضرى بالفعل، وكلام الفتاة الجميلة وصدق لهجتها فيهما قدر كبير من الجاذبية . ولقد انجذبت اليها بالفعل فتركتها تنساب فى الحديث وأنا أومىء بالموافقة أو التأييد المؤقت من حين الى حين كأننى فى موقف أقارب رشا الخضرى بالفعل . ثم أن الفتاة الجميلة شربت آخر رشفة فى الفنجان وهزته وقلبته فوق الطبق ثم نظرت فيه بانفعال عميق ثم قلبته على وجهه ثانية ونهضت قائلة كأنها تأمر خادمها : « قوم » لكنه أمــر رقيق حتى ليرحب الانسان أن يكون خادمه بالفعل . أحسست بوجهى ركية نار ولسانى يخرج منها منسلخا : « يعنى ايه أقوم ؟ . قالت بابتسامة خطيرة : « عايزاك » . ما أجمل هذه الكلمة بل ما أسعدها . قلت : « حاضر » ونهضت واقفا أعدل فى بنطلونى الكتان المتقيح عند الركبتين ، وأضع يدى فى جيبى وأتركها تروح وتجىء بحثا عن القروش والملاليم ، وركية النار تصاعد ألسنتها الى رأسى فتطلق لهبا حارقا ..

« قالت الفتاة باسمة ساخرة فى براءة جيبة : «انت بتعمل ايه؟»·
فلم أرد ، انما أوهمتها أننى انتهيت من البحث بأن أمسكت ورقة الحساب وتقدمت نحو الآلة الحاسبة التى تتركنى فتاتها أشرب أولا ثم أدفع بعـــد ذلك · امتدت يد الفتـــاة الجميلة على كتفى كالحساية وسحبتنى من قفاى قائلة : « رايح فين ؟ التفتت ركية النار اليهـــا بعينين ملتهبتين ولسان يقول من حلق جاف : « حادفع الحساب » · فامتدت يدها وعدلتنى فى مواجهتها · ورغم أنى فكرت فى الثـــورة عليها بغضب فاننى ما أن واجهتها حتى أسعدنى كل السعادة أن تلعب معى هذه الصبية الفائرة الناضجة الثمينة كما نلعب فى الحارة طفلين سعيدين · قالت : « اللى يقعد معاية مايدفعش حسابات ·· انت نايم ولا ايه ؟ » كان المزاح فى عينيها وملامحها الجميلة السمراء ، لكننى نظرت ثانية لعاملة الآلة الحاســـــبة فقالت لى : « الحســـاب وصل » فاغتظت ، واتجهت اليها قائلا : « وصل امتى بقى ·· لا لا أنا لازم أدفع ·· أنا اللى عازم » · قالت عاملة الآلة وهى تميل على أذنى ان هذه هى الآنسة « راندا » ، وهى صاحبة كل شىء هاهنا لو عزمت الجامعـــة كلها فلن تدفع ، ان رأســـــمال البوفيه كله من تبرعها ، فضلا عن التأسيس ، أما بقشيشاتهم فلها معدل آخر ··

« ظننتها تمزح هى الأخرى واننى وقعت ضحية لفتاتين شقيتين تريدان الهزء بى كفلاح متواضـــع انما هو طالع فيهـــــا حبتين كما يقولون ·· لولا أننى واثق من عاملة الآلة فهى صديقتى الحميمة التى تحدثنى كلما انفردت بى عن نفسها وأهلها وزملائها حديث العارف الخبير كأنها وكالة أنباء كاملة·وأكدت عاملة الآلة انها لاتمزح ، واننى من الآن لن أدفع شيئا ثمنا لأن شىء أطلبه من البوفيه طالما ان قد ظهر أننى من أصدقاء الآنسة « راندا » وما أقلهم · وقفت مذهولا لبرهة · وكانت الآنسة « راندا » قد سبقتنى متقدمة ببطء نحو الباب واضعة يديها فى خاصرتيها ، فبدت كأن الله يســـــتهدفنى بابداعه المذهل يريد أن يصرعنى قتيلا فى الحال ، وكل هذه الفتنة الدسمة العميقة لم تبلغ العشرين من عمرها بعد · قلت : « لحظة واحدة من فضلك

يا آنسة راندا » ، واستدرت أنظر فى المرآة المجاورة لعاملة الآلة وهى تتابعنى بوجه جميل أيضا لكن نصفه حاقد ونصفه مسحوق ، ثم تقول لى فى همس ينبىء عن كثير من التمنى : « حضرتك ماتعرفهاش ولا ايه ٠٠ دى بنت أخت عبد الجبار بيك ٠٠ انها الوحيدة اللى عايشه معاه على طول ٠٠ حتى أبو راندا عايش معاهم فى نفس البيت ٠٠ أصل عبد الجبار بيك مبيآمنش حد على نفسه غيرها » ٠ وبعد أن أطلت مدة تسريح شعرى قليلا ريثما تنتهى عاملة الآلة من حديثها الهامس استدرت مجيبا اياها بهزة رأسى وابتسامة كالعادة ، ثم مضيت خلف الآنسة راندا كأننى أرقص فوق أرض من الفلين ٠٠

« مضيت بجوارها صامتا كالمقبوض عليه فى سرقة غسيل الجيران٠ تمنيت لو أن عاملة الآلة لم تقل لى شيئا عن راندا ٠ لقد استأت جدا من هذه المعلومات ولذلك فقد صدمت وأحسست كأن سعادتى أصبحت محدودة جدا ، وكل الطرق فيها مسدودة ٠ على اننى رحت أختلس النظرات الى جسد « راندا » كأننى أبحث عن تصور لشخصية أمها التى نسمع عنها فى قريتنا من قديم كأنها أسطورة هى الأخرى، فأم راندا هى أسعد اخوتها جميعا خاصة البنات لأنها ولدت فى زمن توقفت فيه الأم عن الولادة وظنت أن قدرتها قد انتهت ، لذلك حينما ولدت « فهيمة » أم « راندا » كان الخبر قد اخضوضر فى كل أنحاء الأسرة وصاروا يسعدون بأى قادم جديد يشاركهم كل هذا الهناء والنعيم ٠ وقد تسلم عبد الجبار شقيقته فهيمة تلك وهو على مشارف النجومية لتتولى خدمته ، فأحضر لها المدرسين والضيوف من علية القوم حتى جعلوا منها سيدة بمعنى الكلمة ٠ فلما تزوج عبد الجبار لم يكن قد اكتشف أن أخته « فهيمة » قد أصبحت منه بمنزلة الأم أو أكبر ، اذ هى فى نظره أحلى من رأى ومن عاشر فى حياته ، هى الوحيدة التى تفهمه على حقيقته ولا تؤنبه ولا تشيل منه ولا تلوى بوزها ، الوحيدة التى تفهم طلباته ومزاجه ولغته وسلوكه ، وتتعامل معها بكفاءة عالية حتى أصبح وجودها أمرا جوهريا فى قلب داره ، لدرجة انها تزوجت واحدا أليفا طيبا من نفس العائلة يعيش

معهم فى نفس البيت ومنصبه أنه تقريبا شبه حارس لعبد الجبار فى سفرياته ..

« وصيت «فهيمة» أم «راندا» يدوى فى قريتنا ليل نهار من خلال عائلتهم الكبيرة المتسعة باستمرار . فنسمع من حين الى حين أنها أمرت ببناء كذا وفعل كذا ، وأن عبد الجبار حين عرضت عليه الوزارة ذات يوم رفضها لولا أن فهيمة أقنعته بالموافقة فى آخر لحظة ، وهكذا وهكذا . هذه اذن هى « راندا » بنت « فهيمة » ؟ .. أى خيال هذا ؟ .. لكنه مع الأسف خيال سقيم اذ أنه سيهوى بى من حالق بعد لحظات قليلة مصطدما بصخور الواقع . اننى مستعد لدفع عمرى كله دون قيد أو شرط اذا كان ذلك فى جوار الآنسة راندا ، الوديعة الرقيقة المشعة بالسحر . ها أنذا أمشى بجوارها والكل يرانى سائرا بجوارها فيقذفوننى بنظرات ثاقبة مستطلعة مندهشة حاقدة متشككة مراقبة . وأنا أنتهز أى فرصة فأرسل التحيات والسلامات لبعض من أراهم من المعارف أو شبه الأصدقاء ، أحييهم بكل بساطة وأبتسم خجلا كأننى أقول علنا : لا تحسدوننى على شىء فأنا فى سراب واضح المعالم وكذبة مبنية على افتراء محض .. ان الآنسة راندا أيها السادة أقامت جسر الود معى متوهمة اننى أحد أقارب المطربة المبتذلة الشهيرة رشا الخضرى وأنا ليس يرضينى هذا الشرف . ثم استطرد فى نفس ساخرا : ماذا تكون صورتى بعد هذه الحفاوة لو علمت الآنسة راندا اننى ابن واحد من دهماء قريتهم التى لم ترها هى تقريبا فى حياتها بل ماذا لو علمت اننى من عائلة بسيمة التى لا شك سمعت أمها بسيرتها أو سمعت على الأقل بالأغنية المشهورة ومناسبتها ..

« كنت فى دوامة عميقة شديدة الدوار . فرغم أننى من زوار البوفيه باعتبارى ريفى مغترب الا أننى لم أكن قد لاحظت الآنسة راندا أو سمعت عنها قبل أن تقتحمنى هى أول مرة . وها أنذا أرى اننى سأسمع الكثير بعد ذلك فى البوفيه وفى المدرجات عن سيرتى .

« تجاوزنا سور الكلية ، واكتشفت أن «راندا» طوال الطريق تحييى وتبتسم لعشرات ينحنون لها تبجيلا . فما أن صرنا على رصيف الكلية من الخارج حتى هرع المنادى مهرولا نحو سيارة مرسيدس تمساحة وصار يمسح زجاجها ويطوقهـــا بالفوطة ثم فتح البـاب فتقدمت « راندا » وهزت رأسها شاكرة ثم ركبت فيما هي تشير لى أن أركب . ففتحت الباب وركبت بجوارها وقد ارتفعت فروة رأسى واقشعر جلدى من فرط اللذة برائحة الأنثى فى العطر الفاخر ورائحة مقاعد السيارة . علب من السجائر الأجنبية متناثرة في اهمال حول الكراسى . أخرجت علبتى السوبر التى تفعصت وتكرمشت وأخرجت منها سيجارة كالدودة متكرمشة معووجة ، وأخذت أقوم اعوجاجها وقطع الخشب التى بداخلها توخزنى فى أصـــابعى وتخرق الورقة فأكتئب ، لكننى مع ذلك أشعلتها وبقيت صامتا . فلما استوينا على طريق الصحراء نظرت الآنسة نحو سيجارتى فى اشمئناط جميل ثم مدت أصابع يمناها وأخذتها قائلة : « تسمح ؟ فتركت السيجارة ، فاذا بها تطوح بها فى الشارع وتقـــول آمرة : « قدامك الســجائر النضيفة .. تسيبها ليه وتشرب القرف ؟ » . ثم دفعت بيدها احدى العلب فى اتجاهى قائلة فى بساطة : « بطلوا العقد دى بقى » . ففهمت من هذه العبارة وحدها أن الآنسة « راندا » تقصد جماعة الذين يزعمون الثقافة الرفيعة ويتحدثون عن حقوق الانسان والعدالة الاجتماعية والديموقراطية ويسمونهم بالماركسيين ظلما وعدوانا ـ على الماركسية لا على الزملاء بالطبع . ولابد أن الآنسة « راندا » رأتنى ذات مرة أتناقش بحماس وأردد عبارات كبيرة فظنتنى منهم ..

« لذلك ابتسمت من تعليقها وتناولت العلبة ببساطة وأشعلت منها سيجارة فقالت هي : « ولع لى واحدة » : فأشعلت سيجارة أخرى على الفور أشعلت بدورها كل كيانى لمجرد شعورى بأن شــفتى احتوتا نفس المساحة التى ستحتويها شفتاها بعدى ، ففعلت حركة كوميدية أطلت بها سيجارتها باقية بين شفتى لبرهة ثم قدمتها لها ثم عدت فجذبتها ووضعتها بين شفتى مرة أخرى ثم ســلمتها لها

ضاحكا . فضحكت هي الاخرى ضحكة قصيرة ووضعت السيجارة بين شفتيها وتفرغت للقيادة . قلت لها : « حضرتك بتدخنى ؟ » . قالت : « أحيانا » . فأشرت الى العلب قائلا : « ماهو باين » ثم ضحكنا .

توقفت عند كازينو فى قلب الصحراء . ما أن يدخله الانسان حتى يفقد شعوره بالمدينة . يجلس فيه طوائف كثيرة من ناس فخام متعجرفين ، أجانب « مصريين وسعوديين وكويتيين ، وبعض الأزارقة المنتمين اليهم بسبب أو بآخر ويبدو مع ذلك كأنهم الأسياد الحقيقيين. وكان من الواضح أن الآنسة راندا معروفة هاهنا الى هذا القدر الكبير من التحية والاتيان بالبرتقال دونما طلب ، وبعــده فطائر وشاى كأنهم يستعرضون ما عندهم ولنا أن نأكل أو لا نأكل طالما أننا سندفع نفقات هذا الاستعراض » ..

وقالت راندا :

ـ « أستاذ مأمون .. اذا لم تكن ابن رشا الخضرى فأنت ابن أختها أو أخوها أو ابن أخيها .. المرجح يا استاذ انك شقيقها ان لم تكن ابنها من أب قديم مثلا اعتبرته هى ماضيا كريها فتنكرت له كما يحدث عادة بين مثل هذه الفنانات .. نعم .. فنفس العينين ونفس الدم وسحبة الوجه بل نفس العود والروح .. أنت ابنهـــا حتى لو لم تلدك أو أخوها حتى لو لم تكن من نفس الرحم قد نزلت .. أنا للعلم رأيتها كثيرا جدا يا استاذ مأمون .. دعوناها كثيرا فى أفراح لا نهاية لها بمبالغ كبيرة .. هى على فكرة انسانة طيبة جدا ونقية جــدا وانسانة الى أقصى ما تتصــور ، ورقيقة أرق من أرفع نساء البيوتات فى المعاملة والذوق الفطرى .. لذلك هى تصلح أن تكون صديقة لى ، لكننى أؤجل ذلك الآن لأسباب .. أستاذ مأمون .. أنا آسفة .. أعرف أنك ممن يسمونهم باليساريين ، وأنت على شئ من الثقافة والموهبة ، أظنك تكتب أغنيات أو مقالات أو ما أشبه .. أنت حر طبعا ، ومن حقك أن يكون لك رأى معارض للحكومة لكل

شىء ·· ليس هذا مما يعنينى فى شىء ·· كل ما فى الأمر اننى أريد أن أقول لك كلمة بهذا الشأن : لا يكون يساريا حقا من ينكر صلته بأحد حتى لو كان هذا الأحد سىء السمعة ·· وعموما فأنا ألمح فى عينيك شعورا بالموافقة على كل ما أقول ·· وأدرك كم أنت مستاء لأننى ضيقت عليك الخناق وقدتك الى الاعتراف بأنك من لحم ودم رشا الخضرى ·· لهذا فأنا سعيده ·· وأشكرك على هـــذا الصفاء الذى تبديه ، انه هو الآخر دليل وحده على قرابتك المتينة برشا الخضرى ان نفس الصفاء يطل من نفس العينين بنفس الدهشـــة الفلاحية المتطلعة ·· وأستطيع أن أؤكد لك أنك لو حرصت على هذا الصفاء معى فسوف لا أنساك أبدا بل ربما ساعدتك على اجتياز أى عقبات فى حياتك العملية فيما بعد » ··

ارتعدت مفاصلى من الخوف · قلت لها :

ـ « أرى انك يا آنسة راندا مشغولة بأمر معين ·· ولا شك أننى لو كان ·· »

قاطعتنى بسرعة :

ـ « أعتقد أنك فى امكانك الكثير ولكن أرجوك لا تقاطعنى ودعنى أكمل كلامى ·· اننى فعلا مشغولة بأمر معين ·· ولست وحدى ·· أن أمى تحمل هى الأخرى هذا الأمـر وأمنيتى أن تسـاعدنى فى اعادة الراحة اليها من جديد ، على الأقل بصـــفتك أديب ذو نزعة انسانية محضة كما يقال عادة ·· » ··

قلت مندفعا وراء فضولى :

ـ خير يا آنسة ؟ ·· ما هذا الأمر ؟ ··

تحول الجمال الرائع العظيم فى ملامح وجهها الى موجات حقد دافقة بالشر والتوعد ··

وقالت الآنسة راندا :

ـ « ان المطربة رشا الخضرى تسلط أسلحتها الفاتنة ، على خالى • وهى تدعى أنها لا تعرف ٠٠ وقد عمدت أمى الى دعوتها فى عدة أفراح لأقارب لنا ثم جالستها قبل الغناء وبعده ، ودحلبتها فى الحديث مرات عدة وبطرق متنوعة ، فاكتشفت أن رشا الخضرى ـ التى يعشقها خالى عبد الجبار ـ يخلو ذهنها تماما من أى شيء عن خالى عبد الجبار ٠٠ لم تسمع عنه الا أطيافا تجيء وتختفى من ذاكرتها ٠٠ وان كان ذلك صحيحا فان رشا الخضرى هذه سطحية العقل بل متخلفة عقليا ٠٠ فهل يعقل أن مطربة شهيرة ذائعة الصيت ولها صلات كثيرة بكثير من رجال الثورة الازرقية وأذنابهم وأذيالهم . لا تعرف عبد الجبار أكبر شخصية اقتصادية فى الشرق الازرق ؟٠٠ أستاذ مأمون ٠٠ لاتندهش ٠٠ ان أمك هذه أو شقيقتك أو عمتك لا تفكير لها مطلقا ولا تعرف فى أى مدارس تعلمت أو فى أى عصر تعيش هذه الغافلة ٠٠ أتراها مجرد قطعة فلين يحتضنها الموج فى عليائه كلما صعد ؟ ٠٠ أنا بنفسى جالستها وبعثت لها النقوط مجزية وانفردت بها بحجة أننى من هواة الطرب ٠٠ ثم ناقشتها فى كثير من الامور السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية ، ففوجئت أن رصيدها من كل هذه المعارف ضئيل ضئيل رغم أنها تحفظ الألحان بسرعة فائقة وتؤديها ببراعة ودربة تهيج أعصاب الجمهور ٠٠ فى البداية ـ آسفة يا أستاذ مأمون ـ قلت انها من أصل فلاحى واضح ، وأنها مكارة تدعى الهبالة على العبط ، ظنا منها انها بذلك تنجو من القيل والقال وتتفادى الرعب الذى أحدثته الثورة الازرقية فى البلاد بتخوينهم وتجريمهم وما الى ذلك ٠٠ لكننى صاحبتها فترة ليست بالقصيرة ، أكلمها فى التليفون كثيرا وأدعوها للعشاء وتدعونى لحفل وننفرد ببعضنا أوقاتا لا بأس بها ، وأوجه لها امتحانات كثيرة دون أن تدرى فأكتشف انها مسكينة الى أقصى ما تتصور ، غلبانة رغم أن شكلها يوحى بالفجر ، لاتعرف شيئا عن أى شيء الا الذين يعاشرونها

وتعاشرهم وتتعامل معهم بشكل مباشر ، هؤلاء فقط هم الذين يرسخون في ذهنها ، حتى أنا ، تصور ، وأنا ابن شقيقة عبد الجبار التى التقت بها كثيرا فى مناسبات عدة كنت أضطر فى كل مرة الى تذكيرها باسم خالى ، الذى لم يكن فى ذهنها أبدا أكثر من كونه أحد الأثرياء الكبار وهو تارة اسمه عبد الجبار وتارة عبد الواحد وأخرى عبد الوهاب وهكذا ‥ أنتظر من فضلك يا أستاذ مأمون ‥ اننى أطمع فى أن تساعدنى فى فهم شخصيتها نظرا لخطورة الأمر ‥ ان وجودها فى حياة خالى سوف يثير حولى كثيرا من الشوشرة ووجع الدماغ ‥ لهذا فأمي قلقة ‥ ولقد فكرت أمي فى حل ، لكن ظهر بطلانه . اذ فكرت أمي لو كانت رشا الخضرى طامعة فى ثروة خالى وتدبر لنهبها بشكل أو بآخر فانها ــ أمي ــ على استعداد لأن تدفع لها مبلغا ثمينا بشرط أن تخرج من حياته نهائيا ‥ وكان أمامنا مشكلة هى : كيف نتفاهم مع رشا فى هذا الأمر ؟ اننا غير متأكدين من أنها على صلة ــ من جانبها ــ بخالى ‥ ونخشى أن ساومناها فى هذا الأمر بصراحة ومن وراء ستار أن ننبهها الى نقطة ضعف فينا تدأب على استغلالها بعد ذلك ‥ وأننا لفى حيرة شديدة ‥ الا خالى عبد الجبار فانه لا يقيم للأمر وزنا فى الظاهر ولا يشغل باله بأى شيء » ‥

وجدتنى مضطرا للدفاع عن رشا الخضرى . وقلت فى غضب واستياء :

ــ « ماذنب رشا الخضرى هاهنا بحق الشيطان ‥ اسمحو لى فأنا فى هذا الأمر بالذات مضطر الى الدفاع عن رشا الخضرى ‥ فها أنت قد اكتشفت انها متخلفة عقليا ، وأنها بلا دائرة معارف ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو ما شاكل ذلك ، وهذه محنة الأميين والأزارقة لأنهم لم يجدوا من يربيهم ‥ وقد وضح لك بشكل قاطع أن رشا لا تنوى حتى أن تتذكر اسم خالك على الحقيقة ، وليس بمعقول أن تفتعل الى هذا الحد وتمثل الى هذا الحد ‥‥ كون خالك لمؤاخذة من مجانين رشا الخضرى ــ أقصد عشاقها ــ الى حد

يدفعه ــ مثلا مثلا ــ الى اقتناء شرائطها وصورها وما الى ذلك من امور فهذا ليس ذنب رشا الخضرى أبدا » ٠٠

ظهر الاستياء الشديد على وجه الآنسة راندا لأننى صورت خالها على هــذه الصورة ٠ لكنها سرعان ما نسيت ذلك وبدا عليها الضعف والرجاء وقالت :

ــ « آسفة ٠٠ لست أحب أن نتبادل التجريح ٠٠ وأنا فى الواقع آسفة مرة أخرى ٠٠ فربما أكون من الانفعال قد تحدثت عن قريبتك بشىء مزعج ٠٠ ولكن لكى تقدر أسفى حق قدره ، استمع الى هذه القصة ٠٠٠

قالت الآنسة راندا :

ــ « كانت أمي عروسا حين رأت نفسها مسئولة مسئولية كاملة عن خالى عبد الجبار ٠٠ وكانت تحب خالى عبد الجبار أكثر من حبها لأى مخلوق آخر ، حتى ذلك الذى من المفروض أن يكون زوجها فى يوم ٠٠ وكنت أنا فى طفولتى أحار فى سلوكها نحوه ٠٠ فلما دخلت الجامعة ودرست الآداب اكتشفت التفســـير الحقيقى لموقف أمى ٠٠ اكتشفت أن هناك عقدة يسمونها عقدة اليكترا ، ومنشؤها ــ على ما أذكر ــ تلك الأسطورة العالمية المسماة بأوريست ، حيث ثبت من موقف شقيقته اليكترا تجاهه أن الفتـــاة يمكن أن تحب أخاها حبها لحبيبها الآخر ، أو الذى مفروض أنه آخر ، المنفصل عن لحمها ودمها٠٠ وعموما فان هذه العقدة ليست ترجع الى تلك الأسطورة بل هى ترجع الى بدائية الانســـان حين كان الرجل يحب أختـــه الشقيقة فيتزوجها ٠٠ ان ما يسمونه بعقدة اليكترا هو بقايا ذلك السلوك البدائى فى الانسان ٠٠ لست أدافع عن أمى ، فليتنى فى عظمتها ٠٠ لقد لاكت الألسن سيرتها فى محيط الأصدقاء والمعارف ثم انتشر ذلك فى بعض الأوساط ٠٠ ومصدر توترهم جميعـــا هو تلك السيطرة الكاملة التى فرضتها أمى على خالى ، ومدى الضعف الشديد الذى

يعتريه تجاهها : هو طفل أمامها لا يملك أى حراك ، وكان ذلك عن حب شديد شديد ·· الحاقدون الموتورون من المحيطين بنا ــ اللى كل يوم قاعدين فى بيتنا ويطلعوا يجيبوا فى سيرتنا ــ لا يعرفون شيئا اسمه عقدة اليكترا ، ولا يفهمون فى هذه المسائل ·· ان أمى فى نظرهم ــ بكل وضوح ــ « تعشق » خالى عبد الجبار وربما كانت تعاشره معاشرة الأزواج ·· أقولها لك قبل أن تسمعها من الآخرين ·· وحقيقة الأمر يا أستاذ مأمون ان أمى قد أغدقت من حبها على خالى ما جعلنا كلنا حتى نحن أولادها نغـــار من خالى ونــكاد فى بعض اللحظات نكرهه ونحقد عليه لأنه يأخذ كل عنايتها وكل عواطفها ··

·· « فى يوم تركتنى أبكى حتى انقطع نفسى ، وهى فى حجرته تطيب لهَ نفسه وجراح أصدقائه ، لم تخرج من عنده الا راضية النفس متوردة بالنشوة لأن خالى قد رضى وهدأت جراحه ونام ·· لم تتذكرنى الا بعد وقت ·· لكننى بعد أن كبرت يا أخ مأمون فهمت كل شىء وتحررت من كثير من المعتقدات الباليـــة ·· وعرفت أن المسألة كلها تنحصر فى أن أمى مصابة بعقدة اليكترا ·· وهى لا ذنب لها فى ذلك ولا تملك الشفاء من عقدتها مهما احتوت خالى عبد الجبار احتواء تاما وعرفت كل صغيرة وكبيرة من أسراره ان كان له تجاهها أسرارا ··

·· « جبارة هى أمى بما يقولون يا أستاذ مأمون ·· قد تندهش كمـــا اندهش الآخرون اذا عرفت انهـــا عقل مدبر من أكبر العقول الرياضية ، لا يباريها أحد فى الحساب والوصول الى النتيجة فى لمح البصر ، تتعامل مع جيوش جرارة من الارقام تضربها فى بعضها وتجمعها وتطرحها أين منهـــا الكمبيوتر ، ان الكمبيوتر هو مصدر المراجعة الموثوق منه عند خالى لحظة التحاسب وأمى هى مصدر المراجعة الأعلى من الكمبيوتر ·· هى قد اضطرت لأن تكون كذلك من فرط حرصها البالغ على متابعة ثروة خالى وملاحقتها بالمليم فى كل مكان فى أى دولة ·· ثمة مبالغ فى بنوك معينة لا تصرف الا بتوقيعها هى.

وهكذا .. ثم انها ياأستاذ مأمون ترسم مشاريعا تبدو لك جنونية ، لكنهـا تبتسم فى استهتار قائلة : « وايه يعنى ؟ .. عبد الجبـار حينفذها » .. وبالفعل ينفذها خالى .. ان رسم المشروع فى نظرها ليس الهندسة ولا المسائل الفنية ، انما هى ترسم طريقة للايقـاع بشركات كبيرة وتدخلها شريكة معها بنسبة معينة فى مقابل قيامها بتصميم الشىء الفلانى أو تنفيذ الشىء الفلانى .. فى العادة ينجح خالى فى ضم أى شركة تتعاون معها وجعلها جزءا من شركاته .

.. « منذ أن علمنا أن أمى بالنسبة له كل شىء وهو بالنسبة لها كل شىء تغاضينا جميعا عن كل شىء ، طالما أننا مباح لنا فعل كل شىء والاستمتاع بكل شىء فى الحياة كما نهوى ونرغب ، بشرط أن نضع لأنفسنا القواعد الأخلاقية المناسبة والقوانين التى تحفظ الكرامة وتحميها .. طالما وجدت من يحمى ظهرك بأمواله وقواه فأنت آمن ، هكذا نعتقد يا أستاذ مأمون ، ونعتقد أن غير ذلك من الاعتقادات مجرد فلسفة لا تصلح لسد الرمق .. لا تراجعنى فأنت حر فى رأيك .. المهم أرجو أن أكون قد دافعت عن موقف أمى بما فيـه الكفاية .. أقصد أنه ليس دفاعا .. لكن أقول قد وضحت موقفها بعض الشىء حتى تكون انت على بينة من شىء قد تفاجأ به فيما بعد ، فأنت تعرف أن الشخصيات الاجتماعية الكبيرة معرضة دائما للخوض فى سيرتها خصوصا الشخصيات الهامة جدا ذات العلاقات الدولية المتشعبة مثل خالى . أنت تعرف أنهم أشاعوا عنـه الكثير والكثير فى السنوات الماضية .. قالوا انه ابتنى الفلل والمساكن الفاخرة للحكام بالمجان ، وحقيقة الأمر انه أخذ تكاليفها فحسب ولكن من بعض الجهات الرسـمية واعتبر أنه لا يجب أن يتاجر على رجال عظماء ، وحقيقة الأمر كذلك ـ كما لعلك أن تعرف يا أستاذ مأمون ـ هى أن الألسن الشيوعية المنحلة تقف لخالى بالمرصاد وتشنع عليـه أسخف التشنيعات ، غير أن خالى لا يقيم لهم وزنا ، بل لا يهتز من روسيا نفسها ، انه واثق أنه لو سلط عليها أمى فسوف تهزمها ..

.. « هم قوم منحلون كما تعرف يا أستاذ مأمون .. ولكن الله دائما يقف مع خالى ان لم يكن من أجله فمن أجل المشاريع القومية العظيمة التى لولاها ما كانت الحياة فى وادى الازرق .. وقد تعودنا أن نستمع الى كافة التشنيعات على كل لون وكل مستوى .. تصور يا أستاذ مأمون اننا من كثرة تعودنا على الاشاعات كنا فى كثير من الأحوال يختلط علينا الأمر ، بين الواقع والاشاعة .. فمظم الاشاعات عشناها كواقع ، ومعظم الواقع عشناه كاشاعات لذيذة .. الا أن يقولوا ان أمى « تعشق » خالى عبد الجبار عشقا من ذلك النوع الذى فى دماغهم .. ليكن .. حتى هذه الاشاعة أرادوا لها أن تتحول الى واقع . ثم انها قد جرحتنا وانتهى الأمر ولم نعد نبالى ان كانت واقعا أم هى مجرد اشاعة تستند على شىء من الواقع .. ثم اننا واثقين فى نفس الوقت من شرف أمنا وخالنا وأهل أسرتنا جميعا .. ان خالى كما تعرف ليس بالذى ينحدر الى مستوى الحيوان وهو يملك أن يكون « دون جوان » القرن العشرين ـ بفلوسه ومركزه ..

.. « آه لقد تشتت ذهنى يا أستاذ مأمون ويبدو أننى منفعلة لأسباب كثيرة .. اشرب قهوة أخرى معى .. اسمع .. ليمون ومعه قهوة .. ليكن .. دخن من هذه السجائر .. دخن .. لقد أنست اليك يا أستاذ مأمون .. أنت فعلا فيك شىء يجذب النفس اليها ويدعوها الى التصريح والمكاشفة ، كأننى أتوقع أن تكون أنت أيضا وراءك مثل ماورائى من حكايات مثيرة .. أنا للعلم محدودة الصلات كما تعرف ، لكننى بارعة فى اكتشاف معدن الناس الحقيقى مهما دهنوا وجوههم بطلاء من الذهب .. دخن .. أحب أن تتعامل معى كأختك ، نساعد بعضنا بعضا فى حل أزماتنا النفسية .. أنت بالطبع محتاج الى صديقة تؤاخيك أنا أيضا محتاجة الى صديق يؤاخينى ، أى يشعر بما أنا فيه .. فليس لى من اخوة صبيان .. كل اخوتى بنات صغار .. ورغم أننى حرمت من االأمومة الحقيقية فاننى ـ شىء غريب ـ أحمل فى أعماقى نفس أم كبيرة .. ما أسعدنى وهم يقولون اننى دفعت مبلغ كذا ليستفيد ناس ..

تقول أمي انني سأكون من رواد الحركة النسائية الحديثة وتقصد الحركة التي تدعو لأن يحكم النساء العالم بعد أن جرب الرجال دورهم ففشلوا وملأوا الكون بالدمار والحروب ·· لكن تحدثني الأم التي في انني لن أحصل على حبيب يحبني حقا ، بقدر ما سيكون من نصيبي الوقوع في طفل أحبه أنا لمجرد أنه يغذى في نفسي مشاعر الأمومة بنجاح ، وسيكون على حينئذ أن أتحمل سخافاته وأتجرع أمراضه ومرارة مذاق شخصه على الدوام وبلا ضجر ، ألست أنا التي اختارت ذلك دون أن تدرى ؟ ··

·· « اشرب يا أخي مأمون ·· الغريب كل الغرابة يا مأمون يا أخي انني رغم احتقاري لأمي ـ أقصد رغم أنه من المفروض حسب الاشاعات القوية أن أحتقر أمي لعلاقتها بخالي واهمالها لأبي تماما حتى أصبح ونحن معه نعاني الكثير من الجفاف ·· فانني مع ذلك أحبها وأحنو عليها ، فلعلها هي الأخرى قد حرمت الأمومة من صغرها مع أنها تهيأت لممارسة دور الأم فأدته كما ينبغي ·· مهما كان الأمر فانني حين احتوى رأسها الكبيرة بين ذراعي في حنان أراها تنهمر باكية وتتحول الى طفلة وديعة وأراني مدفوعة بشعور من اللذة يأخذ في التنامي والتسامي كأنني قد صرت أمها الحقيقية فأدعوها الى طرح مشاكلها الخاصة بكل صراحة . وأسألها عن تعلقاتها ، ولكنها تنهمر باكية ولا تحكي أى شيء ، وبهذا يظل الحاجز القائم فاصلا بينها وبين أمومتي ·· بل انني في اللحظة التي تتصل الأمومة في بالابنة فيها وتشرع هي تحكي بعض همومها الخاصة بالخوف من تمرد خالي عليها ، لا تجاوز القشور السطحية الواشية بأشياء مثيرة ، اذ هي تدعى في الحال المقابلة خالي ، ان مجرد وجوده في البيت يجعلها قائمة على قدم وساق حتى يخلد هو الى النوم ، وتكون هي دائما آخر من يراه قبل النوم بعد أن تستأذن زوجته الاستئذان الأخير متجهة الى حجرتها الخاصة ··

« أنت مثقف يا أخ مأمون ومتحرر الفكر ولهذا فأنا أتحدث أمامك

بلا حرج عن مثل هذه الأمور ، وأنا واثقة أنك لن تحتقرني بل ستزداد مني اقترابا وتشاركني في موقفي ٠٠ أنا لست غبية أو مبتذلة ٠٠ أنا اخترت ولدا مثقفا لأفضي له بحقيقة مشاعري ٠٠ أخ مأمون ٠٠ ان كان في أمومتي مطعن أو شرخ فيكون في نقطة ضعفي التي لا أملك التغلب عليها أبدا ٠٠ تلك هي أنني أشفق على أمي وأعيش تجاهها موقف الأم بكل حذافيره ، فان كانت لم تفلح في أداء الدور نحوي فسوف أفلح أنا في أدائه نحوها ٠٠ انها في نظري مسكينة لم تعش حياتها أبدا ٠٠ ان عمق المسئولية وحجم التوتر الذي تعيشه فوق ما يحتمل البشر ٠٠ لا أظن مطلقا انها سعيدة في حياتها ٠٠ اللهم أن تكون لذتها العظمى هي أن تظل مانحة معطاءة هكذا على الدوام دون أن تأخذ أو تفكر في الأخذ ـ لا أقصد الأخذ المادي ـ انها تحرق نفسها دون أن تدري في سبيل أن يحيا كيان انساني معين ، وقد نسيت نفسها ودب الشيب في رأسها وصارت تقضي أوقاتا طويلة أمام المرآة بل صارت تزمع مباراتي في الشباب وتكثر من الانفعال علي ومحاولة كسر أنفي حتى لا أتيه عليها جمالا ٠٠

٠٠ « لا أدري سر موقفها العصبي مني حين أكون متألقة الجمال٠٠ ان قلت انها وهي على مشارف سن اليأس قد بدأت تغار من أنوثتي ونضجي في صورة خوف مبالغ فيه علي وعلى عرضي وشرفي وسلوكي حتى لتحملني مسئولية جمالي ٠٠ ان قلت ان ذلك وضع شبه طبيعي بالنسبة لأي امرأة في سن اليأس . يبقى شيء واحد أراها مبالغة فيه الى أقصى حد ، ذلك أنها لا تكون مسرورة أبدا حين تراني في لحظة صفاء مع خالي عبد الجبار ٠٠ هذا شيء حرت في تفسيره يا أستاذ مأمون ٠٠ لا أعرف كيف صرت ألتفت لهذا الأمر ، ولكنني كنت مجبرة على ملاحظة أن أمي دائما أبدا تؤجل طلباتي لمواعيد اللقاء بخالي في لحظة مناسبة ٠٠ حتى ان التليفون ورددت أنا بالصدفة تتركني هي برهة ثم سرعان ما تقبض على السماعة لتكمل الرد ٠٠ وكنت ألجأ الى محاولاتي الخاصة فأتصل بخالي في أي رقم

وأدعوه للمقابلة الضرورية : « عايزاك ياخالى ·· وماله ياحبيبتى الساعة كذا خليكى سهرانة لحد مارجع » ·· وكنت أفعل ·· فاذا أمي ينتابها غضب الى حافة الرغبة العميقة فى التدمير لولا أننى أحتويها فى الحال ·· ثم اننى بدأت بعد ذلك ألاحظ أنها غير مرحبة على الاطلاق بأن انفراد فى جلسة مع خالى الا لدقائق معدودة وتحت رقابة خفية ·· أنا أقرأ روايات كثيرة يا استاذ مأمون ، ولكننى أبدا لم أجد نموذجا فى غرابة أمى ، ولهذا فأنا مدينة للروايات بتهيأة عقلى للتوازن وملاقات الأمور ببساطة وبداهة ·· الا أمى فهى عقدة عويصة فى حياتى وسوف تظل كذلك حتى بعد أن تموت بعد عمر طويل باذن الله ··

·· « تزعم أن خالى مرهق الذهن والبدن ولايزال أمامه واجبات الزامية حيث يلتقى بأولاده ومشاكلهم التى لا تنضب وشواغل مستقبلهم وحيث يلتقى بزوجته ، وحيث يكون قد بقيت فيه حياة لتصفية ختامية فيكون مع أمى ·· انه بالفعل شىء يرهق البدن بل يهد الجبال ، أن يظل المرء طول اليوم يجتمع بناس ويحضر جلسات ويسافر ويفتتح ويناقش ويفض منازعات ويبقى فيه بعد ذلك متسع لأى ممارسة ·· انهم بالفعل لناس جبابرة يا أخى مأمون أليس كذلك ؟ ·· يخيل الى أن جيلنا ليس بهذه القوة أبدا ·· اننى أدوخ من فرط تخيلى لحدوث هذا ، فما بالك بالممارسة ؟ ·· جملة اعتراضية اسمح لى بها ، تلك هى أننى واثقة أيضا من أنك سوف تقدر موقفى على خير وجه ، سوف لن تتوهم أن علاقة حب أو ما شاكل ذلك من العلاقات الشبانية أو الروائية يمكن أن تقوم بيننا ·· فمبدئيا لن يقوم بيننا زواج لسبب بسيط هو أن طرق العشق والغرام مسدودة بيننا ·· وأنا واثقة من أنك تعلم هذا ، ليس لأسباب طبقية وما الى ذلك ، بل لأنك مثقف ناضج ولا تؤمن بعصر الحواديت ·· انتهت جملتى الاعتراضية ·· هات سيجارة ··

·· « هذه أول مرة فى حياتى أشعر فيها بالانطلاق والحيوية

ولهذا أحب التدخين الآن ٠٠ قد لا تعلم أنني حدست هذا من أول ما رأيتك ، فمن النظرة الأولى وضعتك تحت الاختبار وعلمت من كافة مصادري أنك طيب نقي وفي حالك بقدر ما أنت مستنير ، وأنك تميل الى العزلة والسرحان المطلق حيث يتجهم وجهـــك وتتقلص ملامحه كأنك تحمل هم عار خطير أو هم كسوة الأولاد في العيد ٠٠ فلما بلغتني هذه الصورة عنك ضحكت كثيرا وحدست نوع الهم الذي يكون شاغلك ، لعلك لا تعرف أنني جلست في مواجهتك من بعيد أنا ومجموعة الصحاب نضحك ضحكا مكتوما ونفعل حركات لطيفة تهـــدف بها الى ايقاظك وأنت غير موجود على ظهر الأرض ٠٠ أنا الوحيدة التي أحسنت تفسير حالتك هذه الدائمة ، أنت أيضا تعيش في مأساة عميقة تطفو همـــومها على وجهك وتســـلبك من المكان والزمان ٠٠ هكذا قلت لنفسي طبعا ثم انني عرفت أن هذه المأساة لابد أن تكون رشا الخضري التي لا تستطيع أن تهرب من شبهها ٠٠ لقد تأكدت من مراقبتي لك انك تعاني ، وقدرت أن سبب المعاناة هو رغبتك الدفينة في الانسلاخ عن المطربة رشا الخضري لسوء سلوكها ولكونها عار عليك في وسط طلاب سليطي اللسان انك في أعماقك تحتقرها وتنفي كل صلة لك بها ومن المؤكد أن لها اسما تحمله شهادة الميلاد غير اسم شهرتها الفني ٠ انت كما يبدو لي قد وطنت العزم على أن تتبرأ منها ، ولبسك هذا الدور فصرت شبه مقتنع بأنك لست قريبها حقا ٠٠ لكن ليس على أنا ٠٠ ها أنذا أجرك الى الحديث عن نفسك فأكاشفك بالحديث عن نفسي ولكنك ثقيل بحق ٠٠ ان ذكائي لا يخيب ٠٠ هكذا تقول عيناك ، وحدسي لا يكذب ٠٠ ولسوف أظل بك حتى أجعلك من فرط الحرارة ترمي عن جسمك هذا الغطاء ٠

٠٠ « اشرب قهوتك ٠٠ اشعل سيجارة لي ٠٠ هكذا يجب أن تبتسم والابتسامة مقدمة لازاحة الغطاء ٠٠ خذ راحتك واعتبر نفسك في حضرة أخت شقيقة مأزومة مثلك ٠٠ ان القـــلق يتعاظم لدى أمي ٠٠ صدقني يا أخ مأمون ٠٠ انني كثيرا ما أترك صفحات احدى الروايات وأتأمل وجهها وحالتها فجأة فيخيل الى أنها تذوي من فرط

القلق على نفسها وعلى خالى من جراء قريبتك ٠٠ ان كان فى حياة أمى خطر يهددها أو نقطة ضعف قاتلة فهو استمرار شبح قريبتك فى أفق حياتها كأنه حدأة ستهبط من السماء فجأة ذات لحظة معينة لتنقض عليه فتخطفه وترحل محلقة فى البعيد اللامرئى ٠٠

٠٠ « تقول فى نفسك ـ لاشك ـ انه مرض نفسى أو نوعا من التوهم الشاذ ٠٠ أقول لك : لا ٠٠ بل انه واقع جاثم بالفعل مع الأسف يا أخ مأمون ٠٠ ياربى ٠٠ أتدرى ؟ ٠٠ ربما كان على أن أعترف بالواقع ٠٠ وحينئذ ـ ومع كل الأسف ـ سأكون مرغمة على التسليم بالصورة التى رسمتها أنت لخالى حين قلت انه من مجانين رشا الخضرى ٠٠ انه بالفعل لا وصف له سوى هذه العبارة ٠٠ فرغم أن خالى يؤكد قولا وفعلا أنه لا علاقة له بهذه المطربة ولم يتشرف برؤيتها شخصيا ولا يعنى بجمع أى معلومات عنها ، ورغم أن أمى تحاصره حصارا دقيقا حتى عند سفره الى الخارج تكون هى بنفسها فى نسعين فى المائة من رحلاته الخارجية وبقية الرحلات تكون هى ملمة خلالها بتحركات رشا الخضرى ٠٠ ألم أقل لك أنها جبارة ؟ ٠٠

٠٠ « ولكنها يا قلبى قد باتت لا تحمل من كثرة المسئولية والجهد والقلق المتواصل . وسبب القلق الرئيسى عندها أنها قد وثقت وعن يقين لا يقبل شكا أو مكابرة أن خالى عبد الجبار يموت فى جسد رشا الخضرى وتعتريه رجفة وجد صوفى مفاجىء يتحول خلالها الى حيوان شبق غاضب ممتلىء بالرغبة فى الافتراس والانتقام ، حتى انه قد يردد ألفاظا من بين أنيابه قبيحة جدا تحار أمى حين تضبطها وتتساءل هل دافعها الشبق الجنسى أم الرغبة الحادة فى الانتقام والثأر ؟ لكن الهيام والوجد كان هو الأغلب ، أن رآها تغنى فى التليفزيون تركزت عيناه على مواضع معينة فى جسدها ، ويظل يركز ويتعمق فاقدا الاحساس بمن حوله فيغمغم ويصبح كالحيوان الهائج المتهيج ثم ينقلب فى الحال ـ حين ينتبه الى الموجودين ـ الى ما يشبه الوحش الكسيح ينذر بالغدر والانتقام ٠٠ تقول أمى من

بين القشور التى ترميها على صدرى فى لحظات الصفاء وما أندرها ، أنها سمعت خالى مرات عديدة يغمغم لنفسه قائلا بكل وضوح « هى ٠٠ هى بعينها ٠٠ بس ازاى ٠٠ حكمتك يارب » ٠٠

٠٠ « هى لاتخجل ، لذلك فاجأته بالسؤال عن معنى التعلق الغريب ؟ ٠٠ فأحالها باسما الى حكاية تلك البنية المجهولة التى كان يحبها وهو طالب ثم أكلها الزمن منه فلم يعد يعرف عنها شيئا ٠٠ لكن أمى ليست عبيطة ، انه كثيرا ما أستشير فى مناسبات عديدة فى أمر فتيات يريدون تزويجه منهن ، فكان يرد بقوله : انها جميلة ولكن عيبها انها تشبه فلانه فى كذا ، ولو أنها تشـــبهها فى كذا لرضيت بها ٠٠ ورغم أن أمى فكرت أيامها طويلا فى معنى قوله هذا لدى رؤيته لأى فتاة مقترحة للزواج أو حتى للحب ، فانها لم تصل الى تفسير لتردده ، ولم تعرف أن كل ذلك الشبه المعين الذى فى دماغه مرفوضا أو مقبولا ؟ ٠٠ ففى ذهن خالى شبه معين لفتاة معينة عجزت أمى عن تخيلها على الوجه الصحيح لتذهب بنفسها وتخطبها له بأى ثمن ٠٠ غير أنه هو نفسه كان حائرا نفس الحيرة ٠٠ فلما تعبوا معه أراد أن يريحهم فتزوج آخر واحدة عرضوها عليه ، وهى ذات حسب ونسب وارث كبير وقد استطيبناها كلنا ، ولم نر منها أى مشاكل أو اعوجاج ، ثم انها قبل كل شىء وبعد كل شىء تخضع خضوعا مطلقا ودون تذمر لسيطرة أمى على كل من فى هذه المملكة الكبيرة الواسعة الخيالية التى لا يسعها الا عقل جبار كعقل أمى ٠٠

٠٠ « والواقع يا أخ مأمون ٠٠ هل سئمت ؟ ٠٠ عفوا ٠٠ الواقع أن أمى تلك المرأة المتيقظة لمملكتها على الدوام لا تغفل برهة ولا ينام ذهنها حتى وهى تخطف لحظات نومها ، لم تنم عن حكاية هذه الفاتنة المجهولة رغم أن خالى قد تزوج وأنهاها ٠٠ ولكنه أنهاها كمشكلة قائمة ٠٠ وتربصت به أمى ، فاكتشفت أنه لم يقطع علاقته بفاتنته المجهولة حيث دأب على لعنها فى المنام وفى لحظات استغراقه الجنس التام ٠٠ عرفت أمى ذلك من خلال زوجته المطيعة الطيعة ٠٠ عقل

أمى رياضى وعقلية خالى عقلية مقاول موهوب لا أكثر ولا أقل ·· ولقد تأكدت هى من وجود امرأة معينة بلحمها ودمها فى حياة خالى ، ان هذه الملعونة المجهولة كسرت فى خالى شيئا عزيزا عليه جدا ، غاليا جدا ، كسرت فيه رجولته على الأرجح ، وأنها ـ الملعونة تلك ـ كانت ذات فتنة خارقة وعلى الأرجح من بيئة وضيعة أو بمعنى أصح أقل من ناسه هو وأهله هو ، أو بمعنى أدق كان تودده اليها يعتبر نزولا منه وحطا بنفسه لم تفهمه ولم تقدر قيمته فصدته صدا غير انســـانى حطم كبريائه تماما وكاد يدمر نفسيته ·· أمى ليست عبيطة ·· لقد جمعت هذه الحقائق على مهل وأصرت ليس فقط على علاجه بل على معرفة من تكون على وجه التحديد هذه المجهولة الملعونة لتأتى بها أيا كان وضعها أو مركزها ، وتضعها فى الأسر وتظل تبصق فى وجهها وتضربها بالصرمة القديمة كلما آن الطعام ·



واصل مأمون حديثه :

ـ « انتهت الآنسة « راندا » من حكايتها واعتدلت فى جلستها معطية ظهرها للحائط بعد ان كان وجهها فى مواجهتى تماما عبر الترابيزة · وحط علينا صمت ، كنت خلاله مشغول الذهن أدبر للخروج بلطف من هذه الورطة التى صرت فيهـا طرفا أصيلا دون أن أدرى وبدون ذنب · لكن « راندا » مسحت شفتيها الجميلتين بمنديل من الورق وبطريقة اثارتنى ، وسألت نفسى متحسرا على ما فى الدنيا من حرمان : هل يستوى النعيم مع الشرف ؟ أقصد هل يتأتى للانسان على ظهر هذه الدنيا الغريبة ان يقبل مثل هـذه الشفاه ويحتضن مثل هذا الجسد ويمتلك كل هذا البذخ وفى نفس الوقت يكون محتفظا بطهارته كانسان شريف لا تشوب ثروته أى شائبة من السرقة أو النهب أو استغلال الآخرين ؟ ثم سمحت لنفسى بالتسرع فى الحكم وقلت ان هذا ـ تقريبا ـ مستحيل ··

رمت بالمنديل كله فى سلة المهملات • أما أنا فحين أردت مسح شفتى من أثر الجيلاتى صعب على المنديل كله وهو ثلاث راقات فوق بعضها ، فنزعت واحدة مسحت بهـــا شفتى وأصـــابعى ثم رميتها • ونظرت هى نحوى ضاحكة فى صفاء واستغراب وأنـــا لا أدرى لضحكها سببا • لكننى توقعت ان يكون المنديل هـــو السبب فقلت لها اننى هكذا تعودت ولهذا فالعلبة تكفينى لبعض الوقت • فعلقت تسألنى اذا ما كنت أرمى العلبة الفارغة فى النهاية أم احتفظ بها ، فضحكت قائلا اننى فى العادة اجمعها وأبيعهـــا للشركة بالجملة • ثم أردت اشعال سيجارة فامتدت يدى بطريقـة تلقائية الى علبتى فى جيب الصدر وأخرجتها ، فانقضت عليها «راندا» ونزعتها من يدى وطوحت بها فى الشارع بعيدا ثم اعتدلت جالسة كأن شيئا لم يكن • فالتهبت ركية النار حول اذنى ، لكننى ابتسمت فى شىء يشبه السعادة ، ومددت يدى نحو احدى العلب ، فـــاذا بيدها الذهبية بغير حلى تمتد معترضة طريق يدى قائلة فى احتجاج : « من فضلك •• دى علبى أنا •• عندك الراجل اهه اشترى منه » • فصارت ركية النـــار ترعى فى كيانى ، وهممت بالنهوض غاضبا فى صمت ، لكنها كانت أسرع منى ضاحكة قد تناولت رأسى بين كفيها فدعكته برفق أطار لبى من السعادة والاسترخاء ، ثم أشعلت السيجارة بنفسها وقدمتها لى بنظرة تقطر صباء وبراءة ، وقالت ان فيها بعض الشقاوة البريئة وعلى أن أغتفرها لها ان كنت فعلا أرحب بصداقتها ، وأنها قد افتعلت هذه الدعابة البريئة لتختبر احساسى نحوها هل هو طبقى حاقد كما تكتشف دائمـــا لدى من يزعمون صداقتها خاصة ممن يصبغون سلوكهم وحديثهم بألوان يساريه •• أم ان احساسى تجاهها عادى وبرىء وصاف ؟ ••

فلما قرأت هى فى عينى تلهفا لمعرفة نوع احساسى تجاهها كما اكتشفته الآن ، قالت أنه طيب وجميل وأننى لو كنت كذابا دعيا لانفجرت فيها وأفرغت ما على صدرى من صدأ ومن عبـارات حاقدة تجاه الاثرياء •• الخ الخ ••

قلت لها اننى بكل صراحة يا آنسة راندا ٠٠ مش قدك .
وأضفت اننى لا امتلئ بأى مضـــمون طفيلى ٠٠ ان مضـــمونى هو نفسى ، هو تجربة حيـــاتى وما قرأته وتعلمتـــه لا أعتنق منـــه الا ما يضئ لى تجربتى الملموسة ، واننى لاأرفع أى شعار ولا أنتمى لأى جمـــاعة ، بل اننى ناقم على كافة الجماعات وكافة فصـــائل اليسار نقمة تكاد تقتلنى ، أحيانا يا آنسة « راندا » أتخيل اننى أعيش لكى أفضح خراب من سميناهم باليساريين فى تاريخ الثورة الازرقية ، وكثرة النصابين والمحتالين بينهم الى حد لم يتوفر فى أى مكان فى أى زمان ، كذلك كل الجمعيات التى تلبس أقنعة دنسة أو اجتماعيـــة أو فئـــوية أو رياضـــية ، وأعتبرها جيوبا تؤنمط الشباب وتشغلهم طول أعمارهم بقضايا فرعية تافهة ، وطالما انها جمعيات وجماعات وفصائل متشرذمة ومتضادة ومتعادية ومتنابذة ، فاننا بهم وبتفشيهم سوف نصبح عما قريب عشرات المئات من المجتمعات لا مجتمعا واحدا ٠٠ أصبحت يا آنسة راندا أكتشف فى كل يوم هياكل ورقية كانت مصورة لنا كآلهة عظمى ، ولأنهم جميعا انفراديين فرديين فانهم بلا محتوى ، ولذا فها هم يتفرغون للتفسح والهزء بالقيم ، أطراف تتبادل النصائح ، فئة تنتقم من فئة ، ناس تجرم ناسا أو تكفرهم ، مفكرون يعتذرون عن أفكارهم السابقة طول حياتهم فى كلمة صغيرة ، ثوريون يتنكرون لادوارهم العظيمة ، مظلومون يتنازلون عن حقوقهم جهلا بالطريق اليها ، آخرون يسلبون لأنفسهم حقوقا وتعويضات ، والأبرياء من الشبان أمثالنا الذين جاء بهم نصيبهم الأســـود فى مرحلة الانقـــلاب من النقيض الى النقيض ، يصيبهم الآن وباء الهجرة أو الانحـــراف أو الاجرام أو التطلع الى السلطة بأخس الوسائل ، لقد شبنا ونحن نفهم الأمور على نحو معين فاذا بنا فجأة نكتشف ان الطريق مسدود ببحر لا نهاية له وعلى من يريد السباحة منا فليسبح معتمدا على نفسه ٠٠ ذلك اننا يا آنسه راندا قوم من الدهماء تتفشى الأمية بينهم وأردنا من جسارتنا أن نقلد الدولة المصرية فى ثورتها دون

أن يكون لدينا ما لدى دولة مصر الشقيقة من امكانيات ، صحيح ان كل ثورة تقلد الأخرى كثيرا ، وان الثورة المصرية قلدت الثورة الفرنسية ، ولكن مصر فى النهاية صاحبة أعرق حضارة على وجه الأرض عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ، ومهما كانت نسبة الأمية فيها كبيرة فان أهلها جميعا مستنيرون ويمارسون الديمقراطية كسلوك قويم عريق ٠٠ اما نحن يا دولة بنى الأزرق فما هو تراثنا الثورى وما هى حضارتنا لكى نقوم بثورة ؟ ٠ لقد كان مضحكا بالفعل ان تنبرى الفرق المثقفة عندنا وتروح تكتب وتنظر وتفلسف كأنها بين الشعب الفرنسى مثلا ، ويستريح ضميرها ببساطة شديدة اذا هيأت الجماهير لأمر أو اذا وافق الجماهير على شىء كأنهم كانوا متأكدين ان جماهيرهم ملمة الماما كافيا بهذه القوانين وهذه الصياغات وهذه النظم ٠٠ وكان الاجدر بهم لكى تكون مسئوليتهم على مستوى الضمير المستريح أن يتفرغوا أولا لتثقيف الجماهير ومحو أميتها ٠ لكن من يثقف من ؟ لم يكن هناك وقت للثقافة يا آنسه ، نسيت الثورة نفسها وامتدت الى الخارج ، خيل اليها ان اللحاق بايقاع العصر معناه توسيع مناطق النفوذ وفرض الزعامة على منطقة أوسع ٠ وهكذا فان النظم التى وضعتها الثورة الازرقية فى الداخل على وجاهتها كان لابد ان تفشل وان يسرق الكبار مناصبهم ويسرق الصغار مقاعدهم ويتبجح الدهماء ٠٠ اننى يا آنسه راندا انتمى الى جيل جديد يرى أن الأمور يجب ان يعاد فيها بالنظر من جديد ٠٠ اننا بحاجة الى اعادة دراسة التاريخ المعاصر وفرزه لكى ننتخبه أو نرفضه ، نبحث فيه بلا حرج ونتقبل رائحة نتنه ونواجه عار آبائنا وأجدادنا بالشجاعة ونعترف به فى قوة ، وشرفنا أننا قد نرفضه ، وبرفضه نمحوه ، لكى نكون على يقين بأننا نرفض ما وجب رفضه ونبقى ما استحق البقاء ٠

استمعت الآنسة راندا الى كلامى بكل دقة وانتباه وهدوء ٠ ثم قالت باسمة تعليقا على خطبتى الطويلة الجوفاء : « هذا كلام

توری » • قلت باسما بدوری : « لكن •• ولكنني لن أشتغل بالسياسة طول حياتی » • قالت : « لماذا ؟ » قلت : لأن الانسان يستطيع أن يخدم الناس والأهل كلهم عن طريق العمل الثقافى بشكل أفضل من العمل السياسى ، ان الشعب الازرقى فى حاجة الى من يبصرونه بالتاريخ على حقيقته ، ومن ينيرون له ظلام المعلومات وتكاثفها وشراستها ، ومن يخلصون له وللمعلومة ، الشعب الأزرقى محتاج الى مثقفين من نوع خاص لا يشغلهم العمل السياسى ولا ترهبهم قوة البطش السياسى مهما كان •• ثم ان العمل الثقافى المخلص للأمة وللناس والأهل كأهل اذا سار بسلامة فانه يهيىء عملا سياسيا عظيما ، اذ أن أرض الثقافة المستنيرة تطرد من ساحة السياسة كل مدع سفاح • ثم قلت : وعلى أى حال يا آنسة راندا فاننا لا نزال فى مرحلة التحصيل ولسنا سوى جهلة بسطاء يتحدثون بقامة مرتفعة •

ابتسمت « راندا » وقالت انها كانت بالفعل قد فهمت شخصيتى على حقيقتها قبل هذا الاحتكاك واننى كما توقعت لا أشغل نفسى بالعمل السياسى وأنها اطمأنت الى وهكذا •• ثم استطردت قائلة اننى بعد هذه الاندماجة اللطيفة السريعة يجب أن أكون وسيطا جيدا بينها وبين الفنانة رشا ـ وأحسست أنها تطلق عليها هذا اللقب مجاملة لى ـ ثم فوجئت بالموضوع من جديد وقلت بتلقائية : « مالى وهذا الموضوع ؟ » • فنظرت لى باسمة كأننى شجعتها ، فاستطردت تحكى •

قالت الآنسة راندا :

ـ لقد وصل الحال بخالى الى درجة تهديد بالانهيار ، اذ انه صرح لأمى ذات ليلة قريبة انه يفكر فى الزواج من رشا الخضرى •• كادت أمى تصفعه بالكف على وجهه •• فبكل ضعف قال لها انه فكر طويلا فلم يجد مفرا من الاستحواذ عليها ، انه لن يستريح

فى حياته الا وقد امتلكها بين يديه « يفعل » بها ما يشاء ، وهذا التملك لن يكون الا بالزواج ، على الأقل الزواج بشكله الرسمى المظهرى الذى يضعها تحت أمرته تحت سيطرته تحت ارادته ٠٠ لقد فكر انه يستطيع ان يفتح معها ملف العشق والوصال بأى ثمن ، ولن يكون باهظا مهما بهظ ، لكن ذلك لن يمتعه ولن يريحه لأنها ستكون طليقة تفعل ما تهوى ٠٠ و ٠٠ وقعت أمى صريعة مريضة من يومها ٠٠ أصابها الهزال يا أستاذ مأمون ، وأصبحت عصبية . فامتنع خالى عن ذكر السيرة مرة أخرى ، ولكنه أصبح عصبيا بدوره متوترا على الدوام ، بل تؤكد أمى ان شخصيته قد تغيرت تقريبا ، وان ثمة حجاب سقط بينه وبينها وبين الجميع ، ثمة أشياء غامضة قد أصبح يخفيها ، ثمة أسرار فى عينيه وفى انشغاله وتشتت ذهنه لا يريد ان يفضها ٠

٠٠ تقول أمى انها كلما صرحت له بذلك لوى شفتيه قائلا : « هذه حال ليست غريبة على وانت تعرفينها جيدا » ٠٠ وترتعد أمى ارتعادا ، لأن هذه الحالة لم تكن تعتريه فى العادة الا قبيل الاستعداد لشىء كبير خطير كامتحان الليسانس مثلا أو دراسة مشروع كبير أو الخلاص من أزمة مادية أو سياسية خطيرة ، حيث كان يصل الى درجة من الانعزال داخل النفس والتقوقع والانكماش كأنه يتجمع لينفرد أو لينقض ٠٠ استغربت أمى المسكينة أنه كان قد تخلص من تلك العادة فى سنوات الازدهار ، حيث استقامت شخصيته وسلست وأصبحت كمن تحققت لها كافة الأمنيات ٠٠ أما الآن فان الوقت طال عليه بهذه الحالة الغريبة وأصبح كالبائس المسجون بأمنيات كثيرة لم يحققها بعد ٠٠ تصور ان أمى بطولة لسانها قالتها له ؟ ٠٠ قالت له : « من يراك مهموما هكذا يتصور أنك لم تحقق شيئا فى الحياة » ٠

٠٠ أتتصور ماذا قال لها يا أستاذ مأمون ؟ ٠٠ وقف مسمرا فى مكانه أمام المرأة ، ناظرا اليها فى تصميم ملء بغضب مكتوم :

« كل الأمنيات تحققت بالنسبة لى الا أمنية واحدة ·· اذا لم تتحقق ·· فكأننى لم أحقق شيئا » ·· قالت له أمى فى توتر : « دى لازم أمنية خطيرة جدا ياعبد الجبار » ·· فاذا به يقول فى بساطة شديدة : « نعم خطيرة بل فى منتهى الخطورة ·· على الأقل بالنسبة لمستقبلى أنا وشخصيتى أنا ·· ان كل النجاح الذى حققته فى حياتى لم يفلح فى مداواة جرح فيها ، جرح اتضح لى الآن انه غائر فى نفسى ونافذ الى العمق فى الداخل ·· اذا لم اداوى هذا الجرح بعملية جراحية فسوف أظل طول حيـــاتى أحس اننى مجـرد آلة بشرية حسنة الحظ اوتيت فرصا كثيرة للكسب فكسبت ·· بكل اسف ــ وليغضبكم هذا القول أو يجعلنى صغيرا فى أنظاركم ــ لم أحس أبدا اننى سعيد فى حياتى ·· اننى أحس ان ثمة أمر كبير جدا كان مؤجلا فى أعمق أعماقى ، واننى ادخرته عن عمد ونسيته عن عمد حتى أستطيع أن أشق طريقى فى الحياة ، ولأنه أمر كبير فان مشاعرى كلها كانت هى الأخرى مؤجلة حتى انتهى من هذا الأمر . حتى أصفى حسابه فى نفسى ·· وكنت أعرف عن يقين ان اليوم سيجىء لمقابلة هذا الأمر ، وكنت أظن انه حين يجىء سيرانى واقفا له فى العراء انتظره لاطبق فيه ابطا لابط ·· فاذا به حين جاء وأصبح سهلا أرانى فى أوضاع متغيرة تماما ، وأفاجأ اننى أسد حبيس فى قفص من الذهب لا يملك الخروج لملاقاة هذا الأمر » .

·· لحظتها قالت أمى فى تسليم : « عبد الجبار ·· عايز تتجوز رشا الخضرى اتجوزها اتجوزها ياخويا ·· محدش حايشك ·· بس لما تجرجرك فى تهم وتمرمط بشخصيتك فى الأرض تبقى ساعتها تعرف انك نزلت بمستواك برغبتك ومرغت نفســك فى التراب بارادتك ·· لما تنزل بنفسك لمستوى يلعب بيك الكورة ساعتها تبقى تفوق وتلوم نفسك بنفسك ·· انما دلوقت عايز تخطبها أروح أنا أخطبها لك ياخويه » ·· وهنا انكسرت نظرة خالى على رباط العنق ، وفكه من جديد بعصبية شديدة ، ولهث قليلا ، ثم ارتدى سترته بدون ربطة العنق ، وتقدم نحو أمى فى ضعف

قائلا كأنه يعتــذر عن انفعاله : « مع الأسف ان كلامك صحيح يافهيمه ٠٠ صيحح ميه الميه ٠٠ وأنا مش ممكن حاتصرف من غير ما آخذ رأيك فى المسألة دى بالذات ٠٠ بس أرجوكى قدرى الموقف اللى أنا فيـــه ٠٠ معلهش ٠٠ أنا حــا عالج نفسى بنفسى ٠٠ عن اذنك » ٠٠ فربتت أمى على خده فى حنان ، وعدلت له رباط العنق فامتثل لها كالطفل ، ثم رتبت من جديد على ظهـــره قائلة : مع السلامة ياخويه » ٠٠ فخرج خالى بعد أن طبع على وجهها قبلته اليوميــة ٠



قال مأمون :

ـ ثم ان الآنسة راندا كفت عن الحديث وبدا عليها الانفعال ، وكانت عزيزتى كمشروع كاتب روائى قد انســاقت وراء راندا وأنستنى ما أنا فيه وما سيطلب منى بناء على كل هذه الحكايا المؤثرة المؤلمة ٠ وانسنت الى صمتها قليلا ، واستقل ذهنى لبرهة أقنعنى فيها بان مسألة ان أكون روائيا هذه مسألة جنونية ولسنا نحن قدها ، وانني لن أوتى من القدرة والخيال ما يوازى واقعــا كهذا وتجربة كهذه ٠ ثم فوجئت برانـــدا تمســك يدى الاثنين وتحتويهما فى جنان قائلة :

ـ « اعمل معروف يا مأمون يا أخى ٠٠ ساعدنى ٠٠ أنا عاوزه أساعد ماما ٠٠ تبقى أنقذت رشا ٠٠ وأبقى أنقذت ماما ٠٠ صراحة اذا اتضح ان قريبتك بتحاول تتصل بخالى ، أو اذا هو اتصل بيها وهى رحبت وفتحت له صدرها ، يمكن تحصل حاجات مش كويسه ٠٠ يمكن يموت فيها ناس والعياذ بالله ٠٠ عايزاك تفهمها انها ما لهاش أى دعوه بخالى ٠٠ ولو هو حاول الاتصال بيهــا خليها تصده ٠٠ فيه اشـــاعات قوية بتقول انها اتطلقت من جوزها الاخرانى وفيه اشاعات بتقول لا » ٠

فقلت أنـــا :

ـ « وفيه اشاعات بتقول انها اختفت من الحياة الفنية خالص»
فصاحت هى بسرعة :

ـ « الخوف من هنا ·· أنا أيضا أريد أن أعرف منك هى راحت فين وأخبارها ايه بالضبط ·· يمكن يكون ده اللى خلانى أصمم أقابلك بأى شكل وأعرف منك ·· أين اختفت أين راحت ؟ أرجـوك قل لى ·· الخـوف أن يكون خالى وراء اختفائها هـذا ·· أن يكون قد اتصل بها وأخفاها ·· ان جميع أرقام تليفوناتها لاترد ·· ولكن خادمتهـا ردت على مرة وقالت انها فى الحجاز تؤدى ـ الفريضـة » ··

قلت : « جايز ·· كل شىء جايز »

وكادت السكينة تقوم وتقبلنى وتفعل كل ما أريده فى سبيل ان أحكى لها شيئا عن رشـا الخضرى · كدت اسـتخدم النذالة قليلا فى سـبيل أن تزداد هى رجـاء فتحتضننى · لكنهـا حين أوشكت ان تفعل ذلك بالفعل اقشعر بدنى ودفعتهـا عن نفسى خوف الوقوع فى عار مجهول ، وقلت برفق : « من فضلك ·· اهدئى ·· واستمعى الى فقد تفاجاين بمفاجآت غير ساره » ·

اذا بها تعتدل كالمنهارة · وقالت مطوحة أصبعهـا الجميل فى وجهى بانذار شـديد اللهجة لطيف : « بس من فضـلك ·· حذار أن تنكر قرابتها والا قتلتنى ·· قد لا تدرى ماذا يمكن أن يحصـل لى » · أشفقت منها عليهـا · أغمضـت عينى وقلت تصميمك على ايجاد صلة قرابة بينى وبين شخصية أنا لم أرها فى حياتى أبدا ولا تربطنى بها أى صلة على الاطلاق ، حتى صلة الاعجاب ليست موجودة » ·

قالت راندا وقد غاضت الدماء فى وجهها :

ـ « ماذا قلت ؟ ·· تنكر صلتك بها ؟ » ··

قلت بهدوء وتصميم :

ـ « أقسم بالله العظيم يا آنسة راندا ·· وبكل المقدسات اننى لست من أقارب رشا الخضرى ، وان الأمر كله مجرد التشابه القوى كما تقولين ·· وهذا شيء تملكين وحدك الحكم عليه لأنك شاهدت رشا بعينيك وجلست معهــا أما أنا فلم يحدث لى هذا الشرف عدم المؤاخذه ·· الواقع يا آنسة راندا أننى صرت أخشى من عقدة علي وشك ان تصيبنى من كثرة تشبيهى بناس كلهم سيدات ·· فلست أنت وحدك الذى يلاحظ الشبه ·· فهناك من شبهنى بخالتى بسيمة التى لم أرها ولم ترنى فيا له من توافق عجيب ·· هل أنا صاحب شكل نسائى يا آنسه راندا ؟ » ·

لكن الآنسة راندا لم تكن موجودة وان بقى جسدها متماسكا، اذ أنى نظرت فى عينيها أبحث عن رد فلم أجد حتى عينيها ، انما وجدت حبتين منطفاتين من السواد الفاحم تسبحان فى صفار بيضة مقلية ، ولم أجد ملامح وجهها ، انما وجدت سطحا شاحبا على وشك أن يتشقق·· مع ذلك كانت لاتزال تتشبث بأهداب حياة فى الأمل، بل حاولت الأبتسام قائلة بصوت شاحب مهزول : « اذن فأنت لست حقا من عائلتها » · هززت رأسى فى تأكيـد وأخذت أتأتىء وأضيف : « ولا من عائلة تعرف عائلتها ، ولا أعرف حتى ان كانت لها عائلة أم انها نبتة شيطانية » · فتراجعت بذقنها الى الخلف باسمة فى شحوب قائلة فى استحياء باسم : « تحلف على المصحف ؟ » · فبكل جرأة مددت يدى وسحبت المصحف الذهبى الكبير المستقر بين مفترق الجبلين على صدرها ، وأطبقت عليه قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف أننى لا أمت بأى صلة قربى لرشا الخضرى » ، ثم تركت المصحف ، فدبت الحيـاة فى عينها وقالت : « لا ··

المصحف ده ما ينفعش ٠٠ ده مجـرد تمثال صغير ٠٠ المصحف الحقيقى أهه » ، ثم أخـرجت من حقيبـة يدها الصغيرة مصحفا صغيرا مجللا بالذهب ، قدمته لى ، فاستغرقت فى الفرجـة عليه مبهورا من شكله ودقة تكفيته بالذهب ، ثم وضعت عليـه يدى قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف اننى لا صلة لى برشا الخضرى من قريب أو بعيد » ، ثم أعدت اليها المصحف وأنا فى غاية الاشفاق من الصـدمة ٠ وضعت مصحفها قائلة فى هزال شـديد : « خلاص يا مأمون ٠٠ أنا مصدقاك ٠٠ متشكره انك سمعتنى على أى حال ٠٠ وأنا مهما كان تحت أمرك ٠٠ اعتبرنى صديقة تلجأ اليها فى كل أزمة تتعرض لها » ٠ شكرتها من أعماقى وأشعلت سيجارة من علبتها . وبقينا صامتين لوقت طويل ٠ ثم انها تثاءبت ونظرت فى ساعتها فقلت : « نمشى ؟ » : فأشارت للنادل ، والى ان جاء كانت هى قد رمت على الترابيزة ورقتين من فئة العشرين جنيه٠ ثم مضت فمشيت بجوارها صامتا ٠

فلما ركبنا السيارة لاحظت ان يدها ترتعش قليلا ولكنهـا تتماسك ٠ وطلعت السيارة فى سلام واستوت على الطريق فى زحف رزين كأنها هى الأخرى حزينة معنا ٠ ثم أشعلت سيجارة بولاعة العربية وقالت :

ـ « على فكرة يا مأمون ٠٠ أنا لست نادمة على أى شىء حكيته لك ٠٠ أبدا ٠٠ كان يمكن أن أندم وأحس انى بقيت عريانة قدام واحد متطفل وفضولى ٠٠ لو انى حكيت لواحد غيرك ٠٠ أما أنت يا مأمون فلا ٠٠ بالعكس لقد استرحت وهدأت أعصـابى ٠٠ لا أحس انى خسرت بل كسبت صديقا عزيزا » ٠

انفشخت أنا مبتسما فى خجل وقلت : « اشمعنى أنا يعنى ٠٠ ما يمكن آكون زى آى واحد » ٠

فلم تنظر الى ، بل رفعت يدها وصـارت تهز أصبعها فى الهواء نافية قائلة : « لا لا لأ ٠٠ أبدا ٠٠ أنت مختلف يا مأمون٠٠

لو كنت شخصا انتهازيا أو نصابا أو رخيص المعدن كنت وافقتنى على انك قريب رشا الخضرى ، وربما كنت اختلقت قصصا توهمنى بها ٠٠ انت انسان جدير بالصداقة فعلا يا مأمون » ٠

ثم أردفت بعد برهه : « طريقك فين يا مأمون ؟ »
فقلت لها : « باب الحديد »

نظرت فى مندهشة : « تسكن هناك ؟ »

قلت : « لا ٠٠ أنا أمكث فى العاصمة يوما أو يومين أبيتهما عند بعض الأصدقاء المحبين للأدب والقراءة مثلى ، أو فى احدى اللوكاندات ان ساءت العلاقة بيننا وهى كثيرا ما تسوء بسبب اختلافنا فى الآراء وكل منا يعتبر نفسه أكبر موهبة من يوسف ادريس ٠٠ أنا فى الأصل موظف صغير فى مدينة البندر٠٠ وأزوغ من العمل ثلاثة أيام فى الاسبوع أمارس فيها التلمذة » ٠

وطوال كلامى كانت الآنسة راندا لا تنى تنظر الى مندهشة تارة ومعجبة تارة أخرى ، واذا بها تقول فى نبرة صادقة : « طب ٠٠ انت مرتبط بميعاد معين ٠٠ قطر مثلا أو حاجة ؟ » ٠ قلت : « لا فى الواقع ٠٠ ولكننى أستطيع الرجوع فى قطار الحادية عشرة مساء وأبيت فى البندر فى حجرة استأجرها هناك أنا وثلاث من زملائى فى العمل ٠٠ وأسافر الى قريتى مساء كل خميس لاعود مساء الجمعة أو صبيحة السبت » ٠ فابتسمت هى بكثير من التقدير ، ثم قالت : « مش حنتأخر كثير » ٠

٥

توقف مأمون عن الحديث برهة وقفز ، فقفزت وراءه ثم نظرت ورائى فوجدتنا قد تخطينا قناة عريضة نوعا ٠ ووقف « مأمون » مستندا الى جذع شجرة وصدره يعلو ويهبط وأنا أتابعه نبضه لاهثا مدليا لسانى من فرط الشعور بثقل الحمل الذى ألقاه

مأمون على كاهلى ، فما بالك به ؟ • وكنت أخشى ان يضيع منا حبل الحديث وهو شديد الأهمية ، فأخذت أحاصر مأمون وأتقافز أمامه قاطعا عليه الطريق ، أحمحم وأتمسح فيه مطوحا ذيلى الى أسفل كأنني أرجوه ألا يتحرك من هاهنا قبل أن يلحم خيط الحديث الذى انقطع بنا فى سيارة الآنسة راندا •

فقال مأمون :

ـ ثم ان السيارة انحرفت عن الطريق الى طرق جانبية خرجت منها الى طرق عمومية أخرى •• فأشرفنا على منشأة شبه جديدة لكن أكوام القدم متراكمة حولها • توقفت السيارة أمام عمارة جميلة هائلة يقشعر منها البدن • وزمرت ، فجاء بواب يجرى منحنيا يقول : « أهلا ست هانم » • قالت : « المعلم فلان موجود ؟ » • قال البواب : « أيوه ياست هانم » • قالت : « انده له » • فانطلق البواب يجرى مهرولا ثم غاب فى الداخل حوالى خمس دقائق جاء بعدها المعلم يهرول ويكمل ارتداء ثيابه البلدية الفضفاضة • نظر فى السيارة فاشخا حنكه بما أظن انه ابتسامة عريضة ، قائلا : « أهلا ست هانم » • ثم فتح باب السيارة قائلا : « اتفضلى ياست هانم » • فترددت الآنسة راندا قليلا ثم نظرت الى قائلة : « طب اتفضل معايه » ففتحت الباب ونزلت صاغرا • ولففت لأسلم على المعلم الذى استعد لى بيد عريضة كأنه ينوى ان يضعنى فى جيبه •

رأيتنى أنا والآنسة معلقين فى كفيه وهو يتقدم بنا سائرا نحو العمارة ، حتى اذا ما دخلنا فوجئنا بحجرة كبيرة مفتوحة كمندرة ريفية قصد بها ان تكون مكتبا فصارت متحفا عبيطا لمقتنيات هبلاء المنظر • دلفنا اليها ثم جلسنا وجاء البواب حاملا صينية عليها زجاجتين من السينالكو ساخنتين ، وقال المعلم فلان وهو يشير لنا ان نتجرعها : «خير يا ست هانم••داحنا زارنا النبى»•

اعتدلت راندا فى جلستها وعزمت على المعلم بسيجارة « دانهل » فاعتذر قائلا انه يشرب الروثمان ولا يغير ولكنه مع ذلك سيأخذ منها سيجارة ، ثم انه أشعل لنا جميعا · وكنت ألمح وراء نظرة عينيه ثمة خوف من أمر مجهول خطير ، وكان يتعجل أن تفصح الآنسة عن غرضها من هذه الزيارة المفاجئة · أخيرا قالت الآنسة راندا : « عايزين شقة صغيرة أو حتى أوضه بمنافعها بس تكون حلوة زى حضرتك كده » · استراح وجه المعلم وقال : « عشان مين ياست هانم ؟ » · أشارت نحوى قائلة اننى أحدز ملائها وأحد أقارب والدها ـ من البلد ـ ولهذا فهى جاءت بنفسها من أجلى · وهنا نظر المعلم نحوى فى تأمل طويل ثم قال : « أهلا وسهلا ·· عينى ·· هات عقد ياد » · فبعد برهة وجيزة دخل الولد فاذا به أفندى يريد فى كل خطوة ان يقول أنا فى الثانوية أو انا جامعى، قدم للمعلم عقدا ثم جلس بجواره شاهرا قلمه · ونظر المعلم نحوى ثانية وأخذ يتأملنى قائلا : « اسم سعادتك ايه » ، فأمليت اسمى الثلاثى بتلقائية ، ورأيت على وجه راندا كأنها تفاجأ به لأول مرة وتتشرب ايقاعه وحروفه ·

ثم ان الولد الأفندى قدم لى العقد لكى أوقع عليه مشيرا لى على موضع التوقيع فوقعت باسمى كاملا واضحا · ثم اذا بالولد الأفندى يبرز دفتر ايصالات ويأخذ فى الكتابة ثم يتوقف ناظرا للمعلم الذى يتردد هو الآخر ناظرا لى من بعيد ثم الى الآنسة ، ثم انه مال نحوها طالبا أذنها فقدمتها ببساطة فظل يكور شفتيه ويفتحهما ويكح وينفس عن غضب فى هيأة مزاح ومزاح جوهره غضب ، فى حين ترد الآنسة على كل ذلك بهزة رأس أو تأتأة أو غمزة نفى · حينئذ بدأت أفيق من الحلم وأنتبه الى المأزق ، فطلبت الكلمة ، فأسكتتنى الآنسة بتشويحة حاسمة · ثم امتثل المعلم ومال نحو الولد الأفندى مبرطما بكلام كتبه الولد الأفندى ثم نزع الايصال وأعطاه لى فأخذته ونظرته فاذا هو محرر بمبلغ

عشرين جنيه ايجار شهرين احدهما تأمين فظهر التردد على وجهى وتحسست جيوبى وحاولت التكلم لكن الآنسة عادت فهدأتنى بحركة يدها قائلة : « شيل الوصـــل فى جيبك » فوضعته فى جيبى ، فقالت : « تقوم تتفرج على الشقة ؟ » • قلت : « نعم » • فنهض الرجل وأشار لى فتقدمت وراء الولد الأفندى بجوار الحجرة التى تجلس فيها الى الداخل فى ممر بينها وبين السلم والأسانسير • ثم توقفنا عند باب فتحة الولد الأفندى فاذا به حجرة بها سرير وترابيزة وكرســيين وقطعة كليم رخيص ، لكن الحجــرة نظيفة مدهونة بالزيت ، وملحق بها حمام ومطبخ ودورة مياه جدرانها كلها من القيشانى الأبيض • قال الولد الأفندى : « مش قد المقام لكن أهو بقى •• ده الموجود » • قلت : « فل خالص آخر فل » • واستدرت عائدا ، فنزع المفتاح وأعطـــاه لى قائلا : « عشرة خير ان شاء الله » • فابتسمت وهززت رأسى شاكرا ومضيت • وفى اللحظة التى دخلت فيها الحجرة كان المعلم ملخوما فى قراءة شيك انتهت راندا من توقيعه ، ولما رآنى دسه فى جيبه مشوحا بالأمر لله ، ففهمت ان الآنسة راندا قد أعطته هذا المبلغ على ســـبيل خلو الرحـــل •

ـ

ثم بدأ الفأر يلعب فى عبى • ورغم اننى غادرت العمـــارة وبيدى مفتاح شقة فى عاصمة بنى الأزرق دون أن أدفع شيئا وفى زمن يدفع فيه الناس اعراضهم مقابل مأوى أو مخدع فاننى رغم ذلك لم أكن سعيدا ، لم أكن أريد اقنـــاع نفسى بأخذ الأمر مأخذ الجد • ولما ركبت السيارة بجوار راندا لتوصلنى الى باب الحديد نبهت على بألا أفتح أى كلام حول هذا الموضوع وألا أحاول تفسيره بأى تفسير • والواقع اننى لم أكن مستعدا لهذا أو لذاك فبقيت صامتا الى أن دخلت بى السيارة ميدان باب الحديد فســلمت على الآنسة راندا بكثير من المودة والتقدير ثم نزلت متجها الى المحطة لأركب القطار الى البندر كأننى لم أعد الا ضيفا بالنسبة له •

أقول لك الحق اننى لم اهدأ من الصدمة الا فى قريتنا حيث ذلك الرجل المجهول الهوية الذى تعود ان يدس رأسه بجوارى على السرير ويقرصنى فى كل شىء قرصات موجعة لكنهـــا تنير بصيرتى بعد ذلك ، واذ التقيت بهذا الرجل المجهول وهو الوحيد الذى يشبهنى فى كل شىء علمت منه ان الأمر ليس خالصا لوجه الصداقة أو حتى الحب . ان مثل هذه الرومانسية لم تعد موجودة فى الدنيا فقد انتهى زمنها ، فما الذى تهدف به الآنسة راندا من وراء كل هذه التضحية من أجلى ؟ صحيح انها فى حسابها لا تعتبر أكثر من صفر ولكن لماذا ؟ ربمـــا تريد ان تشتريك لتصمت عن اللغو ببعض ما حكته لك ؟ أو ربما هى تدبر لاستغلال شبهه برشا الخضرى فى أمر جلل ؟ .

لكن كل هذه الخواطر لم تكن ثقيلة الوطء على ، انما كان الهم الأكبر فى نظرى لحظتها هو : كيف أقبل فى النهاية ان أعيش فى مسكن أجرته لى فتاة ودفعت ايجاره من حر مالها ؟! .. انها ليست أى فتاة والظرف ليس أى طرف ، أى اننى لابد أن أكون مأجورا أو مباعا على أى وضع .. وهكذا قررت فى الحال فسخ هذا العقد الذى أرى انه سيكون فى حقيقة الأمر تعاقدا على ما هو أكبر من شقة ، والأمر ببساطة يمكن ان يتم بالتليفون لصاحب العمارة . ثم عدت فتألمت من الوضع ، هذه تكون اهانة لراندا التى عاملتنى بشكل كريم ، ولابد أن يكون الفسخ معها هى والا كنت جلفـــا بلطجيا خسيسا .

كان الأمر عصيبا وصعبا ، فلما تذكرت ان فى جيبى ايصال بشهر هدأت نفسى قائلا اننى خلال هذا الشهر أكون قد استطلعت جلية الأمر وبانت لى النوايا ، ثم أترك الشقة آخر الشهر على أية حال ولكن بعد ان أكون قد اقنعت راندا بعدم احتياجى الحقيقى للشقة .

غير ان الشهر جر شهرا والأخير جر أشهر طوالا ، حتى انتهت شهور الدراسة والعجيب اننى لم أر الآنسة راندا خلالهـــا أبدا ولم أجرؤ على البحث عن تليفون لها وان وجدته فلست أجرؤ على طلبها ٠ وكانت ندرة اللقاء بها قد دفعتنى الى المبيت فى الشقة ليال كثيرة متواصلة علنى أجدها أو أســـمع أخبارا عنهـا ولكن دون جدوى ٠

لكننى لاحظت ظاهـرتين عجيبتين جدا ، الأولى هى فرح البـواب وأهله بتواجدى فى الشـقة مهما كان معى من أصـــدقاء وزملاء ، حتى ليخدمنا البواب وأولاده وأحيانا الولد الأفندى خدمات كبيرة وبصدر رحب ودون انتظار لبقشيش ٠ الثانية هى ادعاؤهم الدائم بأنهم لا يعرفون كلما سألتهم عن الآنســـة راندا ، حتى أوهمونى فى بعض الأحيان أنهم يسمعون اســـمها لأول مرة ٠ وسرعان ما اكتشفت اللؤم وراء هذا الادعاء ففهمت انهم لا يرحبون بأى حديث عن الآنسة راندا لا من قريب ولا من بعيد ٠ اما الظاهرة الاولى فلم أفهمها الا بعد حين ، اذ فوجئت مرة بالولد الافندى يركب نفس الاتوبيس الذى اركبه كل مرة وأنه ينزل فى نفس المحطـة التى أنزل فيها وان ذلك يحدث من فترة سابقة ٠ ثم فوجئت مرة بزوجة البواب تنظف لى الشقة كالعادة وتسألنى عن اخبار رشـا الخضرى بشكل غير مباشر وأحيانا ببساطة الواثقة من اننى احمل اخبارها ، كذلك فوجئت بأن ابنة البـــواب الصـغيرة تفتش فى أوراقى الخاصة بسذاجة مريبة جـدا ٠ كذلك فوجئت بالمعلم نفسه يتصيدنى من حين الى حين ويدعونى لشرب حجرين على الشيشـــة فى المكتب ، فألبى الدعوة ، واكتشف أن الحجـرة من الداخـــل مرسومة بشكل غريب ، اذ أن حوائطهـــا مجوفة من نواح كثيرة بأشكال الايوانات والنوافذ على شكل نوافذ المساجد ٠ فلما شربت الحجرين مع المعلم أول مرة كان الحشيش فيها زاعقا وقويا فبـدأ التنكيت من أول نفس ، وسألت المعلم ان كانت هذه الحجرة قـد

انتزعت من مسجد قديم هي الاخرى كما انتزعت هذه الاشيـاء ؟ وهل اشتراها من المزاد مثلا ؟ . فضحك المعلم ضحكة تقول ان نكتتي سخيفة ، ثم هز يده البضة أمامي مشوحا ، شارحا لى كيف أنه صمم الحجرة فى الأصـل باعتبارها مسجدا يمنح العمـارة امتيازات كثيرة ، فلما اكتملت العمارة وجد ان ثلاثة أرباع سكانها من الأجانب أصحاب شركات الاستثمار لا يؤمنون بالصلاة ، والربع الباقى من السكان يفضل الصلاة فى عمله حيث انهم لا يعودون أبدا ولابد انهم مهاجرون فى الداخل أو فى الخارج ، فعلام المسـجد اذن ؟ . هكذا سأل نفسه ثم أبقاه معلقا فترة طويلة فلما لم يسأله أحد أو يستفسر منه أحد حوله الى شقة هى التى أجرتها وحجرة هى هذه التى نجلس فيها افليست فائدة بزمتك ؟ . ثم انه عبر كثير من الانفاس بيننا جاء بسيرة رشا الخضرى عشرات المرات وسألنى عن عمارتها الفلانية ماذا فعلت بها وعن محلها التجارى الفلانى ماذا بشأنه وعن شركة السيارات هـل باعتهـا أم لا تزال تبحث عن مشتر .. الخ هذه الموضوعات التى أفاجأ بأننى آخر من يهتم بها أو يشغل نفسه بأمرها ..

قل أننى فوجئت بأنى محاصر بجيوش تقودها رغبة دفينة ملحة فى الكشف عن مدى صلتى برشا الخضرى ؛ مفترضة مقدمـا اننى قد أمكر بها وأنفى قرابتها وأنجح فى تمثيل ذلك . وقد حـدث ان حيانى البواب ذات مرة فى ابتسامة كبيرة قـائلا : « شفتك معاها يا بيه .. مش كان واجب تنزل تشرب قهوة ؟ . لكن دى ست طيبه قوى يا بيه والله العظيم .. أنا باحبها ومن عشاقهـا قوى قوى » . فتسمرت واقفا اقول له : « هى مين يا جدع انت ؟ » . فقال ببساطة صفيقه : « الفنانة رشـا الخضرى يا بيـه واحنـا تايهين عنها ؟ » . صحت فيه بعنف : « امتى الـكلام ده ؟ » . فقال : « امبارح يا بيه ساعة ما كانت بتوصلك بالعربية » فاذا بى انفجر ضاحكا فى جنون ، حيث تذكرت ان معيدة فى كليتنـا

تسكن على امتداد هذه المنشأة وان الصدفة وحدها أوقفتنى بجوارها قليلا حتى جاء زوجها ليأخذها بعربته ، فباعتبارى فى طريقهما ركبت فتكرم الرجل بتوصيلى الى مدخل العمارة ، ثم ان هذه الزميلة المعيدة لم يكن يربط بينها وبين رشا الخضرى أى شبه على الاطلاق ، مع ذلك فان البواب لم يرها هى بل رأى رشا الخضرى · المهم اننى بعد ان دمعت عيناى من الضحك المؤلم حاولت افهام البواب بحقيقة الامر فكان يهز رأسه مرددا : « هيه ·· أيوه » ، ولكن شيئا راسخا فى عينيه يقول انه لن يتنازل عن اعتقاده بأن رشا الخضرى بنفسها أوصلتنى بعربتها لحد البيت ··

فى اليوم التالى قررت الاختفاء تماما من عاصمة بنى الأزرق برمتها · لكن قدرتى على ذلك استمرت أسبوعا واحدا اضطررت بعده الى زيارة الشقة لعشرات الاسباب الحلوة التى ربطتنى بها كمركز ومقر جميلين ، وكنت بفضلها قد أرتبطت ببعض جهات اترجم لها أوراقا ورسائل وقوائم وفواتير نظير مبالغ لطيفه ، وجهات لا تستنكر حين اتقدم لها كقاص وروائى ناشىء ، ويسهر معى فى الشقة ناس وأصدقاء يجىء بهم اصدقاء فأتعرف على ناس بأستمرار أنتفع من علاقتهم بما يسمح لى بدفع ايجار الشقة شهريا ··

بعد ذلك الاسبوع مباشرة تصادف ان ذهبت الى الكلية فوجدت الآنسة راندا هناك فى حجرة يبلغنى صوتها وضحكها ، فلم أقو على مغادرة المكان دون ان أراها وترانى · فتقدمت نحو حجرة العميد وسللت رأسى من وراء الحاجز القطيفى فوقعت عينى على عينها · فاستمهلتنى بيدها ثم استأذنت وجاءت مسرعة فى رشاقة · فلما خرجت سلمت على فى شىء من القلق غطته بقبضة يدها حول يدى وقالت مندفعة : « خير ·· فيه أيه ؟ ·· حصل ايه ؟ » قلت : « أبدا ·· فيه ايه ·· تقصدى ايه ؟ » · قالت

دون تدبر : « فيه حاجة حصلت لك لا قدر الله ؟ » • قلت : « لا » • قالت : « أصلك غايب عن الشقة بقالك أسبوع » فقلت : « مفيش حاجة كنت فى البلد » • ثم ذعرت فجأة ، اذ كيف علمت بالخبر وهى منقطعة الصلة بى منذ شهور ؟ • وحينئذ أدركت انها فى الواقع على اتصال تام بى عبر جيش من الخدم الرعاع ، وان الآنسة راندا هذه ليست طفلة بريئة كما كنت اتصور ، انها مؤسسة كاملة من الجواسيس والعيون والعلاقات لا قبل لأمثالى بصدها أو الزوغان منها ، وان الآنسة راندا هذه الجميلة الفاتنة الى حد مذهل هى أيضا شريرة الى حد مذهل ، أين منها عشرات المعلمات البارزات من أمثال رشا الخضرى أو بمبه كشر أو ما شاكل ذلك من شهيرات النساء ، كل أولئك تفاية بالنسبة لها ، انها لغادرة وفاجرة ، لم تصدق يمينى لها على المصحف ، وكانت بالتأكيد ــ وهى بهذه الصورة ــ تستطيع أن تستطلع شهادة ميلادى حيثما كانت وتأتى بكل صغيرة وكبيرة عن أهلى ، لكنها فيما يبدو أرادت أن تضعنى فى أحد سجونها تحت المجهر لتستخدمنى فى عرض ما فى لحظة ما • ترى ما الذى تديره لى هذه الداهية الكبيرة ؟• اننى وكنت قد ختمت بأصابعى العشرة أن أمها أدهى شخصية على ظهر أرض البلاد ، أعود الآن فأسحب هذه الثقة لأضعها طائعا فى ابنتها راندا فأقول انها أدهى بكثير جدا من أمها ••

وهكذا قررت أن أنتقم من نفسى لنفسى ، أى أن أواجه الموقف بشجاعة فأنتزع نفسى من السجن غير مبال بما قد يصيبنى الانتزاع من جروح وفروح ودماء ، هى جروح أو قروح لابد ان يشفيها الطبيب ذات يوم ، أما البقاء فى مثل السجن ــ هذا السجن بالذات ــ فان قروحه لا تداوى وليس ثمة من شفاء لها ••

ثم جذبت الآنسة راندا برفق قائلا : « عايزك فى موضوع مهم » • فانجذبت معى بسهولة ثم استدارت عائدة بسرعة فحيت العميد وارتدت عائدة فى حماس كبير • حدست انها قد داخلها

بعض الأمر فى أن أكشف عن سرى وأنتهى وأعترف اننى أنسلخ بالفعل من جلدة رشا الخضرى وبناء عليه فالأمر كـــذا وكيت ، وكنت ألمح ذلك الأمل قائما فى عينيها وهى تغرينى أثنــاء المسير بسهرة هنا أو أخرى هنــاك ، فان أعصـــابى فيما يبـدو على غير ما يرام ، وان شيئا لابد قد أصابنى وكدرنى ولهذا فهى أول من يعنى بالوقوف معى كمـــا وعدت ، وتسهيل وتيسير كل ما أراه معقدا ٠ اقتراحات بسهرات ترددت فى رحابها أسماء أماكن كبيرة خيالية اسمع عنها فى الجرائد ، وهذا المكــان يتميز بكـــذا وذلك يتميز بكيت واننى أستطيع أن أختار ما يوافق هواى ويرضى أعصابى المضطربة مهما كان الثمن ٠٠

الحق لله كدت أحس اننى بالفعــل مضطرب الاعصـــاب وفى أزمة رهيبة تحتاج لمثـــل ما تقترح هى بل اننى دلست على نفسى قائلا لهــا ان ما أريد قوله يحتــاج لواحـــد من هــذه الأماكن ٠ لكننى وهى تضع يدها فى يدى كأننا خطيبين انتابنى رعب هائل هائج لمجرد احساسى بأنى قد أسلست قيادى لراندا ٠ وأدركت اننى ان جلست فى واحدة من هذه السهرات المقترحة فاننى لن أسلوها ابدا ، ومن ثم لن استغنى عن انفاق راندا ، وبناء عليـــه قد أضـــطر الى بيع نفسى على الدوام حتى يرخص قـدرى شــيئا فشيئا فأصبح بلا سعر ولا قيمة ٠ فتوقفت عند السيارة قائلا فى اضطـــراب :

ـ « آنسة راندا ٠٠ أنا آسف ٠٠ الموضوع اللى أنا عايزك فيه ما يستاهلش الاهتمام ده كله ٠٠ أنا بس عايز اقول لك ٠٠ انى خلاص معدتش محتاج للشقة ٠٠ خسارة تفضل فاضيه ٠٠ ان كان حضرتك تقدرى تستفيدى بيها فآدى عقدها ٠٠ لانك فى الواقع صاحبتهــا الحقيقية حتى لو كان العقــد باســـمى ٠٠ أنا اشكرك ٠٠ الاجازة خلاص حتبدأ وأنا ربما انتقل للجامعة بتـــاع

المحافظة اللى احنا تبعها ·· فألف ألف شكر يا آنسة راندا ·· أنا مش عارف أودى جميلك فين » ··

ثم سربت يدى بالعقد من النافذة نحوها ، وكانت هى قد أومأت لى باسمة وتركتنى أتكلم بل وتركتنى أضع العقد فى تابلون السيارة ، ثم دخلت هى وفتحت مسوجر الباب ايذانا لى بأن افتحه وأدخل · هى لم تصوب لى أكثر من نظرة ، فهمت منها أن تصرفى هذا خشن وغليظ ويخلو من كل ذوق · أبدا لم يكن للانثى فى عينى قدرا يماثل قدر التعنيف والاقناع بأننى يجب ان اعتذر عما حدث على الاقل بركوبى السيارة · وهكذا ركبت وانطلقت السيارة ، وأخذت أحس شيئا فشيئا ان الجلوس بجوار راندا فى سيارة خاصة تقودها هى املة كبيرة جدا لامثالى ممن يعيشون فى الحوارى والقرى التى تشبه الى حد كبير صناديق النفاية وهكذا أيضا لم أنطق بحرف طول الطريق · لكن أجمل شىء اننى تخلصت من العقد كأنه وثيقة الاتهام ··

وكانت السيارة متجهة الى مكان ما فى الصحراء الشرقية البعيدة · لكن نظرة ذكية شقية مذهلة لمعت فى عينى الآنسة راندا فجأة ، وبدأ كأنها تذكرت شيئا هاما وخطيرا جدا · طرقعت بأصبعيها قائلة فى مرح عظيم : « بس ·· هى ·· على النعمة هى »· قلت فى فضول : « هى ايه ؟ » · قالت وقد تحولت الى بسمة كفتحة النهر : « السهرة الجميلة ·· افتكرتها ·· حتسهر سهرة بقى ياد يا مأمون ·· ياد يا استاذ مأمون ·· عمرك ما سهرتها فى حياتك ·· وعلى فكرة ·· لو ماكنتش عزيز على يا مأمون ·· ماكنتش وديتك هنا · بس انا اتفقت معاك على آننا حنعيش اصدقاء ·· وأنا التزمت ·· لأن اخلاقى وتربيتى تحتم على الالتزام بوعدى ·· وحافضل فى موقف الصديق المستعد للتضحية المقدور عليها ·· أما اذا الطرف الآخر أراد أن يركل هذه الصداقة

برجله ويتنكر لها فهذا شأنه ، ولست اظن ان اخلاقياته تسمح له بذلك » ..

اقشعر بدني . أحسست انني لست فقط في سجن بل قد دخلت تقريبا فيما يشبه الرحم ، وها أنذا في محتوى رطب حنون لا مثيل لمناخه . فهل يمكنني الخلاص ؟ وكيف ؟ . قلت في نفسي : « اصبر على الاقل هذه السهرة لكيلا تكون نذلا في نظرها ، ثم انقطع بعد ذلك شيئا فشيئا عنها الى ان يفصلكما الزمن من تلقائه . وهكذا ظللت صامتا حتى وصلنا الى جبال المقطم . للعلم فجبل المقطم هذا اسم مستعار ، استعارته عاصمة بني الازرق من قاهرة المعز على سبيل التقليد الساذج الاعمى . ولما لم اكن قد زرت في حياتي مقطم قاهرة المعز فانني اعترف ان مقطم عاصمة بني الازرق ليس رديئا وليس ساذجا بل هو جميل جدا الا اننا دائما هكذا يا أولاد بني الازرق : نسفه من أحيائنا القومية كما نسفه من اشيائنا الخاصة تجاه النموذج الذى نقلده ..

وقالت الآنسة راندا ونحن ندخل الحي الجميل انها مدعوة لحفل عيد ميلاد احدى صديقاتها العزيزات جدا وهي من المحتمل ان تكون زميلتي في نفس المدرج وسوف اراها على أية حال ، ثم اضافت قائلة : « وسوف ترى أمي .. نعم فهي مدعوة هي الاخرى ولابد أن تذهب » . ثم أضافت بعد برهة تنبهني الى أنها كانت ستضحي بهذه المناسبة المهمة في سبيل ان تقضى الوقت معي في أى مكان . ثم أقبلت علينا بناية مزدانة بالنيون ، وكانت طلائع المساء تهل محملة بأريج العطور والزهور والثراء السائب ..

★★★

ركنت الآنسة راندا بجوار الباب ثم نزلت وتركت السيارة مفتوحة ، وقالت للبواب : « مساء الخير » . فانحنى لها . ثم

صعدنا سلما مواجها فصرنا فى بهو مستطيل عريض تطل عليه الستائر المخملية المفتوحة ، الذوق مرتفع جـــدا ، الى درجة تشى بأرستقراطية قديمة مستنيرة . أنا دائما ـ والحق يقال ـ لا أنزعج من المظاهر ولا من الثراء المادى الا بين ايدى الاخساء والبلطجيـة ومنعدمى الضمير حتى ولو كان المال وريثهم من اجيال بعيدة ، لأن المظاهر عندهم تكون فشخرة كذابة والثراء المادى سفه . انمـــا يعجبنى حقا ان تكون مظاهر الثراء ليست مجرد مظاهر للثراء بقدر ما هى تمثيل لقيم ومعان وأبعاد ومراكز يتمتع بها أهل هـــذا البيت أو ذاك . ويعجبنى الثراء حين اكتشف أنه حرية فى الانفاق على الاثر العظيم بلا حدود ..

الحق ان المظهر خدعنى وتصورتنى فى ضـيافة أسرة أزرقية أصيلة قديمة ، بالفعل قرأت لافتة نحاسية كبيرة على الباب عرفت منها أننا فى بيت أسرة يشتهر من بينها أسماء عديدة فى جميع الوجوه والانشطة تقريبا وعلى مدى اجيال طويلة ، فمنهم الوزير ورئيس الوزراء والشاعر الكبير والممثل الشهير وفيها أيضا البائس العظيم والمتمرد الحلـــو ..

من أول ما دخلنـــا بدأنا جدول ترحيب وسـلام وأشواق استمر ما يزيد عن نصف ساعة . فما كدنا ننتهى من أهل البيت وحدهم وهم كما بدا لى أكثر من عشر أسر تقريبا تحت اسم كبير . حتى استأنفنا من جديد القيام والاستقبال . جاءت صديقة راندا وجلست بجوارنا ، ونظرت راندا الى كل منا وقالت : « هل أنـــا محتاجة لتقديم كل منكما الى الآخر ؟ » . وقالت نظرة صديقتهـا لنظرتى أننا بالفعل نعرف بعضنا ولكننا فى حاجة الى التشرف بمعرفة الاسماء فحسب ، اذ أننى وصديقتها طالبان فى سنة واحدة فى قسم واحد وكثيرا ما آراها وترانى . هزت صديقتها رأسهـا اللطيف وعينيها العسليين كأنهما صدفتين فى كل منهما لؤلؤة ، ثم قالت بلباقة : « انا باهى » . فابتسمت راندا قائلة لهـــا :

« ما تنصبيش عليه بقى ·· قوليله اســمك الحقيقى » · ورنت ضحكة شارك فيها كل من حولنا ، وقالت « باهى » متحدية : « قصدها تقول لك ان اسمى بهيه ·· واحنا مختصرينه لباهى ·· على كل حال مش مشكلتى ·· انتو اللى اختصرتوا ·· ان كان على أنا شخصيا أموت فى اسم بهيه ·· ده اسم جميــل وشيك وله معناه · بهيه » · فعلق ولد شاب مقلدا محمد العزبى : « بهيا ·· ا ·· ا ·· ه ·· وعيون ·· و ·· و ·· » · وضحكنا جميعــا فى مــرح ، ثم قلت : « أنا أشاركك الاعجــاب باســم بهيه ·· ومع ذلك فاختصاره الى باهى جميل أيضـــا ·· أما أنا فاسمى مأمون » · ورحبوا جميعا بنبرة صادقة : « اهلا وسهلا ·· تشرفنا يا أستاذ مأمون » · فبدأت ارتبك لشعورى بأننى صرت مهبط الانظار ، فلابد لاى شاب يجىء مع راندا فى حفل كهذا ان يكون مهبط الانظار ··

بدأت كذلك اغــرق فى خجلى · وخفت من الانعزال فحاولت الاندماج بأى شــكل · استجبت لدعــوة على كأس رغم تحريمى للشرب على نفسى ·· ماشى · ولم أشرب غيره ، لأن الدنيا انقلبت بعده مباشرة ولم يعد أحد مسئولا عن أحد · هاجت الدنيا وماجت فى هذا المربع الصغير ، حيث انزاحت ستارة فى مواجهتنا وظهر من خلفها منصة مسرح انيقة مفروشة بالسجاد العجمى · وظهرت فرقة موســيقية كاملة لا تدرى من أين دخلت وجلســت تداعب الاوتار · لكن لو دققنا النظر خلال ممر صغير بين ستارتين لوجدنا طرقة تتصل شرفاتها العريضة بشرفات بيت خلفى كبير · وتذكرت اننى كنت اقتيدت الى هذا البيت الخلفى السحرى منــذ ساعات حيث تناولنا العشاء على مائدة ولها عشرة امتار فى عشر صفوف متوازية فيها من الخرفان الى العصافير وقلاع الحلوى · وكنت افتقد راندا لاوقات كثيرة ، انظر احيانا فافاجأ بها جوارى وأحيانا فأفاجأ بها غير موجودة · « النمر » أخذت تتعاقب فوق المنصة : « هانى

شاكر ، ليلى جمال ، على عليوه ، نبوت الغفير ، أحمد بلطية ·· اكل ذلك من أجل عيد ميلاد « باهى ؟ » ·· ياله من شىء غير عظيم ·· يجب ان اسحب تقديرى لهذه الابهة وأغير نظرتى للقوم ··

لكن الدرادة الاحتفالية نفاجئنى بأشياء كثيرة لا أفضل رؤيتها ، من صور فاضحة على هيأة رقص ولعب وتفاريح ، وسكر بين ، ومجتمعات صغيرة مكثفة فى هذا المربع الصغير ببراعة فائقة ، ناس تمارس الرقص المتهتك ، بجوارهم آخرون يتكلمون فى العملة واسعارها ، بجوارهم شاب وجيه ينصب على امرأة ثرية لكى يوقعها فى غرامة ، بجوارهما طالبتان فقيرتان من زميلاتنا فى الكلية يرددون الفاظا وتعبيرا خارجة لم يكن مظهرهما ليوحى بها أبدا ، والمغنى ينزل متجولا بين الصفوف الثملة المنسلخة مرددا : « حبه فوق وحبه تحت » ، ويتلقى النقوط بسخاء كأنه صندوق النذور ··

ثم حدثت موجة من الانتباه المفاجىء تنقلت بين الجميع ، اذ تبادلوا الهمسات قائلين لبعضهم البعض : « وصلت ؟ ·· وصلت » · ثم ارتدت الموجة من جديد قائلة : « بس مش حتغنى ·· جايه تهنى بس ·· مش عامله حسابها على المغنى » · قلت لنفسى ان هذه الحفاوة يليق بواحدة كفايزة أحمد أو وردة أو نجاة من بقايا مطربات الديار المصرية الشقيقة · ولم استبعد ان تكون احداهن صديقة لاهل هذا البيت أو مستفيدة بشكل من الاشكال · وفى تلك اللحظة كان الولد الواقف على المنصة قد فقد كل الحواجز الفاصلة بين الاشياء ، بين ما يقال وما لا يقال ، فراح يهدر بنكات يشمئز منها البدن ، لكننى لاحظت أن كل من هاهنا لا يشمئز لانهم جميعا فى قلب الاشمئزاز غارقون ، أنهم بعض هذا الاشمئزاز ··

وصل بى القرف الى حد لا احتمله ، كأنما المطلوب منى ان أخرج من هدومى بل من شخصيتى كلها · من حسن الحظ تلفت

جوارى فرأيت راندا جالسة تغمزنى قائلة : « تعالى » · فقمت معها فى الحال · قالت فيما نسير بين الحشد : « حنقعد بعيد عن الزيطه دى شويه ·· جوه » · قلت : « أحسن » ومضيت وراءها · سرنا طويلا جدا بين أبواب ومداخل وسلالم كأننا نمشى فى شارع لا ينتهى · ثم هبطنا سلما ومضينا فى طرقة صغيرة رفيعه · ثم عدنا فصعدنا سلما فى نهايتها ومضينا فى بهو مربع ذى نافذة على اليمين ، نظرت عبر ستائر هذه النافذة فرأيت نافذة مشابهة تماما فى كل شىء وأشباح الحفل تبدو خلفها ··

حودنا الى اليسار وسط أضواء هادئة تنبعث من أماكن شبه مجهولة فى الجدران المبطنة بالخشب الثمين · وكان ثمة لغط احتفالى فى كل الحجرات المطلة على البهو المربع كأنما جاءت المدينة كلها تحتفل بعيد ميلاد « باهى » فكرت اننى حين ألقاها بعد ذلك سأقول لها : « يا بهية وخبرينى عن حقيقة الأمر » · فى آخر حجرة وهى أكبر الحجرات كما يبدو كان ثمة صالون كبير جدا فاخر جدا يجلس فيه رهط كبير من المحتفلين ميزت فيهم « باهى » ، التى نهضت واستقبلتنى مرحبة من جديد لتجلسنى مكانها بجوار السيدات الفاتنات ، وقدمتنى قائلة اننى صديقها وزميل دراستها الاستاذ مأمون عكاشة واننى من لوامع الزملاء بنشاطى الادبى والطلابى ·· الخ · فهتف الجميع فى نبرة ودوده : « تشرفنا » · فرفعت يدى بالتحية مارا برأسى فى اتجاههم جميعا · وكان أول شعور يعترينى بين هذه الكوكبة نساء وشباب وصبيان وعجائز هو شعورى بأننى قد صرت محط الانظار حقا · الجميع يبحلقون فى كأنهم يتفرجون على نجم ، وكنت كلما ركزت النظر فى عين تبحلق فى ابتسم صاحبها فى صفاء وقال : أهلا وسهلا فأقول : اهلا ، ثم أغوص فى خجلى من جديد ··

مررت بنظرات سريعة لعدة مرات على أوجه جميع الجالسين وفى كل مرة اكتشف شيئا جديدا فيها · وكان بصرى يعود من

جولته ليتلكأ دائما عند السيدة الجالسة قبالتى ، فأحس ان بصرى قد استراح قليلا ووجد فى وجهها ما يغرى بالتأمل · بعد تلكؤ طويل ووسط بعض التعليقات الغامضة تيقنت من أنها « فهيمه » أم « راندا » · سررت اذ وجدت شيئا يشغلنى ، فأخذت أدرس ملامحها وأتخيل ما حكته راندا عنها · لكن راندا قطعت على الخيط مشيرة الى أمها قائلة : « والدتى ·· اظن واضح » · قلت : « واضح » ، ثم أنزلت ساقى عن الأخرى وهممت بالنهوض قائلا : « اهلا يا افندم » ، فلما استجابت لحركتى هى الاخرى نهضت بالفعل وذهبت اليها فوقفت فى احترام شديد وسلمت على بحرارة ، ثم عدت الى كرسى خجلا لا أرفع وجهى عن الارض · جلست فى مكانى ، وقد لاحظت أثناء عودتى أن جلستى محصورة بين سيدتين · جاءتنى الصينية عليها كافة المشروبات ، فاخترت فنجان قهوة · وقالت راندا : « عايزين نسمع حاجه » · وقالت « فهيمه »، أمها : « بيقولوا الاستاذ مأمون شاعر وأديب ·· يسمعنا حاجه تحيه لباهى » فضحكت بصوت عال وقلت دون ان انظر فيها اننى لا اكتب الشعر ولم اكن اعرف المناسبة من قبل · وقالت باهى ناظرة تجاهى : « احنا كلنا طمعانين فى صوت الفنانة رشا » · وهززت راسى موافقا أنا الآخر ظنا منى ان بينهم هاوية للغناء اسمها رشا · لكن صوتا أليفا استمع اليه كثيرا فى الراديو والتليفزيون انساب من جوار اذنى مباشرة يقول : « اسمحوا لى ·· أنا متأسفه خالص ·· صوتى تعبان وواخده برد » · لويت رقبتى فى اتجاه الصوت فاذا بهذه التى تجلس لصقى مباشرة هى المطربة الشهيرة رشا الخضرى ، ثم اننى ظللت معووج الرقبة تجاهها لوقت طويل جدا وهى تحاول الاعتذار من جديد عن الغناء وتبتسم من شدة بحلقتى فيها · وجاء الولد الذى كان قد علق على اسم بهيه فى الأول ، وبلهجة مسرحية قال لى : « ما تيجى نقعد هنا عشان يبقى الوش فى الوش وتعرف تتفرج كويس » · فأردت تسخيفه فقمت

بالفعل واتجهت الى مكانه بجوار فهيمه أم راندا فجلست فصرت فى مواجهة رشا الخضرى مباشرة ٠٠

ثم ابتسمت فى خجل ، اذ اكتشفت سر الانظار التى كانت مركزة على ، هى اذن كانت مركزة على اتجاه رشا الخضرى ٠ هذه اذن هى رشا الخضرى ٠ كان وجهها ملفوفا فى ايشارب بنفسجى غامق وجسدها ملفوف فى معطف من الفرو الثمين ، يبدو وجهها منه كزهرة البنفسج ، كانت ثمة ظلال من هموم ومشاغل ومآسى عويصة تبدو من بعيد جدا فى خلفية هذا الصفاء ٠ هى بالفعل جذابة جدا لدرجة اننى لم أعد مستريحا فى جلستى منذ تركت جوارها ، لقد كان اشعاعها اذن هو الذى طوقنى وجعلنى أكن وأهدأ ٠ الآن تمنيت ان يرجع الولد فى كلامه ويعود الى مطرحه ، فى عينيها الرهيبتين شيء بل أشياء كثيرة جدا لا يبرزها التصوير أبدا ، ان جمال وجهها وعينيها ابرع بكثير جدا من أبرع مصور فى الوجود ، حقا لقد عجزت الكاميرات الحساسة عن التقاط هذا الدفق من الحيوية والجاذبية يجرى ليس فقط فى وجهها بل وفى وجوه كل من تقع عينيه عليه ٠ حينئذ أحببت رشا الخضرى حبا جارفا ابن ساعته ٠ فنهضت واقفا وأشرت الى الولد اياه قائلا بلطف : « من فضلك ٠٠ خد مطرحك وادينى مطرحى » ٠ فضحك الجميع فى سعادة وقال الولد بغمزة لم افهم لها معنى : « ليه بقى ما كده كويس » ٠ قلت له : « لا ياعم ٠٠ أنا مش حاقدر اتفرج على وش الفنانة رشا أكثر من كده » ٠ فتغامزت نساء عرفت من غمزهن انهن عاهرات لا شك ، وقالت احداهن بعهر : « ليه يا قلب امك ٠٠ أنت ما تعرفهاش قبل كده ؟ » ٠ قلت فى تحد غير مقصود : « أبدا والله العظيم ٠٠ انتوا ما بتصدقوش ليه ؟ ٠٠ دى أول مرة اتشرف فيها برؤية الفنانة رشا » ٠ وابتسمت رشا فى خجل وامتنان وقال الولد : « لا يعنى عايز تلبد » ٠ قلت : « الله أعلم بالسرائر » ٠ قالوا جميعا : « معلوم » وجلست أنا

قائلا : « اهلا يا مدام رشا ·· دى فرصة ســـعيدة فعلا ·· أنا باشكر الآنسة راندا والظروف الطيبة » · هزت رأسها قائله فى اقتضاب : « شكرا » · ثم لاحظت أن الجميع قد انتظر برهة عميقة متوترة ، وكنت أبادلهم خلالها النظر مستغربا بل منتظرا أنـــا الآخر ··

تدخلت « باهى » فى ذكاء ، وأشارت بيديها فى حركة مسرحية وشرعت تغنى احدى اغنيات رشا الخضرى ، فغنى الجميع معها ، ثم رددوا وكرروا ، فاضطرت رشا الى الاندماج معهم فى مرح جميل يغفر للأغنيـــة ابتذال معانيها وعدم أصالة لحنها ، وصــوتها رغم ضعف امكانياته حزين ملء بالشجن المبكى · فى الحقيقة استغربت جدا ان يكون الميكرفون هو الآخر يقلل من حلاوة هـــذا الشجن المبحوح ؟ أتراه عجز حقــا أم فضــح عيــوب صوتها فضاعت نبرته الجميلة ؟ أتراها تكون مجرد مغنية خصوصية تغنى لواحد بعينــه فقط ؟ · لكننى عبرت عن رضائى قائلا : « ما شاء الله ·· ايـــه الحلاوة دى » · وقالت باهى : « على فكرة يا مدام رشا · الاستاذ مأمون مكانش معجب بصوتك ·· من محاسن الحفله أنها كسبت صوت » فكأنما ألقت فى الجو صاعقة ، لكن نكته كسب الصوت سرعان ما فجرت ضحكة كبيرة ··

وهنا نظرت رشا الخضرى فى عينى نظرة ثاقبـــة كـــادت تصرعنى ، نظرة توحى كأننى أعرفها من قبل كأننى تلقيتهـــا من قبل كأن لغة مشتركة تقوم من قديم بينى وبين هاتين العينين ، انهما على التحديد عينى أمى أنا بلا زيادة ولا نقصان سرقتهما هذه الفنانة المتبرجة المبتـــذلة · سلطت عينى فى عينها كأننى أبحث فيهما عن شىء يخصنى ، فأصطدمت بنفس هذه النظرة المرهقـــة التى كثيرا ما وجهتها أمى لى فى لحظات الشعور بالمأساة · ثم اننى تذكرت الشبه المزعوم بينى وبينها فوجدته فى العينين أكثر وأعمق وأشد رهبة ·· فعلا ان لهؤلاء جميعا الحق فى الفرجة على بدهشـــة

للمقارنة بينى وبينها · اقول الحق أننى نظرت نحو الآنسة راندا باسما وقلت لها : « فعلا يا آنسة راندا ·· معاكى حق ·· أنا لو مطرحك مش هاصدق غير كده » · فابتسمت راندا وهزت رأسها · وكنت أريد ان اضيف قائلا لها ان التشابه الحق ليس بينى وبين الفنانة رشا الخضرى ·· بل بينها هى وبين أمى ، نفس النظـرة نفس البروفيل نفس الرقبة ونوع الشعر ونفرة الصـــدر والقوام وكل شىء فى جسدها كأنها نسخة طبق الاصل منها ·· أكـــاد أظنها هى لولا تأكدى من موتها ··

ثم اذا بى أميل نحو الفنانة رشا الخضرى قائلا فى صـــدق وصراحة : « أمال حضرتك منين يا مدام رشا ؟ » · وهنـــا انتبه الجميع كأن على رؤوسهم الجراد · وقالت الفنانة رشا أنها ــ كما سمعت من أمها ــ ليست من الجنس الازرقى انما هى من أب تركى وأم حبشية أما هى نفسها فقد ولدت فى احدى قرى الصعيد الاعلى لنهر الأزرق فاعتبرت نفسها أزرقية خاصة أن أباها وأمها مدفونان فى قريتهم بالصعيد الاعلى لنهر الازرق · فهز الجميـــع رؤوسهم موافقين ، وقال الولد الذى تبادل معى المكان : « وحضرتك منين يا أستاذ مأمون » · الحقيقة خفت لبرهة ، فلو قلت اننى من قرية كذا بالوجه البحرى لعرف الجميع اننى بلديات عبد الجبار بيك وتهتز صورتى فأصبح واحـدا يلتمس القربى من عبد الجبار · لكننى اخترت اسم البندر الذى تتبعه قريتى وزعمت اننى منه هو نفسه · فلم يعلق على ذلك أحد ··

انتبهت فجأة على صينية كبيرة من الفضـــة المزخرفة مطروحة أمام رشا تتعاقب فوقها الهدايا من مظاريف بها أوراق نقد الى بعض التحف الثمينة · وراقبتها رشا الخضرى فانفرجت عنها أزمة البرد وانطلق صوتها مغنيا كما لم يغن من قبل ، وبدت فى اعلى درجات المرح البرىء الضاحك ··

وبعد أن استراحت قليلا وشربت عصير الفراولة باللبن ، اعتدلت « فهيمه » أم « راندا » قائلة :

- « شوفي بقي يا ست رشا .. احنا بصراحة بنشكرك قوى قوى ونتمنى نخدمك فى الافراح .. بس احنا بقى .. لينا خدمه عندك » ..

رفعت رشا عينيها عن صينية الهدايا قائلة فى ترحيب مبتذل رخيص :

- « قوى قوى .. دانا خدامتك .. انتوا تأمروا بس » .

وقالت فهيمه هانم : « أصل الولد ابن سلفى .. ما شاء الله كان فى أوروبا بيدرس مزيكه .. ومتخرج من معهد الموسيقى العربية .. وله نشاط .. ونفسه يسمعك لحن من تلحينه .. اذا عجبك نبقه نشوف اذا كان ممكن يعنى تغنيه وتشجعيه واحنا عنينا لاى تكاليف يتكلفها » . وقالت رشا الخضرى والكذب واضح فى عينيها : « ليه لا .. دانا حتى ما بيهمنيش الاسماء .. كان الأول .. دلوقت ممكن اغنى للمحنين شبان .. بس على شرط يكون لحن شيك ويخيش » . وهنا تقدم الولد المذكور ، فاذا به قصير القامة أكرش دميم الوجه منساب الشعر فى اهمال متقن على جبهته . بيده عود ثمين . ونظر لى مستأذنا فى احتلال مكانى فلم أجد مفرا من التنحى عنه . وقالت راندا : « تعالى مكانى » ، وذهبت هى الى جوار أمها وجلست أنا مكانها فغصت فى لهب عظيم .

احتل الشاب بعوده مكانى . وقال وهو يرفع فخده على الكرسى ليريح العود فوقه ، أنه لم يتفرنج فى ألحانه ولم يتأثر بالاشكال الاجنبية انما هو سيأخذ الاعمال الفولكلورية العتيقة ويجلوها ويوزعها بمقتضيات لحنية جديدة . وقال كذلك أنه تطبيقا لوجهة نظره سوف يسمعها هذا اللحن الذى أخذه من أعمق اعماق التربة الازرقية فى قراها البعيدة وخلق منه عملا فنيا رشيقا

وجميلا ومضمون النجاح . قالت رشا وقلنا جميعا : « نسمع » . فأخـــذ صاحبنا يد وزن أوتاره ثم يبدأ في عزف مقــدمة موسيقية مبهجة جدا وجميلة جدا اذ هي مألوفة لى جدا ، بدليل اننى أترنم مع ايقاعها دون ان استطيع ترجمته الى كـــلام مع ان كلامه كامن في ذاكرتى ، ثم اذا بالملحن يذهلنى ويخدر اعصابى بأول كلمـــة نطق بها ، اذ راح لفرط ذهولى يردد :

« رايحه فين يا بسيمـــــه رايحه أزور عبد الجبــــار »
« دارك فين يا بسيمـــــه دارى دار عبد الجبــــار »
« رايحـــه تزورى ولا تحطى رقبة أهلك للجــــــزار »
« ولا حتيجى وجايبه العــار ؟ رايحه فين رايحـــــه فين »

صفق كل الحاضرين فى حماس شديد الا أنا ، حتى رشـــا الخضرى صفقت هى الاخرى من فرط الاعجاب ، وقالت : « تأليف مين الكلام الحلو ده ؟ » . فقال الملحن : « تأليف واحد غلبـــان كده بيتردد على معهد الموسيقى .. يظهر أنه كان حلاق ولا مانى عارف بس موهوب وطيب » . قالت رشا : « اسمه ايـــه » قـــال الملحن : « اسمه حسن أبو غلفه » . ضحكت قائلة : « عجايب .. دا واد بيعرف يألف اهـــه .. دأنا ماكنتش مقتنعة بيه » . فاستأنف الملحن عزف المقدمة من جديد وما كاد يدخل فى الغناء حتى كانت

رشا قد بدأت تردد معه اللحن كلمة كلمة حرفا حرفا ، ودار هو والجميع يغنون معها ثم يستخف بهم الطرب فيرددون : يا عينى .. يا سلام . وفى المرة الثالثة رددت رشا اللحن وحدها وهو يصاحبها بالعود . ثم قالت ان اللحن جميل جدا وانها سوف تظل طـــول عمرها تغنيه لنفسها اعجابا به ، لكنه ليس من لونها ، أنها لاتريد تقديم هذا النـــوع الريفى المحض لكيلا تدعى احدى المطربات الأقل منها مستوى انها تقلدها فى لونها ، الا أنها ــ هكذا قالت وهى تتهيأ للنهوض ــ سوف يسعدها أن تتلقى ألحانا جديدة من سيادته

وأنها سـوف يسـعدها أن تغنى له لحنا فى القريب . ووقفت ، ووقف الجميـع وسلمت على بعضـهم وتجاهلتنى ثم مضـت ، فاذا بالآنسة باهى تغطى الصينية الفضية بايشارب جميل فاخر وتمضى به وراء رشا . ثم اذا برشا تتوقف بعد خطـوة وترتد عائدة الى قائلة فى اعتذار ساحر : « آسفة .. ما سلمتش عليك .. أنـا سعيدة قوى الليلة دى .. حاكون سعيدة أكثر لو سمعتنى صوتك فى التليفون .. أهلا وسهلا » . ثم سلمت على بحرارة فأحسست ان قلبى كله يستكين فى يدها بهدوء . لكننى نظرت فى حاجبيها الرفيعين المتأهبين للتراقص فى فجور فعاودنى الاحساس بشىء من الاشمئزاز وسحبت يدى مؤكدا لصاحبتها كذبا اننى سوف أتصل بها بلا شـك ..

وكانت « باهى » قد انتهزت الفرصة وهبطت بالهدية الى عربة رشا وضعتها فيها وأغلقت الباب . ثم ان رشا غابت وودعوها فى حفاوة . وقلت لراندا اننى يجب أن أنصرف فهل تأذن لى ؟ قالت نعـم ، ثم مالت على أمها وتهامست ببعض حـوار ، ثم عادت الى قائلة : « تفضل » . فقمت وسلمت على السيدة فهيمة وعلى الباقين ومضيت وراندا فى أثرى ، ثم تقدمتنى هى الى السيارة .

★★★

كنت مدووشا جـدا من كثرة ما دار ، فلم أنبس بحرف . وفوجئت بأن السيارة تقف بى عند العمارة ، وبأننى أنزل شاكرا ومع السلامة وتصبحى على خير . ثم تقدمت وفتحت شقتى وارتميت على السرير كأننى أغوص فى بحر من رغوة الصابون ذى الرائحة الجميلة ، فها أنذا قد استرحت من حمل ثقيل ، هاهى ذى ــ راندا قد تأكدت اننى لست من عائلة رشا الخضرى ولا أمت اليها بأى سبب ، فماذا يكون مصير هذه العلاقة ؟ . وقلت ان الأمر الآن يسمح لى بقبول السكنى فى هذه الشقة ، وأما راندا فان مسار كل منا فى الحياة سوف يتباعد عن الآخر دون ريب ، ثم نمت . وظللت

نائما عدة أسابيع لا أحتمل التفكير فى هذا الموضوع · ولم تتصل بى الآنسة راندا ولم أتصل بها ·

***

ثم ان الدراسة قد بدأت من جديد وصرت ألتقى براندا كل يوم تقريبا فنكتفي بتبادل التحية الباسمة الودودة وينصرف كل منا الى حال سبيله · وكان الله قد أكرمنى بأعمال يتجمع من ورائها ايجار ومصروف لا بأس به يسند المرتب الحكومى · وكانت الشقة قد أكسبتنى رونقا وأبهة بين الطلاب · وأصبحت شقتى لا تخلو على الدوام من زملاء أصدقاء وأثرياء وآخرين فقراء ولكنهم جدعان · وأصبحنا نبيت فى ندوة لنصـــحو على ندوة ، ويتبارى الشعراء والقصاصون فى قراءة أشعار لهم وقصص ، وينبرى لها نقاد من بيننا متعرضين لها برءوس موضوعات كبيرة وقضايا مهولة ··

الى أن ظهر فى شقتى هذه من يدير شرائط سيف الماوردى ويدعو لها ويكتب دراســـات عنها · فداخلتنى فرحة كبيرة وقلت للتخلص منهم ان سيف الماوردى هذا هو خالى ولكن من أم أخرى · فقالوا كيف · فقلت متفاخرا : أقسم بالله انه خالى ، واسمه الحقيقى ليس سيف ولا ماوردى ·· اسمه هريدى خليل هريدى » ثم ندمت بعد ذلك على نطقى بالاسم الحقيقى حتى لو كان ذلك لصديق · ثم قالوا : اذن فهيا بنا اليه ·· انهم يحضرون مجلسه جماعات دون أن يكونوا معروفين لبعضهم البعض ، فجماعة تأتى بجماعة وهكذا · لكنهم جميعـــا يأخذون معهم بعض الهدايا من مأكولات ومشروبات وفواكه ، وقد يتركون فى يده بعض الجنيهات مكافأة له على جرأته وموهبته التى سخرها للمعارضة السياسية بواسطة الغناء · قلت لهم وأنا جد آسف اننى لا أعرف مسكنه واننى منذ سنوات طويلة لم أره لظروف خاصة · قال واحد من خلصائى أنه يعرف مسكنه ومستعد لتوصيلنا · قلت اننى مستعد للذهاب معهم اليه لمشاهدته على الأقل · فقال صديقى هذا : ما رأيكم لو دعوناه الى شقتنا هذه

لنحتفل فيها على راحتنا ويكون هو ملكا لنا وحدنا نسجل منه ما نشاء ونكرمه آخر كرم حتى يجود بأحلى ما عنده ؟ " وقال صديق آخر من المشهورين بيننا بالخبث ـ والعجيب انه موهوب ـ ان شرائط سيف الماوردى تدر الآن دخلا عظيما لبعض المحترفين ، وانه آخر من يستفيد من عائدها المادى · قلت : كيف ؟ " · قال لان سيف الماوردى شخص بلا شخصية فى الواقع وانه فوق ذلك جاهل تمام الجهل وليس يعرف من أمور التعامل مع المثقفين أو التجار شيئا ، كما لا يعرف لغاتهم ، وذلك انه قد تعود على تلقى المنح التى يخيل له دائما انها أكثر مما يستحق ، فلم يعد قادرا على شغل نفسه بتنظيم حياته واستثمار مواهبه الرائجة ··

ازدادت دهشتى وقلت لهم أن شرائطه نادرة وغير موجودة فكيف تكون رائجة ؟ · قال الخبيث ان مثل شرائطه تروج فى الخفاء كالمخدرات ، ولذلك فان الشيء الوحيد المتوفر فى البلاد بكثرة هو الشيء الممنوع أو المحرم ، ومن يبيع شرائط سيف يأخذ فوق ثمنها ثمنا آخر ، ثمن كونها ممنوعة ، والمشترى يشعر بفداحة ثمنها فيشعر بعظم أهميتها وخطورتها فيستمع اليها ربما فى السر وحده أو مع أصفياء ، ولا يعيرها والا ضبطت باعتبارها منشورات سياسية تشجع على قذف النظام الأزرقى بالطوب والحجارة بغية هدمه أو تشويهه حتى يصبح آيلا للسقوط · فأضاف الصديق الذى يعرف مسكن سيف ان الحكومة هى التى تشجع على ترويج شرائط سيف الماوردى لأنه يمتص غضب الناس وولعهم بالانتقاد . وان شرائطه متوفرة فى كل مكان لكن معظمها سيء التسجيل . وميزة ان ندعو سيف الماوردى للغناء هنا أن نحصل على تسجيلات نقية صافية لا يشوبها هياج أو لغط · فقال الصديق الخبيث بلهجة ذات معنى ان هذا مطلوب بالفعل لكى يجد المشترون نسخة تستحق الدفع الثمين !! ··

قلت أنا ان الأوساط جميعها يمكن أن يتواجد فيها من يتاجر

بأى شيء غير صالح للتجارة · لكنني أوقن ان الأشياء دائما لا تأخذ وجهها الصحيح أبدا نتيجة لوجود التجار والمقامرين الكبار ، انهم فئة طاغية باغية تحترف المتاجرة ولو بمصائر الشعوب بأكملها ، ولانهم أذكياء وأقوياء بشكل ما فانهم ينجحون فى تغيير وجه الأشياء بألعاب جهنمية ، وعلينا نحن يا من نؤمن بدور الثقافة أن نتبصر أمـر هؤلاء قبل كل شيء ونبصر الناس بهم · فلم يعلق أحد · فقلت : هل تدهشون اذا قلت لكم اننى لم أعد معجبا بأغنيات سيف الماوردى ؟ · قالوا في تشكك : ألهذا لم تتصل به من قبل ؟ ·

قلت : ربما ولكننى لم أعد معجبا بأغانيه ولا بشخصيته نفسها ، لقد استمعت الى الشرائط التى عرضت علينا الآن ، والى غيرها فى مناسبات سابقة كثيرة جدا ، وآخر كلام أستطيع أن أقوله بشأن هذه الأغانى انها لم تعد تبهرنى كما كانت ، قد أجدنى منساقا الى ترديد بعض أنغامها ، ولكن من قبيل استحلاء النغم أو الايقاع ، وهذه نصوص متناثرة كما نعلم ، بعضها ردود فعل لعصر سابق ، وبعضها تعبير عن العصر الحالى ، فلا نجد سوى كلاما مزبلحا زبلحة شعبية في صورة فنية لطيفة ، وهذه الزبلحة ـ أى تشويه الجميل المتسق بشيء دخيل اقتضته الضرورة ـ لها أسماء كثيرة فى قاموسنا العامى اذا أردنا ترجمة غير حرفية أو مدلولا قريبا الى الذهن ، قل انها من الردح يجوز ، نوعا من التريقة يجوز ، نوعا من تلعيب الحواجب وتطليع اللسان يجوز ، انه غناء الزعر المنسحقين المنحطين غناء من تحت عقب الباب ، غناء الخدم الذين يستنجدون بأى قوة، يعرفون مقدما أنها لن تهب ـ اذا هبت ـ لنجدتهم بل للتسـيد عليهم ، فليس فى الأرض قوة تهب لنجدة المظلومين أبدا أبدا أبدا ، هذه حقيقة ينبغى أن تكون فى وضوح الشمس يستظل بها الكافة ، ان العواء والصراخ حتى وهو يتحول الى غناء كهذا الغناء يصبح اغراء للقوى الخارجية المتحفزة ، يصبح جذبا ، يصبح هو الصوت الشجى الذى يناديها قائلا : تعالى واركبينى وطوحى ساقيك على مؤخرة أبائى وأجدادى وأمهاتى ·· ما هكذا يكون الغناء أبدا ··

ان ما بهرنى فيه سابقا هو اكتشافه ان للغناء ثمة دور حاسم يسمو به عن الترفيه الرخيص ·· لكن قدرة المؤلف والمغنى وقفت عند هذا الحد فحسب ولم تتقدم ، ولانهما ليس وراءهما ثقافة عظيمة توارى الدور فان تيار الاعجاب ــ وهو تلقائى دهمائى خشن ــ جرفها بلذة فائقة الى التنفيس عما فى صدور الجماهير من آهات مكبوته ، مثلهما كمثل الخبير بمواضع الأكلان فى جسدك فيروح يهرش لك فيها وأنت تتلذذ ، وهو يهرش وأنت تتلذذ ، وسوف ترعى فى جسدك البثور والدمامل والغرغرينات ويؤوب جســدك الى جده أيوب من جديد ولكن بدون سيادة أو عظمة · صحيح ان الأغنية الشعبية فى تاريخ الشــعب الأزرقى كانت فى معظمها نوعا من المعارضة أو الاحتجاج ، ولكنها كانت قبل هذا وفوق هذا تحمل مضمونا انسانيا محسوما وقويا ، ولم تكن تستهدف أشخاصا بعينهم للتنديد بهم أو فضحهم ·· وانى لاحتقر دور كل هذه الأغنيات الماوردية الى حد الازدراء · وأعتبر أن مثقفى بنى الأزرق مجرد دهماء فى حقل الثقافة ، فرغم أسمائهم الكبيرة وسمعتهم الرنانة يشجعون ظواهر ومعتقدات وأوضاع وأشياء من شأنها دائما تثبيت الشىء وترسيخه بل وخلق وضع له دون أن تدرى ، أو لعلها تدرى فيحق لنا حينئذ أن نعتبرهم جميعا خونة للشــعب ولأنفســهم ·· لكل هذا فأنا ــ اسمحوا لى ــ ضــد كل فن أو أدب أو كلمة تساهم فى اشاعة مناخ الهزيمة والضعف ، ضد كل فن أو أدب يساهم فى تجهيل الناس أو خداعهم ، وضد ــ بالأحرى ــ الأدب والفن الذى ينتجه المذهبيون من شــيوعيين ودينيين وعقائديين وما الى ذلك وأمقت الذين ينتجونه لأنهم سخروا مواهبهم فى توســيع رقعة التحيز لأفكار بعينها أو عقائد بعينها أو عصــور بعينها أى أنهم أجرموا ليس فقط فى حق أنفســهم بالحكم عليها بالانحصــار والتقوقع والتخلف ، بل فى حــق النــاس الذين تأثروا بفنونهم وآدابهم فاستضاءت فترات وتعتمت فترات ، وسادت أفكار وماتت أفكار ، وخطر ذلك انه يؤدى الى تجزىء الانسان وتمزيقه ·

وكانت هذه الخطبة الانشائية التى تخلو فى نظرى من كل معنى قد خلبت لب الأصدقاء فعرفت أنهم غلابة الى حد ما ، ليس لمحدودية ثقافتهم فحسب بل لأن نصف مواهبهم تضيع فى الكيد بعضهم لبعض ، وافتعال فصول ونوادر شيطانية للتسفيه من قيمة بعضهم بعض ومن أصل بعضهم بعض ، مجموعة أحس عن يقين رغم اجتماعنا فى شقتى اننا لم ولن نجتمع فى يوم من الأيام على شىء حقيقى .. أفليس مثلهم الأعلى أغنيات على هذه الشرائط كتبت ولحنت خصيصا لشتم واحد واتهامه بالخيانة ، أليس طريفا وفوريا انهم يبالغون فى الاعجاب بهذه الشرائط وما عليها ، دون أن يلاحظوا ان أسماء بعض الشخصيات اللامعة وردت فى بعض الأغانى باعتبارها المثل الأعلى فى الثورية ، ووردت فى أغنيات أخرى حديثة باعتبارها شخصيات زرية خائنة وضيعة ؟ فاذا كانت الأغنية الأولى قد أعطت الدليل المقنع على ثورية هذا الشخص فى حين قدمت الأغنية الثانية الدليل المقنع على خيانته وانحطاطه فأين الحقيقة تكون ؟ ان سلاح الفن لا يصلح الا للتمجيد فحسب ، ولهذا فالواجب أن نختار قيما نجسدها ونصنع لها تمثالا ، وليست قيمة الفنان فى انه يعرف كيف يتفنن ، انما قيمته فى مدى وعيه بخطورة السلاح الذى وهبه الله .

ان مأساة جيلنا انه لم يجد له اخوة كبار يؤنسون وحشته ويبادلونه بث الأسرار والمعارف ، فوجئنا بأن علينا أن نتصل رأسا بالآلهة ، المسيطرين الكبار من جيل الخمسينات . فكيف نستطيع الوصول اليهم أصلا وهم فى عليائهم بله أن نقترب منهم ، انهم آباء فرضوا علينا فرضا وليس ثمة من معابر أو قناطر بيننا وبينهم حتى سيف الماوردى يعتبر نفسه آلها متواضعا يسير بين البشر . وأكبر أثر تركه فينا صراع جيل الخمسينات مع جيل الستينات هو أن كثرت بيننا عيوبهم المتورمة ، التحمس بلا ثورية حقيقية وبلا مضمون سياسى حقيقى وبلا مبادىء حقيقية ، القسوة والعنف فى معاملة بعضهم لبعض ..

ثم أنهيت كلامى قائلا : اننى مع ذلك موافق على دعوة خالى سيف الماوردى الى شـــقتى ، والتعرف عليه ان أمكن ، اذ اننى – تقريبا – لم أعد أتذكر شكله الا من خلال حكاياهم عنه فى بلدتنا يوم زارها خلسة فى أواسط الستينات ٠٠

ويبدو أننى قد أثرت فضولهم ، اذ رأيتهم جميعا يهتفون برغبة الذهاب اليه فى نفس الليلة ، ليس برغبة توجيه الدعوة اليه ، بل بحب استطلاع مما يمكن أن يحدث بيننا لحظة اللقاء ٠٠

★★★

عاصمة بنى الأزرق تحمل ملامح كثيرة من قاهرة المعز . فهذه الأخيرة هى الأعرق والأقوم ٠ لكن المساوى والمهاوى التى يحفل بها النموذج المقلد – بفتح اللام – لا يتحمل نتيجتها الباهظة فى العادة الا النموذج المقلد – بكسر اللام ، ولهذا فان الأحياء المملوكية منتشرة جدا فى عاصمة بنى الأزرق ، مجرد ديكور قديم . فاذا كانت قاهرة المعز هى التى رأت هذا التاريخ وعاشته أحداثا واقعة، فان عاصمة بنى الأزرق تعيش التاريخ تاريخا تمعن فى تقليده واعادة تمثيله من جديد فترة وراء فترة وبأمانة الراغبين فى الابقاء على هذا التاريخ العظيم حيا قائما ٠٠

وهكذا دخلت مع الأصدقاء حيا مملوكيا قرأت أسماء الكثير من لافتاته الزرقاء فى كتب التاريخ ، الحى حافل بالباعة والبضائع والأموال على الأرض والأرصفة متناثرة ٠ عن يميننا ميدان المشهد الأزرقى ٠ وعن يسارنا حى الكرابجية الذى قيل انه كان يستوطنه جماعة تحترف صنع الكرابيج التى يحضر لشرائها سياح من جميع أنحاء البلاد ٠٠

دخلنا فى حارة أفضت بنا الى حارة ثم عطفة ثم حودة ثم اختراق بوابات ودهاليز ، حتى صرنا فى حارة طويلة عريضة يخيم على جوها ارهاب خفى غريب ، والناس تتحرش ببعضها ، والمطاوى

مشرعة على الدوام ، وثمة ترابيزات متناثرة عليها قطع الحشيش بأصنافه والأفيون بأنواعه . فذعرت ، وهمسوا فى أذنى قائلين أننا فى حى تجارة الحشيش ومركزها الرئيسى فى البلاد ، وان علينا أن نسير مؤدبين وفى حالنا درءا للحكومة أو للبلطجية . وهكذا أغلقنـــا الآذان عن كل الدعوات التى وجهت الينا ونحن سائرون قائلة : « اتفرج يابيه .. عندى حشيش طازة حلو .. شوف واتفرج .. زيت ما اتخلطش لسه .. اتفضل يابيه .. احنا عندنا مبدأ ترجيع الحشـــيش اللى ما يعجبكش حتى بعد ما تشربه كمان » . فلا نلتفت الى أحد أى التفات ، وان كانت نوازعنا قد تمنت أن يحصل كل منا على قطعة . وحين مال الولد الذى يعرف المســـكن قائلا ان علينا – على فكرة – بشراء قطعة حشـــيش كبيرة نحيى بها سيف الماوردى ، وجد ترحيبا عظيما واستعدادا لدفع الفلوس فى الحال . ووجدنا ان جميع الناس تتوقف وتتفرج وتقلب وتختار وتشترى بكل بساطة . وقفنا نحن أيضا وتفرجنا واشترينا ربع أوقية وقطعة أفيون صـــغيرة لزوم السهر بثلاثين جنيه . ثم رحبنا جميعا – ولأول مرة – أن تظل هذه الأمانة فى حوزة الصديق ليقدمها حين الخروج من منطقة الخطر ..

غير انه دخل بنا فى حارة جانبية قذرة جدا . تنتهى نظافتها عند بيت على زاوية لتبدأ فى الحودة بيوت عبارة عن هياكل بنائية فقط ، بعضها يميل على بعض ويتمرد . بدأت أفقد الثقة فى أن يكون ثمة بشر ها هنا يسكنون ، اذ هبطنا صحن دار مظلمة تماما وشرعنـــا فى صعود سلم متآكل قمىء كئيب ، وصـــديقى حامل الحشيش يصيح بنا فى ذعر : حاسب .. دماغك .. فيه بسطة فوقك .. حنحود .. يمين .. شمال على طول .. يمين تانى .. أيوه .. اطلع .. شمال وانزل .. أيوه .. وطى راسك شوية » . وهكذا حتى اصطدمت رءوسنا عشرات المـرات كأننا مجمـوعة من

الديدان تزحف بين فراغات الصخور الجوفية . فلما انفتح أمام طرقاتنا باب قميء نظرنا فى الضوء العليل المنبعث من لمبة جاز نمرة خمسة فى الحجرة التى تواجهنا على بعد خطوتين فى ممر تمشى فيه بجنبك فقط ، وعشرات من الأفندية المثقفين والطلاب والصحفيين يجلسون فوق بعضهم كيفما اتفق ، اذ لا أثاث فى الحجرة سوى سرير حديدى سفرى مفروش بطبقة من العرق المتجلد المتصلب ، يجلس فوقه سيف الماوردى بعوده وبجواره المؤلف الحلو ، ومجموعة من الرجال والنساء ، وتناثر الباقون على الأرض فوق جرائد مفروشة ودكك خشبية خشنة ..

بهرت . لا يمكن أن يكون هذا سيف الماوردى . لقد سمعت أنه يعيش فى شقة لطيفة عيشة نظيفة كريمة ، ولم أكن أتصور أبدا أن يعيش هـذه العيشـة المنحطة . وكدت أبـكى من الشـعور بالانسحاق . وقال صديقى حامل الحشيش ان سيف الماوردى قد طرد من جميع الشقق التى اتسـعت له فيما قبل لأسباب متعددة . وكانت الحـكومة قد طار لبها مرارا وسجنته مرارا ، وضيقت عليه خناق الزوار ، فصار لا يجد حتى قوت يومه ، وهذه الحجرة التى يقيم فيها ليست حجرته انما هى حجرة ولد من هذه الحارة ورثها عن أمه وليس له شغلة ولا مشغلة فى الأصل سوى السمسرة بريزة أو شلن من وراء ربع قرش يشتريه لك ، ولما جاء ناس يسألون عن حجرة لهذا الرجل الغلبان سيف تلقفه لعله يعيش من ورائه ، وبالفعل فوجىء بأن سيف الماوردى هذا مهم وله جمهور غفير يجىء بالخير ، ولكنه يجىء أيضـا بالحكومة فى كل لحظة لتأخذهم الى الحبس فالمعتقل شـهورا .. على أن الزوار سرعان ما مسحوا مخ الولد وأوهموه أنه فنان حقيقى ذو قضية لمجرد انه رسم أمامهم زخرفة يدارى بها شكل دولاب الحائط القبيح ، فاذا به قد رسم لوحة كما قالوا ، واذا بهم ينشرونها فى الصحف ، ويتكلمون عنه باعتباره فنان ، واذا به يطلق العنان لخياله الأهوج

المعوق فيرسم تخاريف لا معنى لها ولكنهم يعاملونها باحترام هازىء ويشترونها منه ببعض نقود .. فأصبح يتقبل الاعتقال ويسعى اليه سعيدا ، وصار مرافقا لسيف الماوردى أينما ذهب ، وعمرت حقيبته بالبقشيشات وعمر ذهنه بالألفاظ والتعابير البراقة التى يرددها بلا وعى أو قصد أو ارادة ..

حينئذ قلت للصديق اذ روى لى ، اننى أرجوه ألا يجىء بسيرة قرابتى لسيف حتى لا يعرضه ذلك للحرج أمامى .. نعم لست أحب أن يعرف سيف اننى ابن شقيقته الآن لأنه لا يود أن أراه فى مثل هذه الحالة المنحطة . وأنذرت صديقى ان هو قدمنى بهذا الاعتبار فسوف أكذبه . فوعد الصديق بعدم فتح هذه السيرة .

★★★

أخذنا نعد الترتيبات اللازمة لزيارة سيف الماوردى لشقتى . كنت أحس بخوف عميق لمجرد انتشار الخبر بين الزملاء . حتى ذلك الشاب الذى كان قد علق على اسم بهية مقلدا محمد العزبى ، التقيت به فاذا هو شقيق بهية واذا هو ملم بالخبر . ودعوته على الحضور ، وقلت له ان سيف الماوردى سوف يحضر الى شقتى ليس باعتباره المغنى المدعو للغناء بل لانه أحد أقاربى سيجىء لزيارتى فحسب . ودعانى هو على شرب « حاجة ساقعة » فى مكان ما فرحبت على الفور ..

انطلق بسيارته الى مكان بعيد ساحر فى سفح احدى الهضاب الجبلية الجميلة . وأخرج من حقيبة السيارة كراسى حديدية كالأسرة مطبقة كالحقيبة وتنفرد بفرش من المشمع المتين . كما أخرج أيضا ثلاجة صغيرة وزجاجة ويسكى وبعض المأكولات المعلبة . شربنا وأكلنا واستمعنا الى الموسيقى الأجنبية بل ونسينا الغرض من اللقاء ان كان ثمة غرض آخر . وواقع الأمر اننى خلال اللقاء حصلت على اجابات شافية لعديد من الأسئلة التى كانت تدور فى ذهنى . أهمها ما ثرثر به حول حفل عيد الميلاد .. يا .. كان ولدا

لطيفا حقا ، ولو ان شخصيتي فارغة فراغ شخصيته لأصبح من أعز أصدقائي . لقد سب الحفل وأصحابه وكل ما جرى فيه . حيث قد كلفهم الحفل مبالغ طائلة حرمتهم من مصروف جانبي كثير. والسبب أمه ، فهي صديقة لأم راندا ، وهي تسعى دائما لكسب صلة هذه السيدة باستمرار معتقدة ان أخاها عبد الجبار بماله من سلطات داهمة يعتبر ثروة اضافية بالنسبة لهم . ولان أمه فوق ذلك تعرف الفنـــانة رشا الخضرى اذ هي جارة مباشرة لهم وتعرف عنها كثيرا من المضايقات ويحدث بينهما الكثير من المجاملات لهذا فقد تلقت آمه وعدا من أم فهيمة بالحضور اذا حضرت رشا الخضرى ، وهذا معناه أن ينفق أبوه كل هذه المبالغ ويدفع لكل هؤلاء المطربين والراقصات لكي يكون الحفـــل مشرفا يليق بحضـــور رجل كعبد الجبار . قلت من فزع : «هل حضر عبدالجبار الى الحفل ؟ ». قال الولد اللطيف : « نعم .. أكنت نائما يومها ؟ ». ثم أضاف وهو يزغدني بكأس :

ـ « لقد حضر وحضر .. وجلس برهة انهـــار فيها وفقد توازنه وصار يضحك ويدمع .. ويفعل حركات كالأطفال الأشقياء .. كل ذلك ـ تصور ـ بمجرد رؤيته وجه رشا الخضرى من بعيد وعبر فتحة بين ستارتين .. فما بالك لو جالسها ورأها كاملة ؟ .. المسكين تلقى الأمر بالانصراف من همسة جاءت بها راندا .. فمضى زاعما ان موعدا مع ضيف هام قد حان .. لكنه قبل أن ينهض .. كانت رسالة منه قد أعطيت للفنانة رشا الخضرى وبقية المشاركين في الحفل .. أما الآخرون فانه أعطاهم نقوطهم عينا بعين عبر أمناء .. أما رسالة رشا الخضرى فقد أخذتها أنا لتوصيلها وكانت .. أتدرى كم ؟ .. عشرة آلاف جنيه .. باعتبارى ابن الأسرة الأمين فانه قد اصطفاني في السر على جنب وأوصاني بأن أختلس لحظة انفراد بالفنانة رشا الخضرى وأعكمها هذا المبلغ كهدية خاصة من عبد الجبار بك .. من كثرة الفرح شهقت يا أخي يا مأمون .. قال لى سيادته وهو يسلمني اللفة الكبيرة فى جرنان استخرجه من

شنطة السيارة : ماتنساش ياليم ·· اوعى تنسى تقول لها تتصل بى ·· قلت له : حاضر يا أونكل ·· اطمئن يا أونكل ·· تأبطت اللفة ·· اختفيت بها فى حجرتى الخاصة ·· فككتها سقط منها خطاب عليه عدد من النمر السرية لتليفوناته الخفية ·· الذى جعلنى أفتح اللفة أصلا يجعلنى أفتح الخطاب ·· فلما قرأته قررت اختلاس الأمانة كلها نكاية فيه ·· لكننى تنازلت عن بضـــع مئات منها وضعتها فى نفس اللفة الكبيرة ثم دخلت فوضعتها على الصينية بين الهدايا وهمست فى أذن رشا همسة مضغمة لا تقول أى شىء محدد ·· فهزت رأسها وقالت شكرا ·· وبهذا قد أشهدت الجميع على أننى سلمت لرشا لفة جرنان كبيرة واننى همست باسم صاحب الهدية الذى عرف الحاضرون بالايحاء انها من البيك الكبير ·· فنظروا الى فهيمة وراندا نظرة ذات معنى ثم ابتسموا » ··

جرعت الكأس كله كأننى سكير أصيل ، وجذبت « ليم » من ذراعه قائلا :

ــ « انتظر ياليم ·· أنت قلت الآن انك فتحت الخطاب ·· فما الذى كان فيه ·· ان ما فيه لهام جدا بالنسبة لى ·· نعم قل لى بربك ماذا كان فى الخطاب ؟ » ··

فشوح « ليم » بذراعه الرفيعة واكتس وجهه الدقيق المسمسم حمرة قانية ، ثم قال :

ــ « مراهقة عجوز متهتكه لا أكثر ولا أقل » ··

قلت بحماس يقرب من الغضب :

ــ « ماذا قال بالتحديد ·· بالحرف الواحد ان أمكن ؟ » ··

تفكر « ليم » بعض الوقت · ثم صب لنفسه ملحق كأس جرعه وأشعل ســـيجارة · وكان مضطجعا على الأرض ببنطلونه الجينز الفاخر والقميص على اللحم ، وقال كأنه عجوز حكيم يدلى بأوصاف طفل تائه :

ـ « كلام من قبيل ياحبة القلب ، يا لؤلؤة العين ، يا جوهرة الفؤاد ٠٠ أهديك أغنية أنا من ضيع فى الأوهام عمره ٠٠ اننى أنتظر لقاءك على أحر من الجمر ٠٠ فبادرى بالاتصال بى ٠٠ سأنقلك الى دنيا من الأسرار لو قبلت الارتباط بى ٠٠ أقيم لك شقة فى أمريكا ، فى سويسرا ، فى القمر لو أردت ٠٠٠ الخ ٠٠ الخ » ٠٠

ثم شد نفسا عميقا من السيجارة فهمت منه انه فى غاية الضيق من هذه الأسرة وهذه العلاقات غير الطبيعية وهؤلاء البشر المرضى بأمراض يصعب علاجها فقلت له :

ـ وهل أعطيتها الخطاب يا ليم ؟

قال ملتفتا الى فى استنكار شديد :

ـ « لا طبعا » ٠٠

ثم أضاف مبررا غضبه :

ـ« لقد كنت أتحرج من توصيل الأمانة لشبهة أن يكون فيها جانبا من القوادة ٠٠ فماذا يكون موقفى وقد تأكدت من الخطاب ؟ ان دورى هو القواد لا أزيد ولا أقل ٠٠ لقد مزقت الخطاب طبعا ـ انهم ناس رخاص ياعم مأمون ٠٠ فى يدهم الأموال كأنها الجبال ٠٠ ولا مانع لديهم من دفعها كلها مقابل ارضاء رغبة رخيصة منحطة ٠٠ عليهم اللعنة » ٠٠

يومذاك شعرت ان « ليم » ، أو عبد الحليم ـ هو أصدق نموذج يمكن أن تخلفه بيئة كهذه ، وانه يمكن أن يكون صديق فكاهة أتفرج من خلاله على أسوأ ما سوف يراه وادى الأزرق بعد ذلك من أجيال ٠ وكنت أهدف من وراء تلبيتى لدعواه أن يدعو أخته باهى وصديقتهما « راندا » لتشريفى بالزيارة فى شقتى ، للاستفادة بنفوذ راندا اذا ما حدثت أشياء غير سارة ٠٠ ولكننى بعد لقائى ذاك بليم قررت الا أدعوهم الى شىء على الاطلاق ٠

★ ★ ★

اكتظت الشقة عن آخرها بمجموعة سيف الماوردى وحدها ،
القادمين معه من أتباع وعشاق وحامل عود ونافخ نار وحامل جوزة وحامل حشيش . قل ان مدخل العمارة كله قد انتهك تقريبا وامتلأ بالكراسى الاضافية المستعارة من البواب على مضض . وبقى باب الشقة مفتوحا . ثم لم يعجبنى ذلك المشهد فاعتذرت لصاحب العمارة وللبواب وزعمت انه حفل عيد ميلادى وكل سنة وهو طيب والعقبى للأنجال ، ففتل شاربه من الانبساط وجاء ليجلس معه قليلا على سبيل التحية . فوجد ان الشقة قد انقلبت الى غرزة غريبة تمتلىء بناس من كل لون يتناحرون على الشرب والتوليع ونوع التعميرة ويثيرون ضجيجا فارغا ، والجو يمتلىء بعواصف من الدخان الأزرق الكثيف تحجب الكثير جدا من الملامح والوجوه .. وسيف الماوردى يتقافز فى جلسته مع العود مغنيا والجمع من الحفظة يردد خلفه ويشيع كل ذلك جوا من البهجة المحفوفة بالخطر . ثم أن صراخ الكلمات فى الأغانى صار أوضح من الألحان وأكثر طغيانا فتجسد الخطر . هم يغنون أى نغم ، ولكن عبارات خطيرة تفرقع لاعنة حكاما ومسئولين ومنددة بأوضاع وهكذا ، وأجهزة تسجيل تعمل بلا انقطاع ، لو فرغنا شرائطها لوجدنا غابة من الأصوات البوهيمية تختلط فيها الكلمات بالصخب الطائش بالنكت البذيئة بالتعليقات الجارحة بكركرة الجوزة بكل ما فى اللحظة من تفكك وتدن ..

استأذن صاحب العمارة ومضى لينام . وبعد خروجه بنصف ساعة أو أقل قليلا فوجئنا بطائفة من أمناء الشرطة والضباط يقتحموننا ثم يطوقوننا بحزام حديدى ويتم تفتيشنا بكل غلظة ، حتى البنات الحاضرات تم تفتيشهن ببذاءة وتم تجريحهن عن عمد، وتم التحفظ على أجهزة التسجيل والشرائط والجوزة والحجارة وقطع الحشيش الموجودة . ثم تم شحننا فى عربة البوليس . وفى القسم وجهت لى تهمة مذهلة : « أنت متهم باقتحام شقة الغير واقامة حفل

غير مشروع بها ، تبغى من ورائه التآمر على النظام ومحاولة قلب نظام الحكم » ٠٠

صحت من ذهول :

ــ « كيف يا سعادة البيك ؟ ٠٠ لقد كنت أحتفل بعيد ميلادى فى قلب شقتى ٠٠ وكل هؤلاء الأصدقاء حضروا للتهنأة ٠٠ كونهم بالغوا فى اظهار الفرح « لا يعنى هذا الاتهام » ٠٠.

قال المحقق :

ــ « لقد كذبت فى نقطتين هامتين كذبا صريحا ٠٠ الأولى انك احتفلت هذا اليوم فى حين ان تاريخ ميلادك المدون فى بطـاقتك يرجع الى قبل يوم الاحتفال بشهور طويلة ٠٠ فهل تحتفل بأثر رجعى ؟ ٠٠ النقطة الثانية انك أدعيت انها شقتك » ٠٠

رحت ٠ وقعت من طولى ٠ تجاهلت حكاية تاريخ الميلاد وشبطت فى النقطة الثانية قائلا :

ــ « لست أدعى ٠٠ هى شقتى ٠٠ باسمى » ٠٠

قال المحقق :

ــ « معك عقد ؟ » ٠٠

قلت : « نعم » ٠ قال : « أرنيه » ٠ فبحثت فى جيوبى وذاكرتى ثم حط الذهول على ، اذ تذكرت اننى رميت بالعقد فى سيارة الآنسة راندا ولم أسترده لسذاجتى ٠ فقلت له ببساطة : « آسف ٠٠ العقد مع الآنسة راندا ابنة شقيقه عبد الجبار ٠٠ كنت معها فى سيارتها الخاصة ونسيته فيها » ٠

قال المحقق :

ــ « لا يا أستاذ ٠٠ العقد انت تنازلت عنه فى يوم كذا ٠٠ وتم تمزيقه مع المالك ، واسترد المالك شقته ٠٠ لكنه تركها لك

أياما حتى تدبر شأنك .. ولكنك لم تدبر .. واقتحمت الشقة عنوة وادعيت انك لا زلت تملكها .. ثم انك بكل بجاحة أقمت حفلك فيها .. ثم ان الحفل مشبوه اذ يقوم باحيائه شلة ، من الخارجين على النظام الذين سبق اتهامهم فى عشرات القضايا المشابهة .. ثم ان ما ضبط على الشرائط يثبت ان الحفل كان لغرض واحد فقط هو التشهير بالنظام ورجاله والتنديد بحياتهم الخاصة وتجريحهم بعبارات يعاقب عليها القانون » ..

الحقيقة لم أجد ثمة جدوى من مراجعته فى هذا الكلام . لكننى بكل صدق حكيت له قصة الشقة من أساسها ، واعترفت له اننى ضد كل ما حاولت هذه الشرائط أن تذيعه وضد حتى أسلوب وطريقة اذاعته ، ووقعت بامضائى على اننى برىء حتى من عزومة سيف الماوردى وأن صاحب الدعوة هو أحد أصدقائى واننى قبلت دعوته ورحبت بحضور الماوردى ، واننى رغم كل ذلك لا أكون متهما بشىء ، لأننى لم أتفق مع المغنى على الغناء وان رحبت بغنائه ، ولا على كلام معين يغنيه وان علمت ان غناءه معارض ، فكل واحد له رأيه ويتحمل مسئوليته وطريقة اذاعته . الخ ..

المهم اننى لخبطت لخبطة كبيرة فى كل شىء ، وخلطت من فرط الخوف بين أشياء كثيرة لا جامع بينها ولا رابط . فقد كنت حتى وقت القبض على فى شقتى أتصور ان مسألة ابداء الرأى هذه عمل محترم ، وان المواطنين خاصة المثقفين يعاملون معاملة خاصة حين التعرض لهم ، وان ثمة فرق بينهم وبين المجرمين ، اذ هم على الأقل أصحاب رأى ، أى على أقل الأقل يعرفون الحد الأدنى من حقوقهم الدستورية تجاه الدولة ، فضلا عن انهم أهل فضيلة ونزاهة .. كذلك كنت أظن ان ما يشاع عن معاملة المسجونين السياسيين وما قد قرأته من شهادات كتبها خريجو سجون ما قبل ثورة بشنس ـ فالثورات عندنا أحيانا تتعاقب بتعاقب الشهور ـ ان كل ذلك محض افتراء مبالغ فيه بهدف الاساءة الى النظام الذى سجنهم

.. فاذا بى يا جدع أرانى يوم القبض على مربوطا من قميصى فى قميص الآخر فى فســتان الأخرى وهكذا . وكنت طول عمرى يضطرب قلبى فزعا أن ترانى أمى أو أحد معارفى وأنا مقيد اليد بالكلبشات فى تهمة سرقة أو نحو . ولا أدرى لماذا كنت أخشى ذلك وأقيم له حسابا ولكننى أظن انها راجعة لكثرة رؤيتى لأولاد متشردين مقبوض عليهم على هذا النحو ، وأعترف كذلك ان هذه الخشية من مثل هذا المنظر هى التى أيقظت اهتمامى على الدوام بأن أكون شيئا مهما فى المجتمع الأزرقى أتعلم وأحمل الشهادات العالية وأشتغل بالتعبير وهكذا .. ترى ما الذى كانت تفعله أمى لو رأتنى وأنا الطالب الجــامعى المحترم مقيدا ليس فقط بقيد حديدى بل مربوطا من قميصى امعانا فى الهزء بى والتقليل من شأنى واشعارى بأننى أقل حتى من حرامى الغسيل ..

ثم اننا يومها دافعنا عن أنفسنا داخل التخشيبة بين المتشردين وأرباب السوابق . دافعنا قدر الامكان ولكن الضباط والمعاونون لم يتركوا لنـــا شيئا نعتز به أمامهم ، ابتــداء من فروج أمهاتنا وانتهاء بمؤخراتنا التى أعلنوا لنا وللجميع اننا نستخدمها فى غير أغراضها الطبيعية . وبعد انغلاق الأبواب حدثت معركة دامية بيننا وبين أرباب السوابق والمتشردين لهذا الســبب الأخير عينه ، استعملت فيه المدى والأمواس والجرادل وتحطمت الأجساد تماما . وقال الضابط الذى فتح الباب علينا ونحن جثث هامدة انه سيعرف أسماء الذين استنفروا نزلاء التخشيبة وأقاموا الشــغب بينهم وسيرمى بهم فى جب . ثم أغلق الباب ثانية . وهنا تقدم ثلاثة ولدان من زملائنا المشهورين باللباقة والقدرة على جذب الأصدقاء عزموا على الموجودين كلهم بالسجائر والود ، فاستجابوا جميعا للمبادرة. ولم يمض وقت طويل حتى كان الثلاثة قد أقنعوا الجميع أنهم أخوة لهم وأنهم جىء بهم الى هنا من أجل كذا وكيت ، فالتحموا جميعا فى لمح البصر وتبادلوا العناق والاحترام وصار المتشردون وأرباب

السوابق ينوبون عنا فى الاحتجاج على المعـاملة وسوء الطعام ، واكتشفنا ان لهم قدرة رهيبة فى ردع الشرطة بوسائل غريبة ٠٠

على أية حال لقد فوجئنا بأن البعض قد صدر الأمر باستمرار حبسه أربعين يوما آخرين ٠ وكنت أنا من بين الذين أفرج عنهم ٠ وقيل ان الآنسة راندا هى التى توسطت بنفوذها للافراج عنى ولكننى لم أتصل بها حتى لأشكرها ، ويوم الافراج عنى كان يوم عيد وبداية عذاب جديد ، اذ فوجئت بأننى مفصول من العمل لتجاوز نسبة الغياب فكان على أن أقدم التبريرات اللازمة لالغاء قرار الفصل ٠ ولم يكن فى جيبى مليم واحد أتحرك به ، فاقترضت من جدتى معزوزة عشر جنيهات ٠ ولم يكن هذا هو مصدر العذاب، انما العذاب الحق هو شعورى بالمهانة ، شعورى بأننى لم أعد ولن أكون ـ محترما بعد ذلك أبدا ، لقد انكسرت بداخلى أشياء وقيم وتدهورت مسائل كثيرة ، وباختصار لم أعد أنا هو أنا قبل القبض على ٠٠ لكننى أيقنت بعد ذلك ان ذلك العذاب كان ارهاصا بميلاد شخصيتى الجديدة التى أصبحتها الآن ، وأعنى بها شخصية الرأى الحر الذى لا بد أن أعتنقه وأدافع عنه وأفسره بعشرات الأدوات والأشكال الفنية ٠٠ اخترت أن أقف فى جوار العدالة فى مواجهة الطغيان والظلم بجميع أنواعها وأشكالهما ، مقتنعا بأن الخوف من بطش الطغيان هو مساهمة فى الطغيان ، وان مواجهة الطغيان هى أولى محاولات هدم الطغيان وايقاف بطشه ٠

باب السـد

★ كيف يمكن أن تتصالح الدماء فى العروق ؟

١

انتبهت فاذا « بمأمون » قد أشرف بنا على منطقة فسيحة تميزت عن بقية الأرض بوجود كثير من الأجهزة المرتفعة الغامضة ، والأبراج الحديدية العالية ، وأرتال من السيارات المتنوعة الأشكال والالوان والماركات ، من فنـاطيس الى مـلاكى وجيب وما الى ذلك . تقف متناثرة هنا وهناك ، وثمة سور من الأسلاك الشائكة تبدو أطراف حديدة من بعيد جدا حيث ينتهى البصر ، وثمة أيضا أبنية صغيرة جميلة مزركشة بالألوان يسكنها ـ لا شك ـ مهندسون وخبراء ٠٠

وكان منظـرى قد أصـبح غير سـار أبدا ، اذ حزمت وراء « مأمون » من أراض زراعية مروية حديثا ، وعبر قنوات صغيرة .

وبجوار مستنقعات مليئة بالزفارة الجيبة فلما توقفنا بعد سير طويل أمام هذه المساحة المميزة فوجئت بأن كل المستنقعات والأوحال التي خوضت فيها قد علقت بجسدي وبطني وكل فروتي، حتى صرت مقززا جدا ، ورحت مع ذلك ألحس فروتي بخجل وأدعك بوزي في عنقي وأخلص قدمي من متعلقات سخيفة رذلة ، وصرت ألهث ولساني ممتد أمامي كضابط الايقاع ..

« مأمون » ولد جدع كما حدست وأي جدع ، ولد يستاهل السلامة بحق وهو من فضل الله على وكرمه .. فمن في عصرنا هذا يضيع وقته مع كلب مثلي محشو بالمعلومات أي نعم وملم بجحافل من الأسرار هذا صحيح ويعرف عن ماضي قضية « مأمون » مالو أبرز منه كلمة واحدة لانحلت كل العقد في حياة « مأمون » ووصلت قضية مقتل خالته بسيمة الى حلول هذا مؤكد ، لكنني في النهاية كلب بمعنى انني لا أملك بله أستطيع قول شيء أو تفسير شيء أو توضيح شيء . اسمحوا لى فأنا لا أدرى - والله - ان كانت هذه صفة كلبية أصيلة أم اننا معشر الكلاب قد اكتسبناها بطول عشرتنا مع بني البشر بوجه عام وبني الازرق منهم على وجه خاص. وعهدنا بالأسرار والمعارف انها كلما انفضت أمام الفعل دفعته الى الأمام وبصرته ونورته الا بين جنس الكلاب .

وباعتباري من جنس الكلاب القارئين فانني أصبحت أومن برأي تكون في داخلي عمليا طوال خبرتي العمرية والحياتية ، هو أن جنس الكلاب تنحصر كل قدراته العقلية في المعارف الوجدانية، ان ذاكرة الكلاب ليست في رءوسهم بل في قلوبهم انها ذاكرة وجدانية خالصة ولذلك فان الكلب منا لا يقطع صلته الانسانية بأحد من البشر أبدا ، الا اذا بادر البشر بافقادنا هذه الذاكرة ، لكننا مع ذلك نظل أرفع مستوى منه وأعمق انسانية وأعرق حضارة ، اذ أننا حتى اذا فعل بنا صاحبنا ذلك لا نرتد عليه غدرا أو تمزيقا بل اننا قد نكتفي بأن ندير له ظهرنا وننطلق عنه الى

غير رجعة . وذاكرة القلـوب أو الذاكرة الوجدانيـة تختلف عن الذاكرة الذهنية فى شيء جميل غاية الجمال ، ذلك هو أن الذاكرة الوجدانية لا يعلق بها أثر لجرح أو فعل غادر ، اذ انهـا سرعان ما تلتئم صلتها كأن ما حدث لم يحدث ، بمعنى أننى لو طردنى صاحبى مهانا مثخنا بالجراح وغبت عنه شهورا أو حتى سـنوات ورأيته من جديد فاننى لابد أن أرتمى عليه بالأحضان وتسقط فى الحال تلك الفترة الزمنية التى غبتها عنه مهما كان طولها كأنهـا لم تكن ..

دون جنس الكلاب أرانى مهموما بهـذه القضـية الخطيرة : قضية علاقتنا بالأسرار التى نعرفها ونراها ، والمعارف التى نحصلها بكثافة ، ثم لا نستفيد بها . واذا كان قد قضى علينا بأن نعجز عن الاستفادة بها فنظل الى الأبد كلابا .. فهل يا ترى بامكاننا أن نفيد بها أسيادنا من بنى البشر ؟ . انهم ـ بنـو البشر ـ يستفيدون كثيرا جدا بذاكرتنا الوجدانية وينظمون عملية استخدامهم لهـا بدربة فائقة ، ابتداء من التعرف على المجرمين والقتلة وكشـف آثارهم وانتهاء بتربيتى كمثل للوفاء وحفظ العشرة . وان ما أستطيع الجزم به اننى كلب رأيت وعشت من الأحداث والأسرار ما يكاد يخرج بى عن كلبيتى . اننا معشر الكلاب حين نذوق دم العدوان بلساننا نفقد ذاكرتنا تماما ، ونصاب بما يسمونه السعار اذ ربما هبـرنا لحم من يطعموننـا ، وسـر ذلك أن الكلب منـا جبل على استعذاب طعم العدوان واشتهائه فى أى عروق جرى ، وربما كان صاحبى وسيدى الذى يطعمنى قد تغيرت نفسـه على فجـرت فى أمعائه جراثيم الخوف منى والعدوان على فأشم رائحتها فيصيبنى الهياج تماما ويظل يصيبنى متصاعدا كلمـا سـخنت الدماء أمامى بجراثيم الخوف والعدوان ، فان بادر بالهجوم على بآلة حادة أو بأى شيء كنت أسرع منه فى رد العدوان بشراسة قد تسيل دمه ، وهنا تقع الكارثة ، وتكون محققة اذا ما طال دمه طرف لسـانى وذقت

فيه طعم العدوان ، اذ استحل لحمه على الفور ولحم بنى جنسه من كل من يعترض طريقى الهارب بعدوان ، ولقد تصيبنى رصاصة أو أقع فى حصار داهم يودى بحياتى ويحولنى الى جيفة تصلح طعاما مستساغا لبنى جنس ، ولكن ذلك لن يكون مؤلما لى بعد ذلك بالتأكيد ، لأننى استجبت لجبلتى الطبيعية فى وتحولت الى طعام يتغذى به بعض بنى جنس فلم أذهب هباء على أى حال ..

لم تطل وحدتى ، اذ أقبل « مأمون » نحوى بعد ما لف ودار حول احدى البنايات . وكان مهموما ، لكنه نظر فى نظرة شملتنى بعطفها ، ثم سحبنى من عنقى ومضى محنى القامة تجاه ساقية على مبعدة . ثم رفعنى وغطسنى فى القناة المنسربة من الساقية ، وبكتلة من الأوراق والأعشاب الخشنة صار يدعك جسدى ورأسى وقدمى حتى فهمت لأول مرة معنى الكلمة الأجنبية التى يرددها بنو الأزرق دائما بعد الاستحمام : « رفرش » . واذ أمرنى « مأمون » باشارة منه قفزت فوق طارة الساقية وجلست فى قلب شعاع الشمس المنصب على الساقية . أحسست أن غشاوات كثيرة قد انزاحت عن عينى ، وعم الصفاء كل شىء ، ونظرت كأننى أقول : « أين ذهبت بنا يا مأمون ؟ » . فجلس « مأمون » بجوارى قائلا اننا فى المنطقة التى سيشرفها عبد الجبار اليوم بالزيارة . فأعدت النظر حولى ، فرأيت ان كثيرا من الأشجار والنخيل قد تحولت بقدرة قادر الى صفوف من العساكر يسمونها فى بنى الأزرق عساكر الهجوم الفركشى نسبة الى انها منوطة بفركشة أى تجمع وأى تكتل وأى عصلجة .

أشار اليهم « مأمون » وهو يتسم فى سخرية مريرة ويقول :

ـ « يقولون فى قريتنا على سبيل التنكيت ، والتبكيت عند بنى الازرق يعنى التنكيد والتبكيت ، أن فرقة من هذه العساكر كلفت بفض أى تجمع فى البلدة ، فاذا بها تقتحم مجلس أسرة

كبيرة معروفة فى البلدة بكثرة شبانها ورجالها وأولادها ونسائها أيضا ·· وتصر الفرقة على فضها بالقوة ·· يقال ان رب الأسرة كان رجلا حكيما ساخرا ·· أراد أن يساعد الفرقة على أداء واجبها دون عصلجة أو غباوة ·· لكن الفرقة لاتنى تهاجم مجلس الأسرة فى حملات تصدر صيحات همجية يقلدها الأطفال ضاحكين بغطيان الحلل والعصى القصيرة ·· فما كان من رب الأسرة الا أن استدعى مندوبين منهم وأجلسهما معه على باب بيتــه وجىء لهم بالشــاى لا رشوة بل تعبيرا عن الواجب تجاههم ·· وباتفاق مع المندوبين صنع ثلاثتهم مكتب أمن فرعى خاص لا شبهة فيه ولا خيانة ·· وتعين على كل من يدخل داره أن يبرز بطاقته الشخصية فان كان لا يحمل لقب الاسرة يمنع من الدخول نهائيا ·· وقد حدث ·· وفى ظرف ســاعات قليلة كانت الدار قد امتــلأت وصــارت تعج بالصبيان والشبان والرجال ومع ذلك لا يزال الليل يحمل أبنــاء لم تعد بعد ·· وكان أحد المندوبين قد انساق وراء ما فى الموقف من طابع مسرحى فأصابه الشعور بالعظمة والأهمية ونتيجة لــكل هــذا الترحيب ·· فاذا به ينظــر فى الدار نظــرة تشكك غريب ، ويقول لرب الدار فى استرابة : أواثق أنت ان كل هؤلاء أولادك وأحفــادك قال رب الدار : ألم تر بعينك بطاقاتهم وشهـــادات ميلادهم ؟ ·· فعاد المندوب يهز رأسه متشككا ويقول : ولكن كيف سمحت لنفسك بالتكاثر هكذا الى حد هذا التجمع الكبير المخيف ؟ لابد أنك تتآمر ضــد النظام ·· فتعال ·· وأصر على اقتيــاده الى المخفر ليضع بنفسه حدا ·· فابتسم ضابط المخفر وضــحك حتى استلقى على قفاه ·· وكان من المفروض أن يوبخ مندوبه ويعتذر للرجل ، لكنه بسرعة أدار منطق المندوب فى رأسه · فخيل اليه أنه يحمل بعض الوجاهة فانطلق يضحك من جــديد ، وفى غضب مصطنع صاح فى مندوبه أن : عيب مالكوش دعوة ببيوت النــاس فاهم ولا لأ ؟ ، وصاح فى رب الدار أن : وانت يا راجــل مفيش داعى للتجمهر محبكتش يعنى تتجمعوا كلكم كل يوم فى ســـاعة

واحدة ‥ ثم حولها الى نكتة تدعو الى الابتسام قائلا : مش خايفين تتحسدوا ؟ » ‥

ثم اندفع « مأمون » فى ضحك مكتوم · فواكبته بمجموعة من الحركات المبتهجة لكنها مبطنة بالخوف من تواجدنا ها هنا حيث نصير هدفا لفرق الهجوم الفركشى · اننى ككلب أصيل أرى من واجبى الانصراف عن هذه المنطقة برمتها والا فاننى كمن يقف أمام القطار السريع · وهكذا أخذت أتمسح فى « مأمون » راجيا اياه أن ينهض لنغادر هذا المكان · فأخذ يربت على ، ويجفف ما بقى مبتلا فى فروتى وذيلى ، ويقول فى صوت دافىء أنه لابد أن يقابل حضرة المأمور أو أحدا من المسئولين اليوم لاستصدار أمر بايقاف دفن جثة خالته فى مقابر الصدقة ، والدعوة الى فتح محضر واجراء تحقيق وتحريات حول ظروف موتها وعودتها على هذا النحو ، وقال انه بعد قليل سوف يأتى عبد الجبار ـ ليفتتح هاهنا مشروع حفر للبحث عن بترول تأكد وجوده فى هذه البقعة من قرى بنى الازرق، ويعلم الله ان كان ذلك حقيقيا أو هو مجرد وهم بالثراء المعاصر ؟ ولكن الذى يعنينا الآن ان عبد الجبار سيجىء ويمضى بعد ساعة أو ساعات ، ومن حسن الحظ ـ لا تخف ـ فانه سيجىء ويمضى من طريق آخر بعيد ، ونحن الآن فى الساحة التى لا أهمية لها بالنسبة لأى شىء ، وان وجودنا نفسه لا أهمية له من قريب أو بعيد ، كل ما فى الأمر اننا بعد انتهاء الموكب سنتسرب الى أحد ضباط المركز الكبار ، ونستحلفه بانسانيته أن يسمع شكوانا ويقدر ظروفنا ، ورجاءنا وأن يتفضل مشكورا بمساعدتنا قدر الامكان ، ولابد أن خطورة الظرف الذى نحن فيه ستشفع لنا ما نفعل ، ذلك والا فانهم جميعا سينصرفون من هنا الى بيوتهم فتضيع علينا ساعات قد ننقذ فيها جثمان خالتى ‥

لا أعرف ان كانت الطمأنينة قد داخلتنى عن اقتناع أو بمجرد لمسات يد « مأمون » على جلدى وأعصابى ، وكان الوقت يمضى

ببطء وحرارة الشمس لاسعة فى الصميم ۰ وكان مأمون يتزحزح بى شيئا فشيئا نحو بقعة ظليلة فى حوض الساقية الذى يشـــبه حوض البانيو الى حد كبير ۰ فاضطجع فيه متمددا ، كأنه نائم فى البانيو ، نفس الضجعة التى كانت عليها جثـة خالته بسـيمة يوم اكتشفت فى بئر ساقية كهذه ، وكان مستوحدا تماما ، يشـعر بكثير من الكآبة ويقاومها بكثير من الابتســام والبهجة المصـطنعة ويحاول نسيان الوقت حتى لا يتعذب بالانتظار ۰ وقفزت أنا فوق جسده فنزلت باركا على صدره بالعرض فلم أشعر بأنى فى حاجة الى الاعتدال ، فبقيت مستجيبا لمداعباته وصوته الذى راح ينساب فى أذنى بغرائب مدهشة يقشعر لها بدنى ، اذ اكتشف من خلالها كيف يكاد « مأمون » يمضى الى ذاكرة الكلاب شيئا فشيئا دون أن يدرى ، اذ ها هو ذا بكل ما يحكيه يثبت بما لا يدع مجالا للشك انه عرف كثيرا من جوهر الأسرار ، بل عرف نواة كثير من الملغزات ، لقد انكشفت أمامه أسرار خاصة ليس فقط بقضية خالته بسيمة ولا بقضيته هو فحسب بل بقضية كل بنى الازرق برمتهم ، ولكن كل ما عرفه من أسرار ومعلومات وأحـداث يظـل مجرد معلومات ومحض أحداث عابرة طالما بقى مأمون عاجزا عن ربط بعض الأزمنة ببعض الأمكنة ۰ ان نجاتك يا مأمون ، أو بمعنى أصح نجاحك فى ربط أوراق قضيتك هذه مرهون بتخليصك من الذاكرة الكلبية ، لتصبح قادرا على رؤية الزمان المـاضى فى الزمن الحـالى ، تصبح قادرا على رؤية الزمان فى المكان والمكان فى الزمان ۰۰

انني ليسعدنى أن أقوم بدور نحوه يتفوق بى فوق ذاكرتى الكلبية وينجو بمأمون من شرك الذاكرة الكلبية التى ربى عليهـا بمنهج الفترات الزمنية المتسلطة ، منهج أن كل فترة تستهدف أول ما تستهدف تلك الفتـرة التى سبقتها ، محـاولة مسحها من الوجود والغائها من حسـاب الزمن ۰۰ فتنطبع شخصيات الأولاد بطابع غريب فادح هو التعود على التنـكر للمـاضى والتخلص من

مسئوليته على الدوام ، فكل ماض ملعون بالضرورة وعليه وحده تقع مسئوليات كافة الكوارث ، والشاب ما يكاد يشب حتى يكون مدربا على أن يعمل بمعزل عن الماضى حتى ولو كان ماضيا محيدا ، اذ ما أسهل ما يتغير وينس ، بمعنى أصح لا يصبح لديهم أى احساس بالتاريخ أو بالأصالة ومن ثم يفقدون الاحساس بما يسمى الوطن . وسر حبى لمأمون انه معنى بالبحث فى ماضيه رغم انه ماض مبعثر مجزأ مرغم علمه ما فيه من تقزز وعار بمجرد بحثه فيه ، لأن البحث شرف وعلو ، أما التنكر للماضى فهو العار بعينه ، وهو تكويس للعار أبد الدهر ، وربما يكون قد شاع فى صورة عار ما ليس بعار فحينئذ ينقلب وجه العار ، وربما يكون العار الحقيقى ما كان دائما هو الأخفى . كذلك من أسباب حبى لمأمون ايمانه بأن اتصال التاريخ على عاره أكثر شرفا بكثيرا جدا من الفصل بين فتراته لتعتيم فترة وتزييف أخرى لحساب الحاضر وهكذا مما يحدث كثيرا فى مناهج بنى الأزرق ..

على آن عمق المأساة فى قضية مأمون انها غير متصلة الحلقات تكاد تصبح بلا تاريخ على الاطلاق فى حوزته . كل ما يعرفه عن حياة خالته بسيمة مجرد حكايا وحواديت أو وقائع تشبه الأساطير حدثت فى أزمنة متعددة فى أمكنة متعددة ومعظمها مجهولة الأماكن أو مجهولة الأزمنة . لقد ورث باختياره قضية بلا أوراق وبلا مستندات لأنها بلا تاريخ موثق بين يديه . لكن مأمون قد بدأ يقول أشياء تكشف لى ايمانه بكثير من حقائق تبدو كالأساطير هى الأخرى ، هى حقائق فى نظره ، اذ يقول انه منذ أصيب بشبه المرحومة لم يعد له خيار ، ان التشابه بينه وبين خالته يثبت ان دماء الأجناس البشرية تكون عبقرية فى وضع بصمتها الدامغة على وجوه قادمة بعد أزمنة طويلة تكرر بها أشكالا ووجوها بنصها وظلالها عاشت قبل ذلك بسنوات طويلة ، ليس غراما بالتكرار ـ فى حد ذاته فليس من ثراء الطبيعة التكرار ، بل لكى ترشد بصمة الشكل الى بقايا دمائها خلف أشكال طبق الأصل منها كانت الأزمنة قد بعثرتها

فى أماكن عدة وحجبت بينهــا الأحداث والمســافات والمشاحنــات ورخيص الرغبات ؟ واذ يقول رسول الله صــلى الله عليــه وسلم : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، واذا يقول العامة أن العرق يمد الى سابع جد ،واذ نكتشف نحن حقيقة ذلك على مدى الأجيال ·· أفليس من المحتمل آن تكون فضائل بعينها من الأجناس البشرية آو جميع الفضائل فى جميع الأجنــاس ، تحتوى على اشــــعاعات وذبذبات تنادى بها بقاياها وأصولها المتبددة فى أماكن متباينــــة فى أزمنة عدة ؟ ··

ان طلبتم رأيى ككلب فاننى أجزم أنا الآخــر بذلك · اذ أن صلتى بجميع البشر والأجناس انما تقوم على حاسة الشم ، كل صداقاتى وعلاقاتى تقوم على قدرة أنفى على اختبــار نوعية الدماء وما يجرى بداخلها من أنواع الجراثيم والخــلايا والمــكونات · وعموما فان قدرة بنى البشر لا تزال تكشــف عن كثير من الأسرار والمعلومات الكونية المذهلة · لقد قرأت ان آلة تصــوير حديثــــة تستطيع أن تصور أثرك على الكرسى بعد أن تقوم انت من عليــه وتمضى ، ولو نظرت فى الصورة لوجدت هيــكلا ضــوئيا يتشكل بشكل جلستك قبل أن تقوم مباشرة ، ذلك هو الاشعاع الضوئى الذى يتركه جسم الانســـان فى أى مكان يحل به ، ويقال ان ذلك الاشعاع يبقى فى المكان مدة طويلة · وتجرى الابحاث لمعرفة أين يذهب ، وتميل بعض الآراء الى انه لا يذهب بل يمكث فى نفس المــكان ·· ورأيى أن ذلك قد يفسر اشتياق الانســـــان لزيارة أماكن سبق أن زارها ، انه فى الواقع يزور اشــعاعه الذى تركه فيها من قبل ، ان اشعاعه يناديه ، واذا لم يكن الانســان قد زار مكانا من قبل واشتاق لزيارته فلابد أن يكون له فيه بقايا اشعاع أو أصول اشعاع لدماء من أهله المجهولين هــذا وحده ما يجعلنى أظن ان مثل هذا الاشعاع يكون بعض الأسباب التى يتحرك بهــا مأمون مدفوعا للتردد على أمكنة بعينها ·

٢

قال « مأمون » :

ـ منذ شهور قليلة كنت قد اقتنعت بأن جدى خليل يتمنى من أعماقه لو اننى سافرت ذات يوم وبحثت عن خالى فى المدينة الكبيرة الواسعة التى أتعلم فى جامعتها ٠ هو لم يقل لى ذلك أبدا، ولكنه كان دائما كلما انفرد بى فى لحظة صفاء يستدرجنى فى الحديث عن المدينة ، فاكتشفت من فرط شغفه بالمدينة انه يحبها لدرجة التقديس ، فلما بحثت فى تفسير منطقى يجعل جدى خليل يحب المدينة الى هذا الحد رغم انها تستلب كل شيء ، لم أجد تفسيرا واحد معقولا سوى أن ابنه هريدى يعيش فيها لامعا تحت اسم سيف الماوردى ويحارب الحكومة وتحاربه الحكومة ، كانت المدينة فى نظرة تعنى سيف وصوته القاطع للرقاب تلتمع عين جدى وتسبحان فى بحيرة صافية جدا من دموع الفرح ، ويلتمع فيهما ضوء مزهو فيه ذكاء عميق وثقة لا حدود لها حين ينطق كلمة : سيف ٠ ودائما أبدا وبدون مناسبة يضع يده على اذنه صائحا تجاهك : ماذا ؟ ٠٠ أقلت سيف ؟ ظننتك تقول سيف » ٠ ودائما أبدا اذا جاءت سيرة المدينة أمامه بأخبار سوء يصبح هو فى ذعر : وسيف ؟ ـ كأن فناء المدينة سيكون « سيف » ونماؤها يكون « سيف » ـ ٠

صراحة كنت أحس بالخجل من نفسى ـ كيف أعيش فى نفس المدينة مع خالى سيف ولا أحاول الاتصال به أو زيارته والتقرب اليه والعيش فى كنفه ؟ ٠ صحيح ما الذى منعنى من ذلك طوال السنوات الفائتة ؟ بل ما الذى جمد قلبى ونشفه الى حد أن يدعى هو الى شقتى ثم لا أتعرف عليه ولا أعرفه بنفسى ؟ ٠٠ أية قسوة هذه بل أى عبث هذا ؟ ٠٠ هل كتب على بطاقات دمائنا المسماة علميا بالجنيات أن تظل بذورنا مغتربة حتى داخل الجسد الواحد ؟

حتى وان تلاقت وتعارفت ؟ أيكون الاغتراب صفة موروثة فى الدم حتى ان أبناءه بعلم أو بغير علم يساهمون فى تهتك العلاقات وعدم التآمها أبدا ؟ ٠٠ انه اذن يكون دما ملعونا ٠٠ ولكن كيف يستوى هذا مع كونه دم ذكي شفاف ومن شفافيته يتعرف على بقاياه وأصوله فى ناس معينيين ، لا ليقيم أواصر الود بل ليمنعه من أى تلاحم انسانى ٠٠ يا الهى أيكون هناك مثل هذا النوع من الدماء وأكون أنا منتسبا اليه ؟ ٠٠

أعترف بأننى كنت أحب أغانى خالى سيف أول ما سمعتها ، بل لقد بهرتنى كما بهرت الكثيرين ٠ وكنت دائما أحب ماضيه الممثل فى شخصية هريدى خليل هريدى ، وأعتبرها لم تغترب كثيرا ، وانها ربما امتدت طبيعيا فى شخصية سيف الماوردى ، لكننى لا أدرى لماذا كلما كبرت قليلا وعرفت نذرا يسيرا انقطعت بداخلى عروق انسانية يتضح انها كانت فى الأصل واهية ، وأصابنى الاحتقار لجوانب كثيرة من تراثى العائلى والشخصى من بين ما احتقرته بشدة ودون قصد منى خالى بشخصيته : هريدى وسيف ، أى اننى كرهت هريدى واحتقرت سيف ٠٠ ربما بسبب خالتى بسيمة وما أحسه من حقد عليه لنذالته تجاهها ٠ اعترف اننى حين علمت انه تخلى عنها فى أول مفترق طرق نقمت عليه نقمة شديدة واعتبرته أول مجرم فى حياة خالتى بسيمة ٠ هو مجرم بدون شك أراد أو لم يرد ، سيان عندى ان كان قد مارس جرمه بوعى أو بغير وعى ، بارادة أو بدون ارادة ، كل ذلك لا يعفيه من جرمه ٠ أليس من الطريف المحزن أن يصبح هذا الشخص علما على الوطنية فى أنظار فئة لا بأس بها من المجتمع ؟ ٠ ما يزيدنى احتقارا له انه ليس علما ولا يحزنون ، انه مجرد لافتة لا حول لها ولا قوة تحملها الأيدى المتركبة وهو نفسه لا يعتبر نفسه بطلا قوميا والعياذ بالله ، انما هو باعترافه وجد نفسه فى قلب الدور مرتديا ثيابه والملقن أمامه جاهز ، فلعب

الدور فصفق له الجمهور فركب فوق أكتـاف الجمهـور وأصبح مسرحا قائما بذاته تستأجره عقول أكثر ذكاء واستنارة ٠

ويوم أن قبض علينا جميعا في شقتي كان هو يردد اسمي بطلاقة وقد حفظه عن ظهر قلب باعتباري صاحب الشقة الداعي : الطالب الجامعي الأستاذ مأمون عكاشة ٠٠ وهكذا في كل تحقيق٠ وكان الجبن المتأصل في نفسه لا يزال متأصلا وان اتخذ مظهرا من صلابة المثقفين أهل الرأى الذين لا يتذللون ولا يترخصون في الادلاء بالأقوال ، وكنت أضحك من أعماقي ، وأبحث عن أصل القناع الذى استعاره ووجده على مقاس وجهه وهيكله بالضبط فوجدته رجـلا محترما من أقطاب الوفد في قريتنا ، اذ تفتحت طفولتنا على وقفاته الحادة مع العمدة والمأمور والحكام ، كان فلاحا مستنيرا فصيحا وذا شخصية ، وهكذا كان خالى سيف وهو يقف في التحقيق متكلما ، ولكن لأن بي بعض دمائه فقد لمحت الرعشة في ساقيه عنيفة سريعة الى حد الاختفاء ٠ أما وهو يغنى في شقتي فانني لم أتح لنفسي فرصة الانفراد به أبدا حتى لا أضعف وأعرفه بنفسى قبل أن أتفهم أبعاد شخصيته ، فشـــغلت نفسي بمراقبة الجو ـ وما كان أغباني بالطبع ـ ومتابعة المطالب العاجلة ، وكنت أندمج معه أحيانا اندماجا كاملا لدقائق معدودة مع شعورى بأن كثيرا من النصب والاحتيال في تلحينه ، بمعنى أن ما يجب أن يقال بصوت جهير ولهجة خشنة يقوله هو برقة واستياء وتذلل كأنه يبكى ٠ ولان جمهور بنى الأزرق يصفق لكل من يبكيه فانه كان يصفق ، ولم تكن تأخذني أنغامه الا لكونه أخذها من تراث قريتنا الغنائي ، وكنت أعجب لمجرد انه تذكره واستفاد به في نقل كلمات سياسية

من هذا القبيل ، الا أنه كان يلوى عنق اللحن الشعبي فجأة ويدخل به في حـودة مفاجئة يراها ختاما مناسبا لجملة أو كلمة ٠ فيزداد اعجابي لذكائه في التصرف بغير دراسة منهجية ، ولكن لا أعطيه

احترامى أبدا ، لأنه غير خلاق وغير أصـــيل ، انه كائن طفيلى يعيش على حياة فن أصيل ..

ليكن كل هذا صحيحا أو مجرد أحقاد مبالغ فيها الا أننى أتعجب الآن كيف يمكن لأى سبب فى الدنيا أيا كانت نوعيته أن يجعل الانسان يلفظ دماءه ويحتقرها ؟ .. ان أية أسباب فى الوجود لا ينبغى أن تكون قائمة بينى وبين أى أحد من أقاربى حتى ولو رفعوا هم جسور الود عنى . فليكن فى حوزتى جسر صناعى أمده أنا عبر البحور والمسافات الفاصلة بيننا حتى أصل الى أحد أقاربى قائلا : « ازى الصـــحة أمال » .. فيقول بكل برود وتقـل دم : أهلا أهلا عاش من شافك . ليكن ، فلو أن جسور الود كانت قائمة بيننا الآن لوجدت جثة خالتى بسيمة من يدفنها فى اكرام ويقيم على روحها الصلوات . والأحرى بى ان أقول : لو كانت جسور الود قائمة بيننا لما عادت جثة خالتى بسيمة على هذا النحو بل لما اغتربت أبدا ولا اغتربت دماوءنا . لنفرض ان جدى خليل مات الآن ؟ أيموت ويدفن كخرقة بالية وابنه علم من أعلام عاصمة بنى الأزرق الملاعيب ؟ . أليس من الأفضل أن يكون ابنه على علم بالأمور حتى لو تصرف حيالها بنذالة ؟ . ان عدم الاتصال به يعتبر نذالة من جانبى لأنه سيحتج بأنه مشغول وفى ظروف بالغة الحساسية . ومع يقينى انه سيظل ينصب علينا بهذه الحجة الرخيصة الى ما لا نهاية طالما أنه أمعن فى التنكر لأبيه ونسيان بلدته . لكننى مع ذلك لابد أن أنفى عن دمائى تهمـــة المـروق والصد والاغتراب . سأحاول ان أثبت ان الدم الذى يجرى فى عروقى دم ذكى وغير منحط أبدا . لقد انتسبت الى هذا الدم بأى سبب ، ولن يكون لى دور فى الحياة الا بأن أتشرف بانتسابى اليه ، وسوف أتشرف بانتسابى اليه بأن انتسب اليه ، فبى سوف أعلو به وبغيرى قد انحط قدره فهذا ليس من شأنه ، انه فى النهاية دمى ، دمى أنا ، يجرى فى عروقى وفى عروق أشخاص آخرين ، هو دمى حتى وان عاشت به نفوس كريهة وضيعة ،

ولا يسمم الدم ويحرقه سوى وضاعة النفوس ..

حقيقة لقد اكتشفت ـ بعد لأى كما يقولون ـ أن ميراث الدم وحده هو الذى يضع فى صفحة وجهى قليلا من الحياء ، ويرغمنى على الابقاء على أهلى وعشيرتى والتنازل عن كل شيء فى سبيل ان نكون ـ فى أسوأ الأحوال ـ صافين على البعد ، فى سبيل ان يظل هيكل الأسرة قائما . فعلى كثرة ما عانيت برغم صغر سنى تيقنت تماما من ان انسانا بلا أسرة انما هو شيء مهمل تماما مهما حقق من نجاح وارتفاع شأن فى الحياة وعلو مركز وما شئت من ذلك . أترى لو تحقق لواحد منا كل هذه الاملة واكتشف انه فى النهاية مجرد فرع فى الهواء ، مجرد لوح من قارب أو سفينة تحطمت على متن أمواج هوجاء ، فدفعه الريح السريح المخادع الى ذرى عالية فى أمواج فائقة ثم اذ به يصل من العلو والرشاقة والتفرد ما لا يستطيع الوصول اليه أعظم القوارب ، مع ذلك اذا بنفس الرياح الهوج تهبط به فى منحدر يلقى به على شاطيء أو فى ممر عميق ..

لا يصعد ولا يبقى فى ضمير الأمم على مدى الأجيال سوى من كانت الأسرة فى دمائهم . لو فتشت فى حياة عظماء التاريخ بحثا عن سر عظمتهم الخارقة فستجد ان الذى وضع بذور العظمة فى نفوس العظماء هو حبهم لدمائهم الذى تتكون منه الأسرة الصغيرة ثم الكبيرة . كل العظماء كانوا يحاولون فى الأصل خلق شيء تنتفع به الأسرة ، وأسرته ليست أهل بيته فحسب ، بل لناس يرون أنفسهم على أشكالهم ويسمعون فى الليل صرخات كالتى كانت فى بيتهم .. ولقد فعلوا أشياء عظيمة لأنهم أحبوا أمهاتهم وخالاتهم وآبائهم وأعمامهم وأولاد الشقيقات .

اننى وقد تأكدت من ان اخفاء التاريخ ودفن الفترات وكتمان الذكريات هو أول وأكبر جرم يقع فى حق الانسان ، وان أفظع ميراث يمكن أن يرثه انسان هو قضية ليس فى حوزته من أوراقها

قصاصة واحدة ٠٠ كان على ان أبادر باقامة الصلات مع كافة الأطراف وعلى رأسها خالى سيف أو هريدى خليل هريدى ٠٠ انه أول مصـــدر من مصـــادر التاريخ يجب أن أبحثه : متى انقطعت الصلة بينه وبين خالتى بسيمة ؟ وهل انقطعت ؟ وهل انقطعت ثم سعى هو بعد ذلك الى لقائها ؟ وما الأمر على وجه اليقين ؟ ٠٠

وهكذا دخلت وحدى الى ذلك الحى المملوكى العجيب ، الذى هو خليط عجيب من أزمنة متعددة متباعدة ، ومن حوارى وخرائب وعمائر ومســاجد ومحلات شهيرة فى الأطعمـــة وحمامات نادرة ووكالات عظيمة البنيان يحتلها الصـــياع وقطاع الطرق ٠ بيوت متلاحمة تميل على بعضها البعض بكل همومها ٠ فى المواجهة خرابة ، وبجوارها مسجد آيل للسقوط ، وفى ضلع منه بوتيك غنى ٠ طوائف من البشر على مختلف الأشكال والألوان بعربات فارهة وحناطير وكارو ، وصخب وعرق وهياج وعنف ٠٠

فى مطعم السلامة طيبت جراح نفسى بنصف كيلو كباب دفعـــة واحـــدة ، ودفعت نصف أجرى فى أسبوع فانثال العرق الساخن على وجهى كأنه ينوح على ما ضاع منه بلا أمل فى عائد مواز ٠ جلست على مقهى قريب وطلبت قهوة وشيشه ثم قرأت الجرائد كلها بامعان ٠ ولاحظت اننى لم أنظر فى ساعتى ولم أشعر بأى ملل ، بل أحس أننى سوف أجلس على هذا المقهى طويلا وسأجىء له كثيرا ، بالتحديد هذا المكان المثلث الأضلاع من المقهى حيث تصبح الجلسة على الرصيف والطراوة شيئا كالحلم ، كل سكان هذه البيوت رائحون غادون أمامى فى مواجهة مطعم الكباب الذى يطلق مهرجان رائحة كبابية صارخة ، والأطفال يحملون أطباق الفول المدمس ووضعوا فوقها الأرغفة البلدية كأنها قطع من خدود الشمس هبطت فوق الأطباق مظلة بحزم الفجل والبقدونس والبصل ، موكب لا ينتهى من نساء تتعارك طول النهار مع الباعة حول قرش تعريفه فوق سعر « الأوطه » ، وحول استكراد المكوجى

لها فى قرشين ، وحول استنكارها لحجم الشيء المباع ، وهكـذا دوشة لا تنتهى ولكنها تفجر فى البشر طاقات هائلة من الابداع والامتاع ..

كانت هذه أول مرة أقعد فيها . ثم لما تكررت زياراتى للحى نفسه بررت ذلك باستحسانى للكبابجى رغم سوء أخلاق عماله وسـوء النقـود فى يدى . ثم اننى بعـد اعتياد طويل للزيارات اكتشفت ان خالى سيف الماوردى يسكن فى هذه المنطقة بل فى هذه البقعة على وجه التحديد . وحين تذكرت ذلك ضحكت ساخرا وقلت لنفسى : ألم تكن تعلم انه يسكن هنا ؟ . ثم أجبت على نفسى قائلا نعم ولكن هذا لم يدر بخلدى يوم انجذبت لهذا المكان . ثم اننى وجدتنى أتلهف على العودة الى الحى كأننى أحـد سكانـه الأصليين ، فأجلس على نفس المقهى وأقرأ الكتب وحدى مع الجرائد والمجلات ، أو أكتب بعض الخواطر . ومع ذلك لم أتصل بسيف الماوردى رغم اننى صرت تقريبا معروفا فى المقهى والحى ورغم أننى كنت أرى وجوها كثيرة معروفة متخذة طريقها الى مسكنه ؟ ..

الى أن دأب على الجلوس قبالتى فى المقهى شاب فى مثل سنى خيـل الى انه مخبر سرى من مخبرى الطلاب مدفوع لمتابعتى . فأردت ان أتحداه باقامة الود معه حتى يريحنى من القلق ويأخذ ما يشاء من معلومات . لكنه فى الحق سعى الى التعرف على ، اذ شرعت مرة أدفع حساب القهوة فقال الجرسون : « الحساب وصل .. دفعه الاستاذ طارق وبيقول لك كمان تشرب أيه ؟ » . فنظرت اليه شـاكرا . فانتقل وجـاء نحوى باسما يقول : « أظن مش عارفنى » . نهضت واقفا وسلمت عليه : « شكلك مش غريب على » . قال على الفور : « احنا زملاء فى نفس القسم فى الكلية » . قلت : « أهلا وسهلا .. تشرب أيه ؟ » . قال معترضا : « لا .. دى قهوتنا » . قلت له : « انت جاى لسيف الماوردى ؟ » . قال باسما : « أنا ساكن هنا .. بيتنا على الناصية دى » . قلت فى

بعض تشكك : « أهلا وسهلا فرصة سعيدة » • قال : « أهلا بيك •• انت جاى لقريبتك ؟ •• على فكرة احنا ساكنين معاها فى نفس البيت » • قلت من خوف : « قريبتى مين خير يارب ؟ » • قال : « اوعى ما تكونش قريبها » • عاودتنى العقدة القديمة ، قلت فى شحوب : « أنا عارف •• لا بد حاطلع شبه واحده ثانية •• ما أنا موعود •• دايما يتضح انى شبه حد •• ولازم تكون واحدة ست •• حاجه غريبة والله » ••

فنظر « طارق » فى وجهى نظرة اندهاش واستنكار : « حاجة غريبة صحيح •• اللى يعرفها ويشوفها لازم يقول انك قريبها قرابة جامدة •• لدرجة انى توقعت تكون بتجيلها •• من أول ما بدأت أشوفك هنا مالقتش أى مبرر غير كده » • قلت له مندهشا : « هى مين يا طارق ؟ » • قال طارق : « ست بتعه •• ربنا يخليها ويديها كمان وكمان •• ست طيبة قوى •• عايشة معانا هنا بقى لها سنين طويلة •• كانت اتجوزت واحد كبير وعاشت معاه فى الخارج طلع مش ولابد سابته وجت على شقتها القديمة وبدأت حياتها لوحدها من أول وجديد » • قلت فى تعجل وتوتر : « شغلتها ايه ولا ظروفها ايه هى روخره ؟ » • قال طارق . « أنا ما يهمنيش شغلها •• أنا بقى •• اسمح لى فى النقطة دى •• كل واحد حر يشتغل زى ما هو عايز •• محدش عارف مين اللى ربنا راضى عنه •• لكن احنا نعرف ان فيه ناس سيرتها كويسه ومع ذلك معندهاش انسانية ولا ايمان ولا أى رحمه •• لكن ست بتعه » • قلت بضيق صدر حاولت اخفاءه : « بتشتغل أيه يعنى ؟ » • قال طارق : « بيقولوا بتبيع حشيش وبتهرب مخدرات •• وساعات يقولوا بتهرب نسوان •• وربنا يستر على ولايانا •• لكن احنا الحق لله ما شفناش منها حاجة وحشه •• انما يظهر سيرتها كده لأنها متزوجه راجل غرزجى أصله صايع قديم •• اسمه كحكوح •• طول عمره لبط فى لبط •• هو اللى سوء سمعتها •• لكن الناس وكل جيرانها بيحترموها وهى بتعمل خير كتير قوى » ••

تفكرت قليلا وقلت : « هيه » · ويبدو أن لهجتى كانت تحمل قدرا كبيرا من الأسى ، اذ أن « طارق » نظر نحوى نظرة ذات معنى ثم قال : « أظن دلوقت تقدر تعترف بالقرابة اللى بينك وبينها ·· ان كنت لمؤاخذه مستعر منها ·· احنا ناس نعجبك قوى ·· سيبك من وسط الجامعة والمجتمعات اياها ·· الخير كله هنا والحلاوة كلها هنا والأصل كله هنا ·· قريبتك باسم الله ما شاء الله خيرها على أهل الحتـة كلهم ·· فيـه عيال هنـا من أهل الحتة بتتعلم على حسابها ·· وأسر عايشه على حسابها ·· ربنا يديها ويديك ·· لو ما كانش راضى عليها مكانش خلاها مبسوطة كده » ··

فى ذلك اليوم اكتفيت بهذا القدر · وقررت عدم المجىء مرة أخرى هربا مما يمكن ان أتورط فيه من مشاكل بسبب هذا الشبه الغريب العجيب . ذلك أن كل من ظهر أننى أشبهه اتضح انه محاط بمخاطر لا قبل لى بها · فمن يحمينى من خطر هذه البتعة لو ظللت ارتاد الحى ؟ أليس من المحتمل ان تجيئنى بلوى بسببها ؟ كل شىء محتمل بالطبع ولهذا يجب ان اختفى ··

لكننى رغما عنى عدت فى اليوم التالى ، بل وسألت الجرسون عن « طارق » وكان الجرسون يقول انه يسأل عنى هو الآخر · أحسست ان طارق يحبنى بنفس القدر الذى يحب به شخصية البتعة ، هل لمجرد اننى أشبهها ؟ أم لأننى كما يقول شخصية مريحة وجذابة ولبقه ؟ · أيا ما كان الأمر فاننى قد قبلت عزومته على الغداء فى بيته حيث تعرفت على أهله وعلى ·· البتعة ·· ست بتعـه ·

● ● ●

كانت جميلة جمالا أقوى من ان يتركها فى مثل هذه البيئة أو مثل هذه السيرة أو مثل هذه الأعمال · وكانت هى قد صعدت الى الشقة العليا بدعوة من أم طارق لتسهر معهم قليلا حتى يعود

زوجها المعلم كحكوح آخر الليل ، ترتدى فستانا بسيطا فاخرا جدا لا يليق الا بسيدة مجتمع من الطراز الأول ، لكنها تلتف مع ذلك بملاءة لف وكلما تهدلت الملاءة عن رأسها أو كتفها أو صدرها سارعت بعدلها واحكامها من جديد ، وتعصب رأسها بمنديل بأويه وشعرها مسرح تسريحة أولاد البلد كأنه شعر لم يذهب الى الكوافير أبدا ٠ وكانت بسيطة ، تخفى صفحة وجهها توترا أبديا ، وتنظر عينها فى الانسان بتمعن كأنها تدرسه قبل أن تتبادل معه كلمة ، وتنظر وراءها باستمرار ، وتنزعج من أى نقر غير مهذب على الباب ٠٠

حين جلست معنا فى صالة صديقى سألت بعض أسئلة عن أشياء فهمت منها أن ست بتعة كثيرا ما تعطف على جيرانها بهدايا مثل راديو صغير أو فستان أو قطعة قماش أو بعض نقود ٠ تمعنت فيها جيدا ، فوجدتها كبيرة الشبه بالفنانة رشا الخضرى ، لولا غلظة فى وجهها قليلا ، وفى الطبع وفى بعض اختلافات جانبية،واللهجة أيضا بما فيها من تطجين بلدى ٠ وقالت هى بشىء كثير من التدلل الحلو : « بتبص فى كده ليه ياد ؟ » ٠ قلت : « باتشبه على حضرتك ٠٠ فيكى شبه من الفنانة رشا الخضرى » ٠ قالت باسمة كأنها سمعت هذا التشبيه آلاف المرات : «وانت فيك شبه من أمى ٠٠ ها ٠٠» ٠ ثم ضحكت ضحكة فى ايقاع ضحكة الحشاشين فقط ٠ وضحكت أنا بصوت عال وصحت فى غاية الألم : « برضه فى شبه من واحدة ست ؟ ٠ فقالت : « يخلق من الشبه أربعين » ٠ قلت : « فعلا ٠٠ هذا صحيح مائة فى المائة » ٠ وأردفت هى : «الا بالمناسبة ٠٠ هى فين دلوقت ٠٠ ماعادلهاش حس ولا خبر ؟» ٠ قلت : « صحيح ٠ بقى لها مدة مختفية تماما » ٠ وقال طارق : « الله أعلم ٠٠ أصلها اتجوزت واحد كبير من رجال الثورة الأزرقية ومنعها من شغل الفن » ٠ وقالت البتعة : « غلطانة ٠٠ لو كنت منها كنت رفضت ٠٠ حد يبيع فنه بالجواز ؟ » ٠٠

حينئذ مال « طارق » على أذنى وهمس قائلا : « يقولون أنها هى الأخرى ·· ست بتعة ·· كانت تشتغل بالفن » · صحت قائلا : « صحيح ياست بتعة ·· لسه بتشتغلى بالفن ؟ » · قالت مشوحة بيديها الممتلئتين بالغوايش الذهب كأنها معرض جواهرجى ثرى : « ما تفكرناش بقى » ، وكانت مثـــل طفلة جيبيه تنعى عروستها الضــــائعة : « كنت غاوية ·· بس طلعت لى مقصوفة الرقبة رشا الخضرى دى فى البخت ·· قلت مابدهاش ·· اللى قلدوا عبد الحليم كلهم ســقطوا حتى اللى صوتهــم أحلى من صوته ـ ثم ضحكت ـ وأنا كمان صوتى على قدى » · أحسست أنها بريئة وطيبة الى حد كبير ، وصافية الى حد لا يمكن الشك فيه، الى حد يقنعك ان مثلها لا يصلح للشـــــهرة وأنها لا تملك عهر رشا الخضرى ولا علاقاتها ولا مواهبها الشخصية · كانت الى الطابع البلدى أقرب · شكلها شكل مارلين مونرو مضافا اليه خفة الدم الأزرقى ، لكن طبعها وسلوكها طبع وسلوك معلمة ان سلطت فيك عينيها أرغمتك على الخضوع المطلق · لهجتها خليط من حذلقة أهــل الفن ورقة أهــل البيوتات الكبيرة وتطجين أهل الحوارى والأزقة ، هو خليط فذ قد لا يجتمع ولكنه فى شخصيتها متسق وباعث على احساس بالطرافة اللامعة والاثارة الجامحة ، لكأنك أمام تمثال يعبر عن الجنس بأجمل وأجلى معانيه ، وانه ثمين الصـــــنع وليس حوله من يفهم قيمته ، وهنا يتسلل اليك وحدك الغرور ، متصـــــورا أن بامكانك الاستحواز عليه · ان الانسان أول ما يرى هذه الست لا بد أن يقع ضحية الاغراء بأن يكون هو المنقذ لها من الضـــــلال · ولا بد أن جميع من عذبتهم وعذبوها فى الحياة كانت تدفعهم واحدة من رغبتين باطنيتين تجاهها: الوهم بانقاذها من الضلال أو الرغبة فى اختلاس لحسة أو لحستين من هذا الطعام المراق ·· وكلاهما كان من نفسه فى ضلال ··

سألت صديقى « طارق » فيما نقف فى بلكونة شقتهم : « كم

رجلا فى حياة ست بتعة ؟ » . قال طارق كأنه يدافع عن أمه : « اثنان فقط لا غير .. وعلى سنة الله ورسوله .. أحدهما عذبها فعذبته حتى طلقها غيابيا خارج البلاد .. والثانى مات فى السجن من فترة قليلة » . ثم استدرك ضاحكا : « هم فى الواقع ثلاثة .. الثالث هو كحكوح .. وهو الذى سوف يميتها فى سجنه هو » . ثم أضاف موضحا ان كحكوح شخصية كاريكاتيرية قاسية فارغة من كل المحتويات العاطفية والانسانيــة وما الى ذلك ، وأنه ثور هائج لا يكف عن اعتلائها ليل نهار متوهما أنه بهذا الأمر وحــده يهزم جسدها ويمنعه من اشتهاء أحد آخر ، ولأنه خسيس وست بتعة أصيلة ، مجرم وهى خيرة ، قواد وهى مصون ، فان العلاقة بينهما دائما ليست على ما يرام ..

وأشار طارق بأصـــبعه نحو الأرض قائلا : أنظر . فنظرت فوجدت عربة مرسيدس فاخرة مركونة تحت بلكونة ست بتعة . قال طارق : « هذه سيارتها .. ويوم نراها مركونة هكذا باحكام تحت البلكونة نعرف ان العلاقة ساءت بين الزوجين فسحبت هى سيارتها الخاصة وتركته يتحرك بسيارته الفيات . سألته : « ولكن ما الذى يكرهها على العيش مع رجل كهذا ؟ » . شوح طارق وقال ان هذه هى حكمة الله التى لا ينبغى أن نراجعه فيها ، وأن أقوالا كثيرة تتناثر فى الحارة والحى كله تشبه الأساطير ، عن علاقة ست بتعة بكحكوح ، وعلاقة كحكوح بناس معينين من جميع فئات المجتمع. يقولون انه هو الذى التقط ست بتعة ذات يوم من طريق الضلال وجعلها تتوب وتحج الى بيت الله ، أما كيف يجعل منها مؤمنة نقية هكذا فى حين يظل هو كافرا حتى نخاعه فهذه أيضا حكمة يعلمها الله ، يقولون أيضا أن زوجها الذى مات فى الســـجن كان أحد صبيانه وأنهما معا كانا يعملان كصبيين فى بعض مشاريع المهندس المقاول الكبير عبد الجبـــار ، وأن هذه النقطة هى الوحيدة التى يرشحها أهل المدينة ســـببا للثروة التى تهبط على هؤلاء الناس باستمرار ، لكننى ـ هكذا يستطرد طارق ـ سألتها ذات يوم فى قليل

من الخبث عن مدى صلتها بالمهندس عبد الجبار ففوجئت بأنها لا تعرف من هو المهندس عبد الجبار ولا تعرف شيئا عن مدى قوته أو سطوته أو علاقاته · ولما كنت قد تربيت معظم سني طفولتي في حجر الست بتعة في أول عهدها بالسكنى في بيتنا ، فانني خير من يفهمها ، وقد فهمت أنها بالفعل صادقة وأنها لا تعرفه ، في حين أنني تأكدت ومن قبلي تأكد أبي وأصدقاؤه أن زوجها المرحوم وزوجها الحالي يعرفان عبد الجبار معرفة وثيقة ويعملان لحسابه في كثير من المشروعات ··

ثم دخلت أم طارق بالشاي لنا · فسألها طارق عن زائر الست بتعة الذي تجلس معه في الحجرة المجاورة · فقالت في غموض : لا ·· لا أحد » · فاهتم طارق أكثر وقال يستحثها على التصريح : « قولي ·· فربما كانت محتاجة الى مساعدة » · ونظر لي مفسرا قوله بأنه هو واخوته تعودوا منذ طفولتهم أن يقوموا بخدمات للست بتعة ، وأنها حتى الآن لا تتورع أن ترسل أباه نفسه في طلب من الدكان ، اذ أن خيرها عليهم بلا حدود · لكن أم طارق ترددت في الافصاح عن زائر الست بتعة ولكن في شيء من الاثارة اللطيفة · فأشار طارق نحوي قائلا : « الأستاذ مأمون مش غريب » · فقالت مؤيدة : « أيوه دا باين عليه زي ما يكون ابنها » ثم ابتسمت : دي واحدة ست يمكن انت عارفها » · صاح طارق مستوضحا كأنه عرفها : « سمراء يا حلم الطفولة ؟ » · ابتسمت أمه قائلة : « النبي انت فايق » · ثم خرجت ·

قال طارق : « سمراء يا حلم الطفولة هذه هي ست وسيلة ·· هي الأخرى من أساطين النساء في هذا الحي كله ، وشخصيتها قوية الى حد لا ينهزم أبدا ·· ولو تعرض أعتى الرجال لما تعرضت له لانقلب الى أنثى في أول شوط ، أما هي فلا يطرف لها جفن ·· يكفي أنها كانت زوجة كحكوح » ··

هتفت قائلا كأنني لدغت : « كحكوح زوج الست بتعة ؟ » ··

قال طارق : « نعم ٠٠ كانت هى الرجل الذى فى شخصيته ، الذى خدع به الناس طويلا بحركات شهمة وكريمة ونبيلة كان يفعلها فى الواقع ليعلو بها فى نظرها ٠٠ فلما غـــدر بها ـ الله يغدره ـ حزن عليها الناس كلهم ونقموا على كحكوح أكبر نقمة ، لأنهم عرفوا خسته » ٠

قلت لطارق : « فكيف يغدر بها وهى مسند شخصيته ؟ » ٠٠

قال طارق : « كان يريد أن يتخلص منها ، لأنها كانت تحب الحاج شحات أبى شافية حبا عميقا صادقا وهو أحد صبيانه ٠٠ وكان يريد أن يتخلص من أبى شافية ، لانه كان يحب البتعة ويموت فى هواها ٠٠ ففكر أنه لو تخلص من الاثنين فى ضربة واحدة يكون قد أصبح متوحدا فى الساحة ويتلقف البتعة على حجره ٠٠ وفعلا ٠٠ تمكن من ذلك بخطة جهنمية أودت بست وسيلة وأبى شافية معا الى المؤبد ٠٠ فمات أبو شافية ٠٠ وبقيت الست وسيلة حتى نفذت حكمها الا قليلا حيث أفرج عنها بعفو صدر من رئيس الجمهورية عن ذوى الأخلاق المثالية فى السجون » ٠٠

خيل الى أن « طارق » يروى أساطير من ألف ليلة وليلة . وتعجبت من أن يعيش فى هذه العاصمة عدة عصور فى زمن واحد فى نفس المكان ٠ ان زمن النتيجة الورقية المعلقة على الحائط ليس يجرى وحده بل انه مجرد وعاء تعيش فيه أزمنة عديدة من عصور سابقة وربما أخرى لاحقة ٠

وقال « طارق » :

ـ « الناس طول هذه السنين كانوا يزورون الست وسيلة فى السجن كل أسبوع ويقدمون لها العطايا ٠٠ بل ان معلمين كبـارا من تجار الحشيش والخردة كانوا يزورونها فى السجن ويعشمونها بأنهم فى انتظارها حتى تخرج ليتم الزواج ٠٠ لكنها ٠٠ تصور يا مأمون ٠٠ لم تقبل أى عطية من أى واحد اشتمت رائحة الوغد

فيه ·· ولم تكن تقبل العطية الا من فقراء النـــاس وأنزههم عن الغرض ·· ربما تندهش يا مأمون حين أقول لك شيئا سوف تراه كالسينما ·· هل قرأت رواية أو دخلت فيلما يتحدث عن أم فى روسيا كانت تشجع الأولاد كلهم على الثورة دون أن تدرى من أمر ذلك شيئا الا غريزة الامومة الطاغية ؟ ·· لكنك لو سمعت عن الست وسيلة ما سمعنا ورأيت ما رأينا لاعتبرت ان تلك الأم شيئا ساذجا جدا بالقياس الى ست وسيلة ·· لقد كان الشبان والرجال يذهبون لزيارة أقاربهم فيجدونها عمدة السجن ، ويجدون أنفسهم مدفوعين للسؤال عنها وقضاء الوقت المخصص للزيارة كله معها هى دون أن يشـــعروا ·· وكانوا يعتذرون عن ذلك لأهلهم وأنفسهم قائلين أن فيها شيئا يشجعهم على حب الحياة وتسهيلها ·· لذلك لم يكن ثمة من أوامر السجن يسرى عليها ، ولم يحدث أن اعترضها حارس أو ضابط أو مأمور . بل كانوا جميعا ينزلون عند رغبتها ويخدمونها طائعين اذ أنها خلقت لهم من سجن النساء واحة ظليلة . وأنشأت مصلى وأقامت حفلات غنى فيها سجينات ·· كل شاب جلس معها تحول بعد الزيارة الرابعة الى زوج مستقيم أو شخص ناجح ·· فان سألت أحدهم : ماذا كانت تقول لك بالضبط من كلام أو تصبه فيك من شعور ·· يعجز عن قول شيء محدد ·· ان شبانا كثيرين جدا فى هذا الحى العريض لم يكن عندهم أى مانع من أن يتزوجوا من الست وسيلة اذا لم يكن ثمة مانع لديها ·· ذلك أنها يا مأمون رغم انها على مشارف الخمسين من العمر لا تزال تحمل قوام وصدر وخصر فتاة فى العشرين أو أكثر قليلا ، شكلها شكل أميرة حتى وهى فى الملاءة اللف ·· فان تركت الملاءة فى البيت خرجت من قمقمها سمراء فى حمراء كأنها وهج الذهب ·· أما عقلها فيزن رجالا ورجالا » ··

ثم ضحكنا بصوت عال لا ندرى لم · وهمس « طارق » فى أذنى : « على فكرة ·· يقال ان بعض المسئولين عن سجن النساء عرض عليها الزواج العرفى ·· فرفضت بشدة ، وامعانا فى تأديبه

قالت له : ولا حتى الرسمى » • ثم ضحكنا ثانية وقهقة طارق بصوته الأجوف اللطيف • وهمس مرة أخـرى فى أذنى بكثير من دفء شـــبق : « أنا شخصيا لا أمانع فى الزواج منها لو رضيت هى » • لكننى كنت مشـغولا بأمـر آخـر . فسـألت طارق : « ولكن ماكنه العلاقة الحالية بين الست وســـيلة زوجة كحكوح سابقا . والست بتعة زوجة كحكوح حاليا ؟ » • فقال طارق أن الست بتعة بصرف النظر عن كونها زوجة كحكوح فهى صديقة قديمة للست وسيلة . وان الست وسيلة والست بتعة كلاهما قد عرف انه وقع ضحية مجرم واحد عبقرى فى الاجرام هو كحكوح •• لكن كلاهما ـ بتعة ووسيلة ـ لا تملكان القدرة على الكره أو الغدر أبدا ، هذه مأساتهما فى هذه الدنيا ، ولذلك فان كل منهما تعرف أن غدرا من جانبها لن يقع وان الله وحده سوف يتدخل بعدالته للفصل فى هذا المقدر عليهما ••

ثم استطرد طارق :

ـ « الست بتعة رجل يعجبك •• لقد عيشت وسيلة خلال سجنها حياة كأنها جنات النعيم •• الهدايا الكبيرة والأموال والكيوف لكل من له على وسيلة سيطرة ولو من بعيد •• غير أن هذا لم يحدث الا مؤخرا جدا بعد أن اكتشفت الست بتعة مؤامرة كحكوح العميقة •• وها هى ذى الست وسيلة قد خرجت من السجن على غير توقع •• ومنذ أن طلقها كحكوح فى سجنها وهى تعرف أن الست بتعة سوف تكون حصنا أمينا لها •• وبالفعل تحقق لها ذلك •• فالست بتعة هى التى استقبلتها يوم خروجها من السجن •• وجهزت لها غرفة مفروشة فى شقة فى أحد الأحياء التى تعرف فيها ناسا أمناء •• وصارت تمد الســت وســيلة بالنقود لتنفق على نفسها بكل ارتياح •• شهور طويلة مرت ولم يحدث أن ضجرت الست بتعة من الانفاق على وسيلة واعطائها ثيابها القديمة وشراء جديدة اضافية وهكذا » ••

ودخلت أم طارق مرة أخرى ونبهت علينا هامسة بفحيح ، ان علينا أن نخفض من صوتنا لأنه يصل الى الحجرة الجانبية حيث تجلس الست بتعة مع الست وسيلة · ثم نظرت الى ابنها فى تأنيب وتحقير مرير قائلة : « احنا مش قلنا كلام فى الموضوع ده لأ ؟ » · فأشاح عنها قائلا : «يا ماما أنا مش عيل صغير ·· ثم ده صاحبى» · فشوحت هى الأخرى نحوه فى تهديد ثم خرجت · فقال : « أمى تخشى أن نتحدث معا ، أنا وأنت ، عن فعل الخير الذى تنوى الست بتعة أن تفعله » · قلت : « كيف ؟ » · قال : « أمى ، كأم ، نعرف انك كزميل لى فى الجـــامعة ، فهناك اذن حساسية لو تحدثنا فيه » ·

ازداد الأمر غموضا واســـتغلاقا · كنت أشاركه فى شرب سيجارة الحشيش التى يدخنها بشراهة ، ولكننى أحجمت . وقلت له : « ان كنت تخشى شيئا فلا تقل شيئا » · الا انه نظر فى وجهى قائلا :

ـ « ست بتعة تسعى لفعل خير كبير جدا ، لو انكشف فربما يستثير ضدها ما لا قبل لها باحتماله ·· اذ أنها قد بدأت تسعى فى تنسيق حياة سيف الماوردى وانتشاله من وهدة الانحطاط التى يعيشها ·· وقد اختارت له عروسا بالفعل ·· وهذه العروس هى الست وسيلة خريجة السجن وزوجة كحكوح سابقا ·· تصور ·· هذه لا يستطيع اقامتها سوى شيطان أو ملاك ·· هل يداخلك الآن شك فى أن الست بتعة تريد أن تلفق لسيف الماوردى امرأة من أرباب السوابق ، خدمة لصديقتها واعفاء لنفسها من النفقات ؟ ·· ولكن لا ·· الواقع ينفى ذلك تماما ·· لقد استطاعت الست بتعة أن تهدى سيف الماوردى هدية عظيمة جدا جدا ·· انها خير من فهم سيف الماوردى فى الحى ·· كل الناس ها هنا من أول ما جىء به ساكنا لاحدى الغرف القديمة الآيلة للســـقوط وهم يستنكرون صوته ولا يستسيغون غناءه ويتعجبون من هؤلاء الذين يضيفون

وقتهم فى الاحتفال به ٠٠ لكن الست بتعة حين سمعت عنه من خارج الحى وعلمت بأنه يسكن فى الحى سعت الى الاستماع اليه ، فجىء لها ببعض شرائط خاصة سجلها بعض أصـــدقائه ٠٠ وكان ذلك متأخرا جدا بعد أن كان سيف الماوردى قد أصبح نجما لامعا يذكر اسمه فى خطب رسمية ضمن من يشكلون عدوانا على النظام ٠٠ حتى هذه الخطبة وهذه المعلومة لم تكن قد علمت بها الست بتعة ٠٠ لقد عرفت سيف الماوردى حين أصبح يعيش فى الخفاء بلا زاد ، بعد أكثر من عشرين عام على شهرته ، وبعد ان استثمره المستثمرون وزيفه المزيفون وكسبوا من ورائه ما كسبوا ، كان هو قد بدأ يعى دوره ويقتنع انه بالفعل يجب أن يكون معارضا للنظام على الدوام ٠ بالغناء ، ليس لقضـــايا اجتمـــاعية أو انسانية محددة بل لمجــرد المعارضة والانتقام ـ على الأقل ـ لما لحق به من اهانات . لكنه مع ذلك ظل أغنية جميلة لمن يريد أن يعلن تمرده ووعبه الثقافى من

أهل الأحياء الشعبية التى يسمونها عادة بالأحياء الوطنية الا أنه منذ سكن ها هنا فى هذه الحجرة التى لم تكن مؤهلة للسكنى أصلا كان قد نبت من يهتمون به من جديد ويعطفون عليه ويدعونه للاحتفالات السرية مقابل أجر مقنع ، ومن ينفق على تنظيف حجرته وتجميلها بعض الشىء ، على أسوأ الأحوال فانه يدعى للغناء فى بعض أفراح الطلاب أو المثقفين المقيمين خارج البـــلاد ٠٠ وفى هذه السنوات الأخيرة فى السبعينات عرفته الست بتعة ٠٠ ألم أقل لك انها طيبة ومنعزلة بقدر ما هى متألقة وثرية ؟ » ٠٠

٠٠ « ولقد عزمته فى شقتها ٠٠ ويومها ثار كحكوح وهدر بالغضب الأهوج فى عرض الحارة أمام الجميع كأنه يعلن للحكومة ذات العيون المجهولة براءته من هذه الخطيئة ٠٠ الست بتعة أرجل منه ٠٠ تركته فى الحارة يهـــذى وتحدته بدعوة سيف الماوردى وبعض الأصدقاء من فئات عجيبة لا تدرى كيف اجتمعوا ٠٠ ياالها من ليلة ٠٠ العمارة كلها كانت تخدم فى الحفل ٠٠ وسيف الماوردى

بصـــوته الأجش غير المدرب كان مع ذلك جذابا مذهلا ملعلعا ، مشعشعا على آخر الطاقة ، كأنه يغنى فى فرحة ، وترك عند الست بتعة أنقى وأجمل تسجيلاته ‥ حوالى أربع شرائط بأربع ساعات غنى فيها منتخبا كبيرا من مراحل حياته الفنية التى مثلته وشهرته طوال هذه السنين ‥ أما أنا ‥ فقد اشـــتغلت فى تلك الليلة غرزجيا من أجل عيون الحفل والجمع السعيد ‥ وواقع الأمر اننى كنت أنا الآخر قد عشـــقت أغانى سيف الماوردى وبدأت أحفظها وأغنيها فى المناسبات ‥ وكانت الست بتعة تروح وتجىء فى ابتهاج عظيم . ومن حين الى حين تدخل الى مجلس الصحبة وتقول كأنها طه حسين أو سهير القلماوى : « ياسلام يا سلام ‥ يا لها من عظمة ‥ أنت فنان كبير والله يا أســتاذ سيف » ‥ فيحنى سيف قامته باسما فى امتنان سعيد « متشكر قوى ياست هانم ‥ ربنا مايحرمناش منك ‥ وانتى وطنية قوى ياست هانم دا ايه الحلاوة الشـــعبية دى » ‥ سيف أيضا كان نكته ‥ ثم انها سألته : « ياترى حضرتك من أنهو بلد يا أستاذ سيف ؟ » ‥ فقال انه من العاصمة نفسها ‥ ولد هو وأبوه وجده فى نفس هذه العاصمة ولا يعرف من أى جنس هو بين الأجناس العديدة التى استوطنت العاصمة ولكنه يرجح انه من أصـــل كردى جاء مع صلاح الدين الأيوبى ‥ وفى نهـاية الحفل وقف سيف الماوردى أمام الست بتعة كتلميذ نجيب خجل من فرط اعجاب أمه به ‥ وقالت الست بتعة وهى تنظر اليه فى تقدير : « دى أسعد ليلة عندى يا سيف ‥ ومن هنا ورايح اعتبرنى أختك ‥ أى طلبات أى خدمات أنا موجودة ‥ مايهمكش من كحكوح ‥ دا جدع فالصو متاكلش من كلامه » ‥ فانحنى سيف شاكرا وهو غير متصور أن هذه الست البلدى المشهورة فى الحى يمكن أن تكون حساسة الى هذا الحد ، ذلك انها ــ فتك فى الكلام ــ كانت فى كل دخـلة عليـه تبدى اعجابا بالنغمة واللآزمة وتستخدم كل مصطلحات الفنانين العارفين فيالها من معجبة لقطه سخى بها الزمن عليه ‥ فتك فى الكلام أيضا ــ

لقد غنى لها سيف من بين أغنياته أغنية هزأ فيها برشا الخضرى وفضح الذين تحمسوا لها وقدموها وفرضوها مطربة على الجماهير ، ولا تسل عن سعادة الست بتعة بهذه الأغنيـــة ، الوحيدة التى استعادته اياها أكثر من ثلاث مرات ، وكانت تخرج الى الصالة وتضبطها متلبسة بهز وسطها مع النغمة فى ابتهاج باسم ، فابتهجنا نحن الآخرون وعرفنا أن سيف قد انتقم لها من شخصية رشا الخضرى التى أحبطت آمالها الفنية واعترضت طريقهـــا ٠٠ المهم انها فى النهاية سلمت عليه وفى جوف كفها عشر ورقات من فئة العشرين مطبقة ٠٠ فقبض عليها وصار يبعث عبارات الشكر والامتنان طوال نزوله من درجات السلم » ٠٠

٠٠ « منذ ذلك اليوم استنام سيف الماوردى لعطف الست بتعة هو الآخـــر ٠٠ ولما كان معظمهم قد انفضـوا من حوله فى السنوات الأخيرة فان المسكين فى حال لا يحسد عليها ٠٠ كان يبعث المراسيل الى الست بتعة بطلبات فلا تردهم خائبين ٠٠ الى أن خرجت الست وسيلة من السجن وتلقفتها الست بتعة فى حضنها من وراء ظهر كحكوح ٠٠ فعزمته على حفل فى شقة أحد أصدقائها المهربين الذين أدعت له أنهم من رجال المجتمع ٠٠ وأخذت معها ست وسيلة ٠٠ وتركتها تقود الحفل وتسهر على راحته ٠٠ كنت فى هذا الحفل أيضـــا ٠٠ فأنا على وجه التقريب أتحرك وراء الســت بتعة كظلها الا اذا هى أومأت الى بأنها اليوم غير محتاجة الى ٠٠ نوع من الوفاء فلولاها ما دخلت الجامعة ٠٠ لا تسلنى عما فعلته الست وسيلة بأدمغة المحتفلين على الاطلاق ٠٠ ما أن دخلت بفستانها البسيط الثمين حاملة صوانى الأطعمة حتى بدت كملكة فرعونية تنازلت عن عرشها لتخدم حبيبها ٠٠ وظلت هى رهن الاشارة لكل من طلب ماء مثلجا أو قهوة أو ليمونا ٠٠ فما تكاد تظهر حتى ينتعش الجميع ويدب فيهم نشاط وحيوية ٠٠ كان ذلك الحفل أروع حفل أقامه سيف الماوردى فى حياته ٠٠ أتدرى لماذا ؟ ٠٠ لأنه لأول مرة فى

حياته لا يغنى أغنيات سياسية ولا انتقادية ، بل شرد فى حدائق العشق بمواويله الحمراء وآهاته المعذبة الأبدية ، حتى لقد اهتز من نشيجه الحلو كافة ما فى الشقة من أثاث وستائر وجدران ·· تسجيلات هذا الحفل ـ للعلم ـ تجدها عند واحد بعينه فى حارة القللية ·· والست بتعة لم تكلف نفسها مشقة عرض الأمر على سيف ·· انما هو الذى بادر بالاتصال بها وقال انه يرجوها السعى فى زواجه من الفاتنة السمراء ·· فحكت له قصتها بالتفصيل فلم يعن بالاستماع اليها ·· فوعدت بالتفكير فى ذلك » ··

وقدم لى « طارق » ذبالة بقيت فى السيجارة قائلا : «نفس» ··

فأخذتها وجذبت بقاياها وأطفأتها · ولمحت حركة غير عادية فى الصالة الصغيرة الضيقة · وتناهت الى روائح عذبة ، لكن «طارق» جذبنى من جديد قائلا : « لو فهمت قصد الست بتعة من تزويج ست وسيلة لسيف الماوردى لعرفت أنها خطة جهنمية جدا » ··

قلت بلهفة : « كيف ؟ » ··

أشعل « طارق » سيجارة ثم قال :

ـ « ان ست بتعة تريد لسيف الماوردى أن يقلع عن الغناء السياسى ضد الحكومة نهائيا ·· هذا أمر تعجز عنه الحكومة نفسها ·· لكن ست وسيلة سوف تخلق من سيف الماوردى انسانا آخر تماما ·· هى لن تمنعه من الغناء ضد الحكومة فى الواقع بل ستنظم له شخصيته وترتبها ·· تسقيه معنى الاستقرار كزوج ينبغى أن يعود لزوجه فى المساء كل يوم ، وكرجل يستخسر انقضاء ساعة خلف أسوار السجن بل فى أى مكان ليس فيه الست وسيلة ·· ان الست وسيلة سوف تربط سيف بالحياة ربطا وتسقيه معنى الحرص عليها ·· حينئذ سوف يهدأ كثيرا ، اذ تتوفر له أشياء كثيرة مفتقرة فى حياته ، ويتوفرها سوف تلتمع مواهبه وتغير صيغتها ، وربما تضع ألحانا وطنية أيضا ولكن بشكل

لا يأخذ صيغة المعارضة .. تريد له الست بتعة أن يصبح فنانا لا مهيجا جماهيريا ولا داعية سياسيا .. ليس هذا من تصوراتى ، بل هكذا سمعت ست بتعة تقول له ذات حفل صغير على الضيق .. أتعرف يا مأمون .. لقد أحسسنا كلنا ان الست بتعة تحب الاثنين حبا كبيرا جدا : وسيلة وسيف .. ولذا فهى سوف تنفق أموالا كبيرة فى تهيأة عش لهما » ..

وصمت « طارق » ، وانشغل فى تقليب أوراقه بحثا عن شىء ثم قال ان جوابا وصله من البنت التى يحبها وسوف يقرأه على ، لكى أساعده ـ بما لدى من عبارات جميلة وأسلوب جميل ـ فى كتابة رد يسجدها . تمنيت ألا يجد الخطاب ، لاننى لن أقوم بهذه المهمة أبدا . من حسن الحظ دخلت أمه ووجهت الى نظرة حرجة فيما تقول لابنها :

ـ « وبعدين ياولد .. ست بتعة عايزاك فى مشوار » ..

قال طارق : « عينى » ، ثم نهض قائلا : « عن أذنك » . وغاب مع أمه فى الداخل برهة طويلة ثم اذا بصوته ينادينى : « اذا سمحت يا أستاذ مأمون » فقمت على استحياء ودلفت الى الصالة ، فقال : « تعال » . فرفعت بصرى فاذا بى محتاج لقوة هائلة أحتمل بها ما أرى من ضوء واشـــعاع : أميرتان من أعرق أمراء العالم القديم الحديث ، لا أحد فى الأرض يحمل هذه الكمية من الجمال والكبرياء الطبيعى الجارف القاصم : الست بتعة والست وسيلة امرأتان على مشارف الخمسين كأنهما فى مقتبل العمر ، كأن الكرة الأرضية يجب أن تقسم بينهما بعدالة وقسطاس ..

اقتربت منهما فى خجل . بالله ، هل كانت هـــذه زوجة لكحكوح ؟ وبالله هل هذه الأخرى زوجة كحكوح ؟ . مدت الست بتعة يدها وسلمت على ، فسلمت بحرارة ، وتمنيت لو بقيت يدى فى يدها طويلا . فلما سلمت على ست وســـيلة انتابنى نفس

الاحساس ونفس الشعور . وقال طارق يقدمني : « زميلي وصديقي الأستاذ مأمون » ، ثم يقدمها : « الست بتعة .. الست وسيلة » ، واحتوتني وسيلة في صـــدر كأنه وجه الرغيف يرتفع في قلب الفرن ، واحتوتني بتعة بنظرة قادمة تســـبح من أعالي البحار . وقالت الست بتعة : « طارق بيثق فيك .. وأنا كمان ما أعرفش ليه حبيتك ووثقت فيك .. عشان كده وافقت على انك تبقى صديقي » . قلت لها صاغرا : « دا شيء يشرفني ياست بتعة » . فنظرت في ساعتها وقالت : « طب يلا بينا بسرعة عشان نيجي بسرعة » . وانتزعت الملاءة اللف وألقت بها الى وسيلة ، وأخذت هي « روبا » سترت به كل جسدها ثم أشارت لنا ، فنزلنا طارق وأنا نسبقها الى سيارتها المركونة تحت شرفة شقتها .

بدربة فائقة لم أكن أتوقعها من الست بتعة خرجت السيارة الفارهة المصقولة من بين حوار وأزقة ضـيقة ، ثم زاغت بين زحام الشوارع العمومية ثم استقلت الطريق العمومي الى منشأة جديدة متاخمة لميدان المشهد الازرقي ..

نزلنا أمام عمارة عالية ، ثم دخلناها وركبنا الأسانسير حتى آخر دور ثم صعدنا على أقدامنا الى السطح فاذا بشقة جميلة جدا ومفتوحة على سطح العمارة وقالت الست بتعة لوسيلة : ما رأيك ؟ . وقالت وسيله : فل خالص آخر حلاوة . ثم اننا طرقنا بـــاب الشقة فانفتحت فاذا بها من الداخل جميلة ومجهزة بعفش وأثاث لائق جدا ، وبعض ابتاع من مقاطيع سيف الماوردي ، ثم سيف الماوردي نفسه ثم المأذون ..

سلمنا عليهم جميعا . وأطلقت ست بتعة زغرودة بلديـــة ريفية رائعة رائقة . ثم جلسنا وسط مظاهر فرحة نشأت فجـأة كأنهم غير مصدقين قبل حضورنا . ثم همس صديقي طارق في أذني قائلا ان الست بتعة هي التي استأجرت هذه الشقة لسيف من

نفسها اذ أن العمارة ملكها والله أعلم . ثم استقامت جلسة ضمتنا كعائلة واحدة : سيف الماوردى وست بتعة وست وسيلة والمأذون وصديقى طارق ، وأتباع الماوردى منغمسون فى المطبخ يعدون طعاما وشرابا . ثم اذا بها جلسة لعقد القران . ثم اذا بعقد القران يتم ، واذا بى أنا وصديقى طارق نشهد عليه دون كافة الموجودين . وكنت وأنا أوقع عقد زواج خالى سيف الماوردى أحس بشعور وهـــزة داخلية تمنعنى من التصريح له بأن أبـاه خليـل هريدى بعد هربه وموت أمه حزنا عليه تزوج من جدتى أم بسيمه زوجته السابقة فأنجبت له أمى كل ذلك دون أن يعلم سيف وبنـاء عليه فهو خالى دون أن يعلم . العجيب اننى يومهـا لم أجد رغبة قوية فى التعرف عليــه والكشف عن شخصيتى ، احســاسا منى بأنه طالما رفضنى ورفض الانتماء الى أهله أهلى فاننى يجب على الأقل الا أرحب بانتمائى اليه ، وهكذا تماديت فى استغفال نفسى تاركا انكشاف الأمــر للمجهول . على اننى كنت أوقن من أن الست وســيلة هى أكبر هدية اعطيت لخالى سيف وانها سوف تغير مسار شخصيته لا بد ، أوقن من ذلك لمجرد رؤيتها واكتشاف ما فى وجهها من نبالة ..

ليلتها احتفلنا أعظم احتفال بدخلة سيف الماوردى على الست وسيلة . غنى سيف وغنت الست بتعة مقلدة مها صبرى تارة وشريفة فاضل تارة أخرى ووردة تارة ثالثة . وأكلنا وشربنا وفرحنا حتى النخاع ، ثم عدنا فى بداية النصف الأول من اليوم التالى فى سيارة الست بتعة . ونزلنا عند بيتها وقالت لى : « أنا عاوزاك يا مأمون » . فقلت كأننى طارق أو أحد اخوته : « تحت أمرك يا ست هانم » . وانصعت اليها . ورأيتها تفتح حقيبة يدها فمددت يدى بسرعة غاضبة وأوقفت حركة يدها قائلا : « فيه حاجة ؟ » . قالت : « عايزه أعطيك هدية » . قلت : « أرجوك .. بلاش اهانة » . قالت : « مش فلوس » . قلت : « ولا أى حاجة » . فقالت باسمه : « اوعى ياد يا شبه أمى ياد .. باقول لك أنت

شبه أمي ·· والمصحف شبهها ·· مش هزار » · ثم أزاحت يدى بغضب رفيق قائلة : « اوعى » ، ثم أخرجت من الحقيبة ولاعة رونسن ثمينة غالية تساوى عشرين جنيها · فتقبلتها شاكرا · ثم أوصتنى باننى يجب أن أكون على اتصال دائم بها سواء مع طارق أو وحدى ··

غيرأننى لم أكن أستطيع الاستقرار تماما فى العاصمة فورائى وظيفة وقرية وأهل أعنى بهم · لكننى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أعاود الاتصال بالست بتعة هانم فى فرص أخرى كثيرة · ولم يمنعنى من ذلك سوى اقتراب الامتحانات وهروبى من جو سيف ومنطقته برمتها · وبعد اجتياز الامتحان عاودنى الحنين الى المنطقة من جديد · وانجذبت الى بيت صديقى طارق بعد شهور طويلة لم أره خلالها ··

وجدت جوا من الحزن والخطر يخيم على البيت ، ولا أثر للسيارة هناك · فحدست أن تكون الست بتعة فى مشوار أو على سفر . حتى صديقى طارق نفسه لم يكن موجودا بالبيت لعدة مرات وبشكل يدعو للريبة · وأخيرا تربصت به فتصيدته على المقهى · فاحتضنى وجلس جوارى كالمهزوم قائلا :

ـ « مش الست بتعة مقبوض عليها ؟ » ··

قلت مذعورا : « كيف ؟ لماذا ؟ » ··

قال « طارق » :

ـ « لا نعرف ·· ولكننا صحونا ذات يوم فلم نجدها ولم نجد السيارة ·· وكان زوجها النطع كحكوح قد قطع صلته بها وقيل انهما انفصلا ·· لكن لم تمض بضعة أيام ـ وكنا لا نزال ساهرين نتدارس فيما بيننا أخبار الست بتعة وهل يمكن أن تكون قد اختطفت مثلا ؟ ـ اذا بنا نفاجأ بمجموعة من الرجال يفتحون شقتها

فى الهزيع الأخير من الليل ·· فنزلنا نستوضحهم الأمر ·· فقالوا أنهم من مباحث أمن الدولة ، وأبرزوا بطاقاتهم ·· ونزل أبى وقطع الشارع وخرجت أمى وأخوتى الى البلكونة لاستجلاء الأمر فتبين لنا ان عربة الهجوم الفركشى المكتظة بالفرق ترابط عند مدخل الشارع ·· فانزوينا جميعا فى الأركان ·· ولم نسأل بعد ذلك أبدا عن أى شىء ·· اذ ان الاشاعات أكدت أن الست بتعة قد انكشف المستور وراءها فظهر انها كانت على علاقة مريبة ببعض الشخصيات السياسية والاجرامية المعروفة والمراقبة ، وبأنها متهمة فى كذا وكيت من عشرات التهم التى تكفى الواحدة منها لوضع كل ممتلكاتها تحت الحراسة ووضعها هى نفسها فى حبل المشنقة ·· وكنا نظن ان انقلاب الحكومة عليها هكذا يرجع الى علمهم بتشجيعها لواحد يغارضهم ويعمل على فضحهم ·· لكننا اكتشفنا أكبر من ذلك بكثير جدا وانهم يدخرون لها عشرات التهم المخفية من قديم » ··

ولاحظت ان صديقى « طارق » يريد أن ينهى الحديث بأى شكل لكى ينصرف الى حال سبيله من شدة الخوف · فسألته : « وأين توجد الست بتعة ؟ » · قال « طارق » كأنه يستهجلنى : « فى السجن طبعا » · قلت له : « أى سجن ؟ » · قال : « سجن الاستقبال ·· المعتقل السياسى » · ثم سلم على وانصرف ، فأحسست بحزن كثيف · ورأيت الحزن يتكاثف على الشارع كله حتى أولئك الذين يهبرون الكباب فى شراهة على رأس الشارع · فتركت الحى كله ضائق الصدر معتكر المزاج · لم أجد مكانا آخر يصلح للانتماء اليه فى هذه اللحظة ، فكل مكان قد احتله ناس فى يدهم نفقات باهظة ، جميع الأماكن تزدحم بزخم كريه مهين ساحق للانسانية ، لا يملك الانسان ان يختار أى شىء أو يميل الى أى شىء أو يتمنى أى شىء أو ينتظر أى شىء أو يؤمل فى الوصول الى شىء بل حتى لا يثق فى امكانية انتقاله من هذا الحى

وسط هذا الزحام الهمجي الى حي آخر بله أن يكون له حي ..

واذ وقف سائق الأجرة مستجيبا لتذللي قال انه ذاهب الى المكان الفلاني . فتذكرت ان لى بعض شأن فى هذه المنطقة التى ذكرها . وأمام فرحتي بوجود المواصلة ركبت بجوار السائق فاستأنف السير في صمت . فلما استرحت قليلا فكرت فيما يقودني الى هذه المنطقة رغم ثقتى فى استحالة العودة منها بسهولة ؟ . على انني حين أعطيت ما طلبه دون مناقشة ومضيت أدب فى المنطقة السكينة الجديدة . جلست على أول مقهى وطلبت الشاى والشيشة ثم رحت أفكر : هل جئت الى هذه المنطقة فى حقيقة الأمر مدفوعا برغبة أصيلة وملحة في الكشف عن شخصيتى لسيف الماوردى ؟ لأطمئن عليه مثلا هل قبض عليه مع الست بتعة ؟ أم لأطلعه على جلية أمرى معتذرا بأنى لم أكن أعرف أو لم أكن أريد وقد أردت فليغفر لى ؟ . ان الرغبة فى صلة الرحم والدم شيء أصيل وجميل ولا موجب للاعتذار عنها بأى سبب . ان جدى خليل هريدى يجب أن يشعر بابنه فى أواخر سنى عمره لعل شخصيته تعتدل وتستقيم ، وسيف يجب أن يعود الى رشده فيتذكر أباه ويرتد اليه صاغرا ..

ووجدتنى امام البيت الذى يسكنه سيف .. فتحت لى الفاتنة السمراء . أبدا ليست هذه زوجة رجل بسيط ، انما هى زوجة ملك ، يقول لك قوامها الملفوف ومظهرها الفائق الكبرياء ان قف مكانك مؤدبا مهذبا قبل ان تمثل بين يدى زوجها سيدك وتاج رأسك . أبدا لا يمكن ان تكون هذه الرصانة والسلاسة قد عاشت مع حثالة المجرمين فى الحياة والسجن على السواء .. انها لم تغادر قصر الملكة برهة واحدة ولم تكف عن الأمر والنهى برهة واحدة . واذ تمعنت قليلا فى وجهى ابتسمت فكأنما الدنيا كلها قد رضيت عنى ، وهزت رأسها أن تفضل . فدخلت . فاذا بأريج حياة كاملة يكاد يعصف برأسى من النشوة ، رائحة الاستقرار

والتوقد والاشتعال العاطفي ، والنظافة الشفافة · العود قابع فى أحد الأركان ، والستائر الجميلة تداعبه · سيف بيك الماوردى ـ ما أسعده ـ يضطجع فى حجرة النوم ، وهى سوف تبلغه حالا · وككل من يبلغ نبأ زوارهم فى السرير جـاء الشاى طليعته ، ثم مضت برهة طويلة دخلت لها الست وسيلة ـ أقصد الامبراطورة وسيلة وسرحت شعرها فى وقـــار واحترام ثم جلست قبالتى قائلة : « أهلا وسهلا أيه الاخبار ؟ » يا للطرافه ، هى الأخرى تسأل عن الاخبار · ثم جاء سيف مرتديـــا الروب دى شامبر الفزدقى ، ودعائم الصحة بادية على وجهه ، فسلم عـــلى بحرارة وجلس بجوارى · ومضت وسيلة · وقال سيف انه كان يتصورنى ـ يوم القبض علينا معا فى شقتى ـ من عائلة الفنانة رشا الخضرى فاذا بى من عائلة الست بتعـة فيـا للتوافق العجيب وأهـلا بى وســهلا · فلم يعجبنى منظر خدوده المتوردة ولا غلظة احساسه ، فقلت له اننى كنت مسافرا الى البلد فلما عدت ذهبت لزيارة صديقى طارق فعلمت ان الست بتعة قد قبضت عليهـا مباحث أمن الدولة فهل لديه أخبار تصحح هذه الأخبار المزعجة ؟ · فقال فيما يشبه الجملة الاعتراضية : « ولكن هل حضرتك من أقارب الست بتعة ؟ »·

قلت : « لا فى الواقع ، ولا من أقارب رشا الخضرى ، لكننى تعرفت على الست بتعة مؤخرا بواسطة زميل الدراسة طارق مرزوق » · فقال وهو يشعل سيجارة أجنبية : « اذا كان يهمك أمرها فاننى قرأت اسمها بالفعل فى كشوف المقبوض عليهم مؤخرا ·· وكنت أخشى أن يكون ذلك بسببى ·· لكننى تحريت فعلمت أن فى الأمر قضايا أخرى كثيرة تتعلق باتصالاتها بشخصيات كبيرة ضخمة ·· وهى مسائل غامضة لم تتضح الى الآن ، ولا أظن انها ستتضح بسهولة ·· وربنا يستر علينا جميعا » ··

ثم دخلت الملكة الفرعونية النوبية حاملة صينيـــة القهوة كأننى فى حضرة الزعيم سعد زغلول · شربت القهوة كأننى ألتهم

الست وسيلة مذابة فيها • وجلست هي قبالتي مدارية ركبتها بطرف الفستان كفتاة خجولة ما تزال • كان في عينيها حزن عميق جدا تكشفته شيئا فشيئا • وكانت تغيب في شرود ويرتسم على صفحة وجهها تعبيرات مخيفة ، ثم اذا بها تهدر قائلة : « آه لو كنت أعرف أين هي الآن ست بتعة •• لكان اتصالي بها أمرا ميسورا •• ولو اتصلت بها لعرفت حقيقة السبب • واذا عرفت فلابد أن أقف معها حتى تنجو من الكارثة بعون الله •• لكن آه لو أعرف •• مصيبتنا جميعا اننا لا نعرف كثيرا من الأشياء ، ولو عرفناها فربما انقلب كل شيء رأسا على عقب » ••

وقال سيف وهو يشرب القهوة في شيء قريب من الانـذار الضاحك : « بلاش الكلام ده يا وسيلة •• خليكي عاقله شويه » •

فبدأ على الملكة ما يشبه التوتر والخوف من شيء غامض ، وصارت تلوح بيدها حول رأسها في استفهام مبهم ، وسيف يترجم حركتها قائلا : « أنا معاكي أنا قلت المسألة غامضة •• ومسيرنا نعرف •• احنا يعني حنسيبها لوحدها ؟ » • ونطق صوت في داخلي : « وفيه حد ينسى أبوه السنين دي كلها يا هريدي ؟ فيه حد كان ينسى مراته في المولد في الزحمة ويجيله قلب يقعد من غيرها من غير ما يعرف هي راحت فين عامله أيه ؟ فيه حد يعمل كده الا أنت يا هريدي ؟ •• لكن مين عارف •• يمكن سيف الماوري يصلح غلطة هريدي •• الانسان بتخلقه الثقافة والمعرفة •• وينقيه الفن ويصفيه •• لكن » ••

وجاءني صوت الملكة يقول : « ان عشت يا أخ مأمون فانني سوف أعرف كل شيء عن الست بتعة •• سوف تكون شغلتي الآن هي البحث عن مكانها والاتصال بها وزيارتها بأي ثمن •• وسوف أساعدها بكل ما استطيع اذا ما كان في الأمر محاكمة أو قضاء » • فأحسست أن هذا كلام الملكة ، وانها لن تنقضه أبدا ، ان العظمة

والسلوك العظيم كلاهما ليس ينبع من اطـار المنصب أو المركز أو العلم أو الثقافة الجوفاء ، انما هو سـلوك تحدده الشخصية نفسها بارادتها ، وارادتها هي شخصيتها • وهنـا داخلني الاطمئنـان وأشعلت سيجارة ونهضت ـ أقصد فوجئت بنهوضي واقفا أقول : « طيب •• أستأذن » • فلما فوجئت بأنني قد استأذنت بالفعل داهمني شعور غـريب بأنني ربمـا أكون شخصيتين مختلفتين ، لكنني متأكد من انني مشـطور الشعور ، فحيث جئت للالتحـام بدمي ها أنذا أتجه نحو الباب خارجا وفي داخلي شعور مرتفع بأن دمائي نافرة الى الخـروج خوف الاجتراء على حرمة ناس غرباء عني تماما ••

كان ذلك منذ بضعة أسابيع • وعدت من العاصمة ضائقـا لأحضر فرح « جميل » وأبقى بالبلدة أياما • وكنت ألوم كثيرا من أقاربي مثل جميل وأخوته وغيرهم على كونهم لا يسألون عني ولا يهتمون بوجودي في البلدة ، لكنني في لحظة الوصول الى الغضب منهم تذكرت انني شهدت عقد زواج خالي سيف وعزمته في شقتي وقبض علينـا معا والتقينا كثيرا ولم أشـأ أن اكشف له عن صلة القربى بيني وبينه •• فأتمزق من شعوري بالوضاعة ، وأزداد اشفاقا على الناس أجمعين ، فكل الدماء مسمومة على ما يبدو ••

لكن آه لو تدري ما طرأ على الآن وجعلني أحس بالحاجـة العاطفية لأن يكون معي رجلا كسيف الماوردي • انني مصـمم على المضي في طريق ربما كان فيه حتفي ، وأعرف أنه محفوف بالمخاطر لكنني أحب مخاطره وأطلبها لتكشف لي عن سر جوهري ومـدى أصالتـه • هذا دور قد اخترته لنفسي بمحض ارادتي : أن أفتح ملف خالتي بسيمه وأبحث في تاريخها ووثائق حياتها لأصل الى مصدر قتلها وعودتها على هذا النحو الى قريتها • هو دور أعرفه ولن أطلب أحـدا يحارب معي ، انما أنا محتاج فقط الى روافد من المعرفة • وهنـا سـوف أتخلى لأول مرة عن ذاتي وعن ارادتها

الشخصية ، سأنهار وأعترف بانتمائى لسيف لا لشىء الا لكى أحصل منه أو عن طريقه على بعض الحقائق ، أليس زوجها ؟ إنه فى حقيقة الأمر أول طرف يجب أن يكون مسئولا ومعينا فى هذه القضية ٠

٣

٠٠ وانتفض « مأمون » قاعدا فى حوض الساقية وهو يشعر بالنشاط المفاجىء والرغبة فى الوجود ٠ أما أنا فقد أخذت أحمحم حوله معبرا عن شعورى بأصالة العلاقة بيننا ٠ فها هو ذا « مأمون» يكشف أن صلته بى قديمة وأنه سبق أن رآنى على الأقل مرة فى صحبة سيدتى ٠ وليست صلته بى وحدها هى القديمة ، بل ان صلته بالموضوع كله أقدم ، بل وأكثر أصالة بطبيعة الحال ٠ ولكن هل يكفى أن يكون المرء طرفا أصيلا فى القضية لكى تقام القضية ؟ ٠ لا بالقطع ٠ لأن تفاصيل الجريمة فى قضية مأمون هى تفاصيله هو نفسه التى تمزقت من قبل أن يولد وألقى بكل منها فى سلة مهملات بعيدة ٠ هكذا أصبحت أفهم « مأمون » ولكن فهمى له يشكل مأساة خاصة بالنسبة لى فوق مأساته هو الشخصية ٠ فمأساة مأمون هى كيفية تعرفه على أشلائه المبعثرة فى وادى بنى الأزرق ٠ أما مأساتى أنا فهى أنى ككلب أمين وفى على أن أساعده فى التعرف على أشلائه ومعالم حقوقه التى أعرفها ٠ أليس فيه بعض ما فى ؟ أليست مأساته تشبه بعض مأساتى ؟ أنا نفسى لا أذكر من طفولتى كلها سوى مشهد أمى وهى تهرع صارخة مشجوجة الرأس بنبوت عدوانى همجى حقير بدون أى ذنب جنته ثم تهوى فى المستنقع النتن بين أعشاب الحلفاء ٠ أنا الآخر رأيت أشلائى وهى تتمزق بالفعل وتنحدر الى مستنقع الجيف ٠٠ هو كذلك قدر له أن يرى أشلاءه وهى منحدرة بالفعل كذلك فى مستنقع الجيف ٠٠

واذا كان قد قدر على أن أجيء الى هذا الوجـود كلبا مفتت الذاكرة لا يملك الحق أو القدرة على موهبة التعبير ، فانني وفاء لكلبيتي فقط وليس لأى ادعاءات أخـرى ، سوف أحاول مسـاعدة مأمون بقدر الامكان على التعرف على تاريخه المجهول ..

لكنني فجأة وجدت الدنيا قد انقلبت . صحيح ان فرق الهجوم الفركشي لم تكن ظاهـرة لنـا ، الا ان وفودا كبيرة من الأفندية والضباط قد زحفوا نحونا يتحدثون في لغط مرتفع . رفعت رأسي فوق الساقية فعرفت ان « مأمون » قد خدعني ، اذ وضعني في قلب المنطقة المحظورة وادعى اننا خارجها . نهض « مأمون » واقفا يعدل نفسه ويبتسم قائلا : « أهلا وسهـلا » ، ثم معتـــذرا : « لمؤاخذه راحت على نومه » . ونظر له ضابط الشرطة في ريبـة واستنكار ، وسكت على مضض ، اذ أن أفنديا شابا متحذلقـــا يرتدى بذلة كاملة تقدم نحو « مأمون » مسلما : « أهلا أستاذ مأمون » ، ثم نظر الى الوفد الذى معه : « مأمون عكاشه طالب جامعي من خيرة شباب البلد .. هو اللى ساعدني في مصـــادر الدكتوراه بتاعتي .. أهلا يا أستاذ مأمون بتعمل أيه هنا ؟ » .

قال مأمون : « أبدا يا دكتور على .. الواقع أنا في ظروف مش كويسه ومشيت أنفس عن نفسي من كتر الهم » . قال ضابط الشرطة في لهجة ذات معنى : « وما لقتش مكان تتنفس فيه غير هنا .. اشمعني هنا يعني ؟ » . دهش مأمون ، وقال الدكتور على : « معلهش يا حضرة الضـابط .. مأمون أخ مش بتـاع كده ولا كده .. ولد شريف وبيحب بلده .. بس لازم ميعرفش ان المنطقة عليها ظروف استثنائية وممنوع تواجد المدنيين فيها » . أسرع مأمون قائلا : « فعلا والله يا دكتور .. ولو حضرة الضابط عرف ظروفي يمكن يقدرها .. الواقع أنا تايه مش دارى بأى حاجة .. اعذروني .. جثة خالتي وصلت من يومين ثلاثة وحيدفنوها في مقابر الصدقة .. وأنا الوحيد من عائلتها أريد أن أستلم جثتها وأفتح

محضر ولا أجد أحدا يتعاون معى ٠٠ يقول لى ماذا أفعل » ٠ وهنا خف بعض الجفاف على الوجوه ، وقال الضابط مدافعا عن نفسه فى لهجة تأنيب متذاكية : « طب وايش عرفك بقى يا خويا ان المحضر حيقيد ضد مجهول ؟ » ٠٠

وهنا ارتفعت موجة الحركة مصحوبة برعب وخوف وتذلل ، حيث ان موكب عبد الجبار نفسه قد اقتحمهم ومعه الخبراء والمهندسون يشرحون له خواص المنطقة ويشرح لهم مميزاتها ٠ وكانت يد عبد الجبار تشير الى وجود الساقية كاحدى المعالم المطلوب ازالتها ، حين برز له وجه مأمون مباشرة ، لحظتها تعلقت نظرته بمأمون لبرهة طويلة وكاد يبتسم له كأنه تعرف عليه ، لكنه اعتقل ابتسامته وتجاهله ٠ وتقدم ضابط أكبر صائحا : « فيه أيه ؟ أيه الجدع ده ؟ ٠ بتشتغل أيه يا أخ ؟ بيعمل أيه هنا ده ؟ » ٠ وهنا توقف الموكب فى قليل من الخوف والتشكك ، فقال الضابط الكبير : « اتفضلوا انتوا سعادتكم » ٠ فقال عبد الجبار مبتسما : « مش مهم بس فيه أيه ؟ » ٠ قال الدكتور على ناظرا الى مأمون كأنه يقدم له أكبر خدمة فى حياته : « الموضوع وما فيه يا أفندم ٠٠ مفيش حاجة ٠٠ حصل لبس صغير ٠٠ الأستاذ مأمون طالب فى كلية الآداب وأديب ومتطور ومثقف » ٠ قال عبد الجبار بشيء يشبه الخوف مع التقدير المزيف : « طالب فى الجامعة ؟ » ٠ قال الدكتور على : « أيوه بس هو فى ظرف قاسى » ٠ قال عبد الجبار وقد أستعد لشيء شهم : « خير يا مأمون يا ابنى ٠٠ قول ما يهمكش ٠٠ انت بلدياتى ٠٠ يعنى أخويا الصغير ٠٠ أنا تحت أمرك فى كل اللى انت عايزه » ٠

قال مأمون وهو على وشك البكاء : « لا يا أفندم العفو أنا مش عايز أى حاجة » ٠ قال عبد الجبار فى اهتمام : « أمال أيه الحكاية ؟ » ٠ قال الدكتور على : « من يومين تلاته يا أفندم ٠٠ جثة خالته وصلت البلد بشكل غريب ٠٠ وفى ظروف أغرب ٠٠

والبلد كلها عارفه ·· وهو الوحيد من أهلها وعايز يستلمها ·· وخايف أحسن خلاص حيدفنوها فى مدافن الصدقة ·· فمش عارف يعمل أيه أو يتصل بمين ·· فانذهل ·· فضل ماشى من امبارح ·· لحد ما تعب نام هنا · وماكانش يعرف ان فيه زيارة ولا أى حاجة ·· هو كان ماشى فى الليل تايه ·· حتى ميعرفش دخل هنا ازاى ·· ده صاحبى وأنا عارفه كويس قوى ·· شخص شريف وصافى » ··

وأوشك الدكتور على أن يبكى من فرط التأثر ، أقصد من فرط مهارته فى تمثيل التأثر · وصار الضابط الكبير يركز بصره فى مأمون ويهم بانهاء الموقف ، لكن عبد الجبار قال له متأثرا :

ــ « لحظة من فضلك ·· الجثة دى ·· اعتبروها قطعة منى أنا ·· أرجوكم ·· عاملوها كانكم بتعاملونى أنا شخصيا ·· المرحومة دى ست طيبة من دون شك ·· تعرفوا ليه مع انى لسه ما أعرفش هى مين ولا اسمها ايه ؟ ·· لأن ربنا أراد يسترها فى مرواحها ·· ألهم الشاب اللطيف ده انه يمشى عشان يقابلنى ·· أنا يا مأمون يا ابنى ·· تقديرا لظروفك ·· حاعفيك من أى متاعب » ··

وهنا نظر الضابط الكبير الى ضابط صغير فامتطى سيارة نصف نقل وانطلق يجرى بها نحو البلدة · ثم ان عبد الجبار نظر فى شخص خلفه ، فتراجع ثم انفصل وامتطى سيارة انطلق بها خلف السيارة النصف نقل · ثم نظر عبد الجبار فى مأمون :

ــ « كن مطمئنا غاية الاطمئنان ·· من هذه اللحظة سوف يبدأ رجال فى بناء مقبرة فخيمة تليق بالمرحومة خالتك ·· يشيع جثمانها من مسجدى فى البلدة ، ويقام عليها العزاء فى أفخم سرادق بجوار المسجد ، حيث يقرأ القرآن مشاهير القراء ·· أليس هذا ما يرضيك يا مأمون ؟ ·· اذهب انت الآن وشاركهم فى أى

شيء تراه أو فاجلس فى السرادق لاستقبال المعزين ·· لعلك فى الجامعة سمعت عنى أقوالا ما انزل الله بها من سلطان ، وربما كنت فى احدى الجماعات أو الجمعيات أو المنظمات وحينئذ يكون تراثك حافلا بالاكاذيب عنى ·· أعرف هذا ·· لكننى يا ولدى لست سفاحا ولست لصا ولا تاجرا ·· أنا رجل يعمل ليستفيد الآخرون ويفيدون ·· لست أعبد المال ·· انما أعبد بلادى ، وأتمنى لها الازدهار والنماء ·· ولم أرد أحدا طرق بابى ·· لسوف اعتبر ان هذه الكلمة وهذا اللقاء القدرى غير المقصود بيننا جزءا من خطبتى فى هذه المناسبة ·· نعم ليكن ما حدث الآن جزءا من زيارتى لا نفرط فيه ·· هكذا أراد الله وأنا لم أسع الى المنظرة أو الدعاية انما أنا وضعت فجأة أمام محك يفضح حقيقة شخصيتى ·· وأنا أنتهز هذه الفرصة وأقول لكل من يهاجمنى بدوافع سياسية أو بأحقاد طبقية : أنا مستعد لانفاق كل أموالى فى وجوه الخير ·· ان أعمالى كلها تتسم بالقومية والوطنية الخالصة ·· و ·· خالتك هذه الغريبة العائدة يا مأمون ليست تدفن معززة مكرمة فحسب بل انها ستكون سببا فى انشاء مسجد جديد أقيمه فى البلدة على نفقتى بجوار البقعة التى يدفن فيها جثمان خالتك ·· ولنسمه جامع العائدة ، لتكون بذلك قد حققنا مصلحة قومية جماعية ، وفى نفس الوقت يظل المسجد قائما لأجيال طويلة يذكرها بأن كل عائدة الى وطنها شريفة طيبة سوف تجد لنفسها مثل هذا التكريم » ·

ووجد « **مأمون** » نفسه فى دوامة : آلات تصوير تحاصره بين الجميع ، أضواء متوهجة ، قفزات وحركات بهلوانية وناس تكتب وآخرون يحملون الميكرفونات · حاول هو أن يعترض ، فلم يجد للاعتراض سبيلا · حاول أن يشكر سيادته على فعله ويتحفظ على مسألة دفنها هذه ، فمسألة أن يقام حولها مسجد ومقبرة فاخرة وما الى ذلك هذه مسألة غير مقبولة من أساسها اذ أن خالته تكون

بذلك تكون قد دفنت فى مدافن الصـدقة ، أى تكون قد تحققت المأساة بالفعل فما الذى سعى اليه اذن ؟ أكان يسعى لدفنها فى مقابر الصدقة محاطة بكل هذه الفضيحة العالمية ؟ ليته اذن تركها تدفن فى السر .. كان يريد أن يقول ان دفنها فى غـير مدفن أسرتها لن يشفى غليله مدى الحياة ، وأى تفخيم لدفنها ان هـو الا مساومة رخيصة أو مزايدة على جسد ، فكيف وهو الذى لم يقبل دفنها فى مقابر الصدقة يقبل ان تقام على جسدها المزايدات ؟ ..

لكنه لم يجد نفسه فى الدوامة الجارفة . سرعان ما حملته الدوامة الى عربة فاخرة واختفى الموكب خلف ظهره وهو بين مجموعة من الرجال العتاة كالمقبوض عليه معززا مكرما ، حتى أنا سـمحوا لى بالركوب معه لكى يوافق ويكون مبسـوطا . وفى الطريق هم بالصياح عدة مرات قائلا فى تذمر : « أرجـوكم .. أنا مش عايز الجمايل دى .. أنا حـاتصرف انا .. معايه فلوس .. معايا على الاقل دفنها وخرجتهـا وقرآنها .. فارجوكم سـاعدونى بس على استلام الجثة والتصريح بالدفن ومالكوش دعوة » . ولكن أحدا لم يعطه الفرصة فى الكلام أبدا ، وبشكل فكاهى غريب ، فمن قائل بعشم كبير : « ياأخى ما تسكت » ، ومن قائل فى عتاب : « ياأخى خلاص الراجل سجل على نفسه » ، ومن قائل : « مفيهاش حاجة ياخونا » . ومأمون يتابع كل ذلك ويكاد يبتسم من فرط الشعور بالغيظ الدفين . أخيرا استسلم مأمون للقوى الضاغطة واسترخى فى مقعده كأنما ليفكر فى حل للخلاص . وزحفت أنا فوق صدره وتسلقت كتفيـه كأننى أواسيه . فأحسست انه يستريح قليـلا ويضع يده على ظهرى .. فسمعت صوته فى اعماقه يسرى وكان كأنه موجه الى : ..

قال مأمون :

« الجميع .. بلا استثناء .. طول عمـرى احتقرهم .. لم

أكن أحب أن يرونني أبدا فى هذا الموقف .. هم يركبون معى الآن باعتبارهم من أهلى متكلفين بى وبفض احزانى .. هم الذين سيتولون الانفاق على الجنازة من جنيه لألف . هم الذين سيشرعون من غد فى حفر أساس المسجد بجوار المقبرة التى سيقيمونها اليوم على عجل .. وهم الذين سيستفيدون من المقاومة كلها .. انهم أولئك الذين أصبحوا فجأة من رجال عبد الجبار .. لعله وجد فيهم والداناً تحب المكسب ولغير المكسب لا ينحنون .. لعله وجد فيهم أعوانا خلصاء له فأغدق عليهم وأتاح لهم فرص المكسب واسعة .. أما الدكتور على فحدث عنه ولا حرج .. هو الان من جملة الوفد الطليعى الذى يتقدم الموكب لتذليل ما يعترضه من مفآجات مثلى .. لقد أصبح دكتورا وذا عدة مناصب ومهام فى البلدة ويريد امتطاء العمل السياسى لتحقيق طموحات شاهقة .. انه شخص نافع ومفيد جدا لكل من يريد استخدامه .. انه مرشح لأن يكون موضوعا لواحدة من أجمل الروايات التى سأكتبها يوما .. يكفى انه حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة السلحفاة أكبر جامعات بنى الأزرق طرأ فى موضوعين عميقين جدا .. فباعتباره طالبا فى قسم اللغة الازرقية فانه تقدم لنيل درجة الماجستير ببحث فى الغاء كلمة « ليه » . أو لماذا باللغة العربية الفصحى .. وموجز بحثه ان اللغة كائن حى كالجسد يستغنى عن كثير من الحروف والألفاظ والتعابير التى لم يعد لها وجودا فى الحياة المعاصرة وأصبح تقريبا لا محل لها من الاعراب .. اذ ما معنى كلمة ليه ؟ أو لماذا ؟ .. نعم ما معنى ان تقول لماذا ؟ انك حتى لم تعد تقولها لانك لم تعد محتاجا لقولها أصلا ، ليس لانك لن تجد لها جوابا بل لأنها لم تعد متداولة فى القاموس اليومى أصلا .. وقد نوقشت الرسالة فى احتفال .. وحصل بموجبها على درجة جيد جدا .. فما كان منه إلا أن سجل « الدكتوراه » فى موضوع أغرب يعتبر فى نظره ـ أكاديميا ـ استكمالا للبحث السابق .. وكان البحث فى الغاء الجملة الاعتراضية من الأساليب الكتابية المعاصرة ، اذ

أنهـا هى الأخرى دخيلة على الأساليب ، أليس اسمها اعتراضية ؟ نعم انها كاللقمة فى الزور تقطع استرسال الجملة بشرطة قليلـة الذوق مغيظة ، لتقول كلمة أو جملة لا طلعت ولا نزلت ، ثم تعود فتسك بنفس الشرطة ٠٠ ان سماحة اللغة الإزرقية لا تقبل هذا النوع من الدخولات تحت أى سبب ، فهى لغـة تنبو بنفسها دائما عن الهوى ، كما وأن الأسلوب الازرقى بطبيعة تكوينه ضد أى اعتراض بجملة صغرت أو كبرت ٠٠ ونـوقشت الرسالـة أيضـا وحصل بموجبها على درجة الامتياز مع مرتبـــة الشرف الأولى فبالله وسط نماذج كهذه كيف يمكن لمثلى ان يوجد ؟

توقفت السيارة عند مبنى المشرحـة ٠ ونزلـــوا ٠ وكانت الأوراق قد سبقتهم الى التجهيز ٠ وتقدم جماعة وطلبوا أن يذهب مأمون معهم للاطمئنان على المقبرة ٠ فقال مأمون : لا ٠٠ سأبقى هنا لحين خروجها من هذا المكان ٠ ثم ظل يروح ويجىء فى توتر ، ويختفى خلسة فى الشوارع الجانبية ليميل على عربة أجزة ، ويعود خائبا ٠ لحق بهم وهم يخرجون بالجثمان الى السيارة ٠ فاندفع نحوهم بكل قوة وتصدى لحاملى الجثمان قائـلا وقد انتصب فى جسده مارد قوى :

ـ « خلاص ٠٠ لحد هنا انتهت مهمتكم ٠٠ متشكر جدا أنا صاحب اللحم وأنا اللى حالمه واستره ٠٠ كتر خيركم » ٠٠

فاستاءوا جميعا ٠ وربت عليه بعضهم ، ودفعه آخـــرون ، وصاح أحدهم فى استنكار : « شيلوه من هنا ٠٠ دا حـــرام ٠٠ ما تقفش فى طريق ميت » ٠ وأخذ بعضهم يدفعه بشدة ٠ فانتفض كالأسد الذبيح ولطش فى الجميع بيديه صائحا من أعماقه :

ـ « مالكوش دعوه ٠٠ ادونى جثتى ٠٠ هو بالعافية ٠٠ اما برود ٠٠ محدش يعترض طريقى باقول لـــكم ٠٠ يا بوليس ٠٠ يا مخابرات ٠٠ يا عالم ٠٠ أنا مش عايز حد غيرى يدفن لحمى فى

مدافن الصدقة ٠٠ أنا عايش على وش الدنيا ، ولحمى لازم أدفنه فى مدفن أهلى » ٠٠

فوجدوا أنه قد أساء التصرف ، فاندفع بعضهم وحمله عنوة وهو يفلفص ويضربهم برجليه وذراعيه وأنا أنبح من أعماقى وأهبش وأخربش ٠ تقدم أقواهم ولوى ذراعه فاستدار اليه مأمون وضربه بالبونية فى وجهه ، فطوقه الولد الأقوى وظل يضربه بالدماغ فى رأسه وأنفه وبالركبة فى أماكن حساسة حتى فقد مأمون الوعى وتجندل على الأرض ٠فاندفع نحوه من حمله بسرعة الى سيارة جرت به الى المستشفى الأميرى وأنا فى أثرها ٠ وهناك سمعت من الأطباء أنه مصاب بحالة هياج عصبى خطير وأنهم سيحقنونه بمخدر ثم ان حالة قلبه غير مطمئنة ٠٠

ولما توصلت الى سريره فى المستشفى رأيته مريضا بالفعل ٠ ولا أدرى كم يوما مر على بقاء مأمون فى المستشفى ٠ ولكننى بعد وقت طويل فوجئت به ينظر الى فى بشاشة كأنه يرانى لأول مرة ٠ بعد قليل غادرنا المستشفى الى البلدة ولكننا فوجئنا بأن مأمون يجب أن يمر على مركز الشرطة ليدلى بأقوال ، فمكثنا ساعـــات هناك ٠ ثم انطلق مأمون يجرى الى حيث دفنت جثة خالته ، فوجد مكانا فى مدخل البلدة فيما بين المقابر والبلدة ، وكان فى هذه البقعة بقايا بناء كنيسة متهدمة ، كان ثمة من يعمل فى ترميمها ، وعلى مبعدة نحو المقابر ، كانت ثمة مقبرة صغيرة قد أقيمت وامتد حولها سور كبير ، وثمة من يقوم بالبناء فى المسجد المقترح ٠ توقف مأمون عند المقبرة وقرأ الفاتحة فى خشوع وصفاء مشوب بالدموع ، ثم عاد فقرأ بعض آيات كريمات ٠ ثم مشينا ، وعدنا الى مركـــز الشرطة من جديد حيث جلس مأمون مع محقق مدنى لفترة طويلة سرعان ما انضـــم اليه محققون آخرون انهالوا على مأمون بالأسئلة واقتراح الاجوبة كأنه المتهم ٠ وقال المحقق : « ســوف نصل الى الفاعل الحقيقى بأسرع مما تتصور » ٠ فنظر مأمون فى عينيه فرأى ثقة كبيرة فيما يقول ٠

باب القرافة

★ مامون ينقذ القضية من مدافن الصدقة

١

أمضى مأمون فى القرية عدة أيام أخرى مهزولا منبوذا مرذولا ، ولم يجيء ليعزيه أحد ، بل ان جميع أقاربه وأصدقائهم كانوا اذا رأوه حولوا وجوههم الى الأرض تعففا من وجهه أن تقـــع عليه نظراتهم ، حتى جدته معزوزة الطيبة معه دخل عليها الدكان صدفة ليشترى سجائر فصاحت فيه بكل غلظة كأنها لبـــؤة شرســـة « مفيش .. معندناش » ، وحتى جده خليل ، كان مقبلا عليه فى الليل وهو جالس وحده فوق المصطبة يجفف دمعـه فلم يلق عليه السلام ، فدخل وراءه الى القاعة ، فلم يعبأ به أبدا ولم يعـــرض عينيه لعينيه أبدا ، وكان محمر الوجه فى غضب مكبوت أسيف

لا ينطق . فتركه « مأمون » ودخل الى جدته ، فرآها مندمجة فى صلاتها فى تمتمة حماسية غير واضحة ، وكانت تنظر اليه ولكن كأنها لا تراه مطلقا . فتركها ومضى نحو جده مرة أخرى يريد أن يحدثه ، فاذا بجده قد استغرق فى النوم مغطيا وجهه باللحاف . فرجع مأمون الى المصطبة ساهرا طوال الليل ..

وكنت أريد أن أنبهه الى أن الرحيل أمر واجب وضرورى ، وعلاج فورى ، لكننى كنت أراه مشغولا بمسألة مسيطرة عليـــه تماما . كان صوتا فى أعماقه يهدر وأسمعه .. يقول :

ـ « لسوف أنبذكم أنا الآخـر .. ولكن لن أنصرف من هذه البلدة قبل أن أنقل خالتى الى مدافن أهلها .. مزيدا من الاهانة لكم أيها القوم الغامضون القساة .. تنبذوننى ، تعتبروننى مرذولا .. الا اننى رضيت بدفن لحمى فى مقابر الصدقة وعلى نفقة رجل غريب ؟ ولكى يتخذ من جثمانها مناسبة دعائية ؟ أم لأننى تسببت فى ايقاظ جراحكم القديمة ؟ المرجح عندى أيها القوم القساة أنكم تنقمون على فضحـكم .. وهذه نذالة .. حسن .. فاليكم المزيد من الفضائح ان كنتم لا تحبون .. ان ما هو فضائح فى نظركم هو قمة الشرف والرجولة فى نظرى .. سوف أنقل جثمان خالتى الى مقابر أهلها فى مهرجان أقيمه وحدى ، وأقدم فيه العزاء لنفسى بنفسى ، لسوف أكسر القاعدة التى سارت على نهجها دماؤكم منذ أجيال طويلة .. لسوف أثبت ولو لمرة واحدة انها دماء متآلفة ، وأنها يمكن أن تنادى بعضها فتجيب .. ان الدماء الذكية لا ترتبط بأصل الانسان أو طبقته انما يتمثل ذكاؤها فى نبل نفوسها حتى ولو كانت لشخصيات فقيرة عادية .. ان كان نقل جثمانها الى مقبرة أهلها فيه فضيحة ثانية لكم فاعذرونى .. فلست مغرمـا بتعذيبكم ولست ساديا أغرم بتعذيب نفسى .. انما أنا مضطر .. فلو تركتها مدفونة فى مقـابر الصدقة فسوف أجدنى مساقا الى

دفن قضيتها برمتها وراء حاجز العار وستار النسيان ٠٠ وهــذا ما لن يكون » ٠٠

بعدها انغلق الصوت فى صدره تماما وآب الى شخير وشحير ، فأمنت عليه وجلست متيقظا فوق المصطبة اقتصد فى النباح قــدر الامكان ، وأكثر من الحركة والوثب ومعالجة الطوارىء بانقضاض مفاجىء صامت وحمحمة ٠ الى أن أصبح الصباح وفتح مأمون عينيه ثم تمطع ودخل فغسل وجهه وغير ثيابه وبدأ رغم هزاله فى منتهى النضارة والحيوية والشباب ٠ ثم أخذ من الصندوق الكبير قرقوشة مضغها ، ثم أخذ واحدة أخرى وأخرى ومضى يقضم ٠ ثم تذكر فعاد وأخذ ثلاث أخرى ورمى بواحدة تجاهى فنزلت بين فكى ٠ ومضيت أقرقشها وهو يرسل الى بالثانية ثم الثالثة وكانت طرية لدنــة لذيذة ، أليست من قمح بنى الازرق الجميــل ؟ ٠ ثم مضينــا فاخترقنــا القرية القديمة الى القرية الأسمنتية الجديدة ثم وقفنــا بين جمع تحت ظل جدار عرفت أنه مبنى المدرسة الجديدة ٠ وجاءت عربة الاتوبيس التى ركبناها جميعا الى البندر ٠٠



تقع مدينة البندر على ضفاف فرع كبير من النهــر الازرقى العظيم ٠ جميلة محندقة ٠ يسكنها قطب كبير من أقطاب الصوفية ٠ هى على التحديد المدينة التى ضاعت فيها خالته بسيمة في المولد ٠ وأشار لى مأمون الى ميدان الجامع الذى يقام فيه المولد ، والمكان الذى لا تزال تقام فيه السرادقات والسيركات ٠ ثم توجه مأمون الى مبنى كلاسيكى جميــل عرفت لأول وهلة انه المكتبــة التى يعمل بها ٠٠

دخل من فوره على رجــل فى مكتبه منفرد ، فغاب عنده قليلا ثم خرج باسما ، والتقى ببعض الزملاء وانتحى بهم جانبا ٠ وكتب وريقات ودار بها فى عدة حجرات بين عديد من الموظفين يؤشرون

عليهـا ثم اتجه بها الى الصراف فقبض ما أظن انه سلفة شـهرين أو أكثر ..

ثم اننا عدنا الى نفس القرية ثانية فى نفس اليـوم ، حيث قصد « مأمون » الى دار يعرفها ثم اتفق مع رجل يسكنها ودفع له مبلغا معينا ، وقصد الى دار أخرى واتفق مع رجـل فيها ودفع له مبلغا . ثم انه اندفع بعد ذلك الى موقف السيارات فاستقل منهـا واحدة الى البندر من جديد حيث ذهب الى مركز الشرطـة ، وقدم عريضة للنيابة يستصدرها تصريحا له ينقل جثمان خالته الى مقابر أهلها ارضاء لمشاعرهم التى هاجت وهددت بتفاقم الأمر ومن الى ذلك وأن هذا الأمر يظل عارا وسبة فى أنظار الأسر من القرويين . قرأها المأمور ونصحه بعدم قلقلة الموتى ، وبعدم فتح المقابر عليهم مرة أخرى ، وان الأمر لن يتم بسهولة . فأصر مأمون وهدد بفضيحة وبنقل الجثمان عنوة . فتركه المأمور وشأنه : فلما قرأها رجـل النيابة وافق على الطلب منعا للمشاكل وفضا للمنازعات . ووعده « مأمون » أن يتم ذلك فى هدوء ..

ثم عدنا الى القرية فى صبيحة اليوم التالى حيث اتجه «مأمون» مباشرة الى مقابر القرية . خرمنا فيها طويلا حتى وصلنا الى مقبرة عائلتهم فوجدنا الرجل الذى قابلناه من قبل يعمل فى ترميمهـا بالأسمنت والجير والطوب ، ويستعد عمـاله للحفر ، فطمأنه مأمون بأن كل شىء على ما يرام . ثم اندفع خارج المقابر حيث توجه الى مسكن الرجل الثانى وأبلغه ان يأخذ عماله ويذهب لا ستخـراج الجثمان من المقبرة وحمله الى مقبرة العائلة ، ثم انطلق مأمون جريا الى مبنى نقطة الشرطة الخاصة بالقرية حيث قابل المعاون وعرض عليه موافقة النيابة واستصدر منه اذنـا بفتح المقبرة تحت اشراف الشرطة . وخرجنا بصحبة شاويش طويل الشـاربين ..

استسمحه « مأمون » فى الطريق عدة مرات حود خلالها على

ناس وسلم عليهم وتكلم بدون مناسبة لمجرد اعلامهم بما يحـدث ٠ وكانوا جميعا يعجبون كيف تمكن هذا الولد الجرىء من فعل هذا الشىء الجنونى وكيف سمحوا له بذلك وهكذا ٠ ولهذا فقـد كان مأمون يمشى فى زهو كبير كأنه يريد أن يتحدى كل اجهزة التصوير التى سبق أن صورت الحديث ٠ وكان على الشرطى أن يواصل معه السـير الى المقبرة ارضـاء للضمير عـلى الأقل ، وهـو فى الواقع سينصرف اذا ما قبضت يده على الورقة المالية أم ربع جنيه ، التى امسك مأمون عن دفعها له حتى يصل الى هناك ويراه الناس ويعرفوا ان الامر رسمى ٠ مع أول ضربة فأس هرش الشرطى يده وتثاءب وطلب الاتكال على الله ، فعلى مغض اعطاه مأمون الورقة الماليـة مطبقة فى هيئة سلام ٠ ومضى العمال يفحتون ٠

ظهر باب الفسقية ٠ فتقدم الحانوتى وانحنى داخلا يتحسس مكانه ، ثم اذا به يرتد صائحا فى ذعر : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠٠ بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ لا اله الا الله » ٠ ثم وقف بالباب يرتعش من رعدة قوية ، حتى تسمر الجميع حوله ، وتصلب مأمون فى قرفصته وداخ وكاد يقع فى الحفرة ، وقالوا جميعا بعد برهة طويلة جدا : « ايه ٠٠ فيه ايه ؟ » ٠ فقال الحانوتى وهو لا يزال يرتجف : « مفيش جثة هنا ٠٠ الطربة فاضية خالص » ٠ قالوا جميعا : « ازاى ؟ » ٠ قال الحانوتى : « تعالوا شوفوا » ٠ وانتقلت الرجفة الى مأمون وصار ينتفض باكيا حتى وقع بالفعـل فى الحفرة ٠ لكنهم ساندوه فتماسـك واقفا غارقا فى التراب الناعم ، وقد أحس بخنجر ينفذ فى قلبه ، لقد وقع فى خديعة اذن٠ انه لم ير لحظة الدفن ، فهل يكون قد عاش فى وهم ؟ ٠ غير انه كان لا يزال يتشبث بتشككه فى الحانوتى ، فوقف بباب الفسقية يرتجف بـل ينتفض ، ويقول : « بتكلم جـد ؟ » قال الحانوتى ببساطة : « ادخل شوف ٠٠ ادخل متخافش » ٠ أهى مؤامرة عليه ليدخل المقبرة فيهيلون عليـه التراب ؟ ٠ أهو قدر أن يدفن حيـا بجوار جثمان خالته التى تلبسته كأنها لعنة أصابته ؟

وقال الحانوتى : « أرجوك تدخل ·· ادخل شوف » · يدخل ؟ كيف ؟ · ثم انه مال ونظر فى داخل الفسقية · فشجعه الحانوتى بأن يدخل أمامه وغاب فى الفسقية وناداه من الداخـل صائحا : « تعال ·· تعالوا انتوا يا اخوانا شوفوا » ورقبة مأمون تميل شيئا فشيئا وتندفن داخل الفسقية شيئا فشيئا · ورغم أن عينيه ألمتا بكل الفراغ الذى فيها الا أنه تشجع دفعة واحدة ودخل محنى القامة يبحث فى الأرض بيديه فلا يجد أثرا لأى شىء فيها على الاطلاق · فانفجـر يبـــكى بصـــوت عالى ملىء بالنواح والعجز والضغط على الأنيـــاب ··

وقال الحانوتى وهو يدفعه : « لا ·· مش هنا ·· تعال بس » · وأخرجه · ثم وقفوا جميعا يتباحثون فى هدوء ويطلبون من مأمون أن يكف عن اثارة فضيحة حتى يتمكنوا من معرفة السر · وضاقت به دائرتهم ثم تركوا التراب كما هو تمهيدا لابلاغ الشرطة والمعاينة · وبقى العمال جالسين حائرين فى انتظـار أن تجىء الشرطـة وتأخذ أقوالهم ، ومأمون منهار فوق كومة التراب يبـــكى وينتفض فى صمت ··

واذا به بعد برهة طويلة وفى قمة حيرته وانعدام قدرته على التحرك ، يرى رجلا مقبلا نحوه تبين فيه الرجل المكلف ببناء المقبرة ، وكان شاحب الوجه يلمع فى عينيه شىء يشبه الذهول أو الجنون · ثم القى على الجميع نظرة كأنه يخرجهم بها من حيرتهم ولكنها مع ذلك غامضة · وتقدم من مأمون وجلس بجواره ، ثم مال على أذنه وهمس فيها ، وظل يهمس لوقت طويل ، ووجه مأمون يهدأ شيئا فشيئا وأعصابه تنشد ، حتى استطاع أن يقف ويمشى خطوتين ملتقطا أنفاسه · واذا به يشير الى العمال الواقفين قائلا : « خـلاص ياجماعة » وراح يدفع بقدمه التراب : « رجعوا كل حاجة زى ماكانت اللى عمله ربنا هو اللى كان ·· دى حكمته ·· الله أعلم بالغيب » · ثم مضى · وراح العمال يهيلون التراب من جديد كما كان · وعلى

مبعدة منهم كان ثمة عمال آخرين يواصلون البناء فى المسجد لا علاقة لهم بأى شىء آخـر حولهم ، كأن كلا منهم قائما بذاته لم يكتشف الآخر بعد ..

ثم ان مأمون مضى مع الرجل البناء حتى وصلنا الى المقابر وهو صامت لا يقوى على الكلام . حتى اذا وصلا سحبه البناء من ذراعه برفق وميل كتفه ومال معه ونظرا معا على ضوء ولاعة البناء ، فرأينا صندوقا خشبيا مزركشا ملفوفا بالملاءة الخضراء ينام مستريحا فى الفسقية ، مع أن مقبرتهم لم تكن قد استقبلت أحدا قبل سـنوات بعيدة ، وكان مكتوبا على الصندوق بالبوية الملونة : « الله أكبر .. هذه جثة بسيمة أحمد ربيع زوجة هريدى خليل هريدى » . فأمر « مأمون » باغلاق الفسقية والانتهاء من كل شىء على ما يرام .. ودفع كافة النفقات عن طيب خاطر ومضى معتمدا على الله . وكان من فرط الدهشة والانبهار بما حدث يمشى دون أن يرى أحدا . ولو أنه تلفت حواليه قليلا لرأى جده « خليل » يختبىء فى منحدر الحلفاء حتى لا يراه أحد . فلما وقعت عينى فى عينى الجد خليل صـــدفة استرحمنى بنظرة ضارعة ألا أنبح ، فاستجبت لضراعته ومضيت أنا الآخر لا ألوى على شىء ..

★★★

وكنت أظن أن « مأمون » سيتخذ طريقه الى المدينة مباشرة بعد انتهائه من هذه المهمة . لكننى فوجئت به يتجه الى بعض البيوت ويتفق مع بعض الناس . وكان المساء قد أقبـــل حين استأنف « مأمون » جلسته على مصطبة الدار الخارجية ، وبجـــواره جلس الشيخ ابراهيم الكردى والشيخ مصطفى غلوش يتنـــاوبان قراءة القرآن . فجاء على صوتهما بعض الجيران وجلسوا مع مأمون قليلا لكن أحدا لم يقل له : البقية فى حياتك . وكانت جدته تدخل وتخرج بالشاى والماء دون أن تعرف لماذا يقيم مأمون هـــذا الحفل القرآنى الصغير . وهكذا ظل مأمون ساهرا حتى الفجر فذهب وصلى فى المسجد جماعة ، وعاد الى الدار فأيقظ جدته من غفـــوة صباحية

قصيرة · ودخل فأحضر سبتا صغيرا وضع فيه بعض الأرغفة وبعض القراقيش · وظنت جدته ـ كما قد بدا لى ـ أنه يأخذ بعض الزوادة ليسافر بها ، فقالت باسمة انها قد اشتاقت لتوصيله بالزوادة مثل زمان ، فقال انها ستقوم بتوصيله أى نعم ولكن الى مكان قريب ··

ظلت جدته العجوز تمشى بجواره حاملة « السبت » والشمس الحمراء تتكسر أشعتها على الأرض والأعشاب · فلما رأت مأمون يحود الى المقابر توقفت مندهشة وقالت : « ايه يا مأمون ؟ » · فمال على أذنها وصاح مبلغا اياها انه رأى أمه فى المنام زعلانه ، وأنها طلبت أن يزورها هو وجدته بالرحمة · فأقبلت العجوز نحو المقـابر فى ابتسامة بلهاء وصارت تقرأ وتتمتم · ولما توقفت عند مقبرتهم راحت تتفرس فيها بتشكك ، فطمأنها مأمون انه اكراما لأمه قام بترميم المقبرة · فصارت جدته تملس على المقبرة بيدين حنونتين وهى بتسمل وتحوقل بلا توقف · أما هو فقد انتهى من قراءة بعض الآيات وجلس ينادى كل من مر من أمامه ليعطيه رغيفا وبعض قراقيش ··

مكثنا فى المقابل حتى الضحى · ثم عادت الجدة وحدها وسافر مأمون الى البندر حيث مكثنا هناك بضعة أيام حصل مأمون خلالها على اجازته السنوية ، حيث أمضاها كلها فى البندر متنقلا بين مكاتب المحامين المشهورين والمغمورين ، يطرح عليهم قضية شبيهة بقضية خالته بسيمة ويأخذ مشورتهم فيها ، ويشترى كتبا فى القانون يقرأ بعض صفحات منها ويرميها ، ثم يسافر الى عاصمة المحافظة ويحاول أن يخلق لنفسه عملا آخر بين الناس حتى ولو كان جرسونا فى مقهى لبضع أسـابيع ، وقد جرب بالفعـل ولكنه سئم ، فعاد الى قريته من جديد بعد رحلة مضنية عجفاء ليحتفل بذكرى الاربعين لخالته بسيمة ·· وفى الصباح جمع ثيابه وخرج · وكان لابد أن يمر على مشروع المسجد الجديد الذى يقوم العمل فيه : ولقد دهشنا غاية الدهشة ، اذ رأينا أن بعضهم قد استولى على المقبرة اياها وصنع فيها كشكا يبيع بعض البضائع الجاهزة المهربة

من بورسعيد ، وشرائط الكاسيت ، وجهاز لتجريب الشرائط عليه لا يكف عن الصياح · توقف مأمون أمام المقبرة البوتيـــك نصبة الشاى لا يدرى أيبتسم مشجعا أم يبصق متألما · لكنه تقدم ونظر فى مجموعة الشرائط المعروضة للبيع فوجد من بينها شرائط لرشا الحضرى ويوسف الماوردى ·

٢

دخلنا العاصمة الازرقية قبل مدخل المساء ببضع ساعات · كنت من الابتهاج بالعودة الى العاصمة أتراقص وأتباعد عن مأمون لمسافات طويلة ثم أرتد اليه ·· فنحن معشر الكلاب من بنى الازرق تضربنا المدينة قدر ما تضربنا ومع ذلك نبتهج للوهلة الاولى حين نراها بعد غيبة ··

لاحظت أن مأمون يتابع خطواتى بكل دقة وحساسية ، فاطمأن بالى · واذ دخلنا الشارع العمومى المزدحم توقف مأمون ليمارس لعبة المهانة باستيقاف عربة أجرة · لكننى صرت أجرى الى بعيد وأتوقف نابحا فى اتجاهه وحده · وكان يظن اننى أوبخ الجميع بنباحى على هذه الفوضى الهائلة حتى ليبـــاح لكل نذل رخيص ابن ···· أن يمارس تعذيبه للناس واراقة ماء وجوههم وتهديم كراماتهم · فلما رآنى مركزا النبـــاح تجاهه بصوت أعلى تصور أننى أدعوه لمقاطعة أسباب المواصلات اذا كانت على عرجها تكلفه كرامته وتهدد انسانيتـــه · وكان ينادينى قائـــلا : « طب بس ماتزعلش دلوقت ربنا يحلها ونلاقى مواصلة بأى شكل ·· ولا عايز تغدر بى وترجع لوحدك ؟ ·· خلاص بطل ازعاج » · وأنا لا أكف عن النباح تجاهه فى هوهوة بلهاء مبهمة ترتفع ثم تنخفض ثم ترتفع · فتركنى وشأنى فى استسلام حذر ، وانصرف لشأنه ويالها من شئون فى شئون من داخل شئون ·· كان الله فى عونك يا مأمون ، انك داخل شرنقة من الهموم تتوقف فيها على محطات لم تكن تريدها وتركب مواصلات لم تكن تحبها ، ويرمى بك فى بؤرة فتجاهد للخلاص منها

حتى تصل الى المستنقع الذى يليها ·· مأساتك هذه يا مأمون أمامك فانظر اليها بدلا من الاستغراق فيها ، نعم فها أنت ذا قد صرت فى بؤرة مأساتك على وجه الحقيقة ، مأساتك انك ممزق المواصلات : ان رق بك الاحساس أو حدى بك الهوى أو كابدك الشوق الى الوصال فان ذلك مستحيل وأى مستحيل ·· ان بينك وبين نفسك فواصل لا حصر لها ، ابتداء من محو فترات كاملة من تاريخ أهلك وماضيك ، وانتهاء بشوارع صاخبة الضجيج والعنف والاستهتار واللامبالاة ·· فكيف بك يامأمون تريد أن تصل الى لب الحقيقة فى قضية ليس فى حوزتك من أوراقها قصاصة واحدة أو معلومة حقيقية واحدة ·· كيف تحلم بالوصول الى هذا وأنت عاجز عن الوصول الى مكان ثمة يأويك ؟ ·· هذا قد أصبح أمرا محققا ·· فان تلتقى حتى بنفسك مع نفسك هذا محـــال ، انك بالكاد تصير على الدوام مجندا للدفاع عن حياتك ضد مختلف الأخطار الداهمة بلا وعى أو تفاهم أو رحمة ·· أتريد بعد ذلك يامأمون أن توصل بين أشلاء لحم قضيتك لتعيد ضـــمه حتى تدب فيه الحيـــاة من جديد ؟ ·· انك تحلم بالمستحيل ·· ان أشلاء لحم قضيتك موزعة بين مجموعة عصور وأزمنة مختلفة وأمكنة بعينها وناس بعينها ، بدول قامت ثم دالت وأخرى وثبت ثم ضعفت وغيرها اعتلت ثم ضلت ، فكيف تتعرف على ابرتك وسط كل هذا الركام المترب ؟ ·· العجيب العجيب انك غارق فى لحم قضيتك تماما ، بين وثائقه . لكنك لا تعرف ، لأنك مثل دودة صغيرة نشأت من هذا الركام وظلت تسعى بينه عمياء لا تدرى ··

كل هذا كان يتضمنه نباحى أى نعم ، ولكننى كنت أقضذ به أن ينزل مأمون عن فكرة ســيارة الأجرة بل أن يعدل عن كل مشوار فى دمـــاغه ويأتى معى ، يمضى خلفى أنا حيث أقوده الى ما أشاء أن يعرف عنه شيئا · لكن ·· هب ·· تحققت المعجزة وتوقفت سيارة فركبناها ·

اذا بمأمون يقتادني الى المكان الذى أريد أن أقتاده اليه · فى الواقع لم أكن أتوقع منه هذا · كنت أتوقع أن يبحث عن مكان يأويه ليبدأ فى تدبير أموره ، أما أن يتجه من باب الحديد مباشرة الى الحى الذى تسكن فيه الست بتعة فهذا مالم يخطر لى على بال ·· كأنما هو حيه الذى فيه بيته وأهله ·

صرت أجرى أمامه بتؤدة وأنظر خلفى لأتابعه فأجده يتابع السير خلفى · ثم اننى حودت فى حارة فحود ورائى وكان قد شرع يحود فى غيرها تمويها على · فما أن صرت فى مدخل الحارة حتى اندفعت أجرى لاهثا من الفرح منجذبا الى رائحة البيت القديم الذى شهدت بنفسى أيام عزه ، بيت الست بتعه · ثم اننى وقفت على عتبة البيت وصرت أنبح ، ثم استدرت فوجدت مأمون يقف ناظرا الى فاغر الفم من الدهشة والذهول · ثم اذا به يقترب منى وعلى وجهه تعبير منبهر مستضاء بأشياء ومعان لا حصر لها · وبدأ على ملامحه أنه يقول : « حلو الكلام ده ·· شيء مذهل صحيح لكن دى حلاوته ·· بقى انت تعرف البيت ده بالتحديد ؟ ·· هيه ·· يارب ·· مش معقول ·· ده يبقى لغز ·· لو اللمحة اللى طرأت على مخى دلوقت تطلع صحيحة أبقى وقعت فى أكبر لغز فى حياتى ·· أبقى وقعت فى أسطورة الكنز ·· أبقى فى منطق السينما الازرقية وتمثيليات التليفزيون » ··

ثم بقى مسمرا فى مكانه كالمصلوب ، نبحت فيه كأننى أقول : « مالك » · فنظر فى قائلا : « مائة عام من السينما على هذا النحو المعروف وما تقدمه من محتويات مشابهة ، يليها ثلاثون عاما من التليفزيون يقوم بانضاجها ونشرها فى كافة البيوت الأزرقية حتى كفورها وعزبها ، كل هذا لابد أن يقيم واقعا على هذا النحو نفسه فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين الميلادى واوائل الخامس عشر الهجرى ·· لن أستغرب شيئا فى هذا ·· سأصدق أى بادرة وأى لمحة يشى بها الواقع حتى ينقضها واقع جديد ولا أقول

يحتويها ٠٠ ان ما أراه على شاشة السينما عبر شاشة التليفزيون في أي مكان وأرفضه بشدة وأسخر منه مرير السخرية ٠٠ أفاجأ بأنه ليس فقط واقعا في الشارع الأزرقى والحياة الازرقية بل هو واقعي أنا شخصـــيا ؟ ٠٠ انه لشيء عجيب حقا ٠٠ أواقع تنقله تمثيليات وأفلام ميلودرامية سمجة ؟ أم تمثيليات وأفلام ميلودرامية سمجة قد أنشأت ورسخت واقعا ميلودراميا سخيفا سمجا ؟ ٠٠ ليكن ٠٠ لابد أن يكون عقلى مرنا كالواقع ، ميلودراميا كالواقع ، وربما سمجا وسخيفا أيضا كالواقع » ٠٠

ولما رأيت « مأمون » يهم بالمضى سبقته جريا على السلم الذى طالما قفزت عليه ونمت فوق بلاطه وشمشمت فى صفائح زبالته ٠ السلم هو نفسه والرائحة هى نفسها وكل شيء هاهنا لا يزال هو نفسه ، الا رائحة الست بتعة ، ولهذا فعند باب شقتها وقفت أخمش بابه بأظافرى وأعوى . ويعلو صوت بكائى ونواحى على نباحى ٠ ثم ان الذكرى كانت تتسرب الى خياشيمى شيئا فشيئا فيصيبنى الهياج شوقا الى الماضى الجميل ، وأحاول تذكير الذكريات بنفسى ، وبما كنا نفعله من حركات فرحة مرحة على هذه الدرجات فى سنى الازدهار حيث كل يوم فراخ ورومى وبط وماعز فى شقة سيدتى بتعة وزوجها كحكوح ٠٠ لم يكونوا يستخدمون الثلاجة فى مسألة اللحوم هذه . كله صابح بصابح وطازة . ما كان أحلاها من أيام . انها الفترة الوحيدة التى عرفت فيهـــا فى حياتى معنى التعفف لكثرة الفيض ، الآن لا أحد يريد أن يفتح لى ، بل ان كلابا من أجيال جديدة كادت تستغربنى فى الطريق على السلم ، لكننى أخذتهم فى عشرة أونطه واحتويتهم بحركاتى العجوزة وأفهمتهم أن الضيف هـم لا أنا ، ما أذكاهم وأشـقاهم ، ذكاء دود الأزقة ، يسألوننى مظهريا لا يهامى بأن للدار لم يعد فيها خير يستاهل القتال وخسران الود ، صحيح أن جو البيت كله قد أصبح يخلو تماما من رائحة اللحوم والمقليـات والمشويات ، وصفائح الزبالة قد تغير محتواها

وصار أوراقا نظيفة مكورة وعلبا فارغة بدون نكهة ، لكنه لايزال في نظري عامرا بالذكريات الحلوة ، انهم أغبياء سذج ، فما أبحث عنه هو زادي الحقيقي ، هو ذكرياتي هاهنا ، ولحظات الكرم التي عشتها ، حتى ان لم أجدها فان كرمها الباقي بداخلي سوف يقــوم بالواجب ..

نسيت « مأمون » طوال هذه البرهة .. طالما تذكرته بحثت عن رائحته التي تاهت بين روائح حشد من الذكريات .. فوجدته قد واصل صعود السلم نحو شقة صديقه « طارق » وقد وقف في منتصف الدرج يتابعني في تأمل ذاهل وقد غاب من ذهوله عن كل وعي . نبحت في تنبيهه . فنظر الى ، ثم ناداني باشارة فقفزت نحوه وواصل صعوده حتى شقة صديقه طارق . طرق بابها في رقة مرتين ، ثم هبط ثانية عدة درجات ، وانتظر . انفتح الباب وأطلت منه الأم قائلة : « أهلا يابني فينك من زمان » . فقال مأمون : « طــارق موجود ؟ » . قالت : « حظك حلو كان بيلبس ونازل .. كلم ياطارق صاحبك الأستاذ مأمون» . فأخذت أصيح بقوة ابتهاجي كأنني أصيح به قائلا : « ها ــ طارق ياويكا » . وجاء صوت طارق الذي أعرفه جيدا : « مأمون ؟ مش معقول » . فصرت أهوهو . فقــــالت الأم وطارق معا في نفس واحد : « غريبة .. الكلب أهه » . وأضافت الأم : « كلبها القديم .. ياحرام .. ايه اللي رجعك الساعة دي .. حكمتك يارب » . وكان طارق يكمل ارتداء القميص حين خطا متحرجا خارج الباب مصفقا بالسلام على مأمون في نصف ترحيب لكنه عالي النبرة : « ده كلام ؟ .. نسيتنا خالص ؟ » . وجذب مأمون فدخل معه فقفزت خلفه تلقائيا ودخلت . نفس الشـــــقة المطابقة لشقة سيدتي ، ونفس الجو ونفس الناس ..

وقفوا ثلاثتهم ذاهلين حولي : الأم وابنها ومأمون ، وعلى وجوههم نفس التعبير ، نفس الشعور بشيء خارج شارخ قد حدث . قالت الأم مصفقة بكفيها في عجب : « هو كلبها .. حاتوه عنه ؟ .. ياترى

كنت فين وهي غايبه ؟ » . وقال طارق وهو يفكر في عمق شرير : « الكلب ده بقي له حوالى شـهر غايب .. اشـمعنى ميجيش الا النهارده ؟ .. ويبقى أكيد كان معاها يوم بيوم » . ونظر الى مأمون : « انت قابلت الكلب ده فين ؟ » . أحس مأمون أنه وقع في ورطة ، قال بكل اهتمام وبراءة : « انتوا تعرفوا الكلب ده قبل كده ؟ » . قالت الأم في استنكار متراجعة بذقنها : « اييه .. كله الا ده .. دا الكلب ده بالذات عشرة عمر » . وقال طارق في شقاوة خطيرة : « تعرفه انت كمـان يا مأمون ؟ » . قال مأمون : « هو كلب مين بالضبط ؟ » . صاح طارق بشيء من الخشونة : « تعرفه قبـل كده ؟ » قال مأمون في لجاجة أحزنتنى : « الحقيقة هو كلب لطيف قوى .. بصيت في يوم لقيته جنبى في البلد » . صاحت الأم وابنها في اهتمام شديد : « بلدكم ؟ » . قال مأمون : « ايوه » . غابت الأم في شرود طيب ، وشوح طارق بيده حول فمه مرددا : « الله ؟ » ، ثم لمعت في عينيه شقاوة ذكية ، قال : « بس .. بس .. بس .. يبقى هو ولف عليك يوم ماكنت بتيجى عندنا .. حاكم الكلاب دى عشرية قوى .. ومش أى واحد تحبه أو ترمى نفسها عليه .. لا .. اللى تستطيبه بس .. اللى تحب ريحته .. شوف انت بقى اللى راح وراك البلد من غير ما تشعر .. كلب أصيل والله .. شوفى له حاجة ياكلها يامه » . وسحب مأمون الى غرفته قائلا : « دا ياسيدى كلب المرحومة » ..

قال « **مأمون مصعوقا** » مرحومة مين ؟ » ..

قال طارق في تأثر شديد جدا : « ست بتعة » ..

صاح **مأمون** : « ماتت ؟ » ..

ثم كاد يبكي ، فبكى طارق بدلا منه وقال : « نعم .. ماتت في المعتقل .. ماتت المسكينة بالسكتة القلبية » ..

وشهق مأمون قائـلا : « لا حـــول ولا قوة الا بالله .. الله الله يرحمها » ..

فقال طارق وهو يعدل ثيابه : « تصور ·· اتضح انها كانت مسكينة ·· معندهاش أى حاجة ·· كل حاجة كانت متباعة لشركات استثمارية أجنبية ·· رصيدها فى البنك لقوه صفر ·· النهاردة الخبر وصل مع ان جثتها لسه مااندفنتش ·· راح فين ماتعرفش ·· الله أعلم ·· بيقولوا كان عليها حجوزات قديمة ·· وديون قديمة ·· والحكومة صادرت اللى صادرته ·· وهى كمان الله يرحمها كانت ايدها فرطه ، كانت بتصرف من غير حساب ·· كل اللى سابته حاجات بسيطة ما تذكرش بالنسبة لثروتها ·· آنت للمخفى كحكوح ·· بما فيها العربية المرسيدس والشقة ومحل آثار صغير وشقة تانية صغيرة ·· كل ده ورثه كحكوح خلاص » ··

غرق « **مأمون** » فى ذهول · ثم صاح فجأة : « الكلب ده ·· كلب الست بتعة ؟ » · قال طارق مؤكدا : « أى نعم ·· داحنا متربيين سوا هنا » · وراح مأمون ينظر فى ملامحى مدققا لعلنى أكون قد تغيرت فى الطريق بكلب آخر · وكانت الدنيا تدور فى عينيه ، وصوت فى صدره يهدر : « مش ممكن ·· دى معقولة ·· ودى معقولة ·· يكون كلب خالتى بسيمة ·· وكلب الست بتعة ·· دى جايزه ودى جايزه ·· لو كلب الست بتعة يبقى صحيح ولف على وسافر ورايا البلد مرة من غير ما أشعر ·· مع ان ده صعب ·· لكن الأصعب منه أن يكون كلب خالتى بسيمة » ··

ورفع مأمون صوته يسأل : « وأين ستدفن جثة الست بتعة ؟ » · قال طارق : « فى مقبرتها ها هنا ·· لقد كانت المرحومة تقيم المقابر للناس على نفقتها وكان حريا بها أن تبنى لنفسها واحدة ·· كانت المرحومة مشغولة البال دائما بمسألة دفنها وخرجتها ·· وتتحدث عنها كثيرا » ··

وصاح مأمون : « متى ستشيع جنازتها ؟ » ··

صاح طارق بنفس الحماس : « ولكن كيف جاء الكلب هذه

اللحظة بالذات ؟ ألم يكن معك فى البلد ؟ يعنى جاء معك ٠٠ فهل تكون الأقدار قد دفعته الى المجىء ليودع صاحبته الوداع الأخير ؟ ٠٠ ام أن صلة خفية بين الأرواح وبعضها سيان فى الكلاب أو فى البشر وأنها لا تنقطع حتى على البعد ؟ ٠٠ هذا جائز وهذا جائز ٠٠ لكنه لشىء جميل بالفعل أن يتواجد ذكر الست بتعة وتعم الحى رائحتها وسيرتها فيكتمل كل شىء حتى بكلبها الغائب عنها ٠٠ انها لسيدة طيبة بكل تأكيد » ٠ ثم هز كتفيـــه كأنه ليس مقتنعا تماما بما قال ٠٠

ثم ان طارق لبس السترة فصار أفنديا مسمسما محبوك المظهر يدعو للاحترام وقال لمأمون : « تحب أن تحضر الجنازة بالطبع » ٠ قال مأمون : « بكل تأكيد » ٠ ونهض متقدما وراء طارق ٠٠

نزلت أجرى فى المقدمة حتى عتبة الباب ، حيث تركت القيادة لطارق الذى حود بنا فى الحارة الجانبية الخلفية فاذا هى على اتساعها قد سدت من آخرها وتحولت الى سرادق ممتلىء بالكراسى فى صفوف متراصة ، وثمة فراشين يدورون بالقهوة المرفوضة مقدما ، ورجال فى زى محترم يقفون فى المدخل لتلقى العزاء كلما أقبل أحد ، وفقيه يقرأ ٠ تقدم « طارق » ودخل فسلم على الجميع وفعل مأمون مثله ثم جلسا معا فى عمق السرادق صامتين واجمين ٠ فلما اطمأننت ارتددت عائدا الى البيت من جديد أتقافز فى ضيق مزاج ، اذ بدأت رائحة كحكوح تنفذ الى خياشيمى بزخمها المقزز المريب ٠ مع ذلك ما أن لمحته يدخل الشقة حتى قفزت نحوه وداعبته فلم يعبأ بى ، وكان باب الشقة قد انفتح واندفعت منه تلال من السواد الرادح بالصوت الحيانى متفجعا : « يا دهوتى ٠٠ ى ٠٠ ماكانش يومك يااختى ٠٠ ياحبة عينى ٠٠ ى ٠٠ يامؤمنة ومصلية ٠٠ يافاتحة بيوت يتــامى ياست بتعة ٠٠ يا أميرة » ٠ وثمة صبيات وولدان يتباكون ويمسكون المناديل ويرددون عبارات الترحم على الست بتعة ٠ ثم اذا بالضجة ترتفع فجأة الى أعلى درجة ، يعقبها خروج أربع رجال يحملون جسدا

متخشبا ملفوفا بكوفرته خضراء ويمشون به على حذر ، وفى جلال مهيب نزلوا به الدرجات ثم تقدموا الى خشبة النعش فوضعوه فيها وطرحوا على النعش ملاءة كبيرة طوقته وربطوها من جميع الجهات . ثم تقدم الرجال فحملوا النعش ومضوا به . ثم توقفوا عند السرادق برهة حيث تجمع الرجال وأدوا الصلاة على النعش . ثم استأنفوا حمله من جديد ومضوا ، فمضينا خلفهم جميعا فى صفوف متحاذية متخاشعة متزاحمة ..

سرنا على هذا النحو حتى وصلنا الشارع العمومى فاخترقناه وبعد مسيرة طويلة بين مرتفعات جبلية مخيفة أشرفنا على القرافة التى تحفل ببيوت ومدائن وقباب ثمينة . اخترق موكب الجناز هذه المقابر فوصل الى مقبرة أنيقة جدا عبارة عن بيت مدهون بالزيت بالوان اردوازية كابية ، مكون من غرفتين يفصل بينهما حوش كبير ملىء بالأشجار العتيقة . حجرة فيها الأرائك والكراسى وحجرة فيها الدفن. تراجع الجميع كثيرا . وجلسوا متناثرين هنا وهناك . أما كحكوح وصحابه وبعض النساء فقد جلسوا فى الحجرة . وكنت واقفا فى الحوش أرقبهم . وكانت حجرة الدفن قد تجهزت وتم فحت الأرض . كذلك جاء الطربى وأخذ تصريح الدفن . ثم ان الجثة دخلت أمام الجميع الى مثواها الأخير وتم الردم عليها ثم خرج كحكوح وسلم على البعض ، وبدأ الجميع فى الانصراف ، وسمعت طارق يقول لمأمون : « متخافش على ركس حيرجع لوحده » .

لم يبق من الجميع سوى كحكوح وسيدتين وبعض الشبان من حاملى المطاوى والناضورجية الذين أعرف شخصياتهم . ودخل كحكوح الى الحوش واقترب منى وأعاد النظر فى ذاهلا ، ثم هم يرفع رجله ليضربنى بها فى مؤخرتى ، لكنه تراجع وتركنى فى حالى ثم دخل الى حجرة الدفن فتسللت وراءه ، فرأيته يلف حول المقبرة ويتوقف خلفها فى شىء كالتلصص ، ثم يتقرفص ويرفع عن الأرض بلاطتين متجاورتين ، فاذا تحتها فجوة عميقة مظلمة . نظر

خلالها مشعلا ولاعته ، ثم زام ، ودمدم بصوت خفيض مسلوخ يائس : « برضه معنديش ثقة فيكم ياولاد ٠٠٠٠٠٠ لازم أشوف وأتأكد بنفسى » ٠ ثم رفع أربع بلاطات أخرى فاذا تحتها أرض ، فمد اصبعه ونزع بظفره طرف هذه الأرض فاذا هى مربع من الحديد الصلب أخذ شكل الأرض ، ما أن ارتفع حتى ظهر تحته فجوة كمحطات التقوية الكهربائية فى شوارع العاصمة ، ثم اذا بكحكوح يهبط فيها نازل بل ويمشى فى الغيب داخلها ٠ فجئت أنا أتلصص ومددت بوزى برقبتى كلها فى الفجوة الكبيرة فرأيتها سردابا ينتهى بعد أمتار طويلة بشكل فسقية دفن ٠ ورأيت كحكوح يفك عن الجثمان الملاءة الخضراء فاذا هى ليست تضم جثمانا ، بل تضم تابوتا على شكل قامة الجسم البشرى ، رفع غطاءه المستطيل فاذا بطرب الحشيش مرتصة بجوار بعضها فى ترتيب دقيق ٠ صار يعدها فوق السطح طولا وعرضا ثم بالعمق ثم يجمع ويضرب ويطرح ويشرد مفكرا ٠ فيفاجأ برأس مدلاة من الفجوة فينفزع صائحا فى حقد : « امشى داهيه تخرب بيتك ٠٠ انت ايه اللى جابك دلوقت ٠٠ ماتروح فى داهية بعيد عننا ٠ احنا ناقصينك ؟ » فرفعت بوزى عن الفجوة ، واستدرت أهوهو فى فروغ بال خوفا من انفجار شرايين مخى ٠

باب السلطنة

★ من دخل غرزة كحكوح فهو آمن !

فى اليوم التالى مباشرة لم يطق مأمون صبرا · كان قد أمضى الليل كله فى صحبة صديقه « طارق » · وكنت قد لحقت بهما آخر الليل حينما عاد كحكوح الى السرادق لينهى سردقته بربع أخير من القرآن ، بينما يتحاسب مع بعض القائمين بالأمر ، وسلم على الجميع وطيب خاطر الجميع ، وسلم على « طارق » · وأراد أن يحتويه كما كانت المرحومة تحتويه ، فقال له : « رايح فين ؟ » · فنظر طارق الى مأمون قائلا : « معايا واحد صاحبى ضيف عندى » · فزام كحكوح بصوت كظيم هفتان : « هـ ·· م ·· طب اسبقونى على القهوة ·· خلى دى معاك » وغمز طارق بقطعة حشيش صغيرة كبيرة ، طواها طارق فى كفه وجذب مأمون فى شىء من الابتهاج

قائلا : « شوف بقى ٠٠ انت لازم تخرج من الحالة دى ٠٠ تعالى نفرفش بقى بقية الليل ٠٠ انت معزوم على حسابى » ٠٠

لم يعتذر مأمون ، فأسلس قياده لطارق ، الذى مضى به فى نفس الطريق الذى أعرفه ، حيث لا تزال غرزة صاحبى كحكوح قائمة فى مكانها نفسه ٠ سمعت طارق يقول لمأمون ان هذه الغرزة هى الشىء الوحيد الباقى من ممتلكات كحكوح ٠ وكان قد باعه عدة مرات فلا يستطيع المشترى وضع يده أبدا فيلجأ الى عشرات المحاولات الودية والقضائية فلا يفلح لأنه يتوه فى مغارة من الأوراق وتعدد المسئوليات وعدم وضوح الملكية الحقيقية وما الى ذلك من مشاكل يعرفها كحكوح ويسلطها عليهم حتى يفقدوا الأمل فيطلبون التنازل عن الشراء ولو نقصت نقودهم النصف ، والواقع ان نقودهم تنقص كلها اذ تضيع عليهم ولا يعرفون كيفية التصرف معه ٠٠ لكنها الآن ـ الغرزة ـ قد استقرت بين يديه وقام بكل جرأة فأنفق عليها حوالى ثلاثين أو أربعين ألف باكو ٠٠

فانطلقت أجرى تجاهها ٠ فاذا بى اكتشف اننى لم آكن قد جئت الى هذا المكان منذ نقمت على صاحبى الاصلى كحكوح وانتميت الى سيدتى وسيلة ثم الى سيدتى بتعة ٠ فهل حدث كل هذا التغيير فى هذه الفترة البسيطة ؟ ٠ أهى شرعة الشركات الاستثمارية ؟ أم هى قدرة رأس المال الأجنبى ؟ ٠٠

وقال طارق :

ـ « لقد بيعت المنطقة كلها لشركة استثمارية قررت ان تبنيها ناطحات سحاب ٠٠ وتم تسريح أهلها جميعا بالقوة الى أماكن فى منشآت جديدة من تلك التى يسمونها الايواء ٠٠ الا كحكوح ٠٠ لا تدرى هل صدفة أم بتدبير ، حسن حظ أم قوة نفوذ ٠٠ ولكن الجميع سرحوا الا كحكـوح ظل محتفظا بغرزته ٠٠ وهى بالطبع ليست مدونة فى أى أوراق رسمية كغرزة ٠٠ انما هى مجرد ربوة

عالية تأخذ الطابع الأثرى العتيق .. يقول كحكوح متفاخراً انه أقنع الشركة أن تبقى على هذه الربوة كمظهر سياحى ، فالكلورى ، أمال يا سيد .. وهكذا ساق الهبل على الشيطنة ، فكان يقيم شعارا من المشمع والكتان حول كراسيه وترابيزاته ليحجب العملية كلها عن الأنظار بعد أن هدمت المبانى القديمة كلها من حولها ، وبقيت هى فى الهواء الطلق مكشوفة لكل العابرين .. ما رأيك يا مأمون فى أنها تحولت الى شىء ساحر .. حتى الذين يثورون على وجودها ، حتى المنوطين بمهمة ازالتها رسميا بالقوة حين يجسون فيها يرون ان التفريط فيها خطل كبير ، وانها قعدة تمنح الهدوء والسكينة بهواء خرافى رطب .. كحكوح يا مأمون يا أخى ليس وحده النصاب المحتال .. بل ان الشركة الكبرى نفسها نصابة مثله وأكثر احتيالا .. ولكن على من ؟ على كحكوح ؟ ياخى دهده .. لقد نصبت الشركة على الدولة واتضح ان المدينة السكينة المزعومة ـ والتى أخليت من أجلها المنطقة ـ لم تكن سوى مشروع فندق كبير جدا فى قلب العاصمة يتمتع بمزايا عديدة تتيح زوارا بسيارات لا حصر لها . ومجموعة المبانى التى أقيمت حول الفندق السياحى الكبير ان هى الا محلات على طراز معين تخدم الفندق وزواره ، وتؤجرها الشركة للمواطنين الذين يفرض عليهم نوع المحل وبضائعه ونظام البيع فيه ، أى أن الشركة تستأجر لمحلاتها عمالا من الازارقة الغلابة يدفعون ثمن بنائها وهم فى الحق لا يملكون .. كحكوح سيدهم فى هذا المضمار .. كان الفندق يبنى أمام غرزته مباشرة ، فشرع هو الآخر يبنى .. كان مشهدا طريفا جدا يا مأمون .. الفندق بكل هاله وهيلمانه فى جانب .. وكحكوح بربوته العالية فى جانب آخر .. طريقة المبانى سابقة التجهيز سرعان ما رفعت القوام وركبت الجدران .. كحكوح هو الآخر ما أسرع ما أقام مبنى صغير من دور واحد ، وأحاطه بحديقة غناء فعلا .. وضع للربوة مطالع مسفلته فى عدة اتجاهات .. وأنت تجىء من أى ناحية فتصعد على راحتك هكذا وتدخل فاذا بك فى كازينو غارق فى غاية

ناشئة من الأشجار والأزاهير والورود ·· يقوم على تشغيله بضعة ولدان فى غير صخب ولا ضجيج ، اذ هم يقدمون لك البيرة المثلجة والجيلاتى والشاى والقهوة ، وأطباق الاسكالوب والبوفتيك والدجاج المشوى والكباب ·· المكان ذو وضع خاص لا يؤمه العائلات الازرقية ، لكن لا بأس من خواجاية سائحة ولا بأس من شبان أزارقة يصطحبون بعض الفتيات ·· ولذا فلا زحام ، اذ أن الأسعار هنا سياحية فوق السياحية بأضعاف مضاعفة ·· انك تحتجز نفسك ـ وأنت فى قلب العاصمة ـ فى غابة حقيقية تفصلك عن الوجود كله وتوهمك بالتوحد فى الحياة ·· وان دخلت وجلست فانك تجد اعدادا كبيرة من الشبان ذوى المزاج الخاص يتخذون طريقهم عبر سرداب ضيق يقف عليه فتوة حيث ينفذون من باب سحرى الى حيث يختفون تماما ·· من هذا السرداب سندخل يامأمون ·· لا شأن لنا بالكازينو طبعا ·· أم انك تحب الجلوس فيه قليلا ؟ ·· رأيى أن ندخل على الشرب فورا ، الى الغرزة ، فقد خرب دماغى من كثرة البكاء » ·

وهكذا فان طارق ـ اقتادنا الى البناية من الخلف · فتجاوزنا مدخل الكازينو ودخلنا من باب العمال ، الذين تعرفوا على طارق فتركوه · وبينما نحن نسير عبر السرداب الضيق الذى بنى بالقيشانى قال طارق :

ـ « كل من يدخلون هاهنا معروفون لهم بحكم التقادم والخبرة ·· هكذا يسمحون لهم » ·

هذه اذن هى القعدة الداخلية السرية ؟ ·وجدت كأننى دخلت دائرة أنيقة مبنية من الرخام · تتوسطها دائرة رخامية مزروعة بالزهور والورود وبها نافورة ثمة كراسى خيزران وترابيزات رخامية بحوامل حديدية ، ومنصة فى ركن بعيد عليها أكوام وأكوام من حجارة الجوزة والقطع الخشبية ذات المسامير · خلفها أولاد يقومون

بتحصيتها وتعسيلها • ولأننا أصحاب مطرح فقد أهملونا قليلا • أما الذين كانوا يدخلون من الزبائن فكان الولد يلحق بهم فيطلب الـزبون منه قائلا : « نص قرش » ، أو : « قرش » ، أو « ربـع أوقية » • ويجاب طلبه فى الحال • أما ان طلب آقة فما أكثر يأكل من ورائها عيشا فعليه بانتظار المعلم كحكوح فى لحظة مناسبة ••

وجاء الولد بالمعسل وشرع « طارق » يوقع بامضاء الحشيش على الحجارة وبدأنا نشرب ، أقصد أنهما يشربان وأنا أشم الدخان فأبتهج مثلهما • ثم أن القعدة كلها سرعان ما امتلأت عن آخرهـــا بمجموعة من شلل صار من الواضح انهم جميعا يعوفون بعضهم ، وانهم زبـائن دائمون يجتمعون هاهنـا كثيرا فى الهزيع الاخير من الليل • وأربع ولدان بالجوزة يسهرون على السقيا والمجاميع تتبادل التعليقات الساخرة اللاسعة ، والضحكات العالية ترتفع الى عنـان جدران الفندق السيـاحى الكبير الذى يطل مبـاشرة على قعدتهم الصيفية الشتوية الساحرة ذات الأضواء الخافتة والتليفزيون الملون يعرض شرائط الفيديو المتنوعة ••

لم تمض أكثر من ساعة حتى كان مأمون قد عرفهم جميعا عبر التماسى المتبادلة والتعارف السريع ، وعبر طارق والولد الذى يسقى هم نجوم القعدة اللامعين الذين من الواضح أنهم مصدر الانفاق على المجاميع بسخاء ، كانوا هـكذا على الترتيب ابتـــداء من الترابيزة المجاورة لترابيزة طارق ومأمون : ولد أزرقى ابن حرام يعمل مرشدا سياحيا بدون مؤهلات وقد تصيد جماعة من السياح اليهود وجـاء يحشش على حسابهم ويأخذ تموينه •• نجم الترابيزة الثانية رجل شكله شكل بواب وطبعه وحواره ولهجته فى الحديث لا تدل اطلاقا عن هذا النمط ، لكنك تشعر بأهميته حين تعلم انه تاجـر عملة ولديه كشك صغير ولديه حظيرة مواشى حلابة وهو الى ذلك بواب بالفعل فى احدى العمارات الكبيرة التى يضع كشكه على بابها •• نجم الترابيزة الثالثة الولد « توتو » ، يعمل مع أحد أمراء الجزيرة

العربيةْ ، اما ما نوع العمل وتفاصيله فليس من حقك أن تعرفه ، انما لأنك مش غريب فانه شبه وكيل للامير فى البلاد الازرقية يقوم بتخليص خدمات له ومصالح ومهام ، وهو يصرف عن سعة باذخة جدا جدا ٠٠ نجم الترابيزة الرابعة رجل تاجر خردة لديه عمارات سكنية ٠٠ الخ ٠٠

فى طلعة الصبح سأل مأمون : لماذا لم يأت كحكوح كما وعد ؟ ٠ فأخبره طارق بأنه ليس من المهم أن يعود وانه حسنا ما فعل ، أحيانا يحلو له أن ينكد على الساهرين بدون أى سبب الا ارضاء لمزاجه الشيطانى ٠ ثم أشار طارق الى لافتة مكتوبة على رأس السرداب بالبلاط القيشانى الملون ، قرأها مأمون فاذا هى : (من دخل غرزة كحكوح فهو آمن) ٠ فضحك مأمون حتى دمعت عيناه ٠ وقال طارق :

ـ « مع هذه اللافتة الواثقة من نفسها ٠٠ فانه كثيرا ما يصيح : يلا يا أفندى انت وهو أحسن الجو مش كويس ٠٠ الحكومة بتمر ٠٠ فيقول له أحدهم : وهذه اللافتة أين سرها ؟ فيشوح قائلا : واحنا برضه يكون عندنا نظر ٠٠ العجيب انه لا أحد يجرؤ على دخول هذا المكان الا برغبة كحكوح ورضائه » ٠٠

وقال مأمون :

ـ « شىء فى منتهى الجنون ٠٠ مجتمع كحكوح » ٠٠

وكان الأسى قد عاد يغلف وجهه حين شرع ينزل عن الربوة مع صديقه طارق ٠٠

وقال مامون :

ـ « عايزين نشترى الجرايد »

فقال طارق :

ـ « ونفطر فول وطعمية » ..

فقال مامون :

ـ « وآخد بعضى وأسافر » ..

ومضيا معا فى اتجاه المشهد الازرقى .

مأمون لا يطيق الصفحات الأولى فى جرائد بنى الازرق القومية .. لكن طارق يقرأها . واذا به يطبق على الجرنال فى دهشة كبيرة ويصيح جاحظ العينين :

ـ « ايه .. معقولة ؟ .. مش ممكن .. يا نهار اسود ؟ » .

قال مأمون فزعا :

ـ « الحرب قامت ؟ » ..

فعرض عليه الجرنان ذاهلا يشير الى خبر كبير فى الصفحة الأولى حول صورة لسيف الماوردى . انعقد جبين مأمون وتحول الى جمرة ملتهبة بمجرد وقوع بصره على المانشتات الكبيرة التى تقول :

(القبض على سيف الماوردى فى جريمة غامضة) .

(سيف الماوردى متهم بقتل زوجته الفلاحة بسيمة أحمد ربيع) .

(سيف الماوردى ليس اسمه سيف ولا مواردى .. بل اسمه هريدى خليل هريدى) .

(المتهم يدبر للجريمة تدبيرا محكما يكشف عن شخصية مجرم أصيل متأصل) .

ثم ان مأمون لم يشأ قراءة الموضوع . بل طوى الجرنان فى شعور شديد بالتقزز والقرف واليأس . ونهض متوترا يرتعش من

الغضب المكتوم والقهر والذهول والمفاجأة • وودع طارق على عجل• ونظر خلفه فعرفت انه يطلبنى فاندفعت وراءه أجرى ••

أتاح لنا الصباح المبكر سيارة أقلتنا الى شقة سيف الماوردى• وانفتح بابها عن الست وسيلة بوجه ملفوف بالطرحة السوداء ولكنه بارز القوة والتصميم والشجاعة • قالت باسمه فى حزن : « اتفضل » • فدخلنا • وقال مأمون : « منذ متى قبض على خالى سيف ؟ ـ ثم استدرك فى فزع ـ الأستاذ سيف أقصد ؟ » • فثقبته بنظرة ذات معنى كأنها كشفت أحد أسراره الكامنة • ثم جلست قائلة : « منذ بضعة أيام •• ولم أتمكن من الاتصال به •• لكننى سوف أتصل به •• لن تستطيع جدران أو قوة أن تمنعنى عنه » • وقال مأمون فى حذر : « هل علمت شيئا عن زوجته هذه المزعومة ؟ » • قالت وسيلة : « لقد لفقوها له •• نعم لفقوها له» • قال مأمون : « ألم يحك لك شيئا عن زوجة سابقة فى حياته ؟ » • قالت : « لا •• لم يحدثنى عن شىء • وهى قصة من اختراعهم » ••

ثم حط عليهما صمت عميق مؤسف مؤلم ، قطعه مأمون بنشيج حاد • ثم مضى وأبدى الرغبة فى الانصراف • لكنها احتوته فى حضنها وقبلت رأسه • فاستسلم لها • فقالت : « عايز تقول حاجة ؟ أنا حاسة انك عايز تتكلم » • قال مأمون فى ضعف حقيقى: « نعم •• عايز أتكلم •• عايز واحد صديق يحبنى وأحبه عشان أفرغ اللى ف قلبى كله قدامه » • فربتت على ظهره قائلة : « أنا يا حبيبى •• أنا صديقك الوحيد •• خليك معايه •• أنا برضه عايز أتكلم معاك •• اعتبرنى والدتك •• اسمع •• تعالى ننزل سوا •• نتمشى •• نشم هوا •• نتفسح » • فمضى مأمون وراءها كطفلها الصغير • وكان يحس كأنه يمشى بجوار فتاته التى داعبت أحلامه وخياله ، فكان ينتفض من الفرح • وكان السياح يملكون شوارع العاصمة ويحتلون كل أماكنها ومرافقها ، فاختارت وسيلة أن يكون مشيهم بين شعاب الجبل • وكان الجو جميلا حقا والهدوء

سائد . وكان مأمون قد بدأ يحكي لها ـ وبكل صراحة وصفاء ـ عن خالته بسيمة وخاله هريدى .. وهى تستمع اليه بكل دقة ..

وكان من حقى عند هذه اللحظة أن أشعر بغاية الاطمئنان ، ولكننى كنت قد بدأت أشعر من جديد بالحنق والغضب . فمبدئيا ، أو من أن اجتماع مأمون بالست وسيلة هو البداية الصحيحة المبشرة بتجميع خيوط القضية كلها ، وعلى يديهما معا قد تتجمع أشلاء المأساة .. ولكن المؤكد أن ذلك سيستغرق وقتا ربما يطول ويطول . بل وربما أدى تراكم الأسرار فى الصدور الى مزيد من الأسرار كما يحدث دائما فى تاريخ بنى الأزرق بوجه عام ..

وكان بامكانى ـ لو لم أكن كلبا ـ أن أختصر عليهما كل الوقت والجهد وأحكى لهما التفاصيل التى تتجمع بناء عليها خيوط القضية وأشلاء المأساة . لكننى مع الأسف كلب نشأت لا أملك القدرة على القول حتى وان تعلمتها ، ولا اجرؤ على التصريح بشىء حتى وان عرفت الكثير ، ولا على البوح وان أمرت به . فى اعتقادى ان الكثيرين غيرى قد رأوا هذه التفاصيل نفسها ألموا بها وبكل شىء .. فمن كان منكم يعرفها ولا يكشف له عنها فانه يكون كلبا مثلى .. أما أنا فلم أعد قادرا على ممارسة هذه المشاعر الضاربة فى نخاعى ، لم أعد أطيق القدرة على الاختزان . وهذا هو السر فى أن مأمون والست وسيلة أصبحا فى اليوم التالى فلم يجدانى . أشعر انهما سيحسان بكثير من الأسف لفقدى . ولكننى أشعر ان مأمون سيحدثها كثيرا عنى ، وستحدثه كثيرا عنى ، وستتصل الخواطر وتلمع الأفكار .. وستنفتح كل أبواب هذه التغريبة المدهشة على بعضها ، وتصبح مكشوفة لهما وللجميع ان عاجلا أو آجلا . ولكننى من نفس هذه الابواب قد ودعتهم فى الفجر وانطلقت الى حيث يشدنى شوق عارم لمكان ما ورائحة ما . فما ان وصلته حتى تبينت انه تلك الربوة المرتفعة التى لا زلت أذكرها فى طفولتى

يوم انضربت فوقها أمي بالنبوت وهــوت الى قاع المسـتنقع الملئ بالحلفاء • ها أنذا أجرى وأجرى فوق القمة نفسها ثم انداح فى المنحدر هاويا الى قاع المستنقع نفس المستنقع • لست متحققا مما اذا كنت مندفعا باشعاع أمى حيث ذابت هنا ذات عام بعيد ، أم اننى وجدت رائحة المستنقع أقل كثافة من مستنقع الحياة بين بنى الأزرق الملاعيب ، ولدرجة الجذب ؟ •• أغلب الظن انه كذلك •

ختـــام •

(المعادى ـ ١٩٨٠)

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦١٢/١٩٨٥

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٦١٨ ـ ٦

الشطار

هل هذه الرواية سيرة شعبية عربية بشكل عصرى ؟

هل هى ألف ليلة وليلة جديدة كتبها مؤلفها الروائى الكبير خيرى شلبى فى صورة تستلهم روح الليالى القديمة بليالٍ جديدة ؟

هل هى هزلية روائية حديثة ؟

ربما انطبقت على رواية الشطار كل هذه الأوصاف . ولكنها فى النهاية عمل فنى شديد الخطورة والأهمية يضاف إلى منجزات الكاتب الفنية وإلى منجزات الرواية العربية الحديثة .

مطابع الهيئة المصرية

٢١٠ قرشـا